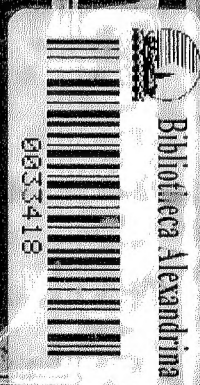


شرح البلغة

ابن أبي عمير

المجلد السادس

كتاب الجنب



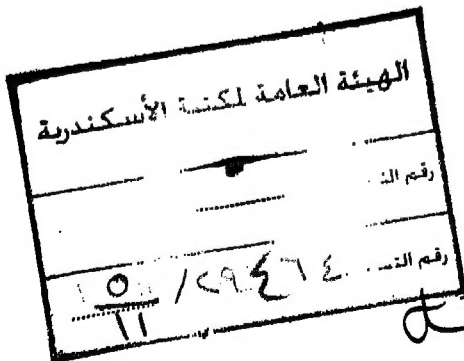
شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الحادي عشر



دار الحديث

بيروت

محقوق الطبع محفظة للناسر

طبعة ثانية

١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٩٦)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

أيها الناس، إنَّما الدنيا دارُ مجازٍ، والآخرةُ دارُ قرارٍ، فخذُوا مِن مَّمرِّكمْ لِمَقَرِّكمْ؛
وَلَا تَهْتَكُوا اسْتَارَكمْ، عِنْدَ مَنْ يَعْلَمُ أَسْرَارَكمْ، وَآخِرِ جُؤَا مِنِ الدُّنْيَا قُلُوبُكمْ مِن
قَبْلِ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَبْدَانُكمْ، فَفِيهَا أُخْتِبرْتُمْ، وَلِغَيْرِهَا خُلِقْتُمْ.
إِنَّ الْمَرْءَ إِذَا هَلَكَ قَالَ النَّاسُ: مَا تَرَكَ! وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: مَا قَدَّمْ! لِلَّهِ آبَاؤُكمْ!
فَقَدَّمُوا بَعْضًا يَكُنْ لَكُمْ، وَلَا تُخْلِفُوا كَلًّا فَيَكُونَ قَرْضًا عَلَيْكمْ.

الشرح :

ذكر أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد في "الكامل" ^(١) عن الأصمعيّ، قال :
خطبنا أعرابي بالبادية، فحمد الله واستغفره، ووحدته وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم؛
فأبلغ في إيجاز، ثم قال: أيها الناس، إنَّ الدنيا دارُ بلاغ، والآخرة دار قرار، فخذوا
لمقرِّكمْ من ممرِّكمْ، وَلَا تَهْتَكُوا اسْتَارَكمْ، عِنْدَ مَنْ لَا تُخْفِي عَلَيْهِ أَسْرَارَكمْ. في الدنيا أنتم،

(١) الكامل ٤ : ١٠٨ (طبعة نهضة مصر).

وغيرها خلقتم. أنول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم، والصلى عليه رسول الله، والمدعوله الخليفة^(١)، والأمير جعفر بن سليمان
وذكر غيره الزيادة التى فى كلام أمير المؤمنين عليه السلام، وهى : « إن المرء إذا هلك ... »، إلى آخر الكلام.

وأكثر الناس على أن هذا الكلام لأمر المؤمنين عليه السلام.
ويجوز أن يكون الأعرابى حفظه فأورده كما يورد الناس كلام غيرهم.

قوله عليه السلام : « دار مجاز »، أى يُجَاز فيها إلى الآخرة، ومنه سمى المجاز فى الكلام مجازاً، لأن المتكلم قد عبّر الحقيقة إلى غيرها، كما يعبر الإنسان من موضع إلى موضع.

ودار القرار : دار الاستقرار الذى لا آخر له.

نخذوا من عمركم، أى من الدنيا. لمقرمكم؟ وهو الآخرة.

قوله عليه السلام : « قال الناس : ماترك ! »، يريد أن بنى آدم مشغولون بالمعاجلة، لا يفكرون فى غيرها، ولا يتساءلون إلا عنها، فإذا هلك أحدكم، فإنما قولهم بعضهم لبعض : ما الذى ترك فلان من المال؟ ما الذى خلف من الولد؟ وأما اللاتسكة فإنهم يعرفون الآخرة، ولا تستهويهم شهوات الدنيا، وإتمام مشغولون بالذكور والتسبيح، فإذا هلك الإنسان، قالوا : ما قدم؟ أى أى شىء قدم من الأعمال؟

ثم أسرم عليه السلام، بأن يقدموا من أموالهم بعضها صدقة، فإنها تبقى لهم، ونهاهم أن يخلفوا أموالهم كلها بعد موتهم، فتكون وهالاً عليهم فى الآخرة.

(١) يريد به أبا جعفر المنصور؛ وقد ولى ابن عمه جعفر بن سليمان بن على بن عبدالله بن المباس المدينة سنة ست وأربعين ومائة.

(١٩٧)

الأضل :

ومن كلام له عليه السلام كان كثيرا ما ينادى به أصحابه :

تَجَهَّزُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ ! فَقَدْ نُوْدِيَ فِيكُمْ بِالرَّحِيلِ ، وَأَقْلَبُوا الْعَرَجَةَ عَلَى الدُّنْيَا ،
وَأَقْلَبُوا بِصَالِحِ مَا يَحْضُرُكُمْ مِنَ الزَّادِ ؛ فَإِنَّ أَمَامَكُمْ عَقَبَةً كَثُودًا ، وَمَنَازِلَ مَخُوفَةً
مَهُولَةً ، لَا بُدَّ مِنَ الْوُرُودِ عَلَيْهَا ، وَالْوُقُوفِ عِنْدَهَا .
وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَلَا حِظَّ الْمَنِيَّةِ نَحْوَكُمْ دَائِبَةٌ ^(١) ، وَكَأَنَّكُمْ بِمَخَالِبِهَا وَقَدْ نَشِبَتْ
فِيكُمْ ، وَقَدْ دَهَمَتْكُمْ مِنْهَا مُفْظِعَاتُ الْأُمُورِ ، وَمُضْلِمَاتُ ^(٢) الْحَذُورِ .
فَقَطِّمُوا عَلاَئِقَ الدُّنْيَا ، وَاسْتَظْهِرُوا بِزَادِ الْقَمْوَى .

وقد مضى شيء من هذا الكلام فيما تقدّم بخالف هذه الرواية .

الشرح :

تَجَهَّزُوا الكذا ، أى تَهَيَّئُوا له .

والعَرَجَةُ : التعرّيج ، وهو الإقامة ، تقول : مالى على ربك عَرَجَةٌ ^(٣) ، أى إقامة ، وعَرَجَ
فلان على المنزل ، إذا حبس عليه مطيَّته .

(١) غطولة النهج : « دانية » .

(٢) غطولة النهج : « المضلات » .

(٣) فى اللسان : « مالى عندك عرجة [مثالة العين مع إسكان الراء] ، ولا عرجة [بفتح الراء] ، ولا
تعرج ، ولا تعرج ، أى مقام ، وقيل : حبس » .

والمقبة الكثود: الشاقة المصعد. ودائية: جادة. والخلب للَسْبُع بمنزلة الظفر للإنسان.
وأفظم الأمر، فهو مفظم، إذا جاوز المقدار شدة.
ومضامات المحذور: الخطوب التي تُضِلُّع، أى تجعل الإنسان ضليعا، أى معوجا،
والماضى ضَلِيع بالكسر يَضَلَع ضَلَعًا.
ومن رواها بالظاء، أراد الخطوب التي تجعل الإنسان ظالما، أى ينمز في مَشْيِهِ لثقلها
عليه، والماضى ظَلَع بالفتح، يظَلَع ظَلَعًا، فهو ظالع.

(١٩٨)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام كلم به طلحة والزبير بعد بيعته بالخلافة ، وقد عتبا عليه ^(١) من ترك مشورتهم والاستعانة في الأمور بهما :

لَقَدْ نَقَمْتُمَا يَسِيرًا ، وَأَرْجَأْتُمَا كَثِيرًا . أَلَا تُخَيِّرَانِي أَى شَيْءٍ كَانَ لَكُمَا فِيهِ حَقٌّ دَقَمْتُكُمَا عَنْهُ أَمْ أَى قَسَمٍ اسْتَأْثَرْتُ عَلَيْهِمَا بِهِ أَوْ أَى حَقٍّ رَفَعَهُ إِلَيَّ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ضَعُفْتُ عَنْهُ ، أَمْ جَهَلْتُهُ ، أَمْ أَخْطَأْتُ بَابَهُ !

وَاللَّهِ مَا كَانَتْ لِي فِي اخِلَافَتِهِ رَغْبَةٌ ، وَلَا فِي أُلُوبَابِهِ إِزْبَةٌ ؛ وَلَكِنَّكُمْ دَعَوْتُمُونِي إِلَيْهَا ، وَحَمَلْتُمُونِي عَلَيْهَا ، فَلَمَّا أَفْضَتْ إِلَيَّ نَظَرْتُ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَمَا وَضَعَ لَنَا ، وَأَمَرَنَا بِالْحُكْمِ بِهِ فَاتَّبَعْتُهُ ، وَمَا اسْتَنْ ^(٢) النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَقْتَدَيْتُهُ . فَلَمْ أُحْتَجْ إِلَى رَأْيِكُمَا ، وَلَا رَأْيٍ غَيْرِكُمَا ، وَلَا وَقَعَ حُكْمٌ جَهْلْتُهُ فَأَسْتَشِيرُكُمَا وَإِخْوَانِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ . وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ لَمْ أَرْغَبْ عَنْكُمَا وَلَا عَنْ غَيْرِكُمَا .

وَأَمَّا مَا ذَكَرْتُمَا مِنْ أَمْرِ الْأُسُوءَةِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ لَمْ أَحْكَمْ أَنَا فِيهِ بِرَأْيِي ، وَلَا وَلِيَّتُهُ هَوَى مَنِّي ، بَلْ وَجَدْتُ أَنَا وَأَنْتُمَا مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ ، فَلَمْ أُحْتَجْ إِلَيْكُمَا فِيمَا قَدْ فَرَعَ اللَّهُ مِنْ قَسَمِهِ ، وَأَمْضَى فِيهِ حُكْمَهُ . فَلَيْسَ لَكُمَا وَاللَّهِ عِنْدِي وَلَا لِمَنْ غَيْرِكُمَا فِي هَذَا عُنْتِي .

أَخَذَ اللَّهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى الْحَقِّ ، وَالْهَمْنَا وَإِيَّاكُمْ الصَّبْرَ !

(١) ساقطة من مخطوطة النهج .

(٢) مخطوطة النهج « استسن » .

ثم قال عليه السلام :

رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا رَأَى حَقًّا فَأَعَانَ عَلَيْهِ ، أَوْ رَأَى جَوْرًا فَرَدَّهُ ، وَكَانَ عَوْنًا بِالْحَقِّ عَلَى صَاحِبِهِ .

البُشْرُحُ :

نَقِمْتُ عَلَيْهِ ، بِالْفَتْحِ أَنْقِمَ ، هَذِهِ اللَّفْظَةُ الْفَصِيحَةُ ، وَجَاءَتْ نَقِمْتُ بِالسَّكْسَرَةِ ، أَنْقَمَ .
وَأَرْجَأْتُمَا : أَخَّرْتُمَا ، أَيْ نَقِمْتُمَا مِنْ أَحْوَالِ الْيَسِيرِ ، وَتَرَكْتُمَا الْكَثِيرَ الَّذِي لَيْسَ لَكُمَا
وَلَا لغيرِكُمَا فِيهِ مَطْعَنٌ ، فَلَمْ تَذْكُرَاهُ ، فَهَلَّا اغْتَفَرْتُمَا الْيَسِيرَ الْكَثِيرَ !
وَلَيْسَ هَذَا اعْتِرَافًا بِأَنْ مَا نَقِمْتُمَا مَوْضِعَ الطَّعْنِ وَالْعَيْبِ ، وَلَكِنَّهُ عَلَى جِهَةِ الْجَدَلِ
وَالِاحْتِجَاجِ ، كَمَا تَقُولُ لِمَنْ يَطْعَنُ فِي بَيْتٍ مِنْ شِعْرِ شَاعِرٍ مَشْهُورٍ : لَقَدْ ظَلَمْتَهُ إِذْ تَتَعَلَّقُ
عَلَيْهِ بِهَذَا الْبَيْتِ ، وَتَنْسِي مَا هُوَ مِنَ الْحَاسِنِ الْكَثِيرَةِ فِي غَيْرِهِ !
ثُمَّ ذَكَرَ وَجْهَ الْعِتَابِ وَالِاسْتِرَادَةَ^(١) ، وَهِيَ أَقْسَامٌ : إِمَّا أَنْ يَكُونَ لَهَا حَقٌّ يَدْفَعُهَا
عَنْهُ ، أَوْ اسْتَأْثَرُ عَلَيْهِمَا فِي قَسَمٍ ، أَوْ ضَعُفَ عَنِ السِّيَاسَةِ ، أَوْ جَهِلَ حُكْمًا مِنْ أَحْكَامِ
الشَّرِيعَةِ ، أَوْ أَخْطَأَ بَابَهُ .

فإن قلت : أَيْ فَرَقَ بَيْنَ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي ؟

قلت : أَمَّا دَفْعُهَا عَنْ حَقِّهَا ، فَتَنْقِمُ عَنْهُ ؛ سَوَاءٌ صَارَ إِلَيْهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْ إِلَى غَيْرِهِ ،
أَوْ لَمْ يَصِرْ إِلَى أَحَدٍ ، بَلْ بَقِيَ بِجَاهِهِ فِي بَيْتِ الْمَالِ .

(١) الْاسْتِرَادَةُ : طَلَبُ الرَّجُوعِ وَاللِّينِ وَالِاتِّقَادِ ، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ : فَاسْتَرَادَ لِأَمْرِ اللَّهِ ، أَيْ رَجَعَ وَلَانَ
وَانْقَادَ . (زَالِاسَان) .

وأما القسم الثاني فهو أن يأخذَ حقَّهما لنفسه ، وبين القسمين فرق ظاهر ، والثاني أخش من الأول .

فإن قلت : فأى فرق بين قوله : « أم جهلته » ، أو « أخطأت بابه » ! قلت : جهل الحكم أن يكون الله تعالى قد حكم بجرمة شيء ، فأحلَّه الإمام أو المفتي ، وكونه يخطئ بابه ؛ هو أن يصيب في الحكم ويخطئ في الاستدلال عليه .

ثم أقسم أنه لم يكن له في الخلافة رغبة ولا إرادة ، بكسر الهمزة ، وهي الحاجة . وصدق عليه السلام ! فهكذا نقل أصحاب التواريخ وأرباب علم السير كلهم ، وروى الطبري في التاريخ ورواه غيره أيضاً أن الناس غشوه وتكاثروا عليه يطلبون مبايعته ، وهو يأبى ذلك ويقول : دعوني والتمسوا غيري ، فإننا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان ، لا تثبت عليه العقول ، ولا تقوم له القلوب . قالوا : نلشدك الله ! ألا ترى الفتنة ! ألا ترى إلى ما حدث في الإسلام ! ألا تخاف الله ! فقال : قد أجبتكم لما أرى منكم ، واعلموا أني إن أجبتكم ركبتُ بكم ما أعلم ، وإن تركتموني فإنما أنا كأحدكم ، بل أنا أجمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم إليه . فقالوا : ما نحن بمفارقيك حتى نبأيعك . قال : إن كان لابد من ذلك ففي المسجد ؛ فإن بيعتي لا تكون خفياً ، ولا تكون إلا عن رضا المسلمين ، وفي ملأ وجماعة . فقام والناس حوله ، فدخل المسجد ، وانثال عليه المسلمون فبايعوه ، وفيهم طلحة والزبير ^(١) .

قلت : قوله : « إن بيعتي لا تكون خفياً ، ولا تكون إلا في المسجد بمحض من جمهور الناس » ، يشابه قوله بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله للعباس لما ساءمه مدَّ يده للبيعة : إني أحبُّ أن أصحِّر بها ^(٢) ، وأكره أن أبايع من وراء رِثاج .

(١) تاريخ الطبري ، ٥ : ١٥٢ (المطبعة الحسينية) مع تصرف .

(٢) أصحَر : من قولهم : أصحَر الأمر وبه ، إذا أظهره .

ثم ذكر عليه السلام أنه لما بُويعَ عَمِلَ بكتاب الله وسنة رسوله ، ولم يحتجْ إلى رأيهما ولا رأى غيرهما ، ولم يقع حُكْمٌ يجهله فيستشيرهما ، ولو وقع ذلك لاستشارهما وغيرهما ، ولم يأنف من ذلك .

ثم تكلم في معنى التَّنْفِيلِ في العطاء ، فقال : إني عملت بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله في ذلك . وصدق عليه السلام ! فإن رسول الله صلى الله عليه وآله سوى في العطاء بين الناس ، وهو مذهب أبي بكر .

والمتنبى : الرضا ، أى لست أرضيكما بارتكاب ما لا يحل لي في الشرع ارتكابه .

والضمير في « صاحبه » ، وهو الهاء المجرورة يرجع إلى الجوز ، أى وكان عوناً بالعمل على صاحب الجوز .

[من أخبار طلحة والزبير]

قد تقدم منا ذكر ما عتب به طلحة والزبير على أمير المؤمنين عليه السلام ، وأنهما قالا : ما نراه يستشيرنا في أمر ، ولا يقاوضنا في رأى ، ويقطع الأمر دوننا ، ويستبد بالحكم عنا ، وكانا يرجوان غير ذلك ، وأراد طلحة أن يوليّه البصرة ، وأراد الزبير أن يوليّه الكوفة ، فلما شاهدا صلابته في الدين ، وقوته في العزم ، وهجره الإدهان والمراقبة ، ورفضه المدالسة والمواربة ، وسلوكه في جميع مسالك منهج الكتاب والسنة ، وقد كانا يعلمان ذلك قديما من طبعه وسجيته ، وكان عمر قال لها ولغيرهما : إن الأجلح^(١) إن وليها ليحملنكم على الحجّة البيضاء والصراط المستقيم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله

(١) الأجلح ، من الجلاح ، وهو ذهاب الشعر من مقدم الرأس ، وكان رضى الله عنه كذلك .

من قبل قال : وإنّ تولّوها عليّاً ، تجدوه هادياً مهديّاً » ، إلّا أنّه ليس الخبرُ كالعيان ، ولا القول كالفعل ، ولا الوعد كالإنجاز . وحالاً عنه ، وتنكّراً له ، ووقفاً فيه ، وعاباً وغمصاًه^(١) ، وتطلّبا له العلل والتأويلات ، وتنقماً عليه الاستبداد وترك المشاورة ، وانتقلاً من ذلك إلى الوقعة فيه بمساواة الناس في قسمة المال ، وأثنيّا على عمرٍ ، وحجداً سيرته ، وصوتاً رأيّه ، وقال : إنّهُ كان يفضّل أهل السوابق ، وضلّلاً عليّاً عليه السلام فيما رآه ، وقال : إنّهُ أخطأ ، وإنّهُ خالف سيرة عمر ، وهى السيرة الحمودة التى لم تفضحها النبوة ، مع قرب عهدنا منها ، وانصالحها بها . واستنجداً عليه بالرؤساء من المسلمين ، كان عمر يفضّلهم وينفّلهم^(٢) فى القسم على غيرهم - والناس أبناء الدنيا ، ويحبّون المال حبّاً جمّاً - فتتكرّرت على أمير المؤمنين عليه السلام بتنكّرهما قلوبٌ كثيرة ، ونفّلت^(٣) عليه نياتٌ كانت من قبل سليمة ، ولقد كان عمر موقفاً حيث منع قريشاً والمهاجرين وذوى السوابق من الخروج من المدينة ، ونهاهم عن مخالطة الناس ، ونهى الناس عن مخالطتهم ، ورأى أنّ ذلك أسّ الفساد فى الأرض ، وأنّ الفتوح والغنائم قد أبطرت المسلمين ، ومتى بَمَدّ الروس والكبراء منهم عن دار الهجرة ، وانفردوا بأنفسهم ، وخالطهم الناس فى البلاد البعيدة لم يأمن أن يحسّنوا لهم الوثوب ، وطلب الإمرة ومفارقة الجماعة ، وحلّ نظام الألفة ، ولكنّه رضى الله عنه نقضَ هذا الرأى السديد بما فعله بمدّ طعن أبى لؤلؤة له من أمر الشورى ، فإنّ ذلك كان سبب كل فتنة وقعت ، وتقع إلى أن تنقضى الدنيا . وقد قدّمنا ذكر ذلك ، وشرحنا ما أدّى إليه أمر الشورى من الفساد بما حصل فى نفس كل من الستّة من ترشيحه للخلافة .

* * *

(١) غمصاه : تهاونا بحقه .

(٢) ينفلهم : يعطيهم النفل .

(٣) نفّلت : فسدت .

وروى أبو جعفر الطبري في تاريخه ، قال : كان عمر قد حجَّ على أعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان إلا يأذن وأجل ، فشكوه ، فبلغه ، فقام فخطب ، فقال : ألا إني قد سننتُ الإسلام سنَّ البعير ، يبدأ فيكون جذعاً ، ثم ثنياً ^(١) ، ثم يكون رباعياً ^(٢) ، ثم سدساً ، ثم بازلاً ^(٣) . ألا فهل يُنتظر بالبازل إلا نقصان الألو وإن الإسلام قد صار بازلاً ، وإن قريشا يريدون أن يتخذوا مال الله معونات على ما في أنفسهم . ألا إن في قريش من يضمر الفرقة ، ويروم خلع الرِّبقة . أمّا وابن الخطاب حتى فلا ، إني قائم دون شعب الحرّة ، آخذ بحلّاقيم قريش وحجّرها أن ينهاتوا في النار .

وقال أبو جعفر الطبري في التاريخ أيضاً : فلما وليّ عمان لم يأخذهم بالذي كان عمر يأخذهم به ، فخرجوا إلى البلاد ، فلما نزلوها ورأوا الدنيا ، ورآهم الناس ، حمل من لم يكن له طول ولا قدّم في الإسلام ، ونُبّه أصحاب السوابق والفضل ، فانقطع إليهم الناس ، وصاروا أوزاعاً معهم ، وأملوهم ، وتقرّبوا إليهم ، وقالوا : يملكون فيكون لنا في ملكهم حظوة ، فكان ذلك أول وهن على الإسلام ، وأول فتنة كانت في العامة .

وروى أبو جعفر الطبري ، عن الشعبي ، قال : لم يمت عمر حتى ملّته قريش ، وقد كان حصّرم بالمدينة ، وسألوه أن يأذن لهم في الخروج إلى البلاد ، فامتنع عليهم ، وقال : إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم في البلاد ، حتى إن الرجل كان يستأذنه في غزو الروم أو الفرس ، وهو ممن حبسه بالمدينة من قريش ، ولا سيما من المهاجرين فيقول له : إن لك في غزوك مع رسول الله صلى الله عليه وآله ما يكفيك ويبلغك ويحسبك ^(٤) ، وهو خير لك من الغزو اليوم ، وإن خيراً لك ألا تهرى الدنيا ولا تراك .

(١) الثني : الذي يلي ثنيته .

(٢) الرباعي : هو الذي أتى رباعيته ، والرباعية : السن التي بين الثانية والثالث .

(٣) البازل : البعير فطر نابه وانشق ، ويكون ذلك في السنة التاسعة .

(٤) يقال : أحسبه إذا أرضاه أو أعطاه ما يرضيه وكفاه .

فلما مات عمر وولى عثمان حلى عنهم فانتشروا في البلاد واضطربوا ، واطاع اليهم الناس وخالطوهم ، فلذلك كان عثمان أحب إلى قريش من عمر .

فقد بان لك حسن رأى عمر في منع المهاجرين وأهل السابقة من قريش من مخالطة الناس والخروج من المدينة ، وبان لك أن عثمان أرحى لهم في الطول ^(١) ، فخالطهم الناس ، وأفسدوهم ، وحببوا إليهم المال والإسرة والرئاسة ، لاسيما مع الثروة العظيمة التي حصلت لهم ، والثراء مفسدة وأي مفسدة ! وحصل الطمعة والزبیر من ذلك ما لم يحصل لغيرها ثروة ويسارا ، وقدماء في الإسلام ، وصار لهما لفيف عظيم من المسلمين يمتنونهما بالخلافة ، ويحسنون لها طلب الإمرة ، لاسيما وقد شجعهما عمر لهما ، وأقامهما مقام نفسه في تحملها ، وأي اسرى متى سها قط نفسه ففارقها حتى يذهب في الأعداء ولا سيما طلحة ، قد كان يحدث بها نفسه وأبو بكر حتى ، وبروم أن يجعلها فيه ، بشبهة أنه ابن عمه ، وسخط خلافة عمر ، وقال لأبي بكر : ما تقول لربك وقد وليت علينا فظنا غليظا ، وكان له في أيام عمر قوم يجلسون إليه ، ويحدثونه سرا في معنى الخلافة ، ويقولون له : لو مات عمر لباعناك بثمن ، جالب الدهر علينا ما جلب أو يبلغ ذلك عمر ، نخطب الناس بالكلام المشهور ، إن قوما يقولون : إن بيعة أبي بكر كانت فلتة ، وإنه لو مات عمر انقلنا وفعلنا ، أما أن بيعة أبي بكر كانت فلتة ، إلا إن الله وثق شرها ، وليس فيكم من تقطع إليه الرقاب كأبي بكر ، فأمر امرئ بايع اسرا من غير مشورة من المسلمين ، فإشهما بذرة أن يقتلا ، فلما صارت إلى عثمان سخطها طلحة بعد أن كان رضيها ، وأظهر ما في نفسه ، وأثب عليه حتى قُتل ، ولم يشك أن الأمر له ، فلما صارت إلى علي عليه السلام ، حدث منه ما حدث ، وآخر الدواء السكت .

وأما الزبیر فلم يكن إلا علوى الراى ، شديد الولاء ، جاريا من الرجل بحرى نفسه .

(١) الطول : المدل ، يريد أنه لأن وزيره لم الجبل على القارب ، حتى حملوا - حملوا .

ويقال : إنه عليه السلام لما استنجد بالمسلمين عقيب يوم السقيفة وما جرى فيه ، وكان يحمل فاطمة عليها السلام ليلا على حمار ، وابناها بين يدي الحمار ، وهو عليه السلام يسوقه فيطرق بيوت الأنصار وغيرهم ، ويسألم النصرة والمعونة ، أجابه أربعون رجلا ، فبايعهم على الموت ، وأمرهم أن يصبحوا بكرة محلقى رؤوسهم ومعهم سلاحهم ، فأصبح لم يوافه منهم إلا أربعة : الزبير ، والمقداد ، وأبوذر ، وسلمان . ثم أتاها من الليل ، فباشدهم ، فقالوا : نصبتك غدوة ؛ فما جاءه منهم إلا أربعة ، وكذلك في الليلة الثالثة ، وكان الزبير أشدهم له نصرة ، وأنفذهم في طاعته بصيرة ، حلق رأسه ، وجاء مرارا وفي عنقه سيفه ، وكذلك الثلاثة الباقون ، إلا أن الزبير هو كان الرأس فيهم . وقد نقل الناس خبر الزبير لما هجم عليه بيت فاطمة عليها السلام ، وكسر سيفه في صخرة ضربت به ، ونقلوا اختصاصه بعلي عليه السلام ، وخلواته به . ولم يزل مواليا له ، متمسكا بحبه ومودته ، حتى نشأ ابنه عبدالله وشب ، فنزع به عرق من الأم ، ومال إلى تلك الجهة وانحرف عن هذه ، ومحبة الوالد للولد معروفة ، فانحرف الزبير لانحرافه ؛ على أنه قد كانت جرت بين علي عليه السلام والزبير هفوات في أيام عمر كدّرت القلوب بعض التكدير ، وكان سببها قصّة موالى صفية ومنازعة علي للزبير في الميراث ، فقضى عمر للزبير ، فأذن علي عليه السلام لقضائه بحكم سلطانه ، لارجوعا عما كان يذهب إليه من حكم الشرع في هذه المسألة وبقيت في نفس الزبير ، على أن شيخنا أبا جعفر الإسكافي رحمه الله ذكر في كتاب "نقض العثمانية" عن الزبير كلاما ، إن صح ، فإنه يدل على انحراف شديد ، ورجوع عن موالاته أمير المؤمنين عليه السلام .

قال : تفاخر علي عليه السلام والزبير ، فقال الزبير : أسلمت بالفا ، وأسلمت طفلا ، وكنت أول من سل سيفا في سبيل الله بحمكة وأنت مستخف في الشعب^(١) ، يكفلك الرجال ،

(١) هو شعب أبي يوسف بمكة ؛ وانظر معجم البلدان ٥ : ٢٧٠

وَيَمُونُكَ الْأَقَارِبُ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ . وَكَانَتْ فَارِسًا ، وَكَانَتْ رَاجِلًا ، وَفِي هَيْئَتِي نَزَلَتْ
الْمَلَائِكَةُ ، وَأَنَا حَوَارِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

قال شيخنا أبو جعفر : وهذا الخبر مفتعل مكذوب ، ولم يجر بين علي والزبير شيء
من هذا الكلام ، وإن كان من وضع العثمانية ، ولم يسمع به في أحاديث الحشوية ، ولا في كتب
أصحاب السيرة .

والعلیّ علیه السلام أن يقول : طفلٌ مسلمٌ خيرٌ من بالغٍ كافرٍ ، وأما سلّ السيفِ
بمكة ، فلم يكن في موضعه ، وفي ذلك قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا
أَيْدِيَكُمْ ... ﴾ (١) الآية ، وأنا على منهاج الرسول في الكف والإقدام ، وليس كفالة الرجال
والأقارب يا الشعب عارًا عليّ ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشعب يكفله
الرجال والأقارب . وأما حُرْبُكَ فَارِسًا ، وحَرْبِي رَاجِلًا ، فهَلَا أَغْنَتْ فَرُوسِيَّتُكَ يَوْمَ عَمْرُو
ابن عبدودٍ في الخندق أو هَلَا أَغْنَتْ فَرُوسِيَّتُكَ يَوْمَ طَلْحَةَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ فِي أَحُدٍ ؟ وَهَلَا أَغْنَتْ
فَرُوسِيَّتُكَ يَوْمَ مَرْحَبٍ بِخَيْبَرَ ؟ مَا كَانَتْ فَرُوسُكَ الَّتِي تَحَارِبُ عَلَيْهَا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ إِلَّا أَذَلَّتْ
مِنَ الْعَنْزِ الْجُرَبَاءَ ، وَمَنْ سَلَّمَتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ أَفْضَلُ مِمَّنْ نَزَلَتْ فِي هَيْئَتِهِ ، وَقَدْ نَزَلَتْ
الْمَلَائِكَةُ فِي صُورَةِ دُخْيَاسَةِ الْكَلْبِيِّ ، أَفِيَجِبُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ دُخْيَاسَةُ أَفْضَلَ مِنِّي ؟
وَأَمَّا كَوْنُكَ حَوَارِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلَوْ عُدِدَتْ خِصَائِي فِي مَقَابِلَةِ هَذِهِ
اللَّفْظَةِ الْوَاحِدَةِ لَكَ ، لَاسْتَفَرَقْتَ الْوَقْتَ ، وَأَفْنَيْتَ الزَّمَانَ ، وَرَبِّ صَمْتٍ أَبْلَغُ مِنْ
نُطْقٍ (٢)

ثم نرجع إلى الحديث الأول ، فنعقول : إن طاحنة والزبير لما أسيا من جهة علي عليه

(١) سورة النساء ٧٧ .

(٢) انظر رسالة العثمانية ٢٢٤ وما بعدها .

السلام ، ومن حصول الدنيا من قبله ، قلباً له ظهر الميكن ، فسكاشفاه وعاتباه قبل المفارقة عتاباً لا ذعاً ، روى شيخنا أبو عثمان قال :

أرسل طلحة والزبير إلى علي عليه السلام قبل خروجهما إلى مكة مع محمد بن طلحة ، وقالوا : لا تغل له : « يا أمير المؤمنين » ، ولكن قل له : « يا أبا الحسن » ، لقد قال فيك رأينا ، وخاب ظننا . أصاحنا لك الأمر ، ووطننا لك الإمرة ، وأجلينا على عثمان حتى قتل ، فلما طلبك الناس لأمرهم ، أسرعنا إليك ، وباعناك ، وقضنا إليك أعناق العرب ، ووطئ المهاجرون والأنصار أعقابنا في بيعتك حتى إذا ملكك عنانك ، استبددت برأيك عنا ، ورفضتنا رفض التريكة ^(١) ، وأذللتنا إذالة ^(٢) الإمام ، وملكك أمرك الأشتر وحكيم بن جبلة وغيرهما من الأعراب ونزاع الأمصار ، فكذلك أبقار جوناك منك ، وأملناك من ناحيتك ، كما قال الأول :

فكنت كمن يبق الذي في سقائه لرقراق آل فوق رابية صلد

فلما جاء محمد بن طلحة ، أبلغه ذلك ، فقال : اذهب إليهما ، فقل لهما : فما الذي يرضيكما ؟ فذهب وجاءه ، فقال : إنهما يقولان : ولأحدنا البصرة والآخر الكوفة ! فقال : لاها الله ! إذن يحلم الأديم ، ويستشري الفساد ، وتنتقض على البلاد من أقطارها ، والله إنني لا آمنهما وهما عندي بالمدينة ، فكيف آمنهما وقد وليتهما المراقين ! اذهب إليهما فقل : أيها الشيخان ، احذرا من سطوة الله ونقمته ، ولا تبغيا للمسلمين غائلة وكيدا ، وقد سمعنا قول الله تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ^(٣) . فقام محمد بن طلحة فأتاهما ، ولم يعد إليهما ، وتأخرا عنه أياما ، ثم جاءاه فاستأذناه في الخروج إلى مكة للعمرة ، فأذن لهما بعد أن أحلفهما

(٢) الإذلة : الإهانة .

(١) التريكة : التي تترك فلا يتزوجها أحد .

(٣) سورة القصص ٨٣ .

ألا ينفضا بيعته ، ولا يفسدرا به ، ولا يشقا عصا المسلمين ، ولا يؤقما الفرقة بينهم ، وأن يعودا بعد العمرة إلى بيوتهما بالمدينة ، خلفا على ذلك كله ثم خرجا ففعلا ما فعلا .

وروى شيخنا أبو عثمان ، قال : لما خرج طلحة والزبير إلى مكة ، وأوهما الناس أنهما خرجا للعمرة ، قال عليّ عليه السلام لأصحابه : والله ما يريدان العمرة ، وإنما يريدان القدرة ﴿ فَمَنْ نَسَكَتْ فَإِنَّمَا يَنْسُكُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَيُؤْثِرْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ^(١) 》 .

وروى الطبري في التاريخ ، قال : لما بايع طلحة والزبير عليّا عليه السلام ، سألاه أن يؤثرا على الكوفة والبصرة ، فقال : بل تكونان عندي أجمع بكما ، فإنني أستوحش لفراقكما .

قال الطبري : وقد كان قال لما قبل بيعتهما له : إن أحببنا أن تبايعاني ، وإن أحببنا مبايعتكما ؛ فقالا : لا ؛ بل نبايعك ؛ ثم قال بعد ذلك : إنما بايعناه خشية على أنفسنا ، وقد عرفنا أنه لم يكن ليبايعنا . ثم ظهرا إلى مكة ، وذلك بعد قتل عثمان بأربعة أشهر .

وروى الطبري أيضا في التاريخ قال : لما بايع الناس عليا ، وتم له الأمر ، قال طلحة للزبير : ما أرى أن لنا من هذا الأمر إلا كحيسة ^(٢) أنف الكلب .

وروى الطبري أيضا في التاريخ ، قال : لما بايع الناس عليا عليه السلام بعد قتل عثمان ، جاء عليّ إلى الزبير ، فاستأذن عليه . قال أبو حبيبة مولى الزبير : فأعلمته به ، فسلّ السيف ، ووضعته تحت فراشه ، وقال : ائذن له ، فأذنت له ، فدخل فسلم على الزبير وهو واقف . ثم خرج ، فقال الزبير : لقد دخل لأمر ماقضاء ، قم مقامه وانظر : هل ترى من

(١) سورة الفتح ١٠

(٢) كذا في تاريخ الطبري ١ : ٣٠٦٩ (طبع أوروبا) ، والكلمة غير واضحة في الأصول .

(٢ - نهج - ١١)

السيف شيئاً ! فقامت في مقامه ، فرأيت دُباب السيف ، فأخبرته وقلت : إن دُباب
السيف ليظهر لمن قام في هذا الموضع ، فقال : ذاك أعجل الرجل

وروى شيخنا أبو عثمان ، قال : كتب مُصعب بن الزبير إلى عبد الملك :
من مُصعب بن الزبير إلى عبد الملك بن مروان : سلام عليك ، فإنني أحمد إليك
الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد :

سَتَعْلَمُ يَا فَتَى الزَّرْقَاءَ أَنِّي سَاهَيْتُكَ عَنْ حِلَائِكَ الْحِجَابِ
وَأَتْرَكَ بِلْدَةً أَصْبَحَتْ فِيهَا تَهْوَرُ مِنْ جَوَانِبِهَا خَرَاباً

أما إن الله على الوفاء بذلك ؛ إلا أن تتراجع أو تتوب ! ولعمري ما أنت كعبد الله بن
الزبير ، ولا مروان كالزبير بن العوام ، حوارى رسول الله صلى الله عليه وآله وابن عمته .
فسلم الأمر إلى أهله ، فإن نجاتك بنفسك أعظم الغنيمتين : والسلام .
فكتب إليه عبد الملك :

من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين ، إلى الذَّلُول الذي أخطأ من مماء المُصعب ؛ سلام
عليك ، فإنني أحمدُ إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد :

أَتُوْعِدُنِي وَلَمْ أَرَ مِثْلَ يَوْمِي خَشَّاشَ الطَّيْرِ يُوْعِدُنِ الْعُقَابَا
مَتَى تَلْقَى الْعُقَابُ خَشَّاشَ طَيْرٍ يَهْتِكُ عَنْ مَقَاتِلِهَا الْحِجَابَا
أَتُوْعِدُ بِالذَّنَابِ أَسْوَدَ غَابٍ وَأَسْدُ الْغَابِ تَلْتَهُمُ الذَّنَابَا

أما ما ذكرت من وفائك ، فلعمري لقد وقى أبوك لتيمة وعدى بقاء قريش وزعافهم ،
حتى إذا صارت الأمور إلى صاحبها عثمان ، الشريف النسب ، الكريم الحسب ، بفاه
العوائل ، وأعد له الحائل ، حتى نال منه حاجته ، ثم دعا الناس إلى عليّ وبايعه ، فلما

دانت له أمور الأمة ، وأجمعت له الكلمة ، وأدركه الحسد القديم لبني عبد مناف ، فنقض عهده ، ونكث بيمينته بعد توأيمدها ، ف«فَكَرُّوْا قَدْرًا ، فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَرٌ» ؛ وتمزقت لحمه الضباع بوادى السباع . ولمعمرى إنك تعلم يا أخا بني عبد العزى بن قصي ؛ أنا بنو عبد مناف لم نزل سادتكم وقادتكم في الجاهلية والإسلام ، ولكن الحسد دعاك إلى ما ذكرت ، ولم تراث ذلك عن كلاله ، بل عن أبيك ، ولا أظن حسدك وحسد أخيك يؤول بكما إلّا إلى ما آل إليه حسد أبيكما من قبل ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ ^(١) ؛ ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ ^(٢) .

وروى أبو عثمان أيضا ، قال : دخل الحسن بن علي عليهما السلام على معاوية ، وعنده عبد الله بن الزبير - وكان معاوية يحب أن يغري بين قريش - فقال : يا أبا محمد ، أيهما كان أكبر سنا ؛ علي أم الزبير ؟ فقال الحسن : ما أقرب ما بينهما ، وعلي أسن من الزبير . أرحم الله عليا ! فقال ابن الزبير رحم الله الزبير - وهناك أبو سعيد بن عقيل بن أبي طالب ، فقال : يا عبد الله ، وما يهيجك من أن يترحم الرجل على أبيه ! قال : وأنا أيضا ترحمت على أبي ! قال : أنظنه نداه وكفوا ؟ قال : وما يعدل به عن ذلك ! كلاهما من قريش ، وكلاهما دعا إلى نفسه ولم يتم له . قال : دع ذاك عنك يا عبد الله ؛ إن عليا من قريش ومن الرسول صلى الله عليه وآله حيث تعلم ، ولما دعا إلى نفسه أتبع فيه ، وكان رأسا ، ودعا الزبير إلى أمر وكان الرأس فيه امرأة ، ولما تراءت الفئتان نكص على عقبيه ، وولى مدبرا قبل أن يظهر الحق فيأخذه ، أو يدحض الباطل فيتركه ، فأدركه رجل لو قيس بيمض أعضاءه لكان أصغر ، ففرضب عنقه ، وأخذ سلكه ، وجاء برأسه ، ومضى على قدما كعادته مع ابن عمه ، رحم الله عليا !

(١) سورة فاطر ٤٣ .

(٢) سورة الشعراء ٢٢٧ .

— ٢٠ —

فقال ابن الزبير : أما لو أن غيرك تكلم بهذا يا أبا سعيد ، لم ! فقال : إن الذي
نمرّض به يرغب عنك . وكفّه معاوية ، فسكتوا .

وأخبرت عائشة بمقاتلتهم ، ومرّ أبو سعيد بفنائها ، فنادته : يا أبا سعيد ، أنت القاتل
لابن أختي كذا ؟ قالت : أبو سعيد ، فلم ير شيئا ، فقال : إن الشيطان يرانا ولا نراه !
فضحكت عائشة ، وقالت : لله أبوك ! ما أذلق لسانك !

(١٩٩)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام وقد سمع قوما من أصحابه يسبون أهل الشام أيام حربهم بصفين :

إِنِّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا سَبَّائِينَ ، وَلَكِنَّكُمْ لَوْ وَصَفْتُمْ أَعْمَالَهُمْ ، وَذَكَّرْتُمْ حَالَهُمْ ، كَانَ أَصُوبَ فِي الْقَوْلِ ، وَأَبْلَغَ فِي الْعُذْرِ ، وَقُلْتُمْ مَكَانَ سَبِّكُمْ إِيَّاهُمْ :

اللَّهُمَّ أَحْقِن دِمَاءَنَا وَدِمَاءَهُمْ ، وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَبَيْنَهُمْ ، وَأَهْدِهِمْ مِنْ ضَلَالَتِهِمْ ، حَقِّ يَعْرِفَ الْحَقَّ مِنْ جَهْلِهِ ، وَبِرَعْوَى عَنِ الْغَىِّ وَالْعُدْوَانِ مَنْ لِهَيْجَ بِهِ !

الشرح :

السب : الشتم ، سبه يسُّبه بالضم ، والتَّسَابُّ : النشائم ، ورجلٌ مِسْبٌ بكسر الميم : كثير السُّباب ، ورجلٌ سُبَّةٌ ، أى يسُّبه الناس ، ورجلٌ سُبِّيَّةٌ ، أى يسبُّ الناس ، ورجلٌ سَبٌّ : كثير السباب ، وسُبُّكَ : الذى يسابُك ، قال :

لَا تَسُبَّنِي فَلَسْتُ بِسَبِّي إِنْ سَبَّيَ مِنَ الرِّجَالِ الْكَرِيمِ^(١)

والذى كرهه عليه السلام منهم ، أنهم كانوا يشتمون أهل الشام ، ولم يكن يسكره منهم لعنهم إياهم ، والبذاتة منهم ، لا كما يتوهمه قومٌ من الحشوية ، فيقولون : لا يجوز

(١) لعبد الرحمن بن حسان ، وانظر الصعاح ١ : ١٤٥ .

لعن أحديهم عليه اسم الإسلام ، وينكرون على من يلعن ، ومنهم من يغالي في ذلك ، فيقول : لا ألعن الكافر ، ولا ألعن إبليس ، وإن الله تعالى لا يقول لأحديهم يوم القيامة : لم تلعن ؟ وإنما يقول : لم كُنت ؟

واعلم أن هذا خلاف نص الكتاب ، لأنه تعالى قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾ ^(١) .

وقال : ﴿ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ ^(٢) .

وقال في إبليس : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ^(٣) .

وقال : ﴿ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا ﴾ ^(٤) .

وفي الكتاب العزيز من ذلك الكثير الواسع .

وكيف يجوز للمسلم أن ينكر التبرؤ ممن يجب التبرؤ منه ! ألم يسمع هؤلاء قول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلْعَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا ﴾ ^(٥) وإنما يجب النظر فيمن قد اشتبهت حاله ؛ فإن كان قد قارف كبيرة من الذنوب يستحق بها اللعن والبراءة ؛ فلا ضير على من يلعنه ويبرأ منه ، وإن لم يكن قد قارف كبيرة لم يجز لعنه ، ولا البراءة منه .

ومما يدل على أن من عليه اسم الإسلام إذا ارتكب الكبيرة يجوز لعنه ، بل يجب في وقت ، قول الله تعالى في قصة اللعان : ﴿ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ

(١) سورة الأحزاب ٦٤

(٢) سورة البقرة ١٥٩

(٣) سورة ص ٧٨

(٤) سورة الأحزاب ٦١

(٥) سورة الممتحنة ٤

لِمَنِ الصَّادِقِينَ * وَأَخْلَامِسَةً أَنْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١﴾ .
وقال تعالى في القاذف : ﴿ إِنْ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ
لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ﴿٢﴾ .
فهاتان الآيتان في المكلفين من أهل القبلة ، والآيات قبلهما في الكافرين والمنافقين ؛
ولهذا قتت أمير المؤمنين عليه السلام على معاوية وجماعة من أصحابه ، ولعنهم في
أدبار الصلوات .

فإن قلت : فما صورة السب الذي نهى أمير المؤمنين عليه السلام عنه ؟
قلت : كانوا يشتُمُونهم بالآباء والأمهات ، ومنهم مَنْ يَطْعَن في نسب قوم منهم ،
ومنهم مَنْ يذكرهم باللؤم ، ومنهم مَنْ يعيّرهم بالجبن والبخل وبأنواع الأهاجي التي
يتهاجى بها الشعراء ، وأساليبها معلومة ، فنهاهم عليه السلام عن ذلك ، وقال : إني أكره
لكم أن تكونوا سبّابين ؛ ولكن الأصوب أن تصفّوا لهم أعمالهم ، وتذكروا حالهم ؛
أي أن تقولوا : إنهم فساق ؛ وإنهم أهل ضلال وباطل .

ثم قال : اجعلوا عِوَضَ سبهم أن تقولوا : اللهم احقنْ دماءنا ودماءهم !
حققت الدم أحقنه ، بالضم : منعت أن يسفك ، أي ألهمهم الإنابة إلى الحق والمدول
عن الباطل ؛ فإن ذلك إذا تمّ حققت دماء الفريقين .

فإن قلت : كيف يجوز أن يدعو الله تعالى بما لا يفعله ؟ أليس من أصولكم أن الله
تعالى لا يضطر المكلف إلى اعتقاد الحق ، وإنما يكله إلى نظره ؟ !
قلت : الأمر وإن كان كذلك ، إلا أنّ المكلفين قد تعبدوا بأن يدعو الله تعالى

(١) سورة النور ٦ ، ٧ .

(٢) سورة النور ٢٣ .

بذلك ، لأنّ في دعائهم إياه بذلك لطفاً لهم ومصالح في أديانهم ؛ كاللجوء بزيادة الرزق وتأخير الأجل .

قوله : « وأصلح ذات بيننا وبينهم » ؛ يعنى أحوالنا وأحوالهم . ولما كانت الأحوال ملابسة للبين قيل لها : « ذات البين » ؛ كما أنه لما كانت الضمائر ملابسة للصدور قيل : « ذات الصدور » ، وكذلك قولهم : اسقنى ذا إنائك لما كان ما فيه من الشراب ملابساً له ، ويقولون للمتبرّز قد وضع ذا بطنه ؛ وللحبلى تضع : ألت ذا بطنها .
وارعوى عن الغنى : رجع وكفّ .

لميج به بالكسر ، يلمج : أغرى به وثابر عليه .

(٢٠٠)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام في بعض أيام صيفين وقد رأى الحسن ابنه عليه السلام يتسرع إلى الحرب :

أُمْلِكُوا عَنِّي هَذَا الْغَلَامَ لَا يَهْدِنِي ؛ فَإِنِّي أَنَفْسُ يَهْدِينِ - بِمَعْنَى الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ عَلَيْهِمَا السَّلَام - يَهْلِي لَمَوْتٍ لَثَلًا يَنْقَطِعُ بِهِمَا نَسْلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .

قَالَ الرَّضِيُّ أَبُو الْحَسَنِ رَحِمَهُ اللَّهُ : قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « أُمْلِكُوا عَنِّي هَذَا الْغَلَامَ » مِنْ أَعْلَى الْكَلَامِ وَأَفْصَحِهِ .

الشرح :

الألف في « أُمْلِكُوا » ألف وصل ، لأن الماضي ثلاثي ، من ملكت الفرس والعبد والدار ، أملك بالكسر ، أى احجروا عليه كما يحجر المالك على مملوكه . وعن ، متملقة بمحذوف تقديره : استولوا عليه وأبعدوه عني . ولما كان الملك سبب الحجر على المملوك عبر بالسبب عن المسبب ، كما عبر بالنكاح عن العقد ، وهو في الحقيقة اسم الوطء ، لما كان المقصد طريقا إلى الوطء ، وسببا له . ووجه علو هذا الكلام وفصاحته أنه لما كان في : « املكوا » معنى البعد ، أعقبه

بمن ، وذلك أنهم لا يملكونه دون أمير المؤمنين عليه السلام إلا وقد أبدوه عنه؛ ألا ترى أنك إذا حجرت على زيد دون عمرو ، فقد باعدت زيدا عن عمرو ! فذلك قال : املكوا عني هذا الغلام ، واستفصح الشارحون قول أبي الطيب :

إذا كان شَمُّ الرُّوحِ أَذْنِي إِلَيْكُمْ فلا برحتني رَوْضَةٌ وَقَبُولٌ ^(١)
قالوا : ولما كان في « فلا برحتني » معنى « فارقتني » عدت اللفظة ، وإن كانت لازمة ، نظرا إلى المعنى ^(١) .

قوله : « لا يهدني » أي لثلاث يهدني ، فحذف كما حذف طرفة في قوله :
* ألا أيهدنا الزاجري أحضر الوغى ^(٢) *
أي لأن أحضر .

وأنفس : أبخل ، نفست عليه بكذا ، بالكسر .
فإن قلت : أيحوز أن يقال للحسن والحسين وولدهما : أبناء رسول الله وولد رسول الله ، وذرية رسول الله ، ونسل رسول الله ؟
قلت : نعم ؛ لأن الله تعالى سَمَّاهُم « أبناء » في قوله تعالى : ﴿ نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ ﴾ ^(٣) ، وإنما عني الحسن والحسين ، ولو أوصى لولد فلان بمال دخل فيه أولاد البنات ، وسمى الله تعالى عيسى ذرية إبراهيم في قوله : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ ^(٤) إلى أن قال : ﴿ وَيَحْيَى وَعِيسَى ﴾ ؛ ولم يختلف أهل اللغة في أن وَلَدَ البنات من نسل الرجل .

(١) ديوانه ٣ : ٩٦ .

(٢) من المعلقة - بشرح التبريزي ٨٠ ، وبقيته :

* وَأَنْ أَشْهَدَ أَلْدَّاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِدِي *

(٣) سورة آل عمران ٦١ .

(٤) سورة الأنعام ٨٤ .

فإن قلت : فما تصنع بقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ ؟ قلت : أسألك عن أبوتيه لإبراهيم بن مارية ؛ فكما تجيب به عن ذلك ؛ فهو جوابي عن الحسن والحسين عليهما السلام .

والجواب الشامل للجميع أنه عني زيد بن حارثة ؛ لأن العرب كانت تقول : « زيد بن محمد » على عادتهم في تبني العبيد ، فأبطل الله تعالى ذلك ، ونهى عن سنة الجاهلية ، وقال : إن محمدا عليه السلام ليس أباً لواحدٍ من الرجال البالغين المعروفين بينكم ليعتزى إليه بالنبوّة ، وذلك لا ينفى كونه أباً لأطفال ، لم تطلق عليهم لقظة الرجال ، كما إبراهيم وحسن وحسين عليهم السلام .

فإن قلت : أتقول إن ابن البنت ابنٌ على الحقيقة الأصلية أم على سبيل المجاز ؟ قلت : لذاذهب أن يذهب إلى أنه حقيقة أصلية ؛ لأن أصل الإطلاق الحقيقة ، وقد يكون اللفظ مشتركاً بين مفهومين وهو في أحدهما أشهر ، ولا يلزم من كونه أشهر في أحدهما ألا يكون حقيقة في الآخر .

ولذاذهب أن يذهب إلى أنه حقيقة عرفية ، وهي التي كثر استعمالها ؛ وهي في الأكثر مجاز ؛ حتى صارت حقيقة في العرف ، كالأروية للمزادة ، والسماء للمطر .

ولذاذهب أن يذهب إلى كونه مجازاً قد استعمله الشارع ، فجاز إطلاقه في كل حال ؛ واستعماله كسائر المجازات المستعملة .

ومما يدلّ على اختصاص ولد فاطمة دون بنى هاشم كافة بالنبي عليه السلام ، أنه ما كان يحلّ له عليه السلام أن ينكح بنات الحسن والحسين عليهما السلام ولا بنات ذريتهما ، وإن بُعِذْنَ وطال الزمان ، ويحلّ له نكاح بنات غيرهم من بنى هاشم من الطالبيين وغيرهم ؛ وهذا يدلّ على مزيد الأقربيّة ، وهي كونهم أولاده ، لأنه ليس هناك من القرّبي غير

هذا الوجه ، لأنهم ليسوا أولاد أخيه ولا أولاد أخضه ، ولا هناك وجه يقتضى حرمتهم عليه إلا كونه والداً لهم ، وكونهم أولاداً له ، فإن قلت : قد قال الشاعر :

بَنُونَا بَنُو أَبْنَانِنَا وَبَنَاتُنَا * بَنُوهُنَّ أَبْنَاءُ الرِّجَالِ الْأَبْعَادِ

وقال حكيم العرب أكنتم بن صيفى فى البنات يلقنتمهن : إنهن بلدن الأعداء ، وبورتن البعداء .

قلت : إنما قال الشاعر ما قاله على المفهوم الأشهر ، وليس فى قول أكنتم ما يدل على نفى بنوتهم ، وإنما ذكر أنهم بلدن الأعداء ؛ وقد يكون ولد الرجل لصليبه عدواً ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ ﴾ (١) ، ولا ينفى كونه عدواً كونه ابناً ، قيل ل محمد ابن الحنفية عليه السلام : لم يفرر بك أبوك فى الحرب ، ولم لا يفرر بالحسن والحسين ؟ فقال : لأنهما عيناه ؛ وأنا يمينه ، فهو يذب عن عينيهِ يمينه .

(٢٠١)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام قاله لما اضطرب عليه أصحابه في أمر الحكومة :
 أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّهُ لَمْ يَزَلْ أَمْرِي مَعَكُمْ عَلَى مَا أَحِبُّ ، حَتَّى نَهَيْتُكُمْ الْحَرْبَ ،
 وَقَدْ وَاللَّهِ أَخَذْتُ مِنْكُمْ وَتَرَكْتُ ، وَهِيَ لِعَدُوِّكُمْ أَنَّهُكَ .
 لَقَدْ كُنْتُ أَمْسِ أَمِيرًا ، فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَأْمُورًا ، وَكُنْتُ أَمْسِ نَاهِيًا ، فَأَصْبَحْتُ
 الْيَوْمَ مَنُهِيًا . وَقَدْ أَحْبَبْتُمُ الْبَقَاءَ ؛ وَلَيْسَ لِي أَنْ أَحْجِلَكُمْ عَلَى مَا تَكْرَهُونَ !

الشرح :

نَهَيْتُكُمْ ، بكسر الهمزة : أدفنتكم وأذابتكم ، ويموز فتح الهمزة ، وقد نهك الرجل
 أى دنف وضئى ، فهو منهوك . وعليه نهكة المرض ، أى أثرة الحرب ، مؤنثة .
 وقد أخذت منكم وتركت ، أى لم تستأصلكم ، بل فيكم بعد بقية ، وهى لعدوكم
 أنهلك ، لأن القتل فى أهل الشام كان أشد استعجارا ، والوهن فيهم أظهر ، ولولا فساد
 أهل العراق برفع المصاحف ، لاستؤصل الشام ، وخلص الأشرار إلى معاوية ، فأخذه بعنفه ،
 ولم يكن قد بقى من قوّة الشام إلا كحركة ذنب الوزغة عند قتلها ، يضطرب يمينا وشمالا ؛
 ولكن الأمور السماوية لا تقالب .

فأما قوله : « كنت أمس أميرا ، فأصبحت اليوم مأمورا » ، فقد قدّمنا شرح حاله
 من قبل ، وأن أهل العراق لما رفع عمرو بن العاص ومن معه المصاحف على وجه المكيدة

حين أحسّ بالمعطب وعلوّ كلمة أهل الحقّ ، أزموا أمير المؤمنين عليه السلام بوضع أوزار الحرب ، وكفّ الأيدي عن القتال ، وكانوا في ذلك على أقسام :

فمنهم مَنْ دخلت عليه الشبهة برفع المصاحف ، وغلب على ظنه أن أهل الشام لم يفعلوا ذلك خُدعة وحيلة ، بل حقاً ودعاء إلى الدين وموجب الكتاب ، فرأى أن الاستسلام للحجّة أولى من الإصرار على الحرب .

ومنهم مَنْ كان قد ملّ الحرب ، وآثر السّلم ، فلمّا رأى شبهة ما يسوغ التعلّق بها في رفض الحاربة وحبّ العافية أخذ إليهم .

ومنهم مَنْ كان يُبغِض علياً عليه السلام بباطنه ، ويطيحه بظاهره ، كما يطيح كثير من الناس السلطان في الظاهر ويبغضه بقلبه ، فلمّا وجدوا طريقاً إلى خذلانه وترك نصرته ، أسرعوا نحوها ، فاجتمع جمهور عسكره عليه ، وطالبوه بالكفّ وترك القتال ، فامتنع امتناع عالم بالمكيدة ، وقال لهم : إنها حيلة وخديعة ، وإنّي أعرفُ بالقوم منكم ، إنهم أبسوا بأصحاب قرآن ولا دين ، قد صحبهم وعرفهم صغيراً وكبيراً ، فعرفت منهم الإعراض عن الدّين ، والركون إلى الدنيا ، فلا تراعوا برفع المصاحف ، وصمّموا على الحرب ، وقد ملكتموهم ، فلم يبق منهم إلّا حشاشة ضعيفة ، وذمّاء قليل . فأبوا عليه ، وألحوا وأصرّوا على القعود والخذلان ، وأمرّوه بالإفّاذ إلى الحاربيين من أصحابه ، وعليهم الأشر أن يأمرهم بالرجوع ، وتهتّدوه إن لم يفعل بإسلامه إلى معاوية . فأرسل إلى الأشر يأمره بالرجوع وترك الحرب ، فأبى عليه فقال : كيف أرجع وقد لاحت أمارات الظفر اقولوا له : « ليهلني ساعة واحدة » ، ولم يكن علم صورة الحال كيف قد وقعت . فلمّا عاد إليه الرسول بذلك ، غضبوا ونفروا وشغبوا ، وقالوا : أنفذت إلى الأشر سرّاً وباطناً ، تأمره بالتصميم ، وتنهاه عن الكفّ ، وإن لم تعدّ الساعة ، وإلّا قتلناك كما قتلنا عثمان ، فرجعت الرّسل إلى الأشر فقالوا له : أنحبّ أن نظفر بمكانك وأمير المؤمنين قد سلّ عليه

خمسون ألف سيف ! فقال : ما الخبر ؟ قال : إن الجيش بأمره قد أحرق به ، وهو قاعد بينهم على الأرض ، تحته نطع ، وهو مطرق ، والبارقة تلمع على رأسه ، يقولون : لنن لم نعد الأشر قتلناك ! قال : ويحكم ! فما سبب ذلك ؟ قالوا : رفع المصاحف ، قال : والله لقد ظننت حين رأيتهما رفعت أنها ستوقع فرقة وفتنة .

ثم كثر راجعا على عقبيه ، فوجد أمير المؤمنين عليه السلام تحت الخطر ، قد رده أصحابه بين أمرين : إما أن يسلموه إلى معاوية ، أو يقتلوه ، ولا ناصر له منهم إلا ولداه وابن عمه ونفر قليل لا يبلغون عشرة ، فلما رأهم الأشر سبهم وشتهم ، وقال : ويحكم ! أبعد الظفر والنصر صب عليكم الخذلان والفرقة ! يا ضعاف الأحلام ! يا أشباه النساء ! يا سفهاء العقول ! فشتموه وسبوه ، وقهروه وقالوا : المصاحف المصاحف ! والرجوع إليها ، لا نرى غير ذلك ! فأجاب أمير المؤمنين عليه السلام إلى التحكيم ، دفعا للمحذور الأعظم بارتكاب المحذور الأضعف ، فلذلك قال : « كنت أميراً فأصبحت مأموراً ؛ وكنت ناهياً فصرت مأموراً » . وقد سبق من شرح حال التحكيم وما جرى فيه ما يغني عن إعادته .

(٢٠٢)

الأضل :

ومن كلام له عليه السلام بالبصرة ، وقد دخل على الملاء بن زياد الحارثي ؛ وهو من أصحابه يعود ، فلما رأى سعة داره قال :

مَا كُنْتُ تَصْنَعُ بِسَعَةِ هَذِهِ الدَّارِ فِي الدُّنْيَا ، أَمَا أَنْتَ إِلَيْنَا فِي الْآخِرَةِ كُنْتَ أَخْرَجَ
وَبَلَى إِنَّ شَيْئًا بَلَغْتَ بِهَا الْآخِرَةَ : تَقْرِي فِيهَا الضَّيْفَ ، وَتَصِلُ فِيهَا الرَّحِمَ ، وَتُطْلِعُ
مِنْهَا الْحَقُوقَ مَطْلَعِهَا ، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ بَلَغْتَ بِهَا الْآخِرَةَ !
فَقَالَ لَهُ الْعَلَاءُ :

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَشْكُو إِلَيْكَ أَخِي عَاصِمَ بْنَ زِيَادٍ .

قال : وما له ؟

قال : لِبَيْسِ الْعِبَاءِ ، وَتَخَلَّى مِنَ الدُّنْيَا .

قال : عَلَى يَدٍ . فلما جاء ، قال :

يَا عُدَيَّ نَفْسِهِ ! لَقَدْ اسْتَهَامَ بِكَ أَنْخَبِيثُ ! أَمَا رَحِمْتَ أَهْلَكَ وَوَلَدَكَ ! أَتَرَى اللَّهَ
أَحْلَلَ لَكَ الطَّيِّبَاتِ ، وَهُوَ يَسْكُرُهُ أَنْ تَأْخُذَهَا ! أَنْتَ أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ !
قال :

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، هَذَا أَنْتَ فِي خُشُونَةِ مَلْبَسِكَ ، وَجُشُوبَةِ مَا كَلِمَاتِكَ !

قال :

وَيَحْكُ إِنِّي لَسْتُ كَأَنْتَ ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَرَضَ عَلَى أُمَّةٍ الْخَلْقِ أَنْ يَقْدَرُوا أَنْفُسَهُمْ
بِضَعْفَةِ النَّاسِ ، كَثِيلًا يَتَّبِعُ الْفَقِيرَ فَقْرُهُ !

السَّنْخ

كنت هاهنا زائدة ، مثل قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ ^(١) .

وقوله : « وبلى إن شئت بلغت بها الآخرة » ، لفظ فصيح ، كأنه استدرك ، وقال : وبلى على أنك قد تحتاج إليها في الدنيا لتجعلها وصلة إلى نيل الآخرة . بأن تقرى فيها الضيف ؛ والضيف لفظ يقع على الواحد والجمع ، وقد يجمع فيقال : ضيوف وأضياف . والرحم : القرابة .

وتطالع منها الحقوق مطالعها : توقعها في مظان استحقاقها .

والعباء جمع عباءة ، وهى الكساء وقد تُلين ، كما قالوا : عطاءة وعظاية ، وصلاة وصلاية . وتقول : على بفلان ، أى أحضره ، والأصل أجهل به على ، فحذف فعل الأمر ، ودل الباقي عليه .

ويأعدى نفسه ، تصغير « عدو » ، وقد يمكن أن يراد به التحقير المحض هاهنا ، ويمكن أن يراد به الاستعظام لعداوته لها ، ويمكن أن يخرج مخرج التحنن والشفقة ، كقولك : يابنى .

واستهام بك الخبيث ، يعنى الشيطان ، أى جعلك هائما ضالاً ، والباء زائدة .

فإن قيل : مامعنى قوله عليه السلام : « أنت أهون على الله من ذلك » ؟

قلت : لأن فى المشاهد قد يحل الواحد منا لصاحبه فعلا مخصوصا ، بحباة ومراقبة له ،

(١) سورة مريم ٢٩ .

وهو يكره أن يفعله ، والبشر أهونُ على الله تعالى من أن يحِلَّ لهم أمرٌ مجاملة واستصلاحا
للحال معهم ، وهو يكره منهم فعله .

وقوله : « هذا أنت ا » ، أى فما بالنا نراك خشنَ اللبس ا والتقدير : « فما أنت تفعل
كذا ، فكيف تنهى عنه ا »

وطعام جَشِب ، أى غليظ ، وكذلك مجشوب ، وقيل : إنه الذى لا أذَمَ معه .
قوله عليه السلام : « أن يقدِّروا أنفُسهم بضعة الناس » ، أى يشبهوا ويمثلوا .
وتبيخ الدم بصاحبه ، وتبوخ به ، أى هاج به ، وفى الحديث : « عليكم بالحجامة
لا يَتَّبِخَ بأحدكم الدم فيقتله » ، وقيل : أصل « يتبيخ » يَبْقَى ، فقلب ، جَذَب وجَبَذ ، أى يجب
على الإمام العادل أن يشبه نفسه فى لباسه وطعامه بضعة الناس - جمع ضعيف - لكيلا
يهلك الفقراء من الناس ، فإنهم إذا رأوا إمامهم بتلك الهيئة وبذلك المَطْعَم ، كان أدعى لهم إلى
سُلُوَان لذات الدنيا والصبر عن شهوات النفوس .

[ذكر بعض مقامات العارفين والزُّهاد]

وروى أن قوماً من المتصوفة دخلوا خراسان على بن موسى الرضى ، فقالوا له :
إن أمير المؤمنين فكر فى ولأه الله من الأمور ، فرآكم - أهل البيت - أولى الناس أن تؤثروا
الناس ، ونظر فى من أهل البيت ، فرآك أولى الناس بالناس ، فرأى أن يرد هذا الأمر
إليك ، والإمامة تحتاج إلى من يأكل الجشِب ، ويلبس الخشن ، ويركب الحمار ، ويعود
المريض . فقال لهم : إن يوسف كان نبياً ، يلبس أقبية الديباج المزرَّة بالذهب ، ويجلس
على متسكات آل فرعون ، ونحنكم ؛ إنما يراد من الإمام قِسْطه وعدله ؛ إذا قال صدق ،

وإذا حكم عدل ، وإذا وعد أنجز . إن الله لم يحرم لبوساً ولا مطعماً ، ثم قرأ : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ (١) الآية .

وهذا القول مخالف للقانون الذي أشار أمير المؤمنين إليه ، وللغلاسة في هذا الباب كلام لا بأس به ، وقد أشار إليه أبو علي بن سينا في كتاب " الإشارات " ، وعليه يتخرج قول أمير المؤمنين وعلي بن موسى الرضى عليهما السلام . قال أبو علي في مقامات العارفين : « العارفون قد يختلفون في المهم بحسب ما يختلف فيهم من الخواطر ، على حسب ما يختلف عندهم من دواعي المعبر ، فربما استوى عند العارف القشف والترف ، بل ربما أثر القشف ، وكذلك ربما سوى عنده الثقل والمطر ، بل ربما أثر الثقل ، وذلك عند ما يكون الماحس بباله ، استحقار ما عدا الحق ، وربما صفا إلى الزينة ، وأحب من كل شيء عقيلته (٢) ، وكره الخداج والسقط ، وذلك عندما يعتبر عاداته من صحبته الأحوال الظاهرة ، فهو يرتاد إليها في كل شيء ، لأنه مزينة خطوة من العناية الأولى ، وأقرب أن يكون من قبيل ما عكف عليه بهواه ، وقد يختلف هذا في عارفين ، وقد يختلف في عارف بحسب وقتين .

واعلم أن الذي رويته عن الشيوخ ، ورأيت به بخط عبد الله بن أحمد بن الخشاب رحمه الله ، أن الربيع بن زياد الحارثي ، أصابته نشابة في جبينه ، فكانت تنقض عليه في كل عام ، فأتاه على عليه السلام عائداً ، فقال : كيف تجدك أبا عبد الرحمن ؟ قال : أجِدُنِي يا أمير المؤمنين لو كان لا يذهب ما بي إلا بذهاب بصرى لتميت ذهابه ، قال : وما قيمة بصرى عندك ! قال : لو كانت لي الدنيا لغديته بها ، قال : لا جرم ! كي يعطيتك الله على قدر ذلك . إن الله تعالى يعطى على قدر الألم والمصيبة ، وعنده تضعيف كثير . قال الربيع :

(١) سورة الأعراف ٣٢ .

(٢) العقيلة من كل شيء . أكرمها ، جمعها عقائل .

يا أمير المؤمنين، ألا أشكو إليك عاصم بن زياد أخى ؟ قال : ماله ، قال : لبس العباء، وترك
الملاء ، وغم أهله ، وحزن ولده .

فقال على : ادعوا لى عاصما ، فلما أتاه عبس فى وجهه ، وقال : ويحك يا عاصم أترى
الله أباح لك اللذات، وهو يكره ما أخذت منها ! لأنك أهون على الله من ذلك. أو ما سمعته
يقول : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾ ^(١) ، ثم يقول : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُ وَالْمَرَجَانُ ﴾ ^(٢)
وقال : ﴿ وَمِنْ كُلِّ ثَمًا كُلُونَ مَلَمَّا طَرَبًا وَنَسْتَخْرِجُونَ حَبِيَّةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ ^(٣) ،
أما والله إن ابتذل نعم الله بالفعال أحب إليه من ابتذالها بالمقال ، وقد سمعتم الله يقول :
﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ ^(٤) ، وقوله : ﴿ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ
وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ ، إن الله خاطب المؤمنين بما خاطب به الرسلين ، فقال :
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ ^(٥) ، وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ
كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ ^(٦) وقال رسول الله صلى الله عليه وآله لبعض نسائه :
« مالى أراك شعثاء مرهأ سلتاء ! » ^(٧) .

قال عاصم : فلم اقتصرت يا أمير المؤمنين على لبس الخشن ، وأكل الجشيب ؟ قال :
إن الله تعالى افترض على أئمة العدل أن يقدروا لأنفسهم بالقوام ، كيلا يتبجح بالفقر فقره .
فأقام على عليه السلام حتى نزع عاصم العباء ، ولبس ملاء .

والربيع بن زياد هو الذى افتتح بعض خراسان ، وفيه قال عمر : دلونى على رجل إذا كان

(١) سورة الرحمن ١٩ .

(٢) سورة الرحمن ٢٢ .

(٣) سورة فاطر ١٢ .

(٤) سورة الضحى ١١ .

(٥) سورة البقرة ١٧٢ .

(٦) سورة المؤمنون ٥١ .

(٧) المرهأ : التى لا تكحل . والسلطاء : التى لا تختضب .

في القوم أميراً فكَانَ له ليس بأمر، وإذا كان في القوم ليس بأمر فكَانَ له الأمير بعينه !
وكان خيراً متواضعاً ، وهو صاحب الوقعة مع عمر لما أحضر العمال فتوحش له الربيع ،
وتقشّف وأكل معه الجشّب من الطعام ، فأقرّه على عمله ، وصرف الباقي ، وقد ذكرنا
هذه الحكاية فيما تقدم .

وكتب زياد بن أبيه إلى الربيع بن زياد، وهو على قطعة من خراسان : إن أمير المؤمنين
معاوية كتب إليّ يأمرُك أن تحرّز الصّفرَاء والبيضاء وتقسّم الخُرثيّ^(١) وما أشبهه على أهل
الحرب . فقال له الربيع : إني وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين ، ثم نادى في
الناس : أن اغدُوا على غنائمكم ، فأخذ الخمس وقسّم الباقي على المسلمين ، ثم دعا الله أن يميتَه؛
فما جمع حتى مات .

وهو الربيع بن زياد بن أنس بن ديان بن قطر بن زياد بن الحارث بن مالك بن
ربيعة بن كعب بن مالك بن كعب بن الحارث بن عمرو بن وُعلة بن خالد بن مالك
ابن أدد .

وأما العلاء بن زياد الذي ذكره الرضّى رحمه الله فلا أعرفه ، لعلّ غيري يعرفه .

(١) الخُرثيّ : أردأ النّاع .

(٢٠٣)

الأضل :

ومن كلام له عليه السلام وقد سأله سائل عن أحاديث البدع، وعما في أيدي الناس من اختلاف الخبر ، فقال عليه السلام :

إِنَّ فِي أَيْدِي النَّاسِ حَقًّا وَبَاطِلًا ، وَصِدْقًا وَكَذِبًا ، وَنَاسِيحًا وَمُنْسُوخًا ، وَعَامًّا وَخَاصًّا ، وَمُحْكَمًا وَمُنْتَشَاهَا ، وَحِفْظًا وَوَهْمًا .
وَقَدْ كَذَبَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى عَهْدِهِ ، حَتَّى قَامَ خَطِيبًا ، فَقَالَ : « مَنْ كَذَبَ عَلَى مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » . وَإِنَّمَا أَنَا كَ بِالْحَدِيثِ أَرْبَعَةَ رِجَالٍ ، لَيْسَ لَهُمْ خَامِسٌ :

رَجُلٌ مُنَافِقٌ مُظْهِرٌ لِلْإِيمَانِ ، مُتَصَنِّعٌ بِالْإِسْلَامِ ، لَا يَقَاتِمُ وَلَا يَتَحَرَّجُ ، يَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَعَمِّدًا ، فَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّهُ مُنَافِقٌ كَاذِبٌ لَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُ ، وَلَمْ يُصَدِّقُوا قَوْلَهُ ، وَلَكِنَّهُمْ قَالُوا : صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، رَأَاهُ وَسَمِعَ مِنْهُ ، وَلَقِفَ عَنْهُ ؛ فَيَأْخُذُونَ بِقَوْلِهِ ، وَقَدْ أَخْبَرَكَ اللَّهُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ بِمَا أَخْبَرَكَ ، وَوَصَفَهُمْ بِمَا وَصَفَهُمْ بِهِ لَكَ ، ثُمَّ بَقُوا بَعْدَهُ ، فَتَقَرَّبُوا إِلَى أَيْمَةِ الضَّلَالَةِ ، وَالدُّعَاةِ إِلَى النَّارِ بِالزُّورِ وَالْبُهْتَانِ ، فَوَلَّوْهُمْ الْأَعْمَالَ ، وَجَعَلُوهُمْ حُكَّامًا عَلَى رِقَابِ النَّاسِ ، فَأَكَلُوا دُنْيَاهُمْ ، وَإِنَّمَا النَّاسُ مَعَ الْمُلُوكِ وَالدُّنْيَا ، إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللَّهُ . فَهَذَا أَحَدُ الْأَرْبَعَةِ .

وَرَجُلٌ سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ شَيْئًا لَمْ يَحْفَظْهُ عَلَى وَجْهِهِ ، فَوَهِمَ فِيهِ ، وَلَمْ يَتَعَمَّدْ

كَذِبًا فَهُوَ فِي يَدَيْهِ ، وَبَرَزِيهِ وَبَعْمَلُ بِهِ ، وَبَقَوْلُ : أَنَا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلَوْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّهُ وَهَمٌ فِيهِ لَمْ يَقْبَلُوهُ مِنْهُ ، وَلَوْ عَلِمَ هُوَ أَنَّهُ كَذَلِكَ لَرَفَضَهُ .

وَرَجُلٌ ثَالِثٌ ، سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا ، بِأَمْرٍ بِهِ ، ثُمَّ إِنَّهُ نَهَى عَنْهُ ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ ، أَوْ سَمِعَهُ يَنْهَى عَنْ شَيْءٍ ثُمَّ أَمَرَ بِهِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ ، فَحَفِظَ الْمَنْسُوخَ وَلَمْ يَحْفَظِ النَّاسِخَ ، فَلَوْ عَلِمَ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضَهُ ، وَلَوْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ إِذْ سَمِعُوهُ مِنْهُ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضُوهُ .

وَأَخْرَ رَابِعٌ ، لَمْ يَكْذِبْ عَلَى اللَّهِ وَلَا عَلَى رَسُولِهِ ، مُبْغِضٌ لِلْكَذِبِ خَوْفًا مِنْ اللَّهِ ، وَتَعْظِيمًا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَمْ يَرَمِ ، بَلْ حَفِظَ مَا سَمِعَ عَلَى وَجْهِهِ ، فَجَاءَ بِهِ عَلَى سَمْعِهِ ، لَمْ يَزِدْ فِيهِ وَلَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ ، فَهُوَ حَفِظَ النَّاسِخَ فَعَمِلَ بِهِ ، وَحَفِظَ الْمَنْسُوخَ فَجَنَّبَ عَنْهُ ، وَعَرَفَ الْخَاصَّ وَالْعَامَّ ، وَالْحُكْمَ وَالْمُنْشَأَ ، فَوَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ ، وَقَدْ كَانَ يَكُونُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْكَلَامُ ، لَهُ وَجْهَانِ ، فَكَلَامٌ خَاصٌّ ، وَكَلَامٌ عَامٌّ ، فَيَسْمَعُهُ مَنْ لَا يَعْرِفُ مَا عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِهِ ، وَلَا مَا عَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَيَحْمِلُهُ السَّامِعُ ، وَيُوجِّهُهُ عَلَى غَيْرِ مَعْرِفَةٍ بِمَعْنَاهُ ، وَمَا قَصَدَ بِهِ ، وَمَا خَرَجَ مِنْ أَجْلِهِ ، وَلَيْسَ كُلُّ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَسْأَلُهُ ، وَبَسْتَفْهِمُهُ ، حَتَّى إِنْ كَانُوا لَيُحِبُّونَ أَنْ يَجِيءَ الْأَعْرَابِيُّ وَالطَّارِئُ ، فَيَسْأَلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، حَتَّى يَسْمَعُوا ، وَكَانَ لَا يَمُرُّ بِشَيْءٍ إِلَّا سَأَلْتَهُ عَنْهُ ، وَحَفِظْتَهُ .

فَهَذِهِ وُجُوهُ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ فِي اخْتِلَافِهِمْ وَعِلَلِهِمْ فِي رِوَايَاتِهِمْ .

الشرح :

الكلام في تفسير الألفاظ الأصولية ؛ وهي العام والخاص ، والناسخ والمنسوخ ، والصدق والكذب ، والحكم والمشابه ، موكل إلى فن أصول الفقه ، وقد ذكرناه فيما أملناه من الكتب الأصولية ، والإطالة بشرح ذلك في هذا الموضع مستهجنة .

قوله عليه السلام : « وحفظا وهما » الهاء مفتوحة ، وهي مصدر وهمت ، بالكسر ، أوهم ، أى غلطت وسهوت ، وقد روى : « وهما » بالتسكين ، وهو مصدر وهمت بالفتح أوهم ، إذا ذهب وهلك إلى شيء وأنت تريد غيره ، والمعنى مقارب .

وقول النبي صلى الله عليه وآله : « فلينبوا مقدمه من النار » كلام صيغته الأمر ، ومعناه الخبر ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾^(١) ، وتبوات المنزل : نزله ، وبواته منزلا : أنزلته فيه .

والتأتم : الكف عن موجب الإنم ، والتعرج مثله ، وأصله الضيق ، كأنه يضيق على نفسه .

واقف عنه : تناول عنه .

وجنب عنه : أخذ عنه جانبا .

و « إن » في قوله : « حتى إن كانوا ليمحبون » مخفة من الثقلة ، ولذلك جاءت اللام في الخبر .

والطاري ، بالهمز : الطالع عليهم ، طرأ أى طلع ، وقد روى : « عليهم » ، بالرفع عطفا على « وجوه » ، وروى بالجر عطفا على « اختلافهم » .

(١) سورة مريم ٧٥ .

[ذكر بعض أحوال المنافقين بعد وفاة محمد عليه السلام]

واعلم أن هذا التقسيم صحيح ، وقد كان في أيام الرسول الله صلى الله عليه وآله منافقون ، وبُقُوا بعده ، وليس يمكن أن يقال : إن التفاف مات بموته ، والسبب في اشتقاق حالم بمده أنه صلى الله عليه وآله كان لا يزال يذكّرهم بما ينزل عليه من القرآن ، فإنه مشحون بذكرهم ، ألا ترى أن أكثر منازل بالمدينة من القرآن مملوء بذكر المنافقين ، فكان السبب في انتشار ذكرهم وأحوالهم وحرّكاتهم هو القرآن ، فلما انقطع الوحي بموته صلى الله عليه وآله لم يبق من ينفع عليهم سقطاتهم ويؤبّخهم على أعمالهم ، ويأمر بالحدّز منهم ، ويجاهرهم تارة ، ويحاملهم تارة ، وصار المتولّى للأمر بعده يحمل الناس كلّهم على كاهل المجاملة ، ويماملهم بالظاهر ، وهو الواجب في حكم الشرع والسياسة الدنيوية ، بخلاف حال الرسول الله صلى الله عليه وآله فإنه كان تكليفه معهم غير هذا التكليف ، ألا ترى أنه قيل له : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ﴾ ^(١) فهذا يدلّ على أنه كان يعرفهم بأعيانهم ، وإلا كان النهي له عن الصلاة عليهم تكليف مالا يطاق ، والوالى بعده لا يعرفهم بأعيانهم ، فليس مخاطباً بمأخوطة به صلى الله عليه وآله في أمرهم ، ولسكوت الخلفاء عنهم بعده تخلّ ذكرهم ، فكان قصارى أمر المنافق أن يسير ما في قلبه ، ويعامل المسلمين بظاهره ، ويعاملونه بحسب ذلك . ثم فتحت عليهم البلاد ، وكثرت الفنائم ، فاشتغلوا بها عن الحركات التي كانوا يعتمدونها أيام رسول الله ، وبعثهم الخلفاء مع الأمراء إلى بلاد فارس والروم ، فألهتهم الدنيا عن الأمور التي كانت تُنقِمُ منهم في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومنهم من استقام اعتقاده ، وخلصت نيّته ، أما رأوا الفتوح وإلقاء الدنيا فلا ذكبتها من الأموال العظيمة ، والكنوز الجليّة إليهم ، فقالوا : لو لم يكن هذا الدين

حقاً لما وصلنا إلى ماوصلنا إليه . وبالجملة لما تَرَكُوا تَرَكُوا ، وحيث سَكِتَ عنهم سَكَتُوا
عن الإسلام وأهله ؛ إلّا في دسيسة خفية يعملونها ، نحو الكذب ، الذي أشار إليه أمير
المؤمنين عليه السلام ، فإنه خالط الحديث كذبٌ كثيرٌ ، صدرَ عن قومٍ غيرِ صحيحي
العقيدة ، قصدوا به الإضلالَ وتخبيط القلوب والعقائد ، وقصدَ به بعضُهم التنويه بذكر
قوم كان لهم في التنويه بذكرهم غرض دنيوي . وقد قيل : إِنَّهُ افْتَعِلَ فِي أَيَّامِ معاوية
خاصّة حديث كثير على هذا الوجه ، ولم يسكت المحدثون الراسخون في علم الحديث عن
هذا ، بل ذكروا كثيراً من هذه الأحاديث الموضوعة ، ويدينوا وضعها ؛ وأنّ رواها غير
موثوق بهم ، إلّا أن المحدثين إنما يطمعون فيما دون طبقة الصحابة ، ولا يتجاسرون في
الطمع على أحدٍ من الصحابة ؛ لأنّ عليه لفظ « الصحبة » ؛ على أنهم قد طعنوا في قومٍ
لهم صُحبة كبُسْر بن أرطاة وغيره .

فإن قلت : مَنْ هم أئمة الضلالة ، الذين يتقرّب إليهم المنافقون الذين رأوا رسول الله
صلى الله عليه وآله ، وصحبوه للزور والبهتان ؟ وهل هذا إلّا تصرّح بما تذكره
الإمامية ، وتعتقده ؟

قلت : ليس الأمر كما ظننت وظنّوا ، وإنما يعنى معاوية وعمرو بن العاص وَمَنْ
شايهمما على الضلال ، كالتخبر الذي رواه مَنْ رَوَاهُ في حق معاوية : « اللهم قِه العذاب
والحساب ، وعلمه الكتاب » ؛ وكرواية عمرو بن العاص تقرأ بآ إلى قلب معاوية : « إن آل
أبي طالب ليسوا لي بأولياء ، إنما وائي الله وصالح المؤمنين » وكرواية قوم في أيام معاوية
أخبارا كثيرة من فضائل عثمان ، تقرأ بآ إلى معاوية بها ، ولساننا يجحدُ فضلَ عثمان وسابقتة ،
ولكنّا نعلم أنّ بعض الأخبار الواردة فيه موضوع ، كخبر عمرو بن مرة فيه وهو مشهور ،
وعمر بن مرة ممن له صحبة ، وهو شامي .

[ذكر بعض ما مُني به آل البيت من الأذى والاضطهاد]

وليس يجب من قولنا : إنَّ بعضَ الأخبار الواردة في حقِّ شخص فاضل مفتعل أن تكون قاذحة في فضل ذلك الفاضل ؛ فإنَّنا مع اعتقادنا أنَّ علياً أفضلُ الناس ، نعتقد أنَّ بعضَ الأخبار الواردة في فضائله مفتعل ومختلق .

وقد رُوِيَ أنَّ أبا جعفر محمد بن عليّ الباقر عليه السلام ، قال لبعض أصحابه : يا فلان ، مالقينا من ظلم قريش إيانا ، وتظاهروا علينا ، ومالقي شيعتنا ومحبوينا من الناس ! إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قُبِضَ وقد أخبر أنَّا أولى الناس بالناس ، فمألت علينا قريش حتى أخرجت الأمر عن معدنه ، واحتجَّت على الأنصار بحقنا وحجَّتنا . ثم تداولتها قريش ، واحدٌ بعد واحد ، حتى رجعت إلينا ، فنكثت ببيعتنا ، ونصبت الحرب لنا ، ولم يزل صاحبُ الأمر في صعود كئود ، حتى قُتِل ، فبويع الحسن ابنه وعُوهِد ثم غدر به ، وأسلم ، ووثب عليه أهلُ العراق حتى طعن بخنجر في جنبه ، ونهبت عسكره ، وعولجت خلاليل أمهات أولاده ، فوادع معاوية وحقن دمه ودماء أهل بيته ، وممَّ قليلٌ حقٍّ قليل . ثم بايع الحسينَ عليه السلام من أهل العراق عشرون ألفاً ، ثم غدروا به ، وخرجوا عليه ، وبيعته في أعناقهم وقتلوه ، ثم لم يزل - أهل البيت - نُسْتَذَلُّ ونُسْتَضَام ، ونَقَعَى ونَمْتَهَن ، ونَحْرَم ونَقْتَل ، ونَخَاف ولا نَأْمَن على دماننا ودماء أولياننا ، ووجد الكاذبون الجاحدون لكذبهم وجحودهم موضعاً يتقربون به إلى أوليائهم وقضاة السوء وعمال السوء في كلِّ بلدة ، فخذثوهم بالأحاديث الموضوعة المكذوبة ، ورووا عننا ما لم نقله وما لم نفعله ، ليبغضونا إلى الناس ، وكان عَظُمُ ذلك وكَبَرُه زعمَ معاوية بعد موت الحسن عليه السلام ، فقُتِلَت شيعتنا بكلِّ بلدة ، وقطعت الأيدي والأرجل على الظَّنة ، وكان من يذكر بحبنا والانتطاع إلينا سُجِنَ أو نُهِبَ ماله ، أو هُدِمَت داره ، ثم لم يزل البلاء يشتدَّ ويزداد ،

إلى زمان عبيد الله بن زياد قاتل الحسين عليه السلام ، ثم جاء الحجاج فقتلهم كل قتيلاً ، وأخذهم بكل ظنة وتهمة ، حتى إن الرجل ليقال له : زندبق أو كافر ، أحب إليه من أن يقال : شيعه علي ، وحتى صار الرجل الذي يذكر بالخير - ولعله يكون ورعاً صديقاً - يحدث بأحاديث عظيمة محببة ، من تفضيل بعض من قد سلف من الولاة ، ولم يخلق الله تعالى شيئاً منها ، ولا كانت ولا وقعت وهو يحسب أنها حق لكثرة من قد رواها ممن لم يعرف بالكذب ولا بقلة ورع .

وروى أبو الحسن علي بن محمد بن أبي سيف المدائني في كتاب « الأحداث » قال : كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة : أن برئت الذمة ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته ، فقامت الخطباء في كل كورة ، وعلى كل منبر ، يلعنون علياً ويبرءون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته ؛ وكان أشد الناس بلاء حينئذ أهل الكوفة ؛ لكثرة من بها من شيعه علي عليه السلام ، فاستعمل عليهم زياد بن سمية ، وضم إليه البصرة ، فكان يتبع الشيعة وهو بهم عارف ؛ لأنه كان منهم أياماً على عليه السلام ؛ فقتلهم تحت كل حجر ومدبر ، وأخافهم ، وقطع الأيدي والأرجل ، وسمل العيون ، وصلبهم على جذوع النخل ، وطردهم وشردهم عن العراق ؛ فلم يبق بها معروف منهم . وكتب معاوية إلى عماله في جميع الآفاق : ألا يجيزوا لأحد من شيعه علي وأهل بيته شهادة ؛ وكتب إليهم : أن انظروا من قبلكم من شيعه عثمان ومحببيه وأهل ولايته ؛ والذين يروون فضائله ومناقبه ؛ فادنوا مجالسهم وقرؤهم وأكرمؤهم ، واكتبوا لي بكل ما يروى كل رجل منهم ، واسمه واسم أبيه وعشيرته .

ففعلوا ذلك ، حتى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه ، لما كان بيعته إليهم معاوية من الصلوات والكساء والحباء والقطائع ، وفيفضه في العرب منهم واللواي ؛ فكثرت ذلك في كل مصر ، وتنافسوا في المنازل والدنيا ، فليس يحى أحد مردود من الناس عاملاً من

عمال معاوية ، فيروى في عثمان فضيلة أو منقبة إلا كتب اسمه وقربه وشقعه . فلبثوا بذلك حيناً .

ثم كتب إلى عماله أن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مضر وفي كل وجه وناحية ؛ فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين ، ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلا وتأتونى بمناقض له في الصحابة ؛ فإن هذا أحب إليّ وأقرّ لعيني ، وأدحضُ لحجة أبي تراب وشيعته ، وأشدُّ إليهم من مناقب عثمان وفضله .

فقرئت كتبه على الناس ، فرويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها ، وجئت الناس في رواية ما يجري هذا المجرى حتى أشادوا بذكر ذلك على المنابر ، وألقوا إلى معلى الكتائب ؛ فعملوا صبيانهم وغلماهم من ذلك الكثير الواسع حتى رَوَوْه وتعلّموه كما يتعلّمون القرآن ، وحتى علّموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمتهم ، فلبثوا بذلك ما شاء الله .

ثم كتب إلى عماله نسخة واحدة إلى جميع البلدان : انظروا مَنْ قامت عليه البينة أنه يحبّ علياً وأهل بيته ، فاعمّوه من الديوان ، وأسقطوا عطاءه ورزقه ، وشقّع ذلك بنسخة أخرى : مَنْ اتهمتموه بموالات هؤلاء القوم ، فنكّلوا به ، واهدّموا داره . فلم يكن البلاء أشدَّ ولا أكثر منه بالعراق ؛ ولا سيما بالكوفة ، حتى إن الرجل من شيعة علي عليه السلام ليأتيه مَنْ يثق به ، فيدخل بيته ، فيلقى إليه سرّه ، ويخاف من خادمه ومملوكه ، ولا يحدثه حتى يأخذ عليه الأيمان الغليظة ، ليكتمن عليه ، فظهر حديث كثير موضوع ، وبهتان منتشر ، ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة ؛ وكان أعظم الناس في ذلك بلية القراء المراءون ، والمستضعفون ، الذين يُظهرون الخشوع والنسك فيفتعلون الأحاديث ليحفظوا بذلك عند ولائهم ، ويقرّبوا مجالسهم ، ويصيبوا به الأموال والضياع

والمنازل ؛ حتى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدي الديانين الذين لا يستحلون الكذب والبهتان ؛ فقبلوها وزووها ، وهم يظنون أنها حق ، ولو علموا أنها باطلة لما زووها ، ولا تدينوا بها .

فلم يزل الأمر كذلك حتى مات الحسن بن علي عليه السلام ، فازداد البلاء والفتنة ، فلم يبق أحد من هذا القبيل إلا وهو خائف على دمه ؛ أو طريد في الأرض .

ثم تفاقم الأمر بعد قتل الحسين عليه السلام ، ووُلِّيَ عبد الملك بن مروان ، فاشتد على الشيعة ، ووُلِّيَ عليهم الحجاج بن يوسف ، ففقرت إليه أهل النسك والصلاح والدين ببض على وموالاة أعدائه ، وموالاة من يدعى من الناس أنهم أيضاً أعداؤه ، فأكثروا في الرواية في فضلهم وسوابقهم ومناقبهم ، وأكثروا من الفض من علي عليه السلام وعيبيه ، والطمع فيه ، والشنآن له ، حتى إن إنسانا وقف للحجاج - ويقال إنه جد الأصمعي - عبد الملك بن قُريب - فصاح به : أيها الأمير إن أهلي عقوني فسموني علياً ، وإني فقير بائس ، وأنا إلى صلاة الأمير محتاج . فتضاحك له الحجاج ، وقال : لِلطُّفِ ما توسلت به قد وأيتك موضع كذا .

وقد روى ابن عرفة المعروف بنفطويه - وهو من أكابر المحدثين وأعلامهم - في تاريخه ما يناسب هذا الخبر ، وقال : إن أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة افتُعلت في أيام بني أمية ، تقرُّباً إليهم بما يظنون أنهم يرغبون به أنوف بني هاشم .

قلت : ولا يلزم من هذا أن يكون علي عليه السلام بسوءه أن يذكر الصحابة والمتقدمون عليه بالخير والفضل ، إلا أن معاوية وبني أمية كانوا يبنون الأمر من هذا على ما يظنون في علي عليه السلام من أنه عدو من تقدم عليه ؛ ولم يكن الأمر في الحقيقة كما

يظنون أنه ، ولكنه كان يرى أنه أفضل منهم ، وأنهم استأثروا عليه بالخلافة من غير تفسيقٍ منه لهم ، ولا براءة منهم .

فأما قوله عليه السلام : « ورجل سمع من رسول الله شيئاً ولم يحفظه على وجهه فوم فيه » ، فقد وقع ذلك . وقال أصحابنا في الخبر الذي رواه عبد الله بن عمر : « إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه » : إن ابن عباس لما روى له هذا الخبر ، قال : ذهل ابن عمر ، إنما مر رسول الله صلى الله عليه وآله على قبر يهودي ، فقال : إن أهله ليكون عليه ، وإنه ليعذب .

وقالوا أيضاً : إن عائشة أنكرت ذلك ، وقالت : ذهل أبو عبد الرحمن ، كما ذهل في خبر قليب بدر ، إنما قال عليه السلام : « إنهم ليكون عليه ، وإنه ليعذب بجرمه » . قالوا : وموضع غلظه في خبر القليب أنه روى أن النبي صلى الله عليه وآله وقف على قليب بدر ، فقال : « هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ » ثم قال : « إنهم يسمعون ما أقول لهم » ، فأنكرت عائشة ذلك ، وقالت : إنما قال : « إنهم يعلمون أن الذي كنت أقوله لهم هو الحق » ، واستشهد بقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ ^(١) .

فأما الرجل الثالث ، وهو الذي يسمع المنسوخ ولم يسمع الناسخ ، فقد وقع كثيرا ، وكتب الحديث والفقهاء مشحونة بذلك ، كالذين أباحوا لحوم الحمر الأهلية لخبر روه في ذلك ، ولم يرووا الخبر الناسخ .

وأما الرجل الرابع فهم العلماء الراسخون في العلم .
وأما قوله عليه السلام : « وقد كان يكون من رسول الله صلى الله عليه وآله الكلام له

(١) سورة النمل ٨٠ .

« وجهان » ، فهذا داخلٌ في القسم الثاني وغير خارج عنه ، ولكنه كالنوع من الجنس ، لأن الوهم والغلط جنس تحته أنواع .

واعلم أن أمير المؤمنين عليه السلام كان مخصوصاً من دون الصحابة رضوان الله عليهم بخلاوات كان يخلو بها مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، لا يطلع أحدٌ من الناس على ما يدور بينهما ، وكان كثير السؤال للنبي صلى الله عليه وآله عن معاني القرآن وعن معاني كلامه صلى الله عليه وآله ، وإذا لم يسأل ابتداء النبي صلى الله عليه وآله بالتعليم والتنقيف ولم يكن أحدٌ من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله كذلك ، بل كانوا أقساماً : فمنهم من يهابه أن يسأله ، وهم الذين يحبون أن يحيى الأعرابي أو الطاري فيسأله وهم يسمعون ، ومنهم من كان يليدا بعيد الفهم قليل الهمة في النظر والبحث ، ومنهم من كان مشغولاً عن طلب العلم وفهم المعاني ، إما بعبادة أو دنيا ، ومنهم المقلد يرى أن فرضه السكوت وترك السؤال ، ومنهم للبعض الشأني الذي ليس للذين عنده من الموقع ما يضيّع وقته وزمانه بالسؤال عن دقائقه وغوامضه ؛ وانضاف إلى الأمر الخاص بعلي عليه السلام ذكاؤه وفطنته ، وطهارة طينته ، وإشراق نفسه وضوءها ، وإذا كان المحل قابلاً متهيئاً ، كان الفاعل المؤثر موجوداً ، والموانع مرتفعة ، حصل الأثر على أنتم ما يمكن ؛ فلذلك كان علي عليه السلام - كما قال الحسن البصري - رباني هذه الأمة وذافضلها ؛ ولذا تسميه الفلاسفة : إمام الأئمة وحكيم العرب .

[فضل فيما وضع الشيعة والبكرية من الأحاديث]

واعلم أن أصل الأكاذيب في أحاديث الفضائل كان من جهة الشيعة ، فإنهم وضعوا

في مبدأ الأمر أحاديث مختلفة في صاحبهم ، حملهم على وضعها عداوة خصومهم ، نحو حديث « السطل » وحديث « الرمانة » وحديث غزوة البئر التي كان فيها الشياطين ، وتعرف كما زعموا بـ « ذات العلم » ، وحديث غسل سلمان الفارسي ، وطى الأرض ، وحديث الجحمة ، ونحو ذلك . فلما رأت البكرية ما صنعت الشيعة ، وضعت لصاحبها أحاديث في مقابلة هذه الأحاديث ، نحو « لو كنت متخذاً خليلاً » ، فإنهم وضعوه في مقابلة حديث الإخاء ، ونحو سد الأبواب ؛ فإنه كان لعل عليه السلام فقلبت البكرية إلى أبي بكر ، ونحو « اثوني بدواة وبياض أكتب فيه لأبي بكر كتاباً لا يختلف عليه اثنان » . ثم قال : « يا أيُّ الله تعالى والمسلمون إلا أبا بكر » ، فإنهم وضعوه في مقابلة الحديث المروي عنه في مرضه : « اثوني بدواة وبياض أكتب لكم ما لا تضلون بعده أبداً » ، فاختلفوا عنده . وقال قوم منهم : لقد غلبه الوجع ، حسبنا كتاب الله ونحو حديث : « أنا راضٍ عنك فهل أنت عني راضٍ ! » ، ونحو ذلك . فلما رأت الشيعة ما قد وضعت البكرية أو سعوافي وضع الأحاديث ، فوضعوا حديث الطوق الحديد الذي زعموا أنه قتله في عنق خالد ، وحديث اللوح الذي زعموا أنه كان في غدائر الحنفية أم محمد ، وحديث : « لا يفعل خالد ما أمر به » ، وحديث الصحيفة التي علقت عام الفتح بالكعبة ، وحديث الشيخ الذي صعد المنبر يوم بوع أبو بكر ، فسبق الناس إلى بيعته ، وأحاديث مكذوبة كثيرة تقتضي نفاق قوم من أكابر الصحابة والتابعين الأولين وكفرهم ، وعلى أدون الطبقات فيهم ، فقابلتهم البكرية بمطاعن كثيرة في عليّ وفي ولديه ، ونسبوه تارة إلى ضعف العقل ، وتارة إلى ضعف السياسة ، وتارة إلى حب الدنيا والحرص عليها . ولقد كان الفريقان في غفلة عما اكتسباه واجترأه ، ولقد كان في فضائل عليّ عليه السلام الثابتة الصحيحة ، وفضائل أبي بكر الحقة

المعلومة مايفني عن تكلف العصبية لها ، فإن العصبية لها أخرجت الفريقين من ذكر الفضائل إلى ذكر الرذائل ، ومن تعدد المحاسن إلى تعدد المساوئ والمقايح . ونسأل الله تعالى أن يعصمنا من الميل إلى الهوى وحب العصبية ، وأن يجريتنا على ماعودنا من حب الحق أين وجد وحيث كان ؛ سخط ذلك من سخط ، ورضى به من رضى ، بمنه ولطنه !

(٢٠٤)

الأضل :

ومن خطبة له عليه السلام :

وَكَانَ مِنْ أَقْتِدَارِ جَبْرُوتِهِ ، وَبَدِيعِ أَطَائِفِ صَنَعَتِهِ ، أَنْ جَعَلَ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ
الزَّائِرِ الْمُتَرَاكِهِ الْمُتَقَاصِفِ ، يَبْسًا جَامِدًا ، ثُمَّ فَطَرَ مِنْهُ أَطْبَاقًا ، فَفَتَقَهَا سَبْعَ سَمَوَاتٍ
بَعْدَ أَرْبَعَتِهَا ، فَاسْتَمْسَكَتْ بِأَمْرِهِ ، وَقَامَتْ عَلَى حَدِّهِ بِحِمْلِهَا الْأَخْضَرَ الْمُشْعِنَجِرُ ،
وَالْقَمَقَامُ الْمُسَخَّرُ .

قَدْ ذَلَّ لِأَمْرِهِ ، وَأَذْعَنَ لِتَهْيِئَتِهِ ، وَوَقَفَ الْجَارِي مِنْهُ لِخَشْيَتِهِ . وَجَبَلَ جَلَامِيدَهَا ،
وَنُشُوزَ مُتُونِهَا ، وَأَطْوَادَهَا ؛ فَأَرْسَاهَا فِي مَرَاسِيهَا ، وَأَلْزَمَهَا قَرَارَتَهَا ، فَمَضَتْ رُءُوسُهَا
فِي الْهَوَاءِ ، وَرَسَتْ أَصُولُهَا فِي الْمَاءِ ، فَأَنَهَدَ جِبَالَهَا عَنْ سُهُولِهَا ، وَأَسَاحَ قَوَاعِدَهَا فِي
مُتُونِ أَفْطَارِهَا ، وَمَوَاضِعِ أَنْصَابِهَا ، فَأَشْبَقَ قِلَالُهَا ، وَأَطَالَ أَنْشَارُهَا ، وَجَعَلَهَا لِلْأَرْضِ
عِمَادًا ، وَأَرْزَهَا فِيهَا أَوْتَادًا ، فَسَكَنَتْ عَلَى حَرَكَتِهَا مِنْ أَنْ تَمِيدَ بِأَهْلِهَا ، أَوْ تَسِيخَ
بِحِمْلِهَا ، أَوْ تَزُولَ عَنْ مَوَاضِعِهَا .

فَسُبْحَانَ مَنْ أَمْسَكَهَا بَعْدَ مَوْجَانِ مِيَاهِهَا ، وَأَجَدَهَا بَعْدَ رُطُوبَةِ أَكْنَفِهَا !
فَجَعَلَهَا لِخَلْقِهِ مِهَادًا ، وَبَسَطَهَا لَهُمْ فِرَاشًا ، فَوْقَ بَحْرِ لُجِّيٍّ رَاكِدٍ لَا يَجْرِي ، وَقَائِمٍ
لَا يَسْرِي ، تُسَكَّرُ كِرُهُ الرِّيَّاحُ الْعَوَاصِفُ ، وَتَمَخَّضُهُ الْعَمَامُ الذَّوَارِفُ .
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى !

الشَّرح :

أراد أن يقول : « وكان من افتداره » فقال : « وكان من افتدار جبروته » ، تعظيماً وتفضيلاً ، كما يقال للملك : أمرت الحضرة الشريفة بكذا .
والبحر الزاخر : الذي قد امتد جداً وارتفع .
والمتراكم : المجتمع بعضه على بعض .
والمقاصف : الشديد الصوت ، قصف الرعد وغيره قصيفاً .
واليبس ، بالتحريك : المكان يكون رطباً ثم ييبس ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً ﴾ ^(١) ، واليبس بالسكون : اليابس خِلقة ، حطب ييبس ، هكذا يقوله أهل اللغة وفيه كلام ، لأن الحطب ليس يابساً خِلقة بل كان رطباً من قبل ، فالأصوب أن يقال : لا تكون هذه اللفظة محرّكة إلا في المكان خاصة .
وفطر : خلق ، والمضارع يفطر بالضم ، فطراً .
والأطباق : جمع طبق ، وهو أجزاء مجتمعة من جراد أو غيم أو ناس أو غير ذلك من حيوان أو جماد ، يقول : خلق منه أجساماً مجتمعة مرتتقة ، ثم فتقها سبع سموات . وروى : « ثم فطر منه طباقاً » أي أجساماً منفصلة في الحقيقة متصلة في الصورة بعضها فوق بعض ، وهي من ألفاظ القرآن ^(٢) المجيد .
والضمير في « منه » يرجع إلى ماء البحر في أظهر النظر ، وقد يمكن أن يرجع إلى اليبس .

واعلم أنه قد تكرر في كلام أمير المؤمنين ما يماثل هذا القول ويناسبه ، وهو مذهب

(١) سورة طه ٧٧

(٢) وهو قوله تعالى في سورة الملك ٣ : ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ ، وقوله في سورة نوح ١٥ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ .

كثير من الحكماء الذين قالوا بحدوث السماء، منهم ثالثيس الملطي، قالوا: أصل الأجسام الماء، وخلقت الأرض من زبدته، والسماء من بخاره، وقد جاء القرآن العزيز بنحو هذا، قال سبحانه: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾^(١). قال شيخنا أبو علي وأبو القاسم رحمهما الله في تفسيريهما: هذه الآية دالة على أن الماء والعرش كانا قبل خلق السموات والأرض، قالوا: وكان الماء على الهواء، قالوا: وهذا يدل أيضا على أن الملائكة كانوا موجودين قبل خلق السموات والأرض، لأن الحكيم سبحانه لا يجوز أن يقدم خلق الجاد على خلق المكلفين، لأنه يكون عبثا.

وقال علي بن عيسى الرمانى من مشايخنا: إنه غير ممتنع أن يخلق الجاد قبل الحيوان، إذا علم أن في إخبار المكلفين بذلك لطفا لهم، ولا يصح أن يخبرهم إلا وهو صادق فيما أخبر به، وإتما يكون صادقا إذا كان المخبر خبره على ما أخبر عنه، وفي ذلك حسن تقديم خلق الجاد على خلق الحيوان. وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يدل على أنه كان يذهب إلى أن الأرض موضوعة على ماء البحر، وأن البحر حامل لما بقدره الله تعالى، وهو معنى قوله: «يحملها الأخضر المضعج، والقمقام المسخر»، وأن البحر الحامل لما قد كان جاريا فوق تحتها، وأنه تعالى خلق الجبال في الأرض، فجعل أصولها راسخة في ماء البحر الحامل للأرض وأعلىها شائخة في الهواء، وأنه سبحانه جعل هذه الجبال عمادا للأرض، وأوتادا تمنعها من الحركة والاضطراب، ولولاها لما جت واضطربت، وأن هذا البحر الحامل للأرض تصعد فيه الرياح الشديدة فتعرج حركة عنيفة، وتموج السحب التي تغترف الماء منه لتمطر الأرض به، وهذا كله مطابق لما في الكتاب العزيز، والسنة النبوية، والنظر الحكيم، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ

كَأَنَّا رَتَقًا فَقَافَقْنَا هُمَا ﴿١﴾ ، وهذا هو صريح قوله عليه السلام : « ففتقها سبع سموات بعد ارتفاقها » ، وإلى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَامِي أَنْ يَمْسُدَ بِهِمْ ﴾ (٢) ، وإلى ماورد في الخبر من أن الأرض مدحوة على الماء ، وأن الرياح تسوق السحب إلى الماء نازلة ، ثم تسوقها عنه صاعدة بعد امتلائها ، ثم تمطر

وأما النظر الحكيمى فطابق لكلامه إذا تأمله المتأمل ، وحمله على الحمل العقلى ، وذلك لأن الأرض هى آخر طبقات العناصر ، وقبلها عنصر الماء ، وهو محيط بالأرض كلها إلا مابرز منها ، وهو مقدار الربع من كورة الأرض ، على ما ذكره علماء هذا الفن وبرهنوا عليه ، فهذا تفسير قوله عليه السلام : « يَحْمِلُهَا الْأَخْضَرُ الْمُتَمَنِّجِر » .

وأما قوله : « ووقف الجارى منه لخشيته » ، فلا يدل دلالة قاطعة على أنه كان جاريا ووقف ، ولكن ذلك كلامٌ خرج مخرج التعظيم والتبجيل ، ومعناه أن الماء طبعه الجريان والسيلان ، فهو جارٍ بالقوة ، وإن لم يسكن جاريا بالفعل ، وإنما وقف ولم يجر بالفعل بقدرته الله تعالى ، المانعة له من السيلان ، وليس قوله : « ورست أصولها فى الماء » مما ينافى النظر العقلى ، لأنه لم يقل : « ورست أصولها فى ماء البحر » ، ولكنه قال : « فى الماء » ، ولا شبهة فى أن أصول الجبال راسية فى الماء المتخلخل بين أجزاء الأرض ، فإن الأرض كلها يتخلخل الماء بين أجزائها على طريق استحالة البخار من الصورة الهوائية إلى الصورة المائية .

وليس ذكره للجبال وكونها مانعة للأرض من الحركة بمُنافٍ أيضا للنظر الحكيمى لأن الجبال فى الحقيقة قد تمنع من الزلزلة إذا وجدت أسبابها الفاعلة ، فيسكون ثقلها مانعا من الهدّة والرجفة .

(١) سورة الأنبياء ٣٠

(٢) سورة الأنبياء ٣١

وليس قوله : « تكركره الرياح » منافياً لانظر الحكيم أيضاً، لأن كرة الهواء محيطة بكرة ، وقد تمصف الرياح في كرة الهواء للأسباب المذكورة في موضعها من هذا العلم ، فيتموج كثير من الكرة المائية لعصف الرياح .

وليس قوله عليه السلام : « وتمخضه الغمام الذوارف » صريحاً في أن السحب تنزل في البحر ، فتعترف منه ، كما قد يعتقد في المشهور العائى ، نحو قول الشاعر :

كالبحرِ تَمْطِرُهُ السحاب وَمَا لَهَا فَضْلٌ عَلَيْهِ لَأَنَّهُمَا مِنْ مَائِهِ

بل يجوز أن تكون الغمام الذوارف تمخضه وتحرّكه بما ترسل عليه من الأمطار السائلة منها ، فقد ثبت أن كلام أمير المؤمنين عليه السلام موجه ؛ إن شئت فسرتة بما يقوله أهل الظاهر ، وإن شئت فسرتة بما يعتقده الحكماء .

فإن قلت : فكيف قال الله تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ ؛ وهل كان الذين كفروا راينين لذلك ؛ حتى يقول لم ﴿ أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ؟

قلت : هذا في قوله : « اعلوها أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما » ، كما يقول الإنسان لصاحبه : ألم تعلم أن الأمير صرف حاجبه الليلة عن بابه ؟ أى اعلم ذلك إن كنت غير عالم ؛ والرؤية هنا بمعنى العلم .

واعلم أنه قد ذهب قوم من قدماء الحكماء - ويقال : إنه مذهب سقراط - إلى تفسير القيامة وجهتهم بما يبتنى على وضع الأرض على الماء ، فقالوا : الأرض موضوعة على الماء ، والماء على الهواء ، والهواء على النار ، والنار في حشوا الأفلاك ؛ ولما كان المنصران الخفيفان ، وهما الهواء والنار - يقتضيان صعوداً ما يحيطان به ، والمنصران الثقيلان اللذان في وسطهما وهما

الماء والأرض ؛ يقتضيان النزول والهبوط ، وقمت الممانعة والمدافعة ، فلزم من ذلك وقوف الماء والأرض في الوسط .

قالوا : ثم إن النار لا تزال تزايد تأثيرها في إسخان الماء ، وينضاف إلى ذلك حرّ الشمس والكواكب إلى أن تبلغ البحار والعنصر المائي غايتها في الغليان والفقوران ، فيتصاعد بخارٌ عظيم إلى الأفلاك شديد السخونة ، وينضاف إلى ذلك حرّ فلّك الأثير الملاصق للأفلاك فتذوب الأفلاك كما يذوب الرصاص ، وتتهافت وتنساقط وتصبح كالمهل الشديد الحرارة . ونفوس البشر على قسمين : أحدهما ما تجوّهر وصار مجردا بطريق العلوم والمعارف وقطع العلائق الجسمانية حيث كان مدبرا للبدن ، والآخر ما بقي على جسمانيته بطريق خلوه من العلوم والمعارف ، وانغمسه في اللذات والشهوات الجسمانية ، فأما الأول فإنه يلتحق بالنفس الكلية المجردة ، ويخلص من دائرة هذا العالم بالكلية . وأما الثاني فإنه تنصب عليه تلك الأجسام الفلكية الدائبة ، فيحترق بالكلية ، ويتمذب ويلقى آلاما شديدة . قالوا : هذا هو باطن ماوردت به الرواية من العذاب عليها ، وخراب العالم والأفلاك وانهدامها .

ثم نعود إلى شرح الألفاظ :

قوله عليه السلام : « فاستمسكت » ، أى وقفت وثبتت .

والماء في « حده » نعود إلى أمره ، أى قامت على حد ما أمرت به ؛ أى لم تتجاوز له ولا تعدته .

والأخضر : البحر ، ويسمى أيضا « خضارة » معرفة غير مصروف ، والعرب تسميه بذلك ؛ إما لأنه يصف لون السماء فيرى أخضر ، أو لأنه يرى أسود لصفائه فيطلقون عليه لفظ

الأخضر؛ كما سموا الأخضر أسود، نحو قوله: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾^(١)، ونحو تسميتهم قرى العراق سوادا لخضرتها وكثرة شجرها، ونحو قولهم للديزج^(٢) من الدواب أخضر.

المشعجر : السائل، ثم جرت الدم وغيره فاذمنجر، أى صببته فانصب، وتصغير للمشعجر مُشَيِّج ومُشَيِّج .

والقمقام، بالفتح : من أسماء البحر، ويقال لمن وقع في أمر عظيم : وقع في قمام من الأمر، تشبيها بالبحر.

قوله عليه السلام : « وَجَبَلْ جَلَامِيْدَهَا » ، أى وخلق صخورها ؛ جمع جُلُود .
والنشوز : جمع نَشَز ، وهو المرتفع من الأرض . ويجوز فتح الشين .
ومتونها : جوانبها . وأطوادها : جبالها : « وىروى » : « وأطوادها » بالجر عطف على متونها .
فأرساها فى مراسيها ، أثبتها فى مواضعها ، رسا الشئ يرسو : ثبت . ورسى أفداهم فى الحرب : ثبتت ، ورسى السفينة ترسو رسوا ورسوا ، أى وقفت فى البحر . وقوله تعالى :
﴿ بِسْمِ اللَّهِ تُجْرَاهَا وَتُرسَاها ﴾^(٣) ؛ بالضم من أجريت وأرسلت ، ومن قرأ بالفتح فهو من « رست » هى ، « وجرت » هى .

وألزمها قراراتها : أمسكها حيث استقرت .
قوله : « فأنهدجبالها » ، أى أعلاها . نهدي الجارية ينهد بالضم ، إذا أشرف وكمعب ،
فهى ناهد وناهدة .

وسهولها : ما نظامن منها عن الجبال .
وأساخ قواعدها ، أى غيب قواعد الجبال فى جوانب أقطار الأرض ، ساخت قوائم

(٢) فى اللسان : « يقال : فرس أخضر ، وهو الديزج » .

(١) سورة الرحمن ٦٤ .

(٣) سورة هود ٤١ .

الفرس في الأرض تَسُوخ وتَسِيخ ، أى دخلت فيها وغابت ، مثل ثاخت ، وأسختها أنا
مثل أُنخِثها .

والأنصاب: الأجسام المنصوبة ، الواحد نُصْب بضم الفون والصاد ، ومنه سميت الأصنام
نُصْبًا في قوله تعالى: ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ﴾ ^(١) ؛ لأنها نصبت فعبدت من دون الله ،
قال الأعشى :

وذا النُّصْب المنصوب لا تنسكَنه لعاقبة ، والله ربك فاعبد ^(٢)
أى وأساخ قواعد الجبال في متون أقطار الأرض ؛ وفي المواضع الصالحة لأن تكون
فيها الأنصاب المائلة ، وهى الجبال أنفسها .
قوله : « فأشهى قَلَامها » ، جمع قَلَّة وهى ما علا من رأس الجبل ، أشهتها : جعلها
شاهقة ، أى عالية .

وَأَرْزَها : أثبتها فيها ، رزت الجرادة تَرُزُّرَزًا ، وهو أن تدخل ذنبها في الأرض
فتلحق بيضها ، وَأَرْزَها الله : أثبت ذلك منها في الأرض ، ويجوز « أَرَزت » ، لازما غير متعد ،
مثل رزت ، وارتز السهم في القرطاس : ثبت فيه . وروى « وآرزها » بالمد من قولهم :
شجرة آرزة ، أى ثابتة في الأرض ، أَرَزت بالفتح ، تأريز بالكسر ، أى ثبتت ، وآرزها بالمد -
غيرها ، أى أثبتها .

وتמיד : تتحرك . وتسيخ : تنزل وتهوى .
فإن قلت : ما الفرق بين الثلاثة : تميد بأهلها ، أو تسيخ بحملها ، أو نزول
عن مواضعها ؟

قلت : لأنها لو تحركت لكانت إما أن تتحرك على مركزها أو لا على مركزها ،

(١) سورة المائدة ٣ .

(٢) ديوانه ١٠٣ .

والأوّل هو المراد بقوله : « تميد بأهلها » ، والثاني تنقسم إلى أن تنزل إلى تحت أو لا تنزل إلى تحت ، فالنزول إلى تحت هو المراد بقوله : « أو تسبخُ بجمَلها » والقسم الثاني هو المراد بقوله : « أو تزول عن مواضعها » .

فإن قلت : ما المراد بـ « على » في قوله : « فسكنت على حركتها » ؟ . قلت : هي لهيئة الحال ، كما تقول عفوت عنه على سوء أدبه ، ودخلت إليه على شربه ، أى سكنت ، على أن من شأنها الحركة ؛ لأنها محمولة على سائل متموج . قوله : « مَوْجَان مياهما » ، بناء « قَمَلَان » لما فيه اضطراب وحركة كالغليان والزّوان والتخفّعان ، ونحو ذلك .

وأجدها ، أى جعلها جامدة . وأكنافها : جوانبها . والمهاد : الفراش . فوق بحر لحيّ : كثير الماء ، منسوب إلى اللّجة ، وهي معظم البحر . قوله : « يكركرة الرياح » ، الكركرة : تصريف الريح السّحاب إذا جمعت بعد تفريق وأصله « يكرّر » من التكرير ، فأعادوا السّكاف ، كركرت الفارس عني أى دفعته ورددته . والرياح العواصف : الشديدة المهبوب . وتمخّضه ، يجوز فتح الخاء وضمّها وكسرهما ، والفتح أفصح ؛ لمكان حرف الحلق ، من تخّضت الابن ، إذا حركته لتأخذ زبده . والغمام : جمع ، والواحدة غمامة ، ولذلك قال : « الذّوارف » ، لأنّ « فواعل » أكثر ما يكون لجمع المؤنث ، ذرفت عينه أى دمعت ، أى السحب الماطر ، والمضارع من « ذرفت » عينه « تذرّف » بالكسر ، ذَرَفَا وَذَرَفَا . والمذارف : المدامع .

(٢٠٥)

الأفضل :

ومن خطبة له عليه السلام :

اللَّهُمَّ أَيُّمَا عَبْدٍ مِنْ عِبَادِكَ تَمِيعَ مَقَاتِلِنَا الْعَادِلَةَ غَيْرَ الْجَائِرَةِ ، وَالْمُصْلِحَةَ فِي الدِّينِ
وَالدُّنْيَا غَيْرَ الْمُفْسِدَةِ ، فَأَبَى بَعْدَ تَمِيمِهِ لَهَا إِلَّا التَّكْوِصَ عَنْ نُصْرَتِكَ ، وَالْإِبْطَاءَ عَنْ
إِعْزَازِ دِينِكَ ، فَإِنَّا نَسْتَشْهِدُكَ عَلَيْهِ يَا كَبِيرَ الشَّاهِدِينَ شَهَادَةً ، وَنَسْتَشْهِدُ عَلَيْهِ
بِجَمِيعِ مَا أَسْكَنْتَهُ أَرْضَكَ وَسَمَوَاتِكَ . ثُمَّ أَنْتَ بِنَدْوِهِ الْمُنْفِيِّ عَنْ نُصْرِهِ ،
وَالْأَخِذِ لَهُ بِذَنْبِهِ .

الشرح :

باقى « أَيُّمَا » زائدة مؤكدة ، ومعنى الفصل وعيدٌ مَنْ استنصره ففقد عن نصره ،
ووصف للقالة بأنها عادلة ، إما تأكيد ، كما قالوا : شعر شاعر ، وإما ذات عدل ،
كما قالوا : رجل تامر ولابن ، أى ذو نمر وابن ، ويجوز أيضاً أن يريد بالعدالة المستقيمة
التي ليست كاذبة ولا محرقة عن جهتها ، والجائرة تقيضها وهى المعرفة ، جاز فلان عن
الطريق ، أى انحرف وعدل .

والنكوص : التأخر .

قوله عليه السلام : « نَسْتَشْهِدُكَ عَلَيْهِ » ، أى نسألك أن تشهد عليه ، ووصفه تعالى

بأنه أكبر الشاهدين شهادة، لقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ ﴾^(١) ،
يقول : اللهم إنا نستشهدك على خذلان من استنصرناه ، واستنفرناه إلى نصرتك ، والجهاد
عن دينك فأبى النهوض ، ونسكت عن القيام بواجب الجهاد ، ونستشهد عبادك ، من البشر
في أرضك ، وعبادك من الملائكة في سمواتك عليه أيضاً ، ثم أنت بعد ذلك المغنى لنا عن
نصرتك ونهضته ، بما تتيحه لنا من النصر ، وتؤيدنا به من الإعزاز والقوة ، والآخذ له
بذنبه في القعود والتخلف .

وهذا قريب من قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَقُولُوا يَسْتَبدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا
أَمْثَالَكُمْ ﴾^(٢) .

(١) سورة الأنعام ١٩

(٢) سورة محمد ٢٨

(٢٠٦)

الأفضل :

ومن خطبة له عليه السلام :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ عَنْ شَبِّهِ الْمَخْلُوقِينَ ، الْغَالِبِ لِمَقَالِ الْوَاصِفِينَ ، الظَّاهِرِ بِمَجَائِبِ تَدْيِيرِهِ لِلنَّاطِرِينَ ؛ وَالْبَاطِنِ بِجَلَالِ عِزَّتِهِ عَنْ فِكْرِ الْمُتَوَهِّمِينَ . أَلْعَالِمِ بِلَا اكْتِسَابٍ وَلَا أَرْذِيَادٍ ؛ وَلَا عِلْمٍ مُسْتَفَادٍ ، الْمُقَدَّرِ لِجَمِيعِ الْأُمُورِ بِلَا رَوِيَّةٍ وَلَا ضَمِيرٍ ، الَّذِي لَا تَعْنَاهُ الظُّلُمُ ، وَلَا يَسْتَضِيهِ بِالْأَنْوَارِ ، وَلَا يَرْتَفِعُهُ لَيْلٌ وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ نَهَارٌ . لَيْسَ إِذْرَاكُهُ بِالْإِبْصَارِ ، وَلَا عِلْمُهُ بِالْإِخْبَارِ .

الشرح :

يجوز شَبِّه وشَبِّهه، والرواية هاهنا بالفتح، وتعالیه سبحانه عن شَبِّه المخلوقين ؛ كونه قديما واجب الوجود ، وكل مخلوق محدث ممكن الوجود .

قوله: « الغالب لمقال الواصفين »، أى إن كُنْه جلاله وعظمته ، لا يستطيع الواصفون وصفه وإن أطنبوا وأسهبوا ، فهو كالغالب لأقوالهم لمجزئها عن إيضاحه وبلوغ منتهاه ، والظاهر، بأفعاله ، والباطن بذاته ، لأنه إنما يعلم منه أفعاله : وأما ذاته فغير معلومة .

ثم وصف علمه تعالى فقال: إنه غير مكتسب كما يكتسب الواحد منّا علومه بالاستدلال والتفكير ، ولا هو علم يزداد إلى علومه الأولى كما تزيد علوم الواحد منّا ومعارفه ، وتكثر لكثرة الطرق التي يتطرق بها إليها .

ثم قال : « ولا علم مُستفاد » ، أى ليس يعلم الأشياء بعلم محدث مجدد كما يذهب إليه جَتهِم وأتباعه وهشام بن الحكم ، ومن قال بقوله .
ثم ذكر أنه تعالى قدّر الأمور كلّها بغير روية ، أى بغير فكر ولا ضمير ، وهو ما يطويه الإنسان من الرأى والاعتقاد والعزم فى قلبه .

ثم وصفه تعالى بأنه لا يفشاء ظلامٌ ، لأنه ليس بجسم ، ولا يستضيء بالأنوار ؛ كالأجسام ذوات البصر . ولا يزهقه ليل ، أى لا يفشاء . ولا يجرى عليه نهار ، لأنه ليس بزمانى . ولا قابل للحركة ، ليس إدراكه بالإبصار ، لأنّ ذلك يستدعى المقابلة . ولا علمه بالإخبار مصدر أخبر ، أى ليس علمه مقصوراً على أن تخبره الملائكة بأحوال المكلفين ، بل هو يعلم كلّ شيء ، لأنّ ذاته ذات واجب لها أن تعلم كلّ شيء لجرّد ذاتها المخصوصة ، من غير زيادة أمر على ذاتها .

الأصل :

منها فى ذكر النبي صلى الله عليه وآله :

أَرْسَلَهُ بِالضِّيَاءِ ، وَقَدَّمَهُ فِي الْأَصْطِفَاءِ ، فَرَّتْ بِهِ الْمَقَاتِقُ ، وَسَاوَرَهُ الْمَغَالِبُ ، وَذَلَّلَ بِهِ الصُّعُوبَةَ ، وَسَهَّلَ بِهِ الْخُزُونَةَ ، حَتَّى سَرَّحَ الضَّلَالَ ، عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ .

الشرح :

أرسله بالضياء ، أى بالحق ، وسمى الحق ضياء ، لأنه يهتدى به ، أو أرسله بالضياء أى بالقرآن .

وقدّمه في الإصطفاء ، أى قدّمه في الإصطفاء على غيره من العرب والعجم ، قالت قریش : ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ﴾ ^(١) ، أى على رجل من رجلين من القريتين عظيم ؛ أى إمّا على الوليد بن المغيرة من مكّة ، أو على عروة بن مسعود الثقفي .. من الطائف .

ثم قال تعالى : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾ ^(٢) ، أى هو سبحانه العالم بالمصلحة في إرسال الرسل ، وتقديم من يرى في الإصطفاء على غيره .
فرتق به المفاتق ، أى أصلح به المفاسد ، والرتق ضدّ الفتق ، والمفاتق : جمع مَفْتَق ، وهو مصدر ؛ كالمضرب والمقتل .

وساور به المغالب : ساورتُ زيدا أى واثبته ، ورجل سوار ، أى وثّاب ، وسورة النحر : وثوبها في الرأس .

والجرونة ضدّ السهولة ، والحزن : ماغلظ من الأرض . والسمل : مالان منها ، واستعير لغير الأرض كالأخلاق ونحوها .

قوله : « حتى مروح الضلال » ، أى طرده وأمرع به ذهابا .
عن يمين وشمال ، من قولهم : ناقة سرح ومنسرحة ، أى سريعة . ومنه تسريح المرأة ، أى تطليقها .

(١) سورة الإخرف ٣١

(٢) سورة الإخرف ٣٢

(٢٠٧)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

وَأَشْهَدُ أَنَّهُ عَدْلٌ عَدْلٌ ، وَحَكَمٌ فَصَلٌ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ،
وَسَيِّدُ عِبَادِهِ ، كَلَّمَا نَسَخَ اللَّهُ الْخَلْقَ فِرْقَتَيْنِ جَعَلَهُ فِي خَيْرِهِمَا ، لَمْ يُسْهِمَ فِيهِ عَاهِرٌ ،
وَلَا ضَرْبَ فِيهِ فَاجِرٌ . أَلَا وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَمَلَ لِلْخَيْرِ أَهْلًا ، وَلِلْحَقِّ دَعَائِمَ ،
وَلِلطَّاعَةِ عِصْمًا ، وَإِنْ لَكُمْ عِنْدَ كُلِّ طَاعَةٍ عَوْنًا مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، يَقُولُ كَلَى الْأَلْسِنَةِ ؛
وَيُثَبِّتُ بِهِ الْأَفْئِدَةَ ؛ فِيهِ كِفَالٌ لِمُكْتَفٍ ، وَشِفَاءٌ لِمُسْتَشْفٍ .

وَأَعْلَمُوا أَنَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُسْتَخْفِظِينَ عِلْمَهُ ، يَصُونُونَ مَصُونَهُ ، وَيُفَجِّرُونَ عُيُونَهُ ؛
يَتَوَاصِلُونَ بِالْوِلَايَةِ ، وَيَتَلَاقُونَ بِالْمَحَبَّةِ ، وَيَتَسَاقُونَ بِكَاسِ رَوْيَةٍ ، وَيَبْصُرُونَ
بِرِيَّةٍ . لَا تَشَوُّهُمْ الرِّيْبَةُ ، وَلَا تُسْرِعُ فِيهِمُ الْغَيْبَةُ ؛ كَلَى ذَلِكَ عَقْدَ خَلْقِهِمْ
وَأَخْلَاقِهِمْ ، فَمَكَلِيَّةٍ يَتَحَابُّونَ ، وَبِهِ يَتَوَاصِلُونَ ، فَكَانُوا كَتَفَاضِلِ الْبَذْرِ يُنْتَقَى ، فَيُؤْخَذُ
مِنْهُ وَيُلْقَى ، قَدْ مَيَّزَهُ التَّخْلِيصُ ، وَهَدَّاهُ التَّمْجِيسُ .

فَلْيَقْبَلِ أَمْرُؤُكَ كَرَامَةً يَقْبُولُهَا ، وَلْيَحْذَرْ قَارِعَةً قَبْلَ حُلُولِهَا ، وَلْيَنْظُرْ أَمْرُؤُ فِي
قَصِيرِ أَيَّامِهِ وَقَلِيلِ مُقَامِهِ فِي مَنْزِلٍ ، حَتَّى يَسْتَبْدِلَ بِهِ مَنْزِلًا ؛ فَلْيَصْنَعْ لِمُتَحَوَّلِهِ ،
وَمَعَارِفِ مُنْتَقَلِهِ .

فَطُوبَى لِمَنْ لَدَى قَلْبٍ سَلِيمٍ ، أَطَاعَ مَنْ يَهْدِيهِ ، وَتَجَنَّبَ مَنْ يُرِيدِهِ ، وَأَصَابَ سَبِيلَ
السَّلَامَةِ بِبَصَرٍ مِنْ بَصَرِهِ ، وَطَاعَةَ هَادٍ أَمْرَهُ ، وَبَادَرَ الْهُدَى قَبْلَ أَنْ تُفْلَقَ أَبْوَابُهُ ،

وَتَقَطَّعَ أَسْبَابُهُ ، وَأَسْتَفْتَحَ التَّوْبَةَ ، وَأَمَاطَ الْحَوْبَةَ ، فَقَدْ أَقِيمَ عَلَى الطَّرِيقِ ، وَهُدِيَ
نَهْجَ السَّبِيلِ .

الْبُزْج :

الضمير في « أنه » يرجع إلى القضاء والقدر المذكور في صدر هذه الخطبة ، ولم يذكره
الرضي رحمه الله ؛ يقول : أشهد أن قضاءه تعالى عدلٌ وعدلٌ وحكمٌ بالحق ، فإنه حكّم
فصل بين العباد بالإلصاف ، ونسب العدل والفصل إلى القضاء على طريق المجاز ، وهو
بالحقيقة منسوب إلى ذى القضاء ، والقاضى به هو الله تعالى .

قوله : « سيّد عباده » ، هذا كالجموع عليه بين المسلمين ، وإن كان قد خالف فيه
شذوذٌ منهم ، واحتجّ الجمهور بقوله : « أنا سيّد ولد آدم ولا نفر » ، وبقوله : « ادعوا إلى
سيّد العرب عليّاً » ، فقالت عائشة : ألسنت سيّد العرب ! فقال : « أنا سيّد البشر ، وصلى
سيّد العرب » ، وبقوله : « آدم ومنّ دونه تحت لوائى » .

واحتجّ الخالف بقوله عليه السلام : « لا تفضلوني على أخى يونس بن متى » .
وأجاب الأولون تارةً بالطعن في إسناد الخبر ، وتارةً بأنه حكاية كلام حكاها صلى الله
عليه وآله عن عيسى بن مريم ، وتارةً بأن النهى إنما كان عن الغلو فيه كما غلت الأمم في
أنبيائها ، فهو كما ينهى الطبيب المريض فيقول : لا تأكل من الخبز ولا درهما ، وليس
مراده تحريم أكل الدرهم والدرهمين ، بل تحريم ما يستضرّ بأكله منه .

قوله عليه السلام : « كلّما نسخ الله الخلق فرقتين جعله في خيرهما » ، النسخ : النقل ،
ومنه نسخ الكتاب ، ومنه نسخت الريح آثار القوم ، ونسخت الشمس الظل ، يقول :

كلما قسم الله تعالى الأب الواحد إلى ابنين ، جعل خيرهما وأفضلهما لولادة محمد عليه السلام ، وسمى ذلك نسخا ، لأن البطن الأول يزول ، ويخلفه البطن الثاني ، ومنه مسائل للمناسبات في الفرائض .

وهذا المعنى قد ورد مرثوعاً في عدة أحاديث ، نحو قوله صلى الله عليه وآله : « ما افترت فرقتان منذ نسل آدم ولده إلا كنت في خيرهما » .

ونحو قوله : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل مضر ، واصطفى من مضر كنانة ، واصطفى من كنانة قريشا ، واصطفى من قريش هاشما ، واصطفاني من بني هاشم » .

قوله : « لم يسهم فيه طاهر ، ولا ضرب فيه فاجر » ، لم يسهم : لم يضرب فيه طاهر بسهم ، أى بنصيب ، وجمعه سهمان ، والطاهر : ذو العهر ، بالتحريك وهو الفجور والزنا ، ويجوز تسكين الماء ، مثل نهر ونهر ، وهذا هو المصدر ، والماضى عهر بالفتح ، والاسم العهر ، بكسر العين وسكون الماء ، والمرأة طاهرة ومماهرة وعييرة ، وتميهر الرجل إذا زنى ، والفاجر كالعاهر هاهنا ، وأصل الفجور : الميل ، قال أبيد :

فإن تَقَدَّمَ نَفْسٌ مِنْهَا مَقْدَمًا غَلِيظًا ، وإن أَخَرَتْ فَالْكِفْلُ فَاجِرٌ^(١)

يقول : مقعد الرديف مائل .

[ذكر بعض المطاعن في النسب وكلام للجاحظ في ذلك]

وفي الكلام رمز إلى جماعة من الصحابة في أنسابهم طعن ، كما يقال : إن آل سعد ابن أبي وقاص ليسوا من بني زهرة بن كلاب ، وإنما هم من بني عذرة من قحطان ،

وكما قالوا : إن آل الزبير بن العوام من أرض مصر من القبط ، وليسوا من بنى أسد بن عبد المزى . قال المهيم بن عدى في كتاب " مثالب العرب " : إن خوَيْلد بن أسد بن عبد المزى كان أبى مصر ثم انصرف منها بالعوام ، فتبنّاه ، فقال حسان بن ثابت يهجو آل العوام بن خوَيْلد :

بَنَى أَسَدٌ مَابَالُ آلِ خُوَيْلِدٍ يَحْتَنُونَ شَوْقًا كُلَّ يَوْمٍ إِلَى الْقِبْطِ ^(١)
مَتَى يَذْكُرُوا قَهْقَى يَحْتَوُوا لَذْكَرَهَا وَالرَّمْثَ الْقُرُونِ وَالسَّمَكِ الرَّقِطِ
عَيُونَ كَأَمْثَالِ الزَّجَاجِ وَضَمِيمَةٌ تَخَالِفُ كَعْبًا فِي لِحَى كَثْفَةٍ تُط ^(٢)
يُرَى ذَاكَ فِي الشَّهَابِ وَالشَّيْبِ مِنْهُمْ مَيِّمِنَا فِي الْأَطْفَالِ وَالْجَلَّةِ الشَّمْطِ
لَعَمْرُؤُا أَبَى الْعَوَامِ إِنَّ خُوَيْلِدًا غَدَاةَ تَبْنَاهُ لِيُوثِقَ فِي الشَّرْطِ ^(٣)
وكما يقال في قوم آخرين : نرفع هذا الكتاب عن ذكر ما يُطعنُ به في أنسابهم ، كي لا يظنّ بنا أننا نجب المقالة في الناس .

قال شيخنا أبو عثمان في كتاب " مفاخرات قریش " : لاخيرَ في ذكر العيوب إلا من ضرورة ، ولا نجد كتاب مثالب قط إلا لدعى أو شعوبى ، ولست واجده لصحيح النسب ، ولا لقليل الحسد ، وربما كانت حكاية الفحش أفسح من الفحش ، ونقل الكذب أقبح من الكذب . وقال النبي صلى الله عليه وآله : « اعف عن ذى قبر » ، وقال : « لا تؤذوا الأحياء بسب الأموات » ، وقيل في المثل : « يكفيك من شرّ سماعه » . وقالوا : أسمعك من أبلغك ، وقالوا : من طلب عيبا وجده ، وقال النابغة :

وَلَسْتُ بِمُسْتَبْقٍ أَخَا لَا تَلُهُ عَلَى شَعَثٍ ، أَيُّ الرِّجَالِ الْمَهْذَبِ ^(٤)

(١) ديوانه ٢٣٩ .

(٢) يقال : رجل ط وأنط ؛ إذا عرى وجهه من الشعر لإطافات في أسفل ضلعه .

(٣) يريد شرط الخليفة .

(٤) ديوانه ١٤ .

قال أبو عثمان : وبلغ عمر بن الخطاب أن أناسا من رؤاة الأشعار وحملة الآثار يعيبون الناس ، ويثلبونهم في أسلافهم ، فقام على المنبر ، وقال : أيّاكم وذكر العيوب ، والبحث عن الأصول ، فلو قلت : لا يخرج اليوم من هذه الأبواب إلّا من لا وصمة فيه لم يخرج منكم أحد . فقام رجل من قريش - نكره أن نذكره - فقال : إذا كنت أنا وأنت يا أمير المؤمنين نخرج ! فقال : كذبت ، بل كان يقال لك ، يا قين ابن قين ، اقعدا قلت : الرجل الذي قام هو المهاجر بن خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي ، كان عمره يفيضه لبفضه أباه خلدا ، ولأن المهاجر كان علويّ الرأي جدا ، وكان أخوه عبد الرحمن بخلافه ، شهد المهاجر صقيّين مع عليّ عليه السلام ، وشهدا عبد الرحمن مع معاوية ، وكان المهاجر مع عليّ عليه السلام في يوم الجمل ، وفقت ذلك اليوم عينه . ولأن الكلام الذي بلغ عمر بلغه عن المهاجر ، وكان الوليد بن المغيرة مع جلالته في قريش - وكونه يسمى ريحانة قريش ، ويسمى العدل ، ويسمى الوحيد - حدّادا يصنع الدروع وغيرها بيده ، ذكر ذلك عنه عبد الله بن قتيبة في كتاب " المعارف " (١) .

وروى أبو الحسن المدائنيّ هذا الخبر في كتاب " أمّات الخلفاء " ، وقال : إنه روى عند جعفر بن محمد عليه السلام بالمدينة ، فقال : لا تلمه يا ابن أخي ، إنه أشفق أن يُحدّج (٢) بقضية نفيل بن عبد العزى وصهاك أمة الزبير بن عبد المطلب . ثم قال : رحم الله عمرا فإنه لم يعد السنة ، وتلا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٣) .

أمّا قول ابن جرير الآمليّ الطبرستانيّ في كتاب " المسترشد " : إن عثمان والد

(١) المعارف ٢٥٠

(٢) يقال : حدّجه بذنب غيره ؛ أي عزاه إليه

(٣) سورة النور ١٩

أبي بكر الصديق كان ناكحاً أم الخير ابنة أخته ، فليس بصحيح ، ولكنتها ابنة عمه ، لأنها ابنة صخر بن عامر ، وعثمان هو ابن عمرو بن عامر ؛ والعجب لمن أتبعه من فضلاء لإمامية على هذه المقالة من غير تحقيق لها من كتب الأنساب ، وكيف تتصور هذه الواقعة في قريش ، ولم يكن أحدٌ منهم مجوسياً ولا يهودياً ، ولا كان من مذهبهم حلّ نكاح بنات الأخ ولا بنات الأخت !

ثم نعود لإتمام حكاية كلام شيخنا أبي عثمان ، قال : ومتى يقدر الناس - حفظك الله - على رجل مسلم من كل أئمة ، ومبرأ من كل آفة ؛ في جميع آبائه وأمهاته وأسلافه وأصهاره ، حتى تسلم له أخواله وأعمامه ، وخالاته وعماته ، وأخوانه وبناته ، وأمهات نسائه ، وجميع من يناسبه من قبل جداته وأجداده ، وأصهاره وأختانه ؛ ولو كان ذلك موجوداً لما كان لنسب رسول الله صلى الله عليه وآله فضيلة في النقاء والتهديب ، وفي التصفية والتدقيق ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « ماسني عرق سيفاً قط ، ومازلت أنقل من الأصلاب السايمة من الوصوم ^(١) ، والأرحام البريئة من العيوب » ، فلسنا نقضي لأحدٍ بالنقاء من جميع الوجوه ، إلا لنسب من صدقه القرآن ، واختاره الله على جميع الأنام ، وإلا فلا بد من شيء يكون في نفس الرجل أو في طرفيه ، أو في بعض أسلافه ، أو في بعض أصهاره ؛ ولكنه يكون مغطى بالصالح ، ومحجوب بالفضائل ، ومغموراً بالمناقب .

ولو تأملت أحوال الناس ، لوجدت أكثرهم عيوباً أشدّهم تمييزاً ، قال الزُّبرقان من بدر : ما استب رجلان إلا غلب الأُمهما . وقال : خصلتان كثيرتان في امرئ السوء :

(١) الوصوم : العيوب .

كثرة اللطام ، وشدة السباب ، ولو كان ما يقوله أصحابُ المثالب حقاً ، لما كان على ظهرها عربى ، كما قال عبد الملك بن صالح الهاشمي : إنَّ كَانَ ما يقول بعضٌ في بعض حقاً ، فما فيهم صحيح ، وإن كان ما يقول بعضُ المتكلمين في بعض حقاً ، فما فيهم مسلم !

قوله عليه السلام : « أَلَا وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ جَعَلَ لِلْخَيْرِ أَهْلًا ، وَلِلْحَقِّ دُعَاءً ، وَلِلطَّاعَةِ عِصْمًا » . الدعاء : ما يدعى بها البيت لئلا يسقط ، والعِصْم : جمع عصمة ، وهو ما يحفظ به الشيء ويمنع ، فأهل الخير هم المتقون . ودعائهم الحق : الأدلة الموصلة إليه المنيبة له في القلوب . وعِصْم الطاعة : هي الإدمان على فعلها ، والتمرن على الإتيان بها ، لأن المرون على الفعل يكسب الفاعل مَسَكَةً تقتضى سهواته عليه . والعون هاهنا : هو اللطف المقرب من الطاعة ، للمبعد من القبيح .

ثم قال عليه السلام : « إِنَّهُ يَقُولُ عَلَى الْأَلْسِنَةِ ، وَيُثَبِّتُ الْأَفْئِدَةَ » ، وهذا من باب التوسّع والمجاز ، لأنه لما كان مستهلاً للقول أطلق عليه أنه يقول على الألسنة ، ولما كان الله تعالى هو الذي يثبت الأفئدة ، كما قال : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾ ^(١) ، نسب التثبيت إلى اللطف ، لأنه من فعل الله تعالى ، كما ينسب الإنبات إلى المطر ، وإنما المنبت للزّرع هو الله تعالى ، والمطر فعله .

ثم قال عليه السلام : « فِيهِ كِفَايَةٌ لِمَكْتَفٍ ، وَشِفَاءٌ لِمُسْتَقِفٍ » ، والوجه فيه « كفاية » ، فإنّ الهمز لا وجه له هاهنا ، لأنه من باب آخر ؛ ولكنه أتى بالهمزة للازدواج بين « كفاء » ،

(١) سورة إبراهيم ٢٧ .

و « شفاء » كما قالوا : الغدايا والعشايا ، وكما قال عليه السلام : « مأزورات غير مأجورات » ، فأتى بالهمز ، والوجه الواو ، للازدواج .

[ذكر بعض أحوال العارفين والأولياء]

ثم ذكر العارفين ، فقال : « وأعلموا أن عباد الله المستحفظين علمه » ، إلى قوله : « وهذبه التخصيص » .

واعلم أن الكلام في العرفان لم يأخذه أهل الملة الإسلامية إلا عن هذا الرجل ، ولعمري لقد بلغ منه إلى أقصى الغايات ، وأبعد النهايات . والعارفون هم القوم الذين اصطفاهم الله تعالى ، وانتخبهم لنفسه ، واختصهم بأنسه ، أحبهم فأحبهم ، وقربوا منه فقرّب منهم . وقد تكلم أرباب هذا الشأن في المعرفة والعرفان ، فكل نطق بما وقع له ، وأشار إلى ما وجدته في وقته .

وكان أبو علي الدقاق يقول : من أمارات المعرفة حصول الهيبة من الله ، فن ازدادت معرفته ازدادت هيئته .

وكان يقول : المعرفة توجب السكينة في القلب ، كما أن العلم يوجب السكون ، فمن ازدادت معرفته ازدادت سكينته .

وسئل الشُّبلي عن علامات العارف ، فقال : ليس لعارف علامة ، ولا لمحِب سكون ، ولا لخائف قرار .

وسئل مرة أخرى عن المعرفة ، فقال : أولها الله ، وآخرها ما لا نهاية له . وقال أبو حفص الحدّاد : منذُ عرفت الله ما دخل قلبي حق ولا باطل . وقد أشكل هذا الكلام على أرباب هذا الشأن ، وتأوله بعضهم ، فقال : عند القوم أن المعرفة توجب

غَيْبِيَّة العبد عن نفسه لاستيلاء ذكر الحق عليه ، فلا يشهد غير الله ، ولا يرجع إلا إليه ،
وكأن العاقل يرجع إلى قلبه وتفكره وتذكّره فيما يسنح له من أمر ، أو يستقبله من حال ،
فالعارف رجوعه إلى ربه ، لا إلى قلبه ، وكيف يدخل المعنى قلب مَنْ لا قلب له !

وسئل أبو يزيد البسطامي عن العرفان ، فقال : ﴿ إِنِّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا
وَجَمَعُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِنَّةً ﴾^(١) ، وهذا معنى ما أشار إليه أبو حفص الحدّاد .

وقال أبو يزيد أيضاً : للخلق أحوال ، ولا حال للعارف ، لأنّه محيى رسومه وفنى
هو ، وصارت هوّيّته هوّيّة غيره ، وغيب آثاره في آثار غيره .
قلت : وهذا هو القول بالاتحاد الذى يبحث فيه أهل النظر .

وقال الواسطى : لانصح المعرفة وفي العبد استغفانه بالله ، أو افتقار إليه . وتسرّب بعضهم
هذا الكلام ، فقال : إنّ الافتقار والاستغناء من أمارات صحّو العبد وبقاء رسومه على
ما كانت عليه ، والعارف لا يصبح ذلك عليه ، لأنّه لاستهلاكه في وجوده ، أو لاستغراقه
في شهوده ؛ إن لم يبلغ درجة الاستهلاك في الوجود مخطف عن إحساسه بالذنى والفقر وغيرهما
من الصفات ، ولهذا قال الواسطى : مَنْ عَرَفَ اللَّهَ انقطع وخرس وانقطع ، قال صلى الله
عليه وآله : « لأحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .

وقال الحسين بن منصور الخلاج : علامة العارف أن يكون فارغاً من الدنيا والآخرة .
وقال سهل بن عبد الله التستري : غاية العرفان شيثان : الدّش والحيرة .
وقال ذو النّون : أعرفُ النَّاسُ بالله أشدّهم تحييراً فيه .

وقيل لأبي يزيد : بماذا وصلت إلى المعرفة ؟ قال : بيدنٍ عارٍ ، وبطنٍ جائع .

وقيل لأبي يعقوب السوسى: هل يتأسف العارف على شيء غير الله؟ فقال: وهل يرى شيئاً غيره، ليتأسف عليه!

وقال أبو يزيد: العارف طيار، والزاهد سيّار.

وقال الجنيد: لا يكون العارف عارفاً حتى يكون كالأرض يَطْوُها البرّ والفاجر، وكالسحاب يُظَلّ كل شيء، وكالمطر يسقي ما ينبت وما لا ينبت.

وقال يحيى بن معاذ: يخرج العارف من الدنيا، ولا يقضى وطره من شيتين: بكائه على نفسه، وحبّه لربه.

وكان ابن عطاء يقول: أركان المعرفة ثلاثة: الهيبة، والحياء، والأنس.

وقال بعضهم: العارف أنس بالله فأوحشه من خلقه، وافتقر إلى الله فأغناه عن خلقه، وذلّ الله فأعزه في خلقه.

وقال بعضهم: العارف فوق ما يقول، والعالم دون ما يقول.

وقال أبو سليمان الداراني: إن الله يفتح للعارف على فراشه، ما لا يفتح للعابد وهو قائم يصلي.

وكان ركنم يقول: رياء العارفين أفضل من إخلاص العابدین.

وسئل أبو تراب النخشي عن العارف، فقال: هو الذي لا يسكدره شيء، ويصفو به كل شيء.

وقال بعضهم: المعرفة أمواج ترفع وتخطّ.

وسئل يحيى بن معاذ عن العارف، فقال: السكائن البائس.

وقيل: ليس بعارف من وصف المعرفة عند أبناء الآخرة، فكيف عند أبناء الدنيا!

وقال محمد بن الفضل: المعرفة حياة القلب مع الله.

وسئل أبو سعيد الخزاز: هل يصير العارف إلى حال يحفو عليه البكاء؟ قال:

نعم ، إنما البسكاء في أوقات سيرهم إلى الله ، فإذا صاروا إلى حقائق القرب ، وذاقوا طعم الوصول ، زال عنهم ذلك .

واعلم أن إطلاق أمير المؤمنين عليه السلام عليهم لفظة « الولاية » ، في قوله : « يتواصلون بالولاية ، ويتلاقون بالحبّة » يستدعي الخوض في مقامين جليلين من مقامات العارفين : المقام الأول الولاية ، وهو مقام جليل ، قال الله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ^(١) .

وجاء في الخبر الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله ، يقول الله تعالى : « مَنْ آذَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنَنِي بِمَحَارِمِي ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَى الْعَبْدِ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا فَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَلَا يَزَالُ الْعَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، وَلَا تَرُدَّدَتْ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ كَتَرَدَّدِي فِي قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأُكْرَهُ مَسَاءَتَهُ ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ » .
واعلم أن الولي له معنيان :

أحدهما « فَعِيل » بمعنى « مفعول » ، كغَتِيل وجَرِيح ، وهو من يتولى الله أمره كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ ^(٢) ، فلا يكله إلى نفسه لحظة عين ، بل يتولى رعايته .

وثانيهما « فَعِيل » بمعنى « فاعل » كغَذِير وَعَلِيم ؛ وهو الذي يتولى طاعة الله وعبادته فلا يمصيه .

ومن شرط كون الولي ولياً ألا يعصى مولاه وسيده ، كما أن من شرط كون النبي

(١) سورة يونس ٦٢ .

(٢) سورة الأعراف ١٩٦ .

نبيا العصمة ، فن ظنّ فيه أنّه من الأولياء ، ويصدر عنه ما للشرع فيه اعتراض ، فليس بوليّ عند أصحاب هذا العلم .. بل هو مفرور مخادع .

ويقال : إنّ أبا يزيد البسطاميّ قصد بعض من يوصف بالولاية ، فلما وافى مسجده ، قعد ينتظر خروجه ، فخرج الرجل وتنخّم في المسجد ، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه ، وقال : هذا رجلٌ غير مأمون على أدبٍ من آداب الشريعة ، كف يكون أميناً على أسرار الحق !

وقال إبراهيم بن آدم لرجل : أحبّ أن تكون لله ولياً ؟ قال : نعم ، قال : لا ترغب في شيء من الدنيا ولا من الآخرة ، وفرّغ نفسك لله ، وأقبل بوجهك عليه ليقبل عليك ويواليك .

وقال يحيى بن معاذ في صفة الأولياء : هم عبادٌ تسربّلوا بالأنس بعد المكابدة ، وادّرعوا بالروح بعد المجاهدة ، بوصولهم إلى مقام الولاية .

وكان أبو يزيد يقول : أولياء الله عرائس الله ، ولا يرى العرائس إلا المحارم ، فهم مخدّرون عنده في حجاب الأنس ، لا يراهم أحدٌ في الدنيا ولا في الآخرة .

وقال أبو بكر الصّيدلانيّ : كنت أصلحُ قبر أبي بكر العُمستانيّ لوحاً أنقر فيه اسمه ، فيُسرَق ذلك اللوح ، فأنقر له لوحاً آخر وأنصبه على قبره ، فيُسرَق ، وتكرر ذلك كثيراً دون غيره من ألواح القبور ، فكنت أتعجب منه ، فسألت أبا عليّ الدقاق عن ذلك ، فقال : إنّ ذلك الشيخ أثر الخفاء في الدنيا ، وأنت تريد أن تشهره باللّوح الذي تنصبه على قبره فالله سبحانه يأبى إلا إخفاء قبره ، كما هو ستر نفسه .

وقال بعضهم : إنّما سمى الوليّ وايا ، لأنّه توالى أفعاله على الموافقة .

وقال يحيى بن معاذ: الولي لا يرأى ولا ينافق، وما أقلّ صديق من يكون هذا خلقه!

المقام الثانى المحبة قال الله سبحانه: ﴿مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ مِنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾^(١)، والمحبة عند أرباب هذا الشأن حالة شريفة. قال أبو يزيد البسطامي: المحبة استقلال الكثير من نفسك، واستكثار القليل من حبيبك.

وقال أبو عبد الله القرشي: المحبة أن نهب كلك لمن أحببت، فلا يبقى لك منك شيء. وأكثرهم على نفي صفة العشق، لأنّ العشق مجاوزة الحد في المحبة، والبارئ سبحانه أجل من أن يوصف بأنه قد تجاوز أحد الحد في محبته.

سئل الشبلي عن المحبة، فقال: هي أن تغار على المحبوب أن يحبه أحد غيرك. وقال سمنون: ذهب المحبون بشرف الدنيا والآخرة، لأنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: «المرء مع من أحب»، فهم مع الله تعالى.

وقال يحيى بن معاذ: حقيقة المحبة مالا ينقص بالجفاء، ولا يزيد بالبر.

وقال: ليس بصادق من ادعى محبته ولم يحفظ حدوده.

وقال الجنيد: إذا صحّت المحبة سقطت شروط الأدب.

وأشدد في معناه:

إذا صفت المودة بين قوم ودّام ودّام سمج الثناء
وكان أبو علي الدقاق يقول: ألت ترى الأب الشفيق لا يبجل ولده في الخطاب،
والناس يتكلمون في مخاطبته، والأب يقول له: يا فلان، باسمه.

وقال أبو يعقوب الشوسى : حقيقة المحبة أن ينسى العبد حظّه من الله ، وينسى حوائجه إليه .

قيل للنصرا باذى : يقولون : إنه ليس لك من المحبة شيء . قال : صدقوا ، ولكن لى حسراتهم ، فهو ذو احتراق فيه .

وقال النصرا باذى أيضا : المحبة مجانية السلو على كل حال ، ثم أنشد :
وَمَنْ كَانَ فِي طَوْلِ الْمَوَى ذَاقَ سَلْوَةٍ فَإِنِّي مِنْ لَيْلٍ لَهَا غَيْرُ ذَائِقِ
وَأَكْثَرُ شَيْءٍ نَلْتَهُ فِي وَصَالِهَا أَمَانِيَّ لَمْ تَصْدُقْ كَلِمَةً بَارِقِ
وكان يقال : الحب أوله خبل ، وآخره قتل .

وقال أبو على الدقاق فى معنى قول النبىّ صلى الله عليه وآله : « حبك الشيء يعنى ويصم » ، قال : يعنى ويصم عن الغير إعراضا وعن المحبوب هتية ، ثم أنشد :
إِذَا مَا بَدَأَ لِي تَمَاطِلَتُهُ فَأَصْدَرَ فِي حَالِ مَنْ لَمْ يَرَهُ

وقال الجنيد : سمعتُ الحارث الحاسبى ، يقول : المحبة إقبالك على المحبوب بكليةتك ، ثم إثارتك له على نفسك ، ومالك وولدك ، ثم موافقتك له فى جميع الأمور سرّا وجها ، ثم اعتقادك بعد ذلك أنك مقصّر فى محبته .

وقال الجنيد : سمعتُ السرى يقول : لاتصلح المحبة بين اثنين حتى يقول الواحد للآخر : يا أنا .

وقال الشبلى : الحب إذا سكّت هلك ، والعارف إذا لم يسكت هلك .

وقيل : المحبة نار فى القلب تحرق ماسوى ودّ المعبوب .

وقيل : المحبة بذل الجهد ، والحبيب يفعل ما يشاء .

وقال الثوري : المحبة هتك الأستار ، وكشف الأسرار .

حبس الشَّيْلِي في المارستان بين المجانين ، فدخل عليه جماعة ، فقال : مَنْ أَنْتُمْ ؟ قالوا :
محبُّوك أيُّها الشيخ . فأقبل يرميهم بالحجارة ، ففرُّوا ، فقال : إذ ادعيتُم محبتي فامسبروا
على بلائي .

كتب يحيى بن معاذ إلى أبي يزيد الدِسطاميّ : قد سكرتُ من كثرة ما شربتُ من
من كأس محبته . فكتب إليه أبو يزيد : غيرُك شربَ بحور السموات والأرض وما روى
بمد ، ولسانه خارج ، ويقول : هل من مزيد !
ومن شعرهم في هذا المعنى :

عجبتُ لمن يقولُ ذكرتُ ربِّي وهَلْ أنسى فأذكر ما نَسِيتُ !
شربتُ الحبَّ كأساً بعد كأسٍ فما نَفِدَ الشراب ولا رَوِيتُ
ويقول : إنَّ الله تعالى أَوْحَى إلى بعض الأنبياء : إذا اطلعت على قلب عبْدٍ فلم أجد
فيه حبَّ الدنيا والآخرة ، ملائته من حبي .
وقال أبو عليّ الدَّقَاق : إنَّ في بعض الكتب المنزلة : عبدي ، أنا وحقك لك محبٌ ،
فبحقِّ عليك كن لي محباً .
وقال عبد الله بن المبارك : مَنْ أُعْطِيَ قِسْطاً من الحبة ، ولم يمتطأ مثله من الخشية ،
فهو مخدوع .

وقيل : الحبة ما تمحو أثرُك ، وتسلبك عن وجودك .
وقيل : الحبة سكر لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبوبه ، ثم إنَّ السكر الذي
يحصل عند المشاهدة لا يوصف . وأنشد :

فأسكرَ القومَ دَوْرُ كأسٍ وكان سُكْرِي من المديـرِ
وكان أبو عليّ الدَّقَاق ينشد كثيراً :

لى سكرتان وللندمان واحـدة شىء خصصتُ به من بينهم وحدى
وكان يحىيى بن معاذ يقول : مثقالُ خردلة من الحب أحبّ إلى من عبادة سبعين سنة
بلا حبّ .

وقال بعضهم : مَنْ أراد أن يكونَ محبًّا ، فليكن كما حُكي عن بعض الهند أنه
أحبّ جاريةً ، فرحلت عن ذلك البلد ، فخرج الفتى في وداعها ، فدمعت إحدى عينيه
دون الأخرى ، فغمض التي لم تدمع أربعا وثمانين سنة ولم يفتحها ، عقوبة لأنها لم تبكِ
على فراق حبيبته .

وأنشدوا في هذا المعنى :

بكتْ عيني غداةَ البين دَمْعاً وأخرى بالبكا بخت عَيْنَا
فما نبتُ التي بختْ عَيْنَا بأن غمضتها يومَ التَّقْيَا
وقيل : إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : إني حرمت على القلوب أن يدخلها
حبّى وحبّ غبرى .

وقيل : المحبة إثارةُ المحبوب على النفس ، كمرأة العزيز لما أفرط بها الحبّ ، قالت :
﴿ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾^(١) ، وفي الابتداء ، قالت : ﴿ مَا جَزَاءُ
مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ ﴾^(٢) فوركّت^(٣) الذنب في الابتداء عليه ،
ونادت في الانتهاء على نفسها بالخيانة .

وقال أبو سعيد الخراز : رأيتُ النبي صلى الله عليه وآله في المنام ، فقلت : يا رسول الله ،
اعذرني ، فإن محبة الله شغلتني عن حبّك ، فقال : يا مبارك ، مَنْ أحب الله فقد أحبني .

(١) سورة يوسف ٥١ .

(٢) سورة يوسف ٢٥ .

(٣) يقال : ورك الذنب عليه : حله .

ثم نعود إلى تفسير ألفاظ الفصل :

قوله عليه السلام : « يصونون مَصُونَهُ » ؛ أى يكتُمون من العلم الذى استَحفظوه ما يجب أن يُكْتَم . ويفجّرون عيونهم : يظهرون منه ما ينبغي إظهاره ؛ وذلك أنه ليس ينبغي إظهار كل ما استودع العارف من الأسرار ؛ وأهل هذا الفن يزعمون أن قوماً منهم عجزوا عن أن يَحْمِلُوا بِمَا حَمَلُوهُ ، فبَاسَحُوا بِهِ فَهَلَسُوا ، منهم الحسين بن منصور الخلاج . ولأبى الفتوح الجارودى المتأخر أتباعٌ يعتقدون فيه مثل ذلك .

والوَلَايَةُ ، بفتح الواو: المحبة والنصرة، ومعنى « يتواصلون بالولاية » يتواصلون وهم أولياء ، ومثله : « ويتلاقون بالمحبة » كما تقول : خرجت بسلاحى ، أى خرجت وأنا متسلح ، فيكون موضع الجار والجرور نصباً بالحال ، أو يكون المعنى أدق والطف من هذا ، وهو أن يتواصلوا بالولاية ، أى بالقلوب لا بالأجسام ، كما تقول : أنا أراك بقلبي ، وأزورك بخاطرى ، وأواصلك بضميرى .

قوله : « ويتساقون بكأس روية » ، أى بكأس المعرفة ، والأنس بالله ، يأخذ بعضهم عن بعض العلوم والأسرار ، فكانهم شَرَبُوا يتساقون بكأس من الخمر^(١) . قال : « ويصدرون برية » يقال : من أين ريتكم ؟ مفتوحة الراء ، أى^(٢) من أين ترون الماء ؟

قال : « لا تشوبهم الريبة » ، أى لا تخالطهم الظنّة والثّمة ، ولا تسرع فيهم الغيبة ، لأن أسرارهم مشغولةٌ بالحق عن الخلق .

قال : « على ذلك عقد خلقتهم وأخلاقهم » ، الضمير فى « عقد » يرجع إلى الله تعالى ، أى على هذه الصفات والطبائع عقد الخالق تعالى ، خلقتهم وخلقتهم ، أى هم متهيئون لما صاروا إليه ، كما قال عليه السلام : « إذا أَرَادَكَ لأمر هياك له » .

(٢) ساقطة من أ

(١) ب : « الحرة » ، وما أثبتته من أ

وقال عليه السلام : « كلُّ ميسرٍّ لما خُلِقَ له » .

قال : « فعليه يتحابون ، وبه يتواصلون » ، أى ليس حبُّهم بعضهم بعضاً إلا فى الله ، وليست مواصلتهم بعضهم بعضاً إلا لله ، لا للهوى ، ولا لغرضٍ من أغراض الدنيا ، أنشد منشيدٌ عند عمر قولَ طرفة :

قَالُوا لَا ثَلَاثَ هُنَّ مِنْ عَيْشَةِ الْفَتَى وَجَدَّكَ لَمْ أَحْفِلْ مَتَى قَامَ عَوْدِي ^(١)

فَمَنْ سَبَقِي الْمَازِلَ بِشَرْبَةِ كَمَيْتٍ مَتَى مَا تُعَلِّى بِالْمَاءِ تَزِيدِ ^(٢)

وَكَرِّى إِذَا نَادَى الْمِضَافُ مُحَنَّبًا كَسِيدِ الْفَضَا نَبْهَتَهُ الْمُتَوَرِدِ ^(٣)

وَتَقْصِيرُ يَوْمِ الدَّجْنِ وَالِدَجْنُ مُعْجِبٌ بِهِ كُنَّةٌ تَحْتَ الطَّرَافِ الْمَعْدِ ^(٤)

فقال عمر : وأنا لولا ثلاث هنَّ من عيشة الفتى ، لم أحفل متى قام عودى ؛ حُبِّى فى الله ، وبغضى فى الله ، وجهادى فى سبيل الله .

قوله عليه السلام : « فكانوا ككتفاضل البذر » ، أى مثلهم مثل الحب الذى يُنتقى للبذر ، يستصلح بعضه ، ويسقط بعضه .

قد ميزه التخليص : قد فرّق الانتقاء بين جيده ورديثه . وهذا به التحصيل ، قال النبىِّ صلى الله عليه وآله : « إن المرض ليمحص الخطايا كما تمحص النار الذهب » ، أى كما تخلص النار الذهب مما يشوبه .

ثم أمر عليه السلام للكافرين بقبول كرامة الله ونصحه ، ووعظه وتذكيره ، وبالحذر

(١) من المعلقة بشرح التبريزى ٨١ ، ٨٢ .

(٢) الكميت من الحمر : التى تضرب إلى السواد . وقوله : متى ماتملى بالماء تزيد ؛ أى متى تمزج به تزيد لأنها عتيقة .

(٣) كرى : عطى . والمضاف : الذى أضافته الميوس . والتجنيب : احتدياب فى وظئى يدي الفرس ، وليس ذلك بالأعوجاج الشديد ؛ وهو مما يوصف صاحبه بالشدة . والسبد : الذئب . والفضا : شجر ؛ وذئابه أخبت الذئاب . ونهته : ميجته . والمتورد : الذى يطلب أن يرد الماء .

(٤) الدجن : لباس الغيم السماء ، ومعجب : يعجب من رآه . والبهكنة : التامة الخلق .

مِنْ نَزُولِ الْقَارِعَةِ بِهِمْ ، وَهِيَ هَاهُنَا الْمَوْتُ ، وَسَمَّيْتُ الدَّاهِيَةَ قَارِعَةً لِأَنَّهَا تَقْرَعُ ، أَيْ تَصِيبُ بِشَدَّةٍ .

قوله : « فليصنع لمتحوّله » ؛ أَيْ فليعدّ ما يوجب إعدادَه الموضع الذي يتحوّل إليه ، تقول : اصنع لنفسك ، أَيْ اعمل لها .

قوله : « ومعارف منتقله » معارف الدّار : ما يعرفها المتوسّم بها واحداً معرف ، مثل معاهد الدار ، ومعالِم الدار ، ومنه معارف المرأة ، وهو ما يظهر منها ، كالوجه واليدين . والمنتقل ، بالفتح : موضع الانتقال .

قوله : « فطوبى » هِيَ « فُتًى » من الطّيب ، قلبوا الياء واوا للضمّة قبلها ، ويقال : طوبى لك ، وطوباك ! بالإضافة .

وقول العامة : « طوييك » بالياء غير جائز .

قوله : « لذي قلب سليم » ، هو من ألفاظ الكتاب العزيز ^(١) ، أَيْ سليم من الغلّ والشك .

قوله : « أطاع مَنْ يهديه » ، أَيْ قبل مشورة الناصح الأمر له بالمعروف ، والناهي له عن المنكر .

وتجنّب مَنْ يُرْذِيهِ ، أَيْ يهلكه بإغوائه وتحسين القبيح له .

والباء في قوله : « ببصرٍ مَنْ بَصَرَهُ » ، متعلّقة بـ « أصاب » .

قوله : « قبل أن تغلق أبوابه » ، أَيْ قبل أن يحضره الموت فلا تقبل توبته .

والحوبة : الإثم . وإماطته : إزالته ، ويجوز أمطت الأذى عنه ، ومِطت الأذى عنه ،

أَيْ نَحَيْتَهُ ، ومنع الأصمعيّ منه إلّا بالهمزة .

(١) وذلك قوله تعالى في سورة الشعراء ٨٩ : ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ ، وقوله في سورة

الصفّات ٨٤ : ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ .

(٢٠٨)

الأصل :

ومن دعاء كان يدعو به عليه السلام كثيرا :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يُصْبِحْ بِي مَيِّتًا وَلَا سَقِيمًا ، وَلَا مَضْرُوبًا عَلَى عُرْوِي بِسُوءٍ ؛
وَلَا مَأْخُودًا بِأَسْوَأِ عَمَلِي ، وَلَا مَقْطُوعًا دَائِرِي ، وَلَا مُرْتَدًّا عَنْ دِينِي ، وَلَا مُنْكَرًا
لِرَبِّي ، وَلَا مُسْتَوْحِشًا مِنْ إِيْمَانِي ، وَلَا مُلْتَدِسًا عَقْلِي ، وَلَا مُعَذَّبًا بِعَذَابِ الْأَلَمِ
مِنْ قَبْلِي .

أَصْبَحْتُ عَبْدًا تَمْلُوكًا ، ظَالِمًا لِنَفْسِي ؛ لَكَ الْحُجَّةُ كُلِّيَّةٌ - وَلَا حُجَّةَ لِي -
وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَخُذَ إِلَّا مَا أَعْطَيْتَنِي ، وَلَا أَتَقِي إِلَّا مَا وَقَيْتَنِي .

اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَفْتَقِرَ فِي غِنَاكَ ، أَوْ أَضِلَّ فِي هُدَاكَ ، أَوْ أَضَامَ فِي
سُلْطَانِكَ ، أَوْ أَضْطَهَّدَ وَالْأَمْرُ لَكَ !

اللَّهُمَّ اجْعَلْ نَفْسِي أَوَّلَ كَرِيْمَةٍ تَنْزِعُهَا مِنْ كَرَامَتِي ، وَأَوَّلَ وَدِيعَةٍ تَرْجِعُهَا مِنْ
وَدَائِعِ نِعْمِكَ عِنْدِي !

اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نَذْهَبَ عَنْ قَوْلِكَ ، أَوْ أَنْ نُفْتَتِنَ عَنْ دِينِكَ ، أَوْ تَتَابَعَ بَيْنَا
أَهْوَاؤُنَا دُونَ الْهُدَى الَّذِي جَاءَ مِنْ عِنْدِكَ !

الشرح :

قوله : « كثيرا » منصوب بأنه صفة مصدر محذوف ، أى دعاء كثيرا . وميتا منصوب على الحال ، أى لم يفلت الصبح على ميتا ، ولا يجوز أن تكون « يصبح » ناقصة ، ويكون « ميتا » خبرها ، كما قال الراوندى ؛ لأنّ خبر « كان » وأخواتها ، يجب أن يكون هو الاسم ، ألا ترى أنّهما مبتدأ وخبر في الأصل واسم « يصبح » ضمير « الله » تعالى ، و « ميتا » ليس هو الله سبحانه .

قوله : « ولا مضروبا على عروقي بسوء » ، أى ولا أبرص ، والعرب تكني عن البرص بالسوء ، ومن أمثالهم : ما أنكرك من سوء ، أى ليس إنكارى لك عن برص حدث بك فغير صورتك .

وأراد بروقه أعضائه ، ويجوز أن يريد : ولا مطعوناً في نسبي ، والتفسير الأول أظهر .

« ولا مأخوذا بأسوا على » ، أى ولا معلقاً بأفخس ذنوبى .

ولا مقطوعاً دابرى ، أى عقبى ونسلى . والدابر فى الأصل : التابع ، لأنه يأتى دبراً ، ويقال للهالك : قد قطع الله دابره ، كأنه يراد أنه عنا أثره ، ومحا اسمه ، قال سبحانه : ﴿ أَنْ دَابِرَ هَوَاءٍ مَقْطُوعٍ مُّصَيِّحِينَ ﴾ ^(١) .

ولا مستوحشا ، أى ولا شاكاً فى الإيمان ، لأنّ من شك فى عقيدة استوحش منها . ولا ملتبساً عقلى ، أى ولا مختلطاً عقلى ، لبست عليهم الأمر بالفتح ، أى خلطته . وعذاب الأمم من قبل المسخ والزلزلة والظلمة ونحو ذلك .

قوله : « لك الحجة علىّ ، ولا حجة لي » ، لأنّ الله سبحانه قد كلّفه بعد تمكينه وإقداره وإعلامه قبّح القبيح ووجوب الواجب وترديد دواعيه إلى الفعل وتركه ، وهذه حجة الله تعالى على عباده ، ولا حجة للعباد عليه ، لأنّه ما كلّفهم إلّا بما يطيقونه ، ولا كان لهم لطف في أمرٍ إلّا وفعله .

قوله : « لا أستطيع أن آخذ إلّا ما أعطيتني ، ولا أتقى إلّا ما وقّيتني » ، أي لا أستطيع أن أرزق نفسي أمرا ، ولكنك الرزاق ، ولا أدفع عن نفسي محذوراً من المرض والموت إلّا مادفعته أنت عني .

وقال الشاعر :

أَمْرُكَ مَا يَذِرِي الْفَتَى كَيْفَ يَتَّقِي نَوَائِبَ هَذَا الدَّهْرِ أَمْ كَيْفَ يَحْذَرُ
يَرَى الشَّيْءَ مِمَّا يُتَّقَى فَيَخَافُهُ ^(١) وَمَا يَرَى مِمَّا يَقِي اللَّهُ أَكْثَرُ

وقال عبد الله بن سليمان بن وهب :

كَفَايَةُ اللَّهِ أَجْدَى مِنْ تَوْقِينَا وَعَادَةُ اللَّهِ فِي الْأَعْدَاءِ تَكْفِينَا
كَادَ الْأَعَادَى فَمَا أَبْقَوْا وَلَا تَرَكَوْا عَيْبًا وَطَعْنًا وَتَقْبِيحًا وَتَهْجِينَا
وَلَمْ نَزِدْ نَحْنُ فِي سِرٍّ وَفِي عَدَنِ عَلَى مَقَالَتِنَا : اللَّهُ يَكْفِينَا
وَكَانَ ذَاكَ - وَرَدَّ اللَّهُ حَاسِدَنَا بَغِيْظُهُ - لَمْ يَنْقُلْ مَأْمُولَهُ فِينَا

قوله عليه السلام : « أن أفترق في غناك » ، موضع الجار والمجرور نصب على الحال ، و « في » متعلّقة بمحذوف ، والمعنى أن أفترق وأنت الموصوف بالغنى الفاض على الخلق ، وكذلك قوله : « أو أضل في هداك » ، معناه : أو أضل وأنت ذو الهداية العامة للبشر كافة ، وكذلك : « أو أضام في سلطانك » ، كما يقول المستغيث إلى السلطان : كيف أعظم في عدلك !

(١) كذا في ١ ، وفي ب : « ويخافه » .

وكذلك قوله : « أو أضطهد والأمر لك » ، أى وأنت الحاكم صاحب الأمر ، والطاء فى « أضطهد » هى تاء الافتعال ، وأصل الفعل ضهدت فلانا ، فهو مضهود ، أى قهرته .
وفلان ضهدة لكل أحد ، أى كل من شاء أن يقهره فعل .

قوله : « اللهم اجعل نفسى » ، هذه الدعوة مثل دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وهى قوله : « اللهم متّعنا بأسماعنا وأبصارنا ، واجعله الوارث منا » ، أى لا تجعل موتنا متأخراً عن ذهاب حواسنا . وكان على بن الحسين يقول فى دعائه : اللهم احفظ على سمعى وبصرى ، إلى انتهاء أجلى .

وفسرُوا قوله عليه السلام : « واجعله الوارث منا » ، فقالوا : الضمير فى « واجعله » يرجع إلى الإمتاع .

فإن قلت : كيف يتقى الإمتاع بالسمع والبصر ، بعد خروج الروح ؟
قلت : هذا توسع فى الكلام ، والمراد : لا نبئنا بالعمى ولا الصمم ، ف نكون أحياء فى الصورة ولنا بأحياء فى المعنى ، لأن من فقدما لاخير له فى الحياة ، فحملته المبالة على أن طلب بقاءهما بعد ذهاب النفس ، إيداناً وإشماراً بحبه ألا يُبلى بفقدما .

وَنَفْتَنَ ، على ما لم يسم فاعله : نصابُ بفتنة تُضِلُّنا عن الدين ، وروى : « نَفْتَنَ » بفتح حرف المضارعة على « نفعل » ، افتن الرجل أى فتن ، ولا يجوز أن يكون الافتتان متعدياً كما ذكره الراوندى ، ولكنه قرأ فى « الصحاح » للجوهري : « والفتن : الافتتان ، يتعدى ولا يتعدى » ، فظن أن ذلك للافتتان وليس كما ظن ، وإنما ذلك راجع إلى الفتون .

والفتان : التهاوت فى اللجاج والشر ، ولا يكون إلا فى مثل ذلك ، وروى أو « فتان » بطرح إحدى التاءات .

(٢٠٩)

الأضل :

ومن خطبة له عليه السلام خطبها بصفين :

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِي عَلَيْكُمْ حَقًّا بِوِلَايَةِ أَمْرِكُمْ ، وَلَكُمْ عَلَى
مِنَ الْحَقِّ مِثْلُ الَّذِي لِي عَلَيْكُمْ ، وَالْحَقُّ أَوْسَعُ الْأَشْيَاءِ فِي التَّوَاصُفِ ، وَأَضْيَقُهَا فِي
التَّنَاصُفِ ، لَا يَجْرِي لِأَحَدٍ إِلَّا جَرَى عَلَيْهِ ، وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ إِلَّا جَرَى لَهُ ، وَلَوْ كَانَ
لِأَحَدٍ أَنْ يَجْرِيَ لَهُ وَلَا يَجْرِيَ عَلَيْهِ ، لَكَانَ ذَلِكَ خَالِصًا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ دُونَ خَلْقِهِ ،
لِقُدْرَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ ، وَلِعَدْلِهِ فِي كُلِّ مَا جَرَتْ عَلَيْهِ صُرُوفُ قَضَائِهِ ؛ وَلَسَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ
جَعَلَ حَقَّهُ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يُطِيعُوهُ ، وَجَعَلَ جَزَاءَهُمْ عَلَيْهِ مُضَاعَفَةُ الثَّوَابِ ، تَفَضُّلاً مِنْهُ ،
وَتَوْسَعًا بِمَا هُوَ مِنَ الزَّيْدِ أَهْلُهُ .

الشرح :

الذي له عليهم من الحق هو وجوب طاعته ، والذي لم عليه من الحق هو وجوب
معدلته فيهم . والحق أوسع الأشياء في التواصف ، وأضيقها في التناصف ؛ معناه أن كل
أحد يصف الحق والعدل ، ويذكر حسنه ووجوبه ، ويقول : لو وليت لعدلت ، فهو
بالوصف باللسان وسيع ، وبالفعل ضيق ، لأن ذلك العالم العظيم الذين كانوا يتواصفون حسنه ،
ويعيدون أن لو وُلُوا باعتماده وفعله ، لا تجدد في الألف منهم واحداً لو وُلِّيَ لعدل . ولكنه
قول بغير عمل .

ثم عاد إلى تقرير السلام الأول ، وهو وجوب الحق له وعليه ، فقال : إنّه لا يجري لأحدٍ إلّا بوجرى عليه ، وكذلك لا يجري عليه إلّا وجرى له ، أى ليس ولا واحد من الموجودين بمنزلة عن أن يجري الحق عليه ، ولو كان أحدٌ من الموجودين كذلك لكان أحقهم بذلك البارئ سبحانه ، لأنّه غاية الشرف ، بل هو فوق الشرف وفوق الكمال والتمام ، وهو مالك الكلّ ، وسيّد الكلّ ، فلو كان لجواز هذه القضية وجه ، ولصحتها مسامح ، لكان البارئ تعالى أوّل بها ، وهى ألاّ يستحقّ عليه شيء ، وتقدير الكلام : لكنّه يستحقّ عليه أمور ، فهو في هذا الباب كالواحد منّا يستحقّ ويستحقّ عليه ، ولكنّه عليه السلام حذف هذا الكلام المقدّر ، أدباً وإجلالاً لله تعالى أن يقول : إنّه يستحقّ عليه شيء ..

فإن قلت : فما بال المتكلمين لا يتأدّبون بأدبه عليه السلام ! وكيف يطلقون عليه تعالى الوجوب والاستحقاق !

قلت : ليست وظيفة المتكلمين وظيفة أمير المؤمنين عليه السلام في عباراتهم ، هؤلاء أربابُ صناعة ، وعلم يحتاج إلى ألفاظ واصطلاح لا بدّ لهم من استعماله ، للإفهام والجدل بينهم ، وأمير المؤمنين إمام يخطب على منبره ، يخاطب عرباً ورعية ليسوا من أهل النظر ، ولا مخاطبته لهم لتعليم هذا العلم ، بل لاستنفارهم إلى حرب عدوّه ، فوجب عليه بمقتضى الأدب أن يتوقّى كلّ لفظة توهم ما يستهجنه السامع في الأمور الإلهية وفي غيرها .

فإن قلت : فما هذه الأمور التي زعمت أنها تستحقّ على البارئ سبحانه ، وأن أمير المؤمنين عليه السلام حذفها من اللفظ ، واللفظ يقتضيها ؟

قلت : الثواب ، والمغوض ، وقبول التوبة ، واللطف ، والوفاء بالوعد ، والوعيد ، وغير ذلك مما يذكره أهل العدل .

فإن قلت : فما معنى قوله : « لكان ذلك خالصا لله سبحانه دون خلقه ، لقدرته على عباده ، ولعدله في كل ما جرت عليه صروف قضائه ؟ » وهب أن تعليل عدم استحقاق شيء على الله تعالى بقدرته على عباده صحيح ، كيف يصحّ تعليل ذلك بعدله في كل ما جرت عليه صروف قضائه ؟ ألا ترى أنه ليس بمستقيم أن تقول لا يستحقّ على البارئ شيء ، لأنه عادل ، وإلّا ما المستقيم أن تقول لا يستحقّ عليه شيء ، لأنه مالك ، ولذلك علّلت الأشعرية هذا الحكم بأنه مالك الكل ، والاستحقاق إلّا ما يكون على من دونه .

قلت : التعليل صحيح ، وهو أيضا مما علّلت به الأشعرية مذهبها ، وذلك لأنه إلّا ما يتصور الاستحقاق على العامل المختار إذا كان ممن يتوقع منه أو يصحّ منه أن يظلم ، فيمكن حينئذ أن يقال : قد وجب عليه كذا ، واستحقّ عليه كذا ، فأما من لا يمكن أن يظلم ، ولا يتصور وقوع الظلم منه ، ولا الكذب ، ولا خلف الوعد والوعيد ، فلا معنى لإطلاق الوجوب والاستحقاق عليه ، كما لا يقال : كذا الداعي الخالص يستحقّ عليه أن يفعل مادعاه إليه الداعي ، ويجب عليه أن يفعل مادعاه إليه الداعي ، مثل الهارب من الأسد ، والشديد العطش إذا وجد الماء ، ونحو ذلك .

فإن قلت : أليس يشعر قوله عليه السلام : « وجعل جزاءهم عليه مضاعفة الثواب تفضّلا منه » بمذهب البغداديين من أصحابكم ، وهو قولهم : إن الثواب تفضّل من الله سبحانه ، وليس بواجب ؟

قلت : لا ، وذلك لأنه جمل المتفضّل به ، هو مضاعفة الثواب ، لا أصل الثواب ، وليس ذلك بمستنكر عندنا .

فإن قلت : أيجوز عندكم أن يستحقّ المكلف عشرة أجزاء من الثواب فيعطى عشرين جزءا منه ؟ أليس من مذهبكم أن التعظيم والتبجيل لا يجوز من البارئ سبحانه أن يفعلهما

في الجنة إلا على قدر الاستحقاق ، والثواب عندكم هو النفع المقارن للمعظم والتبجيل ؟
فكيف قلت : إن مضاعفة الثواب عندنا جائزة !

قلت : مراده عليه السلام بمضاعفة الثواب هنا زيادة غير مستحقة من النعم واللذة
الجسمانية خاصة في الجنة ، فسمى تلك اللذة الجسمانية ثواباً لأنها جزء من الثواب ، فأما اللذة
العقلية فلا يجوز مضاعفتها .

قوله عليه السلام : « بما هو من المزيّد أهله » ، أى بما هو أهله من المزيّد ، قدّم
الجار والمجرور وموضعه نصب على الحال ، وفيه دلالة على أن حال المجرور تتقدّم عليه ،
كما قال الشاعر :

لَئِنْ كَانَ بَرْدُ الْمَاءِ حَرَّانَ صَادِبًا إِلَى حَبِيبَا إِنِّي لِحَبِيبُ

الأصل :

ثُمَّ جَعَلَ سُبْحَانَهُ مِنْ حُقُوقِهِ حُقُوقًا أَفْتَرَضَهَا لِبَعْضِ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ ، فَجَعَلَهَا
تَشْكَافًا فِي وُجُوهِهَا ، وَيُوجِبُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَلَا يُسْتَوْجَبُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ .
وَأَعْظَمُ مَا أَفْتَرَضَ سُبْحَانَهُ مِنْ تِلْكَ الْحُقُوقِ حَقُّ الْوَالِي عَلَى الرَّعِيَّةِ ، وَحَقُّ
الرَّعِيَّةِ عَلَى الْوَالِي ، فَرِيضَةٌ فَرَضَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِكُلِّ عَلَى كُلِّ ، فَجَعَلَهَا نِظَامًا
لِلْأَقْبَامِ ، وَعِزًّا لِلدِّينِ ، فَلَيْسَتْ تَصْلُحُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِصَلَاحِ الْوَلَاةِ ، وَلَا تَصْلُحُ
الْوَلَاةُ إِلَّا بِاسْتِقَامَةِ الرَّعِيَّةِ ، فَإِذَا أَدَّتِ الرَّعِيَّةُ إِلَى الْوَالِي حَقَّهُ ، وَأَدَّى الْوَالِي إِلَيْهَا
حَقَّهَا ، عَزَّ الْحَقُّ بَيْنَهُمْ ، وَقَامَتْ مَنَهِجُ الدِّينِ ، وَأَعْتَدَتْ مَعَالِمُ الْعَدْلِ ، وَجَرَتْ
عَلَى أَذْلَالِهَا أَسْنَنُ ، فَصَلَحَ بِذَلِكَ الزَّمَانُ ، وَطُمِسَ فِي بَقَاءِ الدَّوْلَةِ ، وَبَيَّسَتْ
مَطَامِعُ الْأَعْدَاءِ .

وَإِذَا غَلَبَتِ الرِّعْيَةُ وَالْيَهَا ، أَوْ أَجْجَفَ الْوَالِي بِرِعْيَتِهِ ؛ اخْتَلَفَتْ هُنَالِكَ
الْكَلِمَةُ ، وَظَهَرَتْ مَعَالِمُ الْجَوْرِ ، وَكَثُرَ الْإِدْغَالُ فِي الدِّينِ ، وَتَرَكْتَ حَاجَ السَّنَنِ ،
فَعَمِلَ بِالْهَوَى ، وَعُطِّلَ الْأَحْكَامُ ، وَكَثُرَتْ عِلَلُ النُّفُوسِ ، فَلَا يُسْتَفْهِشُ الْعَظِيمُ
حَقَّ عُطْلٍ ، وَلَا لِعَظِيمٍ بَاطِلٍ فُعِلَ ، فَهِنَالِكَ تَذِلُّ الْأَبْرَارُ ، وَتَعِزُّ الْأَشْرَارُ ، وَتَعْظُمُ
تَبِعَاتُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عِنْدَ الْعِبَادِ .

فَعَلَيْكُمْ بِالتَّنَاصُحِ فِي ذَلِكَ ، وَحُسْنِ التَّعَاوُنِ عَلَيْهِ ، فَلَيْسَ أَحَدٌ وَإِنْ أَشْتَدَّ عَلَى
رِضَا اللَّهِ حِرْصُهُ ، وَطَالَ فِي الْعَمَلِ أَجْتِهَادُهُ ، بِبَالِغِ حَقِيقَةِ مَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَهْلُهُ ؛ مِنْ
الطَّاعَةِ لَهُ ، وَلَسْكَنِ مِنْ وَاجِبِ حُقُوقِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَى عِبَادِهِ النَّصِيحَةِ بِمَبْلَغِ جُهِدِهِمْ ،
وَالْتَّعَاوُنُ عَلَى إِقَامَةِ الْحَقِّ بَيْنَهُمْ ، وَلَيْسَ أَمْرٌ وَإِنْ عَظُمَتْ فِي الْخَلْقِ مَنَزِلَتُهُ ،
وَتَقَدَّمَتْ فِي الدِّينِ فَضِيلَتُهُ ، يَفُوقُ أَنْ يُعَانَ عَلَى مَا حَمَلَهُ مِنْ حَقِّهِ ؛ وَلَا أَمْرٌ وَإِنْ
صَغُرَتْهُ النُّفُوسُ ، وَاقْتَصَحَتْهُ الْعُمُيُونَ ، بِدُونِ أَنْ يُعِينَ عَلَى ذَلِكَ ، أَوْ يُعَانَ عَلَيْهِ .

الشرح :

تسكافاً في وجوها : تتساوى وهي حقّ الوالى على الرعية، وحق الرعية على الوالى .
وفريضة ، قد روى بالنصب وبالرفع ، فمن رفع نفخر مبتدأ محذوف ، ومن نصب فبإضمار
فعل ، أو على الحال .

وجرت على أذلالم السنن ، بفتح الهمزة ، أى على مجاريها وطرقها .
وأججف الوالى برعيته : ظلمهم .
والإدغال في الدين : الفساد .

ومحاج السنن: جمع محجة، وهي جادة الطريق .
قوله : « وكثرت علل النفوس » ، أى تعللها بالباطل . ومن كلام الحجاج : إياكم
وعلل النفوس، فإنها أدوى لكم من علل الأجساد .

واقترعته العميون : احتقرته وازدرته ، قال ابن دُرَيْد :
وَمِنْهُ مَا تَقَعَّجُمُ الْعَيْنُ فَإِنْ ذُقْتَ جَفَاهُ سَاغَ عَذَابُ اللَّهِ^(١)

ومثل قوله عليه السلام : « وليس امرؤ وإن عظمت في الحق منزلته » ، قول زيد
ابن عليّ عليه السلام لهشام بن عبد الملك : إنه ليس أحدٌ وإن عظمت منزلته بفوق أن
يُذَكَّرَ بالله ، ويحذَّر من سطوته ، وليس أحدٌ وإن صغر بدون أن يذَكَّرَ بالله ويخوف
من نعمته .

ومثل قوله عليه السلام : « وإذا غلبت الرعية واليها » قول الحكماء : إذا علا صوت
بعض الرعية على الملك فالملك مخلوع ، فإن قال : نعم ، فقال أحدٌ من الرعية : لا ،
فالملك مقتول .

[فصل فيما ورد من الآثار فيما يصلح الملك]

وقد جاء في وجوب الطاعة لأولى الأمر الكثير الواسع ، قال الله سبحانه : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾^(٢) .

وروى عبد الله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وآله : « السمع والطاعة على المرء

(١) من القصورة ٢٣ (طبعة مصر سنة ١٣١٩) .

(٢) سورة النساء ٥٩ .

المسلم فيما أحبّ وكره ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بها فلا سمع ولا طاعة » .
وعنه صلى الله عليه وآله : « إن أمرتكم عبداً أسوداً مجتهداً فاسمعوا له وأطيعوا » .
ومن كلام علي عليه السلام : « إن الله جعل الطاعة غنيمة الأكياس عند
تفريط الفجرة » .

بعث سعد بن أبي وقاص جريراً بن عبد الله البجليّ من العراق إلى عمر بن الخطاب
بالمدينة ، فقال له عمر : كيف تركت الناس ؟ قال : تركتهم كقِداح الجُعبة ، منها الأعصَل^(١)
الطائش ، ومنها القائم الراش . قال : فكيف سَعَدَ لهم ؟ قال : هو ثِقَافُها ، الذي يقيم
أَوَدَها ، وينمِر عَصَلُها^(٢) . قال : فكيف طاعتهم ؟ قال : يصلّون الصلاة لأوقاتها ، ويؤدون
الطاعة إلى ولائها . قال : الله أكبر ! إذا أقيمت الصلاة ، أدّيت الزكاة ؛ وإذا كانت الطاعة ،
كانت الجماعة .

ومن كلام أبرّ وزير الملك : أطع مَنْ فوقك يُطعك مَنْ دونك .
ومن كلام الحكماء : قلوب الرعيّة خزائن واليها ، فما أودعه فيها وجّده .
وكان يقال : صِنْفان متباغضان متنافيان : السلطان والرعيّة ؛ وهما مع ذلك متلازمان ،
إن صلّح أحدهما صلّح الآخر ، وإن فسد فسد الآخر .

وكان يقال : محلّ الملك من رعيّته محلّ الروح من الجسد ، ومحلّ الرعيّة منه محلّ
الجسد من الروح ، فالروح تألم بألم كلّ عضو من أعضاء البدن ، وليس كلّ واحد من الأعضاء
يألم بألم غيره ، وفساد الروح فساد جميع البدن ، وقد يفسد بعض البدن وغيره من سائر
البدن صحيح .

(١) السهم الأعصَل : القليل الريش .

(٢) العَصَل : الاعوجاج والميل .

وكان يقال : ظلم الرعية استعجال البلية .

وكان يقال : العَجَبُ بمن استفسد رعيته ، وهو يعلم أن عزه بطاعتهم ا

وكان يقال : موت الملك الجائر خِصْبٌ شامل .

وكان يقال : لا قحطَ أشدَّ من جور السلطان .

وكان يقال : قد تعامل الرعية المشمزة بالرفق ؛ فتزول أحقادها ، ويذل قيادها ، وقد تعامل بالخرق فتكاشف بما غيبت ، وتقدم على ماعيت ؛ حتى يعود نفاقها شقاقا ، ورذاها سيلا بُعاقا^(١) . ثم إن غلبت وقهرت فهو الدمار ، وإن غلبت وقُهرت لم يكن يغلبها افتخار ، ولم يدرك بقهرها ثار .

وكان يقال : الرعية وإن كانت ثمارا مجتناة ؛ وذخائر مقتناة ، وسيوفا منتضاة ، وأحراسا مرتضاة ؛ فإن لها نفارا كنفار الوحوش ، وطغيانا كطغيان السيول ؛ ومتى قَدَرَتْ أن تقول ، قَدَرَتْ على أن تصول .

وكان يقال : أيدى الرعية تبع ألسنها ؛ فإن يملك الملك ألسنها حتى يملك جسومها ولن يملك جسومها حتى يملك قلوبها فتحبه ، ولن تحبه حتى يعدل عليها في أحكامه عدلا يتساوى فيه الخاصة والعامة ؛ وحتى يخفف عنها المؤن والكلف ، وحتى يعفيها من رفع أوضاعها وأراذلها عليها ؛ وهذه الثلاثة تحمده على الملك العلية من الرعية ، وتطمع السفلة في الرتب السنية . وكان يقال : الرعية ثلاثة أصناف : صنف فضلاء مرتاضون بحكم الرئاسة والسياسة ، يعملون فضيلة الملك وعظيم غنائه ، وبرئون له من ثقل أعبائه ، فهؤلاء يحصل المالك مودتهم بالبشر عند اللقاء ، ويلقى أحاديثهم بحسن الإصغاء . وصنف فيهم خير وشر ظاهران ، فصلاحهم يكتسب من معاملتهم بالترغيب والترهيب ؛ وصنف من السفلة الرعاع أتباع

(١) السيل البعاق . المتصبب بشدة .

لكلّ دايح ؛ لا يمتحنون في أقوالهم وأعمالهم بنقد ، ولا يرجعون في الموالاة إلى عقد .
وكان يقال : ترك المعاقبة للسفلة على صغار الجرائم تدعوم إلى ارتكاب الكبائر
العظام ؛ ألا ترى أول نشور المرأة كلمة سوحت بها ، وأول حِران الدابة خيدة
سوعدت عليها .

ويقال : إن عثمان قال يوما لجلسائه ، وهو محصور في الفتنة : ودِدْتُ أن رجلا
صدوقا أخبرني عن نفسي وعن هؤلاء ا فقام إليه فتى فقال : إني أخبرك ؛ تطأطأت لهم
فركبوك ، وما جرّأهم على ظلمك إلا إفراط حلمك . قال : صدقت ، فهل تعلم ما يُشبّه
تيران الفتن ؟ قال : نعم ، سألتُ عن ذلك شيخاً من تنوخ كان باقعة ، قد نقب في الأرض
وعلم علما جاً ، فقال : الفتنة يثيرها أمران : أثرٌ تُضغِنُ على الملك الخاصة ، وحلم يجزئ
عليه العامة . قال : فهل سألتُه عما يحمدها ؟ قال : نعم ، زعم أن الذي يحمدها في ابتدائها
استقالة العثرة وتعميم الخاصة بالأثرة ، فإذا استحكمت الفتنة أخمدها الصبر . قال عثمان :
صدقت ؛ وإني لصابر حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين . ويقال : إن يزّجّرد بن
بهرام سأل حكيماً : ما صلاح الملك ؟ قال : الرفق بالرعية ، وأخذ الحقّ منها بغير عنف
والتودّد إليها بالعدل وأمن السبيل وإنصاف المظلوم . قال : فما صلاح الملك ؟ قال :
وزراؤه ؛ إذا صلّحوا صلّح . قال : فما الذي يثير الفتن ؟ قال : ضغائن يظهرها جرأة عامة ،
واستخفاف خاصة ، وانبساط الألسن بضائر القلوب ، وإشفاق موسر ، وأمن مُعسر ، وغفلة
مرزوق ، ويقظة محروم . قال : وما يسكنُها ؟ قال : أخذ العدة لما يخاف ، وإيثار الجدحين
يلتذّ الهزل ، والعمل بالحزم ، وإدراع الصبر ، والرضا بالقضاء .

وكان يقال : خير الملوك مَنْ أَشْرَبَ قلوب رعيته محبته ، كما أشعرها هيئته ، ولن يُنال
ذلك منها حتى تظفر منه بخمسة أشياء : إكرام شريفها ، ورحمة ضعيفها ، وإغاثة لهيفها ،

وكفّ عدوان عدوّها ، وتأمين سُبُل رواجها وغدوّها ، فمضى أعدمها شيئاً من ذلك ،
فقد أحقّدها^(١) بقدر ما أفقدها .

وكان يقال : الأسباب التي تجرّ الملك إلى الملك ثلاثة :

أحدها من جهة الملك ، وهو أن تتأمر شهواته على عقله ، فنسّتهويه نشوات الشهوات
فلا تستنح له لذّة إلا اقتنصها ، ولا راحة إلا افترصها .

والثاني من جهة الوزراء ، وهو تحاسدهم للمقتضى تعارض الآراء ، فلا يسبق أحدٌهم إلى
حقّ إلا كويّد وعُورض وعُوند .

والثالث من جهة الجند المؤهلين لحراسة الملك والدين ، وتوهين الماعدين ، وهو نكولهم
عن الجلال ، وتضجيعهم في المناصحة والجهاد ، وهم صنفان : صنف وسّع الملك عليهم فأبطرم
الإتراف ، وضنّوا بنفوسهم عن التعريض للإتلاف ، وصنف قدّر عليهم الأزراق ، فاضطغنوا
الأحقاد^(٢) واستشعروا النفاق .

[الآثار الواردة في العدل والإنصاف]

قوله عليه السلام : « أو أجحف الوالي برعيّته » ، قد جاء من نظائره الكثير جداً ،
وقد ذكرنا فيما تقدّم نكتنا حسنة في مدح العدل والإنصاف ، وذمّ الظلم والإجحاف . وقال
النبيّ صلى الله عليه وآله : « زين الله السماء بثلاثة : الشمس ، والقمر ، والكواكب .
وزين الأرض بثلاثة : العلماء ، والمطر ، والسّلطان العادل » .

وكان يقال : إذا لم يعمر الملك ملكه بإنصاف الرعيّة خرب ملكه بمعصيان الرعيّة .
وقيل لأنوشروان : أيّ الجنّ أوقى؟ قال : الدين ، قيل : فأيّ المدد أقوى؟ قال : العدل .

(١) يقال : أحقّده ، أي صيره حاقداً . (٢) اضطغنوا الأحقاد : اضطلوا عليها .

وَقَعَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى إِلَى عَامِلٍ مِنْ عَمَّالِهِ : كَثُرَ شَاكُوكُ ، وَقَلَّ حَامِدُوكُ ، فَأَيَّامًا عَدَلْتُ ، وَإِنَّمَا اعْتَزَلْتُ .

وُجِدَ فِي خَزَانَةِ بَعْضِ الْأَكَامِرَةِ سَقَطٌ ، فُتِّحَ فَوُجِدَ فِيهِ حَبُّ الرِّمَانِ ، كُلُّ حَبَّةٍ كَالنَّوَةِ الْكَبِيرَةِ مِنْ نَوَى الشَّمْشِ ، وَفِي السَّقَطِ رُقْعَةٌ فِيهَا : هَذَا حَبُّ رِمَانٍ عَمَلْنَا فِي خَرَجِهِ بِالْعَدْلِ .

جَاءَ رَجُلٌ مِنْ مِصْرَ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ مُتَطَلِّمًا ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، هَذَا مَكَانُ الْعَائِذِ بِكَ . قَالَ لَهُ : عَذْتُ بِعَمَّازٍ ، مَا شَأْنُكَ ؟ قَالَ : سَابَقْتُ وَلَدَ عُمَرَ بْنِ الْعَاصِ بِمِصْرَ فُسَبِّقْتُهُ ، فَعَمِلَ بِعُتْفَى بِسُوطِهِ ، وَيَقُولُ : أَنَا ابْنُ الْأَكْرَمِينَ ! وَبَلَغَ أَبَاهُ ذَلِكَ ، فَخَبَسَنِي خَشْيَةً أَنْ أَقْدُمَ عَلَيْكَ ؛ فَكُتِبَ إِلَى عُمَرَ : إِذَا أَتَاكَ كِتَابِي هَذَا فَاشْهَدْ لِلْوَسْمِ أَنْتَ وَابْنُكَ . فَلَمَّا أَقْدَمَ عُمَرُو وَابْنُهُ ، دَفَعَ الدَّرَّةَ إِلَى الْمِصْرِيِّ ، وَقَالَ : اضْرِبْهُ كَمَا ضَرَبْتَكَ ، فَجَعَلَ يَضْرِبُهُ وَعُمَرُ يَقُولُ : اضْرِبْ ابْنَ الْأَمِيرِ ، اضْرِبْ ابْنَ الْأَمِيرِ ! يَرُدُّهَا ، حَتَّى قَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ اسْتَعْدْتُ مِنْهُ ، فَقَالَ - وَأَشَارَ إِلَى عُمَرَ : ضَعْبُهَا عَلَى صَلَاحَتِهِ ، فَقَالَ الْمِصْرِيُّ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّمَا اضْرِبْ مَنْ ضَرَبَنِي ، فَقَالَ : إِنَّمَا ضَرَبْتُكَ بِقُوَّةِ أَبِيهِ وَسُلْطَانِهِ ، فَاضْرِبْهُ إِنْ شِئْتَ ؛ فَوَاللَّهِ لَوْ فَعَلْتَ لَمَا مَنَعَكَ أَحَدٌ مِنْهُ ، حَتَّى تَكُونَ أَنْتَ الَّذِي تَتَبَرَّعُ بِالْكَفِّ عَنْهُ ! ثُمَّ قَالَ : يَا بَنَ الْعَاصِ ، مَتَى تَعْبُدُ النَّاسَ وَقَدْ وَلَدْتَهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ أَحْرَارًا !

خَطَبَ الْإِسْكَدَرُ جُنْدَهُ ، فَقَالَ لَهُمْ بِالرُّومِيَّةِ كَلَامًا تَفْسِيرُهُ : يَا عِبَادَ اللَّهِ ، إِنَّمَا إِلَهُكُمْ اللَّهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ ، الَّذِي نَصَرْنَا بَعْدَ حَيْنٍ ، الَّذِي يَسْتَعِينُكُمُ الْغَيْثُ عِنْدَ الْحَاجَةِ ، وَإِلَيْهِ مَفْزَعُكُمْ عِنْدَ الْكَرْبِ . وَاللَّهُ لَا يَبْلُغُنِي أَنْ اللَّهُ أَحَبُّ شَيْئًا إِلَّا أَحْبَبْتُهُ وَعَمِلْتُ بِهِ إِلَى يَوْمِ أَجَلِي ، وَلَا يَبْلُغُنِي أَنَّهُ أَبْغَضُ شَيْئًا إِلَّا أَبْغَضْتُهُ وَهَجَرْتُهُ إِلَى يَوْمِ أَجَلِي . وَقَدْ أُنْبِئْتُ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَدْلَ فِي عِبَادِهِ ، وَيُبْغِضُ الْجَوْرَ ، فَوَيْلٌ لِلظَّالِمِ مِنْ سُوطِي وَسَيْفِي ! وَمَنْ ظَهَرَ مِنْهُ

العدل من عمالي فليتسكىء في مجلسى كيف شاء ؛ وليتمن على ما شاء ، فلن تخطئه أميدته والله المجازى كلاً بعمله .

قال رجل لسلیمان بن عبد الملك وهو جالس العظام : يا أمير المؤمنين ، ألم تسمع قول الله تعالى : ﴿ فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ ^(١) قال : ما خطبك ؟ قال : وكيلك اغتصبني ضيعتي وضمها إلى ضيعتك الفلانية . قال : فإن ضيعتي لك ، وضيعتك مردودة إليك . ثم كتب إلى الوكيل بذلك ، وبصرفه عن عمله .

ورق إلى كسرى قباذ أن في بطانة الملك قوماً قد فسدت نياتهم ، وخبثت ضمائرهم ، لأن أحكام الملك جرت على بعضهم لبعضهم ، فوقع في الجواب : أنا أملك الأجساد لا النيات ، وأحكم بالعدل لا بالهوى ، وأخص عن الأعمال لا عن السرائر .

وتظلم أهل الكوفة إلى المأمون من واليهم ، فقال : ما علمت في عمالي أعدل ولا أقوم بأمر الرعية ، ولا أعوذ عليهم بالرفق منه . فقال له منهم واحد : فلا أحد أولى منك يا أمير المؤمنين بالعدل والإنصاف ، وإذا كان بهذه الصفة فن عدل أمير المؤمنين أن يوليته بلداً بلداً ، حتى يلحق أهل كل بلد من عدله ، مثل ما لحقنا منه ، ويأخذوا بقسطهم منه كما أخذ منه سواهم ، وإذا فعل أمير المؤمنين ذلك لم يصب الكوفة منه أكثر من ثلاث سنين . فضحك وعزله .

كتب عدى بن أرطاة إلى عمر بن عبد العزيز : أما بعد ، فإن قبلنا قوماً لا يؤدون الخراج إلا أن يمسهم نصب من العذاب ، فآكتب إلى أمير المؤمنين برأيك . فكتب : أما بعد ، فالمعجب لك كل المعجب ! تكتب إلى تستأذنى في عذاب البشر ، كأن إذنى لك جنة من عذاب الله ، أو كأن رضاي ينجيك من سخط الله ! فمن أعطاك ما عليه عفوا

نخذ منه ، ومن أبي فاستحلفه ، وكله إلى الله ، فلأن يلقوا الله بجرأهم أحب إلى من أن
ألقاهم بعذابهم .

فضيل بن عياض : ما ينبغي أن تتكلم بفيك كله ! أتدري من كان يتكلم بفيه
كله ! عمر بن الخطاب كان يعدل في رعيته ، ويجور على نفسه ، ويطعمهم الطيب ، ويأكل
الغليظ ، ويكسوم اللين ويلبس الخشن ، ويعطيهم الحق ويزيدهم ، ويمنع ولده وأهله ،
أعطى رجلاً عطاه أربعة آلاف درهم ، ثم زاده ألفاً ، فقيل له : ألا تزيد ابنك عبد الله
كما تزيد هذا ؟ فقال : إن هذا ثبت أبوه يوم أحد ، وإن عبد الله فرّ أبوه ولم يثبت .

وكان يقال : لا يكون العمران ، إلا حيث يعدل السلطان .

وكان يقال : العدل حصن وثيق ، في رأس نيق^(١) ، لا يحطمه سيل ، ولا يهدمه منجنيق .
وقع المأمون إلى عامل كثير التظلم منه : أنصف من وليت أمرهم ، وإلا أنصفهم منك
من ولي أمرك .

بعض السلف : العدل ميزان الله ، والجور مكيال الشيطان .

(١) النيق : أرفع موضع في الجبل .

(٢١٠)

الأفضل :

فأنجاه عليه السلام رجل من أصحابه بكلام طويل يسكت فيه الثناء عليه ،
ويذكر سمعه وطاعته له ، فقال عليه السلام :

إِنَّ مِنْ حَقِّ مَنْ عَظَّمَ جَلَالَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي نَفْسِهِ ، وَجَلَّ مَوْضِعُهُ مِنْ قَلْبِهِ ، أَنْ
يَصْفُرَ عِنْدَهُ - لِعِظَمِ ذَلِكَ - كُلُّ مَا سِوَاهُ ، وَإِنْ أَحَقَّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ لَمَنْ عَظُمَتْ نِعْمَةُ
اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَلَطُفَ إِحْسَانُهُ إِلَيْهِ ، فَإِنَّهُ لَمْ تَعْظُمْ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَى أَحَدٍ ، إِلَّا أَرْدَادَ حَقِّ اللَّهِ
عَلَيْهِ عَظَمًا .

وَإِنْ مِنْ أَسْخَفِ حَالَاتِ الْوُلَاةِ عِنْدَ صَالِحِ النَّاسِ ، أَنْ يُظَنَّ بِهِمْ حُبُّ الْفَخْرِ ،
وَيُوضَعَ أَمْرُهُمْ عَلَى الْكِبَرِ . وَقَدْ كَرِهْتُ أَنْ يَكُونَ جَالٌ فِي ظَنِّكُمْ أَنَّ أَحَبَّ
الْإِطْرَاءِ ، وَاسْتِمَاعِ الثَّنَاءِ ؛ وَلَسْتُ بِمُحَمَّدٍ اللَّهِ كَذَلِكَ ، وَلَوْ كُنْتُ أَحَبُّ أَنْ يُقَالَ
ذَلِكَ لَتَرَكْتُهُ أَنْحِطَاطًا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ عَنْ تَنَاوُلِ مَا هُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنَ الْعَظَمَةِ
وَالْكِبَرِيَاءِ .

وَرُبَّمَا اسْتَحَلَّى النَّاسُ الثَّنَاءَ بَعْدَ الْبَلَاءِ ، فَلَا تُنْثَوُوا عَلَى بِجَمِيلِ ثَنَاءٍ ، لِإِخْرَاجِي
نَفْسِي إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَإِلَيْكُمْ مِنَ الْبَقِيَّةِ فِي حُقُوقِ لَمْ أُفْرَغْ مِنْ أَدَائِهَا ، وَفَرَائِضَ
لَا بُدَّ مِنْ إِمضَائِهَا ، فَلَا تُكَلِّمُونِي بِمَا تُكَلِّمُ بِهِ الْجَبَابِرَةَ ، وَلَا تَتَحَفَّظُوا بِمَا
يُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَادِرَةِ ، وَلَا تُخَالِطُونِي بِالمُصَانَعَةِ ، وَلَا تَظُنُّوا بِي اسْتِغْلَالَ
فِي حَقِّ قِيلَ لِي ، وَلَا التَّمَّاسَ إِعْظَامَ لِنَفْسِي ، فَإِنَّهُ مَنْ اسْتَشْقَلَ الْحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ ،
أَوْ الْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ ، كَانَ الْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ .

فَلَا تَكْفُؤْا عَنْ مَقَالَةٍ بِحَقِّ ، أَوْ مَشُورَةٍ بِعَدَلٍ ، فَإِنِّي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ أَنْ
أُخْطِئَ ، وَلَا آمَنُ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِي ، إِلَّا أَنْ يَسْكُنِي اللَّهُ مِنْ نَفْسِي مَا هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنِّي ،
فَإِنَّمَا أَنَا وَأَنْتُمْ عَبِيدٌ تَمْلُكُونَ لِرَبِّ لَا رَبَّ غَيْرُهُ ؛ يَمْلِكُ مِنَّا مَا لَا يَمْلِكُ مِنْ أَنْفُسِنَا
وَأُخْرِجَنَا مِمَّا كُنَّا فِيهِ إِلَى مَا صَلَحَنَا عَلَيْهِ ، فَأَبْدَلْنَا بَعْدَ الضَّلَالَةِ بِالْهُدَى ، وَأَعْطَانَا
الْبَصِيرَةَ بَعْدَ الْعَمَى .

الشرح :

هذا الفصل وإن لم يكن فيه ألفاظ غريبة سبيلها أن تشرح ، ففيه معانٍ تختلف سبيلها
أن تذكر وتوضح ، وتذكر نظائرها وما يناسبها .

فمنها قوله عليه السلام : إِنْ مِنْ حَقٍّ مَنْ عَظَّمْتَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ أَنْ تَعْظُمَ عَلَيْهِ حَقُّوهُ
اللَّهُ تَعَالَى ، وَأَنْ يَعْظُمَ جَلَالُ اللَّهِ تَعَالَى فِي نَفْسِهِ ، وَمَنْ حَقٌّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ ، أَنْ يَصْغُرَ
عِنْدَهُ كُلُّ مَأْسُورٍ لِلَّهِ .

وهذا مقام جليل من مقامات العارفين ، وهو استحقاق كلِّ مأسورٍ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَذَلِكَ
أَنْ مَنْ عَرَفَ اللَّهَ تَعَالَى فَقَدْ عَرَفَ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ عَظِيمٍ ، بَلْ لَا نِسْبَةَ لشيءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ
أَصْلًا إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ . فَلَا يَظْهَرُ عِنْدَ الْعَارِفِ عِظَمُ غَيْرِهِ الْبَتَّةَ ، كَمَا أَنَّ مَنْ شَاهَدَ الشَّمْسَ
الْمَلِيرَةَ يَسْتَحْقِرُ ضَوْءَ الْقَمَرِ وَالسَّرَاجِ الْمَوْضُوعِ فِي ضَوْءِ الشَّمْسِ ، حَالِ مَشَاهِدَتِهِ جَرْمَ الشَّمْسِ ،
بَلْ لَا تَظْهَرُ لَهُ فِي تِلْكَ الْحَالِ صُنُورَةُ السَّرَاجِ ، وَلَا تَنْطَبِعُ صُورَتُهَا فِي بَصَرِهِ .

ومنها قوله عليه السلام : مَنْ أَسْخَفَ حَالَةَ الْوَلَاةِ أَنْ يَظُنَّ بِهِمْ حُبَّ الْفَخْرِ وَيُوضِعَ

أمرهم على الكبر . قال النبي صلى الله عليه وآله : « لا يدخل الجنة مَنْ كان في قلبه مثقال حبة من كبر » .

وقال صلى الله عليه وآله : « لولا ثلاث مهلكات لصالح الناس : شح مطاع ، وهوى متبّع ، وإعجاب المرء بنفسه » .

وكان يقال : ليس لمعجب رأى ، ولا لمكبر صديق .
وكان أبو مسلم صاحب الدولة يقول : ماتاه ألا وضيع ، ولا فاخر إلا لقيط ، ولا تعصب إلا دخيل .

وقال عمر لبعض ولده : التمس الرفعة بالتواضع ، والشرف بالدين ، والعفو من الله بالعفو عن الناس . وإياك والخيلاء فتضع من نفسك ، ولا تحقرن أحداً ، لأنك لا تدري لعل مَنْ تزدريه عينك أقرب إلى الله وسيلةً منك .

ومنها قوله عليه السلام : قد كرهت أن تظنوا بى حب الإطراء واستماع الشناء . قد روى عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : « احشوا فى وجوه المداحين التراب » . وقال عمر : المدح هو الذبح .

وكان يقال : إذا سمعت الرجل يقول فىك من الخير ما ليس فىك ، فلا تأمن أن يقول فىك من الشر ما ليس فىك .

ويقال : إن فى بعض الكتب المنزلة القديمة : عجباً لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح ! وإن قيل فيه الشر وليس فيه كيف يفضب ! وأعجب من ذلك مَنْ أحب نفسه على اليقين ، وأبغض الناس على الظن .

وكان يقال : لا يغلبن جهل غيرك بك علمك بنفسك .
وقال رجل لعبد الملك : إني أريد أن أسير إليك يا أمير المؤمنين شيئاً ، فقال لمن حوله :

إذا شئتم فانهضوا ! فتقدم الرجل يريد الكلام ، فقال له عبد الملك : قف ، لا تمدحني فإني أعلم بنفسى منك ، ولا تسكذبني فإنه لا رأي لمكذوب ، ولا تغتب عفى أحدا ، فإني أكره الغيبة ، قال : أفيأذن أمير المؤمنين في الانصراف ! قل : إذا شئت .

وناظر المأمون محمد بن القاسم النوشجاني في مسألة كلامية ، لجعل النوشجاني يخضع في الكلام ، ويستخذي له ، فقال : يا محمد ، أراك تنقاد إلى ما أقوله قبل وجوب الحجة لي عليك . وقد ساءني منك ذلك ، ولو شئت أن أفسر الأمور بعزة الخلافة ، وهيبة الرياسة لصدقت وإن كنت كاذبا ، وعطدلت وإن كنت جائرا ، وصوبت وإن كنت مخطئا ، ولكني لا أفنع إلا بإقامة الحجة ، وإزالة الشبهة ؛ وإن أنقص الملوك عقلا ، وأسخطهم رأيا من رضى بقولهم : صدق الأمير !

وقال عبد الله بن المقفع في " اليتيمة " : إياك إذا كنت واليا أن يكون من شأنك حب المدح والتزكية ، وأن يعرف الناس ذلك منك فتكون ثلثة من الثلم يفتحون عليك منها ، وبابا يفتحونك منه ، وغيبة يفتابونك بها ، ويسخرون منك لها . واعلم أن قابل المدح كادح نفسه ، وأن المرء جدير أن يكون حبه المدح هو الذى يحمله على رده ، فإن الراد له مدح ، والقابل له مغيب .

وقال معاوية لرجل : من سيد قومك ؟ قال : أنا ، قال : لو كنت كذلك لم تقله .

وقال الحسن : ذم الرجل نفسه في العلانية مدح لها في السر .

كان يقال : من أظهر عيب نفسه فقد زكّاها .

ومنها قوله عليه السلام : لو كنت كذلك لتركته انحطاطا لله تعالى عن تناول ما هو أحق به من الكبرياء . في الحديث المرفوع : « من تواضع لله رفعه الله ، ومن تكبر خفضه الله » .

وفيه أيضا : المظلمة إزارى ، والسكبرياء ردائى ، فن نازعنى فيهما قصمته .

ومنها قوله عليه السلام : « فلا تسكلمونى بما تسكلم به الجبابرة ، ولا تنصقظوا مئى بما يتحفظ به عند أهل البادرة » .

أحسن ما سمعته فى سلطان لا تخافُ الرعية بادرته ، ولا يتلجلج المتحاكمون عدده ؛
مع سطوته وقوته ، لإيثاره المدل . قول أنى تمام فى محمد بن عبد الملك :

وزبرُ حَقِّ ، ووالى شُرطَلِيَّ ورَحاً ديوانِ مُلْك ، وشيمى ، ومَحْتَسِبُ ^(١)
كالأرحى الذى سَـبَّزُهُ المرطلى والوخْدُ والمَلْعُ والتَقَرُّبُ والتَحَسُّبُ ^(٢)
عَوْدٌ نَسَاجِلُهُ أَيْامُهُ فَيَبَا مِنْ مَسَّةٍ وَبِهِ مِنْ مَسَمٍ جُنَابُ ^(٣)
تَبَّتْ اغْلَطَابُ إِذَا اسْطَلَّتْ بِمُظْلَمَةٍ فِي رَحْلِهِ السَّنُ الْأَقْوَامُ وَالرَّكَبُ ^(٤)

(١) ديوانه ١ : ٢٥٣ .

(٢) قال شارح ديوانه : كان بعض الناس يقول لأبى تمام : أما أستحسن قول امرئ القيس :
وَأَمْرِي فَيَدْرِي مِنْ أَيْدِي سَمَائِلًا وَمِنْ خَالِي وَمِنْ يَزِيدَ وَمِنْ حُجُرٍ
سَمَاحَةً ذَا ، وَجُودَ ذَا ، وَوَفَاءَ ذَا ، وَنَائِلَ ذَا إِذَا صَحَا وَإِذَا سَكُرُ

فذكر أربعة وردت عليها أربعة أوصاف ؛ فإليه أبو تمام بعد مدة ، فقال له : أشدنى بيتي امرئ القيس .
ولحسن ذكره لأربعة وردت عليهم أربعة أوصاف ، وقد ذكرت خمسة وردت عليهم خمسة أوصاف ،
وأشده هذين البيتين . الأرحى ، يعنى به نجيبا من الإبل ، فسوبا إلى أرحب ، وهم من ممدان ، والمذكر
الذى قد تمت منه ودكازه ، يقال : مرس منك ووحش منك . والمرطلى : ضرب من المدوسهل ، ولما
يستعمل إلى الإبل ، أما الوخد والملع فبعينهما كثير من وصف سير النوق والجمال ، ولا يكادون يقولون :
وخد الفرس ، وقد حكى ذلك أبو نصر صاحب الأصبهان . والتقريب أيضا لا يكاد يستعمل فى الجمال ، يقول :
هذا المدوح حم لإصلاح الملك كما يحسم هذا الأرحى هذه الضروب من السير .

(٣) المدود : السمن من الإبل ، والمراد به هنا الرجل المحرب ، على الاستعارة . والجلب : جمع جلبة ، وهو
الأثر على ظهر الدهر وعبره من أثر عمل أو نحوه ، يقول : قد حربت الأمور ، خبرها وشربها ؛ يسكون
الدهر مرة معه ومرة عليه ، فكأنه يساحله .

(٤) اسطلكت : اضطربت ، وقوله : « بمظلمة » ، أى بمظلمة مظلمة .

لا المنطق اللغو يزكو في مقاومِهِ يوماً ، ولا حجة الملهوف تُستَلَبُ^(١)
 كأنما هو في نادى قَبِيلَتِهِ — لا القلب يَهْفُو ولا الأحشاء تَضْطَرِبُ^(٢)
 ومن هذا المعنى قول أبى الجهم العدوى ، في معاوية :
 نُقَلَّبُهُ لِنَخْبَرِ حَالَتَيْنِهِ فَنُخْبِرُ مِنْهُمَا كَرَمًا وَلَيْفًا
 نَمِيلُ عَلَى جَوَانِبِهِ كَأَنَّا إِذَا مَلْنَا نَمِيلُ عَلَى أَيْدِنَا

ومنها قوله عليه السلام : لا تظنوا بى استئصالَ رفعِ الحقِّ إلى ، فإنه من استنقل
 الحق أن يقال له ، كان العملُ به عليه أثقلَ .
 هذا معنى لطيف ، ولم أسمع فيه شيئاً منشوراً ولا منظوماً .

ومنها قوله عليه السلام : ولا تكفوا عن قول بحقٍّ أو مشورة بعدل .
 قد ورد في المشورة شىء كثير : قال الله تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾^(٣) .
 وكان يقال : إذا استشرت إنساناً صار عقله لك .
 وقال أعرابي : ما غُيِّنَتْ قِطٌّ حَتَّى يُغَيَّبَنَّ قَوْمِي ، قيل : وكيف ذاك ؟ قال : لا أفعل
 شيئاً حتى أشاورهم .

وكان يقال : من أعطى الاستشارة لم يمنع الصواب ، ومن أعطى الاستشارة
 لم يمنع الخيرة ، ومن أعطى التوبة لم يمنع القبول ، ومن أعطى الشكر لم يمنع المزيد .
 وفي آداب ابن المقفع : لا يُقْذَفَنَّ في رُوعِكَ أَنَّكَ إِذَا اسْتَشَرْتَ الرِّجَالَ ظَهَرَ مِنْكَ
 لِلنَّاسِ حَاجَتُكَ إِلَى رَأْيِ غَيْرِكَ فَيَقْطَعُكَ ذَلِكَ عَنِ الْمَشَاوِرَةِ ، فَإِنَّكَ لَا تَرِيدُ الرَّأْيَ لِلْفَخْرِ ؛

(١) للمنطق اللغو : الهذر وما لا يحتاج إليه من الكلام . ويزكو : يروج وينمو ، مقاوم : جمع مقام .

(٢) لا القلب يَهْفُو : أى لا يزيغ عما يريد .

(٣) سورة آل عمران ١٥٩

ولكن للانتفاع به ؛ ولو أنك أردته للذكر لكان أحسن الذكر عند العقلاء أن يقال :
لأنه لا ينفرد برأيه دون ذوي الرأي من إخوانه .

ومنها أن يقال : مامعنى قوله : عليه السلام : « وربما استحلّ الناسُ الثناء بعد
البلاء ... » إلى قوله : « لا بدّ من إمضاءها » ؟ فنقول : إن معناه أن بعض مَنْ يكره الإطراء
والثناء ، قد يحبّ ذلك بعد البلاء والاختبار ، كما قال مرّ داس بن أدية لزياد : إنما الثناء
بعد البلاء ، وإنما نثني بعد أن نبتلى ؛ فقال : لو فرضنا أن ذلك سائغ وجائز وغير قبيح ،
لم يحرّز لكم أن تثنوا علىّ في وجهي ، ولا جاز لي أن أسمّيه منكم ؛ لأنه قد بقيت علىّ
بقية لم أفرّغ من أدائها ، وفرائض لم أمضها بعد ، ولا بدّ لي من إمضاءها ؛ وإذا لم يتمّ
البلاء الذي قد فرضنا أن الثناء يحسن بعده ، لم يحسن الثناء .

ومعنى قوله : « لإخراجي نفسي إلى الله وإليكم » أي لا عترافي بين يدي الله وبمحضر
منكم أن علىّ حقوقا في أيا لثكم ، ورياستي عليكم ، لم أقم بها بعد ، وأرجو من الله القيام بها .

ومنها أن يقال : مامعنى قوله : « فلا تخالطوني بالمصانعة » ؟ فنقول : إن معناه لا تصانعوني
بالمدح والإطراء عن عمل الحق ، كما يصانع به كثير من الولاة الذين يستفزّهم المدح ويستخفّهم
الإطراء والثناء ، فيغمضون عن اعتماد كثير من الحقّ مكافأة لما صوّنوا به من التعريض
والتزكية والنفاق .

ومنها قوله عليه السلام : « فإنّي لست بفوق أن أخطى » ؛ هذا اعتراف منه عليه
السلام بعدم العصمة ، فإمّا أن يكون الكلام على ظاهره ، أو يكون قاله على سبيل هضم

النفس ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « ولأنا، إلا أن يتداركني الله برحمته ».

ومنها قوله عليه السلام : « أخرجنا مما كنا فيه ، فأبدلنا بعد الضلالة بالهدى ، وأعطانا البصيرة بعد العمى » . ليس هذا إشارة إلى خاصّ نفسه عليه السلام ، لأنه لم يكن كافراً فأسلم ، ولكنه كلام يقوله ويشير به إلى القوم الذين يخاطبهم من أفناء الناس ، فيأتى بصيغة الجمع الداخلة فيها نفسه توسعاً ، ويجوز أن يكون معناه : لولا أطفافُ الله تعالى ببعثه محمد صلى الله عليه وآله لكنت أنا وغيرى على أصل مذهب الأسلاف من عبادة الأصنام ، كما قال تعالى لنبيه : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ ^(١) ليس معناه أنه كان كافراً ، بل معناه : لولا اصطفاء الله تعالى لك لكنت كواحدٍ من قومك . ومعنى « ووجدك ضالًّا » ، أى ووجدك بعرضة ^(٢) للضلال ، فكأنه ضالٌّ بالقوة لا بالفعل ..

(٢) كذا في ب ، وفى ا : « بعرضة الضلال » .

(١) سورة الضحى ٧ .

(٢١١)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعِيدُكَ عَلَى قُرْبَيْشٍ وَمَنْ أَهْلَانَهُمْ ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوا رِجِي ؛ وَأَكْفَنُوا
إِنَائِي ، وَاجْتَمَعُوا عَلَى مُنَارَعَتِي حَقًّا كُنْتُ أَوْلَى بِهِ مِنْ غَيْرِي ، وَقَالُوا : أَلَا إِنَّ فِي الْخَلْقِ
أَنْ تَأْخُذَهُ ، وَفِي الْخَلْقِ أَنْ تُنَمِّتَهُ ، فَأَصْبِرْ مَتَمُومًا ، أَوْ مِتْ مُتَأَسِّفًا .

فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي زَاوِدٌ ، وَلَا ذَابٌ وَلَا مُسَاعِدٌ ، إِلَّا أَهْلَ بَيْتِي ؛ فَضَنَنْتُ رِجِي
عَنِ الْمَنِيَّةِ ، فَأَعَصَيْتُ عَلَى الْقَدَى ، وَجَرَّعْتُ رِيقِي عَلَى الشَّجَاءِ ، وَصَبَرْتُ مِنْ كَظَمِ الْغَيْظِ
عَلَى أَمْرِ مِنَ الْعَلَقِمِ ، وَآلَمَ لِلْقَلْبِ مِنْ وَخْرِ الشَّفَارِ .

قَالَ الرَّضِيُّ رَجَحَهُ أَفْهٌ : وَقَدْ مَضَى هَذَا الْكَلَامُ فِي أَثْنَاءِ خُطْبَةٍ مُتَقَدِّمَةٍ ، إِلَّا أَنِّي
ذَكَرْتُ هَاهُنَا لاختلاف الروايتين .

الشرح :

المعنى : طلبك إلى والي أيعديك على مَنْ ظلمك ، أى ينقم لك منه ، يقال :
استعدت الأمير على فلان فأعداني ، أى استعنت به عليه فأعانني .

وقطعوا رجلي : وقطعوا قرابتي ، أى أجروني بحري الأجانب ويمحزون أن يريد أنهم
عدوني كالأجنبي من رسول الله صلى الله عليه وآله . ويمحزون أن يريد أنهم جعلوني كالأجنبي

منهم ؛ لا ينصرونه ، ولا يقومون بأمره .
واكتفوا إنائي : قلبوه وكتبوه ، وحذف الهمزة من أول الكلمة أفصح وأكثر ،
وقد روى كذلك ، ويقال لمن قد أضيعت حقوقه : قد أكفأ إناءه ؛ تشبيها بإضاعة اللبن
من الإناء

وقد اختلفت الرواية في قوله : « ألا إن في الحق أن تأخذه » ، فرواها قوم بالنون ،
وقوم بالتاء . وقال الراوندي : إنها في خط الرضى بالتاء . ومعنى ذلك أنك إن وليت
أنت كانت ولايتك حقاً ، وإن ولى غيرك كانت ولايته حقاً ، على مذهب أهل الاجتهاد .
ومن رواها بالنون ، فالمعنى ظاهر .

والرافد : المعين . والذاب : الناصر .
وضغمت بهم : بخلت بهم . وأغضيت على كذا : صبرت .
وجرعت بالكسر . والشجا : ما يعترض في الخلق .
والوخز : الطعن الخفيف ، وروى « من حز الشفار » والحز : القطع .
والشفار : جمع شفرة ، وهي حد السيف والسكين .

واعلم أن هذا الكلام قد نُقل عن أمير المؤمنين عليه السلام ما يناسبه ، ويجرى مجراه ،
ولم يؤرخ الوقت الذي قاله فيه ، ولا الحال التي عناها به ، وأصحابنا يحملون ذلك على أنه عليه
السلام قاله عقيب الشورى وبيعة عثمان ، فإنه ليس يرتاب أحد من أصحابنا على أنه تظلم
وتألم حينئذ .

ويكره أكثر أصحابنا حمل أمثال هذا الكلام على التألم من يوم السقيفة .
وقائل أن يقول لهم : أتقولون إن بيعة عثمان لم تكن صحيحة ؟ فيقولون : لا ، فيقال

لم : فعلى ماذا تحملون كلامه عليه السلام ، مع تعظيمكم له وتصديقكم لأقواله ؟ فيقولون : نحمل ذلك على تألمه ونظلمه منهم إذا تركوا الأولى والأفضل . فيقال لهم : فلاتسكروا قول من يقول من الشيعة وغيرهم : إن هذا الكلام وأمثاله صدر عنه عقيب السقيفة ، وحلوه على أنه تألم وتظلم من كونهم تركوا الأولى والأفضل ، فإنكم لستم تنسكرون أنه كان الأفضل والأحق بالأمر ، بل تمتدحون بذلك ، وتقولون : ساءت إمامة غيره ، وصححت لما منع كان فيه عليه السلام ، وهو ماغلب على ظنون العاقلين للأمر من أن العرب لا تطيعه ، فإنه يخاف من فتنة عظيمة تحدث إن ولي الخلافة لأسباب يذكرونها ، ويمدحونها ، وقد روى كثير من المحدثين أنه عقيب يوم السقيفة تألم وتظلم ، واستنجدوا واستصرخ ، حيث ساموه الحضور والبيعة ، وأنه قال وهو يشير إلى القبر : ﴿ يَا بَنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي ﴾ ^(١) وأنه قال : واجمعفراه ! ولا جعفر لي اليوم ! واحزناه ولا حمزة لي اليوم !

وقد ذكرنا من هذا المعنى جملة صالحة فيما تقدم ، وكل ذلك محمول عندنا على أنه طلب الأمر من جهة الفضل والقراية ، وليس بدال عندنا على وجود النص ، لأنه لو كان هناك نص لكان أقل كلفة وأسهل طريقا ، وأيسر لما يريد تناولا أن يقول : يا هؤلاء إن العهد لم يطل ، وإن رسول الله صلى الله عليه وآله أمركم بطاعتي ، واستخلفني عليكم بعده ، ولم يقع منه عليه السلام بعد ما علمتموه ونص ينسخ ذلك ، ولا يرفعه ، فما الموجب لتركي ، والعدول عني !

فإن قالت الإمامية : كان يخاف القتل لو ذكر ذلك ، قيل لهم : فهلا يخاف القتل وهو يمتلئ ويدفع ليبائع ، وهو يمتنع ، ويستصرخ تارة بقبر رسول الله صلى الله عليه وآله ،

وتارة بعمه حمزة وأخيه جعفر - وهما ميثان - وتارة بالأنصار ، وتارة ببني عبدمناف ، ويجمع
الجموع في داره ، ويبيت الرسل والدعاة ليلاً ونهاراً إلى الناس ، يذكّرهم فضله وقربته ،
ويقول للمهاجرين : خَصَمْتُمْ^(١) الأنصار بكونكم أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ،
وأنا أخصمكم بما خَصَمْتُمْ به الأنصار ، لأنّ القرابة إن كانت هي المعتبرة ، فأنا
أقربُ منكم .

وهلّا خاف من هذا الامتناع ، ومن هذا الاحتجاج ، ومن الخلوة في داره بأصحابه ،
ومن تنفير الناس عن البيعة التي عقدت حينئذ لمن عقدت له ا
وكلّ هذا إذا تأمله المنصف علم أنّ الشيعة أصابت في أمر ، وأخطأت في أمر ،
أمّا الأمر الذي أصابت فيه فقولها : إنه امتنع وتلكأ ، وأراد الأمر لنفسه ، وأمّا الأمر
الذي أخطأت فيه ، فقولها : إنه كان مفسوصاً عليه نصّاً جليلاً بالخلافة ، تعلمه الصحابة كلّها
أو أكثرها ، وإنّ ذلك النقص خولف طلباً للرئاسة الدنيوية ، وإثارة للعاجلة . وإنّ حال
المخالفين للنص لا نعدّو أحد أمرين : إمّا الكفر أو الفسق ، فإن قرأنا الأحوال وأماراتها
لا ندلّ على ذلك ، وإمّا تدلّ وتشهد بخلافه ، وهذا يقتضي أنّ أمير المؤمنين عليه السلام
كان في مبدأ الأمر يظنّ أنّ العقد لغيره كان عن غير نظر في المصلحة ، وأنّه لم يقصد به
إلا صرف الأمر عنه ، والاستئثار عليه ، فظهر منه ما ظهر من الامتناع والعقود في بيته ،
إلى أن صحّ عنده ، وثبت في نفسه ، أنهم أصابوا فيما فعلوه ، وأنهم لم يميلوا إلى هوى ،
ولا أرادوا الدنيا ، وإنما فعلوا الأصلح في ظنّهم ، لأنّه رأى من بغض الناس له ، وانحرف فيهم
عنه ، وميلهم عليه ، وثوران الأحقاد التي كانت في أنفسهم ، واحتدام النيران التي كانت
في قلوبهم ، وتذكروا التّراث التي وتّراهم فيما قبل بها ، والدماء التي سفكها
منهم ، وأرقها .

(١) خصمكم الأنصار : غلبوكم .

وتملّ طائفة أخرى منهم للعدول عنه بصغر سنّه ، واستهجانهم تقديم الشّباب على الكهول والشيخوخ .

وتملّ طائفة أخرى منهم بكمراهية الجمع بين النبوة والخلافة في بيت واحد ، فيجتهنّون^(١) على الناس كما قاله من قاله . واستصعاب قوم منهم شكيمته وخوفهم تعديّه وشدته ، وعلمهم بأنّه لا يداجي ولا يحاجي ، ولا يراقب ولا يحامل في الدين ، وأن الخلافة تحتاج إلى مَنْ يتحمّد برأيه ، ويعمل بموجب استصلاحه ، وانحراف قوم آخرين عنه ، للعهد الذي كان عندهم له في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله ، لشدة اختصاصه له ، وتعظيمه إياه ، وما قال فيه فأكثر من النصوص الدالة على رفعة شأنه وعلو مكانه ، وما احتصّ به من مصاهرته وأخوته ، ونحو ذلك من أحواله معه ، وتسكرّ قوم آخرين له انسبتهم إليه المعجب والتهب ، كما زعموا ، واحتقارهم العرب ، واستصغارهم الناس كما عدّوه عليه ، وإن كانوا عندنا كاذبين ، ولكنه قول قليل ، وأمر ذكر ، وسال نسبت إليه ، وأعانهم عليها ما كان يصدر عنه من أقوال تؤهم مثل هذا ، نحو قوله : « فإننا صنائع ربنا ، والناس بعد صنائعنا » ، وما صحّ به عنده^(٢) أنّ الأمر لم يكن ليستقيم له يوماً واحداً ، ولا ينتظم ولا يستمرّ ، وأنه لو ولى الأمر لفقت العرب عليه فتقاً يكون فيه استئصال شأفة الإسلام وهدم أركانه ، فأذعن بالبيعة ، وجنّح إلى الطاعة وأمسك عن طلب الإمرة ، وإن كان على مذهب ورّع .

وقد روى عنه عليه السلام أنّ فاطمة عليها السلام حرّضته يوماً على النهوض والوثوب فسمع صوت المؤذن : « أشهد أن محمداً رسول الله » ، فقال لها : أيسرك زوال هذا اللداء من الأرض ؟ قالت : لا ، قال : فإنه ما أقول لك .

(١) يجفون : يهرون ويتكفرون

(٢) ب : و عنده ، وما أثبتته من ا

وهذا المذهب هو أقصدُ للمذاهب وأصحّها ، وإليه يذهب أصحابنا المتأخرون من البغداديين ، وبه نقول .

واعلم أنّ حال عليّ عليه السلام في هذا المعنى أشهر من أن يحتاج في الدلالة عليها إلى الإسهاب والإطناب ، فقد رأيت انتقاضَ العرب عليه من أقطارها حين بوبع بالخلافة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله بخمسٍ وعشرين سنة ، وفي دون هذه المدة تُنسَى الأحقاد ، وتموت التّرات ، وتبرّد الأكياد الحامية ، وتسألُ القلوب الواجدة ، ويمدّم قرنٌ من الناس ، ويوجد قرنٌ ، ولا يبقى من أرباب تلك الشّحناء والبغضاء إلّا الأقلّ ، فكانت حاله بعد هذه المدة الطويلة مع قريش كأنها حاله لو أفضت الخلافة إليه يوم وفاة ابن عمّه صلى الله عليه وآله ، من إظهار مافي النفوس ، وهيجان مافي القلوب ، حتى إنّ الأخلاف من قريش ، والأحداث والغتّيان الذين لم يشهدوا وقائعه وفتكاته في أسلافهم وآبائهم ، فعلوا به ما لو كانت الأسلاف أحياء لقصّرت عن فعله ، وتقاعدت عن بلوغ شأوه ، فكيف كانت تكون حاله لو جلس على منبر الخلافة ، وسيفه بعد يقطر دما من مُهيج العرب ، لاسيما قريش الذين بهم كان ينبغي لودهمه خطبـ أن يعتضد ، وعليهم كان يجب أن يعتمد إذن كانت تدرّس أعلام الملة وتنمّي رسوم الشريعة ، وتعود الجاهليّة الجاهلاء على حالها ، ويفسد ما أصلحه رسول الله صلى الله عليه وآله في ثلاث وعشرين سنة في شهر واحد ، فكان من عناية الله تعالى بهذا الدّين أن ألهم الصحابة ما فعلوه ، والله متمّ نوره ولو كره المشركون .

[فصل في أن جعفرًا حمزة لو كان حيّين لبايعا عليا]

وسألت الفقيهَ أبا جعفرٍ يحيى بن محمد بن أبي يزيد رحمه الله ، قلت له : أنقول : إن حمزة وجعفرًا لو كانا حيّين يوم مات رسول الله صلى الله عليه وآله ، أكانا يبايعانه بالخلافة ؟ فقال : نعم ، كانا أسرع إلى بيعته من النار في يَبَس العَرَفَج . فقلت له : أظن أن جعفرًا كان يبايعه ويتابعه ، وما أظن حمزة كذلك ، وأراه جَبَّارًا ، قوى النفس ، شديد الشكيمة ، ذاهبا بنفسه ، شجاعا بهمةً ، وهو العم والأعلى سنًا ، وآثاره في الجهاد معروفة ، وأظنه كان يطلب الخلافة لنفسه !

فقال : الأمر في أخلاقه وسجاياه كما ذكرت ، ولكنّه كان صاحب دين متين ، وتصديقي خالص لرسول الله صلى الله عليه وآله ، ولو عاش لرأى من أحوال عليّ عليه السلام مع رسول الله صلى الله عليه وآله ما يوجب أن يكسر له نخوته ، وأن يقيم له صعره ، وأن يقدمه على نفسه ، وأن يتوخى رضا الله ورضا رسوله فيه ، وإن كان بخلاف إثارة . ثم قال : أين خلق حمزة السُّبُعِيّ من خُلُق عليّ الروحانيّ اللطيف ، الذي جمع بينه وبين خلق حمزة ، فاتّصفت بهما نفس واحدة ! وأين هيولانية نفس حمزة ، وخلوها من العلوم من نفس عليّ القدسية التي أدركت بالفطرة لبالقوة التعليمية ما لم تدركه نفوس مدققي الفلاسفة الإلهيين ! لو أن حمزة حيّ حتى رأى من عليّ ما رآه غيره ، لكان أتبع له من ظله ، وأطوع له من أبي ذرّ والمقداد !

وأما قولك : هو العم والأعلى سنًا ، فقد كان العباس العم والأعلى سنًا ، وقد عرفت ما بذله له وندبه إليه ، وكان أبو سفيان كالعَم ، وكان أعلى سنًا ، وقد عرفت ما عرضه عليه . ثم قال : مازالت الأعمام تخدمُ أبناء الإخوة ، وتكون أتباعا لهم ؛ ألست ترى داود بن

عليّ ، وعبد الله بن عليّ ، وصالح بن عليّ ، وسليمان بن عليّ ، وعيسى بن عليّ ، وإسماعيل ابن عليّ ، وعبد الصمد بن عليّ خَدُمُوا ابن أخيهمْ — وهو عبد الله السَّخَّاح بن محمد بن عليّ — وبأيعوه وتابعوه ، وكانوا أمراء جيوشه وأنصاره وأعوانه ! أَلَسْتَ ترى حمزة والعباس أتبعهما ابن أخيهما صلوات الله عليه ، وأطاعاه ورضيا برياسته ، وصدَّقَا دعوته ! أَلَسْتَ تعلم أن أبا طالب كان رئيس بني هاشم وشيخهم ، والمطاع فيهم ، وكان محمد رسول الله صلى الله عليه وآله ينيمه ومكفوله ، وجارياً يجري أحد أولاده عنده ، ثم خضع له ، واعترف بصديقه ، ودان لأمره ، حتى مدحه بالشعر كما يمدح الأذنى الأعلى ، فقال فيه :

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الْغَنَامُ بِوَجْهِهِ ثَمَالُ الْيَتَامَى عَصْمَةٌ لِلْأُرَامِلِ (١)
يُطِيفُ بِهِ الْمَلَأُكَ مِنْ آلِ هَاشِمٍ فَهَمْ عَنْدَهُ فِي نِعْمَةٍ وَفَوَاضِلِ

وإن سرّاً اختصَّ به محمد صلى الله عليه وآله ، حتى أقام أبا طالب — رحاله معه حاله — مقام المادح له ، لسرِّ عظيم وخاصية شريفة ، وإن في هذا لِمُعْتَبَرٍ عِبْرَةٌ أن يكون هذا الإنسان الفقير الذي لا أنصار له ولا أعوان معه ، ولا يستطيع الدفاع عن نفسه ، فضلاً عن أن يقهر غيره ، تعمل دعوته وأقواله في الأنفس ما تعمله الخمر في الأبدان المعتدلة المزاج ، حتى تطيعه أعمامه ويمظمه مربيّه وكافله ، ومن هو إلى آخر عمره القيم بنفقته ، وغذاء بدنه ، وكسوة جسده ، حتى يمدحه بالشعر كما يمدح الشعراء الملوك والرؤساء ! وهذا في باب المعجزات عند المنصِّف أعظم من انشقاق القمر ، وانقلاب العصا ، ومن إنباء القوم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم .

ثم قال رحمه الله : كيف قلت : أظن أن جعفر أكان يبايعه ويتابعه ، ولا أظن في حمزة ذلك ! إن كنت قلت ذلك لأنه أخوه ، فإنه أعلى منه سنّاً ، هو أكبر من عليّ بعشره

(١) ديوانه ١١٣ . ثمال اليتامى : عمادهم وملازم .
عصمة للأرامل : حافظ للمساكين .

سنيين ، وقد كانت له خصائص ومناقب كثيرة ، وقال فيه النبي صلى الله عليه وآله قولا شريفاً اتفق عليه المحدثون ، قال له لما افتخر هو وعليّ وزيد بن جارية ، وتحاكموا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله : « أشبهت خلقى وخلقى » نجعل فرحاً ، ثم قال يزيد : « أنت مولانا وصاحبنا » ، نجعل أيضاً ، ثم قال لعليّ : « أنت أخى وخالصتى » ، قالوا : فلم نجعل ، قالوا : كأن ترادف التعظيم له وتكرّره عليه لم يجعل عنده لفظ ذلك الموضع ، وكانت غيره إذا عظم عظم نادراً ، فيحسن موقعه عنده . واختلف الناس في ألى المدحيتين أعظم .

فقلت له : قد وقفت لأبى حيان التوحيدى فى كتاب "البصائر" على فصل عجيب يمازج ما نحن فيه ، قال فى الجزء الخامس من هذا الكتاب : سمعت قاضى القضاة أبا سعد بشر بن الحسين - بومارأيت رجلاً أقوى منه فى الجدل - فى مناظرة جرت بينه وبين أبى عبد الله الطهرى وقد جرى حديث جعفر بن أبى طالب ، وحديث إسلامه ، وبالتفاضل بينه وبين أخيه على ، فقال القاضى أبو سعد : إذا أنعم النظر علم أن إسلام جعفر كان بعد بلوغ ، وإسلام البالغ لا يكون إلا بعد استبصار وتبين ومعرفة بقيق ما يخرج منه ، وحسن ما يدخل فيه ؛ وإن إسلام على مختلف فى حاله ، وذلك أنه قد ظن أنه كان عين تلقين لا تبين إلى حين بلوغه . وأبو أنعم نفسه ونظره . وقد علم أيضاً أنهما قتلا ، وإن قتلة جعفر شهادة بالإجمال ، وقتلة على فيها أشد الاختلاف . ثم خص الله جعفر بأن قبضه إلى الجنة قبل ظهور التباين ، واضطراب الحبل ، وكثرة الهرج ، وعلى أنه لو انعقد الإجماع ، وتظاهر جميع الناس على أن القتلتين شهادة ، لسكانت الحال فى الذى رفيع إليها جعفر أغلظ وأعظم ، وذلك أنه قتل مقبلاً غير مدير ، وأما على فإنه اغتيل اغتيالاً ، وقصد من حيث لا يعلم ؛ وشقان ما بين من فوجئ بالموت وبين من عاين مخايل الموت !

وتلقاه بالتحر والصدر ، وعجل إلى الله بالإيمان والصدق ! ألا تعلم أن جعفراً قطعت يمينه ، فأمسك اللواء يسراه ، وقطعت يسراه ، فضمّ اللواء إلى حشاه ، ثم قاتله ظاهر الشرك بالله وقاتل على من صلى إلى القبلة ، وشهد الشهادة ، وأقدم عليه بتأويل ، وقاتل جعفر كافر بالنص الذي لا خلاف فيه ! أما تعلم أن جعفراً ذو الجناحين ، وذو الهجرتين إلى الحبشة والمديعة !

قال النقيب رحمه الله : اعلم - فِدَاكَ شَيْخُكَ - أن أبا حيان رجلٌ ملجئٌ زنديق ، يحبّ التلاعب بالدين ، ويخرجُ ما في نفسه فيمزوه إلى قوم لم يقولوه . وأقسم بالله أن القاضي أبا سعد لم يَقُلْ مِنْ هذا الكلام لفظة واحدة ، ولكنها من موضوعات أبي حيان وأكاذيبه وتروياته ؛ كما يستند إلى القاضي أبي حامد المروزيّ كلّ منكر ، ويروي عنه كلّ فاقرة .

ثم قال : يا أبا حيان ! مقصودك أن تجعلها مسألة خلاف تثير بهافتة بين الطالبين ، لتجعل بأسهم بينهم ! وكيف تقلّبت الأحوال فالفخر لهم لم يخرج عنهم ! ثم ضحك رحمه الله حتى استلقى ومدّ رجله ، وقال : هذا كلامٌ يستغنى عن الإطالة في إبطاله بإجماع المسلمين ، فإنه لا خلاف بين المسلمين في أن علياً أفضل من جعفر ؛ وإنما سرق أبو حيان هذا المعنى الذي أشار إليه من رسالة المنصور أبي جعفر إلى محمد بن عبد الله ، النفس الزكية ، قال له : وكانت بنو أمية يلعنون أباك في أدبار الصلوات المكتوبات ، كما نلعن الكفرة ، فمتغنمهم وكفّرناهم ، وبيننا فضله وأشدّ نابذ كره ، فاتخذت ذلك علينا حجة ، وظننت أنه لما ذكرناه من فضله أنا قدّمناه على حمزة والعباس وجعفر ، أولئك مضوا سالمين مسلمين منهم ، وابتلى أبوك بالدماء !

فقلت له رحمه الله : وإذا لا إجماع في المسألة ؛ لأن المنصور لم يقل بتفضيله عليهم ،

وأنت أدعيت الإجماع ، فقال : إن الإجماع قد سبق هذا القائل ، وكلّ قول قد سبقه الإجماع لا يعتدّ به .

فلما خرجت من عند النقيب أبي جعفر بحثت في ذلك اليوم في هذا الموضوع مع أحمد ابن جعفر الواسطي رحمه الله - وكان ذا فضل وعقل ، وكان إمامي المذهب - فقال لي : صدق النقيب فيما قال ! أأنت تعلم أن أصحابكم المعتبرة على قولين : أحدهما أن أكثر المسلمين ثواباً أبو بكر ، والآخر أن أكثرهم ثواباً عليّ ، وأصحابنا يقولون : إن أكثر المسلمين ثواباً عليّ ، وكذلك الزيدية . وأما الأشعرية والكرامية وأهل الحديث ، فيقولون : أكثر المسلمين ثواباً أبو بكر ، فقد خلص من مجموع هذه الأقوال أن ثواب حمزة وجعفر دون ثواب عليّ عليه السلام ؛ أما على قول الإمامية والزيدية والبغداديين كافة ، وكثير من البصريين من المعتزلة ، فالأمر ظاهر ، وأما الباقيون فعندهم أن أكثر المسلمين ثواباً أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم عليّ ؛ ولم يذهب ذاهبٌ إلى أن ثواب حمزة وجعفر أكثر من ثواب عليّ من جميع الفرق . فقد ثبت الإجماع الذي ذكره النقيب ، إذا فسرنا الأفضلية بالأكثرية ثواباً ، وهو التفسير الذي يقع الحجاج والجدال في إثباته لأحد الرجلين . وأما إذا فسرنا الأفضلية بزيادة المناقب والخصائص وكثرة النصوص الدالة على التعظيم ، فمعلوم أن أحداً من الناس لا يقارب علياً عليه السلام في ذلك ، لاجعفر ، ولا حمزة ولا غيرهما .

ثم وقع بيدي بعد ذلك كتاب شيخنا أبي جعفر الإسكافي ، ذكر فيه أن مذهب بشر بن المعتز ، وأبي موسى ، وجعفر بن مَبَشَّر ، وسائر قدماء البغداديين أن أفضل المسلمين عليّ بن أبي طالب ، ثم ابنه الحسن ، ثم ابنه الحسين ، ثم حمزة بن عبد المطلب ، ثم جعفر بن أبي طالب ، ثم أبو بكر بن أبي قحافة ، ثم عمر بن الخطاب ، ثم عثمان ابن عفان .

قال : والمراد بالأفضل أكرمهم عند الله ، وأكثرهم ثواباً ، وأرفعهم في دار
الجزاء منزلةً .

ثم وقفت بعد ذلك على كتاب لشيخنا أبي عبد الله البصريّ يذكر فيه هذه المقالة ،
وينسبها إلى البغداديين ، وقال : إن الشيخ أبا القاسم الباقليّ ، كان يقول بها ، وقبله الشيخ
أبو الحسين الخياط ، وهو شيخ المتأخرين من البغداديين ، قالوا كلهم بها ، فأعجبني هذا
المذهب ، وسررت بأن ذهب الكثير من شيوخنا إليه ، ونظمت في الأرجوزة التي شرحت
فيها عقيدة المنزلة ، فقلت :

أعظمهم يوم الفخار شرفاً	وخير خلق الله بعد المصطفى
بعلّ البقول المرتضى على	السيد المعظم الوصي
ثم عتيق بعدهم لا ينكر	وابنائه ثم حمزة وجمعه
فاروق دين الله ذاك القسوة	المخلص الصديق ثم عمر
هذا هو الحق بغير من	وبعده عثمان ذو الثورين

(٢١٢)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام في ذكر السائرين إلى البصرة لحربه عليه السلام :
فَقَدِمُوا عَلَى عُمَّالٍ وَخُرَّانٍ بَيْنَ مَالِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي فِي يَدَيَّ ، وَعَلَى أَهْلِ مِصْرٍ
كُلِّهِمْ فِي طَاعَتِي ، وَعَلَى بَيْعَتِي ؛ فَشَتَّتُوا كَلِمَتَهُمْ ، وَأَفْسَدُوا عَلَى جَمَاعَتِهِمْ ، وَوَثَبُوا عَلَى
شِيعَتِي فَقَتَلُوا طَائِفَةً مِنْهُمْ غَدْرًا ، وَطَائِفَةً عَضُّوا عَلَى أَسْيَافِهِمْ ، فَضَارَبُوا بِهَا ، حَتَّى
لَقُوا اللَّهَ صَادِقِينَ .

الشرح :

عَضُّوا عَلَى أَسْيَافِهِمْ ، كناية عن الصبر في الحرب وترك الاستسلام ، وهي كناية
فصيحة ، شبه قبضهم على السيوف بالعض ، وقد قدمنا ذكر ما جرى ، وأن عسكر
الجل قتلوا طائفة من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام بالبصرة بعد أن آمنوا غدرا ، وأن بعض
الشيعة صبر في الحرب ولم يستسلم ، وقاتل حتى قتل ، مثل حكيم بن جبلة العبدى وغيره . وروى :
« وَطَائِفَةٌ عَضُّوا عَلَى أَسْيَافِهِمْ » بالرفع ، تقديره : ومنهم طائفة .

قرأت في كتاب " غريب الحديث " : لأبي محمد عبد الله بن قتيبة في حديث
حُدَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ ، أَنَّهُ ذَكَرَ خُرُوجَ عَائِشَةَ ، فَقَالَ : « تَقَاتَلُ مَعَهَا مُضَرٌّ ، مُضَرُّهَا اللَّهُ فِي النَّارِ »^(١) ،

(١) قال ابن الأثير في شرحه للحديث : « أَى جَعَلَهَا فِي النَّارِ ، فَاشْتَقَى لَذَلِكَ لَفْظًا مِنْ اسْمِهَا ؛ يُقَالُ :
مُضَرًّا فُلَانًا فَمُضَرٌّ ؛ أَى صِرْنَاهُ كَذَلِكَ ، أَى نَسَبْنَاهُ إِلَيْهَا .. وَنُقَالَ الرَّجُلُ خَشِرَى : مُضَرُّهَا : جَمْعُهَا كَمَا يُقَالُ :
جُنْدُ الْجُنُودِ ، وَقِيلَ : مُضَرُّهَا : أَهْلُكُمَا ، مِنْ قَوْلِهِمْ : ذَهَبَ دَمُهُ خَضْرًا مُضَرًّا ، أَى هَدْرًا » .
النهاية ٤ : ٩٨ .

وأزد عُمان سَلَت الله أقدامها ^(١) ، وإن قيساً لن تنفك تبغى دين الله شراً ، حتى يركبها الله بالملائكة ، فلا يمتعوا ذنب تلعة ^(٢) .

قلت : هذا الحديث من أعلام نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله ، لأنه إخبار عن غيب تلقاه حذيفة عن النبي صلى الله عليه وآله ؛ وحذيفة أجمع أهل السيرة على أنه مات في الأيام التي قتل عثمان فيها أتابه نعيمه وهو مريض ، فمات وعليه السلام لم يكامل بيعة الناس ، ولم يدرك الجمل .

وهذا الحديث يؤكد مذهب أصحابنا في فسق أصحاب الجمل ، إلا من أثبتت توبته منهم ، وهم الثلاثة .

(١) سلت الله أقدامها : قطعها . النهاية ٢ : ١٧٤ .

(٢) التلاع : مسيل الماء ، من علو إلى سفلى ، واحدها تلعة ، وذنب التلعة : أسفلها ؛ قال الزمخشري : « أى يذلها الله حتى لا تقدر على أن تمتع ذنب تلعة . الفائق ٣ : ٣٢ .

(٢١٣)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام لما مرّ بطلحة بن عبيد الله وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد وهما قتيلان يوم الجمل :

لَقَدْ أَصْبَحَ أَبُو مُحَمَّدٍ بِهَذَا السَّكَنِ غَرِيبًا أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ أَكْرَهُ أَنْ
تَسْكُونَ قَرِيشَ قَتْلَى تَحْتَ بُلُونِ السَّكْوَا كِبًا أَدْرَكْتُ وَتَرَى مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنْفٍ ،
وَأَفَلَتَنِي أَعْيَارُ بَنِي جُهَجٍ ، لَقَدْ أَنْتَمُوا أَعْنَاقَهُمْ إِلَى أَمْرِ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَهُ فَوَقِعُوا دُونَهُ أ

الشُّرُح :

[عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد]

هو عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس . ليس
بصعاني ، ولكنه من التابعين ، وأبوه عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس ،
من مُسَلِّحَةِ الْفَتْحِ ، ولما خرج رسول الله صلى الله عليه وآله من مكة إلى حُفَيْنَ ، استعمله
عليها ، فلم يزل أميرها حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وآله ، وبقي على حاله خلافة
أبي بكر الصديق ، ومات هو وأبو بكر في يوم واحد ، لم يعلم أحدهما بموت الآخر ،
وعبد الرحمن هذا هو الذي قال أمير المؤمنين فيه ، وقد مرّ به قتيلا يوم الجمل : لهقى عليك
بمسوب قریش ا هذافق الفتیان ، هذا الباب الخض من بنی عبد مناف ، شفیت نفسی ،
وقتلتم مشری ، إلى الله أشكو مجرّی ومجرّی ا فقال له قائل : لشدّ ما أطريت

الفتى بأمير المؤمنين منذ اليوم ! قال : إنه قلم عني وعنه نسوة لم يقمن عنك
وعبد الرحمن هذا هو الذي احتملت العقاب كفه يوم الجمل وفيها خاتمته ، فالقها بالنيامة
فعرفت بجاتمته ، وعلم أهل النيامة بالوقعة .

ورأيت في شرح " نهج البلاغة " ، للقطب الراوندي في هذا الفصل عجائب وطرائف ،
فأحييت أن أورد لها هاهنا . منها أنه قال في تفسير قوله عليه السلام « أدركت وترى ^(١) من
بنى عبد مناف » ، قال : يعني طلحة والزبير ، كانا من بني عبد مناف ، وهذا غلط قبيح ،
لأن طلحة من تيم بن مرة ، والزبير من أسد بن عبد المزي بن قصي ، وليس أحد
منهما من بني عبد مناف ، وبالله عبد مناف أربعة : هاشم ، وعبد شمس ، ونوفل ، وعبد المطلب ،
فكل من لم يكن من ولد هؤلاء الأربعة ، فليس من ولد عبد مناف .

ومنها أنه قال : إن مروان بن الحكم ، من بني جحج ، ولقد كان هذا الفقيه رحمه الله
بعيداً عن معرفة الأنساب المروانية من بني أمية بن عبد شمس ، وبنو جحج من بني
هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب ، واسم جحج تيم بن عمرو بن هصيص ، وأخوه
سهم بن عمرو بن هصيص ربهط عمرو بن العاص ، فأين هؤلاء ، وأين مروان
ابن الحكم !!

ومنها أنه قال : « وأفلتني أغيار بني جحج » بالذين المعجمة ، قال : هو جحج « غير »
الذي بمعنى « سوى » ، وهذا لم يرق ، ولا مثله مما يتكلم به أمير المؤمنين لركته
وبعده عن طريقته ، فإنه يكون قد عدل عن أن يقول : « ولم يفلتني إلا بنو جحج » إلى
مثل هذه العبارة الركيكة المتعسفة .

(١) الوتر : الدحل والثأر .

[بنو جُمَح]

واعلم أنه عليه السلام أخرج هذا الكلام مخرج الدمّ لمن حضر الجمل مع عائشة زوجة النبي صلى الله عليه وآله من بنى جُمَح ، فقال : « وأفلتني أعيارُ بنى جُمَح » ، جمع عَيْن وهو الحمار ، وقد كان معها منهم يوم الجمل جماعة هربوا ، ولم يقتل منهم إلا اثنان ، فتمن هرب ونجا بنفسه : عبد الله الطويل بن صفوان بن أمية بن خلف بن وهب بن حذافة ابن جُمَح ، وكان شريفا وابن شريف ، وعاش حتى قُتِلَ مع ابن الزبير بمكة .

ومنهم يحيى بن حكيم بن صفوان بن أمية بن خلف ، عاش حتى استعمله عمرو بن سعيد الأشدق على مكة ، لما جمع له بين مكة والمدينة ، فأقام عمرو بالمدينة ، ويحيى بمكة . ومنهم عامر بن مسعود بن أمية بن خلف ، كان يسمى دُحْرُوجَةَ الْجُمَل ، لقصره وسواده ، وعاش حتى ولّاه زياد صَدَقَاتٍ بَكْر بن وائل ، وولّاه عبد الله بن الزبير بن العوام الكوفة .

ومنهم أيوب بن حبيب بن علقمة بن ربيعة بن الأعور بن أهيب بن حذافة بن جُمَح ، عاش حتى قُتِلَ بِقُدِيد ، قتلته الخوارج .

فهؤلاء الذين أعرِف حضورهم الجمل مع عائشة من بنى جُمَح ، وقتل من بنى جُمَح مع عائشة عبد الرحمن بن وهب بن أسيد بن خلف بن وهب بن حذافة بن جُمَح ، وعبد الله ابن ربيعة بن دَرَّاج العنابس بن وهبان بن وهب بن حذافة بن جُمَح ، لا أعرِف أنه قُتِلَ من بنى جُمَح ذلك اليوم غيرها ، فإنَّ صَحَّت الرواية : « وأفلتني أعيان بنى جُمَح » ، بالنون ، فالمراد رؤسائهم وساداتهم .

وأتلعوا أعناقهم : رفعوها ، ورجل أتلَعَ : بَيْن التَّلْع ، أى طويل العنق ، وجيدٌ تَلِيم أى طويل ، قال الأعشى :

يوم تُبْشِرُ لَنَا بَقِيَّةَ عَنْ جِيهٍ لِي تَلِيْمٍ تَزِيْنُهُ الْأَطْوَاقُ (١)
وَوُقِصَ الرَّجُلُ ، إِذَا انْدَقَّتْ عُنُقُهُ ، فَهُوَ مَوْقُوسٌ ، وَوَقِصْتُ عُنُقَ الرَّجُلِ أَقْصَاهَا
وَقِصًّا ، أَيْ كَسَرْتُهَا ، وَلَا يَجُوزُ وَقِصْتُ الْعُنُقَ نَفْسَهَا .
وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « لَقَدْ أَتَلَعُوا » يَرْجِعُ إِلَى قَرِيشٍ ، أَيْ رَامُوا الْخِلَافَةَ
فَقَتَلُوا دُونَهَا .

فَإِنْ قُلْتُ : أَتَقُولُ إِنْ طَلَحَ وَالزَّرِيرُ لَمْ يَكُونَا مِنْ أَهْلِ الْخِلَافَةِ ؟ إِنْ قُلْتَ ذَلِكَ
تَرَكْتَ مَذْهَبَ أَصْحَابِكَ ، وَإِنْ لَمْ تَقُلْ خَالَفْتَ قَوْلَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ « لَمْ يَكُونُوا أَهْلَهُ » !
قُلْتُ : هُمَا أَهْلٌ لِلْخِلَافَةِ مَا لَمْ يَطْلُبْهُمَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِذَا طَلَبَهَا لَمْ يَكُونَا أَهْلًا لَهَا ،
لَا هُمَا وَلَا غَيْرُهُمَا ، وَلَوْلَا طَاعَتُهُ لَمْ تَقْدَمْ وَمَا ظَهَرَ مِنْ رِضَاهُ بِهِ لَمْ نَحْكَمْ بِصِحَّةِ خِلَافَتِهِ .

(٢١٤)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

قَدْ أَحْيَا عَقْلَهُ ، وَأَمَاتَ نَفْسَهُ ؛ حَتَّى دَقَّ جَلِيلُهُ ، وَلَطَفَ غَلِيظُهُ ، وَبَرَقَ لَهُ
لَامِسٌ كَثِيرُ الْهَرَقِ ، فَأَبَانَ لَهُ الطَّرِيقَ ، وَسَلَكَ بِهِ السَّبِيلَ ، وَدَفَعَتْهُ الْأَبْوَابُ إِلَى
بَابِ السَّلَامَةِ ، وَدَارِ الْأَقَامَةِ ، وَتَبَيَّنَتْ رِجَالُهُ بِطُمَأْنِينَةٍ بَدَنِهِ فِي قَرَارِ الْأَمْنِ وَالرَّاحَةِ ،
بِمَا أَسْتَعْمَلَ قَلْبُهُ ، وَأَرْضَى رَبُّهُ .

الشيخ :

يصف العارف ، يقول : قد أحيا قلبه بمعرفة الحق سبحانه ، وأمات نفسه بالمجاهدة
ورياضة القوة البدنية بالجوع والعطش ، والسمهر ، والصبر على مشاق السفر ، والسياسة .
حتى دقَّ جليله ، أى حتى نحلَّ بدنه الكثيف .
ولطف غليظه ، تلطفت أخلاقه وصفت نفسه ، فإن كدَّر النفس في الأكثر إنما
يكون من كدَّر الجسد ، والبطنة - كما قيل - تذهب الفطنة .

[فصل في مجاهدة النفوس وما ورد في ذلك من الآثار]

ونقول أرباب هذه الطريقة : مَنْ لم يكن في بدايته صاحبَ مجاهدة لم يجد من هذه
الطريقة شئمة .

وقال عثمان المغربي الصوفي : مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُفْتَحُ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ ، أَوْ يَكْشِفُ لَهُ عَنْ سِرٍّ مِنْ أَسْرَارِهَا مِنْ غَيْرِ لُزُومِ الْمَجَاهِدَةِ ، فَهُوَ غَالِطٌ .

وقال أبو علي الدقاق : مَنْ لَمْ يَكُنْ فِي بَدَايَتِهِ قُوَّةً ، لَمْ يَكُنْ فِي نَهَايَتِهِ جُلُوسَةً .
ومن كلامهم : الْحَرَكَةُ بَرَكَةٌ . حَرَكَاتُ الظَّوَاهِرِ ، تُوجِبُ بَرَكَاتِ السَّرَائِرِ .
ومن كلامهم : مَنْ زَيَّنَ ظَاهِرَهُ بِالْمَجَاهِدَةِ حَسَّنَ اللَّهُ سَرَائِرَهُ بِالْمُشَاهَدَةِ .

وقال الحسن الفرازيفي : هَذَا الْأَمْرُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ : أَلَّا تَأْكُلَ إِلَّا عِنْدَ الْفَاقَةِ ، وَلَا تَنَامَ إِلَّا عِنْدَ الْغَلْبَةِ ، وَلَا تَتَكَلَّمَ إِلَّا عِنْدَ الضَّرُورَةِ .

وقال إبراهيم بن أدهم : لَنْ يَنَالِ الرَّجُلُ دَرَجَةَ الصَّالِحِينَ حَتَّى يَفْلُقَ عَنْ نَفْسِهِ بَابَ النِّعْمَةِ ، وَيَفْتَحَ عَلَيْهَا بَابَ الشَّدَةِ .

ومن كلامهم : مَنْ كَرُمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ ، هَانَ عَلَيْهِ دِينُهُ .

وقال أبو علي الروذباري : إِذَا قَالَ الصَّوْفِيُّ بِعَدِّ خَمْسَةِ أَيَّامٍ : أَنَا جَائِعٌ ، فَالْزَمُوهُ السُّوقَ ، وَمُرُوهُ بِالْكَسْبِ .

وقال حبيب بن أوس أبو تمام ؛ وَهُوَ يَقْصِدُ غَيْرَ مَا نَحْنُ فِيهِ ، وَلَكِنَّهُ يَصْلُحُ أَنْ يَسْتَعْمَلَ فِيمَا نَحْنُ فِيهِ :

خَذِي عِبْرَاتِ عَيْنِكَ عَنْ زَمَائِي	وَصُونِي مَا أَزَلْتِ مِنَ الْقِنَاعِ ^(١)
أَقْلِي قَدْ أَضَاقَ بُكَاءُكَ دَرْعِي	وَمَا ضَاقَتْ بِنَازِلَةِ ذِرَاعِي
أُفْلِقَ النَّحِيبِ كَمْ افْتِرَاقٍ	أُظِلَّ فَكَانَ دَاعِيَةَ اجْتِمَاعٍ

(١) ديوانه ٢ : ٣٣٦ ، قال في شرحه . يقول لها : نحى عن عزى بكاءك . وزماع اسم من أزممت ، ونحى بالقناع الذى ألقته عن رأسك .

فليست فرحة الأوثان إلا لموقوف على ترّح الوداع^(١)
 تعجب أن رأت جـي نحيلاً كأن الجسد يُدرك بالصرع^(٢)
 أخو التكبّات من يأوى إذا ما أطفئ به إلى خلقي وساع^(٣)
 يثيرُ عـجاجة في كل فجّ يهيمُ به عدوُّ بن الرقاع^(٤)
 أين مع السباع الماء حتى تخلقه السباع من السباع
 وقال أيضاً :

فاطمت هذوها نائمة قل واستثير باليس من تحت السهاد هجودا^(٥)
 ما إن ترى الأحساب بيضا وضجعا إلا بحيث ترى الدنيا سودا^(٦)

وجاء في الحديث أن فاطمة جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بكيسرة خبز ،
 فقال : ما هذه ؟ قالت : قرص خبزته ، فلم تطب نفسي حتى أتيتك منه بهذه الكيسرة ،
 فأكلها ، وقال : « أما إنها لأول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاث » .
 وكان يقال : ينابيع الحكمة من الجوع ، وكسر عادية النفس بالجاهدة .

(١) قال في شرحه : « أي لمن يعرف ترّح الوداع ، من قولهم : وقت ثلاثاً على أمرى ، فهو وقوف عليه . أي من لم يجد أنما لا يفرق لم يجد فرحاً بالقاء » .
 (٢) الديوان : « توجع أن رأيت » .
 (٣) رواية الديوان :

فتى التكبّات من يأوى إذا ما أطفئ به إلى خلقي وساع

وقال في شرحه : « أطفئ : من قولهم : دابة قطوف ، ويروي : « أطفئ به » . ويروي : « أطفئ به » يقول : هو صاحب التكبّات والشائد بتكبتها ، ويأوى إلى خافي واسع ؛ إذا ضيق من مذاهبه وأطفئ به » .
 (٤) في الديوان : « في كل ثمر » .

(٥) ديوانه ١ : ٤١٦ ، ٤٢٢ ، قال في شرحه : « أي اطاب بالحركة الأسفار سكوتاً ودعة فيما بعد ، وبالألف نوماً . وقوله : « باليس » أي يركوب اليس . ومن تحت السهاد : أي من تحت الصبر على السهاد . (٦) أي من لم يصبر في ممركة الأبطال لم يذكر .

وقال يحيى بن مُعَاذ : لو أَنَّ الْجُوعَ يُبَاعُ فِي السُّوقِ لَمَا كَانَ يَنْبَغِي اِطْلَابُ الْآخِرَةِ إِذَا دَخَلُوا السُّوقَ أَنْ يَشْتَرُوا غَيْرَهُ .

وقال سهل بن عبد الله : لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الدُّنْيَا جَعَلَ فِي الشَّبَعِ الْمَعْصِيَةَ وَالْجَهْلَ ، وَجَعَلَ فِي الْجُوعِ الطَّاعَةَ وَالْحِكْمَةَ .

وقال يحيى بن مُعَاذ : الْجُوعُ لِلْمُرِيدِينَ رِيَاضَةً ، وَلِلنَّائِبِينَ تَجْرِبَةً ، وَلِلزَّهَّادِ سِيَاسَةً ، وَلِلْعَارِفِينَ تَسْكِرَةً .

وقال أبو سليمان الدَّارَانِيُّ : مِفْتَاحُ الدُّنْيَا الشَّبَعُ ، وَمِفْتَاحُ الْآخِرَةِ الْجُوعُ .
وقال بعضهم : أَدَبُ الْجُوعِ أَلَّا يَنْقُصَ مِنْ عَادَتِكَ إِلَّا مِثْلَ أُذُنِ السَّنَّوْرِ ، هَكَذَا عَلَى التَّدْرِيجِ ، حَتَّى تَصِلَ إِلَى مَا تَرِيدُ .

ويقال : إِنْ أَبَا تُرَابُ النَّخْشَبِيِّ خَرَجَ مِنَ الْبَصْرَةِ إِلَى مَكَّةَ ، فَوَصَلَ إِلَيْهَا عَلَى أَكْلَتَيْنِ : أَكْلَةً بِالْقَبَاجِ ، وَأَكْلَةً بِذَاتِ عِرْقٍ .

قالوا : وَكَانَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التُّسْتَرِيُّ إِذَا جَاعَ قَوًى ، وَإِذَا أَكَلَ ضَعْفَ .
وَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ يَأْكُلُ كُلَّ أَرْبَعِينَ يَوْمًا أَكْلَةً وَاحِدَةً ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْكُلُ كُلَّ ثَمَانِينَ يَوْمًا أَكْلَةً وَاحِدَةً .

قالوا : وَاشْتَهَى أَبُو الْخَيْرِ الْعَسْقَلَانِيُّ السَّمَكَ سِنِينَ كَثِيرَةً ، ثُمَّ نَهَى لَهُ أَكْلَهُ مِنْ وَجْدٍ حَلَالٍ ، فَلَمَّا مَدَّ يَدَهُ لِيَأْكُلَ أَصَابَتْ أَصْبَعَهُ شَوْكَةٌ مِنْ شَوْكِ السَّمَكِ ، فَقَامَ وَتَرَكَ الْأَكْلَ ، وَقَالَ : يَا رَبُّ ، هَذَا لِمَنْ مَدَّ يَدَهُ بِشَهْوَةٍ إِلَى الْحَلَالِ ، فَكَيْفَ بِمَنْ مَدَّ يَدَهُ بِشَهْوَةٍ إِلَى الْحَرَامِ !

وَفِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ ^(١) ، فَالْجَلَّةُ الْأُولَى هِيَ التَّقْوَى ، وَالثَّانِيَةُ هِيَ الْمَجَاهِدَةُ .

(١) سُورَةُ النَّازِعَاتِ ٤٠ ، ٤١ .

وقال النبي صلى الله عليه وآله : « أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي اتِّبَاعُ الْهَوَى وَطُولُ الْأَمَلِ ، أَمَا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنْ الْحَقِّ ، وَأَمَا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْآخِرَةَ » .
وسئل بعضُ الصُّوفِيَّةِ عن المجاهدة ، فقال : ذَبَحَ النَّفْسَ بِسُيُوفِ الْخَالِفَةِ .
وقال : مَنْ نَجَمَتْ طَوَارِقُ نَفْسِهِ ، أَفَلَتْ شَوَارِقُ أَنْسِهِ .

وقال إبراهيم بن شيبان : مابِتٌ تَحْتَ سَقْفٍ وَلَا فِي مَوْضِعٍ عَلَيْهِ غَلَقٌ^(١) أَرْبَعِينَ سَنَةً .
وَكُنْتُ أَشْتَهِي فِي أَوْقَاتٍ أَنْ أَتَنَاوَلَ شُبْعَةً^(٢) عَدَسٍ فَلَمْ يَتَّفَقْ ، ثُمَّ سَحَلْتُ إِلَى وَأَنَا بِالشَّامِ غَضَارَةً^(٣) فِيهَا عَدَسِيَّةٌ ، فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا وَخَرَجْتُ ، فَرَأَيْتُ قَوَارِيرَ مَعْلَقَةً فِيهَا شَبْهٌ أَنْمُودِجَاتٍ ، فَظَلَنْتُهَا خَلًّا ، فَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ : أَنْتَظِرْ إِلَى هَذِهِ وَتَظْنُهَا خَلًّا ! وَإِنَّمَا هِيَ خَمْرٌ ، وَهِيَ أَنْمُودِجَاتُ هَذِهِ الدَّانِ لَدُنَّانِ هُنَاكَ فَقُلْتُ : قَدَارِزِ مَنَى فَرَضُ الْإِنْكَارِ ، فَدَخَلْتُ حَانُوتَ ذَلِكَ الْخَمَّارِ لَا كَسِيرَ الدَّانِ وَالْجَرَّارِ ، فَحِمَلْتُ إِلَى ابْنِ طُولُونَ ، فَأَسْرَ بَصْرِي مَائَتِي خَشْبَةً ، وَطَرَحَنِي^(٤) فِي السَّجْنِ ، فَبَقِيتُ مَدَّةً ، حَتَّى دَخَلَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْوَبَّانِيُّ الْمَغْرِبِيَّ أَسْتَاذَ ذَلِكَ الْبَلَدِ ، فَعَلِمَ أَنِّي مَحْبُوسٌ ، فَشَفَعَ فِيَّ ، فَأَخْرَجْتُ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا وَقَعَ بِصَرِّهِ عَلَيَّ قَالَ : أَيْ شَيْءٍ فَعَلْتُ ؟ فَقُلْتُ : شُبْعَةً عَدَسٍ وَمَائَتِي خَشْبَةً ، فَقَالَ : لَقَدْ نَجَوْتَ بِنَجَانَا .

وقال إبراهيم الخواص : كُنْتُ فِي جَبَلٍ ، فَرَأَيْتُ رُؤْمَانًا فَاشْتَهَيْتُهُ ، فَدَنَوْتُ فَأَخَذْتُ مِنْهُ وَاحِدَةً ، فَشَقَقْتُهَا فَوَجَدْتُهَا حَامِضَةً ، فَضَيِضْتُ وَتَرَكْتُ الرَّمَانَ ، فَرَأَيْتُ رَجُلًا مَطْرُوحًا قَدْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ الزَّنَائِرُ ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، فَرَدَّ عَلَيَّ بِاسْمِي ، فَقُلْتُ : كَيْفَ عَرَفْتَنِي ؟ قَالَ : مَنْ عَرَفَ اللَّهَ لَمْ يَخَفْ عَلَيْهِ شَيْءٌ ، فَقُلْتُ لَهُ : أَرَى لَكَ حَالًا مَعَ اللَّهِ ، فَلَوْ سَأَلْتَهُ أَنْ يَحْمِيكَ وَيَقِيكَ مِنْ أَذَى هَذِهِ الزَّنَائِرِ ! فَقَالَ : وَأَرَى لَكَ حَالًا مَعَ اللَّهِ ، فَلَوْ سَأَلْتَهُ أَنْ يَقِيكَ مِنْ شَهْوَةِ الرَّمَانِ ، فَإِنَّ لَذَعَ الرَّمَانِ يَجِدُ الْإِنْسَانَ أَلَمَهُ فِي الْآخِرَةِ ، وَلَذَعَ الزَّنَائِرِ

(١) الغلق هنا : الباب .
(٢) الشبعة من الطعام : قدر ما يشبع به .
(٣) الغضارة : القصة الكبيرة .
(٤) كذا في ١ ، وفي ب : وطرحني .

يُجد الإنسان أَلَمَهُ في الدنيا ، فتركته ومضيت على وجهي .
وقال يوسف بن أسباط : لا يَمحو الشَّهَوَاتِ من القلب إلا خوفٌ مزعج ،
أو شوقٌ مقلق .

وقال الخواص : مَنْ ترك شهوة فلم يجد عِوَضَهَا في قلبه فهو كاذب في تركها .
وقال أبو عليّ الرّباطي : صحبت عبد الله المروزي ، وكان يدخل البادية قبل أن أصحبه
بلا زاد ؛ فلما صحبته قال لي : أيُّما أحبُّ إليك ؟ تكون أنت الأمير ، أم أنا ؟ قلت : بل
أنت ، فقال : وعليك الطاعة ؟ قلت : نعم ، فأخذ بخِلاّةٍ ووضع فيها زادا ، وحملها على
ظهره ، فكنت إذا قلت له : أعطني حتى أحملها ، قال : الأمير أنا ، وعليك الطاعة ، قال :
فأخذنا المطرُ ليلةً ، فوقف إلى الصّباح على رأسي ، وعليه كساء يمنع عني المطر ، فكنت
أقول في نفسي : ياليتني متّ ولم أقل له : أنت الأمير ! ثم قال لي : إذا صحبت إنسانا فاصحبه
كما رأيته صحبتك .

أبو الطيّب المتنبي :

ذَرِينِي أَنْزِلْ مَا لَا يُنَالُ مِنَ الْعُلَا فصعبُ العَلَا في الصَّعبِ والسَّهلِ في السَّهلِ^(١)
تريدنَ إدراكَ المعالي رخيصةً ولا بُدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إِبْرِ النَّحْلِ^(٢)
وله أيضا :

وَإِذَا كَانَتْ الثُّفُوسُ كِبَارًا تعبتُ في مُرَادِهَا الأَجْسَامُ^(٣)
ومن أمثال العامة : مَنْ لم يَغْلِ دماغه في الصَّيفِ لم تَغْلِ قِدْرُهُ في الشتاء .
مَنْ لم يركب الأخطار ، لم ينل الأوطار .

(١) ديوانه ٣ : ٢٩٠ .

(٢) في الديوان : « تريدنَ لقِيانَ المعالي » .

(٣) ديوانه ٣ : ٣٤٥ .

إدراك الشول وبلوغ المأمول ، بالصبر على الجوع ، وفقد الشهوة ، وسيلان الدموع

واعلم أن تقليل المأكول لأرب في أنه نافع للنفس والأخلاق ، والتجربة قد دلت عليه ، لأننا نرى الكثير من الأكل يفاكه القوم والكسل وبلادة الحواس وتتهجر المأكولات الكثيرة أبخرة كثيرة ، فتتصاعد إلى الدماغ فتفسد القوى النفسانية . وأيضاً فإن كثرة المأكول كل تزييل الرقة ، وتورث القساوة والسبعية ، والقياس أيضاً يقتضى ذلك ؛ لأن كثرة الزاؤلات ، سبب لحصول الملل ، فالتفكير إذا توفرت على تدبير الغذاء وتصريفه ، كان ذلك شغلاً شاغلاً لها ، وعائقاً عظيماً عن انصبابها إلى الجهة الروحانية العالية ، ولكن ينبغي أن يكون تقليل الغذاء إلى حدٍّ يوجب جوعاً قليلاً ، فإن الجوع المفرط يورث ضعف الأعضاء الرئيسة واضطرابها ، واختلال قواها ، وذلك يقتضى تشويش النفس واضطراب الفكر ، واختلال العقل ، ولذلك تعرض الأخطا السوداوية لمن أفرط عليه الجوع ، فإذاً لا بد من إصلاح أمر الغذاء ، بأن يكون قليل الكمية ، كثير الكيفية ، فتؤثر قلة كميته في أنه لا يشغل النفس بتدبير المهضم عن التوجه إلى الجهة العالية الروحانية ، وتؤثر كثرة كميته في تدارك الخلل الحاصل له من قلة الكمية ، ويجب أن يكون الغذاء شديد الإمداد للأعضاء الرئيسة ، لأنها هي المهمة من أعضاء البدن وما دامت باقية على كمال حالها لا يظهر كثير خلل من ضعف غيرها من الأعضاء .

[فصل في الرياضة النفسية وأقسامها]

واعلم أن الرياضة والجوع هي أمرٌ يحتاج إليه المريد الذي هو بعدُ في طريق السلوك إلى الله .

وينقسم طالبو هذا الأمر الجليل الشاق إلى أقسام أربعة :
أحدها : الذين مارسوا العلوم الإلهية ، وأجهدوا أنفسهم في طلبها والوصول إلى كنهها ،
بالنظر الدقيق ، في الزمان الطويل ، فهو لا يحصل لهم شوق شديد ، وميلٌ عظيم إلى الجهة
العالية الشريفة ، فيحملهم حبُّ الكمال على الرياضة .

وثانيها : الأنفس التي هي بأصل الفطرة والجوهر مائلة إلى الروحانية من غير ممارسة
علم ولا دربة بنظر وبحث ، وقد رأينا مثلهم كثيرا ، وشاهدنا قوماً من العامة متى سَنَحَ
لهم سائح مشوق ، مثل صوت مطرب ، أو إنشاد بيت يقع في النفس ، أو سماع كلمة توافق
أمرأ في بواطنهم ، فإنه يستولي عليهم الوجد ، ويشتد الحنين ، وتغشاهم غواشٍ لطيفة
روحانية ، يغيبون بها عن المحسوسات والجسمانيات .

وثالثها : نفوس حصل لها الأمران معاً : الاستعداد الأصلي ، والاشتغال بالعلوم
النظرية الإلهية .

ورابعها : النفوس التي لا استعداد لها في الأصل ولا ارتاضت بالعلوم الإلهية ،
ولكنهم ^(١) قومٌ سمعوا كمال هذه الطريقة ، وأن السعادة الإنسانية ليست إلا بالوصول إليها ،
فالت نحوها ، وحصل لها اعتقاد فيها .

فهذه أقسام المريدين ؛ والرياضة التي تليقُ بكل واحدٍ من هذه لأقسام غير الرياضة
اللائقة بالقسم الآخر .

ونحتاج قبل الخوض في ذلك إلى تقديم أمرين :

أحدهما : أن النفحات الإلهية دائمة مستمرة ، وأنه كل من توصل إليها وصل ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ ^(١) وقال النبي صلى الله عليه وآله : « إن ربكم في أيام عَصْرِكُم نَفحاتٍ ، ألا فتمرّضوا لنفحاته » .

وثانيهما : أن النفوس البشرية في الأَكْثَرِ مختلفةٌ بالنوع ، فقد تكون بعض النفوس مستعدة غاية الاستعداد لهذا المطلب ، وربما لم تكن البتة مستعدة له ، وبين هذين الطرفين أوساطٌ مختلفةٌ بالضعف والقوة .

وإذا تقرر ذلك فاعلم أن القسمين الأولين أما اختلفا فيما ذكرناه لاجرم ، اختلفا في الكسب والمكتسب .

أما الكسب فإن صاحب العلم الأولي به في الأَكْثَرِ العزلة والانقطاع عن الخلق ، لأنه قد حصلت له الهداية والرشاد ، فلا حاجة له إلى مخالطة أحدٍ يستعين به على حصول ما هو حاصل . وأما صاحب الفطرة الأصلية من غير علم فإنه لا يليقُ به العزلة ، لأنه يحتاج إلى العلم والمرشد ، فإنه ليس يسكني الفطرة الأصلية في الوصول إلى العالم الإلهية والحقائق الربانية ، ولا بد من موقف ومرشد في مبدأ الحال ، هذا هو القول في الكسب بالنظر إليهما .

وأما المكتسب ، فإن صاحب العلم إذا اشتغل بالرياضة كانت مشاهداته ومكاشفاته أكثر كميةً ، وأقل كميةً مما لصاحب الفطرة الجردة ، أما كثرة السكمية ، فلا بُدَّ من قوتها النظرية تُعينه على ذلك ، وأما قلة السكمية ، فلا بُدَّ من القوة النفسانية تتوزع على تلك السكمية ؛ وكلما كانت السكمية أكثر ؛ كان توزع القوة إلى أقسام أكثر ، وكان كل واحد منها

(١) سورة العنكبوت ٦٩ .

أضعف بما لو كانت الأقسامُ أقلَّ عدداً ، وإذا عرفتَ ذلك عرفتَ أنَّ الأمرَ في جانبِ صاحبِ الفِطْرةِ الأصليَّةِ بالعكس من ذلك ، وهو أنَّ مشاهداته ومكاشفاته تكونُ أقلَّ كميَّةً ، وأكثرَ كَيْفِيَّةً .

وأما الاستعداد الثالث ، وهو النفس التي قد جمعت الفِطْرةَ الأصليَّةَ والعلومَ الإلهيَّةَ النظريةَ بالنظر ، فهي لنفس الشريفة الجليلة الكاملة .

وهذه الأقسام الثلاثة مشتركة في أنَّ رياضتها القلبية يجب أن تكون زائدة في الكَمِّ والكَيْف على رياضتها البدنيَّة ، لأنَّ الغرض الأصليَّ هو رياضةُ القلب وطهارة النفس ، وإنَّما شرعت الرياضات البدنيَّة ، والعبادات الجسمانية ، لتكون طريقاً إلى تلك الرياضة الباطنة ، فإذا حصلت كان الاشتغال بالرياضة البدنية عبثاً ؛ لأنَّ الوسيلة بعد حصول المتوسِّل إليه فضلةٌ مستغنى عنها ، بل ربَّما كانت طائفة عن المقصود . نعم لا بد من المحافظة على الفرائض خاصَّةً ، لئلا تمتدَّ النَّفْسُ الكسل ، وربما أفضى ذلك إلى خللٍ في الرياضة النفسانيَّة ؛ ولهذا حُكي عن كثير من كبراء القوم قلة الاشتغال بنوافل العبادات .

وأما القسم الرابع ، وهو النفس التي خلت عن الوصفين معا ؛ فهذه النَّفْسُ يجب ألا تكون رياضتها في مبدأ الحال إلَّا بتهذيب الأخلاق بما هو مذكور في كتب الحكمة الخلقية ، فإذا لانت ومرَّنت واستعدَّت للفتحاتِ الإلهيَّة حصل لها ذوق ما ، فأوجب ذلك الذوق شوقاً ، فأقبلت بكلِّيتها على مطلوبها .

[فصل في أن الجوع يؤثر في صفاء النفس]

واعلم أن السبب الطبيعي في كون الجوع مؤثراً في صفاء النفس ، أن الهلغم الغالب على مزاج البدن يوجب بطبمه الباردة ، وإبطاء الفهم لكثرة الأرضية فيه ، وثقل جوهره ، وكثرة ما يتولد عنه من البخارات التي تسد المجارى ، وتمنع نفوذ الأرواح ، ولا ريب أن الجوع يقتضى تقليل الهلغم ، لأن القوة الهاضمة إذا لم تجد غذاء تهضمه ، عيئت في الرطوبة الغريبة السائلة في الجسد ، فسكّما انقطع الغذاء استمرت عملها في الهلغم الموجود في البدن ، فلا تزال تعمل فيه وتذيب الحرارة السائلة في البدن ، حتى يفنى كل ما في البدن من الرطوبات الغريبة ، ولا يبقى إلا الرطوبات الأصلية ، فإن استمرت انقطاع الغذاء أخذت الحرارة والقوة الهاضمة في تنقيص الرطوبات الأصلية من جوهر البدن ؛ فإن كان ذلك يسيراً وإلى حدّ ليس بمفرط ، لم يضر ذلك بالبدن كل الإضرار ، وكان ذلك هو غاية الرياضة التي أشار أمير المؤمنين عليه السلام إليها بقوله : « حتى دق جأيله » ولطف نعليه ، وإن أفرط وقع الخيف والإجفاف على الرطوبة الأصلية ، وعطب البدن ووقع صاحبه في الدق والذبول ، وذلك منهى عنه ؛ لأنه قتل للنفس ، فهو كمن يقتل نفسه بالسيف أو بالسكين .

[كلام للفلاسفة والحكماء في المكاشفات الناشئة عن الرياضة]

واعلم أن قوله عليه السلام : « وبرق له لامع » كثير البرق ، هو حقيقة مذهب الحكماء ، وحقيقة قول الصوفية أصحاب الطريقة والحقيقة ؛ وقد صرح به الرئيس أبو هلال ابن سينا في كتاب " الإشارات " فقال في ذكر السالك إلى مرتبة العرفان : ثم إنّه

إذا بلغت به الإرادة والرياضة حدًا ما عَنَّتْ له خُلُسات من اطلاع نور الحق إليه لذينة كأنها بروق تُومِضُ إليه ثم تَحْمَدُ عنه ، وهي التي تسمى عندهم أوقاتا ، وكلّ وقتٍ يكتنفه وجدٌّ إليه ، ووجد عليه . ثمّ إنّه لتكثر عليه هذه الغواشي إذا أمعن في الارتياض ، ثمّ إنّه ليتوغل في ذلك حتى يغشاها في غير الارتياض ، فكلّما لمَحَ شيئا عاج منه إلى جانب القدس ، فتذكر من أمره أمرا ففشيته غاشي ، فيكاد يرى الحق في كلّ شيء ؛ ولعله إلى هذا الحدّ تستولى عليه غواشيه ، ويَزُولُ هو عن سكينته ، ويتقبّه جليسه لاستنفاره عن قراره ، فإذا طالت عليه الرياضة لم تستنفره غاشية ؛ وهُدًى للتأنّس بما هو فيه . ثمّ إنّه لتبلغ به الرياضة مبلغًا ينقلب له وقته سكينته فيصير الخطوب مألُوفًا ، والوميض شهابا بيننا ، ويحصل له معارف مستقرّة ؛ كأنها صحبة مستمرّة ؛ ويستمتع فيها بهجته ، فإذا انقلب عنها انقلب حيران آسفا .

فهذه ألفاظ الحكيم أبي علي بن سينا في ” الإشارات “ ، وهي كما نراها مصرّح فيها بذكر البروق اللامعة للعارف .

وقال القشيري في الرسالة لما ذكر الحال والأمر الواردة على العارفين ، قال : هي بروق تلمع ثم تَحْمَدُ ، وأنوار تبدو ثم تخفى ، ما أحلاها لو بقيت مع صاحبها اثم تمثل بقول البحتري^(١) :

خَطَرْتُ فِي النَّوْمِ مِنْهَا خَطَرَةً خطرة البرق بـدا ثم اضمحل
أَيَّ زَوْرِ لَكَ لَوْ قَصْدًا سَرَى ولم بك لو حقا فَعَلَ

فهو كما تراه يذكر البروق اللامعة حسبا ذكره الحكيم ، وكلاهما يتبع ألفاظ أمير المؤمنين عليه السلام ، لأنّه حكيم الحكماء . وعارف العارفين ، ومعلم الصوفيّة ، ولولا أخلاقه

(١) ديوانه ٢ : ١٨١ .

وكلامه وتعليمه للناس هذا الفن تارة بقوله ، وتارة بفعله ، لما اهتدى أحد من هذه الطائفة ، ولا علم كيف يُورد ، ولا كيف يصدر .

وقال القشيري أيضا في الرسالة : المحاضرة قبل المكاشفة ؛ فإذا حصلت المكاشفة فبعدها المشاهدة .

وقال : وهي أرفع الدرجات . قال : فالمحاضرة حضور القلب ، وقد تكون بتواتر البرهان ، والإنسان بعد وراء الستر ، وإن كان حاضرا باستيلاء سلطان الذكر . وأما المكاشفة فهي حضور البين غير مفتقر إلى تأمل الدليل ، وتطلب السبيل ، ثم المشاهدة ، وهي وجود الحق من غير بقاء تهمة .

وأحسن ما ذكر في المشاهدة قول الجنيد : هي وجود الحق مع فقدانك . وقال عمرو بن عثمان المكي : المشاهدة أن تنواري أنوار التجلي على القلب من غير أن يتخللها ستر ولا انقطاع ، كما لو قدر اتصال البرق في الليلة المظلمة ؛ فكما أنها تصير من ذلك بضوء النهار ، فكذلك القلب إذا دام له التجلي مع النهار فلا ليل . وأنشدوا شعرا :

كَيْلِي بِوَجْهِكَ مُشْرِقٌ وَظِلَامُهُ فِي النَّاسِ سَارٍ
فَالنَّاسُ فِي سَدَفِ الظَّلَا م وَنَحْنُ فِي ضَوْءِ النَّهَارِ

وقال الثوري : لا تصحَّ للعبد المشاهدة وقد بقي له عِرْق قائم .

وقالوا : إذا طلع الصباح ، استغنى عن المصباح .

وأنشدوا أيضا :

فلما استنار الصبح طوَّحَ ضَوْؤُهُ بِأَنْوَارِهِ أَنْوَارَ ضَوْءِ الْكَوَاكِبِ

فجرّهم كأساً لو أبتليت لظى بتجربعه طارت كأسهم ذاهب
كأس وأى كأس ، تصطلمهم عنهم ، وتفنيهم وتحطفهم منهم ولا تبقيهم ، كأس لا
تبقى ولا تذر ، تمحو بالسكّية ، ولا تبقى شظية من آثار البشرية ، كما قال قائلمهم :
* ساروا فلم يبق لا عين ولا أثر^(١)

وقال القشيري أيضاً: هي ثلاث مراتب: اللوائح ، ثم اللوامع ، ثم الطوالح . فاللوائح
كالبروق ؛ ما ظهرت حتى استمرت ، كما قال القائل :

فافترقنا حولاً فلما التقينا كان تسليمه على وداعا
وأنشدوا :

يا ذا الذي زارَ وما زاراً كأنه مقتبسٌ ناراً
مر بباب الدار مستعجلاً ماضراً لو دخل الداراً !
ثم اللوامع ، وهي أظهر من اللوائح ؛ وليس زوالها بتلك السرعة ؛ فقد تبقى وقتين
وثلاثة ، ولكن كما قيل :

* العين باكية لم تشيع الذّظرا *

أو كما قالوا :

وبلأى من مشهدٍ ومغيّبٍ وحبيبٍ متى بعيدٍ قريبٍ
لم ترّد ماء وجهه العين حتى شَرِقت قبل ريتها بريقبٍ
فأصحاب هذا المقام بين رَوْح وفَوْح ؛ لأنهم بين كشفٍ وسترٍ لمع ثم يقطع ، لا يستقر
لهم نور النهار ؛ حتى تكرر عليه عساكر الليل ، فهم كما قيل :
واللَّيْلُ يَشْمُلُنَا بِفَاضِلِ بُرْدِهِ وَالصَّبْحُ يَلْحَقُنَا رِداءٍ مذهباً
ثم الطوالح ؛ وهي أبقي وقتاً ، وأقوى سلطاناً ، وأدوم مكاناً ، وأذهب للظلمة ،
وأنفى للثّمة^(٢) .

(١) الرسالة القشيرية ٤٣ .

(٢) الرسالة القشيرية ٤٣ ، ٤٤ .

أفلا ترى كلام القوم كله مشحون بالبرق واللعان !
وكان مما نتم حامد بن العباس وزير المقتدر وعلي بن عيسى الجراح وزيره أيضاً على
الحلاج أنهما وجدا في كتبه لفظ « النور الشعشعاني » ، وذلك لجهالتهما مراد القوم
واصطلاحهم ، ومن جهل أمرا عاداه .

ثم قال عليه السلام : « وتدافعه الأبواب إلى باب السلامة ودار الإقامة » ، أي لم يزل
ينقل من مقام من مقامات القوم إلى مقام فوقه ، حتى وصل ، وتلك المقامات معروفة عند
أهلها ، ومن له أنس بها ، وسند كرها فيما بعد .

ثم قال : « وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة بما استعمل قلبه وأرضى
ربه » ، أي كانت الراحة الكلية والسعادة الأبدية مستثمرة من ذلك التعب الذي تحمله
لما استعمل قلبه ، وراض جوارحه ونفسه ، حتى وصل ، كما قيل :

عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ الشَّرِيَّ وَتَنْجَلِي عَنَّا غِيَابَاتُ الْكَرَى^(١)
وقال الشاعر :

تَقُولُ سُلَيْمَى لَوْ أَقَمْتُ بِأَرْضِنَا وَلَمْ تَدْرِ أَنِّي لِلْمَقَامِ أَطْوَفُ
وقال آخر :

مَا بِيضَ وَجْهِ لِرءٍ فِي طَلَبِ الْعَلَا حَتَّى يَسْوَدَ وَجْهُهُ فِي الْبَيْدِ
وقال :

فَاطْلُبْ هُدُوءًا بِالتَّقَلُّقِ وَاسْتَشِرْ بِالْعَيْسِ مِنْ تَحْتِ السَّهَادِ هَجُودًا^(٢)
ما إن ترى الأحساب بيضاً وضحاً إلا بحيث ترى المنايا سودا

(١) مثل يضرب للرجل يحتمل المشقة رجاء الراحة ؛ وأول من قاله خالد بن الوليد في أبيات ذكرها
الميداني عند الكلام على مضرب المثل ومورده : (٢ : ٢) .
(٢) لأبي تمام ، ديوانه ١ : ٤١٦ .

(٢١٥)

الأفضل :

ومن كلام له عليه السلام يحث فيه أصحابه على الجهاد :

وَاللَّهُ مُسْتَأْدِيكُمْ شُكْرَهُ ، وَمُورِثُكُمْ أَمْرَهُ ، وَنُصْرَتُكُمْ فِي مِضْمَارِ مَمْدُودٍ
لِتَنْفَازَعُوا سَبْقَهُ . فَشَدُّوا عُقْدَ الْمَآزِرِ ، وَاطُؤُوا فُضُولَ الْخَوَاصِرِ ، لَا تَجْتَمِعُ عَزِيمَةٌ
وَوَلِيْمَةٌ . مَا أَنْقَضَ النَّوْمَ ، لِعَزَائِمِ الْيَوْمِ ! وَأَمَحَى الظُّلْمَ ، لِتَذَاكِيرِ الْيَوْمِ !

الشرح :

مستأديكم شكره ، أى طالبٌ منكم أداء ذلك والقيام به ، استأديت دَينِي عند
فلان ، أى طلبته .

وقوله : « ومورثكم أمره » ، أى سيرجع أمر الدولة إليكم ، ويؤول أمر بني أمية .
ثم شبه الآجال التي ضُرِبَتْ للمكلفين ليقوموا فيها بالواجبات ، ويتسابقوا فيها إلى
الخيرات ، بالمضمار المددود لخليل تنفازع فيه سبق .

ثم قال : « فشددوا عُقْدَ الْمَآزِرِ » ، أى شَمَرُوا عن ساق الاجتهاد . ويقال لمن يومى
بالجدِّ والتشمير : اشدد عُقْدَهُ إِزَارَكَ ، لأنه إذا شدّها كان أبعد عن العثار ،
وأمرع المشى .

وقوله : « واطؤوا فُضُولَ الْخَوَاصِرِ » ، نهى عن كثرة الأكل ، لأن الكثير الأكل
لا يطوى فضول خواصره لامتلائها ، والقليل الأكل يأكل في بعضها ويطوى بعضها ،
قال الشاعر :

كَلُوا فِي بَعْضِ بَطْنِكُمْ وَعَقُّوا فَإِنْ زَمَانَكُمْ زَمَنْ خَمِيصُ
وَقَالَ أَعْشَى بَاهِلَةً :

طَاوِي الْمَصِيرَ عَلَى الْعِزَاءِ مُنْصَلَتْ بِالْقَوْمِ لَيْلَةٌ لَا مَاءَ وَلَا شَجَرَ^(١)
وَقَالَ الشَّنْفَرَى :

وَأَطْوَى عَلَى الْخُمُصِ الْحَوَايَا كَمَا انْطَوَتْ خُيُوطَةٌ مَارَى تَفَارٍ وَتَفْتَلُ^(٢)

ثم أتى عليه السلام بثلاثة أمثال مخترعة له لم يسبق بها ، وإن كان قد سبق بمعناها ،
وهي قوله : « لَانْجَتَمِعَ عَزِيمَةٌ وَوَلِيمَةٌ » . وقوله : « مَا أَنْقَضَ النَّوْمُ الْعِزْمَ الْيَوْمَ ! » . وقوله :
« وَأَتَحْنَى الظُّلْمَ لَهَذَا كَبِيرِ الْمَهْمِ ! » .

فَمَا جَاءَ لِلْمُحَدِّثِينَ مِنْ ذَلِكَ مَا كَتَبَهُ بَعْضُ الْكُتَّابِ إِلَى وَلَدِهِ :

خِدْمَةُ السُّلْطَانِ وَالْكَاسَاتِ فِي أَيْدِي الْمَلَاخِ
لَيْسَ يَلْتَمِامُ فَاطْلُبْ رَفْعَةً أَوْ شَرْبَ رَاحٍ
وَمِثْلُهُ قَوْلُ آخِرِ لَوْلَدِهِ :

مَا الْمَطْيِيعُ هَوَاهُ مِنْ الْمَلَامِ مَلَاذُ
فَاخْتَرِ لِنَفْسِكَ هَذَا تَجَدُّ ، وَهَذَا التَّدَاذُ

وَقَالَ آخِرُ :

وَلَيْسَ فَتَى الْفِتْيَانِ مَنْ رَاحَ وَاعْتَدَى لَشَرْبِ صَبُوحٍ أَوْ لَشَرْبِ غُبُوقٍ
وَلَسْكَنَ فَتَى الْفِتْيَانِ مَنْ رَاحَ وَاعْتَدَى لَضَرْبِ عَدُوٍّ أَوْ لِنَفْعِ صَدِيقٍ

(١) الكامل المبرد ٤ : ٦٥ ، قال في شرحه : « طَاوِي الْمَصِيرَ » يُقَالُ لَوَاحِدِ الْمَصْرَانِ مَصِيرٍ ،
وَالْعِزَاءِ : الْأَمْرُ الشَّدِيدُ ، يُقَالُ : سَيْفٌ مُنْصَلَتْ وَصَلَتْ ؛ إِذَا جَرَدَ مِنْ غِمْدِهِ .

(٢) مِنْ لَاقِيَتِهِ ؛ وَهِيَ فِي نَوَادِرِ الْقَالِي ٢٠٣ - ٢٠٧ .

وهذا كثير جدا يناسب قوله: « لا تجتمع عزيمة وولية » .

ومثل قوله : « ما أَنَضَّ النوم لعزائم اليوم » قولُ الشاعر :

فَتَى لَا يَنَامُ عَلَى عِزِّهِ وَمَنْ صَعَّمَ الْعِزَّمَ لَمْ يَرْقُدِ

وقوله : « وأمحي الظلم لهذا كبير المهم » ، أى الظلم التى ينام فيها ، لا كل الظلم ، ألا ترى

أنه إذا لم ينم في الظلمة بل كان عنده من شدة العزم وقوة التصميم مالا ينام معه ، فإن الظلمة لا تمحو هذا كبره . والتذاكير : جمع تذكار .

والمثلان الأولان أحسن من الثالث ، وكأن الثالث من تنمة الثاني .

وقد قالت العرب في الجاهلية هذا المعنى ، وجاء في القرآن العزيز: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ
تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْحُومِ الْأَسْمَاءِ وَالضَّرَاءِ
وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ
قَرِيبٌ ﴾ (١) .

وهذا مثل قوله : « لا تجتمع عزيمة ووليمة » ، أى لا يجتمع لكم دخول الجنة والدعة ، والقعود عن مشقة الحرب .

(٢١٦)

الأضل :

ومن كلام له عليه السلام قاله بعد تلاوته : ﴿ أَلْهَاكُمْ النَّكَائِرُ * حَتَّى زُرْتُمْ

الْمَقَابِرَ ﴾ .

يَا أُمَّ مَرَامًا مَا بَعْدَهُ ! وَزُورًا مَا أَغْلَهُ ! وَخَطَرًا مَا أَظْلَعَهُ ! لَقَدْ اسْتَخْلَوْا مِنْهُمْ أَيْ
مُدَّكِرٍ ، وَتَنَاشَوْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ .

أَفِيْمَصَارِيْعِ آبَائِهِمْ يَفْخَرُونَ ! أَمْ بَعْدِيَدِ الْهَلَكَى يَتَسَكَّرُونَ !

الشرح :

قد اختلف المفسرون في تأويل هاتين الآيتين ، فقال قوم : المعنى أنكم قطعتم أيام عمركم
في التسكائر بالأموال والأولاد ، حتى أناكم الموت ، فكنتى عن حلول الموت بهم
بزيارة المقابر .

وقال قوم : بل كانوا يتفاخرون بأنفسهم ، وتعدى ذلك إلى أن تفاخروا بأسلافهم
الأموات ، فقالوا : مَنَّا فلان وفلان - لقوم كانوا وانقرضوا .
وهذا هو التفسير الذى يدلُّ عليه كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، قال :
« يَا لِمَرَامَا ! » ، منصوب على التمييز .

ما أبعد ! أى لانخر فى ذلك ، وطلب الفخر من هذا الباب بعيد ؛ وإنما الفخر بتقوى
الله وطاعته .

وزوراً ما أغفله ! إشارة إلى القوم الذين افتخروا ؛ جعلهم يتذكر الأموات السالفين كالزائرين لقبورهم . والزور : اسم للواحد والجمع ، كالتلصم والضيء . قال : ما أغفلهم عما يراد منهم إلا أنهم تركوا العبادة والطاعة ، وصرموا الأوقات بالمفاخرة بالموتى .

ثم قال : « وخطراً ما أفضله ! » إشارة إلى الموت أى : ما أشده . أفضع الشئ بالضم ، فهو فظيع ، أى شديد شنيع مجاوز للمقدار .

قوله : « لقد استخلوا منهم أى مذكر » ؛ قال الراوندى : أى وجدوا موضع التذكّر خالياً من الفائدة ، وهذا غير صحيح ، وكيف يقول ذلك وقد قال : « وخطراً ما أفضله ! » وهل يكون أمر أعظم تذكيراً من الاعتبار بالموتى أو الصحيح أنه أراد : « استخلوا » ذكر من خلا من آباءهم ؛ أى من ماضى ، يقال : هذا الأمر من الأمور الخالية ، وهذا القرن من القرون الخالية ، أى الماضية .

واستخلى فلان فى حديثه ؛ أى حدث عن أمور خالية ، والمعنى أنه استعظم ما يوجب حديثهم عما خلا وعمن خلا من أسلافهم وآثار أسلافهم من التذكير ، فقال : أى مذكر^(١) وواعظ فى ذلك ! وروى أى مذكر بمعنى المصدر ، كالمعتد بمعنى الاعتقاد ، والمعتبر بمعنى الاعتبار .

« وتناولوهم من مكان بعيد » أى تناولوهم ، والمراد ذكرهم وتحدثوا عنهم ؛ فكانهم تناولوهم ، وهذه اللفظة من ألفاظ القرآن العزيز : ﴿ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَسْكَانٍ بَعِيدٍ ﴾^(٢) ؛ وأنى لهم تناول الإيمان حينئذ بعد فوات الأمر !

(٢) سورة سبأ ٥٢ .

(١) : « تذكر » ، وما أثبتته من ب .

الأصل :

يَرْتَجِمُونَ^(١) مِنْهُمْ أَجْسَادًا خَوَتْ ، وَحَرَكَاتٍ سَكَنَتْ . وَلَآنَ يَسْكُونُوا عِبْرًا ،
أَحَقُّ مِنْ أَنْ يَسْكُونُوا مُفْتَخَرًا ؛ وَلَآنَ يَهْنِطُوا بِهِمْ جَنَابَ ذِلَّةٍ ، أَحَجَى مِنْ
أَنْ يَقُومُوا بِهِمْ مَقَامَ عِزَّةٍ .

لَقَدْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ بِأَبْصَارِ الْعَشْوَةِ ، وَضَرَبُوا مِنْهُمْ فِي غَمْرِ جَهَالَةٍ .
وَلَوْ اسْتَنْطَقُوا عَنْهُمْ عَرَصَاتِ تِلْكَ الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ ، وَالرُّبُوعِ الْخَالِيَةِ ، لَقَالَتْ :
ذَهَبُوا فِي الْأَرْضِ ضَلَالًا ، وَذَهَبْتُمْ فِي أَغْصَانِهِمْ جُهَالًا ، تَطْنُونَ فِي هَامِيهِمْ ، وَتَسْتَنْبِئُونَ
فِي أَجْسَادِهِمْ ، وَتَرْتَعُونَ فِيمَا لَفَظُوا ، وَتَسْكُنُونَ فِيمَا خَرَبُوا ؛ وَإِنَّمَا الْأَيَّامُ بَيْنَكُمْ
وَبَيْنَهُمْ بَوَالِكٍ وَتَوَائِحُ عَلَيْكُمْ .
أُولَئِكَ سَلَفُ غَابِتِكُمْ ، وَفَرَّاطُ مَنَاهِلِكُمْ ؛ الَّذِينَ كَانَتْ أَرْهَمُ مَقَاوِمُ الْعِزِّ ،
وَحَلَبَاتُ الْفَخْرِ مُلُوكًا وَسُوقًا .

الشرح :

« يرتجمون منهم أجسادا » ، أى يذكرون آباءهم ، فكأنهم ردّوهم إلى الدنيا ،
وارتجموهم من القبور . وخَوَتْ : خلت .
قال : وهؤلاء الموتى أحقُّ بأن يكونوا عبرة وعظةً من أن يكونوا نفرا وشرفا ،
والمتفخرون بهم أولى بالهبط إلى جانب الذلّة منهم بالقيام مقام العزّ .
وتقول : هذا أحجى من فلان ، أى أولى وأجدر . والجَنَاب : الفناء .

(١) ب : « يرتجمون » .

ثم قال : « لقد نظروا إليهم بأبصار العُشوة » ، أى لم ينظروا النظر المفصلي إلى الرؤية ؛ لأن أبصارهم ذات عُشوة ، وهو مرض في العين ينقص به الإبصار ، وفي عين فلان عَشَا وعُشوة بمعنى ، ومنه قيل لكل أمرٍ ملتبس يركبه الرّاكب على غير بيان أمر عُشوة ، ومنه أوطأني عُشوة ، ويجوز بالضم والفتح .

قال : « وضربوا بهم في غمرة جهالة » ، أى وضربوا من ذكر هؤلاء الموتى في بحر جهل . والضرب هاهنا : استمارة ، أو يكون من الضرب بمعنى السير ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ ^(١) ، أى خاضوا وسبحوا من ذكرهم في غمرة جهالة ، وكل هذا يرجع إلى معنى واحد ، وهو تسفيه رأى المفتخرين بالموتى ، والقاطعين الوقت بالتشكاثر بهم ؛ إعراضاً عما يجب إنفاقه من العمر في الطاعة والعبادة .

ثم قال : « لو سألوهم ديارهم التي خلت منهم » ، ويمكن أن يريد بالديار والربوع القبور ، « لقلت ذهبوا في الأرض ضلّالا » ، أى هالكين ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ ^(٢) .

ودهبتم في أعقابهم ؛ أى بدمهم « جهالا » ؛ لغفلتكم وغروركم .

قوله عليه السلام : « تطئون في هامهم » ، أخذ هذا المعنى أبو العلاء للمعري ؛ فقال :

خَفَّفِ الْوُطْءَ مَا أَظَنَّ أَدِيمَ ۖ أَرْضٍ إِلَّا مِنْ هَذِهِ الْأَجْسَادِ ^(٣)
رَبِّ لَحْدٍ قَدْ صَارَ لِحْدًا مِرَارًا ضَا حَكٍ مِنْ تَزَا حُمِ الْأَضْدَادِ

(١) سورة النساء ١٠١ .

(٢) سورة السجدة ١٠ .

(٣) ديوانه ؛ سقط الزند ٩٧٤ ، ٩٧٥ مع اختلاف في الرواية وترتيب الأبيات وأديم الأرض : ظاهرها .

ودفين على بقايا دفينين من عهود الآباء والأجداد^(١)
صاح هذى قبورنا تملأ الأرض ضاً ، فأين القبور من عهد عاد^(٢)
سِر إن اسطقت في المسواء رؤيداً لا اختيالاً على رفات العباد
قوله : « وتستنبتون في أجسادهم » ، أى تزرعون النّبات في أجسادهم ، وذلك لأن آدم
الأرض الظاهر إذا كان من أبدان الموتى ، فالزّرع لا محالة يكون نابثاً في الأجزاء الترابية
التي هي أبدان الحيوانات . وروى : « وتستنبتون » ، بالثاء ؛ أى وتنصبون الأشياء الثابتة
كالعمد والأساطين للأوطان في أجساد الموتى .

ثم قال : « وترتمون فيما لفظوا » ، لفظت الشيء بالفتح : رميته من فى ، ألفظه
بالكسر ، ويجوز أن يريد بذلك أنكم تأكلون ما خلفوه وتركوه . ويجوز أن يريد
أنكم تأكلون الفواكه التي تنبت في أجزاء ترابية خالطها الصديد الجارى
من أفواههم .

ثم قال : « وتسكنون فيما خربوا » ، أى تسكنون في المساكن التي لم يعمروها بالذّكر
والعبادة ، فكأنهم أخبروها في المعنى ، ثم سكتهم أنتم فيها بعدهم . ويجوز أن يريد أن
كل دار عامرة قد كانت من قبل خربة ، وإتما أخبرها قوم بادوا وماتوا ، فإذن لاساكن
متناً في عمارة إلا ويصدق عليه أنه ساكن فيما قد كان خراباً من قبل ، والذين أخبروه
الآن موتى . ويجوز أن يريد بقوله : « وتسكنون فيما خربوا » ؛ وتسكنون في دورٍ فارقتها
وأخلوها ، فأطلق على الخلو والفراغ لفظ « الخراب » مجازاً .

قوله : « وإتما الأيام بينكم وبينهم بواكٍ ونوايحٌ عليكم » ؛ يريد أن الأيام والليالي
تشيع راحاً إلى المقابر وتبكي وتنوح على الباقين الذين سيلتحقون به عن قريب .

(١) الديوان :

* في طویل الأزمان والآباد *

(٢) الديوان : « تملأ الرّحب » .

قوله : « أولئكم سلف غايتمكم » ، الساف : المتقدمون . والغاية : الحد الذي ينتهى إليه . إما حسياً أو معنوياً ، والمراد هاهنا الموت .
والفرط : القوم يسبقون الحى إلى المنهل .
ومقاوم العز : دأبهم ، جمع مقوم ، وأصلها الخشبة التى يمسكها الحراث . وحلبات الفخر : جمع حلبه ، وهى الخليل تجمع للسباق .
والسوق ، بفتح الواو : جمع سوقة ؛ وهو من دون الملك .

الأفضل :

سَلَكُوا فِي بُطُونِ الْبَزْرِخِ سَبِيلًا سُلِّطَ الْأَرْضُ عَلَيْهِمْ فِيهِ ، فَأَكَلَتْ مِنْ لُحُومِهِمْ ، وَشَرِبَتْ مِنْ دِمَائِهِمْ ، فَأَصْبَحُوا فِي فِجَوَاتِ قُبُورِهِمْ جَمَادًا لَا يَنْمُونَ ، وَضِمَارًا لَا يُوجَدُونَ ؛ لَا يَفْزِعُهُمْ وَرُودُ الْأَهْوَالِ ، وَلَا يَحْزُنُهُمْ تَنَكُّرُ الْأَخْوَالِ ، وَلَا يَحْفَلُونَ بِالرَّوَاجِفِ ، وَلَا يَأْذَنُونَ لِلْقَوَاصِفِ . غُيِّبَ لَا يَنْتَظِرُونَ ، وَشُهُودًا لَا يَحْضُرُونَ ، وَإِنَّمَا كَانُوا جَمِيعًا فَتَشَتَّتُوا ، وَأَلَافًا فَافْتَرَقُوا .
وَمَا عَنْ طُولِ عَهْدِهِمْ ، وَلَا بُعْدِ حَلَّتِهِمْ ، عَمِيَتْ أَخْبَارُهُمْ ، وَصَمَّتْ دِيَارُهُمْ ، وَلَكِنَّهُمْ سُقُوا كَأَسَا بَدَاتِهِمْ بِالنُّطْقِ خَرَسًا ، وَبِالسَّمْعِ صَمَمًا ، وَبِالْحَرَكَاتِ سُكُونًا ، فَكَأَنَّهُمْ فِي أَرْجَائِلِ الصَّفَةِ صَرَعَى سُبَاتٍ .
جِيرَانٌ لَا يَتَأَنَسُونَ ، وَأَحِبَّاءٌ لَا يَتَزَاوَرُونَ . بَلِيَّتٌ^(١) بَيْنَهُمْ غُرَا التَّعَارُفِ ، وَأَنْقَطَعَتْ مِنْهُمْ أَسْبَابُ الْإِخَاءِ ؛ فَكَلَّمَهُمْ وَحِيدٌ وَهُمْ جَمِيعٌ ، وَبِجَانِبِ الْهَجْرِ وَهُمْ أَخِلَاءٌ .

لَا يَتَمَارَفُونَ لِلَّيْلِ صَبَاحًا ، وَلَا لِنَهَارٍ مَسَاءً . أَيْ الْجَدِيدِينَ ظَنَعُوا فِيهِ كَانَ

(١) كذا فى ١ ، فى ب : « وبلت » .

عَلَيْهِمْ سَرْمَدًا ، شَاهَدُوا مِنْ أخطَارِ دَارِهِمْ أَفْطَحَ مِمَّا خَافُوا ، وَرَأَوْا مِنْ آيَاتِهَا أَعْظَمَ
مِمَّا قَدَّرُوا ، فَكَلَّا الْفَائِتِينَ مُدَّتْ لَهُمْ إِلَى مَبَاءَةٍ فَاتَتْ مَبَالِغَ الْخُوفِ وَالرَّجَاءِ .

فَلَوْ كَانُوا يَنْطِقُونَ بِهَا لَعَيُّوا بِصِفَةِ مَا شَاهَدُوا وَمَا عَابَنُوا . وَلَئِنْ عَمِيَتْ آثَارُهُمْ
وَأَنْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُمْ ، لَقَدْ رَجَعَتْ فِيهِمْ أَبْصَارُ الْعَبَرِ ، وَتَمَيَّعَتْ عَنْهُمْ آذَانُ الْعُقُولِ ،
وَتَكَلَّمُوا مِنْ غَيْرِ جِهَاتِ النُّطْقِ ، فَقَالُوا : كَلَّحَتْ أَلْوَجُوهُ النَّوَاضِرُ ، وَخَوَتْ الْأَجْسَامُ
النُّوَاعِمُ ، وَلَيْسَنَا أَهْدَامُ اللَّيْلِ ، وَتَكَاءُنَا ضَيْقُ الْمَضْجَعِ ، وَتَوَارَيْنَا أَلْوَحْشَةَ ،
وَتَهَدَّمَتْ عَلَيْنَا الرُّبُوعُ الصُّمُوتُ ، فَأَنَمَحَتْ مَحَاسِنُ أَجْسَادِنَا ، وَتَنَكَّرَتْ مَعَارِفُ
صُورِنَا ، وَطَالَتْ فِي مَسَاكِينِ أَلْوَحْشَةِ إِقَامَتُنَا ، وَلَمْ نَجِدْ مِنْ كَرْبٍ فَرَجًا ، وَلَا مِنْ
ضَيْقٍ مُتَسَمًا .

فَلَوْ مَثَلْتَهُمْ بِعَمَلِكَ ، أَوْ كَشِفَ عَنْهُمْ مَحْجُوبُ الْغِطَاءِ لَكَ ، وَقَدِ ارْتَسَخَتْ
أَسْمَاعُهُمْ بِالْهَوَامِّ فَاسْتَكَّتْ ، وَاسْتَحَلَّتْ أَبْصَارُهُمْ بِالثَّرَابِ فَخَسَفَتْ ، وَتَقَطَّعَتْ أَلْسِنَتُهُ
فِي أَفْوَاهِهِمْ بَعْدَ ذَلَالَتِهَا ، وَهَمَدَتْ الْقُلُوبُ فِي صُدُورِهِمْ بَعْدَ يَقَظَتِهَا ، وَعَاثَ فِي كُلِّ
جَارِحَةٍ مِنْهُمْ جَدِيدٌ بَلَى سَمَّجَهَا ، وَسَهَّلَ طَرُقَ الْآفَةِ إِلَيْهَا . مُسْتَسْلِمَاتٍ فَلَا أَيْدٍ
تُدْفَعُ ، وَلَا قُلُوبَ تَجْزَعُ - لَرَأَيْتَ أَشْجَانَ قُلُوبٍ ، وَأَفْدَاءَ عُيُونٍ ، لَهُمْ فِي كُلِّ
فُظَاعَةٍ صِفَةٌ حَالٍ لَا تَلْتَقِلُ ، وَعَمْرَةٌ لَا تَنْجَلِي .

فَكَلِمَ أَكَلَتْ الْأَرْضُ مِنْ عَزِيزِ جَسَدٍ ، وَأَنِيقِ لَوْنٍ ؛ كَانَ فِي الدُّنْيَا غَذًى تَرَفٍ
وَرَبِيبَ شَرَفٍ ! يَتَمَلَّلُ بِالسَّرُورِ فِي سَاعَةِ حُزْنِهِ ، وَيَقْزَعُ إِلَى السَّلَوةِ إِنْ مُصِيبَةٌ
فَزَلَتْ بِهِ ؛ ضَمْنَا بِفَضَارَةِ عَيْشِهِ ، وَشَحَاحَةِ يَلَمُوهَ وَلَعِبِهِ ؛ قَبِينَا هُوَ يَضْحَكُ إِلَى الدُّنْيَا
وَتَضْحَكُ إِلَيْهِ ؛ فِي ظِلِّ عَيْشٍ غَفُولٍ ؛ إِذْ وَطِئَ الدَّهْرُ بِهِ حَسَكَهُ ، وَتَقَضَّتِ الْأَيَّامُ
قُوَاهُ ، وَنَظَرَتْ إِلَيْهِ الْخُتُوفُ مِنْ كَثْبٍ ؛ فَخَالَطَهُ بَثٌّ لَا يَعْرِفُهُ ، وَنَجَّى هَمًّا

مَا كَانَ يَجِدُهُ ، وَتَوَلَّدَتْ فِيهِ فَتَرَاتُ عِلَلٍ ، آنَسَ مَا كَانَ بِصِحَّتِهِ . فَفَزِعَ إِلَى مَا كَانَ
عَوْدَهُ الْأَطْبَاءُ مِنْ تَسْكِينِ الْحَارِّ بِالْقَارِّ ، وَتَحْرِيكِ الْبَارِدِ بِالْحَارِّ ، فَلَمْ يُطْفِئْ بِبَارِدٍ
إِلَّا ثَوَّرَ حَرَارَةً ، وَلَا حَرَّكَ بِحَارٍّ إِلَّا هَمَّجَ بُرُودَةً ، وَلَا اعْتَدَلَ بِمَمَازِجٍ لِتِلْكَ
الطَّبَائِعِ إِلَّا أَمَدَّ مِنْهَا كُلَّ ذَاتِ دَاءٍ ؛ حَتَّى فَتَرَ مُعْلَلُهُ ، وَذَهَلَ مُمَرِّضُهُ ، وَتَعَايَا أَهْلُهُ
بِصِفَةِ دَائِهِ ، وَخَرَسُوا عَنْ جَوَابِ السَّائِلِينَ عَنْهُ ، وَتَفَازَعُوا دُونَهُ شَيْئَ خَبَرٍ يَكْتُمُونَهُ ؛
فَقَالُوا : هُوَ لَمَّا بِهِ ؛ وَهُمْ لَهُمْ إِيَابٌ عَافِيَتِهِ ، وَمُصَبِّرٌ لَهُمْ عَلَى فَقْدِهِ ، يُذَكِّرُهُمْ أَمْسِي
الْمَاضِينَ مِنْ قَبْلِهِ .

فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ عَلَى جَنَاحٍ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا ؛ وَتَرْكِ الْأَحِبَّةِ ؛ إِذْ عَرَضَ لَهُ
عَارِضٌ مِنْ غُصَصِهِ ، فَتَحَيَّرَتْ نَوَافِذُ فِطْنَتِهِ ، وَبَدَسَتْ رُطُوبَةُ إِسْكَنِهِ .
فَسَكَمَ مِنْ مُهِمٍّ مِنْ جَوَابِهِ عَرَفَهُ فَعَمَّى عَنْ رَدِّهِ أَوْ دُعَاءِ مُؤَلِّمٍ بِقَلْبِهِ سَمِعَهُ
فَتَصَامَ عَنْهُ أَمِنْ كَبِيرٍ كَانَ يُعَظَّمُهُ ، أَوْ صَغِيرٍ كَانَ يَرْجَاهُ .
وَأَنَّ لِلْمَوْتِ لَعْمَرَاتٍ هِيَ أَقْطَعُ مِنْ أَنْ تُسْتَفْرَقَ بِصِفَةٍ ، أَوْ تَعْتَدِلَ عَلَى
عُقُولِ أَهْلِ الدُّنْيَا .

الشرح :

هذا موضع المثل : « ملءاً^(١) يا ظليم وإلا فالنخوة » ، مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْظَ وَيُخَوِّفَ ،
وَيَقْرِعَ صَفَاةَ الْقَلْبِ ، وَيَعْرِفَ الدَّاسَ قَدْرَ الدُّنْيَا وَتَصَرَّفَهَا بِأَهْلِهَا ، فَلْيَأْتِ بِمِثْلِ هَذِهِ الْمَوْعِظَةِ
فِي مِثْلِ هَذَا الْكَلَامِ الْفَصِيحِ وَإِلَّا فَلْيَمْسِكْ ، فَإِنَّ السَّكُوتَ أَسْرَ ، وَالْعَيَّ خَيْرٌ مِنْ
مَنْطِقٍ يَفْضَحُ صَاحِبِهِ . وَمَنْ تَأَمَّلَ هَذَا الْقِصْلَ ، عَلِمَ صَدَقَ مَعَاوِيَةَ فِي قَوْلِهِ فِيهِ : « وَاللَّهِ مَا سَنَ

(١) اللع : السير السريع ، ويقال : خوى الطائر ؛ إِذَا أُرْسِلَ جَنَاحُهُ .

الفصاحة لقريش غيره . وينبغي لو اجتمع فصحاء العرب قاطبة في مجلس، وتلى عليهم أن يسجدوا له كما سجد الشعراء لقول عدى بن الرقاع :

* قلم أصاب من الدواة مدّادها ^(١) *

فلما قيل لهم في ذلك ، قالوا : إنا نعرف مواضع السجود في الشعر ؛ كما نعرفون مواضع السجود في القرآن .

وإني لأطيل التعجب من رجل يخطب في الحرب بكلام يدلّ على أن طبعه مناسب لطباع الأسود والنمور وأمثالهما من السباع الضارية ، ثم يخطب في ذلك الموقف بعينه ، إذا أراد الموعظة بكلام يدلّ على أن طبعه مشا كل لطباع الرهبان لابسى المسوح الذين لم يأكلوا لحماً ، ولم يريقوا دماً ؛ فتارة يكون في صورة إسّطام بن قيس الشيبانيّ وعُتيبة ابن الحارث اليربوعي ، وعامر بن الطفيل العامريّ ، وتارة يكون في صورة سُقراط الخبزيّ اليونانيّ ، وبوحنا المعمدان الإسرائيليّ ، والمسيح بن مريم الإلهيّ .

وأقسم بمن تقسم الأمم كلّها به ؛ لقد قرأت هذه الخطبة منذ خمسين سنة وإلى الآن أكثر من ألف مرة ، ما قرأتها قط إلّا وأحدثت عندى روعة وخوفاً وعظّة ، وأثّرت في قلبي وجيباً ، وفي أعضائي رِعدة ، ولا تأملتها إلّا وذكرت الموتى من أهلي وأقاربي ، وأرباب ودّي ، وخيلت في نفسي أنّي أنا ذلك الشخص الذي وصف عليه السلام حاله . وكما قد قال الواعظون والخطباء والفصحاء في هذا المعنى ! ولم وقت على ما قالوه وتكرّر وقوفى عليه ! فلم أجد لشيء منه مثل تأثير هذا الكلام في نفسي ؛ فإمّا أن يكون ذلك لعقيدتي في قائله ، أو كانت نية الفائل سالحة ، ويقينه كان ثابتاً ، وإخلاصه كان محضاً

(١) صدره :

* تَزَجِيْ أَغْنَى كَانَ لِبرّة روقه *

خالصا ، فكان تأثير قوله في النفوس أعظم ، وسريان موعظته في القلوب أبلغ .

ثم نعود إلى تفسير الفصل :

فالبرزخ : الحاجز بين الشيتين ، والبرزخ ما بين الدنيا والآخرة من وقت الموت إلى البعث ، فيجوز أن يكون البرزخ في هذا الموضع القبر ، لأنه حاجز بين الميت وبين أهل الدنيا ، كالحائط المبني بين اثنين ، فإنه برزخ بينهما ، ويجوز أن يريد به الوقت الذي بين حال الموت إلى حال النشور ، والأول أقرب إلى مراده عليه السلام ، لأنه قال : « في بطون البرزخ » ولفظة « البطون » تدل على التفسير الأول . ولفظتنا « أكلت الأرض من لحومهم وشربت من دماهم » مستعارتان .

والفجوات : جمع فجوة وهي الفرجة المتسعة بين الشيتين ، قال سبحانه : ﴿ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ﴾ ^(١) ؛ وقد تفاجى الشيء ؛ إذا صارت له فجوة .

وجاء لا ينامون ، أى خرجوا عن صورة الحيوانية إلى صورة الجداد الذي لا ينام ولا يزيد . ويروى : « لا ينامون » بتشديد الميم ، من النيمة وهي الهمس والحركة ، ومنه قولهم : أسكت الله نائمته ، فى قول من شدد ولم يهمز .
وضامرا ، يقال لسكر مالا يرجى من الدين والوعد ، وكل مالا تكون منه على ثقة : ضمرا .

ثم ذكر أن الأحوال الحادثة فى الدنيا لا تنفزع عنهم ، وأن تنسكر الأحوال بهم وبأهل الدنيا لا يحزنهم . ويروى « تحزنهم » على أن الماضى رباعى .
ومثله قوله : « لا يحفلون بالرواجف » أى لا يكثرثون بالزلازل .

(١) سورة الكهف ١٧ .

قوله : « ولا يَأْذُنُونَ للقواصف » أى لا يسمعون الأصوات الشديدة، أذنت لكذا،
أى سمعته .

وجمع الغائب غَيْبٌ وَغَيْبٌ ، وكلاهما مرويٌّ هاهنا، وأراد أنهم شهود في الصورة، وغير
حاضرين في المعنى .

وآلاف، على فُعَالٍ: جمع آلف؛ كالطُّرَّاق جمع طارق، والستار: جمع سامر، والكفار
جمع كافر .

ثم ذكر أنه لم تَعَمْ أخبارهم ، أى لم تسبِّهم أخبارهم وتنقطع عن بعد عهد بهم ،
ولا عن بعد منزل لهم ، وإثما سَقُوا كَأْسَ المَؤْنِ التي أخرستهم بعد النطق ، وَأَصَمَّتْهُمْ بعد
السمع ، وَأَسَكَّتْهُمْ بعد الحركة .

وقوله : « وبالسَّمْعِ صمما » ، أى لم يسمِعُوا فيها نداء المَنادى ، ولا نوح النَّاحِ ، أو لم
يسمع في قبورهم صوت منهم .

قوله : « فكأنهم في ارتجال الصَّفة » ، أى إذا وصفهم الواصف مرتجلا غير متروٍّ في
الصَّفة ، ولا متبهيٍّ للقول .

قال: « كأنهم صرعى سُبَات » ؛ وهو نوم؛ لأنه لا فرق في الصورة بين المَيِّت حال موته
والنائم المسبوت .

ثم وصفهم بأنهم جيران إلّا أنهم لا مؤانسة بينهم كجيران الدنيا ، وأنهم أحبّاء
إلّا أنهم لا يتزاورون كالأحباب من أهل الدنيا .

وقوله « أحبّاء » جمع حبيب، كخلائل وأخلاء ، وصديق وأصدقاء .
ثم ذكر أن عُرَا التعارف قد بليت منهم وانقطعت بينهم أسباب الإخاء؛ وهذه كلها
استعارات لطيفة مستحسنة .

ثم وصفهم بصفة أخرى ، فقال : كل واحد منهم موصوف بالوحدة ؛ وهم مع ذلك مجتمعون ، بخلاف الأحياء الذين إذا انضم بعضهم إلى بعض اتفقت عنه وصف الوحدة .

ثم قال : « ويحجب الهجر وهم أخلاء » أى وكل منهم فى جانب الهجر وهم مع ذلك أهل خلة ومودة ، أى كانوا كذلك . وهذا كله من باب الصناعة المعنوية ، والمجاز الرشيق .
ثم قال : إنهم لا يعرفون للنهار ليلاً ولا ليل نهاراً ، وذلك لأن الواحد من البشر إذا مات نهاراً لم يعرف لذلك النهار ليلاً أبداً ، وإن مات ليلاً لم يعرف لذلك الليل صباحاً أبداً . وقال الشاعر :

لا بد من يومٍ بلا ليلةٍ أو ليلةٍ تأنى بلا يومٍ

وليس المراد بقوله : « أى الجديدين ظعنوا فيه كان عليهم سرمداً » أنهم وهم موتى يشعرون بالوقت الذى ماتوا فيه ولا يشعرون بما يتمم به من الأوقات ، بل المراد أن صورة ذلك الوقت لو بقيت عندهم ل بقيت أبداً من غير أن يزولها وقت آخر يطراً عليها . ويجوز أن يفسر على مذهب من قال ببقاء الأنفس ، فيقال : إن النفس التى تفارق ليلاً تبقى الصورة الليلية والظلمة حاصلة عندها أبداً لا تزول بطراً نهاراً عليها ، لأنها قد فارقت الحواس ، فلا سبيل لها إلى أن يرسم فيها شيء من المحسوسات بعد المفارقة ، وإنما حصل ما حصل من غير زيادة عليه ، وكذلك الأنفس التى تفارق نهاراً .

[بعض الأشعار والحكايات فى وصف القبور والموتى]

واعلم أن الناس قد قالوا فى حال الموتى فأكثرنا ؛ فمن ذلك قول الرضى أبى الحسن رحمه الله تعالى :

أَعِزَّزْ عَلَيَّ بَأْنَ نَزَلْتُ بِمَنْزِلِ متشابه الأتجاد بالأوتاد^(١)
 فِي عَصْبَةٍ جُنُبُوا إِلَى آجَالِهِم والدهر بمجلهم عن الإزواد
 ضَرَبُوا بِمَدْرَجَةِ الْفَسَاءِ قَبَائِلَهُمْ من غير أطساب ولا أعماد
 رَكِبْتُ أَنَاخُوا لَا يُرَجَّى مِنْهُمْ قصد لإنهام ولا إنجساد
 كَرِهُوا النَّزُولَ فَأَنْزَلْتَهُمْ وَقَعَةً للدهر بركة بكل مفاد
 قَهَافَتُوا عَنْ رَحْلِ كُلِّ مَذَلٍّ^(٢) وتطاوخوا عن سرج كل جواد
 بَادُونَ فِي صُورِ الْجَمِيعِ وَأَنْهُمْ متفردون تفرّد الأحاد

قوله : « بادون في صور الجميع » مأخوذ من قول أمير المؤمنين عليه السلام :
 « فكلهم وحيد وهم جميع » .

وقال أيضا :

وَلَقَدْ حَفَظْتُ لَهُ فَأَيْنَ حِفَاظُهُ ولقد وفيت له فأين وفاؤه؟^(٣)
 أَوْعَى الدَّعَاءِ فَلَمْ يَجِبْهُ قَطِيعَةٌ أم ضل عنه من البعاد دعاؤه
 هِيَّاتُ أَصْبَحَ سَمُّهُ وَعِيَانُهُ في الترب قد حجبتهما أقداؤه
 يَمْسَى وَلَيْنُ مَهَادِهِ حَصْبَاؤُهُ فيه ، ومؤنس ليله ظلمساؤه
 قَدْ قَلَبْتُ أَعْيَانَهُ وَتَنَكَّرَتْ أعلامه ، وتكسفت أضواؤه

(١) من مرثيته لأبي إسحاق الصابي ، ومطلعها :

أَعْلَمْتُ مَنْ حَمَلُوا عَلَى الْأَعْوَادِ أَرَأَيْتَ كَيْفَ خَبَأَ ضِيَاءَ الْغَادِي

ديوانه لوحة ١٢٩ .

(٢) الديوان : « عن ظهر كل مذل » .

(٣) ديوانه لوحة ١١٦ ، من مرثية لبعض أصدقائه .

مُغْفِرٍ وَلَيْسَ لِلذَّقِرِ إِغْفَاؤُهُ ، مَغْضٍ وَلَيْسَ لِفَكْرَةٍ إِغْضَاؤُهُ
وَجْهٌ كَلِمَ الْبَرْقِ غَاضٌ وَمِيضُهُ قَلْبٌ كَصَدْرِ الْعَضْبِ قُلٌّ مَضَاؤُهُ
حَكَمَ الْبَلَى فِيهِ فَلَوْ تَلَقَى بِهِ أَعْدَاءُهُ لَرَأَى لَهُ أَعْدَاؤُهُ
وَقَالَ أَبُو الْعَلَاءِ :

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مَا عِنْدِي لَكُمْ خَيْرٌ وَمَا خَطَابِي إِلَّا مَعَشِرًا قُبِرُوا
أَصْبَحْتُمْ فِي الْبَلَى غُزْرًا مَلَابِسَكُمْ مِنْ الْهَبَاءِ ، فَأَيْنَ الْبُرْدُ وَالْقَطَرُ^(١)
كَتَمْتُمْ عَلَى كُلِّ خُطْبٍ فَادِحَ صَبْرًا فَهَلْ شَعَرْتُمْ ؟ وَقَدْ جَادَتْكُمْ الصَّبْرُ^(٢)
وَمَا دَرَى يَوْمَ أَحَدٍ بِالَّذِينَ تَوَوَّأَ فِيهِ ، وَلَا يَوْمَ بَدَرَ أَهْمُ نُصِرُوا
وَقَالَ أَبُو عَارِمٍ السَّكَلَابِيُّ :

أَجَازَةٌ رَدِيئَةٌ أَنْ أَتَاهَا نَعْيِي أَمْ يَكُونُ لَهَا اصْطِبَارُ !
إِذَا مَا أَهْلُ قَبْرِي وَدَعَوْنِي وَرَاحُوا وَالْأَكْفَ بِهَِا غُبَارُ
وَعُودَرُ أَعْظَمِي فِي الْحَدْرِ قَبْرِ تَرَاوَحُهُ الْجَنَائِبُ وَالْقِطَارُ
تَهَبَّ الرِّيحُ فَوْقَ مَحْطَةِ قَبْرِي وَيَرَعَى حَوْلَهُ اللَّهُقُ النَّوَارُ^(٣)
مَقِيمٌ لَا يَكْلِمُهُ صَدِيقٌ بِقَبْرِ ، لَا أَزُورُ وَلَا أُزَارُ
فَذَاكَ النَّأْيُ لَا الْمَجْرَانِ حَوْلًا وَحَوْلًا ثُمَّ تَجْتَمِعُ الدِّيَارُ !

مرَّ الإسكندر بمدينة قد ملكها سبعة أملاك من بيت واحد وبادوا ، فسأل : هل
بقيَ من نسلهم أحد ؟ قالوا : بقي واحد ، وهو يلزم المقابر ، فدعا به فسأله : لم تلزم المقابر ؟
قال : أردت أن أميزَ عظام الملوك من عظام عبيدهم ، فوجدتها سواء ، قال : هل لك أن
تلزمني حتى أنيلاك بغيتك ؟ قال : لو علمتُ أنك تقدر على ذلك ألزمتك . قال : وما بغيتك ؟

(١) القطر : من البرود .

(٢) الصبر : السحابة البيضاء .

(٣) اللهق : الثور الأبيض ، والنوار : النافر .

قال : حياة لا موت معها ، قال : لن أقدرَ على ذلك ، قال : فدعني أطلبه ممن يقدر عليه .

قال النبي صلى الله عليه وآله : « مارأيت منظرا إلّا والقبر أفضع منه » .
وقال صلى الله عليه وآله : « القبر أول منزل من منازل الآخرة ، فمن نجا منه فما بعده أيسر ، ومن لم ينج فما بعده شرُّ له » .
مرَّ عبد الله بن عمر رضي الله عنه بمقبرة فصلى فيها ركعتين ، وقال : ذكرت أهل القبور وأنَّه حيل بينهم وبين هذا ، فأحببت أن أتقرَّبَ بهما إلى الله .

فإن قلت : ما معنى قوله عليه السلام « وبجانب المجر » ؟ وأى فائدة في لفظة « جانب » في هذا الموضع ؟

قلت : لأنهم يقولون : فلان في جانب المجر ، وفي جانب القطيعة ، ولا يقولون : « في جانب الوصل » ، وفي « جانب المصافاة » ، وذلك أنَّ لفظة « جنب » في الأصل موضوعة للمباعدة ، ومنه قولهم : « الجار الجُنُب » ، وهو جارك من قوم غرباء . يقال : جنب الرجل ، وأجنبته ، وتجنبته ، وتجانبته ، كلّه بمعنى ، ورجل أجنبيّ ، وأجنب ، وجُنِب ، وجانب ، كلّه بمعنى .

قوله عليه السلام : « شاهدوا من أخطار دارهم » ، المعنى أنه شاهد المقتون من آثار الرحمة وأماراتها ، وشاهد المجرمون من آثار العقمة وأماراتها عند الموت ، والحصول في القبر أعظم مما كانوا يسمعون ويظنون أيام كونهم في الدنيا .

ثم قال : « فكلّا الغاييتين مدّت لهم » ، المعنى مدّت الغاييتان : غاية الشقيّ منهم وغاية السعيد .

إلى مباءة ، أى إلى منزل يعظم حاله عن أن يبلغه خوف خائف ، وأرجاء راج ؛ وتلك المباءة هى النار أو الجنة . وتقول : قد استبأ الرجل أى اتخذ مباءة ، وأبأت الإبل : رددتها إلى مباءتها ؛ وهى معاطنها .

ثم قال : « فلو كانوا ينطقون بها لعيوا » ، بتشديد الياء ، قال الشاعر :

عَيُّوا بِأَمْرِهِمْ كَمَا عَيَّتْ بِيضَتِهَا الْحَمَامَةُ
جَعَلَتْ لَهَا عَوْدِينَ مِنْ نَشْمٍ وَآخِرٍ مِنْ ثَمَامَةٍ

وروى « لَعَيُّوا » بالنخفيف ، كما تقول : « حَيُّوا » قالوا : ذهبت الياء الثانية لالتقاء الساكنين لأن الواو ساكنة ، وضمت الياء الأولى لأجل الواو ، قال الشاعر :

وَكُنَّا حَسْبِنَاهُمْ فَوَاسٍ كَهْمِسٍ حَيُّوا بَعْدَ مَا تَوَا مِنَ الدَّهْرِ أَعْصَرَ

قوله : « لَقَدْ رَجَعَتْ فِيهِمْ » يقال : رجع البصر نفسه ، ورجع زيد بصره ؛ يتمدى ولا يتمدى ، يقول : تكلموا معنى لا صورة ، فأدركت حالمهم بالأبصار والأسماع العقلية لا الحسية . وكَلَعَتْ الوجوه كلُّوها وكَلَّاحًا ، وهو تكشَّر في عبوس .

والنواصير : النواغم ، والنضرة : الحسن والرونق .

وخوت الأجساد النواغم : خلت من دميها ورطوبتها وحشوتها . ويجوز أن يكون خوت أى سقطت . قال تعالى : ﴿ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ ^(١) ، والأهدام : جمع هِذَم ، وهو الثوب البالى ، قال أوس .

وَذَاتِ هِذَمٍ عَارٍ نَوَاصِرُهَا تُصْمِتُ بِالْمَاءِ تَوَلَّيَا جَدْعًا ^(٢)

(١) سورة الحج ٤٥ .

(٢) ديوانه ٥٥ النواصر : عصب الذراع ، الواحد فاشرة ؛ وبها سمي الرجل ، وأراد بالتولب طفلها أولجذع : السيء الغذاء ؛ تصمته بالماء لأنه ليس له لبن من شدة الضى .

وتكآءدنا : شقّ علينا ، ومنه : عقبة كؤود . ويجوز تكآدنا ، جاءت هذه الكلمة في أخوات لها « تمعل وتفاعل » بمعنى ، ومثله تعهد الضيعة ، وتعاهدها .
ويقال : قوله : « وتوارثنا الوحشة » . كأنه لما مات الأب فاستوحش أهله منه ، ثم مات الابن فاستوحش منه أهله أيضا ، صار كأن الابن ورث تلك الوحشة من أبيه كما تُورث الأموال ، وهذا من باب الاستعارة .

قوله : « وتهدمت علينا الربوع » ، يقال : تهدم فلان على فلان غضبا ؛ إذا اشتد غضبه ، ويجوز أن يكون تهدمت أى تساقطت وروى « وتهكت » بالكاف ، وهو كقولك : « تهدمت » بالفسيرين جميعا ، ويعنى بالربوع الصموت ، القبور ، وجعلها صموتا لأنه لا نطق فيها ، كما تقول : ليل قائم ونهار صائم ، أى يقام ويصام فيهما ، وهذا كله على طريق الهز والتعريك وإخراج الكلام في معرض غير المعرض للمعهود ، جعلهم لو كانوا ناطقين مخبرين عن أنفسهم [لأنوا] بما وصفه من أحوالهم . وورد في الحديث أن عمر حضر جنازة رجل ، فلما دفن قال لأصحابه : قفوا ، ثم ضرب فأمعن في القبور ، واستبطأ الناس جدا ثم رجع وقد أحمرت عيناه ، وانتفخت أوداجه ، فقيل : أبطأت يا أمير المؤمنين ، فما الذى حبسك ؟ قال : أتيت قبور الأحبة ، فسلمت فلم يردوا على السلام ، فلما ذهبت ألقى ناداني التراب ، فقال : ألا تسألنى يا عمر ما فعلت باليدين ؟ قلت : ما فعلت بهما ؟ قال : قطعت الكفين من الرُسغين ، وقطعت الرُسغين من الذراعين ، وقطعت الذراعين من المرفقين ، وقطعت المرفقين من العضدين ، وقطعت العضدين من المنكبين ، وقطعت المنكبين من الكتفين ، فلما ذهبت ألقى ناداني التراب ، فقال : ألا تسألنى يا عمر ما فعلت بالأبدان والرجلين ؟ قلت : ما فعلت ؟ قال : قطعت الكتفين من الجنبين ، وقطعت الجنبين من الصلب ، وقطعت الصلب من الوركين ، وقطعت الوركين من الفخذين ، وقطعت الفخذين من الركبتين ،

وقطعت الرّ كبتين من الساقين ، وقطعت الساقين من القدمين ، فلما ذهب ألقى ناداني التراب ، فقال : يا عمر ، عليك بأ كفانٍ لا تبلى ؟ فقلت : وما أ كفانٍ لا تبلى ، قال : تقوى الله ، والعمل بطاعته . وهذا من الباب الذي نحن بصدده ، نسب الأقوال المذكورة إلى التراب وهو جاد ، ولم يكن ذلك ، ولكنه اعتبر فأنقذت في نفسه هذه المواعظ الحكيمية ، فأفرغها في قالب الحكيمية ، ورتبها على قانون المسألة والإجابة ، وأضافها إلى جاد موات ، لأنه أهرؤ سامعها إلى تدبرها ، ولو قال : نظرت فاعتبرت في حال الموتى ، فوجدت التراب قد قطع كذا من كذا لم تبلغ عظمته المبلغ الذي بلغته حيث أودعها في الصورة التي اخترعها .

قوله عليه السلام : « فلو مثلتهم بمقلك ، أو كشف عنهم محجوب الغطاء لك » إلى آخر جواب « لو » . هذا الكلام أخذه ابن نباتة بعينه فقال : فلو كشفتم عنهم أغطية الأحداث ، بعد ليلتين أو ثلاث ، لو جدتم الأحداق على الخلد وسائلة ، والألوان من ضيق اللحد حائلة ، وهوام الأرض في نواصم الأبدان جائلة ، والروس الموسدة على الأيمان زائلة ، يسكرها من كان لها عارفا ، ويفر عنها من لم يزل لها آلفا .

قوله عليه السلام : « ارتسخت أسماعهم » ليس معناه ثبتت كازعمه الراوندي ، لأنها لم تثبت ، وإنما ثبتت الهوام فيها ، بل الصحيح أنه من رسخ الغدير إذا نش ماؤه ونضب ، ويقال : قد ارتسخت الأرض بالمطر إذا ابتلعه حتى يلتقى الثريان .

واستكتت ، أى ضاقت وانسدّت ، قال الفايضة :

وُنِدِّتْ خَيْرَ النَّاسِ أَنْكَ لُمْتَنِي وَتَلَكَ الَّتِي تَسْتَكُّ مِنْهَا السَّامِعُ^(١)

(١) ب « فيها » ، والبيت في ديوانه ٥٣ ، وروايته :

* أَتَانِي أَيْتَ اللَّعْنِ أَنْكَ لُمْتَنِي *

قوله : « واكتحلت أبصارهم بالتراب نجسفت » ، أى غارت وذهبت فى الرأس .
وأخذ المتنبيّ قوله : « واكتحلت أبصارهم بالتراب » ، فقال :

يُدَقَّنُ بَعْضُنَا بَعْضًا وَيَمْشِي أَوَاخِرُنَا عَلَى هَامِ الْأَوَالِي^(١)
وَكَمْ عَيْنٍ مُقْبِلَةِ النَّوَاحِي كَحِيلٍ بِالْجَنَادِلِ وَالرَّمَالِ
وَمَنْضٍ كَانَ لَا يَفْضَى لِحَطْبٍ وَبَالَ كَانَ يُفْسِكُ فِي الْهَزَالِ

وذلاقة الأسن : حدثها ، ذَلِقَ اللسان والسنان يذاق ذَلَقًا ، أى ذَرِبَ ؛ فهو ذاق ، وأذلق .

وَمَدَّتْ ، بالفتح : سكبت وخذت . وعاث : أفسد . وقوله : « جديد بلَى » ، من فنّ البديع ، لأنَّ الجِدَّةَ ضدَّ البلى ؛ وقد أخذ الشاعر هذه اللفظة فقال :

يَادَارُ غَادَرَنِي جَسِيدُ بِلَاكِ رَثِّ الْجَدِيدِ فَهَلْ رَثِيتَ لَذَاكِ !

وَمَمَّجَهَا : قَبَّحَ صورتها ، وقد مَمَّجَ الشيء بالضم فهو مَمَّجٌ ، بالسكون ، مثل ضَخَمَ فهو ضَخَمٌ ، ويحوز : فهو مَمَّجٌ ، بالكسر ، مثل خَشَنَ فهو خَشِنٌ .

قوله : « وسهل طرق الآفة إليها » ؛ وذلك أنه إذا استولى العنصر الترابى على الأعضاء ، قوى استعدادها ، للاستحالة من صورتها الأولى إلى غيرها .

ومستسلمات ، أى منقاد طائفة غير عاصية ؛ فليس لها أيدٍ تدفع عنها ، ولا لها قلوب تجزع وتمزق لما نزل بها .

والأشجان : جمع شَجَنَ ، وهو الحزن .

والأفداء : جمع قَدَّى ، وهو ما يسقط فى العين فيؤذيها .

(١) ديوانه ٣ : ١٨ . والأوالى : الأوائل ، ولكنه قلب .

قوله : « صفة حال لا تنتقل » ، أى لا تنتقل إلى حسن وصلاح ، وليس يريد : لا تنتقل مطلقا ، لأنها تنتقل إلى فساد وضمحلل .

ورجل عزيز ، أى حدث ، وعزيز الجسد ، أى طوى ، وأنيق اللون : معجب اللون .
وَعَزِيٌّ تَرَفٌ : قد غُذِيَ بالترف ، وهو التمتع المطغى .
وربيبٌ شَرَفٌ ، أى قد رَبَّيَ في الشرف والعز . ويقال : ربّ فلان ولدّه يرّبّه ربّا ،
وربّاه يرّبّه تربيةً .

ويتمثل بالسرور : يتلهّى به عن غيره . ويفزع إلى السّولة : يلتجئ إليها . وضنّا ، أى
بخلا . وغضارة العيش : نعيمه وليته .

وشحاحة ، أى بخلا ، شَحِيحٌ بالكسر أشح . وشَحَحْتُ أيضا بالفتح ، أشح
وأشَحُّ ؛ بالضم والكسر ، شُحًا وشَحَاحَةً . ورجل شحيح وشَحَاح بالفتح . وقوم
شَحَاحٌ وأشَحَّة .

ويضحك إلى الدنيا ونضحكُ إليه ؛ كفاية عن الفرح بالعمر والعيشة ، وكذا كل
واحدٍ منهما يضحك إلى صاحبه لشدة الصفاء ، كأن الدنيا تحبّه وهو يحبّها .
وعيش غَفُول : قد غفل عن صاحبه ، فهو مستغرق في العيش لم ينتبه له الدهر ،
فيكدر عليه وقته ، قال الشاعر :

وكان للمرء في غفلاتِ عيشٍ كأنّ الدهرَ عنها في وثاق
وقال آخر :

ألا إنّ أحلى العيش ما سمّحت به صروفُ الليالي ، والحوادثُ نوّمُ
قوله : « إذ وطئ الدهر به حسّكه » ، أى إذ أوطأ الدهر حسّكه . والماء في
« حسّكه » ترجع إلى الدهر ، عدّى الفعل بحرف الجرّ ، كما تقول : قام زيد بعمره ،
أى أقامه .

وقواه : جمع قوّة وهي للمرّة من مرائر الحبل . وهذا الكلام استعارة .
ومن كُتِبَ : من قرب . والبث : الحزن . والبث أيضا : الأمر الباطن الدخيل
ونجى الهم : ما ينجيك ويسارك . والفترات : أوائل المرض .
وأنس ما كان بصحته ، منصوب على الحال . وقال الراوندى في الشرح : هذا من
باب : « أخطب ما يكون الأمير قائما » . ثم ذكر أن العامل في الحال « فترات » ،
قال : تقديره : « فترات أنس ما كان » . وما ذكره الراوندى فاسد ، فإنه ليس هذا من
باب : « أخطب ما يكون الأمير قائما » ، لأن ذلك حال سدّ مسدّ خير المبتدأ ، وليس
هاهنا مبتدأ . وأيضا فليس العامل في الحال « فترات » ولا « فتر » ، بل العامل :
« تولدت » . والقارّ : البارد .

فإن قلت : لم قال : « تسكين الحار بالقار » ، وتحريك البارد بالحار ؟ ولأى
معنى جعل الأول التسكين والثانى التحريك ؟ قلت : لأن من شأن الحرارة التهييج
والتثوير ، فاستعمل في قهرها بالبارد لفظه « التسكين » ، ومن شأن البرودة التثدير والتجميد ،
فاستعمل في قهرها بالحار لفظه « التحريك » .

قوله : « ولا اعتدل بمأزج لتلك الطبائع إلا أمدّ منها كل ذات داء » ، أى ولا استعمل
دواء مفردا معتدل المزاج أو مركبا كذلك إلا وأمدّ كل طبيعة منها ذات مرض بمرض
زائد على الأول .

وينبى أن يكون قوله : « ولا اعتدل بمأزج » ، أى ولا رام الاعتدال لممزج ،
لأنه لو حصل له الاعتدال لسكان قد برى من مرضه ، فسعى محاولة الاعتدال اعتدالا ،
لأنه باستدلال المعتدلات قد تهيأ للاعتدال ، فكان قد اعتدل بالقوّة .

وينبى أيضا أن يكون قد حذف مفعول « أمدّ » ، وتقديره « بمرض » كما قدرناه
نحن ، وحذف المفعولات كثير واسع .

قوله : « حَتَّى قَتَرَ مَعْلَهُ » ، لَأَنَّ مَعْلَى الْمَرَضِ فِي أَوَائِلِ الْمَرَضِ يَكُونُ عِنْدَهُمْ نَشَاطٌ ، لَأَنَّهُمْ يَرْجُونَ الْبَرْءَ ، فَإِذَا رَأَوْا أَمَارَاتِ الْهَلَاكِ قَتَرَتْ هِمَّتَهُمْ .

قوله : « وَذَهَلَ مَرَضُهُ » ، ذَهَلَ بِالْفَتْحِ ، وَهَذَا كَالْأَوَّلِ ، لِأَنَّ الْمَرَضَ إِذَا أُعْيَا عَلَيْهِ الْمَرَضُ ، وَانْسَدَّتْ عَلَيْهِ أَبْوَابُ التَّدْبِيرِ يَذْهَلُ .

قوله : « وَتَعَايَا أَهْلَهُ بِصِفَةِ دَائِهِ » ، أَيْ تَعَاطَوْا الْعِيَّ وَتَسَاكَتُوا إِذَا سُئِلُوا عَنْهُ ، وَهَذِهِ عَادَةُ أَهْلِ الْمَرِيضِ الْمُتَقَلِّ ؛ يَجْمَعُونَ إِذَا سُئِلُوا عَنْ حَالِهِ .

قوله : « وَتَنَازَعُوا دُونَهُ شَجَى خَبَرٍ يَكْتُمُونَهُ » ، أَيْ تَخَاصَمُوا فِي خَبَرٍ ذِي شَجَى ، أَيْ خَبَرٍ ذِي غُصَّةٍ يَتَنَازَعُونَ وَهُمْ حَوْلَ الْمَرِيضِ سِتْرًا دُونَهُ ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ بِنَجْوَاهُمْ ، وَبِمَا يُفِيضُونَ فِيهِ مِنْ أَمْرِهِ .

فَقَاتِلْ مِنْهُمْ : هُوَ لَمَّا بَهِ ، أَيْ قَدْ أَشْفَى عَلَى الْمَوْتِ . وَآخِرُ يَمَنِيهِمْ إِيَابُ عَافِيَتِهِ ، أَيْ عَوْدَهَا ، آبُ فَلَانٍ إِلَى أَهْلِهِ ، أَيْ عَادَ .

وَأَخْرَ يَقُولُ : قَدْ رَأَيْتُ مِثْلَ هَذَا ، وَمَنْ بَلَغَ إِلَى أَعْظَمِ مِنْ هَذَا ثُمَّ عَوَفِيَ ، فِيمَنَى أَهْلَهُ عَوْدَ عَافِيَتِهِ .

وَأَخْرَ يَصْبِرُ أَهْلَهُ عَلَى فَقْدِهِ ، وَيَذْكُرُ فَضِيلَةَ الصَّبْرِ ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْجَزَعِ ، وَيُرْوِي لَهُمْ أَخْبَارَ الْمَاضِينَ .

وَأَسَى أَهْلِيهِمْ ، وَالْأَسَى : جَمْعُ أَسْوَةٍ ، وَهُوَ مَا يَتَأَسَّى بِهِ الْإِنْسَانُ . قَالَتِ الْخَنَسَاءُ :

وَمَا يَبْكُونُ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ أَسَلَى النَّفْسَ عَنْهُ بِالنَّاسِ^(١)

قوله : « عَلَى جَفَاحٍ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا » ، أَيْ سَرَّعَانَ مَا يَفَارِقُهَا ؛ لِأَنَّ مَنْ كَانَ عَلَى جَفَاحٍ طَائِرٍ ، فَأَوْشِكُ بِهِ أَنْ يَسْقُطَ .

(١) ديوانها ١٥٣ ، وروايته « وما يبكين » .

قوله : « إِذْ عَرَضَ لَهُ عَارِضٌ » يعنى الموت ومن غُصَصِه : جمع غُصَّة . وهو ما يعترض تجرى الأنفاس . ويقال : إنَّ كلَّ مَيِّتٍ من الحيوان لا يموت إلَّا خنقاً ، وذلك لأنَّه من النَّفْس يدخل ، فلا يخرج عَوْضَه ، أو يخرج فلا يدخل عَوْضَه ، ويلزم من ذلك الاختناق ، لأنَّ الرُّتَّة لا تبقى حينئذٍ مَرْوَحَةً للقلب ، وإذا لم تُرَوَّحْه اختنق .

قوله : « فَتَحَيَّرَتْ نَوَافِدُ فُطْنَتِهِ » ، أى تلك الفطنة السافذة الثابتة تحيَّرت عند الموت ، وتبلَّدت .

قوله : « وَيَبْسُطُ رَطوبَةَ لِسَانِهِ » ؛ لأنَّ الرُّطوبَةَ اللَّعَابِيَّةَ الَّتِي بها يكون الذوق تُلْشَفُ حينئذٍ ، ويبسط الإحساس باللسان تبعاً لسقوط القوة .

قوله : « فَكَمْ مِنْ مَهْمٍّ مِنْ جَوَابِهِ عَرَفَهُ فَمَيَّ عَنْ رَدِّهِ » نحو أن يكون له مالٌ مدفونٌ يُسأل عنه حال ما يكون محتَضِراً ، فيحاول أن يعرف أهْلَهُ به فلا يستطيع ، ويعجز عن رَدِّ جَوَابِهِمْ ، وقد رأينا مَنْ تَجَزَّأَ عن الكلام فأشار إشارةً فهموا معناها ، وهى الدَّوَاةُ وَالكَاغِدُ ، فلَمَّا حضر ذلك أخذَ القلمَ وكتبَ فى الكاغِدِ ما لم يُفْهَمْ ، ويده تُرْعَدُ . ثم مات .

قوله : « وَدَعَاءٌ مَوْمِلٌ لِقَلْبِهِ مِمَّعَهُ فَتَصَامٌ عَنْهُ » ، أظهر الصَّمَّ ، لأنَّه لا حيلةَ له .

ثم وصف ذلك الدعاء فقال : « مِنْ كَبِيرٍ كَانَ يَعْظُمُهُ » ، نحو صُراخِ الوالدِ على الولدِ والولدِ يسمع ولا يستطيع الكلام . « وَصَغِيرٍ كَانَ يَرْحَمُهُ » ، نحو صراخِ الولدِ على الوالدِ ، وهو يسمع ولا قدرةَ له على جوابه .

ثم ذكر غمرات الدنيا فقال : إنها أفضَحُ من أن تحيط الصفاتُ بها . وتستغرقُها ، أى تأتى على كُنْهَيْهَا ، وتُعبِّرُ عن حقائقها .

قوله : « أَوْ تَمْتَدُّ عَلَى عَقُولِ أَهْلِ الدُّنْيَا » ، هذا كلام لطيف فصيح غامض ، ومعناه

أن غمرات الموت وأهواله عظيمة جداً لا تستقيم على العقول ولا تقبلها إذا شُرحت لها
ووصفت كما هي على الحقيقة ، بل تنبو عنها ، ولا تصدق بما يقال فيها ، فعبر عن عدم
استقامتها على العقول بقوله : « أو يعتدل » ، كأنه جعلها كالشيء المموج عند العقل ،
فهو غير مصدق به .

[إيراد أشعار وحكايات في وصف الموت وأحوال الموتى]

وما يناسب ما ذكر ، من حال الإنسان قول الشاعر :

بينما الفتى مَرِحَ أخطأ فرحاً بما يسمى له إذ قيل قد مَرِضَ الفتى
إذ قيل باتَ بليلاً ما نَامَها إذ قيل أصبح مُثَقَّلاً ما يُرْتَجَى
إذ قيل أمسى شاخصاً وموَّجَّهاً إذ قيل فارقَهُم وحل به الردى

وقال أبو النجم العجلي :

والرء كالخالم في المنام يقول إنى مدرك أمي
في قابلٍ مافاتنى في المنام والرء يُدْنيه إلى الحيام
مرُّ الليالى السودِ والأيام إن الفتى يُصبحُ للأسقام
كالغرضِ المصوب للسهام أخطأ رامٍ ، وأصاب رام

وقال عمران بن حطان :

أنى كلَّ عامٍ مَرَضَةٌ ثم نَقْمَةٌ ويُنمى ، ولا ينمى ، متى ذَا إلى متى !

ولابد من يوم يحىء وليسلة يسوقان حقاً راح نحوك أو غدا

وجاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مرّ بمقبرة فنادى : يا أهل القبور الموحشة، والزُّبوع المعطلة، ألا أخبركم بما حدث بعدكم ؟ تزوج نساؤكم ، وتبونت مساكنكم ، وقُسمت أموالكم . هل أنتم تخبرون بما عاينتم ؟ ثم قال : ألا إنهم لو أُذن لهم في الجواب لقالوا : وجدنا خير الزَّاد التقوى .

ونظر الحسن إلى رجل يجود بنفسه فقال : إن أمراً هذا آخره ، لجدير أن يزهد في أوله ، وإن أمراً هذا أوله لجدير أن يخاف آخره .

وقال عبدة بن الطبيب - ويمجني قوله على الحال التي كان عليها ؛ فإنه كان أسود لصاً من لصوص بنى سعد بن زيد مناة بن تميم - :

ولقد علمتُ بأن قصرى حفرةً غبراء يحملنى إليها شرجمٌ^(١)

فبكى بناتى شجوهنَّ وزوجتى والأقربون إلىّ ، ثم تصدعوا

وتركتنى غبراء يكره وردها تنسني على الريح ثم أودع

إن الحوادث يخترمن وإتما عمر الفتى في أهله مستودع

ونظير هذه الأبيات في رويها وعروضها قول متمم بن نويرة اليربوعي :

ولقد علمتُ ولا محالة أنني للعادات ، فهل ترينى أجزع^(٢) !

أهلكنَ عاداً ثم آل مُحَرَّقٍ فتركنهم بلذا وما قد جَمَعُوا^(٣)

(١) من مفضليته ١٤٥ - ١٤٩ ، والشرح : خشب يشد بعضه إلى بعض كالسريين يحمل عليه الموتى .

(٢) من مفضليته ٤٨ - ٥٤ .

(٣) بلداً ، أى تراباً .

ولهنّ كان الحارثان كلاهما ولهنّ كان أخو المصانع تبع^(١)
فمددت آباءى إلى عرق الترى فدعوتهم فعلت أن لم يسمّوا
ذهبوا فلم أدركهم ودعهم غول أتوها والطريق المنيع
لا بدّ من تلفٍ مصيب فانتظر بأرض قومك أم بأخرى تصرّع
وليأتين عليك يوم مرّة يبكى عليك مُقعماً لا تسمع^(٢)

لما فتح خالد بن الوليد عين التمر ، سأل عن الحرقّة بنت النعمان بن المنذر ، فدلّ عليها ، فأتاها - وكانت غمياً - فسألها عن حالها ، فقالت : لقد طلعت علينا الشمس ماشىء يدبّ تحت الخورنق إلّا تحت أيدينا ، ثم غربت وقد رحنا كل من يدور به ، وما بيت دخلته حبرة ، إلّا دخلته عبّرة ؛ ثم قالت :

وَبَيْنَا نَسُوسُ النَّاسَ وَالْأُمْرُ أَمْرُنَا إِذَا نَحْنُ فِيهِ سَوْقَةٌ نَذْصَفُ
فَأَفْ لَدُنْيَا لَا يَدُومُ نَعِيمُهَا تَقْلَبُ تَارَاتٍ بِنَا وَتَصْرَفُ
فقال قائل ممن كان حول خالد : قاتل الله عدى بن زيد ! لكانّه ينظر إليها حين يقول :

إِنَّ لِلدَّهْرِ صَرْعَةً فَاحْذَرْنَهَا لَا تَبِيتَنَّ قَدْ أَمِنْتَ الدَّهَوْرَا^(٣)
قد يبيت الفتى معافى فيردى ولقد كان آمناً مسروراً

دخل عبد الله بن العباس على عبد الملك بن مروان يوم قرّ ، وهو على فرش

(١) الحارثان : هما الحارث الأصغر ، والحارث الأكبر الأعرج : المصانع . القصور . تبع : ملك من ملوك اليمن .

(٢) مقنع : ملفف في أثوابه .

(٣) الأغاني ٢ : ١٣٨ - ١٤٠ .

يكاد يغيب فيها ، فقال : يا بن عباس ، إني لأحسب اليوم بارداً ! قال : أجل ، وإن ابن هند عاش في مثل ماترى ؛ عشرين أميراً ، وعشرين خليفة ، ثم هو ذاك على قبره ثمامة تهتز .

فيقال : إن عبد الملك أرسل إلى قبر معاوية فوجد عليه ثمامة نابذة .

كان محمد بن عبد الله بن طاهر في قصره ببغداد على دجلة ، فإذا بحشيش على وجه الماء في وسطه قصبة على رأسها رقعة ، فأمر بها فوجد هذا :

تاه الأعرج واستولى به البطرُ فقل له خير ما استعملته الحذرُ
أحسنْتَ ظنك بالأيام إذ حسنْتَ ولم تخفْ سوء ما يأتي به القدرُ
وسالمتك الليالي فاغترت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدر
فلم ينتفع بنفسه أياماً .

عدي بن زيد :

أيها الشامت المير بالدهر ر أنت المبرأ الموفور !
أم لديك العهد الوثيق من الأيام ، بل أنت جاهل مغرور
من رأيت المنون خلدن أم من ذا عليه من أن يضام خفير !
أين كسرى كسرى الملوك أنوشر وإن أم أين قبله سابور^(١) !
وبنو الأصفر الكرام ملوك الـ روم ولم يبق منهم مذكور

(١) سابور الجنود ، هو ابن أردشير ، وسابور ذو الأكتاف ، هو سابور بن هرمز ، وكلاهما من ملوك العجم .

وأخو الحضير إذ بناه وإذ دجج له نجي إلى به والخابور^(١)
 لم يهنبه ريب المليون فيأذا^(٢) ملك عمنه فبابه مهجور
 شاده مرمراً وجللة كل سكا فلالطير في ذراه و كور^(٣)
 وتبين رب الخورنق إذ أشرف يوماً وللهدى تفكير^(٤)
 سره حاله وكثرة ما يملك والبحر معرضاً بوالسيد^(٥)
 فارعوى قلبه وقال : فما غب طة حتى إلى المات يصير
 ثم بدد الفلاح والملك والأمة وارثهم هناك القبور^(٦)
 ثم أضحووا كأنهم ورق جف فآلوت به الضبا والدبور^(٧)
 قد اتفق الناس على أن هذه الأبيات أحسن ما قيل من القريض في هذا المعنى، وأن
 الشعراء كلهم أخذوا منها، واحتذوا في هذا المعنى حذوها .

وقال الرضى أبو الحسن رضى الله عنه :

انظر إلى هذا الأنام بمبرم لا يعجبك خلقه ورواؤه^(٧)
 فتراه كالورق النضير تقصفت أغصانه ، وتسلبت شجراؤه^(٨)
 أنى تحاماه المون ، وإنما خلقت مراعى للردى خضراؤه
 أم كيف تأمل فلقه أجساده من ذا الزمان وحشوها أدواؤه

-
- (١) الخابور : اسم نهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة .
 (٢) الكلس : الصاروج ، وأخلطها التي تصرج (تطل) بها النزل وغيرها .
 (٣) في الأغاني : « وتذكر » .
 (٤) في الأغاني : « سرماله » .
 (٥) الأمة : النعمة .
 (٦) آلوت به : أى ذهبت به .
 (٧) ديوانه لوحة ١١٦ .
 (٨) ديوانه : « فبيناه » .

لا تعجبين فما العجيب فناءؤه بيد المنون ، بل العجيب بقاؤه
 إننا لعجب كيف حُمَّ حَمَامُهُ عَنْ صَحْبَةٍ ، وَيَغِيبُ عَنَّا ذَاؤُهُ
 مَنْ طَاحَ فِي سَبِيلِ الرَّدَى أَبَاؤُهُ فَلَيْسَ لَكُنَّ طَرِيقَهُمْ أَبْنَاؤُهُ
 وَمُؤَمَّرٍ نَزَلُوا بِهِ فِي سُوقَةٍ لَا شَكْلَهُ فِيهِمْ وَلَا نَظْرَاؤُهُ (١)
 قَدْ كَانَ يَفْرُقُ ظِلَّهُ أَقْرَانُهُ وَيَقْضِي دُونَ جَلَالِهِ أَكْمَاؤُهُ (٢)
 وَتُحْجَبُ ضَرْبَتُ عَلَيْهِ مَهَابُهُ يَعِشِي الْعِيُونَ بِهَآؤُهُ وَضِيَاؤُهُ
 نَادَتْهُ مِنْ خَلْفِ الْحِجَابِ مَنِيَّةُهُ أُمُّ فَكَانَ جَوَابُهَا حَوَابُؤُهُ (٣)
 شَقَّتْ لِإِلَيْهِ سَيُوفُهُ وَرِمَاحَهُ وَأَمِيطَ عَنْهُ عَيْبُهُ وَإِمَاؤُهُ
 لَمْ يُغْنِهِ مَنْ كَانَ وَدَّ لَوْ أَنَّهُ قَبْلَ الْمُنُونِ مِنَ الْمُنُونِ فِدَاؤُهُ
 حَرَّمَ عَلَيْهِ الذَّلَّ إِلَّا أَنَّهُ أَبْدَا لَيْشَهُدُ بِالْجَلَالِ بِنَاؤُهُ (٤)
 مَتَخَشَّعٌ بِمَدِّ الْأُنَيْسِ جَنَابُهُ مَقْضَائِلُ بِمَدِّ الْقَطِطِينَ فَنَاؤُهُ
 عُرْيَانٌ تَطْرُدُ كُلَّ رِيحٍ تَوْبُهُ وَيَطِيعُ أَوَّلَ أَمْرٍ هَا حَصْبَاؤُهُ
 وَلَقَدْ مَرَرْتُ بِبَرْزَخٍ فَسَأَلْتُهُ أَيْنَ الْأَلَى ضَمَّتْهُمْ أَرْجَاؤُهُ
 مِثْلَ الْمَطَى بَوَارِكَا أَجْدَانُهُ تَسْنِي عَلَى جَنَابَاتِهَا بَوَغَاؤُهُ (٥)
 نَادَيْتُهُ فَخَفَى عَلَيَّ جَوَابُهُ بِالْقَوْلِ إِلَّا مَا زَقْتُ أَصْدَاؤُهُ (٦)

(١) الديوان : « قَرْنَاؤُهُ » .

(٢) يَفْرُقُ : يَخَافُ وَيَهَابُ .

(٣) أُمُّ : قَرِيبَةٌ ، وَالْحَوَابُ : النَّفْسُ .

(٤) حَرَّمَ عَلَيْهِ : حَرَامٌ عَلَيْهِ .

(٥) بَوَارِكَا : جَمْعُ بَارِكٍ أَوْ بَارَكَةٍ . الْبَوَغَاءُ : التَّرَابُ .

(٦) زَقْتُ : صَاحَتْ : الْأَصْدَاءُ : جَمْعُ صَدَى ، وَهُوَ حِكَايَةُ الصَّوْتِ فِي الْجِبَالِ وَالْكَهْوفِ وَالْأَمَاكِنِ

الْعَالِيَةِ .

مِنْ نَازِلٍ مَطْرُوفَةٍ أَلْحَاضِهِ أَوْ خَاطِرٍ مَظْلُوفَةٍ سَوْدَاؤِهِ (١)
أَوْ وَاجِدٍ مَكْنُوفَةٍ زَفَرَاتِهِ أَوْ حَاقِدٍ مَنَسِيَةٍ شَحْنَاؤِهِ (٢)
وَمُسْتَدِينٍ عَلَى الْجَنُوبِ كَانَتْهُمْ شَرِبَتْ تَخَاذُلَ الْبَطَلَا أَعْضَاؤُهُ
تَحْتَ الصَّعِيدِ لَغِيرِ إِشْفَاقٍ إِلَى يَوْمِ الْمَعَادِ يَضْمُهُمْ أَحْشَاؤُهُ
أَكْلَهُمْ الْأَرْضَ الَّتِي وَلَدْنَهُمْ أَكَلَ الضَّرُوسَ حَلَّتْ لَهُ أَكْلَاؤُهُ

وقال أيضا :

وَتَفَرَّقُوا الْبُعْدَاءَ بَعْدَ تَجْمُعِهِ صَعْبٌ ، فَكَيْفَ تَفَرَّقَ الْقُرْبَاءُ (٣)
وَخَلَّاقُ الدُّنْيَا خَلَّاقُ مُومِسٍ ، لِمَنْعِ آوَنَةٍ ، وَلِلْإِعْطَاءِ (٤)
طَوْرًا تَبَادَلَكِ الصَّفَاءُ وَتَارَةً تَلْقَاكَ تَنْكَرُهَا مِنَ الْبَغْضَاءِ
وَتَدَاوُلُ الْأَيَّامُ يُبْلِيْنَا كَمَا يُبْلِي الرِّشَاءُ نَطَاوُحُ الْأَرْجَاءِ (٥)
وَكَانَ طَوْلُ الْعُمُرِ رُوحَةً رَاكِبٍ قَضَى اللَّغُوبَ وَجَدَ فِي الْإِسْرَاءِ (٦)
لَهْفِي عَلَى الْقَوْمِ الْأَوَّلَى غَادَرْتَهُمْ وَعَلَيْهِمْ طَبَقٌ مِنَ الْبَيْدَاءِ (٧)

(١) مطروقة ، من قولهم : طرقت فلان بصره ؛ إذا أطبق أحد جفنيه على الآخر . ومطلولة ، من قولهم : طل دم فلان ، إذا ذهب هدراً .
(٢) واجد ، من الوجد ؛ وهو الحزن .
(٣) من مرثيته لوالدته فاطمة بنت الناصر ، وأولها :

أَبْكَيكِ لَوْ نَفَعَ الْغَلِيلُ بِكَائِي وَأَقُولُ لَوْ ذَهَبَ الْمَقَالُ بِدَائِي

ديوانه لوجه ١١٥ .

(٤) المومس : المرأة الفاجرة .

(٥) الرشاء : الخيل يستقى به من البئر ، والأرجاء : جمع رجا ؛ وهو ناحية البئر .

(٦) راحة ركب : راحته . واللغوب : الإعياء . والإسراء : سير الليل .

(٧) الطبق : وجه الأرض ؛ أو عطاء كل شيء .

متوسِّدين على الحدودِ كأنما كَرَّعُوا على ظَمًا من الصَّهْبَاءِ
 صُورٌ ضِدَّتْ على المَيُونِ بلحظها أَمْسَيْتُ أَوْقِرُهَا من البَوَغَاءِ^(١)
 ونواظِرُ كَجَلِّ التُّرابِ جفونها قد كُنْتُ أَحْرُسُهَا من الأَقْدَاءِ
 قَرُبْتُ ضَرَائِحُهُمْ عَلَى زُوَارِهَا وناوَا عن الطُّلَابِ أَى تَنَاءِ^(٢)
 ولبئس ما يلقى بُعْقَرِ ديارهم أذُنُ المَصِيخِ بِهَا وَعَيْنُ الرَّائِي^(٣)

(١) البوغاء : التربة الرخوة .

(٢) الضرائح : جم ضريح ؛ وهو القبر .

(٣) عقر ديارهم : وسطها .

(٢١٧)

الأضل:

ومن كلام له عليه السلام :

قاله عند تلاوته : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (١) :

إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَمَلُ اللَّهِ كَرَّ جِلَاءٍ لِلْقُلُوبِ تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْوَقْرَةِ، وَتُبْصِرُ بِهِ بَعْدَ الْعَشْوَةِ، وَتَنْقَادُ بِهِ بَعْدَ الْمَعَانِدَةِ . وَمَا بَرِحَ اللَّهُ - عَزَّتْ آلاؤُهُ، فِي الْبَرْهَةِ بَعْدَ الْبَرْهَةِ، وَفِي أَرْزَامِ الْفَرَاتِ - عِبَادٌ نَاجَاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ، وَكَلَمَتِهِمْ فِي ذَاتِ عَقُولِهِمْ، فَاسْتَضَبُّوا بِنُورِ يَقْظَةٍ فِي الْأَسْمَاعِ وَالْأَبْصَارِ وَالْأَفْئِدَةِ، يَذْكُرُونَ بِأَيَّامِ اللَّهِ، وَيُخَوِّفُونَ مَقَامَهُ، بِمَنْزِلَةِ الْأَدِلَّةِ فِي الْفَلَوَاتِ . مَنْ أَخَذَ الْقَصْدَ حَمِدُوا إِلَيْهِ طَرِيقَهُ، وَبَشَرُوهُ بِالنَّجَاةِ، وَمَنْ أَخَذَ يَمِينًا وَشِمَالًا ذَمُّوا إِلَيْهِ الطَّرِيقَ، وَحَذَّرُوهُ مِنَ الْهَلَسَكَةِ، وَكَانُوا كَذَلِكَ مَصَابِيحَ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ، وَأَدِلَّةَ تِلْكَ الشُّبُهَاتِ .

وَمِنْ لِلذِّكْرِ لِأَهْلًا أَخَذُوهُ مِنَ الدُّنْيَا بَدَلًا، فَلَمْ تَشْغَلْهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْهُ، يَقْطَعُونَ بِهِ أَيَّامَ الْحَيَاةِ، وَيَهْتَفُونَ بِالزَّوْاجِرِ عَنْ مَعَاصِرِ اللَّهِ، فِي أَسْمَاعِ الْغَافِلِينَ، وَيَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ وَيَأْتَمِرُونَ بِهِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَتَنَاهَوْنَ عَنْهُ، فَكَأَنَّهُمْ قَطَعُوا الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ وَهُمْ فِيهَا، فَشَاهَدُوا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ، فَكَأَنَّمَا

اطَّلَمُوا غُيُوبَ أَهْلِ الْبَرْزَخِ فِي طُولِ الْإِقَامَةِ فِيهِ ، وَحَقَّقَتِ الْقِيَامَةُ عَلَيْهِمْ عِدَاتِهَا ، فَكَشَفُوا غِطَاءَ ذَلِكَ لِأَهْلِ الدُّنْيَا ، حَتَّى كَانَتْهُمْ يَرَوْنَ مَا لَا يَرَى النَّاسُ ، وَيَسْمَعُونَ مَا لَا يَسْمَعُونَ .

فَلَوْ مَثَلْتَهُمْ إِمْلَاقَ فِي مَقَاوِمِهِمُ الْمُحْمُودَةِ ، وَتَجَالِسِهِمُ الْمَشْهُودَةِ ، وَقَدْ نَشَرُوا دَوَائِينَ أَعْمَالِهِمْ ، وَفَرَّغُوا إِحْسَاسِيَةً أَنْفُسِهِمْ عَلَى كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ ؛ أَمَرُوا بِهَا فَقَصَرُوا عَنْهَا ، أَوْ سَهِوا عَنْهَا فَقَرَّطُوا فِيهَا ؛ وَحَمَلُوا ثِقَلَ أَوْزَارِهِمْ ظُهُورَهُمْ ، فَضَمُّعُوا عَنْ الاستِقْلَالِ بِهَا ؛ فَلَنَشْجُوا نَشِيجًا ، وَتَجَاوَبُوا تَحِيبًا ، بِمَجْئُونَ إِلَى رَبِّهِمْ مِنْ مَقَامٍ نَدِيمٍ وَاعْتِرَافٍ - لَرَأَيْتَ أَعْلَامَ هُدًى ، وَمَصَابِيحَ دُجَى ، قَدْ حَفَّتْ بِهَيْمُ اللَّيْلِ كَكَّةُ ؛ وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ ، وَفُتِحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ، وَأُعِدَّتْ لَهُمْ مَقَاعِدُ الْكَرَامَاتِ ، فِي مَقْعَدٍ اِطَّلَعَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِيهِ ، فَرَضَى سَعِيَهُمْ ، وَحَمِدَ مَقَامَهُمْ .

يَتَذَسَّمُونَ بِدُعَائِهِ رَوْحَ النَّجَاوِزِ ، رَهَائِنُ فَاقَةٍ إِلَى فَضْلِهِ ، وَأَسَارَى ذَلَالَةٍ لِعَظَمَتِهِ ، جَرَحَ طُولُ الْأَمْسَى قُلُوبَهُمْ ، وَطُولُ الْبُكَاءِ عُيُوسَهُمْ .

لِكُلِّ بَابٍ رَغْبَةٍ إِلَى اللَّهِ مِنْهُمْ يَدٌ قَارِعَةٌ ، يَسْأَلُونَ مَنْ لَا تَضِيقُ لَدَيْهِ النَّادِحُ ، وَلَا يَخْجِبُ عَلَيْهِ الرَّاغِبُونَ .

فَحَاسِبُ نَفْسِكَ لِنَفْسِكَ ؛ فَإِنَّ غَيْرَهَا مِنْ الْأَنْفُسِ لَهَا حَسِيبٌ غَيْرُكَ .

الشرح :

من قرأ ﴿ يَسْبَحُ لَهُ فِيهَا ﴾ بفتح الباء ^(١) ارتفع « رجال » عدده بوجهين :

(١) هي قراءة ابن عامر وأبي بكر بن مجاهد؛ والباقون بكسرها؛ وانفارقا أيضا لإتحاف فضلاء البشر ٣٢

(١٢ - نهج - ١١)

أحدهما أن يُضَمَّرَ له فعل يكون هو فاعله ، تقديره « يسبحه رجال » ، ودلّ على « يسبحه » بسبّحه ، كما قال الشاعر :

إِيْبِكْ يَزِيدُ ضَارِعٌ لْخَصُومَةٍ وَنَحْتَبِطُ مِمَّا تُطِيحُ الطَّوْأَحُ^(١)
أى يبكيه ضارع ، ودلّ على « يبكيه » ا « يَبْكُ » .

والثانى أن يكونَ خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : « المسبّحون رجال » . ومن قرأ : « يسبّح له فيها » بكسر الباء ، فـ « رجال » فاعل ، وأوقع لفظ « التجارة » في مقابلة لفظ « البيع » إمّا لأنه أراد بالتجارة هاهنا الشراء خاصّة ، أو لأنه عم بالتجارة المشتملة على البيع والشراء ، ثم خصّ البيع ، لأنه أدخل في باب الإلهاء ، لأنّ البيع يحصل ربحه يمين ، وليس كذلك الشراء ، والذكر يكون تارة باللسان ، وتارة بالقلب ، فالذى باللسان نحو التسبيح والتكبير والتهليل والتحميد والدعاء ، والذى بالقلب ؛ فهو التعظيم والتبجيل والاعتراف والطاعة .

وجلوت السيف والقلب جلاء ، بالكسر ، وجلوت اليهود عن المدينة جلاء بالفتح .
والوَقْرَة : النفل في الأذن . والعَشْوَة ، بالفتح : فَعْلَة ، من العشا في العين .
وآلاؤه : نعمه .

فإن قلت : أى معنى تحت قوله : « عزّت آلاؤه » وعزّت بمعنى . « قَلَّت » ؟ وهل يجوز مثل ذلك في تعظيم الله ؟

قلت : عَزَّتْ هاهنا ليس بمعنى « قَلَّت » ولكن بمعنى : « كَرُمَتْ وعظمت » ، تقول منه : عَزَزْتُ عَلَى فلان بالفتح ، أى كَرُمْتُ عليه ، وعظمت عنده ، وفلان عزيز علينا ، أى كريم معظم .

(١) البيت من شواهد معنى اللبيب ٦٢٠ .

والبرهة من الدهر : المدة الطويلة ، ويجوز فتح الباء .

وأزمان الفترات : ما يكون منها بين التوبتين .

وناجاهم في فكرهم : ألهمهم ، بخلاف مناجاة الرسل يبعث الملائكة إليهم ، وكذلك « وكلمهم في ذات عقولهم » ، فاستصبحوا بنور يقظة : صار ذلك النور مصباحاً لهم يستضيئون به .

قوله : « مَنْ أَخَذَ الْقَصْدَ حَمِدُوا إِلَيْهِمْ طَرِيقَهُ » ، إلى هاهنا : هي التي في قولهم : أحمداً الله إليك ؛ أى مُنهيماً ذلك إليك ، أو مفضيماً به إليك ؛ ونحو ذلك ، وطريقة العرب في الحذف في مثل هذا معلومة ، قال سبحانه : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً ﴾ ^(١) ؛ أى لجعلنا بدلاً منكم ملائكة . وقال الشاعر :

فليس لنا من ماء زمزم شربة مبردة بانت على طهيان
أى عوضاً من ماء زمزم .

قوله : « وَمَنْ أَخَذَ يَمِينًا وَشِمَالًا » ، أى ضلّ عن الجادة .

و « إلى » في قوله : « ذموا إليه الطريق » مثل « إلى » الأولى .

ويهتفون بالزواجر : يصوتون بها ، هتفت الحمامة تهتف هتفاً ، وهتف زيد بالغنم هتفاً بالكسر ، وقوس هتافة وهتفى ، أى ذات صوت .

والقسط : العدل . ويأثمرون به : يمتثلون الأمر .

وقوله : « فَكُلُّكُمْ قَاطِعُوا الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ » ، إلى قوله : « وَيَسْمَعُونَ مَا لَا يَسْمَعُونَ » ؛

هو شرح قوله عن نفسه عليه السلام : « لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً » .

والأوزار : الذنوب . والنشيج : صوت البكاء . والمقعد : موضع القعود .

(١) سورة الزخرف ٦٠ .

ويدقارعة : تطرق باب الرحمة ، وهذا الكلام مجاز .

والنادح : الموضح الواسعة .

و « على » في قوله : « ولا يخيب عليه الراغبون » متعلقة بمحذوف مثل « إلى » المتقدم

ذكرها ، والتقدير « نادمين عليه » .

والحسيب : الحاسب .

واعلم أنَّ هذا الكلام في الظاهر صفة حال القصاص والمتصدّين لإنكار المبكرات،
الآتراء يقول: « يذكرون بأيام الله » ! أى بالأيام التي كانت فيها النعمة بالعصاة، ويخوفون
مقامه من قوله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جِئْتَانِ ﴾ ^(١) ثم قال: فمن سلك القصد
حميدوه، ومن عدل عن الطريق ذموا طريقه، وخوفوه الهلاك. ثم قال: يهتفون بالزواج
عن المحارم في أسمع الغافلين، ويأمرسون بالقسط وينهون عن المنكر.

وهذا كله إيضاح لما قلناه أولاً؛ أن ظاهر الكلام شرح حال القصاص وأرباب
المواعظ في الجامع والطرق، والمتصدّين لإنكار القبائح؛ وباطن الكلام شرح حال
العارفين، الذين هم صفوة الله تعالى من خلقه، وهو عليه السلام دائماً يكنى عنهم، ويرمز
إليهم، على أنه في هذا الموضع قد صرح بهم في قوله: « حتّى كأنهم يرون ما لا يرى الناس،
ويسمعون ما لا يسمعون » .

وقد ذكر من مقامات العارفين في هذا الفصل الذكر، ومحاسبة النفس، والبكاء
والنحيب، والتندم والتوبة، والدعاء والفاقة، والذلة، والحزن، وهو الأسى الذي ذكر أنه
جرح قلوبهم بطوله .

[بيان أحوال العارفين]

وقد كنّا وعدنا بذكر مقامات العارفين فيما تقدّم ، وهذا موضعه ، فنقول : إنَّ أول مقام من مقامات العارفين ، وأوّل منزل من منازل السالكين التوبة ، قال الله تعالى : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ^(١) .

وقال النبيّ صلّى الله عليه وآله : « التائب من الذّنْب كمن لا ذنب له » .

وقال عليّ عليه السلام : « مامن شيء أحبّ إلى الله من شاب تائب » .

والتوبة في عرف أرباب هذه الطريقة النّدَم على ما عمل من المخالفة ، وترك الزّلة في الحال والعزم على ألا يعود إلى ارتكاب معصية ، وليس النّدَم وحده عند هؤلاء توبة ، وإن جاء في الخبر : « الندم توبة » ، لأنّه على وزان قوله عليه السلام : « الحجّ عرفة » ؛ ليس على معنى أنّ غيرها ليس من الأركان ، بل المراد أنّه أكبر الأركان وأهمّها . ومنهم من قال : يكفي النّدَم وحده ، لأنّه يستتبع الرّكعتين الآخرين لاستحالة كونه نادماً على ما هو مصرّ على مثله ، أو ما هو عازم على الإتيان بمثله .

قالوا : وللتوبة شروط وترتيبات :

فأوّل ذلك انتباه القلب من رَقْدَةِ الغفلة ، ورؤية العبد ما هو عليه من سوء الحالة ، وإتّما يصل إلى هذه الجملة بالتوفيق للإصغاء إلى ما يحظر بباله من زواجر الحقّ سبحانه ؛ يسمع قلبه ، فإنّ في الخير الليبوى عنه صلى الله عليه وآله : « واعظ كلّ حالٍ الله في قلب كلّ امرئٍ مسلم » .

وفي الخبر : « إنّ في بدن المرء لمُضْغَةً إذا صلّحت صلّح جميع البدن ؛ ألا وهى القلب ،

وإذا فسدت فسد جميع البدن ، ألا وهى القلب » .

وإذا أفكر العبدُ بقلبه في سوء صنيعه ، وأبصر ما هو عليه من ذم الأفعال ، سَنَحَتْ في قلبه إرادة التوبة والإقلاع عن قبيح المعاملة ، فيمُدّه الحق سبحانه بتصحيح العزيمة ، والأخذ في طرق الرجوع والتأهب لأسباب التوبة .

وأول ذلك هجران إخوان السوء ؛ فإنهم الذين يحملونه على ردّ هذا القصد ، وعكس هذا العزم ، ويشوشون عليه صحة هذه الإرادة ، ولا يتمّ ذلك له إلا بالمواظبة على المشاهد والمجالس التي تزيد رغبة في التوبة ، وتوفّر دواعيه إلى إتمام ماعزم عليه ، ممّا يقوّى خوفه ورجاه ، فعند ذلك تنحلّ عن قلبه عُقْدَةُ الإصرار على ما هو عليه من قبيح الفعل ، فيقف عن تعاطي الخطورات ، ويكتبح نفسه بلجام الخوف عن متابعة الشهوات ، فيفارق الزلة في الحال ، ويلزم العزيمة على ألا يعود إلى مثلها في الاستقبال ، فإن مَضَى على موجب قصده ، ونفذ على مقتضى عزمه ، فهو الموفق حقاً ، وإن نقض التوبة مرةً أو مرات ، ثم حملته إرادته على تجديدّها ، فقد يكون مثل هذا كثيراً ، فلا ينبغي قطع الرجاء عن توبة أمثال هؤلاء ، فإن لكلّ أجل كتاباً . وقد حكى عن أبي سليمان الدارانيّ أنه ^(١) قال : اختلفتُ إلى مجلس قاصّ ، فأثر كلامه في قلبي ، فلما قمت لم يبق في قلبي شيء ، فعدت ثانياً ، فسمعت كلامه ، فبقى من كلامه في قلبي أثر في الطريق ثم زال ، ثم عدتُ ثالثاً فوَقَّر كلامه في قلبي ، وثبتّ حتى رجعتُ إلى منزلي ، وكسرت آلات الخالفة ، ولزمت الطريق .

وحكى هذه الحكاية ليحيى بن معاذ ، فقال : عصفور اصطاد كُرْكُياً - يعني بالعصفور القاصّ ، وبالسركيّ أبا سليمان .

ويحكى أنّ أبا حفص الحدّاد ذكر بدايته ، فقال : تركت ذلك العمل - يعني المعصية - كذا وكذا مرةً ، ثم عدت إليها ، ثم تركني العمل ، فلم أعدُ إليه .

(١) ساقط من : ب .

وقيل إن بعض المريدين تاب ، ثم وقعت له فترة ، وكان يفكر ويقول : أترى لو عدتُ إلى التوبة كيف كان يكون حكمي ! فتهتف به هاتف : يا فلان ، أطمعنا فشكرناك ، ثم تركتنا فأهملناك ، وإن عدتَ إلينا قبلناك ؛ فعاد الفتى إلى الإرادة .

وقال أبو علي الدقاق : التوبة على ثلاثة أقسام . فأولها التوبة ، وأوسطها الإنابة ، وآخرها الأوبة ، فجعل التوبة بداية ، والأوبة نهاية ، والإنابة واسطة بينهما . والمعنى أن مَنْ تاب خوفاً من العقاب فهو صاحب التوبة ، وَمَنْ تاب طمعا في الثواب فهو صاحب الإنابة ، وَمَنْ تاب مراعاة للأمر فقط ، فهو صاحب الأوبة .

وقال أبو علي أيضاً : التوبة صفة المؤمنين ، قال سبحانه : ﴿ وَتَوَبُّوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ . والإنابة صفة الأولياء ، قال سبحانه : ﴿ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ ^(٢) ، والأوبة صفة الأنبياء ، قال سبحانه : ﴿ نَعَمْ أَلْعَبِدُ إِنَّهُ أَوْابٌ ﴾ ^(٣) .

وقال الجنيد : دخلت على السري يوماً ، فوجدته متغيّراً ، فسألته فقال : دخل على شاب ، فسألني عن التوبة ، فقلت : ألا تنسى ذنبك ! فقال : بل التوبة ألا تذكر ذنبك . قال الجنيد : فقلت له : إن الأمر عندى ما قاله الشاب ، قال : كيف ؟ قلت : لأنى إذا كنتُ في حال الجفاء فنقلني إلى حال الصفاء ، فذكر الجفاء في حال الصفاء جفاء . فسكت السري .

وقال ذو النون المصري : الاستغفار من غير إقلاع توبة الكذابين .
وسئل البوشنجي عن التوبة ، فقال : إذا ذكرت الذنب ثم لا تجد حلاوته عند ذكره ، فذاك حقيقة التوبة .

(١) سورة النور ٣١ .

(٢) سورة ق ٣٣ .

(٣) سورة ص ٣٠ .

وقل ذو النون : حقيقة التوبة أن تضيق عليك الأرض بما رحبت ، حتى لا يكون لك قرار ، ثم تضيق عليك نفسك ؛ كما أخبر الله تعالى في كتابه بقوله : ﴿ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ (١) .

وقيل لأبي حفص الحداد : لم تُبْفِضُ الدُّنْيَا ؟ فقال : لأني باشرتُ فيها الذنوب ، قيل : فهل أحببتُها لأنك وفقت فيها للتوبة ؟ فقال : أنا من الذنوب ، كلّي يقين ، ومن هذه التوبة كلّي ظن .

وقال رجل لرابطة العديّة : إني قد أكرتُ من الذنوب والمعاصي ، فهل يتوبُ عليّ إن تبتُ ؟ قالت : لا بل لو تاب عليك لتبت .

قالوا : ولما كان الله تعالى يقول في كتابه العزيز : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ﴾ دلنا ذلك كلّي محبته لمن صحّت له حقيقة التوبة ، ولا شبهة أن مَنْ قارف الزلة فهو من خطئته كلّي يقين ، فإذا تاب فإنه من القبول على شك ، لاسيما إذا كان من شرط القبول محبة الحق سبحانه له ، وإلى أن يبلغ العاصي محلاً يمدّ في أوصافه أمارّة محبة الله تعالى إياه مسافة بعيدة ، فالواجب إذاً على العبد إذا علم أنه ارتكب ما يجب عنه التوبة دوام الانكسار ، وملازمة التّصل والاستغفار ، كما قيل : استشعار الوجل إلى الأجل .

وكان من سنّته عليه السلام دوام الاستغفار . وقال : « إِنَّهُ كَيْفَ أَنْ عَلَى قَلْبِي فَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً » (٢) .

(١) سورة التوبة ٢٥ .

(٢) أورده ابن الأثير في النهاية ٣ : ١٨٠ ، وقال : الغين : الغيم ، وغيت السماء فغان : إذا أطبق عليها الغيم ، وقيل : الغين : شجر ملتف ؛ أراد ما يغشاه من السهو الذي لا يخلو منه البشر ؛ لأن قلبه أبداً كان مشغولاً بالله تعالى ؛ فإن عرض له وقتاً ما عارض بشمري يشغله من أمور الأمة والملة ومصالحها عد ذلك ذنباً وتقصيراً فيفزع إلى الاستغفار .

وقال يحيى بن معاذ : زلة واحدة بعد التوبة أقبح من سبعين قبلها .
ويحكى أن عليّ بن عيسى الوزير ركب في موكب عظيم ، فجعل الغرباء يقولون : مَنْ
هذا ؟ مَنْ هذا ؟ فمالت امرأة قائمة على السطح : إلى متى تقولون : من هذا ، من هذا !
هذا عبد سقط من عين الله ، فابتلاه بما ترون . فسمع عليّ بن عيسى كلامها ، فرجع إلى
منزله ولم يزل يتوصل في الاستغناء من الوزارة حتى أُعفي ، وذهب إلى مكة
فجاور بها .

ومنها المجاهدة ، وقد قلنا فيها ما يكفي فيما تقدّم .

ومنها العزلة والخلوة ، وقد ذكرنا في جزء قبل هذا الجزء مما جاء في ذلك
طرفاً صالحاً .

ومنها التقوى ، وهي الخوف من معصية الله ، ومن مظالم العباد ، قال سبحانه : ﴿ إِنَّ
أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ ^(١) ، وقيل : إنّ رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه
وآله ، فقال : يا رسول الله أوصني ، فقال : « عليك بتقوى الله ، فإنه جماع كل خير ، وعليك
بالجهاد ، فإنه رهبانية المسلم ، وعليك بذكر الله ، فإنه نور لك » .
وقيل في تفسير قوله تعالى : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ﴾ ^(٢) : أن يُطاع فلا يعصى ،
ويُذكر فلا يُنسى ، ويُشكر فلا يكفر .

(١) سورة الحجرات ١٣ .

(٢) سورة آل عمران ١٠٢ .

وقال النَّصْرَ ابْأَذَى : من لَزِمَ التَّقْوَى بَادَرَ إِلَى مَفَارِقَةِ الدُّنْيَا ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ ﴾ ^(١) .

وقيل : يَسْتَدِلُّ عَلَى تَقْوَى الرَّجُلِ بِثَلَاثٍ : التَّوَكُّلُ فِيمَا لَمْ يَنْزِلْ ، وَالرِّضَا ^(٢) بِمَا قَدْ نَالَ ، وَحَسَنُ الصَّبْرِ عَلَى مَافَاتٍ .

وكان يقال : مَنْ كَانَ رَأْسُ مَالِهِ التَّقْوَى كَلَّتِ الْأَلْسُنُ عَنْ وَصْفِ رِجْلِهِ .
وقد حكوا من حكايات الْمُتَّقِينَ شَيْئاً كَثِيراً ، مِثْلُ مَا يَحْكِي عَنْ ابْنِ سِيرِينَ ، أَنَّهُ اشْتَرَى أَرْبَعِينَ حُبًّا ^(٣) سَمْنًا ، فَأَخْرَجَ غَلَامَهُ فَأَرَاهُ مِنْ حُبٍّ ؛ فَسَأَلَهُ : مَنْ أَى حَبٍّ أَخْرَجَهَا ؟ قَالَ : لَا أَدْرَى ، فَصَبَّهَا كُلَّهَا .

وحكى أَنَّ أَبَا يَزِيدَ الْبِسْطَامِيَّ غَسَلَ ثَوْبَهُ فِي الصَّحَرَاءِ وَمَعَهُ مَصَاحِبُ لَهُ ، فَقَالَ صَاحِبُهُ : نَضْرِبُ هَذَا الْوَتِدَ فِي جِدَارِ هَذَا الْبُسْتَانِ ، وَنَبْسُطُ الثَّوبَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : لَا يَجُوزُ ضَرْبُ الْوَتِدِ فِي جِدَارِ النَّاسِ قَالَ : فَنَعْلِقُهُ عَلَى شَجَرَةٍ حَتَّى يَجِفَّ ، قَالَ : يَكْسِرُ الْأَغْصَانُ ، فَقَالَ : نَبْسُطُهُ عَلَى الْإِذْخَرِ ^(٤) قَالَ : إِنَّهُ عَلَفَ الدَّوَابَّ لَا يَجُوزُ أَنْ نَسْتَرَهُ مِنْهَا . فَوَلَّى ظَهْرَهُ قَبْلَ الشَّمْسِ ، وَجَعَلَ الْقَمِيصَ عَلَى ظَهْرِهِ حَتَّى جَفَّ أَحَدُ جَانِبَيْهِ ، ثُمَّ قَلَبَهُ حَتَّى جَفَّ الْجَانِبُ الْآخَرُ .

ومنها الْوَرَعُ ، وَهُوَ اجْتِنَابُ الشُّبُهَاتِ ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِأَبِي هُرَيْرَةَ : « كُنْ وَرِعًا تَسْكُنَ أَعْيُنُ النَّاسِ » .

وقال أَبُو بَكْرٍ : كُنَّا نَدْعُ سَبْعِينَ بَاباً مِنَ الْحَلَالِ خِيفَةَ أَنْ نَقَعَ فِي بَابٍ وَاحِدٍ مِنَ الْحَرَامِ .

(١) سورة الْأَنْعَامِ ٣٠٢ .

(٢) ب : « الشُّكْر » ، وَمَا أَثْبَتَهُ مِنْ : أ .

(٣) الْحَبُّ هُنَا : الْحَبْرَةُ .

(٤) الْإِذْخَرُ : الْحَشِيشُ الْأَخْضَرُ .

وكان يقال : الورع في المنطق أشدّ منه في الذهب والفضة، والزهد في الرياسة أشدّ منه في الذهب والفضة، لأنك تبذلها في طلب الرياسة .
وقال أبو عبد الله الجلاء : أعرف من أقام بمكة ثلاثين سنة لم يشرب من ماء زمزم إلا ما استقاه برّ كوتبه ورشائه .

وقال بشر بن الحارث : أشدّ الأعمال ثلاثة : الجود في القلة ، والورع في الخلوة ، وكلمة الحق عند من يخاف ويرجى .

ويقال : إنّ أخت بشر بن الحارث ^(١) جاءت إلى أحمد بن حنبل ، فقالت : إنّنا نغزل على سطوحنا فتمرّ بنا مشاعل الطاهرية ، فيقع شعاعها علينا ، أفيجوز لنا الغزل في ضوءها ؟ فقال أحمد : من أنت يا أمة الله ؟ قالت : أخت بشر الحافي ، فبكى أحمد ، وقال : من بيتكم خرج الورع ، لا تغزلي في ضوء مشاعلهم .

وحكى بعضهم ، قال : مررت بالبصرة في بعض الشوارع؛ فإذا بمشايخ قعود وصبيان يلعبون، فقلت : أمانستحيون من هؤلاء المشايخ ؟ فقال غلام من بينهم : هؤلاء المشايخ قلّ ورعهم ، فقلت هيبتهم .

ويقال : إنّ مالك بن دينار مكث بالبصرة أربعين سنة ، ماصحّ له أن يأكل من تمر البصرة ولا من رطبها حتى مات ولم يذقه. وكان إذا انقضى أوان الرطب يقول: يا أهل البصرة ، هذا بطنى ما نقص منه شيء ، سواء علىّ أكلت من رطبكم أو لم آكل !

وقال الحسن : مثقال ذرة من الورع خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة .
ودخل الحسن مكة ، فرأى غلاما من ولد عليّ بن أبي طالب ، قد أسند ظهره إلى

(١) هو بشر بن الحارث بن عبد الرحمن أبو نصر الحافي تاريخ بغداد ٧ : ٦٧ .

الكعبة . وهو يعظ الناس ، فقال له الحسن : ما مِلاك الدين ؟ قال : الورع ، قال : فما آفته ؟ قال : الطامع ، فجعل الحسن يتعجب منه .

وقال سهل بن عبد الله : مَنْ لم يصحبه الورع ، أكل رأس الفيل ولم يشبع .
وجعل إلى عمر بن عبد العزيز مِسْكٌ من الغنائم ، فقبض على مشمه ، وقال : إنما ينتفع من هذا بريحه ، وأنا أنا أكره أن أجد ريحه دون المسلمين .

وسئل أبو عثمان الحريري عن الورع فقال : كان أبو صالح بن حمدون عند صديق له وهو في النزاع ، فأت الرجل ، فنفت أبو صالح في السراج فأطفأه ، فقيل له في ذلك ، فقال : إلى الآن كان الدهن الذي في المِسرجة له ، فلما مات صار إلى الورثة .

ومنها الزهد ، وقد تكلموا في حقيقةه ، فقال سفيان الثوري : الزهد في الدنيا قصر الأمل .
وقال الخواص : الزهد أن تترك الدنيا فلا تبالي مَنْ أخذها .

وقال أبو سليمان الداراني : الزهد ترك كل ما يشغل عن الله .
وقيل : الزهد تحت كلمتين من القرآن العزيز : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾^(١) .

وكان يقال : مَنْ صدق في زهده أتته الدنيا وهي راغمة ، ولهذا قيل : لو سقطت قلنسوة من السماء لما وقعت إلا على رأس من لا يريد .

وقال يحيى بن معاذ : الزهد يُسْعِطُك^(٢) الخلل والخردل ، والعرفان يُشِمُّكَ المسك والعنبر .

(١) سورة الحديد ٢٣ .

(٢) سعطه الدواء وغيره : أدخله في أنفه .

وقيل لبعضهم : ما الزهد في الدنيا ؟ قال : ترك ما فيها على مَنْ فيها .
وقال رجل لذي النون المصري : متى تراني أزهد في الدنيا ؟ قال : إذا زهدت
في نفسك .

وقال رجل ليحيى بن معاذ : متى تراني أدخلُ حانوت التوكّل ، وألبس رداء الزهد ،
وأفعد بين الزاهدين ؟ فقال : إذا صرتَ من رياضتك لنفسك في السرِّ إلى حدِّ لو قطعَ
اللهُ عنك القوت ثلاثة أيام لم تضعف في نفسك ولا في يقينك ، فأما ما لم تبلغ إلى هذه
الدرجة فعودك على بساط الزاهدين جهل ؛ ثم لا آمن أن تفتضح .

وقال أحمد بن حنبل : الزهد على ثلاثة أوجه : ترك الحرام ، وهو زهد العوام ، وترك
الفضول من الحلال ، وهو زهد الخواص ، وترك كل ما يشغلك عن الله ، وهو زهد العارفين .
وقال يحيى بن معاذ : الدنيا كالعرُوس ، فطالبها كما شطّتها تحسّن وجهها وتعطر ثوبها ،
والزاهد فيها كضرتها تسخّم وجهها ، وتنتف شعرها ، وتحرق ثوبها . والعارف مشتغل بالله ،
لا يلتفت إليها ، ولا يشعر بها .

وكان النصراباذي يقول في مناجاته : يا من حقن دماء الزاهدين ، وسفك
دماء العارفين !

وكان يقال : إن الله تعالى جعل الخير كله في بيت ، وجعل مفتاحه الزهد ، وجعل
الشر كله في بيت ، وجعل مفتاحه حب الدنيا .

ومنها الصمت ، وقدّمنا فيما سبق من الأجزاء نكتنا نافعة في هذا المعنى ، ونذكر
الآن شيئاً آخر .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذِن
جاره ، وَمَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، وَمَنْ كان يؤمن بالله واليوم
الآخر فليقل خيراً أو فليصمت » .

وقال أصحاب هذا العلم : الصمت من آداب الحضرة ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ ^(١) .

وقال مخبرا عن الجن : ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا ﴾ ^(٢) .

وقال الله تعالى مخبرا عن يوم القيامة : ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ ^(٣) .

وقالوا : كم بين عبد سكت تصوتا عن الكذب والغيبة ، وعبد سكت لاستيلاء سلطان

الهيبة !

وأنشدوا :

أرتب ما أقول إذا افترقنا وأحكم دائما حجب المقال
فأنساها إذا نحن التقينا وأنطق حين أنطق بالحال

وأنشدوا :

فياليل كم من حاجة لي مهتمة إذا جئتكم لم أدر بالليل ماها !
قالوا : وربما كان سبب الصمت والسكوت حيرة البديهة ؛ فإنه إذا ورد كشف بفتنة ،
خرست العبارات عند ذلك ، فلا بيان ولا نطق ، وطمست الشواهد فلا علم ولا حس ،
قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَ أُحِيتُمْ ﴾ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ
أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ^(٤) ، فأما إنبار أرباب المجاهدة الصمت فلما علموا في الكلام
من الآفات ، ثم ما فيه من حط النفس وإظهار صفات المدح ، والليل إلى أن يتميز من بين
أشكاله بحسن النطق ، وغير ذلك من ضروب آفات الكلام . وهذا نعمت أرباب

(١) سورة الأعراف ٢٠٤ .

(٢) سورة الأحقاف ٢٩ .

(٣) سورة طه ١٠٨ .

(٤) سورة المائدة ١٠٩ :

الرياضة ، وهو أحد أركانهم في حكم مجاهدة النفس ومنازلاتها وتهذيب الأخلاق .
ويقول : إن داود الطائي لما أراد أن يقعد في بيته ، اعتقد أن يحضر مجلس أبي حنيفة ،
لأنه كان تلميذا له ويقعد بين أضرابه من العلماء ، ولا يتكلم في مسألة على سبيل رياضته
نفسه ، فلما قويت نفسه على ممارسة هذه الخصلة سنة كاملة ، قعد في بيته عند ذلك ،
وآثر العزلة .

ويقال : إن عمر بن عبد العزيز كان إذا كتب كتابا فاستحسن لفظه ، مزق
الكتاب وغيره .

وقال بشر بن الحارث : إذا أعجبك الكلام فاصمت ، فإذا أعجبك الصمت فتكلم .
وقال سهل بن عبد الله : لا يصح لأحد الصمت حتى يلزم نفسه الخلوة ، ولا يصح
لأحد التوبة حتى يلزم نفسه الصمت .

ومنها الخوف ، قال الله تعالى : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾^(١) .
وقال تعالى : ﴿ وَإِبَّاءَ فَارَهُبُونَ ﴾^(٢) .
ويقال : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾^(٣) .
وقال أبو علي الدقائي : الخوف على مراتب : خوف ، وخشية ، وهيبة .
فالخوف من شروط الإيمان وقضاياه ، قال الله تعالى : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِنْ
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾^(٤) .
والخشية من شروط العلم ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾^(٥) .

(١) سورة السجدة ١٦ .

(٢) سورة البقرة ٤٠ .

(٣) سورة النحل ٥٠ .

(٤) سورة آل عمران ١٧٥ .

(٥) سورة فاطر ٢٨ .

والهيبية من شروط المعرفة ، قال سبحانه : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ ^(١) .
وقال أبو عمر الدمشقي : الخائف مَنْ يخاف من نفسه أكثر مما يخاف
من الشيطان .

وقال بعضهم : مَنْ خاف من شيء هرب منه ، وَمَنْ خاف الله هَرَبَ إِلَيْهِ .
وقال أبو سليمان الداراني : ما فارق الخوف قلباً إلا خرب .

ومنها الرجاء ، وقد قدّمنا فيما قبل من ذكر الخوف والرجاء طرفاً صالحاً؛ قال سبحانه :
﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَآئِهِ ﴾ ^(٢) .

والفرق بين الرجاء والتمنى ، وكون أحدهما محموداً والآخر مذموماً ؛ أن التمني
ألا يسلك طريق الاجتهاد والجدّة ، والرجاء بخلاف ذلك ، فلهذا كان التمني يورث
صاحبه الكسل .

وقال أبو علي الرؤؤذاري : الرجاء والخوف كجناسي الطائر ، إذا استويا
استوى الطائر وتمّ طيرانه ، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص ، وإذا ذهب صار الطائر
في حدّ الموت .

وقال أبو عثمان اللبرقي : من حَلَّ نفسه على الرجاء تعطل ، وَمَنْ حَلَّ نفسه على الخوف
قَنَطَ ، ولكن مِنْ هَذَا مَرَّةً وَمِنْ هَذَا مَرَّةً .

ومن كلام يحيى بن معاذ - ويروى عن علي بن الحسين عليهما السلام : يكاد رجائي
لك مع الذنوب ، يغلب رجائي لك مع الأعمال ؛ لأنني أجدني أعتمد في الأعمال على

(١) سورة آل عمران ٢٨ .

(٢) سورة الفتنكوت ٥ .

الإخلاص ، وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف ، وأجدنى فى الذنوب أعتمد على عفوك !
وكيف لاتغفرها وأنت بالجود موصوف .

ومنها الحزن ، وهو من أوصاف أهل السلوك .
وقال أبو على الدقاق : صاحب الحزن يقطع من طريق الله فى شهر ما لا يقطعه من فقد الحزن
فى سنتين .

وفى الخبر النبوى صلى الله عليه وآله : « إن الله يحب كل قلب حزين » .
وفى بعض كتب النبوات القديمة : « إذا أحب الله عبداً نصب فى قلبه نائحة ، وإذا
أبغض عبداً جعل فى قلبه مزمراً » .

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان متواصلاً الأحزان ، دائم الفسك .
وقيل : إن القلب إذا لم يكن فيه حزن خرب ؛ كأن الدار إذا لم يكن فيها ساكن خربت .
وسمعت رابعة رجلاً يقول : وأحزناه ! فقالت : قل ! واقلة حزنناه ! لو كنت محزوناً
ماتت لك أن تنفّس !

وقال سفيان بن عيينة : لو أن محزوناً بكى فى أمة ، لرحم الله تلك الأمة ببكائه .
وكان بعض هؤلاء القوم إذا سافر واحد من أصحابه يقول : إذا رأيت محزوناً فاقروه
عنى السلام .

وكان الحسن البصرى لا يراه أحد إلا ظن أنه حديث عهد بمصيبة .
وقال وكيع يوم مات الفضيل : ذهب الحزن اليوم من الأرض .
وقال بعض السلف : أكثر ما يجد^(١) المؤمن فى صحيفته من الحسنات الحزن والهم .

(١) ب : « يوجد » ، وما أثبتته من ا .

وقال الفضيل : أدركت السلف يقولون : إنَّ الله في كلِّ شيء زكاةٌ ، وزكاة العقل طول الحزن .

ومنها الجوعُ وترك الشهوات ، وقد تقدّم ذكر ذلك .

ومنها الخشوع والتواضع ، قال سبحانه : ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ ^(١) .
وفى الخبر النبويّ عنه صلّى الله عليه وآله : « لا يدخل الجنة مَنْ في قلبه مثقال ذرّة من كبر ، ولا يدخل النار مَنْ في قلبه مثقال ذرّة من إيمان » ، فقال رجل : يا رسول الله ، إنَّ المرءَ ليجب أن يكون ثوبه حسناً ، فقال : « إنَّ الله جميل يحبُّ الجمال ؛ إنّما للتكبر مَنْ بطن الحقّ ، وغمص الناس » .

وروى أنس بن مالك ، أن رسول الله صلّى الله عليه وآله كان يعود المريض ، ويشيع الجفائر ، ويركب الحمار ، ويحيب دعوة العبد .

وكان يوم قرّبطه والنضير على حمار مخطوم بحبل من ليف ، عليه إكاف من ليف .
ودخل مكة يوم فتحها راكب بعير ، برّخل خلّق ، وإنّ ذقنه لتمسّ وسط الرّخل خضوعاً لله تعالى وخشوعاً ، وجيشه يومئذ عشرة آلاف .

قالوا في حدّ الخشوع : هو الاتقياء للحقّ . وفي التواضع : هو الاستسلام وترك الاعتراض على الحكم .

وقال بعضهم : الخشوع قيام القلب بين يدي الحقّ بهمّ مجموع .

وقال حذيفة بن اليمان : أوّل ما تنفقدون من دينكم الخشوع .

وكان يقال: من علامات الخشوع أن العبد إذا أغضب أو خولف أو رد عليه استقبل ذلك بالقبول .

وقال محمد بن علي الترمذي: الخاشع من خدت نيران شهوته ، وسكن دخان صدره ، وأشرق نور التعظيم في قلبه . فماتت حواسه وحي قلبه ، ونظامت جوارحه . وقال الحسن: الخشوع هو الخوف الدائم اللازم للقلب .

وقال الجنيد: الخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب ، قال الله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ ، أى خاشعون متواضعون .

ورأى بعضهم رجلاً منقبض الظاهر ، منكسر الشاهد ، قد زوى منكبيه ، فقال: يا فلان ، الخشوع ها هنا - وأشار إلى صدره ، لا ها هنا - وأشار إلى منكبيه . ورؤي أن رسول الله صلى الله عليه وآله رأى رجلاً يعبث بلحيته في صلاته ، فقال: « لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه » .

وقيل: شرط الخشوع في الصلاة ألا يعرف من على يمينه ، ولا من على شماله . وقال بمض الصوفية: الخشوع قشعريرة ترد على القلب بفتة عند مفاجأة كشف الحقيقة .

وكان يقال: من لم يتضع عند نفسه لم يرتفع عند غيره . وقيل: إن عمر بن عبد العزيز لم يكن يسجد إلا على التراب . وكان عمر بن الخطاب يسرع في المشي ، ويقول: هو أنجح للحاجة ، وأبعد من الزهو .

كان رجاء بن حيوة ليلة عند عمر بن عبد العزيز وهو خليفة ، فضضع المصباح ، فقام رجل ليصلحه ، فقال: اجلس ، فليس من الكرم أن يستخدم المرء ضيفه ، فقال:

أنه^(١) الغلام ، قال : إنها أول نومة نامها ، ثم قام بنفسه فأصاح السراج فقال رجاء :
أتقوم إلى السراج وأنت أمير المؤمنين ؟ قال : قمت وأنا عمر بن عبد العزيز ، ورجعت وأنا عمر
ابن عبد العزيز .

وفي حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يعلف البعير
ويقيم البيت ، ويخسف النعل ويرقع الثوب ، ويحلب الشاة ، ويأكل مع الخدام .
ويطحن معها إذا أعيت . وكان لا يمنعه الحياء أن يحمل بضاعته من السوق إلى منزل أهله ،
وكان يصافح الغني والفقير ، ويسلم مبتدئاً ، ولا يحقر ما دُعِيَ إليه ولو إلى حشف التمر .
وكان هين الموتة ، أين الخلق ، كريم السجية ، جميل المعاشرة ، طلق الوجه ، بساماً من
غير ضحك ، محزوناً من غير عبوس ، متواضعاً من غير ذلة ، جواداً من غير سرف ، رقيق
القلب ، رحماً لكل مسلم ، ما تجشأ قط من شيع ، ولا مدّ يده إلى طبع .

وقال الفضيل : أوحى الله إلى الجبال أني مكلم على واحد منكم نبيا ، فتطاوت
الجبال ، وتواضع طور سيناء ، فكلم الله عليه موسى لتواضعه .

سئل الجنيد عن التواضع ، فقال : خفض الجناح ، ولين الجانب .
ابن المبارك : التكبر على الأغنياء والتواضع للفقراء من التواضع .
وقيل لأبي يزيد : متى يكون الرجل متواضعاً ؟ قال : إذا لم ير لنفسه مقاماً ولا حالاً ،
ولا يرى أن في الخلق من هو شر منه .

وكان يقال : التواضع نعمة لا يحسد عليها ، والتكبر محنة لا يرحم منها ، والعز في
التواضع ، فمن طلبه في التكبر لم يجده .

وكان يقال : الشرف في التواضع ، والعز في التقوى ، والحرية في القناعة .
يحيى بن معاذ : التواضع حسن في كل أحد ؛ لكنه في الأغنياء أحسن ، والتكبر
ميمح في كل أحد ، ولكنه في الفقراء أسمج .

وركب زيد بن ثابت ، فدنا ابن عباس ليأخذ بركابه ، فقال : مه يا بن عم رسول الله ! فقال : إنا كذا أمرنا أن نفعل بعلماذا ، فقال زيد : أرني يدك ، فأخرجها فقبلها ، فقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا .

وقال عروة بن الزبير : رأيتُ عمر بن الخطاب عليه رضوان الله تعالى وعلى عاتقه قرينة ماء ، فقلت : يا أمير المؤمنين ! إنه لا ينبغي لمثلك هذا ! فقال : إني لما أتيت الوفود سامعةً مهاديةً ، دخلتُ نفسي نخوةً ، فأحببتُ أن أكسرها . ومعنى القرينة إلى حجرة امرأة من الأنصار ، فأفرغها في إنائها .

أبو سليمان الداراني : من رأى لنفسه قيمة ، لم يذق حلاوة الخدمة .

يحيى بن مُعاذ : التكبر على من تكبر عليك تواضع .

بشر الحافي : سلموا على أبناء الدنيا بترك السلام عليهم .

بلغ عمر بن عبد العزيز أن ابناً له اشترى خاتماً بألف درهم ، فكتب إليه : بلغني أنك اشتريت خاتماً وفصه بألف درهم ، فإذا أتاك كتابي فيبيع الخاتم ، وأشيع به ألف بطن ، واتخذ خاتماً من درهمين ، واجعل فصه حديدًا صينيًا ، واكتب عليه : « رحم الله امرأ عَرَفَ قدره » .

قَوِّمْتَ ثياب عمر بن عبد العزيز وهو يخطب أيام خلافته باثني عشر درهماً ، وهي : قباء ، وعمامة ، وقميص ، وسراويل ، ورداء ، وخُفَّان ، وقلنسوة .

وقال إبراهيم بن أدهم : ماسرت قطّ سروري في أيام ثلاثة : كفت في سفينة ، وفيها رجل مضحك ، كان يلعب لأهل^(١) السفينة ، فيقول : كنّا نأخذ العليج من بلاد الترك هكذا ، ويأخذ بشعر رأسي فيهرّني ، فسرّني ذلك ، لأنه لم يكن في تلك السفينة أحقر منّي في عينه . وكنت عليلاً في مسجد ، فدخل المؤذن وقال : اخرج ، فلم أطق ، فأخذ

(١) في الأصول : « أهل » .

برجلى وجرتنى إلى خارج المسجد . وكنت بالشام وعلى فرّو، ففطرت إليه فلم أميز بين الشعر وبين القمل لكثرة .

عُرِضَ على بعض الأمراء مملوكٌ بألوف من الدراهم ، فاستكثر الثمن ؛ فقال العبد : اشترينى يا مولائى ، ففى خصلة تساوى أكثر من هذا الثمن . قال : ماهى ؟ قال : لو قد متنى على جميع ممالكك وخولتني بكلّ مالك لم أغلظ فى نفسى ، بل أعلم أنّي عبدك . فاشتراه .

تشاجر أبو ذرّ وبلال ، فمير أبو ذرّ بلالا بالسّواد ، فشكاه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : يا أبا ذرّ ، ما علمتُ أنه قد بقيّ فى قلبك شيء من كبر الجاهليّة . فالتى أبو ذرّ نفسه ، وحلف ألاّ يحمل رأسه حتى يطأ بلال خدّه بقدمه ؛ فما رفع رأسه حتى فعل بلال ذلك .

مرّ الحسن بن علىّ عليهما السلام بصبيان يلعبون ، وبين أيديهم كسر خبز يأكلونها ، فدعوه فنزل وأكل معهم ، ثم حملهم إلى منزله ، فأطعمهم وكساهم ، وقال : الفضل لهم ، لأنهم لم يجدوا غير ما أطعمونى ، ونحن نجد أكثر مما أطعمناهم .

ومنها مخالفة النفس ، وذكر عيوبها ، وقد تقدم ذكر ذلك .

ومنها القناعة ، قال الله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنشَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ ﴾ ^(١) ، قال كثير من المفسرين : هى القناعة .
وفى الحديث النبوى - ويقال إنّه من كلام أمير المؤمنين عليه السلام : « القناعة كنز لا يفقد » .

(١) سورة النحل ٥٧ .

وفي الحديث النبوي أيضا : « كن ورعاً تكن أعبدة الناس ، وكن قنوعاً تكن أشكر الناس ، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً ، وأحسن مجاورة من جارك تسكن مسلماً ، وأقل الضحك ، فإن كثرة الضحك تميت القلب » .
 وكان يقال : الفقراء أمواتٌ إلا من أحياء الله تعالى بعز القناعة .
 وقال أبو سليمان الداراني : القناعة من الرضا بمنزلة الورع من الزهد ، هذا أول الرضا . وهذا أول الزهد .

وقيل : القناعة سكون النفس وعدم انزعاجها عند عدم المألوفات .
 وقيل في تفسير قوله تعالى : ﴿ كَثُرَتْ لَهُمْ رِزْقًا حَسَنًا ﴾^(١) : إنه القناعة .
 وقال أبو بكر المرازقي : العاقل من دبر أمر الدنيا بالقناعة والتسوية ؛ وانسكروا أبو عبد الله بن خفيف ، فقال : القناعة ترك التسوية بالمفقود ، والاستغناء بالموجود .
 وكان يقال : خرج العز والغنى بحولان ، فلقيا القناعة ، فاستقرّا .
 وكان يقال : من كانت قناعته سمينة طابت له كل مرقة .
 مرة أبو حازم الأعرج بقصّاب ، فقال له : خذ يا أبا حازم ، فقال : ليس معي درهم ، قال : أنا أنظرك ، قال : نفسي أحسن نظرة لي منك .
 وقيل : وضع الله تعالى خمسة أشياء في خمسة مواضع : العز في الطاعة ، والذل في للمصيبة ، والهيبة في قيام الليل ، والحسكة في البطن الخالي ، والغنى في القناعة .
 وكان يقال : انتقم من فلان بالقناعة ، كما تلّقيم من قاتلك بالقصاص .
 ذو النون المصري : من قنع استراح من أهل زمانه ، واستطال على أقرانه .
 وأنشدوا :

وَأَحْسَنُ بِالْفَقْرِ مِنْ يَوْمٍ عَارٍ يُنَالُ بِهِ الْغِنَى ، كَرَمٌ وَجُوعٌ

ورأى رجل حكيمًا يأكل ما تساقط من البقل على رأس الماء ، فقال له : لو خدمت السلطان لم تحتج إلى أكل هذا ! فقال : وأنت لو قنعت بهذا لم تحتج إلى خدمة السلطان .

وقيل : العُقاب عزيزٌ في مطاره ، لا تسمو إليه مطامع الصيادين ، فإذا طمع في جيفةٍ علقت على حباله ، نزل من مطاره فنشب في الأحبولة .
وقيل : لما نطق موسى بذكر الطمع ، فقال : ﴿ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ ^(١) ، قال له الخضر : ﴿ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ ^(٢)
وفسر بعضهم قوله : ﴿ هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْزِعَنِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾ ^(٣) ، فقال : مقامًا في القناعة لا يبلغه أحد .

ومنها التوكل ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ ^(٤) .
وقال سهل بن عبد الله : أولُ مقامٍ في التوكل أن يكون العبد بين يدي الله تعالى ، كلميت بين يدي الغاسل ، بقلبه كيف يشاء ، لا يكون له حركة ، ولا تدبير .

وقال رجل لحاتم الأصم : من أين تأكل ؟ فقال : ﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَسَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ ^(٥) .

وقال أصحاب هذا الشأن : التوكل بالقلب ، وليس ينافيه الحركة بالجسد ، بعد أن يتحقق العبد أن التقدير من الله ، فإن أعسر شيء فبتقديره ، وإن تسهل فبتيسيره .

(١) سورة الكهف ٧٧ ، ٧٨ .

(٢) سورة ص ٣٥ .

(٣) سورة الطلاق ٣ .

(٤) سورة المنافقون ٧ .

وفى الخبر النبوى أنه عليه السلام قال للأعرابى الذى ترك ناقته مهملة فندت ، فلما قيل له ، قال : توكلت فتركتها ، فقال عليه السلام : « اعقلن وتوكلن » .

وقال ذو النون : التوكل الانخلاع من الحول والقوة ، وترك تدبير الأسباب .

وقال بعضهم : التوكل ردّ العيش إلى يوم واحد بإسقاط هم غد .

وقال أبو على الدقاق : التوكل ثلاث درجات : التوكل وهو أدناها ، ثم التسليم ، ثم التفويض ؛ فالأولى للعوام ، والثانية للخواص ، والثالثة لخواص الخواص .

جاء رجل إلى الشَّيْبَانِي يشكو إليه كثرة العيال ، فقال : ارجع إلى بيتك ، فمن وجدت منهم ليس رزقه على الله فأخرجه من البيت .

وقال سهل بن عبدالله : مَنْ طَمَنَ فى التوكل فقد طَمَنَ فى الإيمان ، وَمَنْ طَمَنَ فى الحركة ، فقد طَمَنَ فى السنة .

وكان يقال : المتوكل كالطفل لا يعرف شيئا يأوى إليه إلا ندى أمه ، كذلك المتوكل لا يهتدى إلا إلى ربه .

ورأى أبو سليمان الدارانيّ رجلاً بمكة لا يتناول شيئاً إلا شربة من ماء زمزم ، فمضت عليه أيام ، فقال له يوماً : أرايت لو غارت - أى زمزم - أى شىء كنت تشرب . أقام وقبّل رأسه ، وقال : جزاك الله خيراً حيث أرشدتني ؛ فإني كنت أعبد زمزم منذ أيام . ثم تركه ومضى .

وقيل : التوكل نفي الشُّكوك ، والتفويض إلى مالك الملوكة .

ودخل جماعة على أَلْجَنِيْد ، فقالوا : نطلب الرزق ! قال : إن علمتم فى أى موضع هو فاطلبوه ، قالوا : فنسأل الله ذلك ، قال : إن علمتم أنه ينساكم فذكّروه ، قالوا : اندخل البيت ففتوكل ، قال : الفجربة شك ، قالوا : فما الحيلة ؟ قال : ترك الحيلة .

وقيل : التوكل النعمة بالله واليأس غمًا في أيدي الناس .

ومنها الشكر ، وقد تقدّم منا ذكر كثير مما قيل فيه .

ومنها اليقين وهو مقام جليل ، قال الله : تعالى ﴿ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾^(١) .
وقال عليّ بن أبي طالب عليه السلام : لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا .
وقال سهل بن عبد الله : حرام على قلب أن يشم رائحة اليقين ، وفيه شكوى
إلى غير الله .

وذكر للنبي صلى الله عليه وآله ما يقال عن عيسى بن مريم عليه السلام أنّه مشى
على الماء ، فقال : لو ازداد يقينا لمشى على الهواء .
وفي الخبر المرفوع عنه صلى الله عليه وآله ، أنّه قال لعبد الله بن مسعود : « لا ترضين
أحدًا بسخط الله ، ولا تحمدن أحدًا على فضل الله ، ولا تذهمن أحدًا على ما لم يؤتكم الله .
واعلم أن الرزق لا يسوقه حرص حريص ، ولا يرده كراهة كاره ، وأن الله جعل الرّوح
والفرّج في الرّضا واليقين ، وجعل الهمّ والحزن في الشكّ والسخط » .

ومنها الصبر ، قال الله تعالى : ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾^(٢) .
وقال عليّ عليه السلام : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد .
وسئل الفضيل عن الصبر ، قال : تجرّع المرارة من غير تعبيس .
وقال رويم : الصبر ترك الشكوى .

(١) سورة البقرة ٤٤ .

(٢) سورة النحل ١٢٧ .

وقال على عليه السلام : الصَّبر مطيعة لا تكبُّو .
 وقف رجل على الشَّيْبلى ، فقال : أى صبرٍ أشدَّ على الصابرين ؟ قال الشَّيْبلى : الصَّبر
 فى الله تعالى ، فقال : لا ، قال : فالصبر لله ، فقال : لا ، قال : فالصبر مع الله تعالى ، فقال :
 لا ، قال : فأى شيء ؟ قال الصبر عن الله . فصرخ الشَّيْبلى صرخة عظيمة ، ووقع .
 ويقال إن الشَّيْبلى حبس فى المارستان ، فدخل عليه قوم ، فقال : مَنْ أَنْتُمْ ؟
 قالوا : محبِّوك جئنك زائرين ، فرمهم بالحجارة فهربوا ، فقال : لو كنتم أحبَّائى ، لصبرتم
 على بلائى .

وجاء فى بعض الأخبار ، عن الله تعالى : بمعنى ما يتحمَّل المتحمِّلون من أجلى .
 وقال عمر بن الخطاب : لو كان الصَّبر والشكر بعيرين لم أبالَ أيَّهما ركبت .
 وفى الحديث المرفوع : « الإيمان الصَّبر والسَّخاء » .
 وفى الخبر : العلم خليل المؤمن ، والحلم وزبره ، والعقل دليله ، والعمل قائده ، والرفق
 والده ، والبرّ أخوه ، والصبر أمير جنوده . قالوا : فناهيك بشرف خصلة تتأمر على هذه
 الخصال ! والمعنى أن الثبات على هذه الخصال واستدامة التخلُّق بها إنما يكون بالصبر ،
 فلذلك كان أمير الجنود .

ومنها المراقبة ، جاء فى الخبر عن النبی صلى الله عليه وآله : أن سائلا سأله عن
 الإحسان ، فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك » .
 وهذه إشارة إلى حال المراقبة ، لأن المراقبة علم العبد باطلاع الربِّ عليه ، فاستدامة
 العبد لهذا العلم مراقبة للحقِّ ، وهو أصل كلِّ خير ، ولا يسكاد يصل^(١) إلى هذه الرتبة
 إلا بعد فراغه من المحاسبة ، فإذا حاسب نفسه على ما سلف ، وأصلح حاله فى الوقت ،

(١) كذا فى ١ ، وفى ب : « يوصل » .

ولازم طريق الحق ، وأحسن بينه وبين الله تعالى بمراعاة القلب ، وحفظ مع الله سبحانه الأنفاس ، راقبه تعالى في عموم أحواله ، فيعلم أنه تعالى رقيب عليه ، يعلم أحواله ، ويرى أفعاله ، ويسمع أقواله . ومن تفاضل عن هذه الجملة ، فهو بمنزل عن بداية الوصلة ، فكيف عن حقائق القربة !

ويحكى أن ملكاً كان يتحظى جارية له ، وكان لوزيره ميل باطن إليها ؛ فكان يسعى في مصالحها ، ويرجع جانبها على جانب غيرها من حظايا الملك ونسائه . فاتفق أن عرض عليها الملك حَجَرَيْنِ من الياقوت الأحمر : أحدهما أنف من الآخر ، بمحض من وزيره ، فتجبرت أيهما تأخذ ! فأومأ الوزير بعينه إلى الحجر الأنف ، وحانت من الملك التفاتة ، فشاهد عين الوزير وهي مائلة إلى ذلك الجانب ، فبقى الوزير بعدها أربعين سنة لا يراه الملك قط إلا كاسراً عينه نحو الجانب الذي كان طرفه مائلاً إليه ذلك اليوم ، أى كان^(١) ذلك خِلقة . وهذا عزم قوى في المراقبة ، ومثله فليكن حال من يريد الوصول .

ويحكى أيضاً أن أميراً كان له غلام يُقبل عليه أكثر من إقباله على غيره من ممالئكه ، ولم يكن أكثرهم قيمة ، ولا أحسنهم صورة ، فقبل له في ذلك ، فأحب أن يبين لهم فضل الغلام في الخدمة على غيره ، فكان يوماً راكباً ، ومعه حشمه ، وبالعبد منهم جبل عليه ثلج فنظر الأمير إلى الثلج وأطرق ، فركض الغلام فرسه ، ولم يعلم الغلمان لماذا ركض ! فلم يلبث إلا قليلاً حتى جاء ومعه شيء من الثلج ، فقال الأمير : ما أدراك أنى أردت الثلج ! فقال : إنك نظرت إليه ، ونظرُ السلطان إلى شيء لا يكون إلا عن قصد . فقال الأميرُ لغلمانه : إنما اختصه بإكرامى وإقبالى ، لأن لكل واحد منكم شغلاً ، وشغله مراعاة لحظاتي ، ومراقبة أحوالى .

(١) ب : « أن » .

وقال بعضهم : من راقب الله في خواطره ، عصمه الله في جوارحه .

ومنها الرضا ، وهو أن يرضى العبد بالشدائد والمصائب التي يقضيها الله تعالى عليه ، وليس المراد بالرضا رضا العبد بالمعاصي والفواحش ، أو نسبها إلى الرب تعالى عنها ؛ فإنه سبحانه لا يرضاها ، كما قال جلّ جلاله : ﴿ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ ^(١) .

وقال : ﴿ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ ^(٢) .

قال رويم : الرضا أن لو أدخلك جهنم لما سخطت عليه .

وقيل لبعضهم : متى يكون العبد راضياً ؟ قال : إذا سرته المصيبة ، كما

سرته النعمة .

قال الشبلي مرة - والجنيد حاضر : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فقال الجنيد : أرى أن قولك هذا ضيقٌ صدر ، وضيق الصدر يحى من ترك الرضا بالقضاء .

وقال أبو سليمان الدارني : الرضا ألا تسأل الله الجنة ، ولا تستعيز به من النار .

وقال تعالى فيمن سخط قسمته : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ ^(٣) .

ثم نبه على ما حرّمه من فضيلة الرضا ، فقال : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ ^(٤) ،

وجواب « لو » ها هنا محذوف لفهم المخاطب وعلمه به .

(٢) سورة الإسراء ٣٨ .

(١) سورة الزمر ٧ .

(٣) سورة التوبة ٥٨ ، ٥٩ .

وفي حذفه فائدة لطيفة وهو أن تقديره « ارضى الله عنهم » ، ولما كان رضاه عن عباده مقاماً جليلاً جداً حذف ذكره ؛ لأنّ الذكر له لا ينبئ عن كنهه ، وحقيقة فضله ، فكان الإضراب عن ذكره أبلغ في تعظيم مقامه .

ومن الأخبار المرفوعة أنه صلى الله عليه وآله قال : « اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء » ؛ قالوا : إنما قال : « بعد القضاء » لأنّ الرضا قبل القضاء لا يتصور ، وإنما يتصور توطئ النفس عليه ، وإنما يتحقق الرضا بالشيء بعد وقوع ذلك الشيء .

وفي الحديث أنه قال لابن عباس يوصيه : « اعمل لله باليقين والرضا ؛ فإن لم يكن فاصبر ، فإنّ في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً » .

وفي الحديث أنه صلى الله عليه وآله رأى رجلاً من أصحابه ، وقد أجهده المرض والحاجة ، فقال : ما الذي بلغ بك ما أرى ؟ قال : المرض والحاجة ، قال : أولاً أعلمك كلاماً إن أنت قلته أذهب الله عنك ما بك ! قال : والذي نفسي بيده ما يسرّني بحظي منهما أن شهدت معك بدرأ والحديبية ! فقال صلى الله عليه وآله « وهل لأهل بذر والحديبية ما للراضى والقانع ! » .

وقال أبو الدرداء : ذروة الإيمان الصبر والرضا .

قدم سعد بن أبي وقاص مكة بعد ما كُفّ بصره ، فأنثال الناس عليه يسألونه الدعاء لهم ، فقال له عبد الله بن السائب : يا عمّ إنك تدعو للناس فيستجاب لك ، هلا دعوت أن يردّ عليك بصرك ! فقال : يا بن أخى ، قضاء الله تعالى أحبُّ إلىّ من بصرى .

عمر بن عبد العزيز : أصبحتُ ومالى سرور إلا في مواقع القدر .

وكان يقال : الرضا أطراح الاقتراح على العالم بالصلاح ، وكان يقال : إذا كان القدر حقاً كان سخطه حقاً .

وكان يقال : مَنْ رَضِيَ حَظِّي . ومن أطرح الاقتراح ، أفلح واستراح .
وكان يقال : كن بالرضا عاملاً ، قبل أن تكون له معمولاً ، وسر إليه عادلاً ، وإلا
سرت نحوه معدولاً .

وقيل للحسن : من أين أتى الخلق ؟ قال : مِنْ قَلَّةِ الرضا عن الله ، فقيل : ومن أين
دخلت عليهم قَلَّةُ الرضا عن الله ؟ قال : من قَلَّةِ المعرفة بالله .
وقال صاحب^(١) " سلوان المطاع " ، في الرضا^(٢) :

يا مفرعى فيما يجىء وراجى فيما مضى
عندى لما تقضيه ما يرضيك من حُسن الرضا
ومن القطيعة أستميد مصرّحاً ومعرّضاً
وقال أيضاً^(٣) :

كُنْ من مدبرك الحكيم عَلاً وَجَلَّ على وَجَلْ
وأرضَ القضاء فإنه حتم أجل ، وله أجل
وقال أيضاً^(٤) :

يا من يرى حالى وأن ليس لى فى غير قربى منه أوطار^(٥)
وليس لى ملتجئاً دونه ولا عليه لى أنصار
حاشا لذك العزّ والفضل أن يهلك مَنْ أنت له جار
وإن تشأ هلكى فهب لى رضا بكل ما تقضى وتختار

(١) هو شمس الدين أبو عبد الله عبد الله محمد بن محمد بن ظافر الكلى ، المتوفى سنة ٥٦٥ هـ .
(٢) سلوان المطاع ص ٦٦
(٣) سلوان المطاع ص ٦٦
(٤) سلوان المطاع ص ٦٦ ، ٦٧
(٥) فى سلوان المطاع : فى غير ما يرضيه أوطار .

عندى لأحكامك يا مالكي قلب كما أنعمت صباراً^(١)
كلّ عذاب منك مستمذّب مالم يكن سخطك والنار^(٢)

ومنها العبودية ، وهى أمر وراء العبادة ؛ معناها التّعبد والتذلل . قالوا : العبادة للعوامّ من المؤمنين ، والعبودية للخواصّ من السالكين .

وقال أبو على الدقاق : العبادة لمن له علم اليقين ، والعبودية لمن له عين اليقين .
وسئل محمد بن خفيف : متى تصحّ العبودية ؟ فقال : إذا طرح كلّه على مولاه ، وصبر معه على بلواه .

وقال بعضهم : العبودية معانقة ما أمرت به ، ومفارقة ما جرت عنه .
وقيل : العبودية أن تسلم إليه كلّك ، وتحمل عليه كلّك .
وفى الحديث المرفوع : « تعس عبد الدينار ، وتعس عبد الخبيصة » .
رأى أبو يزيد البسطامى رجلاً ، فقال له : ما حرفتك ؟ قال خرّ بنده ، قال : أمت الله جارك ؛ لتكون عبداً لله ، لا عبداً للحمّار .

وكان ينفداده فى رباط شيخ الشيوخ ، صوفى كبير اللّحية جدّاً ، وكان مغرّى ، ومعنى بها أكثر زمانه ، يدهنها ويسرّحها ، ويجعلها ليلاً عند نومه فى كيس ، فقام بعض المريدين إليه فى الليل ، وهو نائم ، فقصّها من الأذن إلى الأذن ، فأصبحت كالصّريم .
وأصبح الصوفى شاكياً إلى شيخ الرّباط ، فجّمع الصوفية وسألهم ، فقال المريد : أنا قصصتها ، قال : وكيف فعلت ، وبلك ذلك ! قال : أيّها الشيخ ، إنها كانت صنمه ، وكان يعبدها من دون الله ، فأنكرت ذلك بقلبي ، وأردت أن أجعله عبداً لله لا عبداً للّحية .

(١) هذا البيت ساقط من السلوان .

(٢) فى السلوان : بعدك والنار .

قالوا : وليس شيء أشرف من العبودية ، ولا اسم أتمّ للمؤمن من اسمه بالعبودية ، ولذلك قال سبحانه في ذكر النبي صلى الله عليه وآله ليلة المعراج ، وكان ذلك الوقت أشرف أوقاته في الدنيا : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾ ^(١) . وقال تعالى : ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ ^(٢) ؛ فلو كان اسم أجل من العبودية لسماه به .
وأنشدوا :

لاتدعنى إلا بعبودها فإنه أشرف أسمى

ومنها الإرادة ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ ^(٣) .

قالوا : الإرادة هي بدء طريق السالكين ، وهي اسم لأول منازل القاصدين إلى الله ، وإنما سُميت هذه الصفة إرادة ، لأن الإرادة مقدمة كل أمر ، فما لم يرد العبد شيئاً لم يفعله ، فلما كان هذا الشأن أول الأمر لمن يسلك طريق الله سمي إرادة ، تشبيهاً له بالقصد إلى الأمور التي هو مقدمتها .

قالوا : والمريد على موجب الاشتقاق : مَنْ له إرادة ؛ ولكن المريد في هذا الاصطلاح مَنْ لا إرادة له ، فما لم يتجرد عن إرادته لا يكون مريداً ، كما أن من لا إرادة له على موجب الاشتقاق لا يكون مريداً .

وقد اختلفوا في العبارات الدالة على ماهية الإرادة في اصطلاحهم ، فقال بعضهم : الإرادة ترك ما عليه العادة ، وعادة الناس في الغالب التمرج على أوطان الغفلة ،

(١) سورة الإسراء ١ .

(٢) سورة النجم ١٠ .

(٣) سورة الأنعام ٥٢ .

والركون إلى اتباع الشهوة ، والإخلاق إلى مادت إلى المنية ، والمريد هو المنسلخ عن هذه الجملة .

وقال بعضهم : الإرادة نهوض القلب ، في طلب الرب ؛ ولهذا قيل : إنها لوعة تهون كل روعة .

وقال : أبو علي الدقاق : الإرادة لوعة في القواد ، ولذعة في القلب ، وغرام في الضمير ، وانزعاج في الباطن ، ونيران تأجج في القلوب .

وقال مشاذ الديفوري : مذملت أن أحوال الفقراء جد كلها لم أمارح فقيراً ، وذلك أن فقيراً قدم علي ، فقال : أيها الشيخ ، أريد أن تتخذ لي عصيدة ، فجرت على لساني «إرادة وعصيدة» ، فآخر الفقير ولم أشعر ، فأمرت باتخاذ عصيدة ، وطلبت له فلم أجده ، فتعرفت خبره ، فقيل : إنه انصرف من فوره ، وهو يقول «إرادة وعصيدة» ، وإرادة وعصيدة ! ، وهام على وجهه ، حتى خرج إلى البادية ، وهو يكرر هذه الكلمة ، فما زال يقول ويرددها حتى مات .

وحكى بعضهم ، قال : كنت بالبادية وحدي ، فضاقت صدري ، فصحت : يا إنس كلموني ، يا جن كلموني ! فهتف هاتف : أي شيء ناديت ؟ فقلت : الله ، فقال الهاتف : كذبت ، لو أردت لما ناديت الإنس ، ولا الجن .

فالريد هو الذي لا يشغله عن الله شيء ، ولا يفتر آناء الليل وأطراف النهار ، فهو في الظاهر بنعت المجاهدات ، وفي الباطن بوصف المكابدات ، فارق الفراش ، ولازم الانكماش ، ونحمل المصاعب ، وركب المتاعب ، وعالج الأخلاق ، ومارس المشاق ، وعانق الأهوال ، وفارق الأشكال ، فهو كما قيل :

نمّ قطعتُ الليلَ في مهمّةٍ لا أسداً أخشى ولا ذيباً

يفلبنى شوقي فأطوى الشرى ولم يزل ذو الشوق مغلوبا
وقيل : من صفات المريدين التجبب إليه بالتوكل ، والإخلاص في نصيحة الأمة ،
والأنس بالخلوة ، والصبر على مقاساة الأحكام ، والإيثار لأمره ، والحياء من نظره ، وبذل
المجهود في محبته ، والتعرض لكل سبب يوصل إليه ، والقناعة بالتمول ، وعدم الفرار من
القلب ، إلى أن يصل إلى الرب .

وقال بعضهم : آفة المريد ثلاثة أشياء : التزويج ، وكتبه الحديث ، والأسفار .
وقيل : من حكم المريد أن يكون فيه ثلاثة أشياء : نومه غلبة ، وأكله فاقة ،
وكلامه ضرورة .

وقال بعضهم : نهاية الإرادة أن يشير إلى الله فيجده مع الإشارة ، ف قيل له : وأي
شيء يستوعب الإرادة ؟ فقال : أن يجد الله بلا إشارة .

وسئل الجنيد : ما للمريدين وسماع القصص والحكايات ؟ فقال : الحكايات جند
من جند الله تعالى ، يقوى بها قلوب المريدين . ف قيل له : هل في ذلك شاهد ؟ فتلا قوله
تعالى : ﴿ وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَشِئْتُ بِهِ فُتُورًا ﴾ (١) .

وقال أصحاب الطريقة : بين المريد والمراد فرق ، فالمريد من سلك الرياضة طلبا
للولصول ، والمراد من فاضت عليه العناية الإلهية ابتداء ، فكان مخطوبا لا خاطبا ، وبين
الخاطب والمخطوب فرق عظيم .

قالوا : كان موسى عليه السلام مريداً ، قال : ﴿ رَبِّ أَسْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ (٢) وكان
نحمد صلى الله عليه وسلم مرادا ، قال له : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ (٣) ؛ وسئل الجنيد عن

(١) سورة هود ١٢٠ .

(٢) سورة طه ٢٥ .

(٣) سورة الشرح ١ .

المريد والمراد ، فقال : المريد سائر ، والمراد طائر ، ومتى يلحق السائر الطائر !
أرسل ذو النون المصري رجلا إلى أبي يزيد ، وقال له : إلى متى النوم والراحة !
قد سارت القافلة ! فقال له أبو يزيد : قل لأخي : الرجل من ينام الليل كله ، ثم يصبح
في المنزل قبل القافلة . فقال ذو النون : هنيئا له ! هذا الكلام لا تبخله أحوالنا .

وقد تكلم الحكماء في هذا المقام ، فقال أبو علي بن سينا في كتاب "الإشارات" :
أول درجات حركات العارفين ما يستونهم الإرادة ، وهو ما يعتري المستبصر باليقين
البرهاني ، أو الساكن النفس إلى المقد الإيماني ، من الرغبة في اعتلاق العروة الوثقى ،
فيتحرك سره إلى القدس ، لينال من روح الاتصال ، فدامت درجته هذه ،
فهو مريد .

ثم إنه يحتاج إلى الرياضة ، والرياضة ، موجهة إلى ثلاثة أغراض :
الأول : تنحية مادون الحق عن سنن الإيثار .
والثاني : تطويع النفس الأمارة للنفس المطمئنة ، لتنجذب قوى التخيل والوهم إلى
النوّهات المناسبة للأمر القدسي ، منصرفة من التوّهات المناسبة للأمر السفلي .
والثالث : تلطيف السرّ لنفسه .

فالأول يعين عليه الزهد الحقيقي ، والثاني يعين عليه عدة أشياء : العبادة المشفوعة
بالفكرة ، ثم الألحان المستخدمة لقوى النفس الموقعة لما لحن بها من الكلام موقع القبول
من الأوهام ، ثم نفس الكلام الواعظ من قائل ذكي ، بمباراة بليغة ، ونعمة رخيصة ،
وسمت رشيد . والثالث يعين عليه الفكر اللطيف ، والعشق العفيف ، الذي تتأمر فيه
شمال المعشوق ، دون سلطان الشهوة .

ومنها الاستقامة ، وحقيقتها الدوام والاستمرار على الخلال ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾^(١) .

ومثل بعضهم عن تارك الاستقامة ، فقال : قد ذكر الله ذلك في كتابه ، فقال : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْلَهُمَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا ﴾^(٢) .

وفي الحديث الرفوع : « شَيَّبَتْنِي هُود » ، ف قيل له في ذلك ، فقال قوله : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾^(٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴾^(٤) ، فلم يقل « سقيناهم » بل ﴿ أَسْقَيْنَهُمْ ﴾ ، أى جعلنا لهم سقيا دائمة ، وذلك لأن من دام على الخدمة دامت عليه النعمة .

ومنها الإخلاص ، وهو إفرااد الحق خاصة في الطاعة بالقصد والتقرب إليه بذلك خاصة ، من غير رياء ومن غير أن يمازجه شيء آخر من تصفع للمخلوق ، أو اكتساب تحمده بين الناس ، أو تحبة مدح ، أو معنى من اللعاني ، ولذلك قال أرباب هذا الفن : الإخلاص تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين .

وقال الخواص من هؤلاء القوم : نقصان كل مخلص في إخلاصه رؤية إخلاصه ، فإذا أراد الله أن يخلص إخلاص عبداً أسقط عن إخلاصه رؤيته لإخلاصه ، فيكون مخلصاً لا مخلصاً .

وجاء في الأثر عن مكحول : ما أخلص عبداً لله أربعين صباحاً ؛ إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه

(٢) سورة النحل ٩٢

(٤) سورة الجن ١٦

(١) سورة فصلت ٣٠

(٣) سورة هود ١١٢

ومنها الصدق ، وبطاق على معنيين : تجنّب الكذب ، وتجنّب الرياء ، وقد تقدّم القول فيهما .

ومنها الحياء ، وفي الحديث الصحيح : « إذا لم تستحي فاصنع ما شئت » .
وفي الحديث أيضا : « الحياء من الإيمان » ، وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾^(١) ، قالوا : معناه ألم يستحي !

وفي الحديث أنه قال لأصحابه : « استحيوا من الله حقّ الحياء » قالوا : إنا لنستحي ونحمد الله . قال : « ليس كذلك ؛ من استحيا من الله حقّ الحياء ، فليحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى ، وليذكر الموت وطول البلى ، وليترك زينة الحياة الدنيا ، فن فعل ذلك فقد استحيا من الله حقّ الحياء » .

وقال ابن عطاء : العلم الأكبر الهيبة والحياء ، فإذا ذهب لم يبق خير .
وقال ذو النون : الحبّ ينطق ، والحياء يسكت ، والخوف يقلق .
وقال السري : الحياء والأنس يطرقان القلب ، فإن وجدا فيه الزهد والورع خطأ ، وإلا رحلا .

وكان يقال : تعامل القرن الأوّل من الناس فيما بينهم بالدين حتى رقّ الدين ، ثم تعامل القرن الثاني بالوفاء حتى ذهب الوفاء ، ثم تعامل القرن الثالث بالمرءة حتى فنيّت المرءة ، ثم تعامل القرن الرابع بالحياء حتى قلّ الحياء ، ثم صار الناس يتعاملون بالرغبة والرهبة .

وقال الفضيل : خمس من علامات الشقاء : القسوة في القلب ، وجود العين ، وقلة الحياء ، والرغبة في الدنيا ، وطول الأمل .
 وفسر بعضهم قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ ^(١)
 إنها كان لها صنم في زاوية البيت ، فاضت فألقت على وجهه ثوباً ، فقال يوسف : ما هذا ؟
 قالت : أستحي منه ، قال : فأنا أولى أن أستحي من الله !
 وفي بعض السكتب القديمة : ما أنصفني عبدي ايدعوني فأستحي أن أردّه ، وبعضيني وأنا أراه ، فلا يستحي مني .

ومنها الحرية ؛ وهو ألا يكون الإنسان بقلبه رقّ شيء من المخلوقات ؛ لا من أغراض الدنيا ، ولا من أغراض الآخرة ؛ فيكون فرداً لفرد لا يسترقه عاجل دنيا ، ولا آجل مئى ، ولا حاصل هوى ، ولا سؤال ، ولا قصد ، ولا أرب .
 قال له صلى الله عليه وآله بعض أصحاب الصفة : قد عزفت نفسي يا رسول الله عن الدنيا ، فاستوى عندي ذهبها وحجرها . قال : صرت حرّاً .
 وكان بعضهم يقول : لو صحت صلاة بغير قرآن ، لصحت بهذا البيت :
 أتمنى على الزمان ^(٢) محالاً أن ترى مقلتاى طلعة خسر
 وسئل الجنيد عمّن لم يبق له من الدنيا إلا مقدار مصّ نواة ! فقال : المكاتب عبد ما بقي عليه درهم .

ومنها الذكر ، قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ ^(٣) .

(١) سورة يوسف ٢٤ .

(٢) ب : « من الزمان » ، وما أثبتته من ا .

(٣) سورة الأحزاب ٤١ .

وروى أبو الدرداء أن رسول الله صلى الله عليه وآله، قال : ألا أنبئكم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند خالقكم ، وأرفعها في درجاتكم ، وخير من إعطائكم الذهب والفضة في سبيل الله ، ومن أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ، ويضربوا أعناقكم ؟ ، قالوا : ما ذلك يا رسول الله ؟ قال : « ذكر الله » .

وفي الحديث المرفوع : « لا تقوم الساعة على أحدٍ يقول : الله الله » .
وقال أبو علي الدقاق : الذكر منشور الولاية ، فمن وفق للذكر فقد أعطى المنشور ، ومن سلب الذكر فقد عزل .

وقيل : ذكر الله تعالى بالقلب سيف المرادين ، به يقاتلون أعداءهم ، وبه يدفعون الآفات التي تصدهم ، وإنّ البلاء إذا أظلم العبد ففرج بقلبه إلى الله حاد عنه كل ما يكرهه .

وفي الخبر المرفوع : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا فيها » ، قيل : وما رياض الجنة ؟ قال : « مجالس الذكر » .

وفي الخبر المرفوع : « أنا جليسٌ مَنْ ذكرني » .

وسمى الشبلي وهو يُنشد :

وأبسر ما في الذِّكر ذكرُ لِسَانِي	ذكرتك لا أني نسيتهُ لِحَةٍ
وهام على القلب بالخفقان	فكدت بلا وجدٍ أموت من الهوى
شهدتك موجوداً بكل مكان	فلما أراي الوجد أنك حاضري
ولاحظتُ معلوماً بغير عِيَان	فخاطبت موجوداً بغير تكلمٍ

ومنها الفتوة ، قال سبحانه مخبراً عن أصحاب الأصنام ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ (١) .

وقال تعالى في أصحاب الكهف : ﴿ إِنَّمَا فَتِيَّةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاَهُم هُدًى ﴾ (٢) . وقد اختلفوا في التعبير عن الفتوة ما هي ؟ فقال بعضهم : الفتوة ألا ترى لنفسك فضلاً على غيرك .

وقال بعضهم : الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان .

وقالوا : إنما هتف الملك يوم أحد بقوله :

لا سيف إلا ذو الفقار ، ولا فتى إلا علي

لأنه كسر الأصنام ، فسمي بما سمي به أبوه إبراهيم الخليل حين كسرها وجعلها جُذاً . قالوا : وصنم كل إنسان نفسه ، فمن خالف هواه فقد كسر صنمه ، فاستحق أن يطلق عليه لفظ الفتوة .

وقال الحارث المحاسبي : الفتوة أن تنصف ولا تنتصف .

وقال عبدالله بن أحمد بن حنبل : سئل أبي عن الفتوة ، فقال : ترك ما تهوى لما تخشى .

وقيل : الفتوة ألا تدخر ولا تمتدح .

سأل شقيق البلخي جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ، عن الفتوة ، فقال : ماتقول أنت ؟ قال : إن أعطينا شكرنا ، وإن مُنِعنا صبرنا . قال : إن الكلاب عندنا بالمدينة هذا شأنها ، ولكن قل : إن أعطينا آثرنا ، وإن مُنِعنا شكرنا .

(١) سورة الأنبياء ٦٠ .

(٢) سورة الكهف ١٣ .

ومنها الفراسة ، قيل في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ ﴾ ^(١) .
 أى للمتفرسين . وقال النبي صلى الله عليه وآله : « اتقوا فراسة المؤمن ، فإنها لا تخطئ » .
 قيل : الفراسة سواطع أنوار لمعت في القلوب ، حتى شهدت الأشياء من حيث أشهدتها
 الحق^٢ إياها ، وكل من كان أقوى إيماناً كان أشد فراسة .
 وكان يقال : إذا صحت الفراسة ارتقى منها صاحبها إلى المشاهدة .

ومنها حسن الخلق ، وهو من صفات العارفين ، فقد أثنى الله تعالى به على نبيه ، فقال :
 ﴿ وَإِنَّكَ لَمَلَكٌ خُلِقَ عَظِيمٌ ﴾ ^(٣) .
 وقيل له صلى الله عليه وآله : أى المؤمنين أفضل إيماناً ؟ فقال : أحسنهم خلقاً ،
 وبالحلق تظهر جواهر الرجال ، والإنسان مستور بخلق مشهور بخلق .
 وقال بعضهم : حسن الخلق استصغار ما منك ، واستعظام ما إليك .
 وقال النبي صلى الله عليه وآله : « إنكم لن تسمعوا الناس بأموالكم ، فسمعوم
 بأخلاقكم » .

قيل لدى النون : من أكبر الناس همًا ؟ قال : أسوأهم خلقًا .
 وكان يقال : ما تخلق أحد أربعين صباحاً بخلق إلا صار ذلك طبيعة فيه .
 قال الحسن في قوله تعالى : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهَّرْ ﴾ ^(٣) أى وخلقك فحسن .
 شتم رجل الأحنف بن قيس ، وجعل يتبعه ويشتمه ، فلما قرب الحى وقف ، وقال :
 يا فتى ، إن كان قد بقي في قلبك شيء فقله ، كيلا يسمعك سفهاء الحى فيجيبوك .

(١) سورة الحجر ٧٥ .

(٢) سورة القلم ٤ .

(٣) سورة المدثر ٤ .

ويقال : إن معروفًا الكرخي نزل دجلة ليسبح ، ووضع ثيابه ومصحفه ، فجاءت امرأة فاحتملتهما ، فتبعهما ، وقال : أنا معروف الكرخي ، فلا بأس عليك ألك ابن يقرأ ؟ قالت : لا ، قال : أفلك بعل ؟ قالت : لا ، قال : فهاتي المصحف ، وخذي الثياب . قيل لبعضهم : ما أدب الخلق ؟ قال : ما أدب الله به نبيه في قوله : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ ^(١) . يقال : إن في بعض كتب النبوات القديمة : ياعبدى اذكرنى حين تغضب ، اذكرك حين أغضب .

قالت امرأة لمالك بن دينار : يا مرأتى ! فقال : لقد وجدت اسمى الذى أضله أهل البصرة .

قال بعضهم - وقد سئل عن غلام سوء له : لِمَ يُنْسِيكَ ؟ قال : أتعلم عليه الحلم . وكان يقال : ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة : الحليم عند الغضب ، والشجاع عند الحرب ، والصديق عند الحاجة إليه .

وقيل في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ ^(٢) : الظاهرة تسوية الخلق ، والباطنة تصفية الخلق .

الفضيل : لأن يصحبنى فاجر حسن الخلق أحبُّ إلىَّ من أن يصحبنى عابد سيء الخلق .

خرج إبراهيم بن أدهم إلى بعض البرارى ، فاستقبله جندى فسأله : أين العمران ؟ فأشار إلى المقبرة ، فضرب رأسه فشجته وأدماه ، فلما جاوزه قيل له : إن ذلك إبراهيم بن أدهم

(١) سورة الأعراف ١٩٩ .

(٢) سورة لقمان ٢٠ .

زاهد خراسان ! فردّ إليه بمتذر . فقال إبراهيم : إنك لما ضربتني سألتُ الله لك الجنة .. قال : لم سألت ذلك ؟ قال : علمتُ أنّي أوجر على ضربك لي ، فلم أرد أن يكون نصيبي منك الخير ، ونصيبك مني الشر .

وقال بعض أصحاب الجنيد ا قدِمْتُ من مكّة ، فبدأت بالشيخ كي لا يتمنى إلى ، فسلمت عليه ، ثم مضيت إلى منزلي ، فلما صليت الصبح في المسجد ، إذا أنا به خلني في الصف ، فقلت : إنما جئتكم أمس لثلاثا تمنى ا فقال : ذلك فضلك ، وهذا حقك . كان أبو ذر كلّ حوض يسقى إليه ، فزاحمه إنسان فكسر الحوض ، فجلس أبو ذر ثم اضطجع فمیل له في ذلك ، فقال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله : « إذا غضب الرجل وهو قائم فليجلس ؛ فإن ذهب عنه ، وإلا فليضطجع » .

دعا إنسان بعض مشاهير الصوفيّة إلى ضيافة ، فلما حضر باب داره ردّه واعتذر إليه . ثم فعل به مثل ذلك وثانية وثالثة ، والصوفي لا يغضب ، ولا يضجر ، فدحه ذلك الإنسان وأثنى عليه بحسن الخلق ، فقال : إنما تمدحني على خلقٍ تجد مثله في الكلب ؛ إن دعوته حضر ، وإن زجرته انزجر .

مرّ بعضهم وقت المهاجرة بسكّة ، فألقوا عليه من سطح طست رماد ، فغضب من كان في صحبته ، فقال : لا تمضبوا ، من استحق أن يُصبّ عليه النار فصولح على الرماد ، لم يجز له أن يغضب .

كان لبعض الخياطين جارٌ يدفع إليه ثيابا فيخيطها ، ويدفع إليه أجرها دراهم زيوفا ، فيأخذها ، فقام يوما من حانوته ، واستخلف ولده ، فجاء الجار بالدرهم الزائفة ، فدفعها إلى الولد فلم يقبلها ، فأبدلها بدرهم جيّدة ، فلما جاء أبوه دفع إليه الدرهم ، فقال : ويحك ! هل جرى بينك وبينه أمر ؟ قال : نعم ، إنه أحضّر الدرهم زيوفا ، فرددتها فأحضر هذه .

فقال : بئس ما صنعت ! إنه منذ كذا وكذا سنة يعاملني بالزائف وأصبر عليه ، وألقبها في
بئر ، كي لا يفرّ غيري بها !

وقيل : الخلق السيئ هو أن يضيق قلب الإنسان عن أن يتسع لغير ما تحبه النفس
وتؤثره ، كاللص الذي لا يسمع غير صاحبه .

وكان يقال : من سوء الخلق أن تقف على سوء خلق غيرك وتعيبه به .
قيل لرسول الله : ادعُ الله على المشركين ، فقال : « إنما بعثتُ رحمةً ،
ولم أبعث عذاباً » .

دعا على عليه السلام غلاماً له مراراً ؛ وهو لا يجيبه ، فقام إليه فقال : ألا تسمع
يا غلام ! قال : بلى ، قال : فما حلك على ترك الجواب ؟ قال : أُمّني لعقوبتك ، قال : اذهب
فأنت حرّ .

ومنها الكتمان ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « استمعينوا على أموركم
بالكتمان » .

وقال السريّ : علامة الحبّ الصبر والكتمان ، ومن باح بسرّنا فليس منا .
وقال الشاعر :

كتمتُ حُبّك حتّى منك تَكْرِمَةٌ ثم استوى فيك لإسراري وإعلاني
كأنه غاض حتى فاض عن جَسَدِي فصار سقى به في جسم كِتْمَانِي
وهذا ضدّ ما يذهب إليه القوم من الكتمان ؛ وهو عذر لأصحاب السرّ والإعلان .
وكان يقال : المحبة فاضحة ؛ والدمع تَمَام .

وقال الشاعر :

لا جَزَى الله دمع عيني خَيْراً وجزى الله كلّ خيرٍ لسانِي .

فاض دمي فليس يكتم شيئا فوجدتُ اللسان ذا كتمانٍ
يقال : إن بعض العارفين ، أوصى تلميذه بكتمان ما يطلع عليه من الحال ، فلما شاهد
الأمر غلب ، فكان يطلع في بئر في موضع خالٍ ، فيحدثها بما يشاهد ، فنبتت في تلك البئر
شجرة سمع منها صوت يحكي كلام ذلك التلميذ ، كما يحكي الصدا كلام المتكلم ، فأسقط
بذلك من ديوان الأولياء .

وأنشدوا :

أبدا تحمى إليكم الأرواح ووصالكم ريمائها والراح
وقلوب أهل ودادكم تشاقكم وإلى لقاء جمالكم ترتاح
وارحمة للماشقين تحمّلوا ثقل الحبّة والهوى فضاخ
بالسرّ إن باحوا تباح دماؤهم وكذا دماء البائحين تباح
وقال الحسين بن منصور الخلاج :

إني لأكتم من على جواهره كي لا يرى العلم ذو جهل فيفتننا
وقد تقدّمتني فيه أبو حسن إلى الحسين ، وأوصى قبله الحسن
ياربّ مكنون علم لو أبوح به لقل لي أنت بمن يبعد الوثنا !
ولاستحلّ رجال صالحون دمي يرون أقبح ما يأتونه حسنا

ومنها الجود والسخاء والإيثار ، قال الله تعالى : ﴿ وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ
كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (١) :

وقال النبي صلى الله عليه وآله : السخى قريبٌ من الله ، قريبٌ من الناس ،

والبخيلُ بعيدٌ من الله بعيد من الناس. وإن الجاهل السخى أحبُّ إلى الله من العابد البخيل. قالوا : لا فرق بين الجود والسَّخاء في اصطلاح أهل العربية ، إلا أن البارى سبحانه لا يوصف بالسَّخاء ، لأنه يشعر بسماح النفس عقيم التردد في ذلك ، وأما في اصطلاح أرباب هذه الطريقة ، فالسَّخاء هو الرتبة الأولى ، والجود بعده ، ثم الإيثار ، فمن أعطى البعض وأبقى البعض فهو صاحب السَّخاء ، ومن أعطى إلا أكثر وأبقى لنفسه شيئاً فهو صاحب الجود ، والذي قاسى الضرر وآثر غيره بالهفوة فهو صاحب الإيثار .

قال أسماء بن خارجة الفزارى : ما أحبُّ أن أردَّ أحداً عن حاجة طلبها ؛ إن كان كريماً صُنْتُ عِرْضَهُ عن الناس ، وإن كان لثيماً صُنْتُ عنه عرضى .
كان مؤزَّق العجلى يتلطف في برِّ إخوانه ، يضع عندهم ألف درهم ، ويقول : امسكوها حتى أعود إليكم ، ثم يرسل إليهم : أنتم منها في حل .
وكان يقال : الجود إجابة الخاطر الأول .

وكان أبو الحسن البوشنجى في الخلاء ، فدعا تلميذا له ، فقال انزع عني هذا القميص وادفعه إلى فلان ، فقيل له : هلاً صبرت ! فقال : لم آمن على نفسي أن تغير على ما وقع لى من التخلُّق معه بالقميص .

رُئى على عليه السلام يوماً باكياً ، فقيل له . لم تبكى ؟ فقال : لم يأتني ضيف منذ سبعة أيام ؛ أخاف أن يكون الله قد أهانتى .

أضاف عبد الله بن عامر رجلاً فأحسن رِواءه ، فلما أراد أن يرتحل لم يمنه غلامانه . فسئل عن ذلك ، فقال إنهم إنما يعينون من نزل علينا ، لا من ارتحل عنا .

ومنها الغيرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لا أحد أغبرُ من الله ، إنما حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن لغيرته » .

وفي حديث أبي هريرة : « إِنَّ اللَّهَ لَيَغَارُ وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيَغَارُ » .
قال : والغيرة هي كراهية المشاركة فيما هو حقك .
وقيل : الغيرة الأنفة والحمية .

وحكى عن السرى أنه قرئ بين يديه : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ^(١) 》 .
فقال لأصحابه : أتدرون ما هذا الحجاب ؟ ؟ هذا حجاب الغيرة ، ولا أحد أغير من الله .
قالوا : ومعنى حجاب الغيرة ، أنه لما أصر الكافرون على الجحود عاقبهم بأن لم يجعلهم
أهلاً لمعرفة أسرار القرآن .

وقال أبو علي الدقاق : إن أصحاب الكسل عن عبادته ، هم الذين ربط الحق بأقدامهم
مثقلة الخذلان ، فاختار لهم البعد ، وأخرهم عن محل القرب ، ولذلك تأخروا .
وفي معناه أنشدوا فقالوا :

أَنَا صَبٌّ بِنْ هَوَيْتُ وَلَكِنْ مَا أحتَيَا لِي فِي سُوءِ رَأْيِ الْمَوَالِي أ

وفي معناه قالوا : سقيم لا يعاد ، ومريد لا يراد .

وكان أبو علي الدقاق : إذا وقع شيء في خلال المجلس يشوش قلوب الحاضرين ،
يقول : هذا من غيرة الحق ؛ يريد به ألا يتم ما أملناه من صفاء هذا الوقت .
وأنشدوا في معناه :

هَمَّتْ بَاتِيَانَا حَتَّى إِذَا نَظَرْتُ إِلَى الْمِرَاةِ نَهَاها وَجْهَهُ الْحَسَنُ

وقيل لبعضهم : أتريد أن تراه ؟ قال : لا ، قيل : لم ؟ قال أنزه ذلك الجلال عن
نظر مثلي . وفي معناه أنشدوا :

إِنِّي لِأَحْسَدُ نَاضِرِي عَيْنِكَ حَتَّى أَغْضُ إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْكَ

وأراك تخطِر في شمائلِك التي هي فتنتي ، فأغار منك عليكَا
وسئِل الشَّيْطَانِي : متى تستريح ؟ قال : إذا لم أر له ذا كرا .

وقال أبو علي الدقاق في قول النبي صلى الله عليه وآله عند مبايعته فرساً من أعرابي
وأنه استقاله فأقاله ، فقال الأعرابي : عمرك الله ، فن أنت ؟ قال صلى الله عليه وآله :
« أنا امرؤ من قريش » ، فقال بعضُ الصحابة من الحاضرين للأعرابي : كفاك جفاءً
ألا تعرف نبيك ؟ فكان أبو علي يقول : إنما قال : « امرؤ من قريش » غيرةً ونوحاً
من الأنفة ، وإلا فقد كان الواجب عليه أن يتعرف لكل أحد أنه من هو ، لكن
الله سبحانه أجرى على لسان ذلك الصحابي التعريف للأعرابي بقوله : « كفاك جفاءً
ألا تعرف نبيك ؟ »

وقال أصحاب الطريقة : مساكنة أحدٍ من الخلق للحق في قلبك تُوجب الغيرة
منه تعالى .

أذن الشَّيْطَانِي مرة ، فلما انتهى إلى الشهادتين ، قال : وحقك لولا أنك أمرتني
ما ذكرتُ معك غيرك .

وسمع رجلٌ رجلاً يقول : جلَّ الله ! فقال له : أحب أن تجلَّه عن هذا .
وكان بعض العارفين يقول : لا إله إلا الله من داخل القلب ، محمد رسول الله من
قُرْط الأذن .

وقيل لأبي الفتوح السهروردي - وقد أخذ بحلب ليصلب على خشبة : ما الذي
أباحهم هذا منك ؟ قال : إن هؤلاء دعوني إلى أن أجعل محمداً شريكاً لله في الربوبية ،
فلم أفعل ، فقتلوني .

ومنها التفويض ، قال الله تعالى : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ^(١) ، فاستوقف مَنْ عقل أمره عن الاقتراح عليه ، وأفهمه ما يرضاه به من التفويض إليه ، فالعاقل تارك للاقتراح ، على العالم بالصلاح .

وقال تعالى : ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْهُوا شَيْئًا وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ ^(٢) ؛ فبعث على تأكيد الرجاء بقوله : ﴿ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ .

ولما فوض مؤمن آل فرعون أمره إلى الله وقاه ﴿ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ ^(٣) كما ورد في الكتاب العزيز .

وحقيقة التفويض هي التسليم لأحكام الحق سبحانه ، وإلى ذلك وقمت الإشارة بقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ^(٤) ، فأنس التفويض والباعث عليه هو اعتقاد المعجز عن مغالبة القدر ، وأنه لا يكون في الخير والشر - أعني الرِّخَص والصِّحَّة وسعة الرزق والبلايا ، والأمراض والليل وضيق الرزق ، إلا ما أراد الله تعالى كونه ، ولا يصح التفويض بمن لم يعتقد ذلك ولم يعلمه علم اليقين .

وقد بالغ النبي صلى الله عليه وآله في التصريح به والنص عليه بقوله لعبد الله بن مسعود : « ليقُلْ هُمُك ؛ ما قَدَّرَ أُنَاك وما لم يقدَّرْ لم يَأْتِك ؛ ولو جَهِد الخلق أن ينفَعوك بشيء لم يَكْتَبه الله لك لم يقدروا عليه ، ولو جَهِدوا أن يضرُّوك بشيء لم يَكْتَبه الله عليك لم يقدروا على ذلك » .

(١) سورة البقرة ٢١٦ .

(٢) سورة النساء ١٩ .

(٣) سورة غافر ٤٥ .

(٤) سورة التوبة ٥١ .

وفي صحيح مسلم بن الحجاج أنه قال لأبي هريرة في كلام له : « فإن أصابك شيء فلا تقل : لو فعلت كذا لكان كذا ، فإن « لو » تفتح عمل الشيطان ، ولكن قل : ما قدر الله وما شاء فعل » .

وفي صحيح مسلم أيضاً عن البراء بن عازب : « إذا أخذت مضجعتك فقل كذا... » إلى أن قال : « وجهت وجهي إليك ، وألجأت ظهري إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجئ ولا ملجأ منك إلا إليك » .

وكان يقال : معارضة المريض طبيبه ، توجب تعذيبه . وكان يقال : إنما السكيس الماهر من أمسي^(١) في قبضة القاهر .

وكان يقال : إذا كانت مغالبة القدر مستحيلة ، فما من أعوان تفوده إلى الحيلة .

وكان يقال : إذا التبست المصادر ، فقوض إلى القادر .

وكان يقال : من الدلالة على أن الإنسان مصرف مغلوب ، ومدبر مربوب ، أن يتبلد رأيه في بعض الخطوب ، ويعمى عليه الصواب المطلوب .

وإذا كان كذلك ، فربما كان تدميره في تدميره ، واغتياله من احتياله ، وهلكته من حرركته .

وفي ذلك أنشدوا :

أَيَا مَنْ يَمُوتُ فِي الْمَشْكَلَاتِ	كَلَىٰ مَارَاهُ وَمَا دَبَّرَهُ ^(٢)
إِذَا أَعْضَلَ الْأَمْرُ فَاغْزَعُ بِهِ	إِلَىٰ مَنْ يَرَىٰ مِنْهُ مَا لَمْ تَرَهُ
تَكُنْ بَيْنَ عَطْفِ يَقِيلِ الْخَطُوبَ	وَلَطْفِ يَهُونَ مَا قَدَرَهُ
إِذَا كُنْتَ تَجْهَلُ عُقْبَى الْأُمُورِ	وَمَا لَكَ حَوْلٌ وَلَا مَقْدَرَهُ
فَلَيْمَ ذَا الْعَنَاءِ وَعِلَامِ الْأُمَى	وَمِمَّ الْحِذَارِ ، وَفِيمَ الشَّرِّ !

(١) كذا في ١ ، وفي ب : « استسلم » .

(٢) الأبيات لابن ظفر ، وهي في كتابه سلوان الطاع ٨ .

وأنشدوا في هذا المعنى :

يَا رَبِّ مَغْتَبِطٌ وَمَغْبُوطٌ بِأَمْرِ فِيهِ هَلْكَةٌ (١)
وَمُنَافِسٌ فِي مُلْكٍ مَا يُشَقِّقُهُ فِي الدَّارَيْنِ مُلْكُهُ
عَلَّمُ الْمَوَاقِبِ دُونَهُ سِتْرٌ ، وَلَيْسَ يَرَامُ هَتْكُهُ
وَمُعَارِضُ الْأَقْدَارِ بِالْآرَاءِ سَيِّءِ الْحَالِ ضَنْكُهُ
فَكُنْ أَمْرًا مَحْضُ الْيَقِينِ نِيَّ وَزَيْفِ الشُّبُهَاتِ سَبْكُهُ
تَفْوِضُهُ تَوْحِيدُهُ وَعِنَادُهُ الْإِقْدَارِ شِرْكُهُ

ومنها الولاية والمعرفة ، وقد تقدم القول فيهما .

ومنها الدعاء والمناجاة ، قال الله تعالى : ﴿ اذْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (٢) .

وفي الحديث المرفوع : « الدعاء منجّ العبادة » .

وقد اختلف أربابُ هذا الشأن في الدعاء ، فقال قوم : « الدعاء مفتاح الحاجة ،

ومستروح أصحاب الغفقات ، وملجأ المضطربين ، ومتنقّس ذوى المآرب .

وقد ذمّ الله تعالى قوماً فقال : ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ (٣) فسروه وقالوا : لا يمدّونها

إليه في السؤال .

وقال سهل بن عبد الله التستري : خلق الله الخلق ، وقال : تاجروا فيّ ، فإن لم تفعلوا

فاسمعوا مني ، فإن لم تفعلوا فكونوا بباني ، فإن لم تفعلوا فأنزلوا حاجاتكم بي .

قالوا : وقد أنبأني الله على نفسه ، فقال : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ (٤) ، قالوا :

الدعاء إظهار فاقة العبوديّة .

(٢) سورة غافر ٦٠

(٤) سورة النمل ٦٢

(١) لابن ظفر ، سلوان المطاع ٨

(٣) سورة التوبة ٦٧ .

وقال أبو حاتم الأعرج : لأن أحرَمَ الدَّعاء أشدَّ علىَّ من أن أحرَمَ الإجابة .

وقال قوم : بل السكوت والخمود تحت جريان الحكم والرضا بما سبق من اختيار الحكيم العالم بالمصالح الأولى ؛ ولهذا قال الواسطي : اختيار ما جرى لك في الأزل، خير لك من معارضة الوقت .

وقال النبي صلى الله عليه وآله إخباراً عن الله تعالى : « مَنْ شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » .

وقال قوم : يجب أن يكون العبدُ صاحب دعاء بلسانه ، وصاحب رضا بقلبه ، أيأني بالأمرين جميعاً .

وقال قوم : إنَّ الأوقات تختلف ، وفي بعض الأحوال يكون الدَّعاء أفضل من السكوت ، وفي بعض الأحوال يكون بالعكس ، وإيأما يعرف هذا في الوقت ، لأنَّ علم الوقت يحصل في الوقت ، فإذا وجد في قلبه الإشارة إلى الدَّعاء فالدَّعاء أولى ، وإن وجد بقلبه الإشارة إلى السكوت فالسكوت له أتم وأولى .

وجاء في الخبر : « إنَّ الله يُبْفِضُ العبدَ فيسرع إجابته بفضاً لسماع صوته ، وإنه يحب العبدَ فيؤخّر إجابته حباً لسماع صوته » .

ومن أدب الدَّعاء حضور القلب ، فقد روى عنه صلى الله عليه وآله : « إنَّ الله لا يستجيب دعاء قلب لأم » .

ومن شروط الإجابة طيب الطَّعمة وحلَّ المكسب ؛ قال صلى الله عليه وآله اسعد ابن أبي وقاص : « أطبَّ كسبك تُستَجَبْ دعوتك » .

وينبغي أن يكون الدعاء بعد المعرفة ، قيل للجعفر بن محمد الصادق عليه السلام : ما بالنا ندعوا فلا يستجاب لنا ؟ قال : لأنكم تدعون من لا تعرفونه .

كان صالح المري يقول كثيرا : ادعوا : فمن أذن قرع الباب يوشك أن يفتح له ، فقالت له رابعة العدوية : ماذا تقول ؟ : أغلق هذا الباب حتى يستفتح ! فقال صالح : شيخ جَهِل ، واسرأة علمت .

وقيل : فائدة الدعاء إظهار الفاقة من الخلق ، وإلا فالرب يفعل ما يشاء .

وقيل : دعاء العامة بالأقوال ، ودعاء العابد بالأفعال ، ودعاء العارف بالأحوال .

وقيل : خير الدعاء ما يهيج الأحزان والوجد .

وقيل : أقرب الدعاء إلى الإجابة دعاء الاضطراب ؛ لقوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ .

قال أصحاب هذه الطريقة : السنة للمبتدئين أرباب الإرادة منطلقة بالدعاء ، والسنة المحققين الواصلين قد خرس عن ذلك .

وكان عبد الله بن المبارك يقول : مادعوته منذ خمسين سنة ، ولا أريد أن يدعوا لي أحد .

وقيل : الدعاء سلم المذنبين .

وقال من قال بنقيض هذا : الدعاء مراسلة ، وما دامت المراسلة باقية فالأمر جليل بعد .

وقالوا : السنة للمذنبين دموعهم .

وكان أبو علي الدقاق يقول : إذا بكى المذنب فقد راسل الله .

وفي معناه أنشدوا :

دُمُوعُ الْفَقِي عَمَّا يَحْسَنُ تَرْجَمُ وَأَنْفَاسُهُ تَبْدِينُ مَا الْقَلْبُ يُكْتَمُ

وقال بعضهم لبعض العارفين : أدعُ لي ، فقال : كفالك من الإجابة ألا تجعل بينك وبينه واسطة .

ومنها التأسى ، قال سبحانه : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾^(١) أى فى مصابه وما نيل منه فى نفسه وفى أهله يوم أحد ، فلا تجزعوا إن أصيب بمضكم . وجاء فى الحديث المرفوع : لا تنظروا إلى مَنْ فَوْقَكُمْ ، وانظروا إلى مَنْ دُونَكُمْ ، فإنه أجدر ألا تزدروا نعم الله عليكم .
وقالت الخنساء ترى أخاها :

وَلَوْلَا كَثْرَةُ أَلْبَاكِينَ حَوْلِي عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي^(٢)
وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَسَكِنْ أَعَزَّى النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأْسَى

وحقيقة التأسى تهوين المصائب والنوائب على النفس بالنظر إلى ما أصاب أمثالك ، ومن هو أرفعُ محلاً منك .

وقد فسر العلماء قوله تعالى : ﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فِي الْمَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾^(٣) ؛ قال : إنه لا يهون على أحدٍ من أهل النار عذابه ، وإن تأسى بغيره من المعذبين ، لأن الله تعالى جعل لهم التأسى نافعا فى الدنيا ، ولم يجعله نافعا لأهل النار مبالغة فى تعذيبهم ، ونفياً لراحة تصل إليهم .

(١) سورة الأحزاب ٢١ .

(٢) ديوانها ١٥٢

(٣) سورة الزخرف ٣٩

ومنها الفقير ، وهو شعار الصالحين ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « اللَّهُمَّ أَخِيْنِي مِسْكِيْنًا ، وَأُمْتِنِيْ مَسْكِيْنًا ، وَاحْشُرْنِيْ مَعَ الْمَسْكِيْنِ » .
قال لعلي عليه السلام : « إِنَّ اللَّهَ قَدْ زَيَّنَّكَ بِزِيْنَةٍ لَمْ يَزِنَنَّ الْعِبَادَ بِأَحْسَنَ مِنْهَا ، وَهَبَ لَكَ حُبَّ الْمَسْكِيْنِ ، فَجَعَلَكَ تَرْضَى بِهِمْ أَتْبَاعًا ، وَيَرْضَوْنَ بِكَ إِمَامًا » .
وجاء في الخبر المرفوع : « الْفُقَرَاءُ الصُّبُرُ جُلَسَاءُ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .
وسئل يحيى بن معاذ عن الفقير فقال : أَلَا تَسْتَفْنِيْ إِلَّا بِاللَّهِ .
وقال أبو الدرداء : لَأَنْ أَقَعَ مِنْ فَوْقِ قَصْرِ فَأَنْحَطُمْ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ مَجَالَسَةِ الْغَنِيِّ لِأَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ : « إِيَّاكُمْ وَمَجَالَسَةَ الْمَوْتَى » ، فقيل له : وما الموتى ؟ قال : الْأَغْنِيَاءُ .
قيل للربيع بن خثيم : قَدْ غَلَا السَّعَرُ ، قَالَ : نَحْنُ أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ أَنْ يُجْمِعَنَا ، إِنَّمَا يَجْمَعُ أَوْلِيَاءَهُ .

وقيل ليحيى بن معاذ : مَا الْفَقْرُ ؟ قَالَ : خَوْفُ الْفَقْرِ .
وقال الشَّيْبَانِيُّ : أَدْنَى عِلَامَاتِ الْفَقِيرِ أَنْ لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا بِأَسْرَمَا لَوَاحِدٍ فَأَنْفَقَهَا فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ ، ثُمَّ خَاطَرَ بِهَا : « لَوْ أَمْسَكْتَ مِنْهَا قُوَّةَ يَوْمٍ آخِرٍ » ، لَمْ يَصْدُقْ فِي فَقْرِهِ .
سئل ابن الجلاء عن الْفَقْرِ ، فَسَكَتَ ثُمَّ ذَهَبَ قَلِيلًا ، وَعَادَ فَقَالَ : كَانَتْ عِنْدِي أَرْبَعَةُ دَوَانِيْقَ فَضَّةٍ ، فَاسْتَحْيَيْتُ مِنَ اللَّهِ أَنْ أَتَكَلَّمَ فِي الْفَقْرِ وَهِيَ عِنْدِي ، فَذَهَبَتْ فَأَخْرَجْتُهَا ، ثُمَّ قَعَدْتُ فَتَسَكَّلْتُ فِي الْفَقْرِ .

وقال أبو علي الدِّقَاقُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : « مَنْ تَوَاضَعَ لِنَفْسِهِ ذَهَبَ ثَلَاثًا دِينَهُ ، إِنَّ الْمَرْءَ بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ وَجَوَارِحِهِ ، فَمَنْ تَوَاضَعَ لِنَفْسِهِ بِلِسَانِهِ وَجَوَارِحِهِ ، ذَهَبَ ثَلَاثًا دِينَهُ ، فَإِنْ تَوَاضَعَ لَهُ مَعَ ذَلِكَ بِقَلْبِهِ ذَهَبَ دِينُهُ كُلَّهُ .

ومنها الأدب ، قالوا في تفسير قوله تعالى : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾^(١) : حفظ أدب الحضرة .

قيل إنه عليه السلام لم يمدّ نظره فوق المقام الذي أوصل إليه ليلة شاهد السدرة ، وهي أقصى ما يمكن أن ينتهى إليه البشريون .

وفي الحديث المرفوع : « أدبني ربّي فأحسن تأديبي » .

وقيل : إنّ الجفند لم يمدّ رجله في الخلوة عشرين سنة ، وكان يقول : الأدب مع الله أوّل من الأدب مع الخلق .

وقال أبو علي الدقاق : من صاحب الملوك بغير أدب ، أسلمه الجهل إلى القتل .

ومن كلامه عليه السلام : ترك الأدب يوجب الطرد ، فمن أساء الأدب على البساط ، ردّ إلى الباب ، ومن أساء الأدب على الباب ، ردّ إلى ساحة الدواب .

وقال عبد الله بن المبارك : قد أكثر الناس في الأدب ، وعفدى أنّ الأدب معرفة الإنسان بنفسه .

وقال الثوري : من لم يتأدّب للوقت ، فوقعه مقت .

وقال أبو علي الدقاق في قوله تعالى ، حكاية عن أيوب : ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾^(٢) .

قول : لم يقل : « فارتحمني » لأنّه حفظ آداب الخطاب ،

وكذلك قال في قول عيسى : ﴿ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾^(٣) ، قال : لم يقل : « لم أفل »

رعاية لأدب الحضرة .

(١) سورة النجم ١٧

(٢) سورة الأنبياء ٨٣

(٣) سورة المائدة ١١٦

ومنها المحبة ، وهى مقام جليل ، قالوا : المحبة أن تهب كلاك إن أحببت ، فلا يبقى لك منك شئ .

قيل لبعض العرب : ما وجدت من حب فلانة ؟ قال : أرى القمر على جدارها أحسن منه على جذران الناس .

وقال أبو عبد الرحمن السلمى : المحبة أن تغار على محبوبك أن يحبه غيرك .
وقال الفصير اباذى : المحبة نوعان : نوع يوجب حق الدماء ، ونوع يوجب سفك الدماء .
وقيل يحيى بن معاذ : المحبة الخالصة ألا تنقص بالجفاء ، ولا تزيد بالبر .
وقيل للفصير اباذى : كيف حالك فى المحبة ؟ قال : عدمت وصال المحبين ، ورزقت حسرتهم ، فهو ذا أنا أحترق فيها . ثم قال : المحبة مجانبة السلوة على كل حل .
وانشدوا :

وَمَنْ كَانَ فِي طَوْلِ الْهَوَى ذَاقَ سَلْوَةً فَبِئْسَ مَنْ لَيْلَى لَهَا غَيْرُ ذَائِقِ
وَأَكْثَرَ شَيْءٍ نَلْتَهُ مِنْ وَصَالِهَا أَمَانَى لَمْ تَصْدُقْ كَلِمَةَ بَارِقِ

وجاء فى الحديث المرفوع : « المرء مع من أحب » ؛ ولما سمع سمعون هذا الخبر ، قال : فاز المحبون بشرف الدنيا والآخرة ، لأنهم مع الله تعالى .
وفى الحديث المرفوع : « لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله » ، وهذا يتجاوز حد الجلالة والشرف .
وكان يقال : الحب أوله ختل ، وآخره قتل .

قيل : كتب يحيى بن معاذ إلى أبى يزيد : سكرت من كثرة ما شربت من محبته ، فكتب إليه أبو يزيد : غيرك شرب بحور السموات والأرض ، وما روى بعد ، ولسانه خارج ، وهو يقول : هل من مزيد !

وأنشد :

عَجِبْتُ لِمَنْ يَقُولُ ذَكَرْتُ حَبِي وَهَلْ أَنْسَى فَأَذْكَرُ مَا نَسِيتُ
شَرِبْتُ الْحَبَّ كَأْسًا بَعْدَ كَأْسٍ فَمَا نَفِدَ الشَّرَابُ ، وَلَا رَوَيْتُ
وَقِيلَ : الْحَبَّةُ سَكْرٌ لَا يَصْحُو صَاحِبُهُ إِلَّا بِمُشَاهَدَةِ مَحْبُوبِهِ ؛ ثُمَّ السَّكْرُ الَّذِي يَحْصُلُ
عِنْدَ الْمُشَاهَدَةِ لَا يَوْصَفُ .

وأنشدوا :

فَأَسْكَرَ الْقَوْمَ دَوْرُ كَأْسٍ وَكَانَ سَكْرِي مِنَ الْمُدِيرِ

ومنها الشوق ، جاء في الخبر المرفوع : إِنَّ الْجَنَّةَ لَتَشْتَاكُ إِلَى ثَلَاثَةِ : عَلَى ،
وَسَلَامَانَ ، وَعَمَّارَ .

الشوق مرتبة من مراتب القوم ، ومقام من مقاماتهم . سئل ابن عطاء : الشوق
أَعْلَى أَمْ الْحُبَّةُ ؟ فَقَالَ : الْحُبَّةُ ، لِأَنَّ الشَّوْقَ مِنْهَا يَتَوَلَّدُ .

ومن الأدعية النبوية المأثورة الدعاء الذي كَانَ يَدْعُو بِهِ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :
« اللَّهُمَّ بَعْلَمَكَ بِالْغَيْبِ ، وَقَدَّرْتَكَ عَلَى الْخَلْقِ ، أَحْيَيْتَنِي مَا عَمِلْتُ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي ، وَتَوَفَّيْتَنِي
مَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي . اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ
الْحَقِّ فِي الرِّضَا وَالْقَضْبِ ، وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ ، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَبِيدُ ، وَقِرَّةَ عَيْنٍ
لَا تَنْقَطِعُ ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ ، وَبَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ . وَأَسْأَلُكَ النَّظَرَ إِلَى
وَجْهِكَ ، وَالشَّوْقَ إِلَى نِقَائِكَ ، مِنْ غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ . اللَّهُمَّ زِينَا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ ، وَاجْعَلْنَا
هَدَاةً مُهْتَدِينَ » .

قالوا : الشوق احتياج القلب إلى لقاء المحبوب ، وَصَلَّى قَدْرُ الْحُبَّةِ يَكُونُ الشَّوْقُ ،
وَعَلَامَةُ الشَّوْقِ حُبُّ الْمَوْتِ .

وهذا هو السرّ في قوله تعالى : ﴿ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ^(١) : إى أن مَنْ كان صاحب محبة يتمنى لقاء محبوبه ، فمن لا يتمنى ذلك لا يكون صادق المحبة .
 قيل لبعض الصّوفية : هل تشّاق إليه ؟ فقال : إنّما الشّوق إلى غائب ، وهو حاضر لا يغيب .

وقالوا فى قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ﴾ ^(٢) : إنه تطيب لقلب المشتاقين .

ويقال : إنه مكتوب فى بعض كتب النبوءات القديمة : شوقناكم فلم تشّاقوا ، وزمرنا لكم فلم ترقصوا ، وخوفناكم فلم ترهبوا ، ونُحنّا لكم فلم تحزنوا .
 وقيل : إن شعيبا بكى حتى عمى ، فردّ الله إليه بصره ، ثم بكى حتى عمى ، فردّ عايه بصره ، ثم كذلك ثلاثا ، فقال الله تعالى : « إن كان هذا البكاء شوقا إلى الجنة فقد أبحّتها لك ، وإن كان خوفا من النار فقد أجزّتك منها » . فقال : وحقّ لا هذا ولا هذا ، ولكن شوقا إليك ، فقال له : « لأجل ذلك أخدمتك نبى وكليمى عشر سنين » .

ومنها الزهد ورفض الدنيا ، قال سبجانه : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ^(٣) .

وجاء فى الخبر أن يوسف عليه السلام كان يجموع فى سنى الجذب ، فقيل له : أنجمع وأنت على خزائن مصر ! فقال : أخاف أن أشبع فأنسى الجيع .
 وكذلك قال على عليه السلام ، وقد قيل له : أهذا البأسك ، وهذا ما كوكك ، وأنت أمير

(١) سورة البقرة ٩٤

(٢) سورة المكنوت .

(٣) سورة طه ١٣١

المؤمنين ! فقال : نعم ، إن الله فرضَ عَلَى أئمةِ العدل أن يقدِّروا لأنفسهم كضعفةِ النَّاسِ ،
كثيلاً يَبْمِغُ^(١) بالفقر فقره .

ومنع عمر بن الخطاب نفسه عام الرمادة الدَّسَمَ ، وقال : لا آكله حتى يصيبه
المسلمون جميعاً .

وكان عمر بن عبد العزيز من أكثر الناس تنقلاً ؛ قَبِلَ أن يَلِيَ الخلافةَ ، قَوِّمَتِ ثيابه
حينئذ بألف دينار ، وقَوِّمَتِ وهو يخطب النَّاسَ أيام خلافته بثلاثة دراهم .

واعلم أنَّ بعض هذه المراتب والمقامات التي ذكرناها لتقوم قد يكون متداخلاً في
الظاهر ، وله في الباطن عندهم فرق يعرفه مَنْ يأنس بكتبهم ، وقد أتينا في تقسيم مراتبهم
وتفصيل مقاماتهم في هذا الفصل بما فيه كفاية .

(١) يَبْمِغُ به فقرة : أى يغلبه ويحمله على الشر .

(٢١٨)

الأضل :

ومن كلام له عليه السلام :

قاله عند تلاوته : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ ^(١) .
أَذْخَصُ مَسْئُولِ حُجَّةٍ ، وَأَقْطَعُ مُغْتَرٍّ مَعْدِرَةٍ . لَقَدْ أَبْرَحَ جِهَانَهُ بِنَفْسِهِ
يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ، مَا جَرَّكَ عَلَى ذَنْبِكَ ، وَمَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ، وَمَا أَنْسَكَ
بِهَلَسَكَةِ نَفْسِكَ !
أَمَّا مِنْ دَائِكَ بُلُولٌ ، أَمْ لَيْسَ مِنْ نَوْمِكَ يَقْظَةٌ ! أَمَّا تَرَحَّمُ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَرَحَّمُ
مِنْ غَيْرِكَ ! فَدَرُّ مَا تَرَى الضَّاحِيَ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ فَتُظِلُّهُ ، أَوْ تَرَى الْمُبْتَلى بِالْأَمِّ يُبْمِضُ
جَسَدَهُ فَتَبْكِي رَحْمَةً لَهُ !
فَمَا صَبْرَكَ عَلَى دَائِكَ ، وَجَلَدَكَ عَلَى مُصَابِكَ ، وَعَزَّاءَكَ عَنِ الْبُسْكَاءِ عَلَى نَفْسِكَ ،
وَهَيَّ أَعَزُّ الْأَنْفُسِ عَلَيْكَ ؛ وَكَيْفَ لَا بُوقُظُكَ خَوْفُ بَيَاتِ نِقْمَةٍ ؛ وَقَدْ تَوَرَّطْتَ
بِمَعَاصِيهِ مَدَارِجَ سَطَوَاتِهِ !
فَتَدَاوَى مِنْ دَاءِ الْفِتْرَةِ فِي قَلْبِكَ بِعَزِيمَةٍ ، وَمِنْ كَرَى الْغَفْلَةِ فِي نَاطِرِكَ بِيقْظَةٍ ،
وَكَفَى لِلَّهِ مُطِيعًا ، وَبَذِيرًا آئِسًا .
وَتَمَثَّلَ فِي حَالِ تَوَلَّيْكَ عَنْهُ ، إِقْبَالَهُ عَلَيْكَ ، بِدَعْوِكَ إِلَى عَفْوِهِ ، وَبَتَغَمَّدِكَ
بِفَضْلِهِ ، وَأَنْتَ مُتَوَلِّ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ .

فَتَعَالَىٰ مِنْ قُوَّيِّ مَا أَكْرَمَهُ ! وَتَوَاضَعَتْ مِنْ ضَعِيفٍ مَا أَجْرَأَكَ عَلَىٰ مَعْصِيَتِهِ !
وَأَنْتَ فِي كَذِبِ سِتْرِهِ مُقِيمٌ ، وَفِي سَعَةِ فَضْلِهِ مُتَقَلِّبٌ ! فَلَمْ يَمْنَعْكَ فَضْلُهُ ، وَلَمْ يَهْتِكْ
عَنْكَ سِتْرَهُ ، بَلْ أَنْ تَخْلُ مِنْ لُطْفِهِ مَطْرَفَ عَيْنٍ ؛ فِي نِعْمَةٍ يُحْدِثُهَا لَكَ ، أَوْ سَيِّئَةٍ
يَسْتُرُهَا عَلَيْكَ ، أَوْ بَلِيَّةٍ يَصْرِفُهَا عَنْكَ ، فَمَا ظَنُّكَ بِهِ لَوْ أَطَاعْتَهُ .

وَأَيُّمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ هَذِهِ الصِّفَةَ كَانَتْ فِي مُتَفَقِّينَ فِي الْقُوَّةِ ، مُتَوَازِينَ فِي الْقُدْرَةِ ،
لَكُنْتَ أَوَّلَ حَاكِمٍ عَلَىٰ نَفْسِكَ بِذِمِيمِ الْأَخْلَاقِ ، وَمَسَاوِي الْأَعْمَالِ .
وَحَقًّا أَقُولُ ! مَا الدُّنْيَا غَرَّتْكَ ، وَلَكِنْ بِهَا اغْتَرَزْتَ ، وَلَقَدْ كَاشَفَتْكَ الْعِظَاتِ ،
وَأَذَنَّتْكَ عَلَىٰ سَوَاءٍ .

وَلَمَّحَىٰ بِمَا تَعْدُكَ مِنْ نَزُولِ الْبَلَاءِ بِجِسْمِكَ ، وَالنَّقْضِ فِي قُوَّتِكَ ، أَصْدَقُ وَأَوْفَىٰ مِنْ
أَنْ تَكْذِبَكَ أَوْ تَغُرَّكَ . وَلَرُبَّ نَاصِحٍ لَهَا عِنْدَكَ مُتَهَمٌ ، وَصَادِقٍ مِنْ
خَبَرِهَا مُكَذَّبٌ .

وَلَتَنْ تَعْرِفْتَهَا فِي الدِّيَارِ الْخَالِيَةِ ، وَالرُّبُوعِ الْخَالِيَةِ ، لَتَجِدَنَّهَا مِنْ حُسْنِ تَذَكُّيرِكَ ،
وَبَلَاغِ مَوْعِظَتِكَ ، بِمَحَلَّةِ الشَّفِيقِ عَلَيْكَ ، وَالشَّحِيحِ بِكَ ! وَلَنِعَمَ دَارُ مَنْ لَمْ يَرْضَ
بِهَا دَارًا ، وَتَحَلَّ مَنْ لَمْ يُوطَّنْهَا بِحَلًّا !

وَإِنَّ السُّمَدَاءَ بِالدُّنْيَا غَدًا هُمُ الْهَارِبُونَ مِنْهَا الْيَوْمَ ، إِذَا رَجَعْتَ الرَّاجِفَةُ ، وَحَقَّتْ
بِحِلَالِهَا الْقِيَامَةُ ، وَلِخَلْقٍ بِكُلِّ مَنَسَكٍ أَهْلُهُ ، وَبِكُلِّ مَعْبُودٍ عَبْدَتُهُ ، وَبِكُلِّ مُطَاعٍ
أَهْلُ طَاعَتِهِ ، فَلَمْ يَجْرِ فِي عَذْلِهِ وَقِطْعِهِ يَوْمُنِيذٍ خَرَقُ بَصَرٍ فِي الْهَوَاءِ ، وَلَا تَهْمُسُ
قَدَمٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا بِحَقِّهِ . فَسَكَمَ حُجْبَةُ يَوْمَ ذَاكَ دَاحِضَةً ، وَعَلَانِيَةُ عُدْرِ مُنْقَطِعَةً !
فَتَحَرَّرَ مِنْ أَمْرِكَ مَا يَقُومُ بِهِ عُدْرُكَ ، وَتَذَبُّتُ بِهِ حُجْبَتُكَ ، وَخَذَّ مَا يَبْقَىٰ لَكَ
مِمَّا لَا تَبْقَىٰ لَهُ ، وَتَيَسَّرَ لِسَقَرِكَ ؛ وَشِمَّ بَرَقَ النِّجَاحِ ، وَارْحَلْ مَطَايَا التَّشْمِيرِ .

السُّنْج :

لقائل أن يقول: لو قال : « ما غرك بربك العزيز أو المتقم » أو نحو ذلك ، لكان أولى لأنَّ للإنسان المعائب أن يقول : غرتني كرمك الذي وصفت به نفسك ا

وجواب هذا أن يقال : إنَّ مجموع الصفات صار كشيء واحد ، وهو الكريم الذي خلقتك فسوّاك فعدلك ، في أي صورة ماشاء ركبك . والمعنى : ما غرك برب هذه صفته ، وهذا شأنه ، وهو قادر على أن يجعلك في أي صورة شاء . فما الذي يؤمّنك من أن يمسحك في صورة القرّدة والخنازير ونحوها من الحيوانات العجم . ومعنى الكريم هاهنا : الفياض على المواد بالصور ، ومن هذه صفته ينبغي أن يخاف منه تبديل الصورة .

قال عليه السلام : « أدحض مسئول حُجّة » المبتدأ محذوف ، والحجة الداحضة : الباطلة .

والمعذرة بكسر الذا : العذر .

ويقال : اقد أبرح فلان جهالةً ، وأبرح لؤماً ، وأبرح شجاعةً ، وأنى بالبرح من ذلك ، أى بالشديد العظيم . ويقال : هذا الأمر أبرح من هذا ، أى أشدّ ، وقتلوه أبرح قتل . وجهالة منصوب على التمييز .

وقال الفطرب الراوندى : مفعول به ، قال معناه : جلب جهالةً إلى نفسه ، وليس بصحيح ؛ وأبرح لا يتعدّى هاهنا وإنما يتعدّى « أبرح » في موضعين : أحدهما أبرحه الأمر ، أى أعجبه ، والآخر أبرح زيدٌ عمرًا ، أى أكرمه وعظمه .

قوله : « ماجراك » بالهمزة ، وفلان جرى القوم ، أى مقدّمهم . وما أنسك بالتشديد ، وروى : « ما آنسك » بالمد ؛ وكلاهما من أصل واحد ، وتأنتس

بفلان واستأنستُ بمعنَى ، وفلان أنيسى وموانسى ، وقد أنسى وآسنى كله بمعنى ،
أى كيف لم تستوحش من الأمور التى تؤدى إلى هلكة نفسك .

والبلول : مصدر بلّ الرجل من مرضه ، إذا برى ، ويجوز « أبل » ، قال الشاعر :

إذا بلّ من داء به ظنّ أنه نجا وبه الداء الذى هو قاتله^(١)

والضّاحى لحرّ الشمس : البارز . وهذا داء ممضّ ، أى مؤلم ، أمضى الجرح إمضاضاً ،
ويجوز « مَضّنى » .

وروى : وجلّدك على مصائبك » ، بصيغة الجمع .

وبيّأت نعمة بفتح الباء : طروقها ليلاً ، وهى من ألقاظ القرآن العزيز^(٢) .

وتورط : وقع فى الورطة ، بتسكين الزاء ، وهى الهلاك ، وأصل الورطة أرض مطمّنة
لا طريق فيها ، وقد أورطه ، وورطه توريطاً ، أى أوقعه فيها .

والمدارج : الطرق والمسالك ، ويجوز انتصاب « مدارج » ها هنا ، لأنها مفعول به
صريح ، ويجوز أن ينتصب على تقدير حرف الخفض وحذفه ، أى فى مدارج سطواته .
قوله : و « تمثّل » أى وتصور .

ويغفمّلك بغضله ، أى يسترّك بعفوه ، وسُمّي العفو والصفح فضلاً ؛ تسمية
للنوع بالجنس .

قوله : « مطرّف عين » بفتح الراء ، أى زمان طرف العين ، وطرفها : إطباق أحد

(١) الصجاح ٤ : ١٦٤٠ (من غير نسبة) .

(٢) منه قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ .

٤ سورة الأعراف .

(١٦ - نهج ١١)

جفنيها على الآخر ، وانتصاب «مطرف» هاهنا على الظرفية، كقولك : وردت مقدم الحاج ،
أى وقت قدومهم .

قوله : « متوازيين في القدرة » ، أى متساويين ، وروى : « متوازنين » بالدون .
والعظات : جمع عظة ، وهو منصوب على نزع الخافض ، أى كاشفتك بالعظات ، وروى
« العظات » بالرفع على أنه فاعل . وروى : « كاشفتك الفطاء » .
وأذنتك ، أى أعلمتك .

وعلى سواء ، أى على عدل وإنصاف ، وهذا من الألفاظ القرآنية ^(١) .
والراجفة : الصيحة الأولى ، وحققت بجلالها القيامة ، أى بأمورها العظام . والنسيك :
الموضع الذى تذبح فيه النساءك ، وهى ذبائح القربان ويجوز فتح السين ، وقد قرئ بهما
في قوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا ﴾ ^(٢) .
فإن قلت : إذا كان يلحق بكل معبود عبده ؛ فالنصارى إذن تلحق بعبسى ،
والغلاة من المسلمين بعلى ، وكذلك الملائكة ، فما القول فى ذلك ؟

قلت ، لا ضرر فى التحاق هؤلاء بعبوديتهم ، ومعنى الالتحاق أن يؤمر الأنباغ فى
الموقف بالتحيز إلى الجهة التى فيها الرؤساء ، ثم يقال للرؤساء : أهؤلاء أتباعكم وعبدتكم ؟
فحينئذ يقبرون منهم ، فينجو الرؤساء ، وتهلك الأتباع ، كما قال سبحانه : ﴿ أَهَؤُلَاءِ إِبْرَاهِيمُ
كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ
يَهُمُّ مُؤْمِنُونَ ﴾ ^(٣) ، أى إنا كنا نطعمون الشياطين المضلة لهم ، فعبادتهم فى

(١) منه قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّمَا تَخَافَنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْزِلْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ .

٥٨ سورة الأنفال .

(١) سورة الحج ٦٧ .

(٣) سورة سبأ ٤١ .

الحقيقة للشياطين لالنا ، وإنهم ما أطاعونا ، ولو أطاعونا لكانوا مهتدين ، وإنما أطاعوا شياطينهم .

ولا حاجة في هذا الجواب إلى أن يقال ما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَسْكُمُ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ^(١) من تخصيص العموم بالآية الأخرى ، وهى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ ^(٢) .

فإن قلت : فما قولك في اعتراض ابن الزبعرى على الآية ، هل هو وارد ؟ قلت : لا ، لأنه قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَسْكُمُ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ و « ما » لما لا يعقل ، فلا يرد عليه الاعتراض بالمسيح والملائكة : والذي قاله المفسرون من تخصيص العموم بالآية الثانية تسكف غير محتاج إليه .

فإن قلت : فما الفائدة في أن قرّن القوم بأصنامهم في النار ؟ وأى معنى لذلك في زيادة التعذيب والسخط ؟

قلت : لأنّ النظر إلى وجه العدو باب من أبواب العذاب ، ولما أصاب هؤلاء ما أصابهم بسبب الأصنام التي ضلّوا بها ، فكلمّا رأوها معهم زاد غمهم وحسرتهم . وأيضا فإنهم قدروا أن يستشفعوا بها في الآخرة ، فإذا صادفوا الأمر على عكس ذلك لم يكن شيء أبغض إليهم منها .

قوله : « فلم يجز » قد اختلف الرواة في هذه اللفظة ، فرواها قوم « فلم يجز » وهو مضارع « جرى يجرى » ، تقول : ما الذي جرى للقوم ؟ فيقول من سألته : قدّم الأمير من السفر ، فيكون المعنى على هذا : فلم يكن ولم يتجدّد في ديوان حسابه ذلك اليوم صغير ولا حقير إلّا بالحق والإنصاف . وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعٌ ﴾

(١) سورة الأنبياء ٩٨ .

(٢) سورة الأنبياء ١٠١ .

الحساب^(١)، ورواها قوم « فلم يجوز »، مضارع « جاز يجوز »، أى لم يسغ ولم يرخص ذلك اليوم لأحد من المكلفين فى حركة من الحركات المحقرات المستصغرات؛ إلا إذا كانت قد فعلها بحق، وعلى هذا يجوز فعل مثلها. ورواها قوم: « فلم يجوز » من « جار »، أى عدل عن الطريق، أى لم يذهب عنه سبحانه، ولم يضلّ ولم يشذّ عن حسابه شيء من أمر محقرات الأمور إلا بحقه، أى إلا مالا فائدة فى إثباته والمحاسبة عليه، نحو الحركات المباحة والعبثية التى لا تدخل تحت التكليف.

وقال الراوندى: « خَرَقُ بَصَرٍ » مرفوع لأنه اسم مالم يسمّ فاعله، ولا أعرف لهذا الكلام معنى.

والهمس: الصوت الخفى.

قوله: « فتحرّ من أمرك »، تحرّيت كذا، أى توخّيته وقصدته واعتمدته.

قوله: « وتيسّر لسفرك »، أى هيّأ أسباب السفر، ولا تترك لذلك عائقا.

والشّيم: النظر إلى البرق.

ورحلت مطيقي، إذا شددت على ظهرها الرحل، قال الأعشى:

رَحَلْتُ سُمَيَّةَ غَدَوَةٍ أَجْمَالَهَا غَضَبِي عَلَيْكَ فَمَا تَقُولُ بِدَالِهَا^(٢)

والنّشيم: الجدّ والانكماش فى الأمر.

ومعانى الفصل ظاهرة، وألفاظه الفصيحة تعطىها وتدلّ عليها بما لو أراد المفسر أن يعبّر عنه بعبارة غير عبارته عليه السلام لكان لفظه عليه السلام أولى أن يكون تفسيراّ لسكلام ذلك المفسر.

(١) سورة غافر ١٧

(٢) مطلع قصيدته، ديوانه ٢٢.

(٢١٩)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

وَاللَّهِ لَأَنَّ أُبَيْتَ عَلَى حَسَكِ السَّعْدَانِ مُسَهَّدًا ، وَأُجَرَ فِي الْأَغْلَالِ مُصَفَّدًا ،
أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِمًا لِبَعْضِ الْعِبَادِ ، وَغَاصِبًا لِمَشْيِ
مِنَ الْخَطَايَا ، وَكَفَيْتُ أَظْلِمُ أَحَدًا لِنَفْسِي يُسْرِعُ إِلَى الْبَلَى قَوْلُهَا ، وَيَطُولُ فِي
النَّزَى حُلُولُهَا !

وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَقِيلاً وَقَدْ أَمَلَقَ حَتَّى اسْتَمَحَنِي مِنْ بُرُكُمُ صَاعًا ، وَرَأَيْتُ
صَبِيحًا نَهَى شَعَثَ الشُّعُورِ ، غُبَرَ الْأَلْوَانِ مِنْ فَقْرِهِمْ ، كَأَنَّمَا سُوِّدَتْ وَجُوهُهُمْ بِالْعَظِيمِ ،
وَعَا وَدَنِي مُوَكَّدًا ، وَكَرَّرَ عَلَى الْقَوْلِ مُرَدَّدًا ، فَأَضَعَيْتُ إِلَيْهِ سَمِي ، فَظَنَّ أَنَّ ابْنَهُ
دِينِي ، وَاتَّبَعُ قِيَادَهُ مُفَارِقًا طَرِيقَتِي ، فَأَحْمَيْتُ لَهُ حَدِيدَةً ، ثُمَّ أَدْنَيْتُهَا مِنْ
جِسْمِهِ لِمَتِيرِهَا ، فَضَجَّ ضَجِيجَ ذِي دَنْفٍ مِنَ أَمِيهَا ، وَكَادَ أَنْ يَحْتَرِقَ مِنْ مَيْسَمِهَا ،
فَقُلْتُ لَهُ : تَكَلَّمْتَ النَّوَاكِيلُ بِأَعْقِيلٍ ! أَتَنْتُ مِنْ حَدِيدَةٍ أَحَاكَا إِنْسَانَهَا لِلْعَبْرِ ،
وَتَجَرَّيَ إِلَى نَارٍ سَجَرَهَا جَبَّارُهَا لِفَضِيهِ ! أَتَنْتُ مِنَ الْأَذَى وَلَا أَتْنُ مِنَ لَفَى !

وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ طَارِقُ طَرَفَنَا بِمَلْفُوفَةٍ فِي وَعَائِهَا ، وَمَعْجُونَةٍ شَنَشَتْهَا ؛ كَأَنَّمَا
عُجِنَتْ بِرَيْقِ حَيَّةٍ أَوْ قَيْيِهَا ، فَقُلْتُ : أَصِلَةٌ أَمْ زَكَاةٌ أَمْ صَدَقَةٌ ؟ فَذَلِكَ مُحَرَّمٌ
عَلَيْنَا أَهْلُ الْبَيْتِ ! فَقَالَ : لَا ذَا وَلَا ذَاكَ ؛ وَلَكِنَّهَا هَدِيَّةٌ . فَقُلْتُ : هَيْلَتِكَ الْهَبُولُ !
أَعَنْ دِينَ اللَّهِ أَتَيْتَنِي لِتَخْذَعَنِي ! أَلْتَحْبِطُ أَمْ ذُو جِنَّةٍ أَمْ تَهْجُرُ ! وَاللَّهِ لَوْ أُعْطِيتُ
الْأَقَالِمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاكِهَا ، عَلَى أَنْ أُعْصِيَ اللَّهَ فِي نَمَلَةٍ أَسْلَبَهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ

مَا فَعَلْتُهُ ؛ وَإِنْ دُنِيَائِي لَأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمٍ جَرَادَةٍ تَقْضُمُهَا .
مَا لِي لِيٍّ وَلَنَعِيمٍ يَفْتَنِي ؛ وَلَذَلِكَ لَا تَبْقَى الْاِعْوَاذُ بِاللَّهِ مِنْ سُهَاتِ الْعَقْلِ ، وَتُبْحَرِ
الزَّلَالُ ، وَبِهِ نَسْتَعِينُ .

البُخ :

السَّعْدَانُ : نبتٌ ذو شوك ؛ يقال له : حَسَكُ السَّعْدَانِ وَحَسَكَةُ السَّعْدَانِ ؛ وتشبه
به حَلْمَةُ النَّدَى ، فيقال : سَعْدَانَةُ النَّنْدُوَّةِ ، وهذا التَّيْبُ من أفضل مراعى الإبل ، وفي
المثل « مَرَعَى وَلَا كَالسَّعْدَانِ » ؛ ونونه زائدة ، لأنه ليس في الكلام « فَعْلَالٌ » غير
مضاعف ، إلا « خَزَعَالٌ » وهو ظنُّع يلحق الناقة ، و « قَهْقَارٌ » ، وهو الحجر الصلب ،
و « قَسْطَالٌ » وهو الغبار .

والمسهد : الممنوع النوم ، وهو السهاد .

والأغلال : القيود . والمصفد : المقيّد . والخطام : عروض الدنيا ومتاعها ، شبه
لزواله وسرعة فوائه بما يتحطم من العيدان ويتكسر .

ثم قال : كيف أظلم الغاس لأجل نفسٍ تموت سريعاً - بمعنى نفسه عليه السلام !
فإن قلت : أليس قوله : « عن نفسٍ يسرّ إلى البلى قُفُولُهَا » يشعر بمذهب من
قال بقدّم الأنفس ، لأنّ القُفُولَ الرجوع ، ولا يقال في مذهبه للمسافرة : قافلة إلا إذا
كانت راجعة .

قلت : لا حاجة إلى القول بقدّم الأنفس محاطةً على هذه اللفظة ، وذلك لأنّ
النفس إذا كانت حادثة فقد كان أصلها العدم ، فإذا مات الإنسان عدت نفسه فرجعت
إلى العدم الأصليّ ، وهو المعبر عنه بالبلى .

وأملق : افتقر ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ﴾ ^(١) .
 واستماحنى : طلب منى أن أعطيه صاعاً من الحنطة ، والصاع أربعة أمداد ، والمدّ
 رطل وثلاث ، فجموع ذلك خمسة أرطال ، وثلاث رطل ، وجمع الصاع أصوع ، وإن
 شئت همزت . والصُّواع لقة في الصاع ، ويقال : هو إناء يشرب فيه .
 والمِظلم ، بالكسرة في الحرفين : نَبَت يصنع به ما يراد اسوداده ، ويقال :
 هو الوسمة :

وشعث الألوان ، أى غُبر .
 وأصغيت إليه : أملتُ سمعى نحوه .
 وأتبع قياده : أطيعه وأنقاد له .
 وأحميت الحديد في النار ، فهي محمأة ، ولا يقال : سحيت الحديد .
 وذى دَنف ، أى ذى سقم مؤلم .
 ومن ميسمها : من أثرها في يده .
 وثكلتك الثواكل ، دعاء عليه ، وهو جمع ثاكلة ، وفواعل لا يحىء إلا جمع
 المؤنث إلا فيما شذّ ، نحو فوارس ، أى ثكلتك نساؤك .
 قوله : « أحماها إنسانها » ، أى صاحبها ، ولم يقل « إنسان » ، لأنه يريد أن يقابل
 هذه اللفظة بقوله : « جبارها » .

وسجّرها ، بالتخفيف : أوقدها وأحماها ، والسجور ما يسجر به التنور .
 قوله : « بملقوفة في وعائها » ، كان أهدى له الأشعث بن قيس نوعاً من الخلواء
 تأتق فيه ، وكان عليه السلام يُبفض الأشعث ، لأنّ الأشعث كان يُبفضه ، وظنّ الأشعث
 أنّه يستميله بالمهاداة لغرض دنيوى كان في نفس الأشعث ، وكان أمير المؤمنين

عليه السلام يفيطن لذلك ويملمه ، ولذلك ردّ هديّة الأشعث ، ولولا ذلك لقبلها ، لأنّ النبي صلى الله عليه وآله قبل الهدية ، وقد قبل علىّ عليه السلام هدايا جماعة من أصحابه ، ودعاه بعض مَنْ كان يأنس إليه إلى حلّوا عملها يوم نوروز فأكل وقال : لم عمّدت هذا ؟ فقال : لأنه يوم نوروز ، فصحك . وقال : نورزوا لنا في كل يوم إن استطعتم . وكان عليه السلام من لطافة الأخلاق وسجاجة الشيم على قاعدة محببة جميلة ، ولكنه كان ينفر عن قومٍ كان يعلم من حالهم الشنآن له ، وعمن يحاول أن يصانعه بذلك عن مال المسلمين ، وهيهات حتى يلين ليضرس الماضع الحجر ! وقال : بملفوفة في وعائها ، لأنه كان طبق مغطى .

ثم قال : « وممجونة شئتُها » ، أى أبغضتها ونفرت عنها . كأنها عجبت بريق الحية أو يقيتها ، وذلك أعظم الأسباب للنفرة من الماء كقول . وقال الراوندى : وصفها باللطافة فقال : كأنها عُجِبَتْ بريق الحية ، وهذا تفسير أبعد من الصحيح .

قوله : « أصِلَّة » ، أم زكاة أم صدقة ؛ فذلك محرم علينا أهل البيت ! ، الصلة : العطية لا يراد بها الأجر ، بل يراد وصلة التقرب إلى الوصول ، وأكثر ما تفعل للذكور والصبيات . والزكاة : هى ما تجب فى النصاب من المال . والصدقة ها هنا هى صدقة التطوع ، وقد تسمى الزكاة الواجبة صدقة ، إلا أنها هنا هى النافلة .

فإن قلت : كيف قال : « فذلك محرم علينا أهل البيت » ، وإنما يحرم عليهم الزكاة الواجبة خاصة ، ولا يحرم عليهم صدقة التطوع ، ولا قبول الصلّات ؟ قلت : أراد بقوله : « أهل البيت » الأشخاص الخمسة : محمدا ، وعلياً ، وفاطمة ، وحسنا ، وحسينا

عليهم السلام، فهؤلاء خاصة دون غيرهم من بني هاشم، محرّم عليهم الصلّة وقبول الصدقة، وأما غيرهم من بني هاشم فلا يحرم عليهم إلا الزكاة الواجبة خاصة .

فإن قلت : كيف قلت : إنّ هؤلاء الخمسة يحرم عليهم قبول الصلّات ، وقد كان حسن وحسين عليهما السلام يقبلان صلّة معاوية ؟

قلت : كلاً لم يقبلا صلبه ، ومماذا الله أن يقبلاها ١ وإنما قبلا منه ما كان يدفعه إليهما من جملة حقهما من بيت المال ، فإنّ سهم ذوى القربى منصوص عليه في الكتاب العزيز ، ولهما غير سهم ذوى القربى سهم آخر للإسلام من الغنائم .

قوله : « هبلك الهُبُول » أى تُسكلك أمك، والهُبُول التى لها عادة بشكل الولد .
فإن قلت : ما الفرق بين مخنّيط ، وذى جَنّة ، ويهجر ؟

قلت : المخنّيط: المصروع من غلبة الأخلاط السوداء أو غيرها عليه، وذو الجَنّة مَنْ به مسٌّ من الشيطان . والذى يهجر هو الذى يهذى فى مرض ليس بصرع كالحموم والمبرسم ونحوهما .

وجلب الشعيرة ، بضم الجيم : قشرها ، والجلب والجلبه أيضا جليدة تملو الجرح عند البرء ، يقل منه : جلب الجرح يحلب ويحلب ، وأجلب الجرح أيضا ، ويقال للجليدة التى تجعل على القتب جلبة أيضا .

وتقضمها بفتح الضاد ، والماضى قَضِم بالكسر .

[نبذ من أخبار عَقِيل بن أبي طالب]

وعَقِيل ، هو عَقِيل بن أبي طالب - عليه السلام - بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف ، أخو أمير المؤمنين عليه السلام لأمه وأبيه ، وكان بنو أبي طالب أربعة : طالب ، وهو أَسَن من عَقِيل بمِئتين سنين ، وعَقِيل وهو أَسَن من جعفر بمِئتين سنين ، وجعفر وهو أَسَن من علي بمِئتين سنين ، وعلي وهو أصغرهم سِنًا ، وأعظمهم قَدْرًا ، بل وأعظم الناس بعد ابن عمه قَدْرًا .

وكان أبو طالب يحب عَقِيلًا أكثر من حبه سائر بنيهِ ، فلذلك قال للنبي صلى الله عليه وآله وللعباس حين أتياه ليقتسما بذيهِ عامَ المحل ، فيخففاه عنه ثقلهم : « دَعُوا لِي عَقِيلًا ، وخذوا مِن شَتْمِ » ، فأخذ العباس جعفرًا ، وأخذ محمد صلى الله عليه وآله عليا عليه السلام .

وكان عَقِيل يكنى أبا يزيد ، قال له رسول الله صلى الله عليه وآله : « يا أبا يزيد ، إني أحبك حُبِّين : حُبًّا لقرباك مِنِّي ، وحُبًّا لما كُفْتُ أعلم من حُبِّ عَمِّي إياك » . أخرج عَقِيلٌ إلى بدر مكرهاً كما أخرج العباس ، فأسيرَ وفدًى ، وعاد إلى مكَّة ، ثم أقبل مسلماً مهاجراً قبل الحديبية ، وشهد غزاة مؤتة مع أخيه جعفر عليه السلام ، وتوفي في خلافة معاوية في سنة خمسين ، وعمره ست وتسعون سنة .

وله دارٌ بالمدينة معروفة ، وخرج إلى العراق ، ثم إلى الشام ، ثم عاد إلى المدينة ، ولم يشهد مع أخيه أمير المؤمنين عليه السلام شيئاً من حروبه أيام خلافته ، وعرض نفسه وولده عليه فأعفاه ، ولم يكلفه حضور الحرب .

وكان أنسب قرشي وأعلمهم بأيامها ، وكان مبغضاً إليهم ، لأنه كان يعد مساوئهم .

وكانت له طينيسة تعارح في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله ، فيصلى عليها ،
ويجتمع إليه الناس في علم النسب وأيام العرب ، وكان حينئذ قد ذهب بمصره ، وكان
أسرع الناس جوابا ؟ وأشدهم عارضة .

كان يقال : إن في قريش أربعة يُتبحر في علم النسب وأيام قريش ، ويرجع
إلى قولهم : عقيل بن أبي طالب ، ونخترمة بن نوفل الزهري ، وأبو الجهم بن حذيفة
المدوني ، وحويل بن عبد المزي العماري .

واختلف الناس في عقيل ؛ هل التحق بمعاوية وأمير المؤمنين حتى ؟ فقال قوم : نعم ،
ورؤوا أن معاوية قال يوما وعقيل عنده : هذا أبو زيد ، لولا علمه أني خير له من أخيه
لما أقام عندنا وتركه . فقال عقيل : أخي خير لي في ديني ، وأنت خير لي في دنياي ،
وقد آثرت دنياي ، أسأل الله خاتمة خير .

وقال قوم : إنه لم يمد إلى معاوية إلا بعد وفاة أمير المؤمنين عليه السلام ؛ واستدلوا
على ذلك بالكتاب الذي كتبه إليه في آخر خلافته ، والجواب الذي أجابه عليه السلام ،
وقد ذكرناه فيما تقدم ، وسيأتي ذكره أيضا في باب كتبه عليه السلام ، وهذا القول هو
الأظهر عندي .

وروى الدائقي ، قال : قال معاوية يوما لعقيل بن أبي طالب : هل من حاجة فأقضيها
لك ؟ قال : نعم جارية عُرِضت على وأبي أصحابها أن يبيموها إلا بأربعين ألفا ، فأحب
معاوية أن يمازحها فقال : وما تصنع بجارية قيمتها أربعون ألفا وأنت أعمى تجتزئ
بجارية قيمتها خمسون درهما قال : أرجو أن أطأها فتلد لي غلاما إذا أغضبته يضرب
عقيلك بالسيف . فضحك معاوية : وقال : ما زحمتك يا أبا يزيد ! وأمر فابتيعت له الجارية

التي أولد منها مُسلمًا ، فلما أتت على مسلم ثمانى عشرة سنة - وقد مات عَقِيل أبوه - قال
لمعاوية : يا أمير المؤمنين ، إنَّ لى أرضاً بمكان كذا من المدينة ، وإنى أعطيتُ بها مائة ألف ،
وقد أحببت أن أبيعك إياها ، فادفع إلىَّ ثمنها ، فأمر معاوية بقبض الأرض ، ودفع
الثنى إليه .

فبلغ ذلك الحسين عليه السلام ، فكتب إلى معاوية : أما بعدُ ، فإنك غررت غلاماً
من بنى هاشم ، فابتعتَ منه أرضاً لا يملكها ، فاقبض من الغلام ما دفعته إليه ، وارجد
إلينا أرضنا .

فبعث معاوية إلى مسلم ، فأخبره ذلك ، وأقرأه كتاب الحسين عليه السلام ، وقال :
ارددْ علينا مالنا ، وخذ أرضك ، فإنك بعتَ مالا تملك ، فقال مسلم : أما دون أن أضربَ
راسك بالسيف فلا ، فاستلقى معاوية ضاحكا يضرب برجليه ، فقال : يا بنى ، هذا والله
كلام قاله لى أبوك حين ابتعتُ له أمك .

ثم كتب إلى الحسين : إنى قد رددت عليك الأرض ، وسوّغتُ مسلماً ما أخذ .
فقال الحسين عليه السلام : أيتيم يا آل أبى سفيان ألا كرموا !

وقال معاوية لعَقِيل : يا أبى يزيد ، أين يكون عمك أبولهب اليوم ؟ قال : إذا دخلت
جهنم ، فاطلبه تجده مضاجعا لعمتك أم جميل بنت حرب بن أمية .

وقالت له زوجته ابنة عتبة بن ربيعة : يا بنى هاشم ، لا يحبكم قلبى أبداً ، ابن عمى ؟
ابن أخى ؟ كان أعناقهم أباريق الفضة ، ترى آنافهم الماء قبل شفاهم ، قال : إذا دخلت
جهنم ، نخذى صلى شمالك .

سأل معاوية عقيلاً عن قصّة الحديدية الحمّاة المذكورة ، فبكى وقال : أنا أحدثك
يامعاوية عنه ، ثم أحدثك ممّا سألت ، نزل بالحسين ابنه ضيف ، فاستسلف درهما اشترى
به خبزاً ، واحتاج إلى الإدام فطلب من قنبر خادمهم ، أن يفتح له زِقاً من زقاق عسل
جاءتهم من اليمن ، فأخذ منه رطلاً ، فلما طلبها عليه السلام ليقسيمها ، قال : يا قنبر ، أظنّ
أنه حدث بهذا الزقّ حدث ! فأخبره ، فغضب عليه السلام ، وقال : علىّ بحسين افرغ عليه
الدرة ، فقال : بحقّ صمّي جعفر - وكان إذا سئل بحقّ جعفر سَكَن - فقال له : ما حملك أن
أخذت منه قبل القسمة ؟ قال : إنّ لنا فيه حقاً ، فإذا أعطيناه رددناه ، قال : فذاك أبوك !
وإن كان لك فيه حقّ ، فليس لك أن تمنّعه بحقّك قبل أن ينتفع المسلمون بحقوقهم ! أما
لولا أنّي رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقبلُ ثنيّةك لأوجعتُك ضرباً . ثم دفع إلى
قنبر درهما كان مصروراً في ردائه ، وقال : اشترِ به خير عسلٍ تقدر عليه .

قال عقيلاً : والله لسكّاني أنظر إلى يديّ علىّ ، وهي كلّى فم الزقّ ، وقنبر يقليب
العسل فيه ، ثم شدّه وجعل يبكي ، ويقول : اللهم اغفرّ لحسين فإنه لم يعلم !

فقال معاوية : ذكرتَ من لا ينكر فضله ، رحم الله أبا حسن ، فاقصد سبق مَنْ كان
قبله ، وأهجز مَنْ يأتي بعده ! هلمّ حديث الحديدية .

قال : نعم ؛ أقويت وأصابتنى بخصّة شديدة ، فسألته فلم تفدّ صفّاته ، فجمعت صدياني
وجنّته بهم ، والبؤس والغصّر ظهران عليهم ، فقال : انتفى عشيّة لأدفع إليك شيئاً ، فجنّته
يقودني أحد ولدي ، فأمره بالتمنّح ، ثم قال : ألا فدونك ، فأهويت - حريصاً قد غلبني
الجشع ، أظنها صرّة - فوضعتُ يدي كلّى حديدة تلتهب ناراً ، فلما قبضتها نبذتها ،
وسخّرت كما يخور الثور تحت يد جازره ، فقال لي : شكّلتك أمك ! هذا من حديدة

أوقدت لها نار الدنيا ، فكيف بك وبى غداً إن سلكنا فى سلاسل جهنم ! ثم قرأ :
﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾ (١) .
ثم قال : ليس لك عندى فوق حَقِّكَ الذى فرضه الله لك إلا ما ترى ، فانصرف
إلى أهلك .

فجمل معاوية يتمجّب ، ويقول : هيهات هيهات ! عَقِمَت النساء أن يلدن مثله !

(٢٢٠)

الأفضل :

ومن دعاء له عليه السلام :

اللهمَّ صُنْ وَجْهِي بِالْيَسَارِ ، وَلَا تَبْذُلْ جَاهِي بِالْإِفْتَارِ ، فَأَسْتَزِقَ طَائِي زُرُوقَ ،
وَأَسْتَمُطِّفَ شِرَارَ خَلْقِكَ ، وَأُبْقِيَ بِحَمْدِكَ مَنْ أَعْطَانِي ، وَأُفْتِتَنَ بِذِمِّ مَنْ مَنَعَنِي ،
وَأَنْتَ مِنْ وَرَاءَ ذَلِكَ كُلِّهِ وَلِيُّ الْإِعْطَاءِ وَالنَّعْرِ ؛ ﴿ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

السُّنَّح :

صُنْ وَجْهِي بِالْيَسَارِ ، أَيْ اسْتَرِهِ بِأَنْ تَرْزُقَنِي يَسَاراً وَثَرَةً ، أَسْتَغْنِي بِهِمَا عَنْ
مَسْأَلَةِ النَّاسِ .

وَلَا تَبْذُلْ جَاهِي بِالْإِفْتَارِ ، أَيْ لَا تَسْقُطْ مَرُوءَتِي وَحُرْمَتِي بَيْنَ النَّاسِ بِالْفَقْرِ الَّذِي أَحْتَاجُ
مَعَهُ إِلَى تَسْكُفِّ النَّاسِ .

وَرَوَى أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَعْفَرٍ بْنَ أَبِي طَالِبٍ الْجَوَادَ رَقَّتْ حَالُهُ فِي آخِرِ عَمْرِهِ ،
لَأَنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ جَفَاهُ ، فَرَاغَ يَوْمًا إِلَى الْجُمُعَةِ ، فَدَعَا فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَوَّدْتَنِي عَادَةً
جَرَيْتُ عَلَيْهَا ، فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ قَدْ انْقَضَى ، فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ . فَلَمْ يَلْحَقْ الْجُمُعَةُ الْآخَرَى .
وَكَانَ الْحَسَنُ بْنُ هَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَدْعُو فِيَقُولُ : « اللَّهُمَّ وَسِّعْ عَلَيَّ فَإِنَّهُ لَا يَسْعَى
إِلَّا الْكَثِيرُ » .

قوله: « فاسترزق » منصوب لأنه جواب الدعاء ، كقولهم: ارزقني بعيرا فأحج عليه .
بين عليه السلام كيفية تبدل جاهه بالافتار ، وفسره فقال : بأن أطلب الرزق ممن يطلب
منك الرزق .

وأستعطف الأشرار من الناس ، أى أطلب عاطفتهم وإفضالهم ، ويلزم من ذلك
أمران محذوران :

أحدهما أن أبتلى بحمد المعطى .

والآخر أن أفتن بدم المانع .

قوله عليه السلام : « وأنت من وراء ذلك كله » مثل يقال للمحيط بالأمر ،
القاهر له ، القادر عليه ، كما نقول للملك العظيم : هو من وراء وزرائه وكتابه ، أى مستعدّ متهيّئ
للقبض عليهم وتعقبهم ، واعتبار حركاتهم ، لإحاطته بها وإشرافه عليها .

وولى ، مرفوع بأنه خبر المبتدأ ، ويكون خبراً بعد خبر ، ويجوز أن يكون
« ولى » هو الخبر ، ويكون « من وراء ذلك » ، جملة مركبة من جار ومجرور
منصوبة الموضع ؛ لأنه حال .

(٢٢١)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

دَارُ الْبَلَاءِ مَخْوَفَةٌ ، وَبِالْغَدْرِ مَعْرُوفَةٌ . لَا تَدُومُ أَوْحَالُهَا ، وَلَا يَسْلُمُ نَزَالُهَا .
أَحْوَالُ مُخْتَلِفَةٌ ، وَتَارَاتُ مُتَصَرِّفَةٌ ، الْعَيْشُ فِيهَا مَذْمُومٌ ، وَالْأَمَانُ مِنْهَا ^(١) مَعْدُومٌ ،
وَإِنَّمَا أَهْلُهَا فِيهَا أَغْرَاضٌ مُسْتَهْدِفَةٌ ، تَرْمِيهِمْ بِسَهَامِهَا ، وَتُغْنِيهِمْ بِحِمَامِهَا .

وَأَعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّهُمْ وَمَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا عَلَى سَبِيلِ مَنْ قَدْ
مَغَى قَبْلَكُمْ ، يَمُنْ كَانَ أَطْوَلَ مِنْكُمْ أَعْمَارًا ، وَأَعْمَرَ دِيَارًا ، وَأَبْعَدَ آثَارًا ؛
أَصْبَحَتْ أَصْوَاتُهُمْ هَامِدَةً ، وَرِيَا حُتُومٌ رَاكِدَةً ، وَأَجْسَادُهُمْ بَالِيَةً ، وَدِيَارُهُمْ خَالِيَةً ،
وَأَثَارُهُمْ طَافِيَةً ، فَاسْتَبْدَلُوا بِالْقُصُورِ الْمَشِيدَةِ ، وَالنَّمَارِقِ الْمُهْدَةِ ؛ الصُّخُورَ
وَالْأَخْبَارَ السُّنْدَةَ ، وَالْقُبُورَ اللَّاطِنَةَ الْمَلْحَدَةَ ، الَّتِي قَدْ بُنِيَ عَلَى الْخَرَابِ بِنَاوُهَا ،
وَشُيِدَ بِالنَّارِ بِنَاوُهَا ، فَمَحَلُّهَا مُقْتَرِبٌ ، وَسَاكِنُهَا مُقْتَرِبٌ ، بَيْنَ أَهْلِ مَحَلَّةٍ مُوَحِّشِينَ ،
وَأَهْلِ فَرَاغٍ مُتَشَاغِلِينَ ، لَا يَسْتَأْنِسُونَ بِالْأَوْطَانِ ، وَلَا يَتَوَاصِلُونَ تَوَاصِلَ الْجِيرَانِ ،
عَلَى مَا بَيْنَهُمْ مِنْ قُرْبِ الْجَوَارِ ، وَدُورِ الدَّارِ ، وَكَيْفَ يَكُونُ بَيْنَهُمْ تَزَاوُرٌ ، وَقَدْ طَحَنَهُمْ
بِكُلِّ كَلِيلِ الْيَلَى ، وَأَكَلَتْهُمْ الْجَنَادِلُ وَالنَّرْسَى

وَكَانَ قَدْ مِرَّيْنَاهُمْ إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ ، وَارْتَهَنَهُمْ ذَلِكَ الْمَضْجَعُ ، وَضَمَّكُمْ
ذَلِكَ الْمُسْتَوْدَعُ .

فَكَيْفَ يَكُنْ لَوْ تَنَاهَتْ بِكُمْ الْأُمُورُ ، وَبُنِيزَتْ الْقُبُورُ : ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ

(١) ب : « فِيهَا » .

نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ ، وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١﴾ .

الشرح :

بالبلاء محفوفة : قد أحاط بها من كل جانب .

وتارات : جمع تارة ، وهى المرة الواحدة . ومقتصرة : منتقلة متحولة .

ومستهدفة بكسر الدال : منتصبه مهتأة الرمى ، وروى : « مستهدفة » بفتح الدال على المفعولية ، كأنها قد استهدفتها غيرها ، أى جعلها أهدافا .

ورياحهم راكدة : ساكنة . وآثارهم عافية : مندثرة .

والقصور المشيدة . العالية ، ومن روى : « المشيدة » بالتخفيف وكسر الشين ، فمعناه المعمولة بالشيء ، وهو الجص .

والتماق : الوسائد .

والقبور الملتحدة : ذوات اللحود .

وروى : « والأحجار المسفدة » بالتشديد .

قوله عليه السلام : « قد بُنى على الخراب فناؤها » ؛ أى بنيت لالتسكن الأحياء فيها كما تبني منازل أهل الدنيا .

والكلكل : الصدر ؛ وهو هاهنا استعارة .

والجنادل : الحجارة . وبعثت القبور : أثيرت .

وتبلو كل نفس ما أسلفت : تخبر وتعلم جزاء أعمالها ، وفيه حذف مضاف ، ومن

قرأ : « تتلو » بالثاء بقطعتين ، أى تقرأ كل نفس كتابها . وضلّ عنهم ما كانوا يفترون :
بطل عنهم ما كانوا يدّعون أنه . ويكذبون فيه من القول بالشركاء وأنهم شفعاء .

[ذكر بعض الآثار والأشعار الواردة في ذم الدنيا]

ومن كلام بعض البلغاء في ذم الدنيا : أما بعد ، فإن الدنيا قد عاتبت نفسها بما أبدت
من تصرفها ، وأنبات عن مساوئها بما أظهرت عن مصارع أهلها ، ودلت على عوراتها
بتغير حالاتها ، ونطقت السنة العرفية بزوالها ، وشهد اختلاف شئونها على فناؤها ، ولم يبق
لمرتاب فيها ريب ، ولا ناظر في عواقبها شك ، بل عرفها جلّ من عرفها معرفة يقين ،
وكشفوها أوضح تكشيف ، ثم اختلجهم الأهواء عن منافع العلم ، ودلتهم الآمال بفرور ،
فلبّجت بهم في غمرات العجز ، فسبحوا في بحورها موقنين بالهلكة ، وترعوا في عراضها
عارفين بالخدعة ، فكان يقيهم شكاً ، وعلمهم جهلاً ، لا بالعلم انتفعوا ، ولا بما طينوا
اعتبروا . قلوبهم عالمة جاهلة ، وأبدانهم شاهدة غائبة ، حتى طرقتهم المنيّة ، فأعجلتهم عن
الأمّية ، فبغتتهم القيامة ، وأورثتهم الندامة ، وكذلك الهوى حلت مذاقته ، وسمت عاقبته ،
والأمل يُنسى طويلاً ، يأخذ وشيكاً ، فانتفع امرؤ بعلمه ، وجاهد هواه أن يضلّه ، وجانب
أمله أن يفرّه ، وقوى يقينه على العمل ، ونفى عنه الشكّ بقطع الأمل ، فإن الهوى والأمل
إذا استضعفا اليقين صرّعا ، وإذا تعاونا على ذى غفلة خدعا ، فصرّيعهما لا ينهض سالما ،
وخديعهما لا يزال نادما ، والقوى من قوى عليهما ، والحازم من احترس منهما . ألبسنا
الله وإياكم جنة السلامة ، ووقانا وإياكم سوء العذاب !

كان عمر بن عبد العزيز إذا جلس للقضاء قرأ : ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾ (١) .

قال منصور بن عمار لأهل مجلسه : ما أرى إساءة تكبر على عفو الله فلا تيأس ، وربما أخذ الله على الصغير فلا تأمن ، وقد علمت أنك بطول عفو الله عنك عثرت بجالس الاغترار به ، ورضيت لنفسك اللقاع على سخطه ، ولو كنت تعاقب نفسك بقدر تجاوزه عن سيئاتك ، ما استمر بك لججاج فيما نهيت عنه ، ولا قصرت دون المبالغة فيه ، ولكذك رهين غفلتك ، وأسير حيرتك .

قال إسماعيل بن زياد أبو يعقوب : قدم علينا ببغداد رهاب من الشام ، ونزل ديرا بن أبي كبشة ، فذكروا حكمة كلامه ، فحملني ذلك على لقائه ، فأتيته وهو يقول : إن الله عبادة سميت بهم همهم فهووا عظيم الذخائر ، فالتمسوا من فضل سيدهم توفيقا يبلغهم سموهم فإن استطعتم أيها المرتحلون عن قريب أن تأخذوا ببعض أمرهم ، فإنهم قوم قد ملكت الآخرة قلوبهم ، فلم تجد الدنيا فيها ملبسا ، فالحزن بهم ، والدمع راحتهم ، والدعوى وسيلتهم ، وحسن الظن قربانهم ، يحزنون بطول المكث في الدنيا إذا فرح أهلها ، فهم فيها مسجونون ، وإلى الآخرة منطلقون .

فما سمعت موعظة كانت أنفع لي منها .

ومن جيد شعر أبي نواس في الزهد (٢) :

يا بني النقص والغنى وبني الضعف والخور
وبني البعد في الطبأ ع على القرب في الصور

(١) سورة الشعراء ٢٠٥ ، ٢٠٧ .

(٢) ديوانه ١٩٥

والشكول التي تبها بن في الطول والقصر
 أين من كان قبلكم من ذوي البأس والخطر
 سائلوا عنهم المداثين واستبجثوا الخبر
 سبقونا إلى الرحيل وإننا بالآثر
 من مضي عيرة لنا وغدا نحن مُعْتَبَر
 إن للموت اخذة تسبق الملح بالبصر
 فكأنى بكم غدا في ثياب من المذر
 قد تقدمتم من القصور إلى ظلمة الحفر
 حيث لا تضرب القبا ب عليكم ولا الحجر
 حيث لا تطربون منه لله ولا تيمر^(١)
 رحم الله مسلما ذكر الموت فازدجر
 رحم الله مؤمنا خاف فاستشعر الحذر

ومن جيد شعر الرضى أبي الحسن رحمه الله في ذكر الدنيا وتقلبها بأهلها^(٢) :
 وهل نحن إلا مراعى المسما م يحفرها نابل^(٣) دائب^(٤)
 نسر إذا جازنا طائش ونجزع إن مسنا صائب^(٥)
 فني يومنا قدر لا بد وعند غد قدر واثب^(٦)

(١) رواية الديوان :

حيث لا تطمرون في لله لله ولا تيمر

(٢) ديوانه لوحة ٧١١ ، من قصيدة يرثي فيها عميد الجيوش أبا علي الحسن بن جعفر .

(٣) النابل : صاحب النبل . والدائب : المجهد .

(٤) لا بد : مقيم .

طرائد تطردُها النائبات ولا بدَّ أن يدركَ الطَّالِبُ
أرى المرءَ يفعلُ فعلَ الحديدِ وهو غداً سَحّاً لازِبٌ^(١)
عوارى من سَلَبِ المالكينَ يمدُّ يداً نحوها السَّالِبُ
لنا بالردى موعِدٌ صادقٌ ونيلُ المُنَى موعِدٌ كاذِبٌ
حبائِلُ للدهْرِ مَبْثُوثَةٌ يُرَدُّ إلى جَذِبِها المَهارِبُ
وكيفُ مُجاوِزِ غَايَاتِنَا وقد بلغَ المَوردُ القارِبُ^(٢)
نصبُّ بالكأسِ مَجْدَحَةً^(٣) ذُعافاً ، ولا يعلمُ الشاربُ^(٤)

وقال أيضاً ، وهى من محاسن شعره :

ما أقلَّ اعتبارنا بالزَّمانِ وأشدَّ اغترارنا بالأمانى !^(٥)
وقفاتٌ على غرورٍ ، وإفداً م على مُزَلِّقٍ من الحدَّانِ
في حروب مع الردى فكأننا لا يومَ في هُدْنَةٍ مع الأزمانِ
وكفاننا مذكراً بالملأيا عِلْمُنَا أَننا من الحيوانِ
كلَّ يوم رزيةً بفلانٍ ووقوعٌ من الردى بفلانٍ
كم ترانى أضِلُّ نفساً والهُو فكأنى وثِقْتُ بالوجدانِ
قلْ لَهْذَى المَواهِمِ استوقِفِ السَّيْرَ أو استنْشِدِى عن الأعْطانِ
واستقيمى قد ضَمَكُ اللَّقَمُ النِّهْجَ ، وغَنَى وراءك الحاديانِ^(٦)

(١) الحما : الطين الأسود الدتن . واللازب : الصلب اللازق .

(٢) المَورد : مكان ورود الماء . والقارب : الذى يطلب الماء .

(٣) نصبج : نؤتى بها وقت الصبح . ومجدوحة : مخلوطة .

(٤) رواية الديوان :

* ولا علمَ لى أيننا الشاربُ *

(٥) ديوانه لوحة ١٥٥ ، يرثى صديقاً له من بنى العباس اسمه أبو عبد الله بن الإمام .

(٦) اللقم : معظم الطريق .

كم تحميدا عن الطريق وقد ضلح البرى وجذب العيران
 نثنى جازعين من عذوة الدهر وزرع الناي الرواني
 جفلة السرب في الظلام وقد ذع ذع روعا من عذوة الذوبان
 ثم نلتسى جرح الحمام وإن كان رغبيا يقرب ذا النسيان
 كل يوم تزايل من خليط بالردى، أو تباعد من دان^(١)
 وسواء مضى بنا القدر الجدد عجولا، أو ماطل العصران

وأيضا من هذه القصيدة :

قدمرنا على الديار خشوعا ورأينا البناء، فأين الباني
 وجهلنا الرسوم ثم علمنا فذكرنا الأوطار بالأوطان
 الغفاتا إلى القرون الخوالي هل ترى اليوم غير قرن فان
 أين رب السدير فالخيرة البيضاء، أم أين صاحب الإيوان
 والسيوف الحساد من آل بدر والقنا الصم من بنى الريان
 طردتهم وقائع الدهر عن لعل طرد السفاف عن بجران
 والمواصي من آل جنة أرسى طنبأ ملكهم على الجولان
 يكرعون المقار في فلق الإبريز كرع الظباء في الغدران^(٢)
 من أباء اللعن الذين يُحيون بها في معاقد التيجان
 تراءاهم الوفود بعيدا ضارين الصذور بالأذقان

(١) الخليط : الصديق ، والداني : القريب

(٢) الفلق : القطعة من الجنان

في رياضٍ من السَّمَحِ حَوَالِ وجبال من الحُلُومِ رِزَانِ
 وهمُ الماءِ لَذَّةً للنَّاهِلِ الظَّمْآنِ بَرْدًا وَالنَّارُ لِلْحَمِيرَانِ
 كُلُّ مُسْتَقِظٍ الْجَنَانِ إِذَا أَظْلَمَ لَيْلُ النُّوَامَةِ الْمُبْطَلَانِ
 يَفْتَدِي فِي السَّبَّابِ غَيْرَ شَجَاعٍ وَيُرَى فِي النَّزَالِ غَيْرَ جَبَانِ
 مَائِنَتْ عَنْهُمْ الْمَنُونُ يَدَا شَوْ كَاءَ أَطْرَافُهَا مِنَ الْمَرَّانِ (١)
 عَطَفَ الدَّهْرُ فَرَعَهُمْ فَرَّاهُ بُعْدَ بَعْدِ الدَّرَا قَرِيبِ الْجَنَانِ
 وَتَنَهَمَ بَعْدَ الْجَمَاحِ الْمَنَايَا فِي عَيْنَانِ التَّسْلِيمِ وَالْإِذْعَانِ
 عَطَلَتْ مِنْهُنَّ الْمَقَارَى وَبَاخَتْ فِي حَمَامٍ مَوَاقِدُ التَّيَرَانِ (٢)
 لَيْسَ يَبْقَى عَلَى الزَّمَانِ جَرَىءٌ فِي إِبَاءٍ ، أَوْ عَاجِزٌ فِي هَوَانِ
 لَا شَبُوبَ مِنَ الصَّوَارِ وَلَا أَعْنَاقَ يَرعى مَنَابِتَ الْعِلْجَانِ
 لَا وَلَا خَاضِبَ مِنَ الرُّبْدِ يَخْتَالُ لَ بِرَيْطٍ أَحْمَ غَيْرَ يَمَانِ (٣)
 يَرْتَمِي وَجْهَهُ الرِّثَالُ إِذَا آ نَسَ لَوْنُ الْإِظْلَامِ وَالْإِدْجَانِ
 وَعُقَابُ الْمَلَاعِ تُلْحَمُ فَرَخَئِهَا بِأَزْلِيَّةٍ زُلُولِ الْقِنَانِ
 نَائِلًا فِي مَطَامِحِ الْجَوِّ هَاتِيهِ لَكَ وَذَا فِي مَهَابِطِ الْغَيْطَانِ

وهذا شعر فصيح نادر معرق في العربية .

-
- (١) المران : الرماح .
 (٢) باخت : فخذت .
 (٣) الربط : جمع ربطة .

ومن شعره الجيد أيضا في ذكر الدنيا ومصائبها ^(١) :

أفلا تسيء الظنّ بالعمر	أو ما رأيت وقائع الدهر
هضباته ، والمضب ذى الأثر	بيد الفتي كالطود تكفنه
ويجاذب الأيدي على الفخر	يأبى الدنيئة في عشيرته
حشيت عليه بأوجه غر	وإذا أشار إلى قبائله
سيل يعب وعارض يسرى	يتزادفون على الرماح فهم
فكأتمسا يدعون بالزجر	إن نهنيوا زادوا مقاربة
يتزاحمون تزاحم الشعر	عدد النجوم إذا دعى بهم
سبلى الأنامل طيبي النشير	عقدوا على الجلى مأزرهم
ومواطئ الأقدام للمشر	زل الزمان بوطء أحصيه
وأقر إقرارا كلى صفر	نزع الإباء وكان شملته
من اللحم الصدفين بالقطر	صدع الردى ، أعيان تلاحه
أممسا يدق السهل بالوعر	جر الجياد على الوجى ومضى
في قعر منقطع من البحر	حتى التقي بالشمس مغمدة
كالضفت بين الباب والظفر	ثم انثنت كف المنون به
ردّ القضاء بماله الدثر	لم تشجر عنه الرماح ولا
لافتته وهو مضيع الظهر	جمع الجنود وراءه فكأتما
أمسى بتضيعة وما يدري	وبنى الحصون تمثما فكأتما
لحاميه كان الذى يبرى	وبرى المعابل للعدا فكأتما

(١) من قصيدة يروى بها أبا الحسن عبدالله بن محمد ، ديوانه لوحة ١٣٢ .

— ٢٦٦ —

إن التوقى فرط متعجزة فدع القضاء يقدر أو يفري
وحى المطاعم للبقا وذى الآجال ملء فُروجها تجرى
لو كان حفظ النفس ينفعنا كان الطبيب أحق بالعمر
الموت داء لا دواء له سيمان ما يوبى وما يمرى

وهذا من حر الكلام وفصيحه ونادره ، ولا محب فهذه الورقة من تلك الشجرة ،
وهذا القبس من تلك النار !

(٢٢٢)

الأضل :

ومن دعاء له عليه السلام :

اللَّهُمَّ إِنَّكَ آتَسُ الْآئِسِينَ لِأَوْلِيائِكَ ، وَأَخْضَرُهُمْ بِالْكِفَايَةِ لِلْمُتَوَكِّلِينَ
عَلَيْكَ ، تُشَاهِدُهُمْ فِي سَرَائِرِهِمْ ، وَتَطْلُعُ عَلَيْهِمْ فِي خَمَائِرِهِمْ ، وَتَعْلَمُ مَبْلَغَ
بَصَائِرِهِمْ ، فَاسْرَارُهُمْ لَكَ مَكْشُوفَةٌ ، وَقُلُوبُهُمْ إِلَيْكَ مَلْهُوفَةٌ ، إِنْ أَوْحَشَتْهُمْ الْغُرْبَةُ ؛
آتَسَهُمْ ذِكْرُكَ ، وَإِنْ صُبَّتْ عَلَيْهِمُ الْمَصَائِبُ لَجَأُوا إِلَى الْأَسْتِجَارَةِ بِكَ ؛ عَلِمًا بِأَنَّ
أَزِمَّةَ الْأُمُورِ بِيَدِكَ ، وَمَصَادِرُهَا عَنْ قَضَائِكَ .

اللَّهُمَّ إِنْ فَهِيتُ عَنْ مَسْأَلَتِي ، أَوْ غَمِيتُ عَنْ طِلْبَتِي ، فَدَلَّنِي عَلَى مَصَالِحِي ، وَخُذْ
بِقَلْبِي إِلَى مَرَاثِدِي ، فَلَيْسَ ذَلِكَ بِنُكْرٍ مِنْ هِدَايَاتِكَ ، وَلَا يَبْدِعُ
مِنْ كِفَايَاتِكَ .

اللَّهُمَّ أَحْمِلْنِي عَلَى عَفْوِكَ ، وَلَا تَحْمِلْنِي عَلَى عَذَابِكَ .

الشنخ :

أنست : ضدّ وحشت ، والإيفاس : ضدّ الإيحاش ، وكان القياس أن يقول :
إِنَّكَ آتَسُ الْمُؤْنِسِينَ ، لَأَنَّ الْمَاضِيَ « أَفْعَل » وَإِنَّمَا الْآنَسُونَ جَمْعُ آتَسَ ، وَهُوَ الْفَاعِلُ مِنْ
أَنْسْتَ بِكَذَا ، لَأَمِنْ « أَنْسْتَ » ؛ فَالرَّوَايَةُ الصَّحِيحَةُ ، اذِنْ « بِأَوْلِيَائِكَ » أَيِ أَنْتَ أَكْثَرُهُمْ أُنْسًا
بِأَوْلِيَائِكَ وَعَطْفًا وَتَحَنُّنًا عَلَيْهِمْ .

وأخضروهم بالكفاية ، أى أبلغهم إحضارا الكفاية المتوكلين عليهم ، وأقومهم بذلك

تشاهدكم في سرائرهم ، أى تطلع على غيبهم ، والبصائر: الغزائم ، نفذت بصيرته في كذا ، أى حقّ عزمه .

وقلوبهم إليك ملهوفة ، أى صارخة مستغيثة .

وفيهت عن مسألتي ، بالكسر: عيّيت ، والفهّة والفهامة : العى ، رجل أِفَه ، ورجل فَهَ أيضا ، وامرأة فِهية ، قال الشاعر :

فلم تُلَفنى فَهًا ولم تُلَفِ حاجتي ملجَلجةً أبغى لها مَنْ يقيمها ^(١)

وقد فِهيتَ يا رجل فِهًا ، أى عيّيت ، ويقال سفِه فيه فِهيه ، وفهيه الله ، وخرجت الحاجة فأفِهني عنها فلان ، أى أنسانيها .

ويروى : « أو عمت » بالهاء والميم المكسورة ، والعمّة : التحير والتردد ، عمه الرجل ، فهو عمّه وعميّة والجمع عُمة ، وأرض عُمهاء : لا أعلام بها .

والسكر . العجب والبدع المبتدع ، ومنه قوله تعالى . ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنْ أُرْسُلِ ﴾ ^(٢) ؛ أى لم آت بما لم أسبق إليه .

ومثل قوله عليه السلام . « اللهم احملني على عفوك ، ولا تحملي على عدّلك » قولُ المروانية للهاشمية لما قُتل مروان في خيرٍ قد اقتصصناه قديما . ليسمنا عدّلكم ، قالت الهاشمية . إذن لا نُبقي منكم أحداً ، لأنكم حاربتم عليا عليه السلام ، وتسمتم الحسن عليه السلام ، وقتلتم الحسين وزيدا وابنه ، وضربتم علي بن عبد الله ، وخنقتم إبراهيم الإمام في جراب النورة .

قالت . قد يسمننا عفوك ، قالت . أما هذا فنعم .

(١) الصحاح ١٢٤٥ من غير نسبة .

(٢) سورة الأحقاف ٩ .

[أدعية فصيحة من كلام أبي حيان التوحيدي]

ومن الدعوات الفصيحة المستحسنة فصولٌ من كلام أبي حيان التوحيدي نقلتها .
 فمنها : اللهم إني أبرأ من الثقة بالآبك ، ومن الأمل بالآفيك ، ومن التسليم بالآلك ،
 ومن التفويض بالآإليك ، ومن التوكل بالآعليك ، ومن الطلب بالآمنك ، ومن الرضا
 بالآعنك ، ومن الدل بالآإلا في طاعتك ، ومن الصبر بالآإلا على بلائك ، وأسألك أن تجعل
 الإخلاص قرين عقيدتي ، والشكر على نعمك شعاري وذناري ، والنظر إلى ملكوتك
 دأبي وديدي ، والافتقاد لك شأني وشغلي ، والخوف منك أمني وإيماني ، والآياد بذكرك
 بهيحتي وسروري .

اللهم تتابع برُّك ، واتصل خيرُك ، وعظم رفدُك ، وتناهى إحسانك ، وصدق وعدك ،
 وبرَّ قسَمُك ، وعمت فواضلك ، ونمت نوافلك ، ولم تبق حاجةٌ إلّا وقد قضيتها ، أو تكفّلت
 بقضائها ، فآخِتم ذلك كله بالرضا والمغفرة ؛ إنك أهل ذلك ، والقادر عليه ، والمليّ به .

* * *

ومنها : اللهم إني أسألك خفايا لطفك ، وفوايح توفيقك ، ومألوف برِّك ، وعوائد
 إحسانك ، وجاه المقدسين من ملائكتك ، ومنزلة المصطفين من رسلك ، ومكاثرة الأولياء
 من خلقك ، وعاقبة المتقين من عبادك .

وأسألك القناعة برزقك ، والرضا بحكمك ، والنزاهة عن محظورك ، والورع في
 شبهاتك والقيام بحجّتك ، والاعتبار بما أبديت ، والتسليم لما أخفيت ، والإقبال
 على ما أمرت ، والوقوف عما زجرت ، حتى أأخذ الحق حجة عندما خفّ وثقل ، والصدق
 سنة فيما عسر وسهل ، وحتى أرى أن شعار الزهد أعزّ شعار ، ومنظر الباطل أشوه منظر ،

فأنبختري في ملكوتك بفضفاض الرداء بالدَّغاء إليك ، وأبلغ الغاية القصوى بين خلقك
بالمثناء عليك .

ومنها : اللهم إليك أرفع مجري ومجري ، وبك أستمع في عسري ويسري ،
وإياك أدعو رغباً ورهباً ، فإنك العالم بتسويل النفس ، وفتنة الشيطان ، وزينة الهوى ،
وصرف الدهر ، وتلون الصديق ، وباتقة الثقة ، وقنوط القلب ، وضعف الثقة ،
وسوء الجزع .

ففى اللهم ذلك كله ، واجمع من أمرى شمله ، وانظم من شأنى شتيته ، واحرُشنى عند
الغنى من البطر ، وعند الفقر من الضجر ، وعند الكفاية من الغفلة ، وعند الحاجة من
الحسرة ، وعند الراحة من الفسولة ، وعند الطلب من الخيبة ، وعند المنازلة من الطغيان ،
وعند البحث من الاعتراض عليك ، وعند التسليم من التهمة لك .

وأسألك أن تجعل صدرى خزانة توحيدك ، ولسانى مفتاح تمجيدك ، وجوارحى
خادم طاعتك ؛ فإنه لا عز إلا فى الذل لك ، ولا غنى إلا فى الفقر إليك ، ولا أمن إلا فى
الخوف منك ، ولا فرار إلا فى القلق نحوك ، ولا روح إلا فى الكرب لوجهك ، ولا ثقة
إلا فى تهمة خلقك ، ولا راحة إلا فى الرضا بقسمك ، ولا عيش إلا فى جوار المقربين عندك .

ومنها : اللهم ببرهانك الصادع ، وبنور وجهك الساطع ؛ صل على محمد نبيك نبي الرحمة ،
وقائد الأمة ، وإمام الأئمة ، واحرس على إيمانى بك بالتسليم لك ، وخفف عني مؤنة الصبر
على امتحانك ، وواصل لى أسباب المزيد عند الشكر على نعمتك ، واجعل بقية عمرى فى
غنى عن خلقك ، ورضا بالمقدم من رزقك .

اللهم إنيك إن آخذتنا بذنوبنا خَسَفْتَ الأرض بنا ، وإن جازيتنا على ظلمها قطعت دوابنا، فإنك قلت: ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١).
اللهم إليك نشكو قسوة قلوبنا؛ وغل صدورنا؛ وفتنة أنفسنا، وطموح أبصارنا، وورث ألسنتنا ، وسخف أحلامنا ، وسوء أعمالنا ، وفُحْش لجاجنا ، وقبح دعوانا، وثَنُّ أشرارنا، وخُبث أخيارنا ، وتلَزَق ظاهِرنا ، وتمَرَّق باطننا .

اللهم فارحمنا ، وارأف بنا ، واعطف علينا ، وأحسن إلينا، وتجاوز عنا، واقبل اليسور منا ، فإننا أهلُ عقوبة ، وأنت أهلُ مغفرة ، وأنت بما وصفت به نفسك أحقّ منا بما وسمنا به أنفسنا ، فإن في ذلك ما اقترن بكرمك ، وأدى إلى عفوكم . ومن قبل ذلك وبعده ، فأب عيشنا بنعمتك ، وأرح أرواحنا من كدّ الأمل في خلقك ، وخذ بأزمتنا إلى بابك ، وألِه قلوبنا عن هذه الدار الفانية ، وازرع فيها محبة الدار الباقية ، وقلِّبنا على بساط لطفك ، وحُتِّنا بالإحسان إلى كنفك ، ورفِّهنا عن التماس ماعد غيرك ، واغضض عيوننا عن ملاحظة ما حُجِب من غيرك ، وصِل بيننا وبين الرضا عنك ، وارفع عنامونة العرض عليك ، وخَفِّف علينا كلَّ ما أوصَلنا إليك ، وأذِقنا حلاوة قُربك ، واكشف عن سرائرنا سواتر حُجُبِك ، ووَكِّل بنا الحَقْظَة ، وارزقنا اليَقَظَة ، حتى لا نفترق سيئة ، ولا نفارق حسنة ، إنيك قائم على كل نفس بما كسبت ، وأنت بما نخفي وما نعلن خبير بصير .

ومنها : اللهم أنت الحي القيوم ، والأَوَّل الدائم ، والإله القديم ، والبارئ المصور ، والخالق المقدس ، والجبار الرفيع ، والقهار المنيع ، والملك الصفوح ، والوهاب المنوح ،

(١) سورة الأنعام ٤٥ .

والرحمن الرؤوف ، والحنّان العطوف ، والمنّان اللطيف ، مالك الذنائب والنواصي ، وحافظ
الأداني والأقاصي ، ومصرف المطيع والمعاصي .

اللهم أنت الظّاهر الذي لا يحدك جاحد إلا زابلته الطّمأنينة ، وأسلمه اليأس ،
وأوحشه القنوط ، ورحلت عنه المصّمة ، وتردد بين رجاء قد نأى عنه التّوفيق ، وأمل قد
حقّت به الخيبة ، وطمع يحوم على أرجاء التّكذيب ، وسرّ قد أطاف به الشّقاء ، وعلانية
قد أناف عليها البلاء ، موهون المنة ، منسوخ العقدة ، مسلوب العدة ، تشنؤه المين ،
وتقلبه النفس ، عقله عقل طائر ، ولبه لبّ حائر وحكمه حكم جائر ، لا يروم قرارا إلا
أزعج عنه ، ولا يستفتح بابا إلا ارتجح دونه ، ولا يقتبس ضرما إلا أجج عليه ، عثرته
موصولة بالعثرة ، وحسرتة مقرونة إلى حسرة ، إن سمع زيف ، وإن قال حرف ،
وإن قضى خرف ، وإن احتجّ زخرف ، ولوّ فاء إلى الحقّ لو جد ظله ظليلا ، وأصاب
تحته مئوى ومقيلا ،

وأنت الباطن الذي لا يرومك رائم ، ولا يحوم على حقيقتك حائم ، إلا غشيه من
نور الهيّتك ، وعزّ سلطانك ، وعجيب قدرتك ، وباهر برهانك ، وغرائب غيوبك ،
وخفيّ شأنك ، وخوف سطوتك ، ومرجوّ إحسانك ، ما يردّه خاسئا من مزحّحه عن
الغاية ، خبيلا مبهورا ، ويردّه إلى عجزه ، ملتجئا بالندم ، مرتديا بالاستسكانة ، راجعا إلى
الصّفار ، موقوفا مع الذّلة . فظاهرك يدعو إليك بلسان الاضطرار ، وباطنك يحير فيك لسعة
قضاء الاعتبار ، وفعلك يدلّ عليك الأمع والأبصار ، وحكمتك تعجب منك الأبواب
والأسرار . لك السلطان والملّكة ، ويبدك النّجاة والملاكة ، فإليك المقرّ ، ومعك
المقرّ ، ومنك صنوف الإحسان والبر ، أسألك بأصحّ سرّ ، وأكرم لفظ ، وأفصح لغة ،
وأتمّ إخلاص ، وأشرف همّة ، وأفضل نيّة ، وأطهر عقيدة ، وأثبت يقين ، أن تصدّقني

— ٢٧٣ —

كل ما يصدّ عنك ، وتصلني بكل ما يصل بك ، وتحبب إليّ كل ما يحبب إليك ، فإنك الأول والثاني ، والمشار إليه في جميع المعاني ، لا إله إلا أنت .

ومنها : اللهم إني أسألك جدّاً مقروناً بالتوفيق ، وعلماً بريئاً من الجهل ، وعملاً عربياً من الرياء ، وقولاً موشحاً بالصواب ، وحالاً دائرة مع الحق ، وفطنة عقل مضروبة في سلامة صدور ، وراحة جسم راجعة إلى روح بال ، وسكون نفس موصولة بثبات يقين ، وصحة حجة بعيدة من مرض شبهة ، حتى تكون غابتي في هذه الدنيا موصولة بالأمثل فالأمثل ؛ وعاقبتى عندك محمودة بالأفضل فالأفضل ؛ من حياة طيبة أنت الواعد بها ، ونعيم دائم أنت المبلغ إليه .

اللهم لا تخيب رجاء منوط بك ، ولا تُصفر كفاً هي ممدودة إليك ، ولا انمذّب عينا فتحتّها بعممتك ، ولا تذلل نفساً هي عزيزة بمعرفتك ، ولا تسلب عقلاً هو مستضى بنور هدايتك ، ولا تحرس لساناً عودته الشفاء عليك ، فكما كنت أولاً بالتفضل ، فسكن آخراً بالاحسان .
الناصية بيدك ، والوجه عان لك ، والخير متوقع منك ، والمصير على كل حال إليك .

المسنى في هذه الحياة البائدة ثوب العصمة ، وحلّتي في تلك الدار الباقية بزيئة الأمن ، واطم نفسي عن طلب العاجلة الزائدة ، وأجرني على العادة الفاضلة ، ولا تجعلني بمن سها عن باطن مالك عليه ، بظاهر مالك عنده ، فالشقي من لم تأخذ بيده ، ولم يؤمنه من غده ، والسعيد من آوئته إلى كنف نعمتك ، ونقلته حميداً إلى منازل رحمتك ، غير مناقش في الحساب ، ولا سائق له إلى العذاب ، فإنك على ذلك قدير .

ومنها : اللهم اجعل غدونا إليك مقروناً بالتوكل عليك ، ورواحنا عنك موصولاً
(١٨ - نهج ١١)

بالنجاح منك ، وإجابتنا لك راجعة إلى التهالك فيك ، وذكرنا إياك منوطاً بالسكون
معك ، وثقنا بك هادية إلى التفويض إليك ، ولا تخلفنا من يد تستوعب الشكر ،
ومن شكر يمتري خلف الزبد ، ومن مزيد يسبق اقتراح المقترحين ، وصنع يفوق
ذرع الطالبين ، حتى نلقاك مبشرين بالرضا ، محكمين في المني ، غير مناقشين
ولا مطرودين .

اللهم أعِزنا من جشع القعير ، ورغبة المنافق ، وتجليح^(١) المماند ، وطيشة المَجُول ، وفثرة
السَّكَلان ، وحيلة المستبد وتطور العقل^(٢) ، وحيرة الخرج ، وخسرة المحوَج ، وفلتنة
الذهول ، وحُرقة الشَّكول^(٣) ، ورقة الخائف ، وطمأنينة المغرور ، وغفلة الغرور .
واكفنا مؤنة أخ يرصد مسكوناً إليه ، ويمكر موثقاً به ، ويخيس^(٤) معتمداً عليه .
وصل الكفاية بالسَّلوَة عن هذه الدنيا ، واجعل التهاننا عليها حديداً إلى دار السلام ،
ومحلّ القرار ، وغلب إيماننا بالغيب على يقيننا بالعيان ، واحرسنا من أنفسنا ، فإنها بنا بيعُ
الشَّهوة ، ومفاتيح البلوى .

وأرنا من قُدْرَتِكَ ما يحفظ علينا هيبَتَكَ ، وأوضح لنا من حكمتِكَ ما يقبِّلنا في
ملكوتِكَ ، وأسبغ علينا من نعمتِكَ ما يكون لنا عوناً على طاعتِكَ ، وأشيع في صدورنا
من نورك ما نتجلى به حقائق توحيدِكَ .

واجعل ديدنا ذكرك ، وعادتنا الشَّوق إليك ، وعلمنا النصيح لخلقك ، واجعل غايتنا
الاتصال بك ، واحجبنا عن قول يبرى من رضاك ، وعمل يُعَمِّي صاحبه عن هداك ، وألف
بيننا وبين الحق ، وقربنا من معادن الصَّدق ، واعصمنا من بوائق الخلق ، وانقلنا من
مضايق الرِّق ، واهدنا إلى فوائد العتق .

اللهم إنك بدأت بالصنم وأنت أهله ، فمُذ بالتوفيق فإنك أهله .

(٢) : ١ : د الفعل .

(٤) يخيس : يغدر .

(١) جلع في الأمر : ركب رأسه

(٣) ب : د الشكول ، وما أثبتته من ا

اللهم إنا نتضاءلُ لك عند مشاهدة عظمتك، ونذلّ عليك عند تواثر برك، ونذلّ لك عند ظهور آياتك، ونلجّ عليك عند علمنا بمجودك .
ونسألك من فضلك مالا يرزؤك ولا ينسكوك، وتوسل إليك بتوحيد لا ينتمى إليه خلق، ولا يفارقه حق .

ومنها : اللهم عليك أتوكل ، وبك أستعين ، وفيك أوالى ، وبك أنتسب ، ومنك أفرق ، ومعك أستأنس ، ولك أعبد ، وإياك أسأل : لساناً سجعاً بالصدق، وصدرأقصد مليّ من الحق ، وأملاً منقطعاً عن الخلق ، وحالاً مكفوناً بيوئى الجنة ، وظاهرها يحقق المنة ، وعاقبة تنسى ما سلف ، وتقتل بما يُتمنى ويُتوَكَّف .
واسألك اللهم كبداً رجواً خثوفاً، ودماً نطوفاً شوقاً إليك، ونفساً عزوفاً إذعاناً لك، وسراً ناقماً ببزء الإيمان بك ، ونهاراً مشتملاً على ما كسب من مرضاتك ، وليلاً مالئاً بما أزلف لديك .

أشكو إليك اللهم تلّفى على ما يفوتنى من الدنيا ، وأننى فى طاعة الهوى ؛ جاهلاً بحقك ، ساهياً عن واجبك ، ناسياً ما تكرره من وعظك وإرشادك ، وبيانك وتنبيهك ، حتى كأنّ حلاوة وعدك لم تبلغ أذنى ، ولم تباشر فؤادى ، وحتى كأنّ مرارة عتابك ولائمتك لم تهتِك حجابى ، ولم تمرض على أوصابى .

اللهم إليك المفرّ من دارٍ منهومها لا يشبع ، وحائمها لا ينقع ^(١) ، وطالباها لا يبرح ، وواجدها لا يقنع ، والعيش عنك رقيق ، والأمل فيك تحقيق .

اللهم كما ابتليت بحكمتك الخفية التى أشكلت على العقول ، وحارت معها البصائر ، فعاغ برحمتك اللطيفة التى تطاولت إليها الأعناق ، وتشوّفت نحوها السرائر ، وخذ معنا بالفضل الذى إليك هو منسوب ، وعذك هو مطلوب ؛ وافعلْ نفوسنا من رضاع الدنيا ،

(١) المائم : العطشان . ولا ينقع : لا يروى .

والطف بما أنت له أهل ؛ إنك على كل شيء قدير .

اللهم قدنا بأزمة التوحيد إلى محاضر طاعتك ، واخْلُطْنَا فِي زُمْرَةِ الْمُخْلِصِينَ لَذِكْرِكَ ،
واجعل إجابتك من قبيل ما يتصل بكرم عفوك ، ولا تجعل خيبتنا من قبل جهلنا بقدرتك ،
وإضرابنا عن أمرك ؛ فلا سائل أحوج منا ، ولا مستول أجود منك .

اللهم اخبر بيننا وبين كل ما دلّ على غيرك ببيانك ، ودعنا إلى سواك بيزهائك ،
وانقلنا عن مواطن المعجز ، مرتقياً بنا إلى شرفات العزّ ، فقد استحوذ الشيطان ، وخبثت
النفس ، وساءت العادة ، وكثر الصادون عنك ، وقلّ الداعون إليك ، وزهد المرءون
لأمرك ، وفقد الواقفون عند حدودك ، وخلت ديار الحق من سُكَّانِهَا ، وبمع دينك
بيع الخلق ، واستهزئ بفاثر مجدك ، وأقصي المتوسل بك .

اللهم فأعد نصارة دينك ، وأفض بين خلقك بركات إحسانك ، وأمدد عليهم
ظلّ توفيقك ، واقع ذوى الاعتراض عليك ، واخسف بالمتحمين في دقائق غيبك ، واهتك
أستار الهائكين لسرّ دينك ، والفارعين أبواب سرّك ؛ القاسين بينك وبين خلقك .
اللهم إني أسألك أن تخصني بإلهام أقتبس الحق منه ، وتوفيق يصحّني وأحبه ،
واطف لا يغيب عني ولا يغيب عنه ؛ حتى أقول إذا قلت لوجهك ، وأسكت إذا سكّيت بإذنك ،
وأسأل إذا سألت بأمرك ، وأبين إذا أبنت بحجّتك ، وأمدد إذا بددت بإجلالك ، وأقرب
إذا قربت برحمتك ، وأعبد إذا عبدت مخلصاً لك ، وأموت إذا مت منتقلاً إليك .

اللهم فلا تكلني إلى غيرك ، ولا تؤيسني من غيرك .

ومنها : اللهم إنا بك نعزّ كما أنا بغيرك نذلّ ، وإياك نرجو كما أنا من غيرك نياس ،
وإليك نفوض ، كما أنا من غيرك نعرض ، أذنت لنا في دعائك ، وأديننا إلى فنائك ،
وهيأتنا لعطائك ، وخصصتنا بحبائك ، ووسمتنا بولائك ، وعممتنا بآلائك ، وغسّتنا
في نعمائك ، وناغيّتنا بالسُنَنِ مَسْكُونَتِكَ عن دقائق ما في عالمك ؛ ولا طفتنا بظاهر قولك

وتولّينا بباطنِ فِعْلِكَ ، فسَمَتْ نَحْوَكْ أَبْصَارُنَا ، وشامت بروقِ جُودِكَ بَصَائِرُنَا ، فلَمَّا اسْتَقَرَّ
مايُنِنَا وبيْنِكَ ، أَرْسَلْتَ عَلَيْنَا سَمَاءَ فَضْلِكَ مَدْرَارًا ، وفتحت لنا مَنَّا أَسْمَاعًا وَأَبْصَارًا ، فَرَأَيْنَا
مَاطِلَاحَ مَعَهُ تَحْصِيلِنَا ، وَسَمِعْنَا مَا فَارَقْنَا عِنْدَهُ تَفْضِيلِنَا ، فَلَمَّا سِيرْنَا إِلَى خَلْقِكَ مِنْ ذَلِكَ
ذَرَوْنَا^(١) ، نَأْخُذُونَ مِنْ أَجَلِهِ أَمْبًا وَهَزَوًا . فَبَقَدَرْتِكَ عَلَى بِلَوَانَا بِهِمْ ، أَرِنَا بِكَ الْغِنَى عَنْهُمْ .
اللَّهُمَّ قَبِّضْ أَيْدِيَنَا مِنْ عِنْدِكَ ، وَأَنْسِحْ لَنَا مَخْلَصًا إِلَيْكَ ، فَإِنَّا قَدْ تَعَبْنَا بِخَلْقِكَ ،
وَعَجَزْنَا عَنْ تَقْوِيمِهِمْ لَكَ ، وَنَحْنُ إِلَى مَقَارِبَتِهِمْ فِي مَخَالَفَتِكَ أَقْرَبُ مَنَّا إِلَى مَقَابِلَتِهِمْ فِي مَوَاقِفَتِكَ ،
لَأَنَّهُ لَا طَاقَةَ لَنَا بِدِهَامِهِمْ ، وَلَا صَبْرَ لَنَا عَلَى بِلَوَانِهِمْ ، وَلَا حِيلَةَ لَنَا فِي شِفَائِهِمْ ، فَانْسَأَلْكَ
بِالْفَرَاغَةِ الْقَائِمَةِ وَبِالْإِخْلَاصِ الْمَرْفُودِ ، إِلَّا أَخَذْتَ بِأَيْدِينَا ، وَأَرْسَلْتَ رَحْمَتَكَ عَلَيْنَا ،
فَمَا أَقْدَرُكَ عَلَى الْإِجَابَةِ ، وَمَا أَجُودُكَ بِكُلِّ مَصُونٍ ؛ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ !

ومنها : اللَّهُمَّ إِنَّا قَرُبْنَا بِكَ فَلَا تُذْثِنَا عَنْكَ ، وَظَهَرْنَا لَكَ فَلَا تَبْطِنُنَا دُونَكَ ، وَوَجَدْنَاكَ
بِمَا أَلْقَيْتَ إِلَيْنَا مِنْ غَيْبِ مَلَكُوتِكَ ، وَعَزَفْنَا عَنْ كُلِّ مَا لَوَانَا عَنْ بَابِكَ ، وَوَقَفْنَا بِكُلِّ
مَا وَعَدْتَنَا فِي كِتَابِكَ ، وَتَوَكَّلْنَا بِالسِّرِّ وَالْعَلَنِ عَلَى لَطِيفِ صِنْعِكَ .
اللَّهُمَّ إِلَيْكَ نَظَرَتِ الْعَيُونُ فَعَادَتْ خَاسِئَةً عَبْرَى ، وَفِيكَ تَقَسَّمَتِ الظُّلُومُ فَانْقَلَبَتْ
يَأْسَةً خَسْرَى ، وَفِي قَدَرْتِكَ حَارَتْ الْأَبْصَارُ ، وَفِي حِكْمَتِكَ طَاحَتِ الْبَصَائِرُ ، وَفِي آلَانِكَ
غَرِقَتِ الْأَرْوَاحُ ، وَعَلَى مَا كَانَ مِنْكَ تَقَطَّعَتِ الْأَنْفَاسُ ، وَمِنْ أَجْلِ إِعْرَاضِكَ التَّهْمَتِ
الْصَّدُورُ ، وَلَذِكْرُ مَا مَضَى مِنْكَ هَمَلَتِ الدَّمُوعُ .
اللَّهُمَّ تَوَلَّانَا فِيمَا وَلَّيْتَنَا حَتَّى لَا نَتَوَلَّى عَمَلِكَ ، وَأَمَدَّانَا مِمَّا خَوَّفْتَنَا حَتَّى نَقَرَّ مَعَكَ ،
وَأَوْسَعْنَا رَحْمَتَكَ ، حَتَّى نَطْمِئِنَّ إِلَى مَا وَعَدْتَنَا فِي كِتَابِكَ ، وَفَرَّقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْغَلِّ حَتَّى
لَا نَعَامِلَ بِهِ خَلْقَكَ ، وَأَغْنَيْنَا بِكَ حَتَّى لَا نَفْتَقِرَ إِلَى عِبَادِكَ ، فَإِنَّكَ إِذَا يَسَّرْتَ أَمْرًا تَيْسَّرَ ؛
وَمَهَّمَا بَلَوْتَنَا فَلَا تَبْلُنَا بِهَجْرِكَ ، وَلَا تَجْرَعْنَا مِرَارَةً سَخَطِكَ . قَدْ اعْتَرَفْنَا بِرَبوبيَّتِكَ
(١) ذَرَوْنَا : طَرَفْنَا .

عبودية لك ، فمرتفنا حقيقتها بالعفو عنا ، والإقبال علينا ، والرفق بنا ، يا رحيم !

ومنها: اللهم إن الرغبات بك مفوطة، والوسائل إليك متدركة، والحاجات ببابك مرفوعة،
والنفة بك مستحصفة (أى مستحكمة)، والأخبار بمجودك شائعة، والآمال نحوك نازعة، والأمانى
وراءك منقطعة، والثناء عليك متصل، ووصفك بالاسكرم معروف، والخلائق إلى لطفك محتاجة،
والرجاء فيك قوى، والظنون بك جميلة، والأعناق لمرزك خاضعة، والنفوس إلى مواصلتك
مشتاقة، والأرواح لعظمتك مبهوتة؛ لأنك لإله العظيم، والرب الرحيم، والجواد الكريم،
والسميع العليم، تملك العالم كله، وما بعده وما قبله، ولك فيه تصاريق القدرة، وخفيايات
الحكمة، ونوافذ الإرادة، ولك فيه مالا ندر به مما تخفيه ولا تهديه، جللت عن الإجلال،
وعظمت عن التعظيم، وقد أزف ورودنا عليك، ووقوفنا بين يديك، وظننا ما قد علمت،
ورجاؤنا ما قد عرفت، فكان عند ظننا بك، وحقق رجاءنا فيك، فما خالفناك جرأة عليك،
ولا عصيناك تقصما في سخطك، ولا اتبعنا هوانا استهزاء بأمرك ونهيك، ولكن غلبت
علينا جواذب الطيعة التى عجنتنا بها، وبذور الفطرة التى أنبتتنا منها، فاسترخت قيودنا
عن ضبط أنفسنا، وعزبت ألبابنا عن تحصيل حظوظنا، ولسنا ندعى حجة، واسكن
فسالك رافة، فبسترك السابغ الذيال، وفضلك الذى يستوعب كل مقال، إلاتمت
ماسلف منك إلينا، وعطفك بمجودك الفياض علينا، وجذبت بأضباعنا، وأقررت
عيوننا، وحققت آمالنا؛ إنك أهل ذلك، وأنت على كل شىء قدير !

تم الجزء الحادى عشر من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد

ويليه الجزء الثانى عشر

فهرس الخطب*

الصفحة

- ١٩٦ - ومن كلام له عليه السلام في أن الدنيا دار مجاز . ٣
- ١٩٧ - من كلام له كان ينادى به أصحابه ، وفيها يذكّرهم بأمر الموت . ٥
- ١٩٨ - ومن كلام له عليه السلام كلم به طلحة والزبير عندما نقما عليه ٨،٧
- عدم ارجوع إليهما في الرأي .
- ١٩٩ - ومن كلامه عليه السلام وقد سمع قوما من أصحابه يسبّون أهل الشام ٢١
- أيام حربهم بصفين .
- ٢٠٠ - ومن كلام له عليه السلام في بعض أيام صفين وقد رأى الحسن ابنه ٢٥
- عليه السلام .
- ٢٠١ - ومن كلام له عليه السلام لما اضطرب عليه أصحابه في أمر الحكومة ٢٩
- ٢٠٢ - ومن كلام له عليه السلام بالبصرة ، وقد دخل على العلاء بن زياد ٣٢
- الحارثي ، وهو من أصحابه ، يموده .
- ٢٠٣ - ومن كلام له عليه السلام وقد سأله سائل عن أحاديث البدع ، وعمّا ٣٩، ٣٨
- في أيدي الناس من اختلاف الخبر .
- ٢٠٤ - ومن خطبة له عليه السلام في تمجيد الله ووصف خلق الأرض . ٥١

(*) وهي الخطب الواردة في نهج البلاغة .

- ٢٠٥ - من خطبة له عليه السلام فيمن أعرض عن النصيح ، ونسكص عن
نصرة الله
٦٠
- ٢٠٦ - من خطبة له عليه السلام في تمجيد الله وتعظيمه
٦٣، ٦٢
- ٢٠٧ - من خطبة له عليه السلام في ذكر النبي عليه السلام ، وأنه
خير خاقه
٦٦، ٦٥
- ٢٠٨ - من كلام له عليه السلام كان يدعو به كثيرا
٨٤
- ٢٠٩ - من خطبة له عليه السلام خطبها بصفين
٩٢-٨٨
- ٢١٠ - من كلام له عليه السلام ردّ فيه على رجل من أصحابه أكثر
الثناء عليه
١٠٢، ١٠١
- ٢١١ - من كلام له عليه السلام يشكو فيه أمر قريش معه
١٠٩
- ٢١٢ - من كلام له عليه السلام في ذكر السائرين إلى البصرة لحر به
عليه السلام
١٢٢، ١٢١
- ٢١٣ - من كلام له عليه السلام لما مر بطليحة بن عبيد الله وعبد الرحمن
ابن عقاب بن أسيد ، وهما قتيلان يوم الجمل
١٢٣
- ٢١٤ - من كلام له عليه السلام ، يصف فيه أحوال ثقيّ عارف بالله
١٢٧
- ٢١٥ - من كلام له عليه السلام يحث فيه أصحابه على الجهاد
١٤٢
- ٢١٦ - من كلام له عليه السلام قاله بعد تلاوته : ﴿ ألهاكم النكاثرة ﴾
١٥٢-١٤٥
- ٢١٧ - ومن كلام له عليه السلام قاله عند تلاوته : ﴿ يستبح له فيها
بالقدر والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾
١٧٧، ١٧٦
- ٢١٨ - من كلام له عليه السلام قاله عند تلاوته : ﴿ يأبى الإنسان ما غرّك
بربك الكريم ﴾
٢٣٩، ٢٣٨

- ٢١٩ - من كلام له عليه السلام في تهويل الظلم وتبرئته منه وبياب
صفر الدنيا في نظره
٢٤٦، ٢٤٥
- ٢٢٠ - من دعاء له عليه السلام
٢٦٦-٢٥٥
- ٢٢١ - من خطبة له عليه السلام في ذم الدنيا ووصف سكان القبور
٢٥٨، ٢٥٧
- ٢٢٢ - ومن دعائه عليه السلام أيضا
٢٦٧

فهرس الموضوعات *

صفحة	
٢٠ - ١٠	من أخبار طلحة والزبير
٣٧ - ٣٤	ذكر بعض مقامات العارفين والزهاد
٤٢ ، ٤١	ذكر بعض أحوال المذافين بعد وفاة محمد عليه السلام
٤٨ - ٤٣	ذكر بعض مامنى بن آل البيت من الأذى والاضطهاد
٥٠ - ٤٨	فصل فيما وضع الشيعة والبكرية من الأحاديث
٧٢ - ٦٧	ذكر بعض المطاعن فى النسب وكلام للجاحظ فى ذلك
٨٠ - ٧٢	ذكر بعض أحوال العارفين والأولياء
٩٧ - ٩٣	فصل فيما ورد من الآثار فيما يصلح للملاك
١٠٠ - ٩٧	الآثار الواردة فى العدل والإنصاف
١٢٠ - ١١٥	فصل فى أن جعفرًا وحمة لو كانا حين إبايعا عليا
١٢٤ ، ١٢٣	عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد
١٢٥	بنو جح
١٣٣ - ١٢٧	فصل فى مجاهدة النفوس وما ورد فى ذلك من الآثار
١٣٦ - ١٣٤	فصل فى الرياضة النفسية وأقسامها
١٣٧	فصل فى أن الجوع يؤثر فى صفاء النفس
١٤١ - ١٣٧	كلام للفلاسفة والحكماء فى المكاشفات الناشئة عن الرياضة

* وهى الموضوعات الواردة فى شرح نهج البلاغة .

-- ٢٨٣ --

١٥٩ - ١٥٦	بعض الأشعار والحكايات في وصف القبور والموتى
١٧٥ - ١٦٨	إبراد أشعار وحكايات في وصف الموت وأحوال الموتى
٢٣٧ - ١٨١	بيان أحوال العارفين
٢٥٤ - ٢٥٠	نقد من أخبار عتميل بن أبى طالب
٢٥٩	ذكر الآثار والأشعار الواردة في ذم الدنيا
٢٧٨ - ٢٧١	أدعية فصيحة لأبى حيان التوحيدي

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الثاني عشر

دار الحديث
بيروت

مقوق الطبع مءفظة للنشر

طبعة ثانية

١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٢٣)

الأصل

ومن كلام له عليه السلام :

لله بلاد فلان ؛ فلقد قوم الأود ، ودأوى العمد ، وأقام السنة ، وخلف الفتنة ؛
ذهب نقي الثوب ، قليل الغيب ، أصاب خيرها ، وسبق شرها .
أدى إلى الله طاعته ، وأتقاه بحقه . رحل وتركهم في طرق منشعب ، لا يهتدي
بها الضال ، ولا يستيقن المهتدي .

الشرح :

العرب تقول : لله بلاد فلان ، والله در فلان ، والله نادى فلان ، والله نأىح
فلان ! والمراد بالأول : لله البلاد التي أنشأته وأنبته ، والثاني : الله الذي أرضعه
وبالثالث : الله المجلس الذي ربي فيه ، والرابع : الله النأىح التي تنوح عليه وتندبه !
ماذا تعهد من محاسنه

ويروى : « لله بلاد فلان » ، أى لله ماصنع ! وفلان المسكن عنه عمر بن الخطاب ؛ وقد
وجدت النسخة التي بخط الرضى أبي الحسن جامع " نهج البلاغة " ، وتحت « فلان » « عمر » ،

حدثني بذلك نغار بن معدّ الموسوي الأوديّ الشاعر ، وسألتُ عنه النقيب أباجعفر يحيى ابن أبي زيد العلويّ ، فقال لي : هو عمر ، قُلت له أُيّدني عليه أمير المؤمنين عليه السلام هذا الثناء ؟ فقال : نعم ؛ أمّا الإماميّة فيقولون : إنّ ذلك من التّقية واستصلاح أصحابه . وأمّا الصّالحيون ^(١) من الزيدية فيقولون : إنّهُ أثني عليه حقّ الثناء ، ولم يضع المدح إلّا في موضعه ونصابه . وأمّا الجارودية ^(٢) من الزيدية فيقولون : إنّهُ كلام قاله في أمر عثمان أخرجه مُخرَج الدّم له ، والتنقّص ^(٣) لأعماله ، كما يُمدّحُ الآن الأمير الميّت في أيام الأميرالحّي بعده ، فيكرو ذلك تعريضاً به .

قُلت له : إلّا أنّه لا يجوز التعريض والاستزادة للحاضر بمدح الماضي ، إلّا إذا كان ذلك المدح صدقاً لا يخالطه ريبٌ ولا شبهة . فإذا اعترف أمير المؤمنين بأنّه أقام السنّة ، وذهب بقيّ الثوب ، قليل العيب ، وأنّه أدّى إلى الله طاعته ، واتّقاه بحقّه ، فهذا غاية ما يكون من المدح . وفيه إبطالُ قول مَنْ طعن على عثمان بن عفّان . فلم يجيئ بشيء ، وقال : هو ماقلت لك !

فأمّا الراونديّ ، فإنّه قال في الشرح : إنّهُ عليه السلام مدح بعض أصحابه بحسن السيرة ، وأنّ الفتنة هي التي وقعت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الاختيار والأثرة . وهذا بعيد ؛ لأنّ لفظ أمير المؤمنين يشعر إشعاراً ظاهرًا بأنّه يمدح والياً ذا رعيّة وسيرة ، ألا تراه كيف يقول : « فلقد قوّم الأود ، ودأوى العمّد ، وأقام السنّة ، وخلف الفتنة » ! . وكيف يقول : « أصاب خيرها وسبق شرّها » ! وكيف يقول : « أدّى إلى الله طاعته » ! وكيف يقول : « رحّل وتركهم في طرق متشعبة » !

(١) الصّالحيون من الزيدية : أصحاب الحسن بن صالح . وانظر آراءهم في الملل والنحل للشهرستاني ١٤٢

(٢) الجارودية من الزيدية ؛ أصحاب أبي الجارود زياد بن أبي زياد . الملل والنحل للشهرستاني ١٤٠

(٣) كذا في ب ، وفي أ : « التنقّص » .

وهذا الضمير ، وهو الهاء والميم في قوله عليه السلام : « وتركهم » ، هل يصح أن يعود إلّا إلى الرعايا ! وهل يسوغ أن يقال هذا الكلام لسوقة من عرض الناس ! وكل من مات قبل وفاة النبي صلى الله عليه وآله كان سوقة لا سلطان له ، فلا يصح أن يُحمّل هذا الكلام على إرادة أحد من الذين قُتلوا أو ماتوا قبل وفاة النبي صلى الله عليه وآله ؛ كعثمان بن مظعون ، أو مُصعب بن عمير ، أو حمزة بن عبد المطلب ، أو عبيدة بن الحارث ، وغيرهم من الناس . والتأويلات الباردة الغثة لا تعجبني ، على أنّ أبا جعفر محمد بن جرير الطبري قد صرح أو كاد يصرّح بأنّ المعنى بهذا الكلام عمر ، قال الطبري : لما مات عمر بكته النساء ، فقالت إحدى نواده : واحزنّاه على عمر ! حزناً انتشر ، حتى ملأ البشر ^(١) . وقالت ابنة أبي حنمة : واعمره ! أقام الأود ، وأبرأ العمّد ، وأمات الفتن ، وأحيا السنن . خرج نقي الثوب ، بريثا من العيب ^(٢) .

قال الطبري : فروى صالح بن كيسان ، عن المغيرة بن شعبة ^(٣) ، قال : لما دفن عمر أتيتُ عليّاً عليه السلام ، وأنا أحبّ أن أسمع منه في عمر شيئا ، فخرج ينفّض رأسه ولحيته ، وقد اغتسل ، وهو ملتحيث بثوب لا يشك أنّ الأمر يصير إليه ، فقال : رحم الله ابن الخطاب ! لقد صدقت ابنة أبي حنمة : « ذهب بخيرها ، ونجا من شرها » ، أما والله ما قالت ، ولكن قولت ! .

وهذا كما ترى يقوّي الظنّ ؛ أن المراد والمعنى بالكلام إنّما هو عمر بن الخطاب .

(١) الطبري : « واحزنى على عمر ، حرا انتشر فلا البشر » . وبعبارة : وقالت أخرى : « واحزنى على عمر ، حرا انتشر حتى شاع في البشر » .

(٢) تاريخ الطبري ٤ : ٢١٨ (طبعة دار المعارف) .

(٣) في الطبري : « حدثني عمر ، قال : حدثني علي ، قال : حدثنا علي ، قال : حدثنا ابن دأب وسعيد ابن خالد عن صالح بن كيسان عن المغيرة بن شعبة ... » .

قوله : « فَلَقد قَوْمُ الْإِوَدِ » ، أى الْعِوَجِ ، أَوْدِ الشَّيْءُ بِالْكَسْرِ يَأْوُدُ أَوْدًا ، أى اعوجَّ ،
وَتَأْوُدُ الْعُودَ ، يَتَأْوُدُ .

وَالْعَمْدُ : انْفِضَاخُ ^(١) سَنَامِ الْبَعِيرِ ، وَمِنْهُ يُقَالُ لِلْعَاشِقِ : عَمِيدَ الْقَلْبِ وَمَعْمُودَهُ .
قوله : « أَصَابَ خَيْرَهَا » أى خَيْرَ الْوَلَايَةِ ، وَجَاءَ بِضَمِيرِهَا وَلَمْ يَجِرْ ذِكْرَهَا لِعَادَةِ
الْعَرَبِ فِي أَمْثَالِ ذَلِكَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ ^(٢) .
وَسَبَقَ شَرَّهَا ، أى مَاتَ أَوْ قَتَلَ قَبْلَ الْأَحْدَاثِ وَالِاخْتِلَاطِ الَّذِي جَرَى بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ .
قوله : « وَاتَّقَاهُ بِحَقِّهِ » ، أى بِأَدَاءِ حَقِّهِ وَالْقِيَامِ بِهِ .

فَإِنْ قَامَتْ : وَأَيُّ مَعْنَى فِي قَوْلِهِ : « وَاتَّقَاهُ بِأَدَاءِ حَقِّهِ » ؟ وَهَلْ يَتَّقَى الْإِنْسَانُ اللَّهَ بِأَدَاءِ الْحَقِّ !
لِإِتِمَادِهِ تَكُونُ التَّقْوَى عِلَّةً فِي أَدَاءِ الْحَقِّ ، فَأَمَّا أَنْ يَتَّقَى بِأَدَائِهِ فَهُوَ غَيْرُ مَعْقُولٍ .
قَالَ : أَرَادَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ اتَّقَى اللَّهَ ، وَدَلَّلْنَا عَلَى أَنَّهُ اتَّقَى اللَّهَ بِأَدَائِهِ حَقَّهُ ، فَأَدَاءُ
الْحَقِّ عِلَّةٌ فِي عِلْمِنَا بِأَنَّهُ قَدْ اتَّقَى اللَّهَ سُبْحَانَهُ .

ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ رَحَلَ وَتَرَكَ النَّاسَ فِي طَرُقٍ مَتَشَعِّبَةٍ مَتَفَرِّقَةٍ ، فَالضَّالُّ لَا يَهْتَدِي فِيهَا ،
وَالْمُهْتَدِي لَا يَلْمُ أَنَّهُ عَلَى الْمَنْهَجِ الْقَوِيمِ ، وَهَذِهِ الصِّفَاتُ إِذَا تَأَمَّلَهَا الْمُنْصِيفُ ، وَأَمَّا عَنْ
نَفْسِهِ الْمُهْوَى ، عَلِمَ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَعْزْ بِهَا إِلَّا عَمْرٌ ؛ لَوْ لَمْ يَكُنْ قَدْ رَوَى لَنَا
تَوْقِيفًا وَنَقْلًا أَنَّ الْمَعْنَى بِهَا عَمْرٌ ، فَكَيْفَ وَقَدْ رَوَيْنَاهُ عَنْ لَا يَتَّبِعُهُ فِي هَذَا الْبَابِ !

[نَكْتٌ مِنْ كَلَامِ عَمْرِو وَسِيرَتِهِ وَأَخْلَافِهِ]

وَنَحْنُ نَذَكُرُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ نُكْتًا مِنْ كَلَامِ عَمْرِو وَسِيرَتِهِ وَأَخْلَاقِهِ .

(١) انْفِضَاخُ سَنَامِ الْبَعِيرِ : انْشِدْ .

(٢) سُورَةُ ص ٣٢ .

أتى عمرُ بمالٍ ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : يا أمير المؤمنين ، لو حبستَ من هذا المال في بيت المال لنائبيةً تكون ، أو أمر يحدث ! فقال : كلمة ماعرض بها إلا شيطان كفاني حُجَّتَها ، ووقاني فتنها . أعصى الله العام مخافة قائل ! أعدّ لهم تقوى الله ، قال الله سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ ^(١) .

استكتب أبو موسى الأشعري نصرانياً ، فكتب إليه عمر : اعزله واستعمل بدله حنيفياً ، فكتب له أبو موسى : إن من غنائه وخبره وخبرته كُنت وكُنت . فكتب له عمر : ليس لنا أن نأتمنهم ، وقد خَوَّنهم الله ، ولا أن نرفعهم وقد وضعهم الله ، ولا أن نستنصِحهم في الدين وقد وترهم الإسلام ، ولا أن نعزهم وقد أمرنا بأن يُعطوا الجزية عن يديهم صاغرون .

فكتب أبو موسى : إن البلد لا يصلح إلا به . فكتب إليه عمر : مات البصري والسلام .

وكتب إلى معاوية : إياك والاحتجاب دون الناس ، وأئذن للضعيف ، وأذنه حتى يلبس لسانه ، ويحترق قلبه ، وتعهد الغريب ^(٢) ، فإنه إذا طال حبسه ودام إذنه ، ضعف قلبه ، وترك حقه .

عزل عمر زياداً عن كتابة أبي موسى الأشعري في بعض قدماته عليه ، فقال له : عن تجزئ أم عن خيانة ؟ فقال : لا عن واحدةٍ منهما ، ولكني أكره أن أحل على العامة فضل عقلك .

(١) سورة الطلاق ٣ .

(٢) ب : « الغريب » .

وقال : إني والله لا أدعُ حقَّ الله لشكايه تظاهر، ولا لضبِّ يحتمل ، ولا محاباة لبشر .
وإنك والله ما عاقبتَ مَنْ عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه .

وكتب إلى سعد بن أبي وقاص : يا سعد سعد بنى أهيب ! إنَّ الله إذا أحبَّ عبداً
حبَّبه إلى خلقه ، فاعتبرْ منزِلَتَكَ من الله بمنزِلَتِكَ من الناس . واعلمْ أنَّ مالَكَ عند الله
مثل مالِهِ عندكَ .

وسأل رجلاً عن شيء ، فقال : الله أعلم ، فقال : قد شقينا إن كذا لا نعم أنَّ الله
أعلم ! إذا سئل أحدُكم عما لا يعلم ، فليقل : لا أدري .

وقال عبد الملك [على المنبر] ^(١) : أنصفونا يا معشر الرعية ، تريدون مدّاً سيرة أبي بكر
وعمر ، ولم تسيروا في أنفسكم ولا فينا سيرة أبي بكر وعمر ! نسأل الله أن يعين كلّا
على كلِّ .

ودخل عمرُ على ابنه عبد الله ، فوجد عنده لحماً عبيطاً معلقاً ^(٢) ، فقال : ما هذا اللحم ؟
قال : اشتريتُ فاشترت ، فقال : أوكلما اشتريت شيئاً أكلته ! كفى بالمرء سرّفاً أن
أكل كلَّ ما اشتراه .

مرَّ عمر على مزبلة ، فتأذى بريحها أحبابه ، فقال : هذه دنياكم التي
تحرِّصون عليها .

(٢) لحم عبيط : طرى .

(١) من ١

ومن كلامه للأحنف: يا أحنف، مَنْ كَثُرَ ضَجِّكَ قَلَّتْ هَيْبَتُهُ، وَمَنْ مَزَحَ اسْتَخِفَّ بِهِ، وَمَنْ أَكْثَرَ مِنْ شَيْءٍ عَرِفَ بِهِ، وَمَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ سَقَطُهُ، وَمَنْ كَثُرَ سَقَطُهُ قَلَّتْ حَيَاؤُهُ، وَمَنْ قَلَّتْ حَيَاؤُهُ قَلَّتْ وَرَعُهُ، وَمَنْ قَلَّتْ وَرَعُهُ مَاتَ قَلْبُهُ .
وقال لابنه عبد الله: يا بني اتَّقِ اللَّهَ يَقِمْكَ، وَأَقْرِضِ اللَّهَ يَجْزِكَ، وَاشْكُرْهُ يَزِدْكَ .
واعلم أنه لا مال لمن لا رِفْقَ له، ولا جديد لمن لا خُلُقَ له، ولا عمل لمن لا نِيَّةَ له .

وخطب يوم استخلف، فقال: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَيْسَ فَيْكُمْ أَحَدٌ أَتَوَى عِنْدِي مِنَ الضَّعِيفِ حَتَّى آخِذَ الْحَقِّ لَهُ، وَلَا أَضْعِفُ مِنَ الْقَوَى حَتَّى آخِذَ الْحَقِّ مِنْهُ .
وقال لابن عباس: يا عبد الله، أَنْتُمْ أَهْلُ رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَبَنُو عَمِّهِ، فَمَا تَقُولُ مَنَعَ قَوْمَكُمْ مِنْكُمْ؟ قَالَ: لَا أَدْرِي عِلَّتْهَا، وَاللَّهِ مَا أَضْمَرْنَا لَهُمْ إِلَّا خَيْرًا . قَالَ: اللَّهُمَّ غَفُورًا، إِنَّ قَوْمَكُمْ كَرِهُوا أَنْ يَجْتَمَعَ لَكُمْ النُّبُوَّةُ وَالْخِلَافَةُ، فَتَذْهَبُوا فِي السَّمَاءِ شَمَخًا وَبَذَخًا، وَلَعَلَّكُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ أَوَّلُ مَنْ أَخْرَجَكُمْ، أَمَّا إِنَّهُ لَمْ يَقْصِدْ ذَلِكَ، وَلَكِنْ حَضَرَ أَمْرٌ لَمْ يَكُنْ بِحَضْرَتِهِ أَحْزَمُ مِمَّا فَعَلَ، وَلَوْلَا رَأْيُ أَبِي بَكْرٍ فِيَّ لَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَمْرِ نَصِيبًا، وَلَوْ فَعَلَ مَا هُنَّا كُمْ مَعَ قَوْمِكُمْ . إِنَّهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكُمْ نَظَرَ الثَّوْرِ إِلَى جَازِرِهِ .

وكان يقول: لَيْتَ شِعْرِي مَتَى أَشْفَى مِنْ غِيظِي! أحياناً أقدر فيقال لي: لو عفوت،
أَمْ حِينَ أُجْبَلُ فيقال: لو صبرت!

ورأى أعرابياً يصلي صلاة خفيفةً، فلما قضاها قال: اللَّهُمَّ زَوِّجْنِي الْحَوْرَ الْعَيْنِ .
فقال له: لَقَدْ أَسَأْتَ النَّقْدَ، وَأَعْظَمْتَ الْخِلْطَةَ!
وقيل له: كَانَ النَّاسُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَدْعُونَ عَلَى مَنْ ظَلَمَهُمْ فَيُسْتَجَابُ لَهُمْ، وَلَسْنَا نَرَى

ذلك الآن . قال : لأنّ ذلك كان الحاجرَ بينهم وبين الظلم ، وأما الآن فالساعة موعدهم والساعة أذهى وأمرّ .

ومن كلامه : مَنْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلتَّهْمَةِ فَلَا يُلَومَنَّ مَنْ أَسَاءَ بِهِ الظَّنَّ ، وَمَنْ كَتَمَ سِرَّهُ كَانَتْ الْخَيْرَةُ بِيَدِهِ .

ضع أمرَ أخيك على أحسنه ، حتّى يأتيتك منه ما يغلبك ، ولا تظنّ بكلمة خرجت من أخيك المسلم شرّاً وأنت تجدها في الخير محملاً .

وعليك يا أخوان الصّدق وكيسَ أكياسهم ، فإنّهم زينة في الرخاء ، وعُدّة عند البلاء ، ولا تتهاوننّ بالخلق فيهينك الله ، ولا تعترض بما لا يعينك ، واعتزل عدوك ، وتحفّظ من خليلك إلا الأمين ، فإنّ الأمين من الناس لا يمادله شيء ، ولا تصحب الفاجر فيعلمك من مخزّره ، ولا تُفشِ إليه ^(١) سرّك ، واستشر في أمرك أهل التقوى ، وكفى بك عيباً أن يبدؤوك من أخيك ما يخفى عليك من نفسك ، وأن تؤذّي جليسك بما تأتي مثله .

وقال : ثلاث يُصنّفن لك الودّ في قلب أخيك : أن تبدأه بالسّلام إذا لقيتّه ، وأن تدعوه بأحبّ أسمائه إليه ، وأن توسّع له في المجلس .

وقال : أحبّ أن يكون الرجل في أهله كالصبيّ ، وإذا أصبح إليه كان رجلاً .

بينما عمر ذات يوم إذ رأى شابّاً يخطر بيديه ، فيقول : أنا ابنُ بطّحاء مكة كُديّها وكُداها ^(٢) . فناده عمر ، فجاء فقال : إن يكن لك دينٌ فلك كرم ، وإن يكن لك عقل فلك مروعة ، وإن يكن لك مال فلك شرف ، وإلا فأنت والحمار سواء .

(١) ساطعة من ب .

(٢) كدى وكدا : مضعان ، وقيل : مما جيلان بكّة ، وقد قيل : كداً بالقصر .. (اللسان) .

وقال : يامعشر المهاجرين ، لا تكثروا الدخول على أهل الدنيا وأرباب الإمرة والولاية ، فإنه مسخطة للرب ، وإياكم والبطنة ؛ فإنها مكسلة عن الصلاة ، ومفسدة للجسد ، موزنة للسم ، وإن الله يُبغض الخبز السمين ، ولكن عليكم بالقصد في قوتكم ، فإنه أدنى من الإصلاح ، وأبعد من السرف ، وأقوى على عبادة الله ، ولن يهلك عبد حتى يؤثر شهوته على دينه .

وقال : تعلموا أن الطمع فقر ، وأن اليأس غنى ، ومن يأس من شيء استغنى عنه ، والثوثة في كل شيء خير إلا ما كان من أمر الآخرة .

وقال : من اتقى الله لم يشف الله غيظه ، ومن خاف الله لم يفعل ما يريد ، ولولا يوم القيامة لكان غير ماترون .

وقال : إني لأعلم أجود الناس ، وأحلم الناس ، أجودهم من أعطى من حرمة ، وأحلمهم من عفا عن ظلمه .

وكتب إلى ساكني الأمصار : أما بعد ، فاعلموا أولادكم العوم^(١) والفروسيّة ، رؤوهم ساسار من الثل وحسن من الشعر .

وقال : لا تزال العرب أعزّة مانزعت في القوس ، ونزت^(٢) في ظهور الخيل .
وقال وهو يذكر النساء : أكثروا لمن قول : « لا » فإن « نعم » مفسدة تفريهن على المسألة .

وقال : مابل أحدكم يثنى الوسادة عند امرأة مغزبة^(٣) ، إن المرأة لحم على وضم إلا ماذب عنه .

(٢) نزت : وثبت .

(١) ب : « العلوم » تصحيف .

(٣) المغزبة : المرأة المتزوجة .

وكتب إلى أبي موسى : أما بعد ، فإنّ للنّاس نفرةً عن سلطانهم ، فأعوذُ بالله أن يدركني وإياك غمياء مجهولة ، وضغائن محمولة ، وأهواء متبّعة ، ودنيا مؤثرة . أقم الحدود ؛ واجلس للظالم ولو ساعة من نهار ، وإذا عرّض لك أمران : أحدهما لله ، والآخر للدنيا ، فابدأ بعمل الآخرة ، فإنّ الدّنيا تفتى ، والآخرة تبقى . وكن من مال الله عزّ وجلّ على حدّ ، واجنبُ الفسّاق ، واجعلهم يدا ويدا ، ورجلا ورجلا ، وإذا كانت بين القبائل نائرة^(١) يالفلان يالفلان ! فإيّاها تلك نجوى الشيطان ، فاضربهم بالسيف حتى يفيثوا إلى أمر الله ، وتكون دعواهم إلى الله ، وإلى الإسلام . وقد بلغني أن ضبة تدعو : يا ضبة ! وإني والله أعلم أنّ ضبة ماساق الله بها خيرا قطّ ، ولا منّع بها من سوء قطّ . فإذا جاءك كتابي هذا فانهمكهم^(٢) ضربا وعقوبة ، حتى يفرّقوا إن لم يفتقها ، والصق بفيلان بن خرشة من بينهم . وعذّ مرضى المسلمين ، واشهد جنائزهم ، وافتح لهم بابك ، وبأشر أمورهم بنفسك ، فإنّما أنت رجلٌ منهم ، غير أنّ الله قد جعلك أثقلهم حملا . وقد بلغني أنّه فشالك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ، ومركبك ، ليس للمسلمين مثلاً ، فأياك ياعبد الله بن قيس أن تكون بمنزلة البهيمة التي مرّت بواد خصب ، فلم يكن لها همة إلّا السّمن ، وإيّاها حظها من السّمن لغيرها . واعلم أنّ للعامل مردّا إلى الله ، فإذا زاغ العامل زاغت رعيّته ، وإنّ أشقى الناس من شقيّته به نفسه ورعيّته . والسلام .

وخطب عمر ، فقال : أما بعد ، فإنّي أوصيكم بتقوى الله الذي يبقى ويفنى ماسواه ، والذي بطاعته ينفع أوليائه ، وبمعصيته يضرّ أعداءه . إنّه ليس لهالك هلك عذريّ تعمّد ضلالة حسبها هدى ، ولا ترك حقّ حسبه ضلالة . قد ثبتت الحجّة ، ووضحت الطرق ، وانقطع العذر ، ولا حجة لأحدٍ على الله عزّ وجلّ . ألا إنّ أحقّ ماتماهد به الراعي

(١) النائرة : العداوة والدعوة للشر .

(٢) نهك : بالغ في ضربه وعقوبته .

رعيته أن يتعاهدكم بالذي لله تعالى عليهم في وظائف دينهم الذي هداكم به ، وإِنَّمَا عَلَيْنَا أَنْ نَأْمُرَكُمْ بِالَّذِي أَمَرَكم الله بِهِ مِنْ طَاعَتِهِ ، وَفَنَهَاكُمْ عَنْ مَا نَهَاكم الله عَنْهُ مِنْ مَعْصِيَتِهِ ، وَأَنْ نَقِيمَ أَمْرَ اللهِ فِي قَرِيبِ النَّاسِ وَبَعِيدِهِمْ ، وَلَا نُبَالِي عَلَى مَنْ قَالَ الْحَقَّ ، لِيَتَعَلَّمَ الْجَاهِلُ ، وَيَتَعَطَّ الْمَفْرُطُ ؛ وَيَقْتَدِيَ الْمُقْتَدَى . وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ أَقْوَامًا يَتَمَنَّوْنَ فِي أَنْفُسِهِمْ ، وَيَقُولُونَ : نَحْنُ نَصَلِّيُ مَعَ الْمُصَلِّينَ ، وَنُجَاهِدُ مَعَ الْمُجَاهِدِينَ . أَلَا إِنَّ الْإِيمَانَ لَيْسَ بِالتَّنْيِ وَلَكِنَّهُ بِالْحَقَائِقِ . أَلَا مَنْ قَامَ عَلَى الْفَرَائِضِ ، وَسَدَّدَ نِيَّتَهُ ، وَاتَّقَى اللَّهَ ، فَذَلِكَ النَّاجِي . وَمَنْ زَادَ اجْتِهَادًا وَجَدَ عِنْدَ اللَّهِ مَزِيدًا .

وإِنَّمَا الْمُجَاهِدُونَ الَّذِينَ جَاهَدُوا أَهْوَاءَهُمْ ، وَالْجِهَادُ اجْتِنَابُ الْحَرَامِ . أَلَا إِنَّ الْأَمْرَ حِدٌّ ، وَقَدْ يِقَاتِلُ أَقْوَامٌ لَا يَرِيدُونَ إِلَّا الذِّكْرَ ، وَقَدْ يِقَاتِلُ أَقْوَامٌ لَا يَرِيدُونَ إِلَّا الْأَجْرَ ، وَإِنَّ اللَّهَ يَرْضَى مِنْكُمْ بِالْيَسِيرِ ، وَأَثَابَكُمْ عَلَى الْيُسْرِ الْكَثِيرَ .
الوظائف الوظائف ! أدوها تؤدِّكم إلى الجنة . والسنة السنة ! الزموها تُنْجِكم من البدعة .

تعلّموا ولا تعجزوا ، فَإِنْ مَنْ عَجَزَ تَكَلَّفَ ؛ وَإِنْ شَرَارَ الْأُمُورَ مَحَدَّثَاتُهَا . وَإِنْ الْاِقْتِنَادُ فِي السَّنَةِ خَيْرٌ مِنَ الْجِهَادِ فِي الضَّلَالَةِ ، فَافْهَمُوا مَا تَوْعَظُونَ بِهِ ، فَإِنَّ الْحَرِيبَ مِنْ حُرْبٍ ^(١) دِينَهُ ، وَإِنَّ السَّمِيدَ مَنْ وَعَظَ بغيرِهِ .

وَقَالَ : وَعَلَيْكُمْ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ، فَإِنَّ اللَّهَ قَضَى لَهَا بِالْعِزَّةِ ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّفَرُّقَ وَالْمَعْصِيَةَ ، فَإِنَّ اللَّهَ قَضَى لَهَا بِالذَّلَّةِ .

أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ لِي وَلَكُمْ .

بمَثَّ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ أَيَّامَ الْبِقَادِيسَةِ إِلَى عَمْرِ قَبَاءَ كَسْرَى وَسَيْفَهُ ، وَمِنْطَقَتَهُ ،

(١) حَرْبُ دِينِهِ : أَيْ سَلْبُ .

وسراويله ، وتاجه ، وقيصه ، وخفيه ؛ فنظر عمر في وجوه القوم عنده ، فكان أجسمهم وأمدّم قامه سُرّاقه بن مالك بن جُعشم المدلجيّ . فقال : ياسراق ، قم فالبس ، قال سُرّاقه : طمعت فيه فقمّت فلبست ، فقال : أدبر فأدبرت ، وقال : أقبل ، فأقبلت ، فقال : بخ ! أعرابيّ من بني مُدَلج ، عليه قباء كسرى وسراويله وسيفه ومنطقته وتاجه وخفاه ! ربّ يومٍ ياسراق لو كان فيه دون هذا من متاع كسرى وآل كسرى لكان شرفاً لك ولقومك . انزع ! فنزع ، فقال : اللهم ! إنك منعت هذا نبيك ورسولك ، وكان أحبّ إليك مني وأكرم ، ومنعته أبا بكر وكان أحبّ إليك مني وأكرم ؛ ثم أعطيتنيهِ ، فأعوذ بك أن تكون أعطيتنيهِ لتكرّ بي . ثم بكى حتّى رحمه من كان عنده .

وقال لعبد الرحمن بن عوف : أقسمتُ عليك لما بعته ثم قسمته قبل أن تُنسي ، فما أدركه المساء إلّا وقد بيع وقسم ثمنه على المسلمين .

جىء بتاج كسرى إلى عمر ؛ فاستعظم الناس قيمته ، للجواهر التي كانت عليه ، فقال : إن قوماً أدوا هذا الأمانة ! فقال علىّ عليه السلام : إنك عَقَفْتَ فَعَفُوا ؛ ولور رَعَتَ لَرَعُوا ^(١) :

كان عمر يعُسُّ ليلاً ، فنزلت رفقة من التجار بالمصلّى ، فقال لعبد الرحمن بن عوف : هل لك أن تحرسهم الليلة من السرّاق ؟ فباتا يحرسانهم ، ويصليان ما كتب الله لهما ، فسمع عمر يبكاء صبيّاً ، فأصغى نحوه ، فطال بكأوه ، فتوجّه إليه ، فقال لأمه : اتقى الله وأحسنى إلى صبيّك . ثم عاد إلى مكانه ، فسمع بكاءه ، فعاد إلى أمّه ، فقال لها مثل ذلك ، ثم عاد إلى مكانه ، فسمع بكاءه ، فأتى أمّه ، فقال : ويحك ! إنى لأراك أمّ سوء ! لا أرى ابنك يقرّ منذ الليلة ! فقالت : يا عبد الله ، لقد آذيتنى منذ الليلة ، إنى أريغُه

(١) يقال : رَمَع فلان : إذا أكل وشرب ما شاء .

على الفطام فيأبى ؛ قال : ولم ؟ قالت : لأنّ عمر لا يفرض لرضيع ، وإنما يفرض للقطيم ، قال : وم كم له ؟ قالت : اثنا عشر شهرا ، قال : ويحك لا تعجله ! فصلّى الفجر وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء عليه ، فلما سلّم قال : يا بؤسا لعمر كم ! كم قتل من أولاد المسلمين ، فطلب منادياً فنادى : ألا لا تمجّلوا صبيانكم عن الرضاع ؛ ولا تقطعوا قبل أوان الفطام ، فإنّا نفرض لكل مولود في الإسلام .

وكتب بذلك إلى سائر الآفاق ^(١) .

مرّ عمر بشاب من الأنصار وهو ظمآن ، فاستسقاءه ، فغاض له عسلاً ، فردّه ولم يشرب وقال : إننى سمعتُ الله سبحانه ، يقول : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ﴾ ^(٢) فقال الفتى : إنها والله ليست لك ، فأقرأ يا أمير المؤمنين ما قبلها : ﴿ وَيَوْمَ يُمْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾ ؛ أفنحن منهم افشرب ، وقال : كلّ الناس أقره من عمر !

وأوصى عمر حين طعده أبو لؤلؤة من يستخلفه السلطان بعده من أهل الشورى ، فقال : أوصيك بتقوى الله لا شريك له ، وأوصيك بالمهاجرين الأوّلين خيراً ، أن تعرف لهم سابقتهم ، وأوصيك بالأنصار خيراً ؛ أقبل من محسنهم ، وتجاوز عن مسيئهم . وأوصيك بأهل الأمصار خيراً ، فإنهم رذّة العلوّ ، وجبّة النّزول ، لا تحمل فيهم إلى غيرهم إلا عن فضل منهم ، وأوصيك بأهل البادية خيراً ، فإنهم أصل العرب ، ومادّة الإسلام ؛ أن يؤخذ من حواشى أموالهم ، فيردّ على قرائهم ؛ وأوصيك بأهل الذمّة خيراً ، أن تقاتل

(١) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى ٤٨ .

(٢) سورة الأحقاف ٢٠ .

من ورائهم ، ولا تكلفهم فوق طاقتهم إذا أدوا ما عليهم للمسلمين طوعا أو عن يدٍ
وهم صاغرون .

وأوصيك بتقوى الله ، وشدة الحذر منه ومخافة مقتته ؛ أن يطلع منك على ريبة .
وأوصيك أن تخشى الله في الناس ، ولا تخشى الناس في الله ، وأوصيك بالعدل في الرعية ،
والتفرغ لحوائجهم وتغورهم ، وألا تعين غنيهم على فقيرهم ، فإن في ذلك بإذن الله سلامة
لقلبك ، وخطأ لذنوبك ، وخيرا في عاقبة أمرك . وأوصيك أن تشتد في أمر الله وفي حدوده ،
والزجر عن معاصيه ، على قريب الناس وبعيدهم ، ولا تأخذك الرأفة والرحمة في أحد منهم ،
حتى تنتهك منه مثل جرّمه ، واجعل الناس عندك سواء ، لا تبال على من وجب الحق ،
لا تأخذك في الله لومة لائم . وإياك والآخرة والمحابة فيما ولاك الله تماء الله على المسلمين ،
فتجور وتظلم ، وتحرم نفسك من ذلك ما قد وسّعه الله عليك ، فإنك في منزلة من منازل
الدنيا ، وأنت إلى الآخرة جدّ قريب ، فإن صدقت في دينك عفة وعدلا فيما بسط لك ،
اقتربت رضوانا وإيمانا ، وإن غلبك الهوى ، اقتربت فيه سخط الله ومقتته .

وأوصيك ألا ترخص لنفسك ولا لغيرك في ظلم أهل الذمة .

واعلم أنّي قد أوصيتك وخصصتك ونصحت لك ، أبتغي بذلك وجه الله والدار الآخرة ،
ودلتك على ما كنت دالّا عليه نفسي ، فإن عملت بالذي وعظمتك ، واتهيت إلى الذي
أمرتك ؛ أخذت منه نصيبا وافرا ، وحظا وافيا ، وإن لم تقبل ذلك ، ولم تعمل ولم تترك
معاظم الأمور عند الذي يرضى الله به سبحانه عنك ، يكن ذاك بك انتقاصا ، ويكن رأيك
فيه مدخولا ، فالأهواء مشتركة ، ورأس الخطيئة إبليس الداعي إلى كل هلكة ، قد أضلّ
القرون السالفة قبلك ، وأوردتهم النار ، ولبس الثمن أن يكون حظ امرئ من دنياه موالاة
عدو الله ، الداعي إلى معاصيه !

اركب الحق ، وخض إليه الغمرات ، وكن واعظا لنفسك .

وأُشَدُّكَ لَمَّا تَرَحَّمْتَ إِلَى جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَجَلَّلْتَ كَبِيرَهُمْ ، وَرَحِمْتَ صَغِيرَهُمْ ،
وَقَرَّبْتَ عَالِمَهُمْ . لَا تَضْرِبُهُمْ فَيَذَلُّوا ، وَلَا تَسْتَأْثِرَ عَلَيْهِمْ بِالْفِءِ فَتُغْضِبَهُمْ ، وَلَا تَحْرِمَهُمْ
عَطَايَاهُمْ عِنْدَ مَحَلِّهَا فَتُفْقِرَهُمْ ، وَلَا تَجْمَرَهُمْ ^(١) فِي الْبُعُوثِ فَتَقْطَعَ نَسَابَهُمْ ، وَلَا تَجْعَلَ الْأَمْوَالَ
دَوْلَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْهُمْ ، وَلَا تَغْلِقَ بِأَبْكَ دُونَهُمْ ، فَيَأْكُلَ قُوَّيَهُمْ ضَعْفِيَّةَهُمْ .
هَذِهِ وَصِيَّتِي بِإِيَّاكَ ؛ وَأَشْهَدُ اللَّهَ عَلَيْكَ . وَأَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ شَهِيدٌ .

وخطب عمر فقال :

لَا يَبْلُغْنِي أَنَّ امْرَأَةً تَجَاوِزُ صِدَاقَهَا صِدَاقَ زَوْجَاتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
إِلَّا أَرْتَجِعُ ذَلِكَ مِنْهَا . قَامَتْ إِلَيْهِ امْرَأَةٌ ، فَقَالَتْ : وَاللَّهِ مَا جَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ لَكَ ، إِنَّهُ تَعَالَى
يَقُولُ : ﴿ وَآتَيْنَاهُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ﴾ ^(٢) . فَقَالَ : عَمْرٍ : أَلَا
تَعْجَبُونَ مِنْ إِمَامٍ أَخْطَأَ ، وَامْرَأَةٍ أَصَابَتْ ! نَاضَلْتُ إِمَامَكُمْ فَفَضَّلْتَهُ ^(٣) !

وَكَانَ يَمْسُ لَيْلَةً ، فَرَرَّ بَدَارٍ سَمِعَ فِيهَا صَوْتًا ، فَارْتَابَ وَتَسَوَّرَ ، فَرَأَى رَجُلًا عِنْدَ
امْرَأَةٍ وَزِقَّ خَرَّ ، فَقَالَ : يَا عَدُوَّ اللَّهِ ، أَظَنَنْتَ أَنَّ اللَّهَ يَسْتُرُكَ وَأَنْتَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ ! فَقَالَ :
لَا تَعْجَلْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنْ كُنْتُ أَخْطَأْتُ فِي وَاحِدَةٍ فَقَدْ أَخْطَأْتُ فِي ثَلَاثٍ : قَالَ اللَّهُ
تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ ^(٤) وَقَدْ تَجَسَّسْتُ ، وَقَالَ : ﴿ وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾ ^(٥) .

(١) جَرَّ الْجَيْشِ : حَبَسَهُ فِي أَرْضِ الْعَدُوِّ وَلَمْ يَقْلَهُمْ مِنَ النَّفَرِ . وَفِي الْحَدِيثِ : لَا تَجْمَرُوا الْجَيْشَ
خَفْتَنُومَ .

(٢) نَضَلْتَهُ : سَبَقْتَهُ وَغَلَبْتَهُ .

(٣) سُورَةُ النِّسَاءِ ٢٠ .

(٤) سُورَةُ الْبَقَرَةِ ١٨٩ .

(٥) سُورَةُ الْحَجَرَاتِ ١٢ .

(٢ - ٣ - ١٢)

وقد تسوّرت ، وقال : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا ﴾ ^(١) وماسّلت . فقال : هل عندك من خير إن عفوتُ عنك ؟ قال : نعم ، والله لا أعود ، فقال : اذهب فقد عفوت عنك .

وخطب يوما ، فقال : أيّها النّاس ، ما الجزع ممّا لا بدّ منه ! وما الطّمع فيما لا يرجى ! وما الحيلة فيما سيزول ! ولما الشئ من أصله ، وقد مضت قبلكم الأصول ونحن فروعها ، فما بقاء الفرع بعد ذهاب أصله !

إنما النّاس في هذه الدّنيا أغراضٌ تنتهّل فيهم المنايا نُصّب المصائب ، في كلّ جرعة شرّق ، وفي كلّ أكلة غصص ، لا تنالون نعمة إلّا بفراق أخرى ، ولا يستقبل معمر من عمره يوما إلّا بهدم آخر من أجله ، وهم أعوان الحتوف على أنفسهم ، فأين المهرب ممّا هو كائن ! ما أصفر المصيبة اليوم ، مع عظم الفائدة غدا ! وما أعظم خيبة الخائب ، وخسران الخاسر ، ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلّا من أتى الله بقلب سليم ﴾ !

وأكثر النّاس روى هذا الكلام لعليّ عليه السلام ، وقد ذكره صاحب ” نهج البلاغة “ ، وشرحناه فيما سبق .

جُعل من العراق إلى عمر مالٍ نخرج هو ومولّى له ؛ فنظر إلى الإبل فاستكثرها ، فجعل يقول : الحمد لله ؛ يكرّرها ويردّها ، وجعل مولاه يقول : هذا من فضل الله ورحمته . ويكرّرها ويردّها .

فقال عمر : كذبت لا أمّ لك ! أظنك ذهبت إلى أنّ هذا هو ماعناه سبحانه ،

بقوله : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ ؛ وإنما ذلك الهدى ، أما تسمعه يقول : ﴿ هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ ^(١) ! وهذا مما يجمعون .

وروى الأحنف بن قيس ، قال : قدمنا على عمر بفتح عظيم نبشّره به ، فقال : أين نزلتم ؟ قلنا : في مكان كذا ، فقام معنا حتى انتهينا إلى منأخ ركابنا ، وقد أضعفها الكلال ، وجهدها السير ، فقال : هلا اتقيتم الله في ركابكم هذه ؟ أما علمتم أن لها عليكم حقا ! هلا أرحتموها ؟ هلا حلّتم بها فأكلت من نبات الأرض ! قلنا : يا أمير المؤمنين ، إننا قدّمنا بفتح عظيم ، فأحبينا التسرع إليك وإلى المسلمين بما يسرهم .

فانصرف راجعا ونحن معه ، فأتى رجل فقال : يا أمير المؤمنين إن فلانا ظلمني ، فأعدني ^(٢) عليه ، فرفع في السماء درّته ، وضرب بها رأسه ، وقال : تدعون عمرو وهو معروض لكم ، حتى إذا شغل في أمر المسلمين أتيتموه : أعدني أعدني ! فانصرف الرجل يتذمّر ، فقال عمر : على بالرجل ، فجاء به فألقى إليه المحفقة ^(٣) ، فقال : اقتصص ، قال : بل أدعه لله ولك ، قال : ليس كذلك ، بل تدعه إماما لله وإرادة ماعنده ، وإما تدعه لي ، قال : أدعه لله ، قال : انصرف . ثم جاء حتى دخل منزله ، ونحن معه ، فصلّى ركعتين خفيفتين ، ثم جلس فقال : يا ابن الخطاب ، كنت وضيعا فرفعك الله ، وكنت ضالّا فهداك الله ، وكنت ذليلا فأعزّك الله ، ثم حملك على رقاب الناس ، فجاء رجل يستعديك على من ظلمه . فضربته ، ماذا تقول لربك غدا ! فجعل يعاتب نفسه معاتبه ظننت أنه من خير أهل الأرض .

(١) سورة يونس ٥٨ .

(٢) أعدني عليه : انصرتني وأعنى .

(٣) المحفقة : الدرة يضرب بها .

وذكر أبو عبيد القاسم بن سلام في " غريب الحديث " ، أن رجلاً أتى عمر يسأله ، ويشكو إليه الفقر ، فقال : هلكتُ يا أمير المؤمنين ، فقال : أهلكتَ وأنت تَنْتِ كَيْثُ الحَيْتِ^(١) ! أعطوه . فأعطوه رُبْعَ^(٢) من مال الصدقة ، تَبِعَهَا ظَنَرَاهَا . ثم أنشأ يحدث عن نفسه ، فقال : لقد رأيتني وأختاً لي نزعى على أبويننا ناضحاً^(٣) لنا ، قد ألبستنا أمنا نُقَبَتَا^(٤) ، وزودتنا يَمَنَّتَيْهَا هَبِيداً^(٥) فنخرج بناضحنا ؛ فإذا طلعت الشمس ، ألقيت النقبة إلى أختي ، وخرجت أسعى عُريانَ ، فنرجع إلى أمنا ، وقد جعلت لنا لَفِيتَةً^(٦) من ذلك الهَبِيد ، فياخضباه !

وروى ابن عباس رضي الله عنه ، قال : دخلتُ على عُمر في أوّل خلافته ، وقد ألقى له صاعٌ من تمر على خَصَفَةٍ^(٧) ، فدعاني إلى الأكل ، فأكلت ثمرة واحدة ، وأقبل يأكل حتّى أتى عليه ، ثم شرب من جرٍّ^(٨) كان عنده ، واستلقى على مِرْفَقَةٍ له ، وطفق يحمّدُ الله يكرر ذلك ، ثم قال : من أين جئتَ يا عبد الله ؟ قلتُ : من المسجد ، قال : كيف خلّفت ابن عمك ؟ فظننته يعنى عبد الله بن جعفر ، قالت : خلّفته يلعب مع أترابه ، قال : لم أعنِ ذلك ، إنّما عنيتُ عظيمكم أهل البيت ، قلت : خلّفته يمتنع بالفَرَبِ^(٩) على نخیلات من فلان ، وهو يقرأ القرآن ، قال : يا عبد الله ، عليك دماء البدن إن كنتمننيها ! هل بقي في نفسه

-
- (١) قال ابن الأثير : فت الزق ينث : إذا رشح مائه من السن . أراد : أتهلك وجسدك كأنه يقطر دسماً والنثيث : أن يرشح ويعرق من كثرة لحمه . ويروى : « تمث » بالميم . والحيت : الزق والنجى .
(٢) الرُبْعَة : مؤنث الربع ، وهو الفصل ينتج في الربيع .
(٣) الناضح : البعير يستقى عليه ؛ ثم استعمل في كل بعير وإن لم يحمل الماء .
(٤) النقبة : ثوب كالإزاء ، يجعل له حجرة مخططة . (٥) الهيد : حب الحنظل .
(٦) اللَفِيتَة : العصيدة المغلظة ؛ لأنها تلفت ، أى تلوى .
(٧) الخَصَفَة ، محرّكة : الجلاة تعمل من الخوص للتمر .
(٨) الجر بفتح الجيم وتشديد الراء : آنية من خزف ، الواحدة جرة .
(٩) الفرب : الدلو .

شيء من أمر الخلافة ؟ قالت : نعم ، قال : أيزعم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله نصّ عليه ؟ قلت : نعم ، وأزيدك ، سألت أبي عمّاً يدّعيه ، فقال : صدّق ، فقال عمر : لقد كان من رسول الله صلى الله عليه وآله في أمره ذرؤ^(١) من قول لا يُثبت حُجّة ، ولا يقطع عذراً ، ولقد كان يربّع في أمره وقتاً ما ، ولقد أراد في مرضه أن يصرّح باسمه فنعت من ذلك إشفافاً وحيلة على الإسلام ، لا وربّ هذه البنية لا تجتمع عليه قریش أبداً ! ولو وليها لا تنقضت عليه العرب من أقطارها ، فلم رسول الله صلى الله عليه وآله أتى علمت ما في نفسه ، فأمسك ، وأبى الله إلّا إمضاء ما حتم .

ذكر هذا الخبر أحمد بن أبي طاهر صاحب كتاب تاريخ بغداد في كتابه ، مسنداً .

ابن أبي سفيان داراً بمكة فأتى أهلها عمر ، فقالوا : إنه قد ضيق علينا الوادي ، وأسأل علينا الماء ، فأتاه عمر فقال : خذ هذا الحجر فضعه هناك ، وارفع هذا واخفص هذا ، ففعل ، فقال : الحمد لله الذي أذلّ أبا سفيان بأبطح مكة .

وقال عمر : والله لقد لان قلبي في الله حتى لهُوَ ألين من الزبد ، ولقد اشتدّ قلبي في الله حتى لهُوَ أشدّ من الحجر .

كان عمر إذا أتاه الخصمان برك على ركبتيه وقال : اللهم أعني عليهما . فإنّ كلا منهما يريدني عن ديني .

(١) ذرؤ : طرف .

وخطب عمر ، فقال : أيها الناس ، إنما كنا نعرفكم والنبي صلى الله عليه وآله بين أظهرنا ، إذ ينزل الوحي ، وإذا ينبئنا الله من أخباركم ، ألا وإن النبي صلى الله عليه وسلم قد انطلق ، والوحي قد انقطع ، وإنما نعرفكم بما يبدو منكم . من أظهر خيرا ظننا به خيرا ، وأحبيناه عليه ، ومن أظهر شرا ظننا به شرا ، وأبغضناه عليه . سرائركم بينكم وبين ربكم . ألا إنه قد أتى على حين ، وأنا أحسب أنه لا يقرأ القرآن أحداً إلا يريد به وجه الله وما عند الله ، وقد خيل إلى بأخرة ، أن رجلاً قد قرأه يريدون به ما عند الناس ، فأريدوا الله بقراءتكم ، وأريدوا الله بأعمالكم .

ألا وإني لا أرسلُ عُمالي إليكم أيها الناس ليضربوا أبشاركم ، ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكن أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم ، فمن فعل به سوى ذلك فليرفعه إلى لا تقتص له ، فقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله يقتص من نفسه .
ألا لاتضربوا المسلمين فتذلّوهم ، ولا تمنعوا حقوقهم فتفقروهم ، ولا تنزلوهم الفياض فتضيّعوهم .

وقال مرة : قد أعياني أهل الكوفة ، إن استعملت عليهم ليّناً استضعفوه ، وإن استعملت عليهم شديداً شكّوه ! ولوددت أني وجدت رجلاً قويا أمينا أستعمله عليهم . فقال له رجل : أنا أدلك يا أمير المؤمنين على الرجل القوي الأمين ، قال : من هو ؟ قال : عبد الله بن عمر ، قال : قاتلك الله ! والله ما أردت الله بها ، لاها الله ! لا أستعمله عليها ولا على غيرها ، وأنت فقم فاخرج ، فذ الآن لا أسميك إلا المنافق . فقام الرجل وخرج . وكتب إلى سعد بن أبي وقاص أن شاور طليحة بن خويلد وعمر بن معد يكرب فإن كل صانع أعلم بصنعتة ، ولا تولهما من أمر المسلمين شيئاً .

وغضب عمر على بعض عمّاله ، فكلم امرأة من نساء عمر في أن تسترضيه له ، فكلمته فيه ، فغضب ، وقال : وفيّ أنت من هذا ياعدوة الله ؟ إنما أنت لعبة نلعب بك وتفرّكين^(١) .

ومن كلامه : أشكو إلى الله جلد الخائن ، وعجز الثقة .
قال عمرو بن ميمون : لقد رأيت عمر بن الخطاب قبل أن يُصاب بأيّام واقفا على خديفة بن اليان ، وعثمان بن حنيف ، وهو يقول لهما : أتحافان أن تكونا حتلما الأرض مالا تطيقه ؟ فقالا : لا ؛ إنما حتلناها أسراً هي له مطيقة ، فأعاد عليهما القول : انظرا أن تكونا حتلما الأرض مالا تطيقه ! فقالا : لا ، فقال عمر : إن عشت لأدعن أرامل العراق لا يحتجن بعدى إلى رجل أبدا ، فما أتت عليه رابعة حتى أصيب .

كان عمر إذا استعمل عاملا كتب عليه كتابا ، وأشهد عليه رهطاً من المسلمين ألا يركب برذوناً ، ولا يأكل نقياً^(٢) ، ولا يابس رقيقا ، ولا يفلق بابه دون حاجات للمسلمين ، ثم يقول : اللهم اشهد .

واستعمل عمر النعمان بن عدى بن نضلة على ميسان ، فبلغه عنه الشعر الذي قاله ، وهو :

وَمَنْ مَبْلَغُ الْحَسَاءِ أَنْ حَلِيَّاهَا بِمَيْسَانَ يُسْقَى مِنْ زُجَاجٍ وَحَنَمٍ !^(٣)
إِذَا شَأْتُ غَنَّتْنِي دَهَاقِينَ قَرْيَةٍ وَصَنَاجَةٌ تَحْدُو عَلَى كُلِّ مَنْسَمٍ

(٢) النقي : الشحم .

(١) تفركين : تبغضين .

(٣) الحنم : الجرة المضراء .

فإن كنتَ نَدَمَانِي، فبالأَكْبَرِ أَسْقِنِي وَلَا تَسْقِنِي بِالْأَصْغَرِ الْمُنْتَلَمِ
 لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَسُوءُهُ تَنَادُّمُنَا بِالْجَوْسِقِ الْمَتَهَدِّمِ
 فَكُتِبَ إِلَيْهِ : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿حَمْدُ تَنْزِيلِ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ *
 خَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ * ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ﴾^(١)
 أما بعد ، فقد بلغني قولك :

* لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَسُوءُهُ * البيت
 وإيْمُ اللَّهِ إِنَّهُ لَيَسُوءُنِي ، فَأَقْدَمَ فَقَدْ عَزَلْتُكَ .
 فلما قدم عليه ، قال : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَاللَّهِ مَا شَرُّهَا قَطَّ ، وَإِنَّمَا هُوَ شَعْرٌ طَفَحَ عَلَى
 لِسَانِي وَإِنِّي لَشَاعِرٌ .

فقال عمر : أَظُنُّ ذَاكَ ، وَلَكِنْ لَا تَعْمَلُ لِي عَلَى عَمَلِ أَبَدَا .

استعمل عمر رجلاً من قُرَيْشٍ عَلَى عَمَلٍ ، فَبَلَغَهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ :
 اسْقِنِي شَرْبَةً تَرْوِي عِظَامِي وَأَسِقِ بِاللَّهِ مِثْلَهَا ابْنُ هِشَامٍ
 فَأَشْخَصَهُ إِلَيْهِ ، وَفَطِنَ الْقُرَشِيُّ ، فَضَمَّ إِلَيْهِ بَيْتَا آخَرَ ، فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، قَالَ لَهُ
 أَنْتَ الْقَائِلُ :

* اسْقِنِي شَرْبَةً تَرْوِي عِظَامِي *

قال : نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَهَلَّا أَبْلَغْتُكَ الْوَاشِي مَا بَعْدَهُ ؟ قَالَ : مَا الَّذِي بَعْدَهُ ؟ قَالَ :
 عَسَلًا بَارِدًا بِمَاءِ غَمَامٍ إِنِّي لَا أَحِبُّ شُرْبَ الْمُدَامِ
 قال : اللَّهُ اللَّهُ ! ثُمَّ قَالَ : ارْجِعْ إِلَى عَمَلِكَ .

قال عمر : أيما عامل من عمّالي ظلم أحدا ؛ ثم بلغتني مظلمته ، فلم أغيرها ، فأنا الذي ظلمته .

وقال للأحنف بن قيس ، وقد قدم عليه فاحتبسه عنده حولا : يا أحنف ، إني قد خبرتك وبلوتك ، فرأيت علانيتك حسنة ، وأنا أرجو أن تكون سيرتك مثل علانيتك ، وإن كنا لنحدث أنه إنما يهلك هذه الأمة كل منافق عليم .

وكتب عمر إلى سعد بن أبي وقاص : إن « مترس »^(١) بالفارسية هو الأمان ، فمن قلم له ذلك ممن لا يفقه لسانكم فقد آمنتموه .

وقال لأمير من أمراء الشام : كيف سيرتك ؟ كيف تصنع في القرآن والأحكام ؟ فأخبره ، فقال : أحسنت ، اذهب ، فقد أقررتك على عمّلك . فلما ولى رجع فقال : يا أمير المؤمنين ، إني رأيت البارحة رؤيا أقصها عليك ، رأيت الشمس والقمر يقتتلان ، ومع كل واحد منهما جنود من الكواكب ، فقال : فمع أيهما كنت ؟ قال : مع القمر ، فقال : قد عزلتك ، قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَجَّوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ۖ ﴾^(٢)

كان عمر جالسا في المسجد ، فرّ به رجل ، فقال : ويل لك يا عمر من النار ! فقال : قرّبوه إليّ ، فدنا منه ، فقال : لم قلت لي ما قلت ؟ قال : تستعمل عمالك ، وتشتري عليهم

(١) في الألفاظ الفارسية لأدى شهر ١٤٣ : « المتراس : ما يتستر به من حائط ونحوه من العدو ، وخشبة توضع خلف الباب » .
(٢) سورة الإسراء ١٢ .

ثم لا تنظر هل وفّوا لك بشروط أم لا ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : عاملك على مصر اشترطت عليه ، فترك مأمّره به ، وارتكب مانهيتته عنه ، ثم شرح له كثيرا من أمره . فأرسل عمر رجلين من الأنصار ، فقال لهما : اتھيا إليّ ، فأسألا عنه ، فإن كان كذب عليه فأعلماني ، وإن رأيتما ميسوء كما فلا تملّكاه من أمره شيئا حتى تأتيا به ، فذهبا فأسألا عنه ، فوجداه قد صدق عليه ، فجاء إلى بابه ، فاستأذنا عليه ، فقال حاجبه : إنه ليس عليه اليوم إذن ، قالا : ليخرجنّ إلينا أو لنحرقنّ عليه بابه . وجاء أحدهما بشعلة من نار ، فدخل الآذن ، فأخبره فخرج إليهما ، قالا : إنّنا رسولا عمر إليك لتأتيه ، قال : إنّ لنا حاجة ؟ تمهلانني لأتزوّد ، قالا : إنّّه عزّم علينا ألا نملكك ، فاحتملاه ، فأتيا به عمر ، فلما آناه سلّم عليه فلم يعرفه ، وقال : من أنت ؟ - وكان رجلا أسمر ، فلما أصاب من ريف مصر ابيضّ وسمن - فقال : أنا عاملك على مصر ، أنا فلان ، قال : ويحك ! ركب مانهيتته عنه ، وترك ما أمرت به ! والله لأعاقبك عقوبة أبلغ إليك فيها ، آتوني بكساء من صوف ، وعصاة وثلاثمائة شاة من غنم الصدقة ، فقال : البسن هذه الدراعة ^(١) ، فقد رأيت أباك وهذه خير من دراعته ، وخذ هذه العصا فهي خير من عصا أبيك ، واذهب بهذه الشياه فارعها في مكان كذا - وذلك في يوم صائف - ولا تمنع السالبة من ألبانها شيئا إلا آل عمر ، فإنّي لا أعلم أحدا من آل عمر أصاب من ألبان غنم الصدقة ولحومها شيئا .

فلما ذهب ردّه ، وقال : أفهمت ما قلت ! فضرب بنفسه الأرض ، وقال يا أمير المؤمنين ، لا أستطيع هذا ، فإن شئت فاضرب عنقي ، قال : فإن رددتُك فأى رجل تكون ؟ قال : والله لا يبلغك بعدها إلا ما تحبّ . فردّه ، فكان نعم الرجل . وقال عمر : والله

(١) الدراعة ، كرمانة : جبة مشقوقة المقدم ، ولا تكون إلا من صوف .

لَا أَنْزَعَنَّ فُلَانًا مِنَ الْقَضَاءِ حَتَّى أَسْتَعْمَلَ عِوَضَهُ رَجُلًا إِذَا رَأَاهُ الْفَاجِرُ فَرَّقَ .

وروى عبد الله بن بريدة ، قال : بينا عمر بعس ذات ليلة انتهى إلى باب متجافٍ ،
وامرأة تغني نسوة :

هَلْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى تَخْرِ فَأُشْرِبَهَا أَمْ هَلْ سَبِيلٌ إِلَى نَصْرِ بْنِ حَجَّاجٍ
فقال عمر : أَمَا ماعشت فلا .

فلما أصبح دعا نصر بن حجاج - وهو نصر بن الحجاج بن غلابط البهزي السلمي -
فأبصره وهو من أحسن الناس وجهاً ، وأصحبهم وأملحهم حسناً ، فأمر أن يُطَمَّ^(١) شعره ،
فخرجت جبهته فازداد حسناً ، فقال له عمر : اذهب فاعتم ، فاعتم فبدت وفرة^(٢) ، فأمر بحلتهما
فازداد حسناً ، فقال له : فتنت نساء المدينة يا بن حجاج ! لا تتجاوزني في بلدة أنا مقيم بها ،
ثم سيّره إلى البصرة .

فروى الأصمعي ، قال : أبرد عمر بريداً إلى عتبة بن أبي سفيان بالبصرة ، فأقام بها
أياماً ، ثم نادى منادى عتبة : مَنْ أَرَادَ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى أَهْلِهِ بِالْمَدِينَةِ أَوْ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
شَيْئاً ، فَلْيَكْتُبْ ، فَإِنَّ بَرِيدَ الْمُسْلِمِينَ خَارِجٌ .

فكتب الناس ، ودم نصر بن حجاج كتاباً فيه :

لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصر بن حجاج ، سلام عليك ، أما بعد ،

يا أمير المؤمنين :

لَعَمْرِي لئن سيّرتني أو حرمتني لَمَا نَلْتَ مِنْ عِرْضِي عَلَيْكَ حَرَامُ
أَلَيْسَ غَنَّتِ الذَّلْفَاءُ يَوْمًا بِمُنْيَةٍ وَبَعْضُ أَمَانِي النِّسَاءِ غَرَامُ

(١) طم شعره : عقصه .

(٢) الوفرة : ما سأل على الأدين من الشعر .

ظننتَ بى الظَّنَّ الذى ليس بعده بقا فمالى فى النَّدىِّ كلامُ
وأصبحتُ مُنفياً على غير ربيبةٍ وقد كان لى بالمكتَّينِ مقامُ^(١)
سيمعنى ممَّا تظنُّ تكررُهمى وآباءُ صدقٍ سالفونَ كرامُ
ويمنعها ممَّا تمتَّ صَلَاتُهَا وحالُ لها فى دينها وصيامُ
فها تانَ حالاً نأفهل أنت راجعُ فقد جُبَّ مِنى كاهِلُ وسَنامُ^(٢)
فقال عمر : أمّا ولى ولاية فلا . وأقطعه أرضاً بالبصرة وداراً .

فلما قتلَ عمر ركب راحلته ولحق بالمدينة .
وذكر المبرد محمد بن يزيد الثُمَالِيّ، قال : كان^(٣) عمر أصلع ، فلما حلق وفرة نصر
ابن حجاج^(٤) ، قال نصر ، وكان شاعراً :
تَصَيَّنَ ابْنُ خَطَّابٍ عَلَى بُحْمَةٍ إِذَا رُجِّلَتْ تَهْتَزُّ هَزَّ السَّلَاسِلِ
فَصَلَّعَ رَأْسًا لَمْ يَصْلَعْهُ رُبُّهُ يَرَفُّ رَفِيفًا بَعْدَ أَسْوَدٍ جَائِلِ^(٥)
لَقَدْ حَسَدَ الْفُرْعَانُ أَصْلَعُ لَمْ يَكُنْ إِذَا مَا مَشَى بِالْفُرْعِ بِالتَّخَايِلِ^(٦)
محمد بن سعيد ، قال : بينا يطوف عمر فى بعض سِكَكِ المدينة ، إذ سمع امرأه تهتف
من خِدرها :

هَلْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى خَيْرٍ فَأَشْرَبَهَا أَمْ هَلْ سَبِيلٌ إِلَى نَصْرِ بْنِ حَبَّاجٍ

-
- (١) أى مكة والمدينة ؛ مثنى على التثنية .
(٢) جب : قطع .
(٣) الكامل ٢ : ١٧٦ .
(٤) فى الكامل ٢ : ١٧٦ ، وفيه : « وكان نصر بن حجاج السلمي ثم الهزرى جبلاً ؛ فعثر عليه
عمر بن الخطاب رحمه الله فى أمر - الله أعلم به - فحلق رأسه ، وكانت عمر أصلع لم يبق من شعره
إلا خفاف ؛ كذلك قال الأصمى ؛ فقال نصر بن حجاج « ، وأورد الأبيات .
(٥) الجائل : الشعر الكثير المتلف .
(٦) الفرعان : جمع أفرع ؛ وهو الوان الشعر . قال المبرد : قوله : « بالفرع بالتخايل » ليس أنه
جعل « بالفرع » من صلة التخايل ؛ فيكون قد تدمم الصلاة على الموصول ؛ ولكنه جعل قوله : « بالفرع »
تبييناً ، فصار بمنزلة « بك » التى تقع بعد « مرحباً » للتبيين .

إلى فتى ماجد الأعراق مقتبل
سهل الحميا كرم غير ميلجاج^(١)
تنميه أعراقى صدق حين تنسبه
أخى قدايح عن المكروب فرّاج
سامي النواظر من بهز له قدم
تضى صورته فى الحالك الداجي

فقال عمر : ألا لا أدرى معى رجلا يهتف به العواتق فى خدورهن ! على بنصر
ابن حجاج ، فألقى به ، فإذا هو أحسنُ الناسُ وجها وعينا وشعرا ، فأمر بشعره فحزّ ،
فخرجت له وجنتان كأنه قمر ، فأمره أن يعمّ فاعتمّ ، ففتن النساء بمينيه ، فقال عمر : لا والله
لا تساكنتى بأرض أنا بها ، قال : ولم يا أمير المؤمنين ؟ قال : هو ما أقول لك ، فسيّره
إلى البصرة .

وخافت المرأة^(٢) التى سمع عمر منها ماسم أن يبدر إليها منه شيء ، فدست إليه أبياتا :
قل للأمير الذى تُحشى بواده
مالى وللخمر أو نصر بن حجاج
إنى بُليتُ أبا حفص بغيرها
شرب الحليب وطرف فاطر ساج
لا تجعل الظن حقا أو تبينه
إن السبيل سبيل الخائف الراجي
مامنية قتلها عرضا بضائرة
والناس من هالك قديما ومن ناج
إن الهوى رعية التقوى تقيده
حتى أقر بالجسام وإسراج
فبكى عمر ، وقال : الحمد لله الذى قيّد الهوى بالتقوى .

وأنته يوما أم نصر حين اشتدت عليها غيبة ابنها ، فتعرضت لعمر بين الأذان والإقامة ،
فقعدت له على الطريق ، فلما خرج يريد الصلاة هتفت به ، وقالت : يا أمير المؤمنين
لأجائيتك^(٣) غدا بين يدي الله عز وجل ، ولأخاصمتك إليه ، بييتُ عاصم وعبدالله إلى

(١) الملجاج : من الملاجة ، وهى التماذى فى الخصومة .

(٢) ذكروا أن المرأة المتمنية هى الفارعة بنت همام بن عمرو بن مسعود الثقفى .

(٣) الجئو : الجلوس على الركبتين للخصومة .

جانبك وبينى وبين ابني الفياقي والتفار ، والمفاوز والجبال ! قال : مَنْ هذه ؟ قيل : أم نصر بن حجاج ، فقال : يأم نصر ، إن عاصما وعبد الله لم تهتف بهما العواتق من وراء الخلدور .

ويروى أن نصر بن الحجاج لما سيّره عمر إلى البصرة نزل بها على مجاشع بن مسعود الشلّبيّ، وكان خليفة أبي موسى عليها، وكانت له امرأة شابة جميلة فهويت نصرًا، وهويتها فيينا الشيخ جالس ونصر عنده إذ كتب في الأرض شيئًا ، فقرأتها المرأة ، فقالت : « أنا والله » ، فقال مجاشع : ما قال لك ؟ قالت : إنه قال : ما أصفني لتحتكم هذه ؟ فقال مجاشع : إن الكلمة التي قلتِ ليست أختًا لهذا الكلام ، عزمت عليك لَمّا أخبرتني ! قالت : إنه قال : ما أحسن سوار ابتكم هذه ؟ قال : ولا هذه ، فإنه كتب في الأرض ، فرأى الخط فدعا بإناء فوضعه عليه ، ثم أحضر غلامًا من غلمانه ، فقال : اقرأ ، فقرأه وإذا هو : أنا والله أحبك ، فقال : هذه لهذه ، اعتدّي أيتها المرأة ، وتزوجها يا بن أخي إن أردت .

ثم غدا على أبي موسى ، فأخبره ، فقال أبو موسى : أقسم ما أخرجك عمر عن المدينة من خير ، ثم طرده إلى فارس وعليها عثمان بن أبي العاص الثقفيّ ، فنزل على دهقانة ، فأعجبها فأرسلت إليه ، فبلغ خبرها عثمان ، فبعث إليه أن أخرج عن أرض فارس ، فإنك لم تخرج عن المدينة والبصرة من خير ، فقال : والله لئن أخرجتموني لألحقنّ ببلاد الشرك ، فكتب بذلك إلى عمر ، فكتب أن جزؤا شعره وشمروا قيصه ، وألزموه الساجد .

وروى عبد الله بن بُريدة أن عمر خرج ليلا يصُ، فإذا نسوة يتحدثن ، وإذا هنّ .

يقطن : أى فتيان المدينة أصبح ؟ فقالت امرأة منهن : أبو ذؤيب والله . فلما أصبح عمر سأل عنه ، فإذا هو من بنى سليم ، وإذا هو ابن عم نصر بن حجاج ، فأرسل إليه ، فحضر ، فإذا هو أجهلُ الناس وأملحُهم ، فلما نظر إليه قال : أنت والله ذئبها ! ينكرها ويردها ، لا والذي نفسى بيده لا تتجافى بأرض أبدا .

فقال : يا أمير المؤمنين إن كنت لابد مسيرى فسيرى حيث سيرت ابن عمى نصر ابن حجاج ، فأمر بتسييره إلى البصرة ، فأشخص إليها .

خطب عمر في الليلة التى دُفن فيها أبو بكر ، فقال : إن الله تعالى نهج سبيله ، وكفانا برسوله ، فلم يبقَ إلا الدعاء والاعتداء . الحمد لله الذى ابتلانى بكم وابتلاكُم بى ، وأبقانى فيكم بعد صاحبى ، وأعوذ بالله أن أزلّ أو أضلّ ، فأعدى له ولياً ، أو أوالى له عدواً . ألا إني وصاحبى كنفرٍ ثلاثة قفلوا من طيبة ، فأخذ أحدهم مهلة إلى داره وقراره فسلك أرضاً مضئنة متشابهة الأعلام ، فلم يزلّ عن الطريق ، ولم يحرم السبيل ، حتى أسلمه إلى أهله ، ثم تلاه الآخر فسلك سبيله ، واتبع أثره ، فأفضى إليه ولقى صاحبه ، ثم تلاها الثالث ، فإن سلك سبيلهما واتبع أثرهما أفضى إليهما ولاقاهما ، وإن زلّ يميناً أو شمالاً لم يجامعهما أبدا .

ألا وإن العرب بجل أنف^(١) قد أعطيت خطامه ، ألا وإنى حامله على الحجّة ومستعين بالله عليه .

إلا وإنى دايع فأمّنوا ، اللهم إني شحيح فسخنى . اللهم إني غليظ فليّننى . اللهم إني ضعيف قوّنى . اللهم أوجب لى بمواليتك وموالاة أوليائك ولايتك ومعاونتك ، وأبرئنى

(١) البعير الأتف : الذلول الذى يألف من الزجر والضرب ويعطى ما عنده من السير عفواً سهلاً .

من الآفات بمعادة أعدائك ، وتوفني مع الأبرار ، ولا تحشرنى فى زمرة الأشقياء . اللهم لا تكثر لى من الدنيا فأطغى ، ولا تقلل لى فأشقى ، فإن ما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى .

وفد على عمر قوم من أهل العراق ، منهم جرير بن عبد الله ، فأتاهم بمجفنة قد صُبغت بخلّ وزيت ، وقال : خذوا ، فأخذوا أخذاً ضعيفاً ، فقال : ما بالكم تقرمون ^(١) قرّم الشاة الكسيرة ! أظنكم تريدون حُلواً وحامضاً ، وحارّاً وبارداً ، ثم قذفاً فى البطون ، لو شئتُ أن أدهق ^(٢) لكم لفعلت ، ولكننا نستبق من دُنْيَانَا ما نجدُه فى آخرتنا ، ولو شئنا أن نأمر بصغار الضأن فتسقط ^(٣) ، ولَبَّاتِ الخبز فيخبز ، ونأمر بالزبيب فينبذ لنا ^(٤) فى الأسعان ^(٥) حتى إذا صار مثل عين اليعقوب ^(٦) ، أكلنا هذا وشرَبنا هذا لفعلت ! والله إني ما أعجز عن كراكر ^(٧) وأسنة . وصلاتى ^(٨) وصناب ^(٩) ، لكن الله تعالى قال لقوم عيّرهم أمراً فعولهُ ^(١٠) أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ^(١١) . وإني نظرتُ فى هذا الأمر ،

(١) القوم : الأكل .

(٢) فى اللسان : « دهمق الطحين : دققه و لينه ، وفى حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لو شئت أن يدهمق لى لفعلت ؛ ولكن الله تعالى عاب قوماً فقال : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ﴾ ، معناه : لو شئت أن يلين لى الطعام ويجود .

(٣) يقال : سمط الجدى والحمل يسطه - أى تنف عنه الصوف وتظفه من الشعر .

(٤) النبذ فى الأصل : طرحك الشيء من يدك أمامك أو وراءك ، قالوا : وإنما سمي النبذ نبذاً ، لأن الذى يتخذُه يأخذ تمرّاً أو زبيباً فينبذه ، أى يطرحه فى وعاء أو سقاء عليه الماء ويتركه حتى يفور .

(٥) الأسعان : جمع سعن ، وهو قربة أو لاداة يقطع أسفلها ويشد عنقها وتعلق لى خشبة أو جذع نخلة ثم يلبذ فيها ، ثم يرد ، وهو شبيه بدلو السقاين . قال فى اللسان : ومنه حديث عمر : أمرت بصاع من زبيب فجعل فى سعن .

(٦) اليعقوب : ذكر الحجل .

(٧) الكركرة : الصدر من ذى الخنف .

(٨) الصلاتى : ما عمل بالنار طبخاً وشياً .

(٩) الصناب : صباغ يتخذ من الحردل والزبيب .

(١٠) سورة الأحقاف ٢٠ .

فجعلت إن أردت الدنيا أضرت بالآخرة ، وإن أردت الآخرة أضرت بالدنيا ، وإذا كان الأمر هكذا ؛ فأضرّوا بالفانية .

خرج عمرُ يوماً إلى المسجد ، وعليه قميص في ظهره أربع رقاع ، فقرأ حتى انتهى إلى قوله : ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ ^(١) ، فقال : ما الأبُّ ؟ ثم قال : إن هذا لهو التكلف ! وما عليك يا بن الخطاب ألا تدري ما الأبُّ !

وجاء قوم من الصحابة إلى حفصة فقالوا : لو كلمت أباك في أن يلين من عيشه ، لعله أقوى له على النظر في أمور المسلمين ! فجاءته فقالت : إن ناساً من قومك كلموني في أن أكلمك في أن تلين من عيشك . فقال : يا بنيّة ، غششت أباك ، ونصحت لقومك .

وروى سالم بن عبد الله بن عمر ، قال : لما وُلّي عمر قعد على رِزْقِ أبي بكر الذي كان فرضه لنفسه ، فاشتدّت حاجته ؛ فاجتمع نفرٌ من المهاجرين ؛ منهم علي وعثمان وطاحه والزبير ، وقالوا : لوقلنا ^(٢) لعمر يزيد في رزقه ! فقال عثمان : إنّه عمر ، فهلّموا فأنستين ^(٣) ما عنده من وراء وراء ؛ نأتى حفصة فنكلمها ونستكتمها أسماءنا . فدخلوا عليها ، وسألوها أن تكلمه ولا تخبره بأسماء من أتاها إلا أن يقبل . فلقيت عمر في ذلك ، فرأت الغضب في وجهه ، وقال : من أتاك ؟ قالت : لاسبيل إلى ذلك ، فقال : لو علمت من هم لسؤت أوجههم ، أنت بيني وبينهم ! نشدتك الله ما أفضل ما اقتنى رسول الله صلى الله عليه وآله في بيتك من الملبس ؟ قالت : ثوبان ممشقان ^(٤) ، كان يلبسهما للوفد ، ويخطب

(١) سورة عبس ٣١ . وفي الكشف ٤ : ٦٣ هـ « الأب : المرعى ، لأنه يؤب ، أى يؤم وينتجع . وروى عن أبي بكر أنه سئل عن الأب ، فقال : أى سماء تظاني ، وأى أرض تغلني لنا قات في كتاب الله ما لا علم لي به ! »
(٢) ١ : « كلنا عمر »
(٣) ب : « فلنستري »
(٤) ثوب ممشق : مصبوغ .

فيهما في الجمع ، قال : فأَيُّ طعامٍ ناله عندك أرفع ؟ قالت : خَبَزْنَا مرة خَبْزَةَ شعير ، فصَبِيت عليها - وهي حارّة أسفلها - عُكَّةٌ ^(١) لنا كان فيها سَمْنٌ وعسل ، فجعلتها هَشَّةً حُلُوةً دَسِمةً ، فأكل منها فاستطابها ، قال : فأَيُّ مبسط كان يبسط عندك أوطأ ؟ قالت : كساء ثخين كنّا نرقعه في الصَّيْفِ فنَجعله ثخينًا ، فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه ، وتدَثَّرْنَا بنصفه ، قال : فأبلغنيهم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قدّر فوضع الفضول مواضعها ، وتبلغ ما أبرّ ؛ وإني قدرت فوالله لأضعنّ الفضول مواضعها ، ولأتبلغن ما أبرّ حَبَّةً .

وفد على عمر وَفَدَ فيرجال الناس من الآفاق ، فوضع لهم بسطامن عَباء ، وقدم إليهم طعاما غليظا ، فقالت له ابنته حفصة أمّ المؤمنين : إنهم وجوه الناس وكرام العرب ، فأحسن كرامتهم . فقال : يا حفصة ، أخبريني بألّين فراش فرشته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأطيب طعام أكله عندك ؟ قالت : أصبنا كساء ملبّداً عام خَيْرٍ ، فكنت أفرشه فينام عليه ، وإني رفعت له ليلة ، فلما أصبح قال : ما كان فراشي الليلة ؟ قلت : فراشك كلّ ليلة ؛ إلّا أنّي الليلة رفعت له ليكون أوطأ ، فقال : أعيد لي حالته الأولى ، فإن وطأته منعني الليلة من الصلاة .

وكان لنا صاع من دقيق سُلتٍ ^(٢) ، فنخلته يوما وطبخته له ، وكان لنا قعب من سمن فصبيته عليه ، فبينما هو عليه السلام يأكل إذ دخل أبو الدرداء ، فقال : أرى سَمْنَكُمْ قليلا ، وإنّ لنا لقعباً من سمن ، قال عليه السلام : فأرسل فات به ، فجاء به فصَبّه عليه فأكل ، فهذا أطيب طعام أكله عندي رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأرسل عمر عنيّه بالبكاء ، وقال لها : والله لأزِيدُهم على ذلك العباء وذلك الطعام

(١) العكة : للسمن ، كالشكوة اللبن ، وقيل : العكة أصفر من القربة للسمن ، وهي زقيق صغير .

(٢) السلت ، بالضم : ضرب من الشعير ، أو هو الشعير بعينه .

شيثا وهذا فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا طعامه .

لما قدم عُثْبَةُ بن مرثد أذَرَ بَيْجَانُ أُنَى بِالْحَبِيبِ^(١) ، فَلَمَّا أَكَلَهُ وَجَدَ شَيْثًا حُلُوا طَيِّبًا ،
فَقَالَ : لَوْ صَنَعْتُ مِنْ هَذَا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ! فَجَعَلَ لَهُ خَبِيبًا فِي مَنْقَلِينَ عَظِيمِينَ ، وَحَمَلَهَا عَلَى
بَعِيرَيْنِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَقَالَ عُمَرُ : مَا هَذَا ؟ قَالُوا الْحَبِيبُ^(٢) ، فَذَاقَهُ فَوَجَدَهُ حُلُوا ، فَقَالَ :
لِلرَّسُولِ : وَيْحَكَ ! أَكَلْتَ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَكُمْ يَشْبَعُ مِنْ هَذَا ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ : فَارْدِدْهَا . ثُمَّ
كَتَبَ إِلَى عُثْبَةَ : أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنْ خَبِيبُكَ الَّذِي بَعَثْتَهُ لَيْسَ مِنْ كَدِّ أَيْبِكَ وَلَا مِنْ كَدِّ
أَمِّكَ ، أَشْبَعَ الْمُسْلِمِينَ مِمَّا تَشْبَعُ مِنْهُ فِي رَحْلِكَ وَلَا تَسْتَأْثِرُ ؛ فَإِنَّ الْأَثَرَةَ شَرٌّ وَالسَّلَامَ .

وَرَوَى عُثْبَةُ بن مرثد أَيْضًا ، قَالَ : قَدِمْتُ عَلَى عُمَرَ بِحُلُوءٍ مِنْ بِلَادِ فَارَسَ ، فِي
سِلَاحٍ عِظَامَ ، فَقَالَ : مَا هَذِهِ ؟ قُلْتُ : طَعَامُ طَيِّبٍ ، أَتَيْتُكَ بِهِ ، قَالَ : وَيْحَكَ ! وَلَمْ
خَصَصْتَنِي بِهِ ؟ قُلْتُ : أَنْتَ رَجُلٌ تَقْضِي حَاجَاتِ النَّاسِ أَوَّلَ النَّهَارِ ، فَأَحْبَبْتُ إِذَا رَجَعْتُ
إِلَى مَنْزِلِكَ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى طَعَامِ طَيِّبٍ ، فَتَصِيبَ مِنْهُ فَتَقْوَى عَلَى الْقِيَامِ بِأَمْرِكَ . فَكَشَفَ
عَنْ سَلَةِ مِنْهَا فَذَاقَ فَاسْتَطَابَ ، فَقَالَ : عَزَمْتُ عَلَيْكَ يَا عُثْبَةُ إِذَا رَجَعْتَ إِلَّا رَزَقْتَ كُلَّ
رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلَهُ ! قُلْتُ : وَالَّذِي يَصْلُحُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَوْ أَنْفَقْتُ عَلَيْهِ أَمْوَالَ قَيْسَ
كُلِّهَا لَمَا وَسَّعَ ذَلِكَ ، قَالَ : فَلَا حَاجَةَ لِي فِيهِ إِذَا . ثُمَّ دَعَا بِقَصْعَةٍ مِنْ ثَرِيدٍ ، وَلَحْمٍ غَلِيظٍ ،
وَحَبْزِ خَسْنٍ ، فَقَالَ : كُلْ ، ثُمَّ جَعَلَ يَأْكُلُ أَكْلًا شَهِيًّا ، وَجَعَلَتْ أَهْوَى إِلَى الْبَضْعَةِ
الْبَيْضَاءِ أَحْسَبَهَا سَنَامًا ، وَإِذَا هِيَ عَصَبَةٌ ، وَأَهْوَى إِلَى الْبَضْعَةِ مِنَ اللَّحْمِ أَمْضُغَهَا ،

(٢) ١ : « هَذَا الْحَبِيبُ » .

(١) الْحَبِيبُ : ضَرْبٌ مِنَ الْحُلُوءِ .

فلا أسيئها ، وإذا هي من علباء العنق^(١) ، فإذا غفل عني جعلتها بين الخوان والقصة ، فدعا بعسي^(٢) من نبيذ كاد يكون خلاً ، فقال : اشرب ، فلم أستطع ولم أسيئه أن اشرب ، فشرب ، ثم نظر إلي وقال : ويحك ! إنه ليس بدزمك^(٣) العراق وودك^(٤) ، ولكن مانأ كله أنت وأصحابك .

ثم قال : اسمع إننا ننحر كل يوم جزورا ، فأما أوراكها وودكها وأطايها فلين حضرنا من المهاجرين والأنصار ، وأما عنقها فلا آل عمر ، وأما عظامها وأضلاعها فلفقراء المدينة ، نأكل من هذا اللحم الفث ، ونشرب من هذا النبيذ الخاثر^(٥) ، ونذع لئن الطعام ليوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها .

حضر عند عمر قوم من الصحابة ، فأنشوا عليه ، وقالوا : والله مارأينا يا أمير المؤمنين رجلاً أفضى منك بالقيط ، ولا أقول بالحق ، ولا أشد على المنافقين منك ! إنك خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال عوف بن مالك : كذبتُم والله ، أبو بكر بعد رسول الله ، خير أمته رأينا أبا بكر .

فقال عمر : صدق عوف والله وكذبتُم ! لقد كان أبو بكر والله أطيب من ريح المسك ، وأنا أضل من بعير أهلي .

لما أتى عمر الخبر بنزول رستم القادسية ، كان يخرج فيستخير الركبان كل يوم عن أهل القادسية من حين يصبح إلى انتصاف النهار ، ثم يرجع إلى أهله ، فلما جاء البشير بالفتح ،

- | | |
|--|---|
| (١) العلباء عصية صفراء في صفحة العنق . | (٢) المس : القدح الكبير . |
| (٣) الدرمك : دقيق الحواري . | (٤) الودك ، محرقة : الدسم من اللحم والشحم . |
| (٥) خثر النبيذ : ثخن واشتد . | |

لقيه كما يلقى الركبان من قبل ، فسأله فأخبره ، فجعل يقول : يا عبد الله ، إياه ! حدثني !
فيقول له : هزم الله العدو ، وعمر يحثّ معه ، ويسأله وهو راجل ، والبشير يسير على ناقته
ولا يعرفه ، فلما دخل المدينة إذا الناس يسلمون عليه باسمه بإمرة المؤمنين ويهنتونه ؛
فزل الرجل ، وقال : هلا أخبرتنى يا أمير المؤمنين رحمك الله ! وجعل عمر يقول : لا عليك
يا بن أخى ، لا عليك يا بن أخى !

وروى أبو العالية الشامي ، قال : قدم عمر الجابية ، على جبل أورق^(١) ، تلوح صلعتة ؛
ليس عليه قلنسوة ؛ تصل رجلاه بين شعبتي رحله ، بغير ركاب ، وطاؤه كساء أنجباني^(٢)
كثير الصوف ، وهو وطاؤه إذا ركب ، وفراشه إذا نزل ، وحقيته نمرية محشوة ليفاً ، هي
حقيته إذا ركب ، ووسادته إذا نزل ، وعليه قميص من كرايس^(٣) قد دسم وتخرق جيبه ،
فقال : ادعوا إلى رأس القرية . فدعوه له ، فقال : اغسلوا قميصي هذا وخططوه ،
وأعبروني قيصارياً يحف قميصي ، فأتوه بقميص كتان ، فعجب منه ، فقال : ما هذا ؟
قالوا : كتان . قال وما الكتان ؟ فأخبروه ، فلبسه ثم غسل قميصه ، وأتى به فنزع
قميصهم ولبس قميصه ، فقال له رأس القرية : أنت ملك العرب ، وهذه بلاد لا يصلح بها
ركوب الإبل ، فأتى بردون^(٤) ، فطرح عليه قطيفة بغير سرج فركبه ، فحملج^(٥) ،
تحتة ، فقال للناس : احبسوا ، فحبسوه ، فقال : ما كنت أظنّ الناس يركبون الشيطان قبل
هذا ! قدّموا لي جملي . فحجى به فنزل عن البردون وركبه .

(١) الأورق من الإبل : ما في لونه بياض إلى سواد . وقالوا : هو من أطيب الإبل لحماً ، لا سيرا وعملا .
(٢) أنجباني ، منسوب إلى منبج ، على غير قياس .
(٣) الكرايس : جمع كرايس ؛ وهو الثوب الخشن ؛ معرب « كرايس » بالفارسية .
(٤) البردون : ضرب من الدواب دون الإبل وأندر من الحر ؛ يقع على الذكر والأنثى .
(٥) حملج البردون : مشى مشية سهلة في سرعة ، والمحملجة : حسن سير الدابة .

قدم عمرُ الشَّامِ ، فلقِيَه أمراءُ الأجناد وعظماءُ تلك الأرض ، فقال : وأين أخى ؟ قالوا : مَنْ هو ؟ قال : أبو عبيدة ، قالوا : سيأتيك الآن ، فجاء أبو عبيدة على ناقه مخطومة بجبل ، فسلم عليه ، وردَّ له ، ثم قال للناس : انصرفوا عَنَّا ، فسار معه حتى أتى منزله ، فنزل عليه ، فلم يرفيه إلا سيفاً وترساً ، فقال له : لو اتخذت متاع البيت ! قال : حسبي هذا يبلِّغني المقييل .

وروى طارق بن شهاب ، أنَّ عمرَ الشَّامِ عَرَضَتْ لَهُ مَخَاضَةٌ^(١) ، فنزل عن بعيره ، ونزع جُرْمُوقِيَه^(٢) فأمسكها بيده ، وخاض الماء وزمام بعيره في يده الأخرى ، فقال له أبو عبيدة : لقد صنعت اليومَ صنيعاً عظيماً عند أهل هذه الأرض ! فصكَّ في صدره ، وقال : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ! إنَّكم كنتم أذلَّ الناس ، وأحقَّ الناس ، وأقلَّ الناس ، فأعزَّكم الله بالإسلام ، فمهما تطلبوا العزَّ بغيره يرجفكم إلى الذلِّ .

وروى محمد بن سعد صاحب الواقدي ، أنَّ عمرَ قال يوماً على المنبر : لقد رأيْتُني ومالاً من أكال^(٣) يأكله الناس ؛ إلَّا أنَّ لي خالات من بنى مخزوم ، فكنت أستعذب^(٤) لمن الماء ، فيقبضُن لي القبضات من الزَّيْب ، فلمَّا نزل قيل له : ما أردت بهذا ؟ قال : وجدتُ في نفسي بأوأ^(٥) ؟ فأردت أن أطأطيَّ منها .

(١) المخاضة : موضع الخوض من الماء .

(٢) الجرْمُوق : ما يلبس فوق الخف وقاية له .

(٣) الأكال ، كسحاب : الطعام ، ويقولون : « ما ذقت أكالا » .

(٤) يستعذب الماء : أي يطلب الماء العذب . (٥) البأو : العجب والخيلاء .

ومن كلام عمر : رحم الله امرأ أهدى إلى عيوبى .

قدم عمرو بن العاص على عمر ، وكان واليا لمصر ، فقال له : فى كم سرت ؟ قال :
فى عشرين ، قال عمر : لقد سرت سيرا عاشق ! فقال عمرو : إني والله ما تأبطئني
الإماء ، ولا حملتني فى غترات المآلى ، فقال عمر : والله ما هذا بجواب الكلام الذى سألتك
عنه ! وإن الدجاجة لتفحص فى الرماد فتضع لغير الفحل ؛ وإنما تنسب البيضة إلى طوقها .
فقام عمرو مربدا الوجه .

قلت : المآلى : خرق سود يحملها النوائح ، ويسرن بها بأيديهن عند العلم ،
وأراد خرق الخيص هاهنا ، وشبهها بتلك ، وأنكر عمر نغره بالأمهات ، وقال : إن الفخر
للأب الذى إليه النسب . وسألت النقيب أبا جعفر عن هذا الحديث فى عمر ، فقال : إن
عمرا فخر على عمر ، لأن أم الخطاب زنجية ، وتعرف بباطل ، تسنى صهاك . فقلت
له : وأم عمرو النافعة أمة من سبايا العرب ، فقال : أمة عربية من عترة ، سبيت فى بعض
الغارات ، فليس يلحقها من النقص عند ما يلحق الإمام الزنجيات . فقلت له : أكان
عمرو يقدم على عمر بمثل ما قلت ؟ قال : قد يكون بلغه عنه قول قدح فى نفسه فلم
يحتمله له ، ونفت بما فى صدره منه ، وإن لم يكن جوابا مطابقا للسؤال .

وقد كان عمر مع خشونته يحتمل نحو هذا ، فقد جبهه الزبير مرة ، وجعل يحكى كلامه
يمططه ، وجبهه سعد بن أبى وقاص أيضا ، فأغضى عنه . ومر يوما فى السوق على ناقه له
فوثب غلام من بنى ضبة ، فإذا هو خلفه ، فالتفت إليه ، فقال : فمن أنت ؟ قال : ضبي ،
قال : جسور والله ، فقال الغلام : على العدو ، قال عمر : وعلى الصديق أيضا ، ما حاجتك ؟
فقضى حاجته ، ثم قال : دع الآن لنا ظهر راحلتنا .

ومن كلام عمر : اجشع عند القبور إذا نظرت إليها ، واستعص عند المعصية ، وذلك عند الطاعة ، ولا تبدلن كلامك إلا عند من يشبهه ويتخذهُ غُماً ، ولا تستعن على حاجتك إلا بمن يحب نجاحها لك ، وآخر الإخوان على التقوى ، وشاور في أمرك كله ؛ وإذا اشترى أحدكم بعيراً فليشتره جسيماً ، فإن أخطأته النجابة لم يخطئه السوق .

أوفدَ بشر بن مروان وهو على العراق رجلاً إلى عبد الملك ، فسأله عن بشر ، فقال : يا أمير المؤمنين ، هو اللين في غير ضعف ، الشديد في غير عنف ، فقال عبد الملك : ذاك الأحوذى^(١) ابن حنتمة^(٢) الذي كان يأمن عنده البريء ، ويخافه السقيم ، ويماقب على الذنب ، ويعرف موضع العقوبة ، لا بشر بن مروان !

أذن عمر يوماً للناس ، فدخل شيخ كبير يرمج ، وهو يقود ناقة رجيماً^(٣) يجاذبها ، حتى وقف بين ظهراني الناس ، ثم قال :
وإنك مسترعى وإننا رعيّةٌ وإنك مدعوٌ بسمائك يا عمر
لدى يوم شرّ شره لشراره وخير لمن كانت مؤانسته الخير
فقال عمر : لاحول ولا قوة إلا بالله ؛ من أنت ؟ قال : عمرو بن برة ، قال : ويحك ! فما منعتك أن تقول : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾^(٤) .
ثم قرأها إلى آخرها ؛ وأمر بناقته فقبضت ، وحمله على غيرها ، وكساه وزوده .

(١) الأحوذى : الرجل الذي يسوق الأمور أحسن مساق لعلبه بها .

(٢) حنتمة : أم عمرو بن الخطاب .

(٣) ناقة رجيح سفر ، أى رجعت فيه مرات .

(٤) سورة الأنفال ٤١ .

بينما يمر يسير في طريق مكة يوماً إذا بالشيخ بين يديه يرتجز^(١)؛ ويقول:
ما إن رأيتُ كفتي الخطّابِ أبرَّ بالدينِ وبالأحسابِ
* بعد النبيّ صاحب الكتاب *

فقطعنه عمرٌ بالسُّوطِ في ظهره، فقال: ويلك! وأين الصّدّيق! قال: مالي بأمره
علمٌ يا أمير المؤمنين، قال: أما إنك لو كنت عالماً، ثم قلت هذا لأوجعتُ ظهرك.

قال زيد بن أسلم: كنت عند عمر، وقد كلمه عمرو بن العاص في الخطيئة، وكان
محبوساً، فأخرجه من السجن، ثم أنشده:

ماذا تقول لأفراخِ بذي مَرخٍ زُغِبِ الحواصِلِ لا ماء ولا شَجَرُ^(١)
أَلَيْتَ كاسِبهم في قعرِ مُظْلَمَةٍ فَاغْفِرْ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ يَاعْمُرُ
أنت الإمام الذي من بعد صاحبه أَلَيْتَ إِلَيْهِ مَقَالِيدَ النَّهْيِ الْبَشَرُ
ما آثروك بها إذ قدّموك لها لكن لأنفسهم كانت بك الأثر^(٢)

فبكى عمر لما قال له: «ماذا تقول لأفراخ»! فكان عمرو بن العاص بعد ذلك
يقول: ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء أتقى من رجل يبكي خوفاً من حبس^(٣) الخطيئة!
ثم قال عمر لغلامه يرفاً: على بالكُرسيِّ، فجلس عليه، ثم قال: على بالطست، فأتي بها،
ثم قال: على بالمخضف، لا بل على بالسكين، فأتي بها، فقال: لا بل على بالموسى، فأتى بها
أوجى، فأتي بموسى، ثم قال: أشيروا علي في الشاعر، فإنه يقول الهُجر، وينسب بالحرم،
ويمدح الناس ويدمهم بغير ما فيهم، وما أراي إلا قاطعاً لسانه! فجعل الخطيئة يزيد خوفاً،
فقال من حضر: إنّه لا يعود يا أمير المؤمنين، وأشاروا إليه قل: لا أعود يا أمير المؤمنين،
فقال: النجاء النجاء! فلما ولى ناداه: يا خطيئة! فرجع مرعوباً، فقال: كأتى بك يا خطيئة

(٢) أى الخلافة. وفي الديوان: «لم يؤثروك».

(١) ديوانه ٨.

(٣) كذا في ١، وفي ب: «حبسه».

عند فتى من قريش ، قد بسط لك ثمرقة ، وكسر لك أخرى ، ثم قال : غننا يا حطيئة ، فطفقت تغنيه بأعراض الناس . قال : يا أمير المؤمنين ، لا أعود ، ولا يكون ذلك .

قال زيد بن أسلم : ثم رأيت الحطيئة يوماً بعد ذلك عند عبيد الله بن عمر ، قد بسط له ثمرقة وكسر له أخرى ، ثم قال : تغنينا يا حطيئة ، وهو يغنيه ، فقلت : يا حطيئة ، أما تذكر قول عمر لك ! فزع ، وقال : رحم الله ذلك المرء ! أما لو كان حياً ما فعلنا هذا . قال : فقلت لعبيد الله بن عمر : سمعت أباك يذكر كذا ، فكنت أنت ذلك الفتى .

كان عمر يصادر خونة العمال ، فصادر أبا موسى الأشعري ، وكان عامله على البصرة ، وقال له : بلغني أن لك جاريتين ، وأنت تطعم الناس من جفنتين ، وأعاده بعد المصادرة إلى عمله .

وصادر أبا هريرة ، وأغلظ عليه ، وكان عامله على البحرين ، فقال له : ألا تعلم أني استعملتك على البحرين ، وأنت حافٍ لا نعل في رجلك ! وقد بلغني أنك بعثت أفراساً بألف وستائة دينار . قال أبو هريرة : كانت لنا أفراسٌ فتناجت ، فقال : قد حبست لك رزقك ومؤنتك ، وهذا فضل . قال أبو هريرة : ليس ذلك لك ، قال : بلى ، والله وأوجع ظهرك ! ثم قام إليه بالدرّة فضرب ظهره ، حتى أدماه ، ثم قال : انتبها ، فلما أحضرها ، قال أبو هريرة : سوف أحسبها عند الله ، قال عمر : ذاك لو أخذتها من حليل ، وأديتها طائماً ، أما والله ما رجعت فيك أمانة أن تجي أموال هجرو اليمامة وأقصى البحرين لنفسك ؛ لا لله ولا للسلاطين ، ولم ترج فيك أكثر من رعية الحر . وعزله .

وصادر الحارث بن وهب أحد بني ليث بكر بن كنانة ، وقال له : ما قلاص وأعبد بقتها بمائة دينار ؟ قال : خرجت بنفقة لي فاتجرت فيها ، قال : وإنا والله ما بعثناك للتجارة ،

أدّها، قال : أما والله لأعمل لك بعدها . قال : أنا والله لأستعملك بعدها . ثم صعد المنبر ، فقال : يا معشرَ الأمراء ، إن هذا المال لو رأينا أنه يحلُّ لنا لأحلّناه لكم ، فأما إذ لم نره يحلُّ لنا وظلّفنا^(١) أنفسنا عنه ، فاطلّفوا عنه أنفسكم ، فإنني والله ما وجدتُ لكم مثلاً إلا عطشان ورد اللّجّة ، ولم ينظر الماتح ، فلما روى غرق .

وكتب عمر إلى عمرو بن العاص وهو عامله في مصر :
أما بعد ؛ فقد بلغني أنه قد ظهر لك مالٌ من إبلٍ وغنمٍ وخديمٍ وغلّمان ، ولم يكن لك قبله مال ، ولا ذلك من رزقك ، فإني لك هذا ! ولقد كان لي من السابقين الأولين من هو خير منك ، ولكنني استعملتك لغنائك ، فإذا كان عملك لك وعلينا ، بم نؤثرُك على أنفسنا ! فاكتب إليّ من أين مالك ؟ وعجّل . والسلام .

فكتب إليه عمرو بن العاص : قرأتُ كتابَ أمير المؤمنين ، ولقد صدق ، فأما ما ذكره من مالي ، فإنني قدمت بلدة ؛ الأسعار فيها رخيصة ، والغزو فيها كثير ، فجعلتُ فضولَ ما حصل لي من ذلك فيما ذكره أمير المؤمنين . والله يا أمير المؤمنين ، لو كانت خيانتُك لنا حلالاً ماخناك ؛ حيث ائتمنّا ، فأقصرَ عنا عنك ، فإن لنا أحساباً إذا رجعنا إليها أغنتنا عن العمل لك ، وأما مَنْ كان لك من السابقين الأولين ، فهلا استعملتهم ! فوالله ما دققت لك باباً .

فكتب إليه عمر : أما بعد ، فإنني لست من تسطيرك وتشقيقك الكلام في شيء ! إنكم معشرَ الأمراء أكثتم الأموال ، وأخلدتم إلى الأعذار ، فإنما تأكلون النار ، وتورثون العار ، وقد وجّهت إليك محمد بن مسلمة ليشاطرك على ما في يدك . والسلام .

(١) ظلف نفسه عن الشيء : منعه .

فلما قدم إليه محمد اتخذ له طعاماً وقدمه إليه ، فأبى أن يأكل ، فقال : مالك لا تأكل طعامنا ؟ قال : إنك عملت لي طعاماً هو تقدمته للشر ، ولو كنت عملت لي طعام الضيف لأكلته ، فأبعد عني طعامك ، وأحضر لي مالك . فلما كان الغد وأحضر ماله ، جعل محمد يأخذ شطراً ، ويعطى عمراً شطراً ، فلما رأى عمرو ما حاز محمد من المال ، قال : يا محمد ، أقول ؟ قال : قل ما تشاء ، قال : لعن الله يوماً كنت فيه واليا لابن الخطاب ! والله لقد رأيته ورأيت أباه ، وإن على كل واحد منهما عباءة قطوانية ، مؤتزرا بهما ، ماتبلغ مأبض^(١) ركبتيه ، وعلى عنق كل واحد منهما حزمة من حطب ، وإن العاص ابن وائل لفي مزورات الديباج . فقال محمد : إياها ياعمرو ! فعمرو والله خير منك ، وأما أبوك وأبوه ففي النار ، والله لولا ما دخلت فيه من الإسلام لألقيت معتلفاً شاة يسرك غزرها ، ويسوءك بكؤها . قال : صدقت ؛ فآكتم علي . قال : أفعل .

جاءت سُرّة لعبيد الله بن عمر إلى عمر تشكوه ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، ألا تعذرني من أبي عيسى ؟ قال : ومن أبو عيسى ؟ قالت : ابنك عبيد الله ، قال : ويحك ! وقد تكنتي بأبي عيسى ! ودعاه ، وقال : إياها اكتنيت بأبي عيسى ! فحذر وفزع ، فأخذ يده فعضها حتى صاح ، ثم ضربه وقال : ويلك ! هل لعيسى أب ! أما تدري ما كنتي العرب ؟ أبو سلمة ، أبو حنظلة ، أبو عرفة ، أبو مرة .

كان عمر إذا غضب على بعض أهله لم يشتف حتى يعرض يده ، وكان عبد الله بن الزبير كذلك يقال : إنه لم يل ولاية من ولد عمر وال عادل .

(١) المأبض : كل ما يثبت عليه فخذك . ، وقيل : المأبضان ما تحت الفخذين .

وقال مالك بن أنس : إنَّ عمر بن الخطاب استفرغ كلَّ عدلٍ في ولده ، فلم يعدل بعده أحدٌ منهم في ولاية وليها .

كان عمر ومن بعده من الولاة إذا أخذوا العصاة نزعوا عما عليهم ، وأقاموهم للناس ، حتى جاء زياد فضر بهم بالسيّاط ، فجاء مضطرب فخلق مع الضرب ، فجاء بشر بن مروان ، فكان يصلب تحت الإبطين ، ويضرب الأَكفَّ بالمسامير . فكتب إلى بعض الجند قوم من أهله يستزيرونه ، ويتشوقونه ، وقد أخرج به بشر إلى الرِّق فكتب إليهم :

لولا غفلة بشرٍ أو عقوبته أو أن يرى شائقٍ كفى بمسارٍ
إذا لمطلتُ نغري ثم زرتكم إنَّ المحبَّ المغيَّ جدُّ زوارٍ
فلما جاء الحاجاج قال : كلَّ هذا لعمري ، فقتل العصاة بالسيف .

زيد بن أسلم ، عن أبيه ، قال : خلا عمرُ لبعض شأنه ، وقال : أمسك على الباب ، فطلع الزُّبير ، فكرهته حين رأيته ، فأراد أن يدخل ، فقلت : هو على حاجةٍ ، فلم يلتفت إليّ ، وأهوى ليدخل ، فوضعتُ يدي في صدره ، فضرب أنفي فأذماه ، ثم رجع ، فدخلتُ على عمر ، فقال : ما بك ؟ قلت : الزُّبير !

فأرسل إليّ الزُّبير ، فلما دخل جئتُ فمعتُ لأنظر ما يقول له ، فقال : ما حلك على ما صنعت ! أذميتني للناس . فقال الزُّبير يحكيه ويمطط في كلامه : « أذميتني ! » ، أنتحجب عنا يا بن الخطاب ! فوالله ما احتجب مني رسول الله ، ولا أبو بكر ! فقال عمر كما اعتذر : إني كنتُ في بعض شأنٍ !

قال أسلم : فلما سمعته يعتذر إليه ، بثتُ من أن يأخذ لي بحقي منه .

نفرج الزبير ، فقال عمر : إنه الزبير وآثاره ما تعلم ! فقلت : حتى حقت !

وروى الزبير بن بكار في كتاب "الموفقيات" ، عن عبد الله بن عباس قال : إني لأماشي عمر بن الخطاب في سكة من سلك المدينة ، إذ قال لي : يا بن عباس ، ما أرى صاحبك إلا مظلوما ، فقلت في نفسي : الله لا يسبقني بها ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، فاردد إليه ظلامته ، فانتزع يده من يدي ، ومضى يهيمهم ساعة ، ثم وقف فلحقته ، فقال : يا بن عباس ؟ ما أظنهم منعهم عنه إلا أنه استصغره قومه ! فقلت في نفسي : هذه شر من الأولى ! فقلت : والله ما استصغره الله ورسوله حين أمراه أن يأخذ براءة من صاحبك^(١) .

فأعرض عني وأسرع ، فرجعت عنه .

وقال ابن عباس : قلت لعمر ، لقد أكرت التمني الموت ، حتى خشيت أن يكون عليك غير سهل عند أوائنه ! فماذا سئمت من رعيتك ؛ أن تعين صالحا ، أو تقوم فاسدا ! قال : يا بن عباس ، إني قائل قولنا نخذه إليك ، كيف لا أحب فراقهم ، وفيهم من هو فاتح فاه للشهوة من الدنيا ، إما لحق لا ينوء به ، وإما لباطل لا يناله ! والله لولا أن أسأل عنكم لبرئت منكم فأصبحت الأرض مني بلاقع ، ولم أقل : ما فعل فلان وفلان !

جاءت امرأة إلى عمر بن الخطاب ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، إن زوجي يصوم

(١) انظر الرياض النضرة ٢ : ١٧٣ .

النهار ويقوم الليل، وإني أكره أن أشكوه وهو يعمل بطاعة الله ! فقال : نعم الزوج زوجك ! ؛ فجعلت تكرر عليه القول ، وهو يكرر عليها الجواب .

فقال له كعب بن سؤر : يا أمير المؤمنين ، إنها تشكو زوجها في مباحثته إياها عن فراشه ، ففطن عمر حينئذ ، وقال له : قد وليتكم الحكم بينهما !

فقال كعب : على زوجها ، فأني به ، فقال : إن زوجتك هذه تشكوك ، قال : في طعام أو شراب ؟ قال : لا ، قالت المرأة :

أيتها القاضي الحكيم رشده ألهي خليلي عن فراشي مسجدة
زهدة في مضجعي تبدة نهاره وليله ما يرقده
* فليست في أمر النساء أحيدة *

فقال زوجها :

زهدني في فرثيها وفي الحجل أني امرؤ أذهلني ما قد نزل
في سورة النمل وفي السبع الطول وفي كتاب الله تخوف جل
قال كعب :

إن لها حقاً عليك يارجل تصيبها من أربع لن عقل
* فأعطها ذاك ودع عنك العلق *

فقال لعمر : يا أمير المؤمنين ، إن الله أحل له من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فله ثلاثة أيام ولياليهن ، يعبد فيها ربه ، ولها يوم وليلة .

فقال عمر : والله ما أعلم من أي أمريك أعجب ! أمن فهمك أمهما ، أم من حكمتك بينهما ! اذهب فقد وليتكم قضاء البصرة .

وروى زيد بن أسلم ، عن أبيه ، قال : خرجت مع عمر بن الخطاب وهو يطوف بالليل ،

فنظر إلى نار شرق حَرَّة المدينة ، فقال : إن هؤلاء الركب لم ينزلوا هاهنا ، إلا
الليلة ! ثم أهوى ^(١) لهم ، فخرجت معه حتى دنونا ، فسمعنا تصاغي ^(٢) الصبيان
وبكاءهم .

فقال : السلام عليكم يا أصحاب الضوء ، هل ندنو منكم ! واحتبسنا قليلا ، فقالت
امرأة منهم : ادنوا بسلام ! فأقبلنا حتى وقفنا عليها ، فقال : ما يبكي هؤلاء الصبيان ؟
قالت : الجوع ، قال : فما هذا القدر على النار ؟ قالت : ما أعلم به ، قال : انتظريني فإني
بالفك إن شاء الله ! ثم خرج يهرول وأنا معه ، حتى جئنا دار الدقيق وكانت دارا يطرح
فيها ما يجيء من دقيق العراق ومصر . وقد كان كتب إلى عمرو بن العاص وأبي موسى
حين أجمعت السنة : الفوث ، الفوث ! اجملوا إلى أحمال الدقيق ، واجعلوا فيها جمائد
الشحم . فجاء إلى عدل منها ، فطأطأ ظهره ، ثم قال : احمله على ظهري يا أسلم ! فقلت :
أنا أحمله عنك ! فنظر إلى وقال : أنت تحمل عني وزري يوم القيامة ؟ لا أبالك ! قلت :
لا ، قال : فاحمله على ظهري إذا ، ففعلت ، وخرج به يذليج ^(٣) وأنا معه ؛ حتى ألقاه
عند المرأة .

ثم قال لي : ذر ^(٤) على ذرور الدقيق لا يتعمد وأنا أحرر ^(٥) ، ثم أخذ المسواط ^(٦)
يخزر ، ثم جعل ينفع تحت البرمة ، وأنا أنظر إلى الدخان يخرج من خلل لحيته ،
ويقول : لا تمجل حتى ينضج ، ثم قال : ألق على من الشحم ، فإن القفار
يؤجج البطن .

(١) أهوى لهم : نزل عليهم .
(٢) التصاغى : الصياح والتصور من الجوع .
(٣) الإدلاج : السير أول الليل .
(٤) ذر الشيء : أخذه بأطراف أصابعه ، ثم نثره على الشيء .
(٥) الخزيرة : العصيدة .
(٦) السوط : خلط الشيء بعضه ببعض ، والسوط والمسواط : ما سيط به .

ثم أنزل القدر ، وقال المرأة : لا تعجلي ، لا تعطيهما حاراً ، وأنا أسطّح لك ، فجعل يسطّح بالسواط ، ويبرد طعامهم ، حتى إذا شبعوا ترك عندها الفضل ، ثم قال لها : انتي أمير المؤمنين غدا ، فإنك عسيت أن تجديني قريباً منه ، فأشفع لك بخير ؛ وهي تقول : مَنْ أنت يرحمك الله ! وتدعوه وتقول : أنت أولى بالخلافة من أمير المؤمنين ؛ فيقول : قولي خيرا يرحمك الله ! لا يزيد علي هذا .

ثم انصرف حتى إذا كان قريباً جلس فألقى ، وجعل يسمع طويلاً ، حتى سمع التّصاحك منها ومن الصبيان ، وأنا أقول : يا أمير المؤمنين ، قد فرغت من هذه ، ولك شغل في غيرها ، ويقول : لا تكلمني ، حتى إذا هدأ حسهم قام فتمطّى وقال ؛ ويحك ! إني سمعتُ الجوع أسهرهم ، فأحببتُ ألا أبرح حتى أسمع الشّبع أنا منهم !

ومن كلامه : الرجال ثلاثة : الكامل ، ودون الكامل ، ولا شيء . فالكامل ذو الرأي يستشير الناس ، فيأخذ من آراء الرجال إلى رأيه ، ودون الكامل من يستبدّ به ولا يستشير . ولا شيء من لا رأى له ولا يستشير .

والنساء ثلاث : تعين أهلها على الدهر ولاتعين الدهر على أهلها ، وقلما تجدها . وامرأة وعاء للولد ليس فيها غيره . والثالثة غُلٌّ قَمَلٌ^(١) يجعله الله في رقبة من يشاء ، ويفكه إذا شاء

لما أخرج عُمر الخطيئة من حبسه قال له : إياك والشعر ! قال : لا أقدر على تركه يا أمير المؤمنين ؛ مأكلة عيالي ، ونملة تدبّ على لساني . قال : فشَبِّبْ بأهلك ، وإياك

(١) في اللسان : « في حديث عمر في صفة النساء : منهن غل قل ؛ أي ذو قل ، كانوا يفلون الأسير بالقد وعليه الشعر فيقل ، ولا يستطيع دفعه عنه بحيلة » .

وكل مدحة مُحجفة . قال : وما المُحجفة ؟ قال : تقول : إن بني فلان خير من بني فلان ،
امدح ولا تفضل أحداً ، قال : أنت والله يأمير المؤمنين أشعر مني !

وروى الزبير في ، الموفقيات ، عن عبد الله بن عباس ، قال : خرجت أريد عمر بن
الخطاب ، فلقينته راكباً حماراً ، وقد ارتسنه بحبل أسود ، في رجله نملان مخضوفتان ،
وعليه إزار وقيص صغير ، وقد انكشفت منه رجلاه إلى ركبتيه ، فشيت إلى جانبه ،
وجعلت أ جذب الإزار وأسويه عليه ، كلما سترت جانباً انكشف جانب ، فيضحك
ويقول : إنه لا يطيعك ، حتى جئنا العالية ، فصلينا ، ثم قدم بعض القوم إلينا طعماً من
خبز ولحم ، وإذا عمر صائم ، فجعل ينبذ^(١) إلى طيب اللحم ، ويقول : كل لي ولك ، ثم
دخلنا حائطاً فأتى إلى رداءه ، وقال أكفنيه ، وألقى قيصه بين يديه ، وجلس يغسله ،
وأنا أغسل رداءه ، ثم جففناهما وصلينا العصر ، فركب ومشيت إلى جانبه ، ولا ثالث لنا .
فقلت : يأمير المؤمنين ، إني في خطبة فأشرك على ، قال : ومن خطبت ؟ قلت :
فلانة ابنة فلان ، قال : النسب كما تحب ، وكما قد علمت ، ولكن في أخلاق أهلها دقة^(٢)
لا تعدمك أن تجدها في ولدك ! قلت : فلا حاجة لي إذاً فيها ، قال : فلم لا تخطب إلى
ابن عمك - يعني علياً ؟ قلت : ألم تسبقني إليه ؟ قال : فالأخرى ، قلت : هي لابن أخيه .
قال : يا بن عباس ، إن صاحبكم إن ولي هذا الأمر أخشى عجبته بنفسه أن يذهب به ،
فليتني أراكم بعدى !

قلت : يأمير المؤمنين ، إن صاحبنا ما قد علمت ؛ إنه ما غير ولا بدّل ، ولا أسخط
رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام صحبته له .

(١) ينبذ : يطرح .

(٢) الدقة : الحساسة .

قال : قطع على الكلام ، فقال : ولا في ابنة أبي جهل ، لما أراد أن يخطبها على فاطمة !

قلت : قال الله تعالى : ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ ^(١) ، وصاحبنا لم يعزم على سخط رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن الخواطر التي لا يقدر أحدٌ على دفعها عن نفسه ، وربما كان من الفقيه في دين الله ، العالم العامل بأمر الله .

فقال : يا ابن عباس ، مَنْ ظَنُّ أَنَّهُ يَرُدُّ بِحُورِكُمْ فِيْهَا مَعَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ قَرْمَهَا فَقَدْ ظَنُّ عَجْزًا ! أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِيْ وَلَكَ ، خَذَفِيْ غَيْرَهَا .

ثم أنشأ يسألني عن شيء من أمور الفتيا وأجيبه فيقول : أصبتَ أصاب الله بك ! أنت والله أحقُّ أن تُتَّبَعَ !

أشرف عبدُ الملاك على أصحابه ، وهم يتذاكرون سيرة عمر ، فغاضه ذلك ، وقال : إِيَّاهَا عَنْ ذِكْرِ سِيرَةِ عُمَرَ ! فَإِنَّهَا مَزْرَاةٌ عَلَى الْوَلَاةِ ، مَفْسَدَةٌ لِلرَّعِيَّةِ .

قال ابن عباس : كنت عند عمر ، فتنفَّسَ نفساً ظننتُ أنَّ أضلاعه قد انفرجت ، فقلت : ما أخرج هذا النفسَ منك يا أميرَ المؤمنين إلّا همٌّ شديد ! قال : إِي وَاللَّهِ يَا بَنَ عَبَّاس ! إِنِّي فَكَّرْتُ فَلَمْ أَذِرْ فِيمَنْ أَجْعَلُ هَذَا الْأَمْرَ بَعْدِي ! ثُمَّ قَالَ : لَعَلَّكَ تَرَى صَاحِبَكَ لَهَا أَهْلًا ! قُلْتُ : وَمَا يَمْنَعُهُ مِنْ ذَلِكَ مَعَ جِهَادِهِ وَسَابِقَتِهِ وَقِرَابَتِهِ وَعِلْمِهِ ! قَالَ : صَدَقْتُ ، وَلَكِنَّهُ امْرُؤٌ فِيهِ دُعَابَةٌ ، قُلْتُ . فَأَيْنَ أَنْتَ عَنْ طَلْحَةَ ! قَالَ : ذُو الْبَأْوِ ^(٢) ، وَيَأْصِبُهُ الْمَقْطُوعَةُ ! قُلْتُ : فَعَبْدُ الرَّحْمَنِ ؟ قَالَ : رَجُلٌ ضَعِيفٌ لَوْ صَارَ الْأَمْرُ إِلَيْهِ لَوَضَعَ خَاتَمَهُ فِي يَدِ امْرَأَتِهِ . قُلْتُ : فَالزَّيْبِيُّ ؟ قَالَ : شَكِسٌ لَقِسٌ ^(٣) يُلَاطِمُ فِي النَّقِيعِ فِي صَاعٍ

(١) سورة طه ١١٥ .

(٢) البأو : العجب والتفاخر .

(٣) اللقس الشكس : شيء الخلق ؛ كذا فسره صاحب اللسان ؛ وأورد الخبر .

من بُرٍّ ! قلت : فسعد بن أبي وقاص ؟ قال : صاحب سلاح ومِقَنَب^(١) ، قلت :
فعثمان ؟ قال : أوّه ! ثلاثا ، والله لئن وليها ليحملنّ بنى أبي مُعَيْط على رقاب الناس ، ثم
لتنهض العرب إليه .

ثم قال : يابن عباس ، إنه لا يصلح لهذا الأمر إلا خَصِيف^(٢) العقدة ، قليل الغرة ،
لا تأخذه في الله لومة لائم ، ثم يكون شديدا من غير عنف ، ليّنا من غير ضعف ، سخيّا
من غير سرف ، ممسكاً من غير وكف^(٣) . قال ابن عباس : وكانت والله هي صفات عمر .
قال : ثم أقبل على بعد أن سكت هُنيئةً ، وقال : أجرؤهم والله إن وليها أن
يحملهم على كتاب ربهم وسنة نبيهم لصاحبك ! أما إن ولي أمرهم حملهم على الحجة
البيضاء والصراط المستقيم .

وروى عبد الله بن عمر قال : كنت عند أبي يوماً ، وعنده نفر من الناس ، فجرى
ذكر الشعر ، فقال : من أشعر العرب ؟ فقالوا : فلان وفلان ، فطلع عبد الله بن عباس ،
فسلم وجلس ، فقال عمر : قد جاءكم الخبيرو ! من أشعر الناس يا عبد الله ؟ قال : زهير
ابن أبي سلمى ، قال : فأنشدني مما تستجيده له . فقال : يا أمير المؤمنين ، إنه مدح
قوماً من غطفان ، يقال لهم بنو سنان ، فقال :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرمٍ قومٌ بأولهم أو مجدهم قعدوا
قوم أبوم سنان حين تنسبهم طابوا وطاب من الأولاد ما ولدوا
إنسٌ إذا أمّنا ، جنٌ إذا فزعوا مُرَزَّيون بهاليلٍ إذا جهدوا

(١) القنب : جماعة الخيل .

(٢) قال المحب الطبري في الرياض النضرة ٢ : ٦٠ : « خصيف العقدة : مستحكما ؛ واستخصف
الشيء : استحكم ، والخصيف : الرجل المحكم العقل ؛ وكفى بذلك عمر عن الاشتداد في دين الله وقوة الإيمان به
(٣) الوكف : العيب .

مَحْسَدُونَ عَلَى مَا كَانُوا مِنْ نَعْمٍ لَا يَنْزِعُ اللَّهُ مِنْهُمْ مَالَهُ حُسِدُوا
فَقَالَ عُمَرُ : وَاللَّهِ لَقَدْ أَحْسَنَ ، وَمَا أَرَى هَذَا الْمَدْحَ يَصْلَحُ إِلَّا لِهَذَا الْبَيْتِ مِنْ هَاشِمٍ ؛
لِقَرَابَتِهِمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : وَقَفَّكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ،
فَلَمْ تَزَلْ مُوَفَّقًا ، فَقَالَ : يَا ابْنَ عَبَّاسٍ ، أَتَدْرِي مَا مَنَعَ النَّاسَ مِنْكُمْ ؟ قَالَ : لَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ،
قَالَ : لَكِنِّي أَدْرِي ، قَالَ : مَا هُوَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ : كَرِهَتْ قُرَيْشٌ أَنْ تَجْتَمَعَ لَكُمْ
النَّبُوَّةُ وَالْخِلَافَةُ ، فَيَجْزِفُوا جَنَاحًا^(١) ، فَنَظَرْتُ قُرَيْشٌ لِنَفْسِهَا فَاخْتَارَتْ وَوَقَفَتْ فَأَصَابَتْ^(٢)
فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : أَيْمِيطُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَنِّي غَضَبُهُ فَيَسْمَعُ ! قَالَ : قُلْ مَا تَشَاءُ ، قَالَ :
أَمَّا قَوْلُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ : إِنْ قُرَيْشًا كَرِهَتْ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِقَوْمٍ : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾^(٣) .

وَأَمَّا قَوْلُكَ : « إِنَّا كُنَّا نَجْخَفُ » ، فَلَوْ جَخَفْنَا بِالْخِلَافَةِ جَخَفْنَا بِالْقَرَابَةِ ، وَلَكِنَّا قَوْمٌ
أَخْلَقْنَا مُشْتَقَّةً مِنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّكَ لَكَلِمَةٍ
خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾^(٤) ، وَقَالَ لَهُ : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٥) .
وَأَمَّا قَوْلُكَ : « فَإِنْ قُرَيْشًا اخْتَارَتْ » ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ
مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾^(٦) ، وَقَدْ عَلِمْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ اللَّهَ اخْتَارَ
مِنْ خَلْقِهِ لَذَلِكَ مَنْ اخْتَارَ ، فَلَوْ نَظَرْتُ قُرَيْشٌ مِنْ حَيْثُ نَظَرَ اللَّهُ لَهَا لَوْقَفَتْ
وَأَصَابَتْ قُرَيْشٌ .

فَقَالَ عُمَرُ : عَلَى رِسْلِكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ ، أَبْتُ قُلُوبَكُمْ يَا ابْنَ هَاشِمٍ إِلَّا غِشًّا فِي أَمْرِ
قُرَيْشٍ لَا يَزُولُ ، وَحَقْدًا عَلَيْهَا لَا يُحُولُ ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : مَهْلًا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ !

(٢) الشعر والجبريل هناه في ديوان زهير وشرح ٢٨١-٢٨٣

(٤) سورة ن ٥

(٦) سورة القصص ٦٨ .

(١) جحف : تكبر .

(٣) سورة الأحزاب ١٩

(٥) سورة الشعراء ٢١٥

لا تنسب هاشمًا إلى الغش ، فإن قلوبهم من قلب رسول الله الذي طهره الله وزكاه ، وهم أهل البيت الذين قال الله تعالى لهم : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾^(١) ؛ وأما قولك : « حقدًا » فكيف لا يحقد من غصب شيته ، ويراه في يد غيره !

فقال عمر : أما أنت يا بن عباس ، فقد بلغني عنك كلامٌ أكره أن أخبرك به ، فتزول منزلتُك عندي ، قال : وما هو يا أمير المؤمنين ؟ أخبرني به ، فإن يك باطلاً فنبلى أماط الباطل عن نفسه ، وإن يك حقاً فإن منزلتي عندك لا تزول به . قال : بلغني أنك لا تزال تقول : أخذ هذا الأمر منك حسداً وظلماً . قال : أما قولك يا أمير المؤمنين : « حسداً » ، فقد حسد إبليس آدم ، فأخرجه من الجنة ، فنحن بنو آدم المحسود .

وأما قولك : « ظلماً » فأمر المؤمنين يعلم صاحب الحق من هو ! ثم قال : يا أمير المؤمنين ، ألم تحتج العرب على العجم بحق رسول الله ، واحتجبت قريش على سائر العرب بحق رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فنحن أحق برسول الله من سائر قريش .

فقال له عمر : قم الآن فارجع إلى منزلك . فقام ، فلما ولى هتف به عمر : أيها المنصرف ، إنني على ما كان منك لراعٍ حقك !

فالتفت ابن عباس فقال : إن لي عليك يا أمير المؤمنين وعلى كل المسلمين حقاً برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فن حفظه فحق نفسه حفظ ، ومن أضاعه فحق نفسه أضاع . ثم مضى .

(١) سورة الأحزاب ٣٣ .

فقال عمر لجلسائه : واهّا لابن عباس ! ما رأيته لآحى أحداً قط إلا خصمه !

لما توفّي عبد الله بن أبيّ ، رأس المنافقين في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جاء ابنه وأهله ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصليّ عليه ، فقام بين يدي الصفّ يريد ذلك ، فجاء عمر فجذبه من خلفه ، وقال : ألم ينهك الله أن تصليّ على المنافقين ! فقال : إني خيّر فاخترت ، فقيل لي : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ ^(١) ، ولو أنّي أعلم أنّي إذا زدت على السبعين غفر له لذت . ثم صلى رسول الله عليه ومشى معه ، وقام على قبره .

فعجب الناس من جرأة عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، فلم يلبث الناس إلا أن نزل قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ .. ﴾ ^(٢) فلم يصلّ عليه السلام بعدها على أحدٍ من المنافقين ^(٣) .

وروى أبو هريرة ، قال : كنا قعوداً حول رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفرٍ ، فقام من بين أظهرنا ، فأبطأ علينا ، وخشينا أن يقطع دوننا فقمنا - وكنت أول من فرغ - فخرجت أبتغيه حتى أتيت حائطاً ^(٣) للأَنْصار لقوم من بني النّجار ، فلم أجده باباً إلا ربيعا ، فدخلت في جوف الحائط - والربيع الجدول - فدخلت منه بعد أن احتفرتُه ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أبو هريرة ! قلت : نعم ، قال : ما شأنك ؟ قلت : كنت بين أظهرنا ، فقامت فأبطأت عنا ، فخشينا أن تقتطع دوننا ، ففرعنا - وكنت أول من فرغ - فأتيت هذا الحائط فاحتفرتُه كما يحتفّر الثعلب ، والناس من ورأى .

(٢) الرياض النضرة ١ : ١٤٠

(١) سورة التوبة ٨٠ ، ٨٤

(٣) الحائط هنا : البستان .

فقال : يا أبا هريرة ، اذهب بنعلَيَّ هاتين ، فن لقيته وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله ، مستيقنا بها قلبه ، فبشّره بالجنة . فخرجت ، فكان أول من لقيت عمر ، فقال : ماهذان النعلان ؟ قلت : نعلا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثنى بهما ، وقال : من لقيته يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه ، فبشّره بالجنة .

فضرب عمر في صدري فخررت لاسّتي ، وقال : ارجعْ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فأجهشتُ بالبكاء راجعاً ، فقال رسول الله : ما بالكَ ؟ قلت : لقيتُ عمر فأخبرته بالذي بعثتني به ، فضرب صدري ضربةً خررت لاسّتي ، وقال : ارجع إلى رسول الله .

فخرج رسول الله ، فإذا عمر ، فقال : ما حَلَّكَ يا عمر على ما فعلت ؟ فقال عمر : أنت بعثت أبا هريرة بكذا ؟ قال : نعم ، قال : فلا تفعلْ ، فإنّي أخشى أن يتكل الناس عليها فيتركوا العمل ، خلّهم يعملون .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خلّهم يعملون .

وروى أبو سعيد الخدري ، قال : أصابت النَّاسَ مجاعةٌ في غزاة تبوك ، فقالوا : يا رسول الله ، لو أذنتَ لنا فذبّحنا نواضحنا^(١) ، وأكلنا شحمها ولحمها ! فقال : افعلوا ، ففجأ عمر فقال : يا رسول الله ، إنهم إن فعلوا قلّ الظَّهر ، ولكن ادعهم بفضلات أزوادهم فاجمعها ، ثم ادعْ لهم عليها بالبركة ، لعل الله يجعل في ذلك خيراً .

(١) الناضح : البعير يستقى عليه ؛ ثم استعمل في كل بعير ، وإن لم يحمل الماء .

ففعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، فأكل الخلق الكثير من طعام قليل ، ولم تذبح النواضح .

وروى ابن عباس رضى الله عنه أن رجلاً أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر له ذنباً أذنيه ، فأنزل الله تعالى في أمره : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾^(١) فقال : يا رسول الله ، لى خاصة ، أم للناس عامة !

فضرب عمر صدره بيده وقال : لا ، ولا نعى عين ! بل للناس عامة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل للناس عامة .

وكان عمر يقول : وافقنى ربى فى ثلاث : قلت : يا رسول الله ، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى ؟ فنزلت : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾^(٢) .
وقلت : يا رسول الله ، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر ، فلو أمرتهن أن يحتجبن ! فنزلت آية الحجاب .
وتمالأ عليه نساؤه غيرة ، فقلت له : ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ ﴾^(٣) ؟ فنزلت بهذا اللفظ^(٤) .

وقال عبد الله بن مسعود : فضل عمر الناس بأربع : برأيه فى أسارى بدر ، فنزل القرآن بموافقته : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ أَسْرَى حَتَّى يُخْرَجَ فِي الْأَرْضِ ﴾^(٥) ، وبرأيه فى حجاب نساء النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فنزل قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَ لُتْمُوهُنَّ

(٢) سورة البقرة ١٢٥

(٤) الرياض النضرة ١ : ٢٤٠

(١) سورة هود ١١٤

(٣) سورة التحريم ٥

(٥) سورة الأنفال ٦٧

مَتَاعًا فَاسَأْ لَوْ هُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ^(١) وبدعوة النبي صلى الله عليه وسلم : « اللهم أيتد الإسلام بأحد الرجلين » ، وبرأيه في أبي بكر ، كان أول مَنْ بایعه ^(٢) .

وروت عائشة قالت : كنتُ آكل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حَيَّسًا ^(٣) قبل أن تنزل آية الحجاب ، ومرَّ عمر فدعاه فأكل ، فأصابته يده إصبعي ، فقال : حَسَّ ^(٤) لو أطاعُ فيكنَّ ما رأيتُكْنَّ عين ! فنزلت آية الحجاب ^(٥) .

جاء عيينة بن حصن والأقرع بن حابس إلى أبي بكر ، فقالا : يا خليفة رسول الله ، إن عندنا أرضاً سَبَخَ لیس فيها كلاً ولا منفعة ، فإن رأيت أن تُقَطِّعناها ، لعلنا نحرشها أو نزرعها ! ولعلَّ الله أن ينفع بها بعد اليوم ! فقال أبو بكر لمن حوله من الناس المسلمين : ماترون ؟ قالوا : لا بأس ، فكتب لهما بها كتابا ، وأشهد فيه شهودا . وعمر ما كان حاضرا ، فانطلقا إليه ليشهد في الكتاب ، فوجداه قائما يهنا ^(٦) بعيرا ، فقالا : إن خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب لنا هذا الكتاب ، وجئناك لتشهد على ما فيه ، أفتقرؤه أم نقرؤه عليك ؟ قال : أعلی الحال التي تريان ! إن شئنا فاقراءه ، وإن شئنا فانتظرا حتى أفرغ .

قالا : بل نقرؤه عليك ، فلما سمع ما فيه ، أخذ منهما ، ثم تغل فيه ، فمحاها ، فتذامرا وقالوا مقالة سيئة .

(١) سورة الأحزاب ٥٣

(٢) الرياض النضرة ١ : ٢٠٢

(٣) الرياض النضرة : « حيساً في قصب » .

(٤) قال الحب الطبري : « حسن ، هي بكسر السين والتشديد : كلمة يقولها الإنسان إذا أصابه ماضه وأحرته كالجرة والضربة ونحوهما . (٥) الرياض النضرة ١ : ٢٠٢

(٦) يهنا يعيره : يطلبه بالقطران علاجاً له من الجرب .

فقال : إنَّ رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم كان يتألفسكا والإسلام يومئذ ذليل ، وإنَّ الله تعالى قد أعزَّ الإسلام ، فاذهبا فاجهدا جهدكما ، لا رعى الله عليكما إن رعيتمَا !
فذهبا إلى أبي بكر ، وهما يتذمران ، فقالا : والله ما ندرى أنت أمير أم عمر ؟ فقال : بل هو لو شاء كان .

وجاء عمر وهو مغضب ، حتى وقف على أبي بكر ، فقال : أخبرني عن هذه الأرض التي أقطعها هذين الرجلين ، أهي لك خاصة ، أم بين المسلمين عامَّة ؟ فقال : بين المسلمين عامَّة ، قال : فما حلاك على أن تخصَّ بها هذين دون جماعة المسلمين : قال : استشرتُ الذين حولي ، فأشاروا بذلك ، فقال : أفكلَّ المسلمين أوسعهم مشورة ورضا ! فقال أبو بكر : فلقد كنتُ قلتُ لك : إنَّك أقوى على هذا الأمر مني ، لكنك غلبتني !

لما كتب النبي صَلَّى الله عليه وسلَّم كتابَ الصُّلح في الحديبية بينه وبين سُهيل ابن عمرو ، كان في الكتاب أنَّ من خَرَج من المسلمين إلى قريش لا يُردَّ ، ومن خرج من المشركين إلى النبي صَلَّى الله عليه وسلَّم يُردَّ عليهم ، فغضب عمر وقال لأبي بكر : ما هذا يا أبا بكر ! أيردُّ المسلمون إلى المشركين ! ، ثم جاء إلى رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم ، فجلس بين يديه ، وقال يا رسول الله ، ألسن رسول الله حقًّا ؟ قال : بلى ، قال : ونحن المسلمون حقًّا ؟ قال : نعم ، قال : وهم الكافرون حقًّا ؟ قال : نعم ، قال : فسلام نعطى الدِّيَّة في ديننا ! فقال رسول الله : أنا رسول الله ، أفعل ما يأمرني به ، ولن يضيعني .

فقام عمر مغضبا ، وقال : لو أجد أعوانا ما أعطيتُ الدِّيَّة أبدا . وجاء إلى أبي بكر

فقال له : يا أبا بكر ، ألم يكن وعدنا أننا سندخل مكة ، فأين ما وعدنا به ؟ فقال أبو بكر : أقال لك : إنه العام يدخلها ؟ قال : لا ، قال : فسيدخلها ، فقال : فما هذه الصحيفة التي كتبت ؟ وكيف نعطى الدنية من أنفسنا ! فقال أبو بكر : يا هذا ، الزم غرزه ^(١) ، فوالله إنه لرَسُولُ الله ، وإن الله لا يضيعه .

فلما كان يوم الفتح وأخذ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مفتاح الكعبة ، قال : ادعوا إلى عمر ، فجاء فقال : هذا الذي كنت وعدتكم به ^(٢) !

لما قُتِلَ المشركون يوم بدر أسير منهم سبعون أسيراً ، فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم أبا بكر وعمر ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ، هؤلاء بنو النعم والعشيرة والإخوان ، وأرى أن تأخذ منهم الفدية ، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على المشركين ، وعسى أن يهديهم الله بعد اليوم ، فيكونوا لنا عذراً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماتقول أنت يا عمر ؟ قال : أرى أن تمكنني من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه ، وتمكن عليا من عقيل ، فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من أخيه فيضرب عنقه ، حتى يعلم الله أنه ليس في قلوبنا هودة للمشركين . اقتلهم يا رسول الله ، فإنهم صناديدهم وقادتهم . فلم يهرو رسول الله ما قاله عمر .

قال عمر : نجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجدته قاعداً وأبو بكر ، وهما يبكيان ، فقلت : ما يبكيكما ؟ حدثاني ، فإن وجدت بكاء بكيت وإلا تباكيت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبكي لأخذت الفداء ، لقد عرض على عذابكم أدنى من هذه الشجرة - لشجرة قريبة منه .

(١) الزم غرزه ، أى أمره ونهيه (٢) الرياض النضرة ٢ : ٤٤

قال عبد الله بن عمر : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : كِدْنَا أَن يَصِيبَنَا شَرٌّ فِي مَخَالِفَةِ عُمَرَ .

وقال عُمر في خلافته : لئن عشتُ إن شاء الله لأسيرن في الرعيّة حولاً ، فإني أعلمُ أن للناس حوائجَ تقتطع دوني ، أمّا عمّا لم فلا يرفعونها إليّ ، وأمّا هم فلا يصلون إليّ . أسيرُ إلى الشام فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم بها شهرين ، ثم أسيرُ إلى مصر فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين ، ثم إلى البصرة فأقيم بها شهرين ، والله لنعم الحول هذا !

وقال أسلم : بعثني عمر يابل من يابل الصدقة إلى الحلي ، فوضعت جهازي على ناقةٍ منها كريمة ، فلما أردتُ أن أصدِرَها قال : اعرضها عليّ ، فعرضتها عليه ، فرأى متاعبي على ناقةٍ حسناء ، فقال : لا أمّ لك ! عمدت إلى ناقةٍ تُفني أهلَ بيت من المسلمين ! ففعل ابنُ لبون^(١) ، أو ناقةٌ شصوص^(٢) !

وقيل لعمر : إن هاهنا رجلاً من الأخبارِ نصرانيّاً ، له بصر بالديوان ، لو اتَّخذته كاتباً ! فقال : لقد اتَّخذتُ إذاً بطانةً من دون المؤمنين !

قال ، وقد خطب الناس : والذي بعث محمداً بالحق لو أن جلا هلك ضياعاً بشطّ الفرات ، خشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب .

(١) ابنُ الليون : ولد الناقة إذا كان في العام الثاني .

(٢) الشصوص : الناقة الغليظة اللبن .

قال عبدُ الرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى بآل الخطاب نفسه ، مايعنى غيرها .

وكتب إلى أبي موسى : إنه لم يزل للناس وجوه من الأمر ، فأكرم مَنْ قبلك من وجوه الناس ، ويحسب المسلم الضعيف من بين القوم أن ينصف في الحكم وفي القسم .

أتى أعرابي عمر ، فقال : إن ناقتي بها نَقَبًا ودَبْرًا ، فاحملني ، فقال له : والله ما بعميرك من نَقَبٍ ^(١) ولا دَبْرٍ ^(٢) ، فقال :

أقسم بالله أبو حفصٍ عُمرُ مامسها من نَقَبٍ ولا دَبْرٍ

* فاغفر له اللهم إن كان فَجَرَ *

فقال عمر : اللهم اغفر لي ، ثم دعاه فحمله .

جاء رجل إلى عمر وكانت بينهما قرابة يسأله ، فزَبره ^(٣) وأخرجه ، فكلم فيه ، وقيل : يا أمير المؤمنين زبرته وأخرجته . قال : إنه سألتني من مال الله ، فما معذرتي إذا لقيته ملكاً خائفاً ؟ فلو سألتني من مالي !

ثم بعث إليه ألف درهم من ماله .

(١) نقب البعير : جحى ، وقيل : رقت أخفافه .

(٢) الدبر : إصابة البعير بالدبرة ، وهى قرحة من الرجل .

(٣) زبره : نهزه .

وكان يقول في عمّاله : اللهم إني لم أبعثهم ليأخذوا أموال المسلمين ، ولا ليفترّبوا .
أبشارهم ، مَنْ ظَلَمَ أميرُهُ فلا إمرة عليه دوني !

بينما عمر ذات ليلة يُعَسّ ، سمع صوت امرأة من سطح وهي تنشد :
تَطَاوَلَ هذا اللَّيْلُ وَاذْوَرَ جَانِبُهُ وليس إلى جَنِي خَلِيلٍ أَلَا عِبُهُ
فَوَاللّهِ لَوْلَا اللَّهُ تُخْشَى عَوَاقِبُهُ لَزُغِرِعَ من هَذَا السَّرِيرِ جَوَانِبُهُ
مَخَافَةُ رَبِّي وَالْحَيَاءُ يَصُدُّنِي وَأُكْرِمَ بَعْلِي أَنْ تُنَالَ مِرَاكِبُهُ
[وَلَكِنِّي أَخْشَى رَقِيئًا مَوْكَلًا بَأَنفُسِنَا لَا يَفْتَرُ الدَّهْرَ كَاتِبُهُ]^(١)
فقال عمر : لا حول ولا قوة إلا بالله ! ماذا صنعت يا عمر بنساء المدينة !

ثم جاء فضرب على حَفْصَةِ ابْنَتِهِ ، فقالت : ماجاء بك في هذه الساعة ؟ قال :
أخبريني كم تصبر المرأة المُفِيَّة عن بعلها ؟ قالت : أقصاه أربعة أشهر .
فلما أصبح كتب إلى أمرائه في جميع النواحي ألا تَجَمَّرَ^(٢) البعوث ، وألا يفسب رجلٌ
عن أهله أكثر من أربعة أشهر^(٣) .

وروى أسلم ، قال : كنتُ مع عمر ، وهو يُعَسُّ بالمدينة ، إذ سمع امرأة تقول
لبنتها : قومي يا بِنْتِي إلى ذلك الابن بعد المشرقين فامدّقيه^(٤) ، قالت : : أو ماعلمت ما كان
من عزيمة أمير المؤمنين بالأمس ؟ قالت : وما هو ؟ قالت : إنّه أمر مناديا فنادى ألا يشاب
الابن بالماء ، قالت : فإنك بموضع لا يراك أمير المؤمنين ولا منادى أمير المؤمنين ! قالت :

(١) من الرياض النضرة

(٢) تجمّر : تحبس في القزو

(٣) ابن الجوزي ٦٠ ، والرياض النضرة ٢ : ٥٨

(٤) امدّقيه ، أى اخلطيه بالماء .

والله ما كنت لأطيعه في الملاء ، وأعصيه في الخلاء - وعمر يسمع ذلك - فقال : يا أسلم ، اعرف الباب ، ثم مضى في عسّه ، فلما أصبح ، قال : يا أسلم ، امض إلى الموضع ، فانظر من القائلة ومن المقول لها ؟ وهل لها من بعل ؟

قال أسلم : فأنت الموضع ، فنظرت فإذا الجارية أتم ، وإذا المتكلمة بنت لها ، ليس لها رجل ..

فجئت فأخبرته ، فجمع عمر ولده ، وقال : هل يريد أحد أن يتزوج فأزوجه امرأة صالحة فتاة ، ولو كان في أيكم حركة إلى النساء لم يسبقه أحد إليها ؟ فقال عاصم ابنه : أنا ، فبعث إلى الجارية فزوجها ابنه عاصماً ، فولدت له بنتاً هي المكناة أمّ عاصم ، وهي أمّ عمر بن عبد العزيز بن مروان ،

حجّ عمر فلما كان بضيحان^(١) قال : لا إله إلا الله العليّ العظيم ، المعطى ما يشاء لمن يشاء ، أذكّر وأنا أرى إبل الخطاب بهذا الوادي في مئذنة صوف - وكان ظلاً يُتعبى إذا عملت ، ويضربني إذا قصرت - وقد أسيت اليوم وليس بيني وبين الله أحدٌ ثم تمثّل :

لا شيء مما يرى تبقى بشاشته	يبقى الإله ، ويرى المال والولد ^(٢)
لم تفر عن هرمز يوماً خزائنه	والخلد قد حاولت عاداً فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجري الرياح له	والإنس والجن فيما بينهما يرد
أين الملوك التي كانت منازلها	من كل أوب إليها راكب يقف
حوض هنالك مورود بلا كذب	لا بد من وزده يوماً كما وردوا

(١) ضيحان : موضع بناحية مكة .

(٢) الرمان النضرة ٢٠ : ٥٠ .

وروى محمد بن سيرين أن عمر في آخر أيامه اعتراه نسيان حتى كان ينسى عدد ركعات الصلاة ؛ فجعل أمامه رجلاً يأمّنه ، فإذا أومى إليه أن يقوم أو يركع ، فعل .

وسمع عمر منذئذ يشد قول طرفة :

فَلَوْلَا ثَلَاثٌ هُنَّ مِنْ عَيْشَةِ الْفَتَى وَجَدَّكَ لَمْ أَحِضْ مَتَى قَالَمَ عُودِي ^(١)
فَمَنْ سَبَقَ الْعَازِلَاتِ بِشَرْبَةِ كَمَيْتٍ مَتَى مَا تُعَلِّقُ بِالْمَاءِ تُزِيدِ ^(٢)
وَكَرَّمِي إِذَا نَادَى الْمُضَافُ مُحَبًّا كَسِيدِ الْقَضَا نَبَهْتَهُ الْمُتَوَسِّدِ ^(٣)
وَتَقْصِيرُ يَوْمِ الدَّجْنِ وَاللَّجْنُ مُعْجِبٌ بِهِكْنَةٍ تَحْتَ الطَّرَافِ الْمُدَدِ ^(٤)
فقال : وأنا لولا ثلاث هن من عيشة الفتى ، لم أحض متى قام عُودى ؛ أن أجاهد في سبيل الله ، وأن أضع وجهي في التراب لله ، وأن أجالس قوماً يلتقطون طيب القول كما يلتقط طيب التمر .

وروى عبد الله بن بريدة ، قال : كان عمر ربما يأخذ بيد الصبي ، فيقول : ادعُلى ، فإنك لم تُذنب بعد !

وكان عمر كثير المشاورة ، كان يشاور في أمور المسلمين حتى المرأة .

وروى يحيى بن سعيد ، قال : أمر عمر الحسين بن علي عليه السلام أن يأتيه

(١) المعاقبة - بشرح التبريزي ٨١ ، ٨٢ .

(٢) الكميت من الحمر : التي تضرب إلى السواد .

(٣) كرى : عطفي . والمخضب : من التعذيب ، وهو احديداب في وطني يدي الفرس . والسيد : الذئب . والفضا : شجر ، وذئابه أخبث الذئاب .

(٤) الدجن : الإلباس القيم السماء . والبهكنة : التامة الخلق .

في بعض الحاجة ، فلقى الحسين عليه السلام عبد الله بن عمر ، فسأله من أين جاء ؟ قال : استأذنت علي أبي فلم يأذن لي ، فرجع الحسين ولقيته عمر من الغد ، فقال : مامنك يا حسين أن تأتيني ؟ قال : قد أتيتك ، ولكن أخبرني ابنك عبد الله أنه لم يؤذن له عليك ، فرجعت ، فقال عمر : وأنت عندي مثله ! وهل أنبت الشعر على الرأس غيركم !

قال عمر يوما ، والناس حوله : والله ما أدري أليفة أنا أم ملك ! فإن كنت ملكاً ، فقد ورطت في أمر عظيم ، فقال له قائل : يا أمير المؤمنين إن بينهما فرقا ، وإنك إن شاء الله لعل خير ، قال : كيف ؟ قال (١) : إن الخليفة لا يأخذ إلا حقا ولا يضعه إلا في حق ، وأنت بحمد الله كذلك ، والملك يعسف الناس ويأخذ مال هذا فيعطيه هذا .

فسكت عمر وقال : أرجو أن أكونه .

وروى مالك عن نافع ، عن ابن عمر ، أن عمر تعلم سورة البقرة في اثنتي عشرة سنة ، فلما ختمها نحر جزوراً .

وروى أنس ، قال : كان يطرح لعمر كل يوم صاع من تمر ، فيأكله حتى حشفه .

وروى يوسف بن يعقوب اللجشون ، قال : قال لي ابن شهاب ولأخ لي وابن عم لنا ، ونحن صبيان أحداث : لا تحتقروا أنفسكم لحداثة أسنانكم ، فإن عمر كان إذا نزل به الأمر المضل ، دعا الصبيان فاستشارهم ، يبتغي حجة (٢) عقولهم .

(١) ب : « قلت » : والصواب ما أثبتته من أ .
(٢) ساقطة من ب .

وروى الحسن ، قال : كان رجل لا يزال يأخذ من لحيّة عمر شيئاً فأخذ يوماً من لحيته؛
فقبض على يده فإذا فيها بشيء ، فقال : إن الملق من الكذب ثم علاه بالدرة .

انقطع شسع نمل عمر ، فاسترجع ^(١) وقال : كلّ ماساءك فهو مصيبة .

وقف أعرابي على عمر ، فقال له :
يا بن خطابٍ جُرِيتَ الجَنَّةَ اكسُ بُنَيَّاتِي وأُمَّهَ
* أقسم بالله لتفعلنه *

فقال عمر : إن لم أفعل ، يكون ماذا ؟

قال :

* إذّا أبا حَفْصٍ لَأَمْضِيَنَّه *

فقال : إذا مضيت يكون ماذا ؟

قال :

تكون عن حالي لتُسألَنَّهُ يوم تكونُ الأعْطِيَاتُ جَنَّةَ
والواقف المسْئُولُ يُبْهَتَنَّهُ إِمّا إلى نارٍ وإِمّا جَنَّةَ

فبكى عمر ، ثم قال لعلامة : أعطه قيصى هذا لذلك اليوم ، لالِشعره ، والله ما أملك
ثوباً غيره .

وروى ابن عباس قال : قال لى عمر ليلة : أنشدنى لشاعر الشعراء ، قلت : ومن
هو ؟ قال : زهير الذى يقول :

(١) استرجع أى قال : لانا لله ولانا إليه راجعون .

إِذَا ابْتَدَرْتَ قَيْسُ بْنُ عَيْلَانَ غَايَةً مِنْ الْمَجْدِ مَنْ يَسْبِقُ إِلَيْهَا يَسْوَدُ^(١)
فَأَنشَدَتْهُ حَتَّى بَرَّقَ الْفَجْرُ ، فَقَالَ : إِلَيْهَا الْآنَ ! اقْرَأْ يَا عَبْدَ اللَّهِ ، قُلْتَ : مَا أَقْرَأُ ؟ قَالَ :
سُورَةُ الْوَاقِعَةِ .

سَمِعَ عُمَرَ صَوْتَ بَكَاءٍ فِي بَيْتٍ ، فَدَخَلَ وَبِيَدِهِ الدَّرَّةُ ، فَقَالَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا حَتَّى بَلَغَ
النَّائِخَةَ ، فَضَرَبَهَا حَتَّى سَقَطَ خَارَهَا ، ثُمَّ قَالَ لِفَلاَمِهِ : اضْرِبِ النَّائِخَةَ ، وَيْلَكَ ! اضْرِبِهَا
فَإِنَّهَا نَائِخَةٌ لَأَحْرَمَةٍ لَهَا ، لِأَنَّهَا لَا تَبْكِي بِشَجْوِكُمْ ، إِنَّهَا تَهْرِيْقُ دُمُوعَهَا عَلَى أَخَذِ دِرَاهِمِكُمْ ،
إِنَّهَا تُوْذِي أَمْوَالَكُمْ فِي قُبُورِهِمْ ، وَأَحْيَاءَكُمْ فِي دُورِهِمْ ، إِنَّهَا تَنْهَى عَنِ الصَّبْرِ ، وَقَدْ أَمَرَ
اللَّهُ بِهِ ، وَتَأْمُرُ بِالْجَزَعِ وَقَدْ نَهَى اللَّهُ عَنْهُ .

وَمِنْ كَلَامِهِ : مَنْ اتَّجَرَ فِي شَيْءٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَلَمْ يَصِبْ فِيهِ ؛ فَلْيَتَحَوَّلْ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ .
وَمِنْ كَلَامِهِ : لَوْ كُنْتُ تَاجِرًا لَأَخْتَرْتُ عَلَى الْعَطْرِ شَيْئًا ، إِنْ فَاتَنِي رِيْحُهُ لَمْ يَفْتِنِي رِيْحُهُ .
وَمِنْ كَلَامِهِ : تَفَقَّهُوا قَبْلَ أَنْ تَسْوَدُّوا .
وَمِنْ كَلَامِهِ : تَعَلَّمُوا الْمِهْنَةَ ، فَإِنَّهُ يَوْشُكُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَحْتَاجَ إِلَى مِهْنَتِهِ .
وَمِنْ كَلَامِهِ : مَكْسَبَةٌ فِيهَا بَعْضُ الدَّنَاءَةِ ، خَيْرٌ مِنْ مَسْأَلَةِ النَّاسِ .
وَمِنْ كَلَامِهِ : أَعْقِلُ النَّاسِ أَعْدَرُهُمْ لَهْمُ .

رَأَى عُمَرَ نَاسًا يَتَّبِعُونَ أَبِي بَنٍ كَعْبَ ، فَرَفَعَ عَلَيْهِ الدَّرَّةَ ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، اتَّقِ
اللَّهَ ، قَالَ : فَمَا هَذِهِ الْجُلُوعُ خَلْفَكَ يَا بَنَ كَعْبَ ! أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهَا فِتْنَةٌ لِلتَّبَوُّعِ ، مَذَلَّةٌ لِلتَّابِعِ .

جَاءَ رَجُلٌ إِلَى عُمَرَ ، فَقَالَ : إِنَّ بِنْتًا لِي وَارِبَتْهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَاسْتَخْرَ جَنَاهَا قَبْلَ أَنْ

تموت ، فأدركت معنا الإسلام ، فأسلمت ، ثم قارفت حداً من حدود الله ، فأخذت الشفرة لتذبح نفسها ، فأدركنها وقد قطعت بعض أوداجها ، فداويناها حتى برئت ، وتابت توبةً حسنة ، وقد خطبها قوم ، فأخبرهم بالذي كان من شأنها ؟ فقال عمر : أتعمد إلى ماستره الله فتبديه ، والله لئن أخبرت بشأنها أحداً لأجعلتك نكالا لأهل الأمصار ! أنكحها نكاح العفيفة السليمة .

أسلم غيلان بن سلمة الثقفي عن عشر نسوة ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : اختر منهن أربعاً ، وطلق ستاً ، فلما كان على عهد عمر طلق نساء الأربع ، وقسم ماله بين بنييه ، فبلغ ذلك عمر ، فأحضره فقال له : إني لأظن الشيطان فيما يسترق من السمع ، سمع بموتك فقدوه في نفسك ، ولعلك لا تمكث إلا قليلاً ! وإيم الله لتراجعن نساءك ، ولترجعن في مالك ، أو لأورثنهن منك ، ولأمرن بقبرك فيرجم ، كما رجيم قبر أبي رغال .

وقال عمر : إن الجزف في المعيشة أخوف عندى عليكم من العيال ، إنه لا يبقى مع الفساد شيء ، ولا يقل مع الإصلاح شيء .

وكان عمر يقول : أدّبوا الخيل ، وانتضّلوا ، واقعدوا في الشمس ، ولا يجاورنكم الخنازير ، ولا تقعدوا على مائدة يشرب عليها الخمر ، أو يرفع عليها الصليب ، وإياكم وأخلاق العجم ، ولا يحل لمؤمن^(١) أن يدخل الحمام إلا مؤتزراً ، ولا لامرأة أن تدخل الحمام إلا من ستم ، فإذا وضعت المرأة خمارها في غير بيت زوجها ، فقد هتكت السرّ بينها وبين الله تعالى .

وكان يكره أن يتزيا الرجال بزي النساء ، وألا يزال الرجل يرى مكتحلا مُدَّهَنًا ،
وأن يحفّ لحيتته وشاربه كما تحفّ المرأة ..

سمع عمر سائلا يقول : مَنْ يَعِشِي السَّائِلَ ؟ فقال : عَشَوْا سَائِلَكُمْ ، ثم جاء إلى دار
إِبِل^(١) الصَّدَاقَةَ يَعِشِيهَا ، فسمع صوته مرة أخرى : مَنْ يَعِشِي السَّائِلَ ؟ فقال : أَلَمْ أَمُرْكُمْ أَنْ
تَعِشُوهُ ! فقالوا : قَدْ عَشَيْنَاهُ ، فَأَرْسَلْ إِلَيْهِ عَمْرٌ ، وَإِذَا مَعَهُ جِرَابٌ مَمْلُوءٌ خَبْزًا ، فَقَالَ : إِنَّكَ
لَسْتَ سَائِلًا ، إِنَّمَا أَنْتَ تَاجِرٌ تَجْمَعُ لِأَهْلِكَ ، فَأَخَذَ بَطَرَفِ الْجِرَابِ فَنَبَذَهُ بَيْنَ يَدَيْ إِبِلَ .

وقال عمر : مَنْ مَزَحَ اسْتُخِفَّ بِهِ ، وَقَالَ : أَتَدْرُونَ لِمَ سَمِيَ الْمَزَاحُ مُزَاحًا ؟ لِأَنَّهُ أَزَاحَ
النَّاسَ عَنِ الْحَقِّ .

ومن كلامه : لَنْ يَعْطَى أَحَدٌ بَعْدَ الْكُفْرِ بِاللَّهِ شَرًّا مِنْ زَوْجَةٍ حَدِيدَةِ اللِّسَانِ ، سَيِّئَةِ
الْخُلُقِ ، عَقِيمٍ . وَلَنْ يَعْطَى أَحَدٌ بَعْدَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ خَيْرًا مِنْ زَوْجَةٍ كَرِيمَةٍ وَدُودٍ وَكُودٍ ،
حَسَنَةِ الْخُلُقِ .

وكان يقول : إِنْ شَقَاشَقَ الْكَلَامُ مِنْ شَقَاشَقِ اللِّسَانِ ، فَأَقْلَبُوا مَا اسْتَطَعْتُمْ .
ونظر إلى شاب قد نكس رأسه خشوعا ، فقال : يَا هَذَا ، ارْفَعْ رَأْسَكَ ، فَإِنَّ الْخُشُوعَ
لَا يَزِيدُ عَلَى مَا فِي الْقَلْبِ ، فَمَنْ أَظْهَرَ لِلْخُلُقِ خُشُوعًا فَوْقَ مَا فِي قَلْبِهِ ، فَإِنَّمَا أَظْهَرَ نِفَاقًا .
ومن كلامه : إِنْ أَحَبَّكُمْ إِلَيْنَا مَا لَمْ نَرْكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَسْمَاءً ، فَإِذَا رَأَيْنَاكُمْ فَأَحَبَّكُمْ إِلَيْنَا
أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقًا ، فَإِذَا بَلَوْنَاكُمْ فَأَحَبَّكُمْ إِلَيْنَا أَعْظَمَكُمْ أَمَانَةً ، وَأَصْدَقَكُمْ حَدِيثًا .

وكان يقول : لَا تَنْظُرُوا إِلَى صَلَاةِ امْرِئٍ وَلَا صِيَامِهِ ، وَلَكِنْ انظُرُوا إِلَى
عَقْلِهِ وَصِدْقِهِ .

(١) ب : « أهل » تحريف ، وصوابه من أ .

ومن كلامه: إنَّ العبد إذا تواضع لله رفع حَكَمَتَهُ^(١)، وقال له: انتفض نعشك الله! فهو في نفسه صغير، وفي أعين الناس عظيم. وإذا تكبر وعتا وهَضَهُ^(٢) الله إلى الأرض، وقال: اخسأ، خَسَأَكَ الله! فهو في نفسه عظيم، وفي أعين الناس حقير، حتى يكون عندهم أحقر من الخنزير.

وقال: الإنسان لا يتعلَّم العلم لثلاث، ولا يتركه لثلاث: لا يتعلَّمه ليمارى به، ولا ليباهى به، ولا ليرأى به. ولا يتركه حياء من طلبه، ولا زهادة فيه، ولا رضا بالجهل بدلا منه.

وقال: تعلَّموا أنسابكم تَصِلُوا أرحامكم.
وقال: إني لا أخاف عليكم أحد الرُّجُلين، مؤمنا قد تبين إيمانه، وكافرا قد تبين كفره، ولكن أخاف عليكم منافقا يتعوذ بالإيمان ويعمل بكفره.
ومن كلامه: إن الرَّجَف^(٣) من كثرة الزنا، وإن قحوط المطر من قضاة السوء وأئمة الجور.

وقال في النساء: استعينوا عليهنَّ بالعرى، فإن إحداهنَّ إذا كثرت ثيابها، وحسنت زينتها، أعجبها الخروج.
ومن كلامه: إنَّ الجبَّت السَّحر، وإنَّ الطاغوت الشيطان، وإنَّ الجبن والشجاعة غرائز تكون في الرجال، يقاتل الشجاع عنَّ لا يعرف، ويفرَّ الجبان عن أمه، وإن كرم الرجل دينه، وحسب الرجل خلقه، وإن كان فارسياً أو نبطياً.
وقال: تفهموا العربية، فإنها تشد العقل، وتزيد في المروءة.

وقال: النساء ثلاث: امرأة هينة لينة عفيفة، ودود ولود، تعين بعلمها على الدَّهر، ولا تعين الدَّهر على بعلمها، وقدما تجدها. وأخرى وعاء للولد لا تزيد على ذلك شيئا، والثالثة غلَّ قَمَلٌ، يجعله الله في عنق من يشاء، وينزعه إذا شاء.

(١) الحكمة، بالتحريك: الشأن والأمر. (٢) الوهضة: المطمئن من الأرض (٣) الرجفة: الاضطراب.

والرجال ثلاثة : رجل عاقلٌ يُوردُ الأمور ويُصدِرُها، فيحسِنُ إيراداً وإصداراً، وآخر يشاورُ الرجال ، ويقف عند آرائهم ، والثالث حائر بائر، لا ياتمر رشداً، ولا يُطيع مرشداً.

وقال : ما يمنعكم إذا رأيتم السَّفيه يخرق أعراضَ النساء أن تُعزَّبوا ^(١) عليه ، قالوا : نخاف لسانه ، قال : ذاك أدنى آلا تكونوا شهداء .

ورأى رجلاً عظيمَ البطن ، فقال : ماهذا ؟ قال : بركة من الله .

وقال : إذا رُزقت مودة من أخيك فتشبَّث بها ما استطعت .

وقال لقوم يحصدون الزرع : إنَّ الله جعل ما أخطأت أيديكم رحمةً لفقرائكم ، فلا تعودوا فيه .

وقال : ما ظهرت قطُّ نعمة على أحدٍ إلا وجدت له حاسداً ، ولو أن اسراً كان أقوم من قديح ، لوجدت له غامراً .

وقال : إياكم والدَّخ ، فإنه الذَّبح .

وقال لقبيصة بن ذؤيب : أنت رجل حديث السن ، فصيح اللسان . وإنه يكون في الرجل تسعة أخلاق حسنة ، وخلق واحد سيئ ، فيغلب الواحد التسعة ، فتوقَّ عثرات ^(٢) السيئات .

وقال : بحسب امرئ من الفئ أن يؤذى جليسه ، أو يتكلَّف مالا يعنيه ، أو يعيب الناس بما يأتي مثله ، ويظهر له منهم ما يخفى عليهم من نفسه .

وقال : احترسوا من الناس بسوء الظن .

وقال في خطبة له : لا يعجبنيكم من الرجل طنطنتته ، ولكن من أدَّى الأمانة ، وكفَّ عن أعراض الناس فهو الرجل .

وقال : الراحة في مُهاجرة خلطاء السوء .

(١) الترييب : أن يتكلم بالكلمة فيفتش فيها أو يخطئ ، فيقول له الآخر : ليس كذا ولكنه كذا الذي هو أصوب . كذا فسرهُ صاحبُ اللسان ، وذكر قول عمر .

(٢) ب : « عشرات » ؛ وما أثبتته من أ .

وقال : إنَّ لؤمًا بالرجل أن يرفع يديه من الطعام قبل أصحابه .
 وأثنى رجل على رجل عند عمر ، فقال له : أعاملته ؟ قال : لا ، قال : أصحبته في السفر ؟
 قال : لا ، قال : فأنت . إذا القائل مالا يعلم .
 وقال : لأن أموت بين شعبي رَحلى ، أسعى في الأرض ، أبتنى من فضل الله كفاف
 وجهي ، أحب إلى من أن أموت غازيًا .

وكان عمر قاعدًا والدرة معه ، والناس حوله ، إذ أقبل الجارود العامري ، فقال رجل :
 هذا سيّد ربيعة ، فسمعها عمر ومن حوله ، وسمعها الجارود ، فلما دنا منه ، خفقه بالدرة !
 فقال : مالي ولك يا أمير المؤمنين ! قال : ويلك ! سمعتها ! قال : وسمعتها فيه ! قال :
 خشيت أن تخالط القوم ويقال : هذا أمير ، فأحببت أن أطأ طي منك .
 وقال : من أحب أن يصل أباه في قبره ، فليصل إخوان أبيه من بعده .
 وقال : إن أخوف ما أخاف أن يكون ، إعجاب المرء برأيه ، فمن قال : إني عالم
 فهو جاهل ، ومن قال : إني في الجنة فهو في النار .

وخرج للصبح فسمع غناء راكبٍ بفتى وهو محرم ، فقيل : يا أمير المؤمنين ، ألا تنهاه
 عن الغناء وهو محرم ؟ فقال : دعوه ، فإن الغناء زاد الراكب .

وقال : يُثَغِرُ^(١) الغلام لسبع ، ويحتمل لأربع عشرة ، وينتهي طوله لإحدى وعشرين ،
 ويكمل عقله لثمان وعشرين ، ويصير رجالًا كاملاً لأربعين .

(١) أثنى الغلام : أى سقطت أسنانه .

وروى سعيد بن المسيّب ، أنّ عمر لما صدر من الحجّ في الشهر الذي قتل فيه ، كَوْمَ كَوْمَةً من بطحاء ، وألقى عليها طرف ثوبه ، ثمّ استلقى عليها ؛ ورفع يديه إلى السماء ، وقال : اللهمّ كبرّت سنّي ، وضعفت قوّتي ، وانتشرت^(١) رعيتي ، فاقبضني إليك غير مضّيع ولا مفترط .

ثمّ قدم المدينة فخطب الناس ، فقال :

أيّها النّاس قد فرضتُ لكم الفرائض ، وسنّنتُ لكم السنن ، وتركتم على الواضحة ، إلّا أن تضلّوا بالناس يمينا وشمالا . إيّاكم أن تنتهوا عن آية الرّجم ، وأن يقول قائل : لانجد ذلك حدّا في كتاب الله ، فقد رأيت رسول الله رجم وربّنا بعده ، ولولا أن يقول الناس : إنّ ابن الخطّاب أحدث آية في كتاب الله لكتبناها ، ولقد كنا نقرؤها : « والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتّة » ؛ فبا انسلخ ذو الحجّة حتى طعن .

دُفع إلى عمر صكّ^(٢) محمّله في شعبان ، فقال : أيّ شعبان ؟ الذي مضى أم الذي نحن فيه ؟ ثمّ جمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال : ضعوا للنّاس تاريخا يرجعون إليه ، فقال قائل منهم : اكتبوا على تاريخ الرّوم ، فقيل : إنّه يطول ، وإنّه مكتوب من عهد ذى القرنين . وقال قائل : بل اكتبوا على تاريخ الفرس ، [فقيل إن الفرس]^(٣) كلّما قام ملك طرحوا ما كان قبله . فقال على عليه السلام : اكتبوا تاريخكم منذ خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من دار الشّرك إلى دار النّصرة ، وهى دار الهجرة ، فقال عمر : نعم ما أشرت به ، فكتب للهجرة ، بعد مضى سنتين ونصف من خلافة عمر^(٤) .

(١) انتشرت الرعية : أى تفرقت في شتى النواحي .

(٢) الصك : كتاب الإقرار بالمال .

(٣) نكلمة من تاريخ الطبرى .

(٤) الخبر في تاريخ الطبرى ٢ : ٢٥٣ (الحسينية) ، وفيه : « فاجتمع رأيهم على أن ينظروا كم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، فوجدوه عشر سنين ، فكتب التاريخ من هجرة النّبي صلى الله عليه وسلم » .

قال المؤرخون : إنَّ عمر أوَّل مَنْ سَنَّ قيام رمضان في جماعة ، وكتب به إلى البلدان ، وأقام الحدَّ في الحر ثمانين ، وأحرق بيت رُوَيْشِدِ الثَّقَفِيِّ ، وكانَ نَبَازاً ، وأقام في عمله بنفسه . وأوَّل مَنْ حمل الدَّرَّةَ وأدَّب بها . وقيل بعده : كانت دِرَّةَ عمر أهْيَبَ من سيف الحجاج .

وهو أوَّل مَنْ فُتِحَ الفُتُوحُ ، ففتح العراق كلَّه : السَّوَادَ والجبال وأذَرَيجانَ ، وكوثر البصرة ، وكوثر الكوفة والأهواز ، وفارس ، وفتح الشَّامَ كلها ما خلا أجنادين ، فإِنَّهَا فُتِّحَتْ في خلافة أبي بكر . وفتح كُور الجزيرة والموصل ومصر والإسكندرية ، وقتله أبو لؤلؤة وخيله على الرِّسَى .

وهو أوَّل مَنْ مَسَّحَ السَّوَادَ ووضع الخراج على الأرض ، والجزيرة على جماجم أهل الذِّمَّةِ فيما فتحه من البلدان ، وبلغ خراجُ السَّوَادِ في أيامه مائة ألف ألف درهم وعشرين ألف ألف درهم بالوافية ، وهي وزن الدِّينار من الذهب . وهو أوَّل مَنْ مَصَّرَ الأمصار ، وكَوَّفَ الكوفة^(١) ، وبَصَّرَ البصرة ، وأنزلها العرب ، وأوَّل مَنْ استقضى القُضَاةَ في الأمصار ، وأوَّل مَنْ دَوَّنَ الدَّوَاوين ، وكتب النَّاسَ على قبائلهم ، وفرضَ لهم الأعطية ، وهو أوَّل مَنْ قاسمَ العَمَّالَ وشاطرهم أموالهم ، وكان يستعمل قومًا ويدع أفضلَ منهم لبصرهم بالعمل ، وقال : أكره أن أدنَّس هؤلاء بالعمل . وهو الَّذِي هَدَمَ مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله ، وزاد فيه ، وأدخل دار العباس فيما زاد . وهو الَّذِي أخرج اليهود من الحجاز ، وأجَّلَاهم عن جزيرة العرب إلى الشَّامِ . وهو الَّذِي فُتِحَ البيت المقدس ، وحضرَ الفتح بنفسه . وهو الَّذِي آخرَ المقام إلى موضعه اليوم ، وكان مُلَصِّقًا بالبيت . وحجَّ بنفسه خلافتَه كلها إلَّا السَّنةَ الأولى ، فإنَّه استخلف على الحجَّ عبد الرحمن بن عوف . وهو

(١) في اللسان عن الفضل : يقال : كوفوا هذا الرمل ، أى نحوه ، ومنه سميت الكوفة .

الَّذِي جَاءَ بِالْحَصَى مِنَ الْعَقِيقِ فَبَسَطَهُ فِي مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ ، وَكَانَ النَّاسُ إِذَا رَفَعُوا رُءُوسَهُمْ مِنَ السُّجُودِ نَفَضُوا أَيْدِيَهُمْ .

وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَدِمْتُ عَلَى عَمْرِو بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَوْسَى بِثَمَانِ مِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، فَقَالَ لِي : بِمَاذَا قَدِمْتَ ؟ قُلْتُ : بِثَمَانِ مِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، فَقَالَ : أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ يَمَانٍ أَحَقُّ ، وَيَحْكُ ! إِنَّمَا قَدِمْتَ بِثَمَانِينَ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، فَقُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّمَا قَدِمْتُ بِثَمَانِ مِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، فَجَعَلَ يَعْجَبُ وَيَكْرَهُهَا ، فَقَالَ : وَيَحْكُ ! وَكَمْ ثَمَانِ مِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ؟ فَعَدَدْتُ مِائَةَ أَلْفٍ ، وَمِائَةَ أَلْفٍ حَتَّى بَلَغْتُ ثَمَانِيَةَ ، فَاسْتَعْظَمْتُ ذَلِكَ ، وَقَالَ : أَطِيبُ هُوَ وَيَحْكُ ! قُلْتُ : نَعَمْ ، فَبَاتَ عَمْرُ لَيْلَتِهِ تِلْكَ أَرْقًا حَتَّى إِذَا نُودِيَ لَصَلَاةِ الصُّبْحِ ، قَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ : مَانِمْتَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ ، قَالَ : وَكَيْفَ أَنَامَ وَقَدْ جَاءَ النَّاسَ مَا لَمْ يَأْتِهِمْ مِثْلُهُ مِنْذُ قَامَ الْإِسْلَامُ ، فَظَنَنْتُ الْمَرْأَةَ أَنَّهَا دَاهِيَةٌ ، فَسَأَلْتُهُ ، فَقَالَ : مَا لَ جَمٍّ ، حَمَلَهُ أَبُو مَوْسَى ، قَالَتْ : فَمَا بِكَ ؟ قَالَ : مَا يُؤْمِنُنِي لَوْ مِتَّ وَهَذَا الْمَالُ عِنْدِي لَمْ أَضَعُهُ فِي حَقِّهِ ، فَخَرَجَ يَصَلِّي الصُّبْحَ ، وَاجْتَمَعَ النَّاسُ إِلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُمْ : قَدْ رَأَيْتُ فِي هَذَا الْمَالِ رَأْيًا فَأَشِيرُوا عَلَيَّ ، رَأَيْتُ أَنَّ أَكِيلَهُ لِلنَّاسِ بِالْمَسْكِيَالِ ، قَالُوا : لَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ : لَا بَلْ أَبْدَأُ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبِأَهْلِهِ ، ثُمَّ الْأَقْرَبُ فَالْأَقْرَبُ ، فَبَدَأَ بِنَبِيِّ هَاشِمٍ ، ثُمَّ بِنَبِيِّ الْمُطَّلَبِ ، ثُمَّ بِعَبْدِ شَمْسٍ وَنُوفَلٍ ، ثُمَّ بِسَائِرِ بَطُونِ قُرَيْشٍ .

قَسَمَ عَمْرُ مَرُوطًا بَيْنَ نِسَاءِ الْمَدِينَةِ فَبَقِيَ مِرْطٌ^(١) جَدِيدٌ لَهُ قَتَالَ بَعْضُ مَنْ عِنْدَهُ : أَعْطَى هَذَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ابْنَةَ رَسُولِ اللَّهِ الَّتِي عِنْدَكَ - يَعْنُونَ أُمَّ كُلثُومَ ابْنَةَ عَلِيٍّ عَلَيْهِ

(١) المِرْطُ ، بِالْكَسْرِ : كِسَاءٌ مِنْ صُوفٍ أَوْ خَزٍّ أَوْ كَتَانٍ يُؤْتَرُّ بِهِ ، وَبِمَا تَلْقِيهِ الْمَرْأَةُ عَلَى رَأْسِهَا وَتَتَنَفَّعُ بِهِ .

السلام - فقال : أمّ سليط أحقّ به ، فإنها بمنّ بايع رسول الله صلى عليه وسلم ، وكانت تزفّر لنا^(١) [القرب]^(٢) يوم أُحد .

وروى زيد بن أسلم عن أبيه ، قال : خرجت مع عمر إلى السوق ، فلحقته امرأة شابة ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، هلك زوجي ، وترك صبيّةً صفراء لا يُنضحون كراعا^(٣) ، لا زرع لهم ولا ضرع ، وقد خشيت عليهم الضيعة ، وأنا ابنه خفاف بن أسماء الغفاري ، وقد شهد أبي الحديديّة . فوقف عمر معها ولم يمض ، وقال : مرحبا بنسيب قريب ! ثم انصرف إلى بعير ظهير^(٤) كان مربوطا في الدار ، فحمل عليه غرارتين ملاءها طعاما ، وجعل بينهما نفقة وثيابا ، ثم ناولها خطامه وقال : اقتاديه فلن يفتي هذا حتى يأتيكم الله بخير . فقال له رجل : لقد أكرّث لها يا أمير المؤمنين ! فقال : شكلك أملك ! والله لكأني أرى أبا هذه وأخاها ، وقد حاصرا حصنا فافتتحاه . فافترقنا ، ثم أصبحنا نستقرئ سُهْمَانًا فيه .

وروى الأوزاعي أن طلحة تبع عمر ليلة ، فرآه دخل بيتا ثم خرج ، فلما أصبح ذهب طلحة إلى ذلك البيت ، فرأى امرأة عمياء مقعدة ، فقال لها : ما بال رجل أتك الليلة ؟ قالت : إنّه رجل يتعاهدني منذ كذا وكذا ، يأتيني بما يصلحني ، فقال طلحة : شكلك أملك يا طلحة ! تريد تنبّع عمر !

خرج عمر إلى الشام ، حتى إذا كان ببعض الطريق ، لقيه أمراء الأجناد : أبو عبيدة ابن الجراح وأصحابه ، فأخبروه أنّ الرباء قد وقع بالشّام ، فقال لابن عباس : ادعُ إلى المهاجرين ، فدعاهم فسألهم ، فاختلفوا عليه ، فقال بعضهم : خرجت لأمر ولا نرى أن

(١) تزفر القرب : أي تحمل القرب مملوءة بالماء لتسقي الناس . نهاية ابن الأثير واللسان - زفر .

(٢) الكزاع : مستدق الساق : ويقال للضعيف الدفاع

(٣) من اللسان والنهياية .

(٤) بعير ظهير : قوى .

عن نفسه : ما ينضح كراعا .

ترجع عنه. وقال بعضهم : معك بقية الناس وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء ، فقال : ارتفعوا عني ، ثم قال لابن عباس : ادعُ لي الأنصار ، فدعاهم فاستشارهم ، فاختلفوا عليه اختلاف المهاجرين ، فقال لابن عباس : ادعُ لي مَنْ كان من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح ، فدعاهم فقالوا بأجمعهم : نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء ، فنادى عمر في الناس : إني مُصْبِحٌ على ظَهْرٍ ، فأصبحوا عليه ، فقال له أبو عبيدة بن الجراح : أفرارا من قَدَرِ الله تعالى ! فقال عمر : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ! نعم نَفَرٌ من قَدَرِ الله إلى قَدَرِ الله ، أرايت لو كان لك إبلٌ فهبطت وادياً له عُذْوَتَان ، إحداهما خِصْبَةٌ ، والأخرى جَذْبَةٌ ، أليس إن رعيت الخِصْبَةَ رعيتها بقدر الله ، وإن رعيت الجَذْبَةَ رعيتها بقدر الله ! فجاء عبد الرحمن بن عوف وكان متغيباً في بعض حاجته - فقال : إن عندي من هذا علماً ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا سمعتم به بأرضٍ فلا تُقدِّموا عليه ، وإذا وقع بأرضٍ وأتم بها فلا تخرجوا فرارا منه » . فحمد عمرُ الله عزَّ وجلَّ وانصرف إلى المدينة .

وروى ابن عباس ، قال : خرجت مع عمر إلى الشام في إحدى خرجاته ، فانفرد يوماً يسير على بعيره فاتبعته ، فقال لي : يابن عباس ، أشكو إليك ابنَ عَمِّكَ ، سألتُه أن يخرج معي فلم يفعل ، ولم أزل أراه واجداً ، فيمَ تظنَّ موجدته ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، إنك لتعلم ، قال : أظنه لا يزال كثيباً لغوت الخلافة^(١) ، قلت : هو ذاك ، إنه يزعم أن رسول الله أراد الأمر له ، فقال : يابن عباس ، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمر له فكان ماذا إذا لم يرد الله تعالى ذلك ! إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أمراً^(٢) ، وأراد

(٢) : ١ : « ذلك » .

(١) كذا في ، وفي ١ : « على الخلافة » .

الله غيره ، فنفذ مراد الله تعالى ولم ينفذ مرادُ رسوله ، أو كلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ! إنه أراد إسلامَ عمه ولم يُرِده الله فلم يسلم !
وقد رُوي معنى هذا الخبر بغير هذا اللفظ ، وهو قوله : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يذكره للأمر في مرضه ، فصدته عنه خوفا من الفتنة ، وانتشار أمر الإسلام ، فعلم رسول الله مافى نفسه وأمسك ، وأبى الله إلا إمضاء ما حتم .

وحدثني الحسين بن محمد السني ، قال : قرأتُ على ظهر كتاب ، أن عمر نزلت به نازلة ، فقام لها وقعد ، وترنح لها وتقطر^(١) ، وقال لمن عنده : معشرَ الحاضرين ، ما تقولون في هذا الأمر ؟ فقالوا : يا أمير المؤمنين أنت المفزع والمنزع ، فغضب وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾^(٢) ، ثم قال : أما والله إني وإياكم لنعلم ابن بجدتها والخيرَ بها ، قالوا : كأنك أردت ابن أبي طالب ! قال : وأنى يعدل بي عنه ، وهل طفحت حرّة مثله ! قالوا : فلو دعوت به يا أمير المؤمنين ! قال : هيهات ! إن هناك شمخاً من هاشم ، وأثرة من علم ، ولحمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يؤتى ولا يأتي ، فامضوا بنا إليه . فانقصوا نحوه^(٣) وأفضوا إليه ، فالفوه في حائط له ، عليه تَبَان^(٤) ، وهو يتركل^(٥) على مسحاته ، ويقرأ : ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾^(٦) إلى آخر السورة ، ودموعه تهيم على خديه ، فأجهش الناس لبكائه فبكوا ، ثم سكّت وسكتوا ، فسأله عمر عن تلك الواقعة فأصدر جوابها ، فقال عمر : أما

(١) تقطر : شمع برأسه كبراً .

(٢) سورة الأحزاب ٧٠ .

(٣) انقصوا نحوه : اجتمعوا .

(٤) التبان : سراويل صفيـر .

(٥) يتركل على مسحاته : أى يضربها برجله لتغيب في الأرض . والمسحاة : ما يسحق به الطين عن الأرض ؛ أى يحرف .

(٦) سورة القيامة ٣٦ .

والله لقد أَرادك الحقّ ، ولكن أبى قومك ، فقال : يا أبا خَفْص ، خَفَضْ عليك من هنا ومن هنا ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴾ ^(١) ، فوضع عمر إِمَاحِدَى يَدَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى ، وَأَطْرَقَ إِلَى الْأَرْضِ ، وَخَرَجَ كَأَنَّمَا يَنْظُرُ فِي رَمَادٍ .

قلت : أَجْدَرُ بِهَذَا الْخَبَرِ أَنْ يَكُونَ مَوْضُوعًا ، وَفِيهِ مَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ ، مِنْ كَوْنِ عُمَرَ آتَى عَلِيًّا يَسْتَفْتِيهِ فِي الْمَسْأَلَةِ ، وَالْأَخْبَارُ كَثِيرَةٌ بِأَنَّهُ مَا زَالَ يَدْعُوهُ إِلَى مَنْزِلِهِ وَإِلَى الْمَسْجِدِ ، وَأَيْضًا فَإِنَّ عَلِيًّا لَمْ يَخَاطَبْ عُمَرَ مِنْذُ وَلِيَ الْخِلَافَةَ بِالْكُنْيَةِ ، وَإِنَّمَا كَانَ يَخَاطَبُهُ بِاسْمِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، هَكَذَا تَنْطِقُ كُتُبُ الْحَدِيثِ وَكُتُبُ السِّيَرِ وَالتَّوَارِيخِ كُلُّهَا .

وَأَيْضًا فَإِنَّ هَذَا الْخَبَرَ لَمْ يُسْنَدْ إِلَى كِتَابٍ مُعَيَّنٍ ، وَلَا إِلَى رَاوٍ مُعَيَّنٍ ، بَلْ ذَكَرَ ذَلِكَ أَنَّهُ قَرَأَهُ عَلَى ظَهْرِ كِتَابٍ ، فَيَكُونُ مَجْهُولًا ، وَالْحَدِيثُ الْمَجْهُولُ غَيْرُ الصَّحِيحِ .

فَأَمَّا ثَنَاءُ عُمَرَ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَصَحِيحٌ غَيْرُ مَنْكَرٍ ، وَفِي الرِّوَايَاتِ مِنْهُ الْكَثِيرُ الْوَاسِعُ ، وَلَكِنَّا أَنْكَرْنَا هَذَا الْخَبَرَ بِعَيْنِهِ خَاصَّةً ، وَقَدْ رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا ، قَالَ : دَخَلْتُ عَلَى عُمَرَ يَوْمًا فَقَالَ : يَا ابْنَ الْعَبَّاسِ ، لَقَدْ أَجْهَدَ هَذَا الرَّجُلُ نَفْسَهُ فِي الْعِبَادَةِ حَتَّى نَحَلَّتْهُ رِيَاءٌ . قُلْتُ : مَنْ هُوَ ؟ فَقَالَ : هَذَا ابْنُ عَمِّكَ - يَعْنِي عَلِيًّا - قُلْتُ : وَمَا يَقْصِدُ بِالرِّيَاءِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ : يَرْشَحُ نَفْسَهُ بَيْنَ النَّاسِ لِلْخِلَافَةِ ، قُلْتُ : وَمَا يَصْنَعُ بِالرَّشِيحِ ! قَدْ رَشَحَهُ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَصُرِفَتْ عَنْهُ . قَالَ : إِنَّهُ كَانَ شَابًّا حَدَثًا ، فَاسْتَصْفَرَتِ الْعَرَبُ سُنَّةً ، وَقَدْ كَمَلَ الْآنَ ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا إِلَّا بَعْدَ الْأَرْبَعِينَ ! قُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَمَّا أَهْلُ الْحِجَى وَالنَّهْيِ فَإِنَّهُمْ مَا زَالُوا يَعُدُّونَهُ كَامِلًا مِنْذُ رَفَعَ اللَّهُ مَنَارَ الْإِسْلَامِ ، وَلَكِنَّهُمْ يَعُدُّونَهُ مُحْرُومًا تَجْدُودًا ، فَقَالَ : أَمَّا إِنَّهُ سَلِيلُهَا بَعْدَ هِيَاظٍ وَمِيطَاطٍ ^(٢) ، ثُمَّ تَزَلَّ فِيهَا قَدَمُهُ ، وَلَا يَقْضِي مِنْهَا أَرْبَةَ ، وَلَتَكُونَنَّ شَاهِدًا ذَلِكَ يَا عَبْدَ اللَّهِ ، ثُمَّ يَتَبَيَّنُ الصُّبْحُ لَدَى عَيْنَيْنِ ، وَتَعْلَمُ الْعَرَبُ صِحَّةَ رَأْيِ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ

(١) سورة النبأ ١٧ .

(٢) فِي اللِّسَانِ ، عَنْ الْحِجَازِيِّ : « الْهِيَاظُ : الْإِقْبَالُ ، وَالْمِيطَاطُ : الْإِدْبَارُ » . وَقَالَ غَيْرُهُ : « الْهِيَاظُ : اجْتِنَاعُ النَّاسِ لِلصَّالِحِ ، وَالْمِيطَاطُ : التَّفَرُّقُ عَنْ ذَلِكَ » .

الَّذِينَ صَرَفُوهُ عَنْهُ بَادِئٌ بَدَأَ ؛ فَلَيْتَنِي أَرَأَيْكُمْ بَعْدِي يَا عَبْدَ اللَّهِ ! إِنَّ الْحِرْصَ مُحَرَّمَةٌ ، وَإِنْ دُنْيَاكَ كَظْلَاكَ ، كُلَّمَا هَمَمْتَ بِهِ أَزْدَادَ عَنْكَ بَعْدًا .

نقلت هذا الخبر من ” أمالي أبي جعفر محمد بن حبيب “ ، رحمه الله .

ونقلتُ منه أيضاً ما رواه عن ابن عباس ، قال : تبرّم عمرُ بالخلافة في آخر أيامه ، وخاف العجز ، وضجر من سياسة الرعية ، فكان لا يزال يدعو الله بأن يتوفاه . فقال لكعب الأحمري يوماً وأنا عنده : إني قد أحببتُ أن أعهد إلى مَنْ يقوم بهذا الأمر ؛ وأظنّ وفاتي قد دنتُ ، فما تقول في عليّ ؟ أشرك عليّ في رأيك وأذكركني ما تجدونه عندهم ، فإنكم تزعمون أن أمرنا هذا مسطورٌ في كتبكم ، فقال : أما من طريق الرأي فإنه لا يصلح ؛ إنه رجل متين الدين ، لا يُفصى على عورة ، ولا يحلُّ عن زلة ، ولا يعمل باجتهاد رأيه ، وليس هذا من سياسة الرعية في شيء ، وأما ما نَجِدُهُ في كتبنا فنَجِدُهُ لا يلي الأمر ولا ولده ، وإن وليه كان هرجج شديداً ، قال : كيف ذاك ؟ قال : لأنه أراق الدماء ، فخرمه الله الملك . إن داود لما أراد أن يبنى حيطان بيت المقدس أوحى الله إليه : إنك لا تبنيه ، لأنك أرتقت الدماء ، وإنما يبنيه سليمان . فقال عمر : أليس بحق أراقها ؟ قال كعب : وداود بحق أراقها يا أمير المؤمنين . قال : فإلى مَنْ يُنفضي الأمر تجدونه عندهم ؟ قال : نجدُهُ ينتقل بعد صاحب الشريعة والائتين من أصحابه ، إلى أعدائه الَّذِينَ حَارَبَهُمْ وَحَارَبُوهُ ، وحاربهم على الدين . فاسترجع عمر مراراً ، وقال : أستمع يا ابن عباس ! أما والله لقد سمعتُ من رسول الله ما يشابه هذا ، سمعته يقول : « لِيُصْعَدَنَّ بَنُو أُمَيَّةَ عَلَى مِنبَرِي ، وَلَقَدْ أُرِيَهُمْ فِي مَنَامِي يَنْزُونَ عَلَيْهِ نَزْوُ الْقُرْدَةِ » . وفيهم أنزل : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ﴾ (١) .

(١) سورة الإسراء ٦٠ .

وقد روى الزبير بن بكار في "الموققيات" ما يناسب هذا عن المغيرة بن شعبه ، قال : قال لي عمر يوما : يا مغيرة ، هل أبصرت بهذه عينك العوراء منذ أصيبت ؟ قلت : لا ، قال : أما والله ليُعمورن بنو أمية الإسلام كما أعورت عينك هذه ، ثم ليُعمينه حتى لا يدري أين يذهب ولا أين يحيى ؟ قلت : ثم ماذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : ثم يبعث الله تعالى بعد مائة وأربعين أو بعد مائة وثلاثين وفداً كوفد الملوك ، طيبة ريحهم ، يعيدون إلى الإسلام بصره وشتاته . قلت : من هم يا أمير المؤمنين ؟ قال : حجازي وعراقي ، وقليل ما كان ، وقليل ما دام .

وروى أبو بكر الأنباري في "أماله" ، أن علياً عليه السلام جلس إلى عمر في المسجد ، وعنده ناس ، فلما قام عرض واحد بذكره ، ونسبه إلى التيه والعجب ، فقال عمر : حق لمثله أن يتيه ! والله لولا سيفه لما قام عود الإسلام ، وهو بعد أقصى الأمة وذو سابقها وذو شرفها ؛ فقال له ذلك القائل : فما منعكم يا أمير المؤمنين عنه ؟ قال : كرهناه على حداثة السن وحبّه بنى عبد المطب .

قلت : سألت النقيب أبا جعفر يحيى بن محمد بن أبي زيد - وقد قرأت عليه هذه الأخبار - فقالت له : ما أراها إلا تسكاد تكون دالة على النص ، ولكنني أستبعد أن يجتمع الصحابة على دفع نص رسول الله صلى الله عليه وآله على شخص بعينه ، كما استبعدنا من الصحابة على رد نصه على الكعبة وشهر رمضان وغيرها من معالم الدين ، فقال لي رحمه الله : أبيت إلا ميلاً إلى المعتزلة ! ثم قال : إن القوم لم يكونوا يذهبون في الخلافة إلى أنها من معالم الدين ، وأنها جارية مجرى العبادات الشرعية ، كالصلاة والصوم ، ولكنهم كانوا يُجرونها مجرى الأمور الدنيوية ، ويذهبون لهذا^(١) ، مثل تأمير الأمراء وتدير الحروب وسياسة الرعية ، وما كانوا يبالون في أمثال هذا من مخالفة نصوصه صلى الله عليه وآله إضراراً أو المصلحة في

(١) : « هذا » .

غيرها ؛ ألا تراه كيف نصّ على إخراج أبي بكر وعمر في جيش أسامة ، ولم يخرجوا لِمَ أَرَأَيْتَ
 أَنَّ في مقامهما مصلحةً للدولة^(١) والملة ، وحفظاً للبيضة ، ودفعاً للفتنة ، وقد كان رسولُ الله
 صلى الله عليه وآله يخالف وهو حيّ في أمثال ذلك فلا ينكره ، ولا يرى به بأساً. أَلَسْتَ
 تعلم أنه نزل في غرة بدرٍ منزلاً على أن يحارب قريشاً فيه ، فخالفته الأنصار وقالت له: ليس
 الرَّأْيُ في نزولك هذا المنزل فاتركه ، وانزل في منزل كذا ، فرجع إلى آرائهم! وهو الذي قال
 للأنصار عام قَدِيمٍ إلى المدينة : « لا تُؤَبِّرُوا النخل » ، فعملوا على قوله فحالت نخلمهم في
 تلك السنة ولم تُثْمَرْ حتى قال لهم : « أنتم أعرف بأمر دنياكم وأنا أعرف بأمر دينكم » ،
 وهو الذي أخذ الفداء من أسارى بدر ، فخالفه عمر ، فرجع إلى تصويب رأيه بعد أن
 فات الأمر وخلص الأسرى ورجعوا إلى مكة ، وهو الذي أراد أن يصلح الأحزاب على ثلث
 تمر المدينة ليرجعوا عنه ، فأتى سعد بن معاذ وسعد بن عباد فخالفاه ، فرجع إلى قولها ،
 وقد كان قال لأبي هريرة : اخرج فناد في الناس : « من قال لا إله إلا الله مخلصاً به قلبه دخل
 الجنة » ، فخرج أبو هريرة فأخبر عمر بذلك فدفعه في صدره ، حتى وقع على الأرض ، فقال :
 لا تقمها ، فإنك إن تقمها يتكلموا عليها ، ويدعوا العمل ، فأخبر أبو هريرة رسول الله صلى
 عليه وآله بذلك ، فقال : « لا تقمها وخلصهم يعملون » ، فرجع إلى قول عمر !

وقد أطبقت الصحابة إطباقاً واحداً على ترك كثير من النصوص لما رأوا المصلحة في
 ذلك ، كإسقاطهم سهم ذوى القربى وإسقاط سهم المؤلفة قلوبهم ، وهذان الأمران أدخل
 في باب الدين منهما في باب الدنيا ، وقد عملوا بأرائهم أمورا لم يكن لها ذكر في الكتاب^(٢)
 والسنة ، كحدّ الخمر فإنهم عملوه اجتهدا ، ولم يحذ رسول الله صلى الله عليه وآله شاربي
 الخمر ، وقد شر بها الجسم الغفير في زمانه بعد نزول آية التحريم ، ولقد كان أوصاهم في مرضه

(٢) ساقطة من : ب .

(١) كذا في ١ ، وفي ب : « لله » .

أن أخير جوا نصارى نجران من جزيرة العرب فلم يخرجوهم ، حتى مضى صدر من خلافة عمر ، وعملوا في أيام أبي بكر رأيهم في ذلك باستصلاحهم ، وهم الذين هدموا المسجد بالمدينة ، وحوّلوا المقام بمكة ، وعملوا بمقتضى ما يوجب في ظنونهم من المصلحة ، ولم يقفوا مع موارد النصوص ، حتى اقتلدى بهم الفقهاء من بعد ، فرجع كثير منهم القياس على النص ، حتى استحالت الشريعة ، وصار أصحاب القياس أصحاب شريعة جديدة .

قال النقيب : وأكثّر ما يعملون بأرائهم ، فيما يجري تجرى الولايات والتأثير والتدبير وتقرير قواعد الدولة ، وما كانوا يقفون مع نصوص الرسول صلى الله عليه وآله وتدبيراته إذا رأوا المصلحة في خلافها ، كأنهم كانوا يقيّدون نصوصه المطلقة بقيد غير مذكور لفظاً ، وكأنهم كانوا يفهمونه من قرائن أحواله ، وتقدير ذلك القيد : « افعلوا كذا إن رأيتموه مصلحة » .

قال : وأمّا مخالفتهم له فيما هو محض الشرع والدين ، وليس بمتملّق بأمر الدنيا وتدبيراتها ، فإنه يقلّ جدّاً ، نحو أن يقول : « الوضوء شرط في الصلاة » ، فيجمعوا على ردّ ذلك ويميزوا الصلاة من غير وضوء ، أو يقول : « صوم شهر رمضان واجب » ، فيطبقوا على مخالفة ذلك ويعملوا شواًلاً عوضاً عنه ، فإنه بعيد ، إذ لا غرض لهم فيه ، ولا يقدرّون على إظهار مصلحة عثروا عليها خفيت عنه صلى الله عليه وآله . والقوم الذين كانوا قد غلب على ظنونهم أن العرب لا تطيع عليّاً عليه السلام ، فبعضها للحسد ، وبعضها للوثر والثأر ، وبعضها لاستحداثهم سنّه ، وبعضها لاستطالته عليهم ورفعهم عنهم ، وبعضها كراهة اجتماع النبوة والخلافة في بيت واحد ، وبعضها للخوف من شدة وطأته وشدّته في دين الله ، وبعضها خوفاً لرجاء تداول قبائل العرب الخلافة إذا لم يقتصر بها على بيت مخصوص عليه ، فيكون رجاء كل حيّ لوصولهم إليها ثابتاً مستمراً ، وبعضها ببغضه ، لبغضهم من قرابته

لرسول الله صلى الله عليه وآله وهم المنافقون من الناس، ومن في قلبه زيغ من أمر النبوة فأصفق الكل إصفاً واحداً على صرف الأمر عنه لغيره، وقال رؤسؤهم: إنا خفنا الفتنة، وعلما أن العرب لا تطيعه ولا تتركه، وتأولوا عند أنفسهم النص، ولا ينكر النص، وقالوا: إنه النص، ولكن الحاضر يرى ما لا يرى الغائب، والغائب قد يُترك لأجل المصلحة الكلية، وأعانهم على ذلك مسارعة الأنصار إلى ادعائهم الأمر، وإخراجهم سعد بن عباد من بيته وهو مريض، لينصبوه خليفة - فيما زعموا - واختلط الناس، وكثر الخبط، وكادت الفتنة أن تشتعل^(١) نارها، فوثب رؤساء المهاجرين، فبايعوا أبا بكر وكانت فلتة - كما قال قائلهم - وزعموا أنهم أطفئوا بها نائرة الأنصار، فن سكت من المسلمين، وأغضى ولم يتمرض، فقد كفاهم أمر نفسه، ومن قال سرّاً أو جهراً: إن فلانا قد كان رسول الله صلى الله عليه وآله ذكره، أو نص عليه أو أشار إليه، أسكتوه في الجواب؛ بأننا بادرنا إلى عقد البيعة مخافة الفتنة، واعتذروا عنده ببعض ما تقدم، إما أنه حديث السنن أو تبغيضه العرب، لأنه وترها وسفك دماءها، أو لأنه صاحب زهري وتيه، أو كيف تجتمع النبوة والخلافة في مغرس واحد! بل قد قالوا في العذر ما هو أقوى من هذا وأوكد، قالوا: أبو بكر أقوى على هذا الأمر منه، لا سيما وعمر يعضده ويساعده، والعرب تحب أبا بكر ويعجبها لينه ورقفه، وهو شيخ مجرب للأمور لا يحسده أحد، ولا يحقد عليه أحد، ولا يبغضه أحد، وليس بذي شرف في النسب فيشتم على الناس بشرفه، ولا بذي قربي من الرسول صلى الله عليه وآله فيدلّ بقربه، ودع ذلك، فإنه فضل مستغنى عنه. قالوا: لو نصبنا عليّاً عليه السلام، ارتد الناس عن الإسلام وعادت الجاهلية كما كانت، فأما أصح في الدين؟ الوقوف مع النص المفضي إلى ارتداد الخلق ورجوعهم إلى الأصنام والجاهلية أم العمل بمقتضى الأصح واستبقاء الإسلام واستدامة العمل بالدين، وإن كان فيه مخالفة النص!

(١) : « يضطرم » .

قال رحمه الله : وسكت الناس عن الإنكار ، فإنهم كانوا متفرقين ، فمنهم من هو مبغض شائئ لعلّ عليه السلام ، فالذى تمّ من صرف الأمر عنه هو قرّة عينه ، وبرّد فؤاده ، ومنهم ذو الدين وصحة اليقين ، إلّا أنه لما رأى كبراء الصحابة قد اتفقوا على صرف الأمر عنه، ظنّ أنهم إنّما فعلوا ذلك لنصّ سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وآله ينسخ ما قد كان سمعه من النصّ على أمير المؤمنين عليه السلام ، لا سيما مارواه أبو بكر من قول النبي صلى الله عليه وآله : « الأئمة من قريش » ، فإنّ كثيرا من الناس توهموا أنّه ناسخ للنصّ الخاصّ ، وأنّ معنى الخبر أنّكم مباحون في نصب إمام من قريش ، من أيّ بطون قريش كان ، فإنّه يكون إماما .

وأكد أيضا في نفوسهم رفض النصّ الخاصّ ماسمعه من قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « مارآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن » ، وقوله عليه السلام : « سألت الله ألاّ يجمع أمّتي على ضلال ، فأعطانيها ، فأحسنوا الظنّ بعاقدي البيعة » .

وقالوا : هؤلاء أعرف بأغراض رسول الله صلى الله عليه وآله من كلّ أحد ، فأمسكوا وكفّوا عن الإنكار، ومنهم فرقة أخرى وهم الأكثرون أعراب وجفّة، وطعام أتباع كلّ ناعق ، يميلون مع كلّ ريح ، فهؤلاء مقلّدون لا يسألون ولا ينكرون ، ولا يبحثون ، وهم مع أمرائهم وولاتهم، لو أسقطوا عنهم الصلاة الواجبة لتركوها، فلذلك أحقّ النصّ ، وخفي ودّرس، وقويّت كلمة العاقدين لبيعة أبي بكر ، وقوّاهازيادة على ذلك اشتغالُ عليّ وبنى هاشم برسول الله صلى الله عليه وآله ، وإغلاقُ بابهم عليهم ، وتخليتهم الناس يعملون ماشاءوا وأحبّوا ، من غير مشاركة لهم فيما هم فيه، لكنهم أرادوا استدراك ذلك بعد ما فات ، وهيئات الفائت لا رجعة له !

وأراد عليّ عليه السلام بعد ذلك نقض البيعة، فلم يتمّ له ذلك ، وكانت العرب لا ترى

الْعَدْر، ولا تنقض البيعة صواباً كانت أو خطأ، وقد قالت له الأنصار وغيرها: أيها الرجل، لو دعوتنا إلى نفسك قبل البيعة لما عدلنا بك أحداً، ولكننا قد بايعنا، فكيف السبيل إلى نقض البيعة بعد وقوعها!

قال النقيب: ومما جرأ عمر على بيعة أبي بكر والعدول عن عليٍّ - مع ما كان يسمعه من الرسول صلى الله عليه وآله في أمره - أنه أنكر مراراً على الرسول صلى الله عليه وآله عليه وآله أموراً اعتمدها فلم ينكر عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وإنكاره، بل رجع في كثير منها إليه، وأشار عليه بأمر كثير من نزل القرآن فيها بموافقته، فأطمعه ذلك في الإقدام على اعتماد كثير من الأمور التي كان يرى فيها المصلحة، مما هي خلاف النص، وذلك نحو إنكاره عليه في الصلاة على عبد الله بن أبي المنافق، وإنكاره فداء أسارى بدر، وإنكاره عليه تبرج نسائه للناس، وإنكاره قضية الحديبية، وإنكاره أمان العباس لأبي سفيان ابن حرب، وإنكاره واقعة أبي حذيفة بن عتبة، وإنكاره أمره بالنداء: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة»، وإنكاره أمره بذبح النواضح، وإنكاره على النساء بحضرة رسول الله صلى الله عليه وآله هيتهن له دون رسول الله صلى الله عليه وآله... إلى غير ذلك من أمور كثيرة تشتمل عليها كتب الحديث، ولو لم يكن إلا إنكاره قول رسول الله صلى الله عليه وآله في مرضه: «اثنوني بدواة وكتفٍ أكتب لكم ما تطلون بعدى»، وقوله ما قال، وسكوت رسول الله صلى الله عليه وآله عنه. وأعجب الأشياء أنه قال ذلك اليوم: حسبنا كتاب الله، فافترق الحاضرون من المسلمين في الدار، فبعضهم، يقول: القول ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله، وبعضهم يقول: القول ما قال عمر، فقال رسول الله وقد كثر اللغط، وعلت الأصوات: «قوموا عني فما ينبغي لنبئ أن يكون عنده هذا التنازع!» فهل بقي للنبوّة مزية أو فضل إذا كان الاختلاف قد وقع بين القولين، وميل

المسلمون بينهما ، فرجّح قوم هذا ، وقوم هذا ! فليس ذلك دالاً على أن القوم سوّوا بينه وبين عمر ، وجعلوا القولين مسألة خلاف ، ذهب كل فريق إلى نصرة واحد منهما ، كما يختلف اثنان من عُرض المسلمين في بعض الأحكام ، فينصر قوم هذا وينصر ذاك آخرون ، فمن بلغت قوّته وهمته إلى هذا ، كيف ينكر منه أنه يبايع أبا بكر لمصلحة رآها ، ويمدّل عن النصّ ! ومن الذي كان ينكر عليه ذلك ، وهو في القول الذي قاله للرسول صلى الله عليه وآله في وجهه غير خائف من الأنصار ، ولا ينكر عليه أحدٌ ، لا رسول الله صلى الله عليه وآله ولا غيره ، وهو أشد من مخالفة النصّ في الخلافة وأفظع وأشنع .

قال النقيب : على أن الرجل ما أهل أمر نفسه ، بل أعدّ أعداراً وأجوبة ، وذلك لأنه قال لقوم عرّضوا له بحديث النصّ : إن رسول الله صلى الله عليه وآله رجع عن ذلك بإقامته أبا بكر في الصلاة مقامه ، وأوهمهم أن ذلك جارٍ مجرى النصّ عليه بالخلافة ، وقال يوم السقيفة : أيكم يطيب نفساً أن يتقدّم قديمين قدّمهما رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة ! ثم أكّد ذلك بأن قال لأبي بكر ، وقد عرض عليه البيعة : أنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم في المواطن كلها ، شدتها ورخاؤها ، رضيك لديننا ، أفلا نرضاك لديننا ! ثم عاب عليّاً بخطبته بنت أبي جهل ، فأوهم أن رسول الله صلى الله عليه وآله كرهه لذلك ووجد عليه ، وأرضاه عمرو بن العاص ، فروى حديثاً افتعله واختلقه على رسول الله ، قال سمعته يقول : « إن آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء ، إنما وليّ الله وصالح المؤمنين » ، فجعلوا ذلك كالنسخ لقوله صلى الله عليه وآله : « من كنت مولاه فهذا مولاه » .

قلت للنقيب : أصبح النسخ في مثل هذا ؟ أليس هذا نسخاً للشيء قبل تقضى وقت فعله ؟ فقال : سبحان الله ! من أين تعرف العرب هذا ؟ وأنّى لها أن تصوّره فضلاً عن أن تحكم بعدم جوازه ! فهل يفهم حُذاق الأصوليين هذه المسألة ، فضلاً عن تخفى العرب ! هؤلاء قوم ينخدعون بأدنى شبهة ، ويُستألون بأضعف^(١) سبب ، وتُبنى الأمور معهم على ظواهر

(١) : « بأدنى » .

النصوص وأوائل الأدلة ، وهم أصحاب جهل وتقليد ، لا أصحاب تفضيل ونظر !
 قال : ثم أكد حسنَ ظنِّ الناسَ بهم أنهم أطلقوا أنفسهم عن الأموال ، وزهدوا في
 متاع الدنيا وزخرفها ، وسلكوا مسلكَ الرِّفْضِ لزيبتها ، والرغبة عنها والقناعة بالظَّفيف
 النَّزْر منها ، وأكلوا الخشِن ، ولبسوا الكرايس ، ولما أَلَقَتْ إليهم الدنيا أفلاذ كبدها ،
 وفرَّقوا الأموال على الناس ، وقسموها بينهم ، ولم يتدنَّسوا منها بقليل ولا كثير ، فمات إليهم
 القلوب ، وأحبَّتهم النفوس ، وحسَّنت فيهم الظنون ، وقال من كان في نفسه شبهة منهم ،
 أو وقفة في أمرهم : لو كان هؤلاء قد خالفوا النصَّ لهوى أنفسهم لكانوا أهلَ الدنيا ،
 ولظهر عاينهم الميل إليها ، والرغبة فيها ، والاستئثار بها . وكيف يجمعون على أنفسهم مخالفة
 النصِّ ، وترك لذات الدنيا ومآربها ، فيخسروا الدنيا والآخرة ! وهذا لا يفعله عاقل ، والقوم
 عقلاء ذوو ألباب وآراء صحيحة ؛ فلم يبق عند أحدٍ شكٌّ في أمرهم ولا ارتياب لفعلهم ،
 وثبتت العقائد على ولايتهم ، وتصوب أفعالهم ، ونسوا لذَّة الرياسة ، وإن أصحاب الهمم
 العالية لا يلتفتون إلى المآكل والمشرب والمنكح ، وإنما يريدون الرياسة ونفوذ الأمر ، كما
 قال الشاعر :

وقد رغبت عن لذة المال أنفسٌ . . . ولمارغبت عن لذة النهى والأمرِ
 قال رحمه الله : والفرق بين الرجلين وبين الثالث ، ما أصيب به الثالث ، وقُتل تلك
 القِتلة ، وخَلَمه الناس وحَصَّروه ، وضيقوا عليه ، بعد أن توالى إنكارهم أفعاله ، وجبَّهوه في
 وجهه وفسقوه ، وذلك لأنه استأثر هو وأهله بالأموال ، وانغمسوا فيها واستبدُّوا بها ،
 فكانت طريقته وطريقتهم مخالفةً لطريق الأولين ، فلم تصبر العرب على ذلك ، ولو كان
 عثمان سلك طريق عمر في الزهد ، وجمع الناس ، وردَّع الأمراء ، والولاء عن الأموال ، وتجنَّب
 استعمال أهل بيته ، ووفَّر أعراض الدنيا وملاذَّها وشهواتها على الناس ، زاهدًا فيها ، تاركًا
 لها ، معرضًا عنها ، لما ضرَّه شيء قط ، ولا أنكر عليه أحد قط ، ولو حوَّل الصلاة من

الكعبة إلى بيت المقدس ، بل لو أسقط عن الناس إحدى الصلوات الخمس ، واقتنع منهم بأربع ، وذلك لأنّ همّ الناس مصروفة إلى الدنيا والأموال ، فإذا وجدوها سكتوا ، وإذا فقدوها هاجوا واضطربوا ، ألسنت ترى رسول الله صلى الله عليه وآله كيف قسم غنائم هوازن على المنافقين ، وعلى أعدائه الذين يتمنون قتله وموته ، وزوال دولته ، فلما أعطاهم أحبّوه ، إمّا كلّهم أو أكثرهم ، ومن لم يحبّه منهم بقابه جامله وداراه ، وكفّ عن إظهار عداوته ، والإجلاب عليه ولو أنّ عليا صانع أصحابه بالمال ، وأعطاه الوجوه والرؤساء ، لكان أمره إلى الانتظام والاطّراد أقرب ، ولكنّه رفض جانب التدبير الدنيوى ، وآثر لزوم الدّين ، وتمسّك بأحكام الشريعة ، والملّك أمر آخر غير الدين ، فاضطرب عليه أصحابه ، وهرب كثير منهم إلى عدوّه .

وقد ذكرت في هذا الفصل خلاصة ما حفظته عن النقيب أبى جعفر ، ولم يكن إماميّ المذهب ، ولا كان يبرأ من السلف ، ولا يرفض قول السرفين من الشيعة ، ولكنه كلام أجراه على لسانه البحث والجدل بينى وبينه ، على أن العلوى لو كان كراميّاً ، لا بدّ أن يكون عنده نوعٌ من تعصّب وميل على الصحابة وإن قلّ .

ولنرجع إلى ذكر كلام عمر من خطبته وسيرته .
كتب عمر إلى أبى موسى ، لما استعمله قاضياً ، وبعثه إلى العراق :
من عبد الله أمير المؤمنين عمر إلى عبد الله بن قيس . سلام عليك ، أمّا بعد ، فإنّ القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلى إليك ، فإنه لا ينفع تكلم بحقٍ لا نفاذ له . آس^(١) بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك ، حتى لا يطمع شريفٌ فى

(١) قال أبو العباس المبرد : « قوله : آس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك ؛ أى سو بينهم ، وتقديره : أجعل بعضهم أسوة بعض » .

حيثك^(١)، ولا يئأسَ ضعيفٌ من عدلك . البينة على من ادعى واليمين على من أنكر،
والصلح جائز بين المسلمين ، إلّا صلحاً أحلّ حراماً ، أو حرّم حلالاً . لا يمنعك قضاء
قضيته اليومَ فراجعت فيه عقلك ، وهُديت فيه لرشدك ، أن ترجعَ إلى الحقّ ، فإنّ الحقّ
قديم ، ومراجعةُ الحقّ خيرٌ من التماذّي في الباطل . الفهمُ الفهمُ فيما تلجّج^(٢) في صدرك
مما ليس في كتاب ولا سنّة ، ثم اعرف الأشباه والأمثال ، وقسِ الأمور عند ذلك ، واعمِدْ
إلى أقربها إلى الله عزّ وجلّ ، وأشبهها بالحقّ ، واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بينة أمدّاً
ينتهي إليه ، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه ، وإلّا استحلّت عليه القضية ، فإنه أنفى للشكّ
وأجلى للعمى . المسمون عدولٌ بعضهم على بعض ، إلّا مجلّوداً في حدٍّ أو مجرباً عليه شهادة
زور ، أو ظليناً^(٣) في ولاء أو نسب ، فإنّ الله عزّ وجلّ تولّى منكم السرائر ، ودرا عنكم^(٤)
بالبينات والأيمان الشبهات . إياك والخلق^(٥) والضجّر والتأذّي بالخصوم ، والتسكّر عند
الخصومات ، فإنّ الحقّ في مواطن الحقّ يُعظّم الله به الأجر ، ويحسن به الذخر ، فمن
صحت نيّته ، وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تخلّى للناس بما يعلم
الله عزّ وجلّ منه أنّه ليس من نفسه ، شانهُ الله ، فما ظنك بشواب الله في عاجل رزقه ،
وخزائن رحمته ! والسلام .

ذكر هذه الرسالة أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد في كتاب ” الكامل^(٦) “ ،
وأطراها ، فقال : إنه جمع فيها جمل الأحكام ، واختصرها بأجود الكلام ، وجعل الناس
بعده يتخذونه ، إماماً فلا يجد مُحقّق عنها معدّلاً ، ولا ظالم عن حدودها محيصاً .

-
- | | |
|--|--------------------------|
| (١) حيثك : ممالك . | (٢) تلجّج : تردد . |
| (٣) الظنين : المتهم . | (٤) درأ بالبينات : دفع . |
| (٥) الفلق : ضيق الصدر وقلة الصبر . | |
| (٦) الكامل ١ : ١٢ - ١٤ . (طبعة نهضة مصر) . | |

وكتب عمرُ إلى عماله يُوصيهم ، فقال في جملة الكتاب: ارتدُّوا ، وانزروا، وانتعلوا وألقوا الخفاف والسرَّابلات والقواركي^(١)، وانزروا نزواً على الخيل، واخشو شنوا، وعليكم بالمعدية— أو قال: وتمعدوا— وارسوا الأغراض، وعلِّموا فتیانكم العومَ والرماية، وذروا التَّعَمَّ وزَيَّ العجم، وإياكم والحريزَ ، فإنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله نهى عنه، وقال: « لا تلبسوا من الحريز إلا ما كان هكذا » ، وأشار بأصبعه .

وكتب إلى بعض عماله : إنَّ أسعدَ الرُّعاة من سَعِدَتْ به رعيَّته ، وإنَّ أشقى الرُّعاة من شَقِيَّتْ به رعيَّته ، فإياك أن تزيغ قزيع رعيَّتِكَ ، فيكون مثلك عند الله مثلَ البهيمة رأت الخُضرة في الأرض فرعت فيها تبغى السَّمَن ، وحتفها في سَمَها .

وكتب إلى أبي موسى وهو بالبصرة : بلغني أنَّكَ تأذَنُ للنَّاس الجَماء^(٢) الغفير، فإذا جاءك كتابي هذا فأذَنُ لأهل الشرف وأهل القرآن والتقوى والدين ، فإذا أخذوا بحال السهم فأذَنُ للعامة ، ولا تؤخِّر عمل اليوم لغد ، فقتلك عليك الأعمال فتضيع ، وإياك واتَّباعُ الهوى ، فإنَّ للناس أهواءَ متبعة ، ودنيامؤثرة ، وضغائن محمولة . وحاسب نفسك في الرِّخاء قبل حساب الشدة ، فإنه من حاسب نفسه في الرِّخاء قبل حساب الشدة كان مرجعه إلى الرضا والغبطة ، ومن ألهته حياته ، وشغلته أهواؤه ، عاد أمره إلى الندامة والخسارة ، إنَّه لا يقيم أمر الله في الناس إلا خَصِيفُ المُقَدَّة^(٣) بعيد القرارة لا يحنق على جيرة ، ولا يطلع الناس منه على عورة ، ولا يخاف في الحق لومة لائم . الزم أربع خصال يسلم لك دينك وتحيط بأفضل حظك: إذا حضر الخصمان فعليك بالبيِّنات المدول والأيمان القاطعة، ثم ائذن

(١) الركب: جمع ركاب؛ وهو للسرَّج كالفرز للرحل .

(٢) أى القوم مجتمعين .

(٣) أى الذى يحكم أمره .

للضعيف حتى ينسبظ لسانه ، ويحتري قلبه ، وتعاهد الغريب ، فإنه إذا طال حبسه ترك حاجته وانصرف إلى أهله ، واحرص على الصلح مالم يبين لك القضاء ، والسلام عليك .

وكان رجل من الأنصار لا يزال يهدى لعمر فخذ جزور إلى أن جاء ذات يوم مع خضم له ، بفعل في أثناء الكلام يقول : يا أمير المؤمنين ، أفصل القضاء بيني وبينه كما يفصل فخذ الجزور .

قال عمر : فما زال يرددها حتى خفت على نفسي . فقضيت عليه ، وكتبت إلى عمالي : أما بعد فإني أكم والهدايا ، فإنها من الرشا . ثم لم أقبل له هدية فيما بعد ، ولا غيره .

وكان عمر يقول : اكتبوا عن الزاهدين في الدنيا ما يقولون ، فإن الله عز وجل وكل بهم ملائكة ، واضعة أيديهم على أفواههم ، فلا يتكلمون إلا بما هيأه الله لهم .

وروى أبو جعفر الطبري في تاريخه ، قال : كان عمر يقول : جردوا القرآن ولا تفسروه ، وأقلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا شريككم .

وقال أبو جعفر : وكان عمر إذا أراد أن ينهى الناس عن شيء جمع أهله ، فقال : إني عسيت أن أنهي الناس عن كذا ، وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم ، وأقسم بالله لا أجد أحدًا منكم يفعل إلا أضعفت عليه العقوبة .

قال أبو جعفر : وكان عمر شديدًا على أهل الريب ، وفي حق الله ، صليبا حتى يستخرجه ، ولينا سهلا فيما يلزمه حتى يؤديه ، وبالضعيف رحما .

وروى زيد بن أسلم ، عن أبيه أن نفرا من المسلمين كلموا عبد الرحمن بن عوف ، فقالوا : كلم لنا عمر بن الخطاب ، فقد والله أخشانا حتى لانستطيع أن نديم إليه أبصارنا ، فذكر عبد الرحمن له ذلك ، فقال : أو قد قالوا ذلك ! والله لقد لنت لهم حتى تحوّفت الله في أمرهم ، وقد تشدّدت عليهم حتى خفت الله في أمرهم ، وأنا والله أشدّ فرقا لله منهم لي !

وروى جابر بن عبد الله ، قال : قال رجل لعمر : يا خليفة الله ، قال : خالف الله بك ، قال : جعلني الله فداك ! قال : إذن يهينك الله .

وروى أبو جعفر ، قال : استشار عمر في أمر المال كيف يقسمه ، فقال له علي بن أبي طالب عليه السلام : تقسم كل سنة ما اجتمع معك من المال ، ولا تمسك منه شيئا ، وقال عثمان ابن عفان : أرى مالا كثيرا يسمع الناس ، وإن لم يُحصَوْا حتى يعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الأمر . فقال الوليد بن هشام بن المغيرة : يا أمير المؤمنين ، قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديوانا ، وجندوا جنودا ، وفرضوا لهم أرزاقا . فأخذ بقوله ؛ فدعا عقیل بن أبي طالب ونخمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا نساب قريش وقال : اكتبوا الناس على منازلهم ، فكتبوا فبدءوا ببني هاشم ، ثم أتبعوهم أبا بكر وقومه ، ثم عمر وقومه ، على ترتيب الخلافة ؛ فلما نظر إليه قال : وددت أنه كان هكذا ، لكن أبدأ بقرابة النبي صلى الله عليه وآله ، الأقرب فالأقرب ، حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله .

قال أبو جعفر : جاءت بنو عدی إلى عمر ، فقالوا له : يا عمر ، أنت خليفة رسول الله

صلى الله عليه وسلم . قال : أو خليفة أبي بكر ، وأبو بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا : وذلك ، فلو جعلت نفسك حيث جعلك هؤلاء القوم ! فقال : بخ بخ يا بني عدى ! أردتم الأكل على ظهري ، وأن أذهب حسناتي لكم ! لا والله ولو كتبتم آخر الناس ، إن لي صاحبين سلكا طريقا ، فإن أنا خالفتهما خولف بي ، والله ما أدركنا الفضل في الدنيا إلا بمحمد ، ولا نرجو ما نرجو من الآخرة وثوابها إلا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فهو شرفنا ، وقومه أشرف العرب ثم الأقرب منه فالأقرب ، وما بيننا وبين أن نلقاه ثم لا نفارقه إلى آدم إلا آباء يسيرة ، والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال ، وجئنا بغير عمل فإنهم أولى بمحمد صلى الله عليه وآله منا يوم القيامة . لا ينظرنَّ رجلٌ إلى قرابته ، وليعمل بما عند الله ؛ فإن من قصر به عمله لم يسرع به نسبه .

وروى السائب بن يزيد ، قال : سمعتُ عمر بن الخطاب ، يقول : والله ما من أحدٍ إلا له في هذا المال حقٌ أعطيه أو منعه ، وما أحدٌ أحقَّ به من أحدٍ إلا عبد مملوك ، وما أنا فيه إلا كأحدكم ، ولكننا على منازلنا من كتاب الله ، وقسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالرجل وبلاؤه في الإسلام ، والرجل وغناؤه ، والرجل وحاجته ، والله لئن بقيتُ ليأتين الراعي بجبل صنعاء ، حظُّه من المال وهو مكانه .

وروى نافع مولى آل الزبير ، قال : سمعتُ أبا هريرة يقول : رحم الله ابن حنتمة^(١) ، لقد رأيتُه عام الرمادة ، وإنه ليحبلُ على ظهره جرابين ، وعسكة زيت في يده ، وإنه ليعتقب^(٢) هو وأسلم ، فلما رآني قال : من أين يا أبا هريرة ؟ قلت : قريبا ، فأخذت

(١) حنتمة ، بفتح الحاء ، أم عمر بن الخطاب ، وبنت عبد الرحمن بن الحارث (القاموس) .

(٢) يعتقب ؛ أى يركب هذا عتبة وهذا عتبة ، والعقة : النوبة .

أَعَقِبُهُ ، فحملناه حتى اتهمنا إلى ضرار فإذا صِرْمٌ^(١) من نحو عشرين بيتاً من محارب ، فقال عمر : ما أقدمكم ؟ قالوا : الجهد ، وأخرجوا لنا جِلْدَ الميتة مشويّاً كانوا يأكلونه ، ورمّة العظام مسحوقة كانوا يستفثونها ، فرأيت عمر طرح رداءه ثم برز ، فما زال يطبخ لهم حتى شَبِعُوا ، وأرسل أسلم إلى المدينة ، فجاء بأبيّة فحملهم عليها ، ثم أنزلهم الجبّانة ، ثم كسام ، وكان يختلف إليهم وإلى غيرهم حتى كفى الله ذلك .

وروى راشد بن سعد أن عمر أتى ببال ، فجعل يقسم بين الناس ، فازدحوا عليه ، فأقبل سعد بن أبي وقاص يزاحم الناس حتى خلص إليه ، فعلاه عمر بالدرة ، وقال : إنك أقبلت ، لا تهابن سلطان الله في الأرض ، فأحببتُ بأن أعليك أن سلطان الله لا يهابك .

وقالت الشفاء ابنة عبد الله - ورأت فتياناً من النساء يقتصدون في المشي ، ويتكلمون رويداً : ما هؤلاء ؟ فقيل : نساء ، فقالت كان عمر بن الخطاب هو الناسك حقاً ، وكان إذا تكلم أسمع ، وإذا مشى أسرع ، وإذا ضرب أوجع .

أعان عمر رجلاً على حُلِّ شيء ، فدعا له الرجل ، وقال : نفعلك بنوك يا أمير المؤمنين ! قال : بل أغناني الله عنهم .

ومن كلامه : القوة في العمل ألا يؤخر عمل اليوم لغد ، والأمانة ألا تخالف سريرتك علانيتك ، والتقوى بالتوقى ، ومن يتق الله يقه .

(١) الصرم ، بالكسر : الجماعة .

وقال عمر : كنا نعد المقرض بخيلا ؛ إنما كانت المواساة .

أتى رهطاً إلى عمر ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، كثر العيال ، واشتدّت المؤونة ، فزدنا في أعطياتنا^(١) ، فقال : فعلتموها ! جمعتم بين الضرائر ، واتخذتم الخدم من مال الله ! أما لو ددت أتي وإياكم في سفينتين في لجة البحر ، تذهب بنا شرقاً وغرباً ، فلن يعجز الناس أن يولّوا رجلاً منهم ، فإن استقام اتبعوه ، وإن جفّ قتلوه . فقال طلحة : وما عليك لو قلت : وإن اعوجّ عزلوه ! فقال : القتل أرهب لمن بعده ، احذروا فتى قريش ، فإنه كريمها والذي لا ينال إلا على الرضا ، ويضحك عند الغضب ، ويتناول ما فوقه من تحته .

وكان يقول في آخر أيامه عند تبرّمه بالأمر وضجّره من الرعية : اللهم ملّوني وملّهم ، وأحسست من نفسي وأحسّوا مني ! ولا أدري بأيّنا يكون اللوث^(٢) ، وقد أعلم أنّ لم قتيلا منهم فأقبضني إليك .

وذكر قوم من الصحابة لعمر رجلاً ، فقالوا : فاضل لا يعرف الشرّ ، قال : ذاك أوقع له فيه .

وروى الطبري في التاريخ ، أن عمر استعمل عتبة بن أبي سفيان على عمل^(٣) فقدم منه جمال ، فقال له : ما هذا يا عتبة ؟ قال : مالٌ خرجت به معي وتجرّيت فيه ، قال : ومالك تخرج المال معك إلى هذا الوجه ؟ فأخذ المال منه فصيّره في بيت المال ، فلما قام عثمان قال لأبي سفيان :

(٢) اللوث : النقص .

(١) ب : إعطائنا «

(٣) الطبري : « على كنانة » .

إِنَّكَ إِن طَلَبْتَ مَا أَخَذَ مِنْ عُنْتِهِ رَدَدْتُهُ عَلَيْكَ^(١) ، فَقَالَ لَهُ أَبُو سَفْيَانَ : إِيَّاكَ وَمَا هُمَتْ بِهِ ، إِنَّكَ إِن خَالَفْتَ صَاحِبَكَ قَبْلَكَ سَاءَ رَأَى النَّاسُ فِيكَ . إِيَّاكَ أَنْ تَرُدَّ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكَ فَيَرُدَّ عَلَيْكَ مِنْ بَعْدِكَ^(٢) .

وَرَوَى الطَّبْرِيُّ أَيْضاً أَنَّ هِنْدًا بِنْتَ عَثْبَةَ بِنِ رَيْبَعَةَ قَامَتْ إِلَى عَمْرِ ، فَسَأَلَتْهُ أَنْ يُقْرِضَهَا مِنْ بَيْتِ الْمَالِ أَرْبَعَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ تَتَجَرَّ فِيهَا وَتَضُمُّهَا . فَخَرَجَتْ بِهَا إِلَى بِلَادِ كَلْبٍ ، فَبَاعَتْ وَاشْتَرَتْ ، وَبَلَغَهَا أَنَّ أَبَا سَفْيَانَ قَدْ أَتَى مَعَاوِيَةَ يَسْتَمِيعُهُ وَمَعَهُ ابْنَةُ عَمْرِو بْنِ أَبِي سَفْيَانَ ، فَعَدَلَتْ إِلَيْهِ مِنْ بِلَادِ كَلْبٍ - وَكَانَ أَبُو سَفْيَانَ قَدْ طَلَّقَهَا - فَقَالَ مَعَاوِيَةُ : مَا أَقْدَمَكَ يَا أُمِّهِ ؟ قَالَتْ : النَّظَرُ إِلَيْكَ يَا بَنِي ، إِنَّهُ عَمْرٌ ، وَإِنَّمَا يَعْمَلُ اللَّهُ ، وَقَدْ أَتَاكَ أَبُوكَ فَخَشِيتُ أَنْ تُخْرِجَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَأَهْلُ ذَلِكَ هُوَ ! وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُ عَمْرٌ مِنْ أَيْنَ أُعْطِيَتْهُ ، فَيُؤْتِيكَ وَيُؤْتِيكَ ، وَلَا تَسْتَقْبِلُهَا أَبَدًا . فَبَعَثَ مَعَاوِيَةُ إِلَى أَبِيهِ وَأَخِيهِ مِائَةَ دِينَارٍ ، وَكَسَاهُمَا وَحَلَمَهُمَا . فَسَخَطَهَا عَمْرٌ ، فَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ : لَا تَسْخَطْهَا ، فَإِنَّهَا عَطَاءٌ لَمْ تَغِبْ عَنْهُ هِنْدٌ ، وَرَجَعَ هُوَ وَابْنُهُ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَسَأَلَهُ عَمْرٌ : بِكُمْ أَجَازُكَ مَعَاوِيَةُ ؟ فَقَالَ : بِمِائَةِ دِينَارٍ ، فَسَكَتَ عَمْرٌ^(٣) .

وَرَوَى الْأَحْنَفُ ، قَالَ : أَتَى عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمِيرٍ عَمْرٌ ، وَهُوَ يُقْرِضُ النَّاسَ ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَقْرِضْ لِي ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ ، فَخَضَعَهُ ، فَقَالَ عَمْرٌ : حَسَّ^(٤) ، وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : مَنْ أَنْتَ ؟ فَقَالَ : عَبْدَ اللَّهِ بْنُ عَمِيرٍ - وَكَانَ أَبُوهُ اسْتَشْهِدَ يَوْمَ حُنَيْنٍ - فَقَالَ : يَا بَرِّفَا ، أَعْطَاهُ سِتْمَانَةَ ، فَأَعْطَاهُ سِتْمَانَةَ فَلَمْ يَقْبَلْهَا ، وَرَجَعَ إِلَى عَمْرِ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ : يَا بَرِّفَا ، أَعْطَاهُ

(٢) تاريخ الطبري ١ : ٢٧٦٦ (طبع أوروبا)
(٤) حس : كلمة يقولها الإنسان إذا أصابه ما أمضه .

(١) الطبري : « عليه »
(٣) تاريخ الطبري ١ : ٢٧٦٧

ستمائة حُلَّة ، فأعطاه ، فابس الحُلَّة التي كساه عمر ، ورمى ما كان عليه ، فقال له : خذ ثيابك هذه ، فلتكن في مِهْنَةِ أَهْلِكَ ، وهذه لزينتك .

وروى إياس بن سلمة ، عن أبيه ، قال : مرَّ عمر في السُّوق ، ومعه الدُّرَّة ، خَفَقَنِي خَفَقَةً ، فأصاب طرف ثوبي ، وقال : أَمِطُ^(١) عن الطريق ، فلمَّا كان في العام المقبل لَقِيتُني ، فقال : يا سلمة ، أتريد الحَجَّ ؟ قلت : نعم ، فأخذ بيدي وانطلق بي إلى منزله ، فأعطاني ستمائة دِرْهَم ، وقال : استعِنْ بها على حَجِّكَ ، واعلم أنَّها بالخَفَقَةِ التي خَفَقْتُكَ ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، ماذا كرتها ، قال : وأنا مانسيتها .

وخطب عمرُ فقال : أَيَّتُهَا الرِّعْيَةُ ، إِنَّ لَنَا عَلَيْكُمْ حَقًّا ، النَّصِيحَةُ بِالْغَيْبِ ، وَالْمَعَاوَنَةُ عَلَى الْخَيْرِ . إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ حِلْمٍ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ وَلَا أَعَمَّ نَفْعًا مِنْ حِلْمِ إِمَامٍ وَرَفِيقِهِ ، وَلَيْسَ مِنْ جَهْلٍ أَبْغَضَ إِلَى اللَّهِ مِنْ جَهْلِ إِمَامٍ وَخَرَفِهِ^(٢) ؛ أَيُّهَا الرِّعْيَةُ إِنَّهُ مَنْ يَأْخُذَ بِالْعَافِيَةِ مِنْ بَيْنِ ظَهْرَانِيهِ قَوَّتَهُ اللَّهُ الْعَافِيَةَ مِنْ فَوْقِهِ .

وروى الرَّبِيعُ بْنُ زِيَادٍ ، قَالَ : قَدِمْتُ عَلَى عُمَرَ بِمَالٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ ، فَصَلَّيْتُ مَعَهُ الْعِشَاءَ ثُمَّ سَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : مَا قَدِمْتَ بِهِ ؟ قُلْتُ : خَمْسَمِائَةِ أَلْفٍ ، قَالَ : وَيْحَكَ ! إِنَّمَا قَدِمْتَ بِخَمْسِينَ أَلْفًا ، قُلْتُ : بَلْ خَمْسَمِائَةِ أَلْفٍ ، قَالَ : كَمْ يَكُونُ ذَلِكَ ؟ قَالَتْ : مِائَةُ أَلْفٍ وَمِائَةُ أَلْفٍ وَمِائَةُ أَلْفٍ ، حَتَّى عَدَدْتُ خَمْسًا ، فَقَالَ : إِنَّكَ نَاعَسَ ؛ ارْجِعْ إِلَى بَيْتِكَ ، ثُمَّ اغْدُ عَلَىَّ ، فَعَدَوْتُ عَلَيْهِ . فَقَالَ : مَا جِئْتُ بِهِ ؟ قَالَتْ : مَا قَلْتُهُ لَكَ ، قَالَ : كَمْ هُوَ ؟ قُلْتُ : خَمْسَمِائَةُ أَلْفٍ ، قَالَ : أَطِيبَ هُوَ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، لَا أَعْلَمُ إِلَّا ذَلِكَ ، فَاسْتَشَارَ الصَّحَابَةَ فِيهِ ، فَأَشِيرَ عَلَيْهِ بِنَصْبِ الدِّيَّانِ فَنَصَبَهُ ، وَقَسَمَ الْمَالَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَفَضَّلَتْ عَنْدهُ فَضْلَةٌ ،

(١) أَمَط : تَنَحَّ .
(٢) الْخَرَف : فَسَادُ الْعَقْلِ . وَفِي : « وَخَرَفَهُ » .

فأصبح يجمع المهاجرين والأنصار ، وفيهم عليّ بن أبي طالب ، وقال للناس : ماترونا في فضلٍ فضلٍ عندنا من هذا المال ؟ فقال الناس . يا أمير المؤمنين ؛ إنّا شغلناك بولاية أمورنا عن أهلك وتجاركت وصنعتك ، فهو لك . فالتفت إلى عليّ فقال : ماتقول أنت ؟ قال : قد أشاروا عليك ، قال : فقل أنت ، فقال له : لم تجعل يقيتك ظناً ؟ فلم يفهم عمر قوله ، فقال : لتخرجنّ مما قلت ، قال : أجل والله ، لأخرجنّ منه ، أتذكر حين بعثك رسول الله صلى الله عليه وآله ساعياً^(١) ، فأتيت العباس بن عبد المطلب ، فنمكت صدقته ، فكان بينكما شيء ، فجئنا إلى وقتنا : انطلق معنا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فجئنا إليه ، فوجدناه خائراً^(٢) فرجعنا ، ثم غدونا عليه ، فوجدناه طيب النفس ، فأخبرته بالذي صنع العباس ، فقال لك : يا عمر ، أما علمت أن عمّ الرجل صينوا أبيه ! فذكرنا له ما رأينا ، من خنوره في اليوم الأول ، وطيب نفسه في اليوم الثاني ، فقال : إنكم أتيتم في اليوم الأول ، وقد بقيَ عندي من مال الصدقة ديناران ، فكان ما رأيتم من خنوري لذلك ، وأتيتم في اليوم الثاني وقد وجهتهما ، فذاك الذي رأيتم من طيب نفسى . أشيرُ عليك ألا تأخذ من هذا الفضل شيئاً ، وأن تفضّه على فقراء المسلمين ، فقال : صدقت والله الأشكرنّ لك الأولى والأخيرة .

وروى أبو سعيد الخدريّ قال : حججنا مع عمر أوّل حجة حجّها في خلافته ، فلما دخل المسجد الحرام ، دنا من الحجر الأسود فقبله واستلمه ، وقال : إني لأعلم أنك حجرٌ لا تضرّ ولا تنفع ، ولولا أني رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلك واستلمك ، لما قبلتك ولا استلمتك ، فقال له عليّ : بلى يا أمير المؤمنين ، إنه ليضرّ وينفع ، ولو علمت تأويل ذلك من كتاب الله لعلمت أن الذي أقول لك كما أقول قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ .
(١) السامع : من يجمع الزكاة . (٢) خائراً : فائزاً .

بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴿١﴾ . فلما أشهدهم وأقرُّوا له أنه الربَّ عزَّ وجلَّ ، وأنهم العبيدُ ، كتبَ ميثاقهم في رَقٍّ ، ثم ألقمه هذا الحجر ، وإن له لعينين ولسانا وشفقتين ، تشهد لمن وافاه بالموافة ، فهو أمين الله عزَّ وجلَّ في هذا المكان . فقال عمر : لا أبقاني الله بأرض لست بها يأبى الحسن .

قلت : قد وجدنا في الآثار والأخبار في سيرة عمر أشياء تناسب قوله في هذا الحجر الأسود ، كما أمرَ بقطع الشجرة التي بويج رسول الله صلى الله عليه وآله تحتها بيعة الرضوان في عُمره الحديبية ، لأنَّ المساميين بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله كانوا يأتونها ، فيَقِيلون تحتها ، فلما تكرر ذلك أوعدهم عمر فيها ، ثم أمر بها فقطعت .

وروى المُغيرة بن سُويد ، قال : خرجنا مع عمر في حجة حجها ، فقرأ بنا في الفجر : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ ^(٢) ، و﴿ لَا يَلَا فِ قُرَيْشٍ ﴾ ^(٣) ، فلما فرغ رأى الناس يبادرون إلى مسجدٍ هناك ، فقال : ما بالهم ؟ قالوا : مسجدٌ صلى فيه النبي صلى الله عليه وسلم والناس يبادرون إليه ، فناداهم فقال : هكذا هلك أهل الكتاب قبلكم ! اتخذوا آثar أنبيائهم بيعاً . مَنْ عَرَضَتْ لَهُ صلاة في هذا المسجد فليُصَلِّ ، وَمَنْ لم تعرض له صلاة فليمض .

وأتى رجل من المسلمين إلى عمر ، فقال : إننا لما افتحنا المدائن أصبنا كتاباً فيه علمٌ من علوم الفرس ، وكلام معجِب ، فدعا بالدرة فجعل يضربه بها ، ثم قرأ : ﴿ تَحْنُ نُقْصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ ^(٤) ، ويقول : ويلك ! أقصص أحسن من كتاب الله ! إنما هلك

(٢) سورة الفيل : ١ .

(٤) سورة يوسف : ٣ .

(١) سورة الأعراف ١٧٢ .

(٣) سورة قريش : ٢ .

مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، لَأَنْتُمْ أَقْبَلُوا عَلَى كُتُبِ عُلَمَائِهِمْ وَأَسَاقِفَتِهِمْ ، وَتَرَكُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ حَتَّى دَرَسَا ، وَذَهَبَ مَا فِيهِمَا مِنَ الْعِلْمِ .

وَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى عَمْرِو ، فَقَالَ : إِنَّ ضُبَيْعَا التَّمِيمِيِّ لَقَيْنَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَجَعَلَ يَسْأَلُنَا عَنْ تَفْسِيرِ حُرُوفِ مِنَ الْقُرْآنِ ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ أَمَكْنِي مِنْهُ ، فَبَيْنَا عَمْرُ يَوْمًا جَالِسٌ يَغْدِي النَّاسَ إِذَا جَاءَهُ الضُّبَيْعُ ، وَعَلَيْهِ ثِيَابٌ وَعِمَامَةٌ ، فَتَقَدَّمَ فَأَكَلَ ، حَتَّى إِذَا فَرَغَ ، قَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَالذَّارِيَّاتِ دَرُورًا ﴾ * فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿ ^(١) قَالَ : وَيَحْكُ أَنْتَ هُوَ فَقَامَ إِلَيْهِ فَخَسَّرَ عَنْ ذِرَاعِيهِ ، فَلَمْ يَزَلْ يَجْلِدُهُ حَتَّى سَقَطَتْ عِمَامَتُهُ ، فَإِذَا لَهُ ضَفِيرَتَانِ ، فَقَالَ : وَالَّذِي نَفْسُ عَمْرِو بِيَدِهِ لَوْ وَجَدْتُكَ مَحْلُوقًا لَضَرَبْتُ رَأْسَكَ ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فُجِعَ فِي بَيْتٍ ، ثُمَّ كَانَ يُخْرِجُهُ كُلَّ يَوْمٍ فَيَضْرِبُهُ مِائَةً ، فَإِذَا بَرَأَ أَخْرَجَهُ فَضْرِبُهُ مِائَةً أُخْرَى ، ثُمَّ حَمَلَهُ عَلَى قَتَبٍ وَسَيَّرَهُ إِلَى الْبَصْرَةِ . وَكُتِبَ إِلَى أَبِي مُوسَى بِأَمْرِهِ أَنْ يَحْرِمَ عَلَى النَّاسِ مَجَالِسَتَهُ ، وَأَنْ يَقُومَ فِي النَّاسِ خَطِيبًا ، ثُمَّ يَقُولُ : إِنَّ ضُبَيْعَا قَدْ ابْتَغَى الْعِلْمَ فَأَخْطَاهُ ، فَلَمْ يَزَلْ وَضِيْعًا فِي قَوْمِهِ وَعِنْدَ النَّاسِ حَتَّى هَلَكَ ، وَقَدْ كَانَ مِنْ قَبْلِ سَيِّدِ قَوْمِهِ .

وَقَالَ عَمْرُو عَلَى الْمَنَبَرِ : أَلَا إِنَّ أَصْحَابَ الرَّأْيِ أَعْدَاءُ السَّنَنِ ، أَعْيَتِهِمُ الْأَحَادِيثُ أَنْ يَحْفَظُوهَا ، فَأَفْتِنُوا بِآرَائِهِمْ ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا . أَلَا إِنَّا نَقْتَدِي وَلَا نَبْتَدِي ، وَنَتَّبِعُ وَلَا نَبْتَدِعُ ، إِنَّهُ مَا ضَلَّ مَتَمَسِّكٌ بِالْأَثَرِ .

وَرَوَى زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ : سَمِعْتُ عَمْرُو يَقُولُ فِي الْحَجِّ : فِيمَ الرَّمْلَانِ ^(٢) الْآنَ وَالْكَشْفُ عَنِ الْمَنَاقِبِ ، وَقَدْ أَظْهَرَ اللَّهُ الْإِسْلَامَ ، وَنَفَى الْكُفْرَ وَأَهْلَهُ ! وَمَعَ ذَلِكَ لَا نَدْعُ شَيْئًا كُنَّا نَفْعَلُهُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ .

مرَّ عمرُ برجل فسلم عليه ، فردَّ عليه ، فقال : ما اسمك ؟ قال : جرة ، قال : أبو من ؟ قال : أبو شهاب ، قال : تَمَن ؟ قال : من الحرقة ، قال : وأين مسكنك ؟ قال : بحرّة النار ، قال : بأيّها ؟ قال : بذات لظى ، فقال : ويحك ! أدرك أهلك فقد احترقوا . فغضى عليهم فوجدهم قد احترقوا .

وروى الليثُ بنُ سعد ، قال : أتى عمرُ بفتى أمرّد ، قد وجد قتيلًا ملقى على وجه الطريق ، فسأل عن أمره واجتهد ، فلم يقف له على خبر ، فشقَّ عليه ، فكان يدعو ويقول : اللهم أظفرني بقاتله ، حتى إذا كان رأسُ الحول أو قريبًا من ذلك ، وجِدَ طفلٌ مولود ملقى في موضع ذلك القتل ، فاتى به عمر ، فقال : ظفرت بدم القتل ، إن شاء الله تعالى ! فدفع الطفل إلى امرأة ، وقال لها : قومي بشأنه ، وخذي مِنّا نفقته ، وانظري مَنْ يأخذه منك ، فإذا وجدت امرأة تقبله وتضمّه إلى صدرها فأعلميني مكانها ، فلما شبَّ الصبيّ جاءت جارية ، فقالت للمرأة : إن سيّدتي بعثتني إليك لتبعيني إليها بهذا الصبيّ ، فتراه وترّده إليك ، قالت : نعم ، اذهبي به إليها ، وأنا معك ، فذهبت بالصبيّ ، حتى دخلت على امرأة شابة ، فأخذت الصبيّ ، فجعلت تقبله وتغديه وتضمّه إليها ، وإذا هي بنت شيخٍ من الأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءت المرأة وأخبرت عمر ، فاشتمل على سيفه وأقبل إلى منزلها ، فوجد أباها متكئًا على الباب ، فقال له : ما الذي تعلم من حال ابنتك ؟ قال : أعرفُ الناس بحق الله وحق أبيها ، مع حسن صلاتها وصيامها والقيام بدينها ، فقال : إني أحبُّ أن أدخل إليها وأزيدها رغبة في الخير ، فدخل الشيخ ، ثم خرج فقال : ادخل يا أمير المؤمنين ، فدخل وأمر أن يخرج كلٌّ من الدار إلا أباها ، ثم سألها عن الصبيّ ، فلجلجت ، فقال : لتصدّقيني ، ثم انتضى السيف ، فقالت : على رسلك يا أمير المؤمنين ! فوالله لأصدقنك ! إن عجوزاً كانت تدخل على فاتخذتها أمًا ، وكانت تقوم في أمرى بما تقوم به الوالدة ، وأنا لها بمنزلة البنت ،

فكثت كذلك حيناً ، ثم قالت : إنه قد عرض لى سفر ، ولى بنت آتخوف عليها بعدى الضيعة ، وأنا أحب أن أضمتها إليك حتى أرجع من سفرى ، ثم عمدت إلى ابن لها أمرد فهيأته وزينته كما تزين المرأة وأتتني به ، ولا أشك أنه جارية ، فكان يرى منى ماترى المرأة من المرأة ، فاغتفلنى يوماً وأنا نائمة فما شعرت به حتى علانى وخالطنى ، فمددت يدي إلى شفرة كانت عندى فقتلته ، ثم أمرت به فألقى حيث رأيت ، فاشتعلت منه على هذا الصبي ، فلما وضعته ألقىته فى موضع أبيه ، هذا والله خبرها على ما أعلمتك !

فقال عمر : صدقت ، بارك الله فيك ! ثم أوصاها ووعظها وخرج .
وكان عمر يقول : لو أدركت عروة وعفراء لجمعت بينهما .

ذكر عمرو بن العاص يوماً عمر فترحم عليه ، وقال : ما رأيت أحداً أتقى منه ، ولا أعمل بالحق منه ، لا يبالى على من وقع الحق ، من ولد أو والد ، إلى لى منزلى بمصر ضحى ، إذ أتانى آت ، فقال : قدم عبد الله وعبد الرحمن ابنا عمر غازيين ، فقلت : أين نزلا ؟ قال : فى موضع كذا - لأقصى مصر - وقد كان عمر كتب إلى : إياك وأن يقدم عليك أحد من أهل بيتي فتجيزه أو تحبوه بأمر لا تصنعه بغيره ، فأفعل بك ما أنت أهله . فضقت ذرعاً بقدمهما ، ولا أستطيع أن أهدي لهما ، ولا أن آتيهما فى منزلهما ، خوفاً من أيهما ، فوالله إنى لعلى ما أنا عليه ، وإذا قائل يقول : هذا عبد الرحمن بن عمر بالباب وأبو سروة يستأذنان عليك ، فقلت : يدخلان ، فدخلواهما منكسران ، فقالا : أقم علينا حد الله ، فإننا أصبنا الليلة شراباً فسكرنا ، فزبرتهما وطردتهما ، قلت : ابن أمير المؤمنين وآخر معه من أهل بدر ! فقال عبد الرحمن : إن لم تفعل أخبرت أبى إذا قدمت عليه أنك لم تفعل ، فعلت أنى إن لم أقم عليهما الحد غضب عمر وعزلى ، فنحن على ما نحن عليه ،

إذ دخل عبد الله بن عمر ، فقامت إليه ورحبت به ، وأردت أن أجلسه في صدر مجلسي ، فأبى عليّ وقال : إن أبي نهاني أن أدخل عليك إلاّ ألاّ أجد من الدخول بدءاً ، وإنّي لم أجد من الدخول عليك بدءاً ، إن أخى لا يحلق على رؤوس الناس أبداً ، فأما الضرب فاصنع ما بدا لك - قال : وكانوا يحلقون مع الحدّ - فأخرجتهما إلى صحن الدار وضربتهما الحدّ ، ودخل عبد الله بن عمر بأخيه عبد الرحمن إلى بيت من الدار فحلق رأسه ، وحلق أبا سروعة ، والله ما كتبتُ إلى عمر بحرفٍ مما كان ، وإذا كتابه قد ورد :

من عبد الله عمر أمير المؤمنين ، إلى العاصي ابن العاصي ، عجبتُ لك يا ابن العاصي ولجرائتك عليّ ومخالفتك عهدي ! أما إنّي خالفت فيك أصحاب بدر ومن هو خير منك ، واخترتك وأنت الخامل ، وقد متك وأنت المؤخر ، وأخبرتني الناس بجرائتك وخلافك ، وأراك كما أخبروا ، وما أراني إلاّ عازلك فسيء عزلك . ويحك ! تضرب عبد الرحمن ابن عمر في داخل بيتك ، وتحلق رأسه في داخل بيتك ، وقد عرفت أنّ في هذا مخالفتي ! وإنما عبد الرحمن رجل من رعيّتك تصنع به ما تصنع بغيره من المسلمين ، ولكن قلت : هو ولد أمير المؤمنين ، وقد عرفت ألاّ هواة لأحد من الناس عندي في حقّ يجب لله عز وجلّ ، فإذا جاءك كتابي هذا فابعث به في عبادة عليّ قتب ، حتى يعرف سوء ما صنع . قال : فبعثت به كما قال أبوه ، وأقرأت أخاه عبد الله كتاب أبيهما ، وكتبتُ إلى عمر كتاباً أعذّر فيه وأخبرتُه أنّي ضربته في صحن الدار ، وحلفت بالله الذي لا يُخلف بأعظم منه ، أنه الموضع الذي أقيم فيه الحدود على المسلم والذميّ ، وبعثت بالكتاب مع عبد الله بن عمر . فذكر أسلم مولى عمر قال :

قدم عبدُ الله بأخيه عبد الرحمن على أبيهما ، فدخل عليه في عبادة ، وهو لا يقدر على المشي من مَرَكِبِهِ ، فقال : يا عبد الرحمن ، فعات وفعلت ! السَّيِّطُ السَّيِّطُ ! فكلمه

عبد الرحمن بن عوف ، وقال : يا أمير المؤمنين ، قد أقيم عليه الحدّ مرّة ، فلم يلتفت إليه وزبره ، فأخذته الشّياط ، وجعل يصيح : أنا مريض وأنت والله قاتلي ! فلم يرق له ، حتى استوفى الحدّ وحبسه . ثم مرض شهرا ومات .

وروى الزبير بن بكار ، قال : خطب عمرُ أمّ كلثوم بنت عليّ عليه السلام ، فقال له : إنّها صغيرة ، فقال زوجُها يا أبا الحسن ، فإني أرصد من كرامتها ما لا يرصده أحد ، فقال : أنا أبعثها إليك ، فإن رضيتها زوجتكها . فبعثها إليه ببرد ، وقال لها قولي : هذا البرذال الذي ذكرته لك . فقالت له ذلك ، فقال : قولي له : قد رضيتُه رضى الله عنك . ووضع يده على ساقها . فقالت له : أتفعل هذا ! لولا أنّك أمير المؤمنين لكسرت أنفك ، ثم جاءت أباها فأخبرته الخبر ، وقالت : بعثتني إلى شيخ سوء ! قال : مهلا يا بنية ، إنه زوجك ، فجاء عمر إلى مجلس المهاجرين في الروضة ، وكان يجلس فيها المهاجرون الأولون ، فقال : رفقوني ^(١) ، رفقوني ، قالوا : بماذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : تزوّجت أمّ كلثوم بنت عليّ بن أبي طالب ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « كلّ سببٍ ونسبٍ وصهر ينقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي وصهري » .

وكتب عثمان إلى أبي موسى : إذا جاءك كتابي هذا فأعطِ الناس أعطياتهم ، واحمل ما بقى إليّ . ففعل ، وجاء زيد بن ثابت بالمال ، فوضعه بين يدي عثمان ، فجاء ابنُ عثمان ، فأخذ منه أستاذاندة من فضّه ، ففضى بها فبكي زيد ، قال عثمان : مايكيك ؟ قال : أتيت عمر مثل ما أتيتك به ، فجاء ابنُ له فأخذ درهما فامر به فانتزع منه ، حتى أبكى

(١) رَفَأَهُ : إذا قال له : بالرفاء واللين .

الغلام ، وإنّ ابنك قد أخذ هذه فلم أرَ أحداً قال شيئاً . فقال عثمان : إنّ عمر كان يمنعُ
أهلَه وقرابته ابتغاء وجه الله ، وأنا أعطى أهلي وأقاربي ابتغاء وجه الله ، ولن تلقى
مثل عمر .

وروى إسماعيل بن خالد، قال : قيل لعثمان : ألا تكون مثل عمر ! قال : لا أستطيع
أن أكون مثل لقمان الحكيم .

ذكرت عائشة عمر ، فقالت : كان أجودنا ؛ نسيجَ وخديه ، قد أعدّ
للأمور أقرانها .

جاء عبد الله بن سلام بعد أن صلى الناس على عمر، فقال : إن كنتم سبقتُموني بالصلاة
عليه فلا تسبقوني بالثناء عليه ، ثم قال : نعم أخو الإسلام كنت يا عمر ! جواداً بالحق
بخيلاً بالباطل ، ترضى حين الرضا ، وتسخط حين السخط ؛ لم تكن مداحاً ولا معياباً ،
طيب الطّرف ، عفيف الطّرف .

وروى جويرية بن قدامة ، قال : دخلتُ مع أهل العراق على عمر حين أصيب ،
فرأيتُه قد عَصَبَ بطنه بعمامة سوداء ، والدم يسيل ، فقال له الناس : أوصينا ، فقال عليكم
بكتاب الله ، فإنكم لن تضلّوا ما اتّبعتموه . فأعدنا القول عليه ثانية : أوصينا ، قال : أوصيكم
بالمهاجرين ، فإنّ الناس سيكثرُون ويقلّون ، وأوصيكم بالأنصار ، فإنهم شعب الإسلام
الذى لجأ إليه ، وأوصيكم بالأعراب ، فإنهم أصلكم الذى لجأتم إليه ومأواكم . وأوصيكم
بأهل الذمة ، فإنهم عهد نبيكم ورزق عيالكُم ؛ قوموا عني .

فلم أحفظ من كلامه إلا هذه الكلمات :

وروى عمرو بن ميمون، قال : سمعتُ عمر وهو يقول - وقد أشار إلى الستّة، ولم يكلم أحدا منهم إلا عليّ بن أبي طالب وعثمان ، ثم أمرهم بالخروج ، فقال لمن كان عنده : إذا اجتمعوا على رجل فمن خلف فلتضرب رقبته ، ثم قال : إن يوتوها الأجلح^(١) يسلك بهم الطريق ، فقال له قائل : فما يمنعك من المهد إليه ؟ قال : أكره أن أتحمّلها حيّا وميتا .

[خطب عمر الطّوال]

وقال الجاحظ في كتاب ” البيان والتبيين “ : لم يكن عمر من أهل الخطب الطوال ، وكان كلامه قصيرا ، وإنما صاحب الخطب الطوال عليّ بن أبي طالب عليه السلام .

وقد وجدتُ أنا لعمر خطبا فيها بعض الطّول ، ذكرها أبو جعفر محمد بن جرير الطبريّ في التاريخ .

فمنها خطبة خطب بها حين وليّ الخلافة ، وهي بعد حمد الله والثناء عليه وعلى رسوله :

أيّها الناس، إنّي وليتُ عليكم، ولولا رجاء أن أكون خيرَكم لكم ، وأقواكم عليكم ، وأشدّكم استضلاعا بما ينوب من مهمّ أموركم ، ما تولّيت ذلك منكم ، ولكفي عر فيها مجزى^(٢) العطاء موافقة الحساب ، بأخذ حقوقكم كيف آخذها ووضعها أين أضعها ،

(١) الجلح : انحسار الشعر عن جانبي الرأس ، ويريد بالأجلح عليّ بن أبي طالب .

(٢) الطبريّ : « ولكني مهأ محزنا انتظار موافقة الحساب » .

وبلِّسِير فيكم كيف أسير ! فربِّي المستعان ، فإنَّ عمر لم يصبح يثق بقوة ولا حيلة ، إنَّ لم يتداركه الله برحمته وعونه^(١) ..

أيها الناس، إنَّ الله قد ولَّاني أمرَكم ، وقد علمت أنفع مالكم ، وأسأل الله أن يعينني عليه ، وأن يحرِّسني عنده ، كما حرَّسني عند غيره ، وأنَّه يليهني العدل في قسِّمكم كالذي أمر به ، فإني امرؤ مسلم ، وعبد ضعيف إلا ما أعان الله ، ولن يغيِّر الذي وليت من خلافتكم من خلقتي شيئاً إن شاء الله . إنما العظمة لله ، وليس للعباد منها شيء ، فلا يقولنَّ أحلُّكم إنَّ عمر تغيَّر منذ ولي ، وإني أعقل الحقَّ من نفسي ، وأتقدِّم وأبين لكم أمري ، فأبما رجلٍ كانت له حاجة أو ظلم مظلة أو عتب علينا في خلق ، فليؤدِّني ، فإبما أنا رجلٌ منكم . فعليكم بتقوى الله في سرِّكم وعلايتكم وحرِّماتكم وأعراضكم ، وأعطوا الحقَّ من أنفسكم ، ولا يحملْ بعضكم بعضاً على ألا تتحاكموا إليّ ، فإنه ليس بيني وبين أحد هَوادة ، وأنا حبيب إليّ صلاحكم ، عزيز على عنتكم ، وأنتم أناس عامتكم حَضَر في بلاد الله وأهل بلدي لا زرع فيه ولا ضَرْع إلا ما جاء الله به إليه ، وإنَّ الله عزَّ وجلَّ قد وعدكم كرامة كبيرة ، وأنا مسئول عن أمانتي وما أنا فيه ، ومطلِّع على ما يحضرنى بنفسى إن شاء الله ، لا أكِلْهُ إلى أحدٍ ، ولا أستطيع مابعد منه إلا بالأمناء وأهل النصِّح منكم للعامة ، ولست أحمل أمانتي إلى أحد سواهم إن شاء الله^(٢) .

وخطب عمر مرة أخرى ، فقال بعد حمد الله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله :

(١) الطبرى ٥ : ٢٥ ، وهي آخر الخطبة هنا ، وما يليها خطبة أخرى .

(٢) تاريخ الطبرى ٥ : ٢٥ ، ٢٦ .

أيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ [بعض]^(١) الطَّمَع فَقْرٌ ، وَإِنَّ بَعْضَ الْيَأْسِ غِنًى ، وَإِنَّكُمْ تَجْمَعُونَ مَالاً تَأْكُلُونَ ، وَتُؤْمَلُونَ مَالاً تَدْرِكُونَ ، وَأَنْتُمْ مُؤْجَلُونَ فِي دَارِ غُرُورٍ ، وَقَدْ كُنْتُمْ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ تَتَوَخَّدُونَ بِالْوَحْيِ ، وَمِنْ أَسْرٍ شَيْئاً أَخَذَ بِسِرِّهِ ، وَمَنْ أَعْلَنَ شَيْئاً أَخَذَ بِعَلَانِيَتِهِ ، فَأَظْهَرُوا لَنَا حَسْنَ أَخْلَاقِكُمْ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالسَّرَائِرِ ، فَإِنَّهُ مَنْ أَظْهَرَ لَنَا قَبِيحاً ، وَزَعَمَ أَنَّ سِرِّهِ حَسَنَةٌ لَمْ نَصِدِّقْهُ ، وَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا عِلَانِيَةً حَسَنَةً ظَنَنَّا [بِهِ حَسَناً]^(٢) .

وَاعْلَمُوا أَنَّ بَعْضَ الشَّحِّ شُعْبَةٌ مِنَ التَّفَاقُ ، فَأَنْفَقُوا خَيْراً لَأَنْفُسِكُمْ ، وَمَنْ يُوقَ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

أيُّهَا النَّاسُ ، أَطِيبُوا مَثْوَاكُمْ ، وَأَصْلِحُوا أُمُورَكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ، وَلَا تُدْبِسُوا نِسَاءَكُمْ الْقَبَاطِيَّ^(٣) ، فَإِنَّهُ إِنْ لَمْ يَشَفَّ^(٤) فَإِنَّهُ يَصِفُ .

أيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّي لَوَدِدْتُ أَنْ أُنْجَوْكَمَافَا لَالِي وَلَا عَلِيَّ ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ عُمَّرْتُ فِيكُمْ يَسِيراً أَوْ كَثِيراً ، أَنْ أَعْمَلَ فِيكُمْ بِالْحَقِّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَأَلَّا يَبْقَى أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ - وَإِنْ كَانَ فِي بَيْتِهِ - إِلَّا أَنَاهُ حَقُّهُ وَنَصِيبُهُ مِنْ مَالِ اللَّهِ ، وَإِنْ لَمْ يَعْمَلْ إِلَيْهِ نَفْسَهُ ، وَلَمْ يَنْصِبْ إِلَيْهِ بَدَنَهُ ، فَأَصْلِحُوا أَمْوَالَكُمْ الَّتِي رَزَقَكُمْ اللَّهُ ، فَقَلِيلٌ فِي رَفَقٍ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ فِي عَنَفٍ .

وَاعْلَمُوا أَنَّ الْقَتْلَ حَتْفٌ مِنَ الْحَتُوفِ يَصِيبُ الْبَرَّ وَالْفَاجِرَ - وَالشَّهِيدَ مِنْ احْتِسَابٍ نَفْسَهُ ، وَإِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمْ بَعِيراً فَلْيَعِمِدْ إِلَى الطَّوِيلِ الْعَظِيمِ فَلْيَضْرِبْهُ بِعَصَاهُ ، فَإِنْ وَجَدَهُ حَدِيدَ الْفُؤَادِ فَلْيَشْتَرِهِ^(٥) .

وخطب عمر مرة أخرى فقال :

(١) القباطي : ثياب كتان بيض رفاق كانت تعمل في مصر .

(٢) تاريخ الطبري ٦ : ٢٦ .

(٣) تسكلة من تاريخ الطبري

(٤) يشف : يرق حتى يحكي ما تحته .

إِنَّ اللَّهَ سبحانه قد استوجبَ عليكم الشكر ، واتَّخذَ عليكم الحججَ فيما
أَتاكم من كرامة الدنيا والآخرة من غير مسألة منكم ، ولا رغبةٍ منكم فيه إليه ، فخلقكم
- تبارك وتعالى - ولم تكونوا شيئاً لنفسه وعبادته ، وكان قادراً أن يجعلكم لأهون خلقه عليه
فجعلكم عامة خلقه ، ولم يجعلكم لشيء غيره ، وسخرَ لكم مافى السموات والأرض ،
وأسبغَ عليكم نعمه ظاهرةً وباطنةً ، وحملكم في البرِّ والبحر ، ورزقكم من الطيبات
لعلكم تشكرون . ثم جعل لكم سمعاً وبصراً . ومن نعم الله عليكم نعمٌ نعمٌ بها بنى آدم
ومنها نعمٌ اختصَّ بها أهل دينكم ، ثم صارت تلك النعم خواصها في دولتكم وزمانكم
وطبقتكم ، وليس من تلك النعم نعمةٌ وصلت إلى امرئ خاصةً إلا لو قسمتم ما وصل منها
بين الناس كلهم أتعبه شكرها ، وفدحهم حقها إلا بعون الله مع الإيمان بالله ورسوله ،
فأنتم مستخلفون في الأرض قاهرون لأهلها ، قد نصرَ الله دينكم فلم تصبح أمة مخالفة
لدينكم ، إلا أمتين أمة مستعبدة للإسلام وأهله ، يتجرئون لكم ، تستصفون^(١) معاشهم
وكدائهم ، ورشح جباههم ، عليهم المؤنة ، ولكم المنفعة ، وأمة تنتظر وقائع الله وسطواته في
كل يوم وليلة ، قد ملأ الله قلوبهم رغباً ، فليس لهم معقل يلجئون إليه ، ولا مهرب يتقون به ،
قد دهمتهم جنودُ الله ونزلت بساحتهم ، مع رفاغة^(٢) العيش واستفاضة المال ، وتتابع البعوث
وسد الثغور بإذن الله ، في العافية الجليلة العامة التي لم تكن الأمة على أحسن منها منذ
كان الإسلام ، والله الحمود مع الفتوح العظام في كل بلد ، فاعسى أن يبلغ شكر الشاكرين ،
وذكر الذاكرين ، واجتهاد المجتهدين ، مع هذه النعم التي لا يحصى عددها ، ولا يقدر
قدرها ، ولا يستطيع أداء حقها إلا بعون الله ورحمته ولطفه ! فנסأل الله الذي أبلانا هذا
أن يرزقنا العمل بطاعته ، والمسارة إلى مرضاته . واذكروا عباد الله بلاء الله عندكم ،
واستتموا نعمة الله عليكم وفي مجالسكم مثني وفرادي ؛ فإن الله تعالى قال لموسى :

(١) استصنى الشيء : أخذ منه صفوه . (٢) الرفاغة : سعة العيش وطيبه .

﴿أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ ^(١) وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ ^(٢) فلو كنتم إذ كنتم مستضعفين محرومين خيرا الدنيا على شعبة من الحق تؤمنون بها ، وتستريحون إليها ، مع المعرفة بالله وبدينه ، وترجون الخير فيما بعد الموت ؛ يولكنكم كنتم أشد الناس عيشة وأعظم الناس جهالة ، فلو كان هذا الذي ابتلاكم به لم يكن معه حظ في دنياكم غير أنه نِقَّةٌ لَكُمْ فِي آخِرَتِكُمُ التَّيُّ إِلَى الْمَعَادِ وَالْمُنْقَابِ ، وَأَتَمُّ مِنْ جَهْدِ الْمَعِيشَةِ عَلَى مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ كُنْتُمْ أَحْرِيَاءُ أَنْ تَشْحُوا عَلَى نَصِيْبِكُمْ مِنْهُ ، وَن تَظْهَرُوهُ عَلَى غَيْرِهِ فَبَلَّه ^(٣) . أما إنه قد جمع لكم فضيلة الدنيا وكرامة الآخرة ، أو لمن شاء أن يجمع ذلك منكم ، فأذكركم الله الحائل بينكم وبين قلوبكم إلّا ما عرفتم حق الله وعملتم له ، وسيرتم أنفسكم على طاعته ، وجمعتم مع السرور بالنعم خوفاً وزواها وانتقالها ، ووجلا من تحويلها ، فإنه لا شيء أسلب للنعمة من كفرانها ، وإن الشكر أمن للغير ، ونماء للنعمة ، واستجلاب للزيادة ، وهذا على في أمركم ونهيكم وواجب إن شاء الله .

وروى أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتاب " مقاتل الفرسان " قال : كتب عمر إلى سلمان بن ربيعة الباهليّ - أو إلى النعمان بن مقرن :
إن في جندك رجلين من العرب : عمرو بن مغديكرب وطليحة بن خويلد ، فأحضرهما الناس وأديهما وشاورهما في الحرب ، وأبعثهما في الطلائع ، ولاتولهما عملا من أعمال المسلمين ، وإذا وضعت الحرب أوزارها ، فضعهما حيث وضعا أنفسهما . قال : وكان عمرو ارتد ، وطليحة تنبأ .

(١) سورة إبراهيم : ٥ (٢) سورة الأنفال : ٢٦ (٣) بله : اسم فعل بمعنى دع واترك .

وروى أبو عبيدة أيضاً في هذا الكتاب ، قال : قدِم عمرو بن معد يكرب والأجلح بن وقاص الفهمي على عمر ، فأتياه وبين يديه مالٌ يوزنُ ، فقال : متى قدِمتما ؟ قالَا : يومَ الخميس ، قال : فما حبَّسكما عني ؟ قالَا : شغلنا المنزل يوم قدِمنا ، ثم كانت الجمعة ، ثم غدونا عليك اليوم . فلما فرَغ من وزن المال نحاه ، وأقبل عليهما ، فقال : هيه ! فقال عمرو بن معد يكرب : يا أمير المؤمنين ، هذا الأجلح بن وقاص ، الشديد المِرَّة ، البعيد الغرَّة ، الوشيك الكرَّة ؛ والله ما رأيت مثله حين الرجال صارعٌ ومصرعٌ والله لكأنه لا يموت . فقال عمر للأجلح - وأقبل عليه ، وقد عرف الغضب في وجهه : هيه ! يا أجلح ! فقال الأجلح : يا أمير المؤمنين ، تركتُ الناس خلفي صالحين ، كثيراً نسلهم ، دائرة أرزاقهم ، خصبةً بلادهم ، أجرياء على عدوهم ، فاكلاً عدوهم عنهم ، فسيتمتع الله بك ، فمارأينا مثلك إلا من سبقك ، فقال : مامنعك أن تقول في صاحبك مثل ما قال فيك ؟ قال : ما رأيتُ من وجهك ، قال : أصبت ، أما إنك لو قلت فيه مثل الذي قال فيك لأوجعتكما ضرباً وعقوبة ، فإذا تركتكم لنفسك فسأتركه لك ، والله لو ددت لو سلَّمتُ لكم حالكم ، ودامت عليكم أموركم . أما إنَّه سيأتي عليك يوم تعضنه وينهشك ، وتهزّه وينبحك ، ولست له يومئذ وليس لك ، فإن لا يكن بعهدكم ، فما أقربه منكم !

لما أيسر الهرمزان صاحب الأهواز وتُسْتَر وحمل إلى عمر ، حُل ومعه رجال من المسلمين ، فيهم الأخنف بن قيس وأنس بن مالك ، فأدخلوه في المدينة في هيئته ، وعليه تاجه الذهب وكسوته ، فوجدوا عمر نائماً في جانب المسجد ، فجلسوا عنده ينتظرون انتباهه ، فقال الهرمزان : أين عمر ؟ فقالوا : هو ذا ، قال : وأين حُرَّاسة وحجَّابه ؟ قالوا : لا حارس له ولا حاجب ، قال : فينبغي أن يكون هذا نبياً ! قالوا : إنَّه يعمل عمل الأنبياء .

فاستيقظ عمر ، فقال : الهرمزان ! قالوا : نعم ، قال : لا أكلمه حتى لا يبقى عليه من حليته شيء ، فرموا بالحلية والبسوه ثوباً ضعيفاً ، فقال عمر : يا هرمزان ؛ كيف رأيت وبال الغدر ؟ - وقد كان صالح المسلمين مرة ثم نكث - فقال : يا عمر ، إنا وإيتاكم في الجاهلية كنّا نغلبكم إذ لم يكن الله معكم ولا معنا ، فلما كان الله معكم غلبتمونا ، قال : فاعذرْك في انتقاضك مرّة بعد مرة ؟ قال : أخاف إن قلتُ أن تقتلني ، قال : لا بأس عليك ! فأخبرني ، فاستسقى ماء ، فأخذه وجعلت يده ترعد ، قال : مالك ؟ قال : أخاف أن تقتلني وأنا أشرب ، قال : لا بأس عليك حتى تشربه ، فألقاه من يده ، فقال : مابالك ! أعيّدوا عليه الماء ولا تجمعوا عليه بين القتل والعطش ، قال : كيف تقتلني وقد أمنتني ؟ قال : كذبت ! قال : لم أكذب ، فقال أنس : صدق يا أمير المؤمنين ، قال : ويحك يا أنس ! أنا أو من قاتل تجزأة بن ثور والبراء بن مالك ! والله لتأتيني بالخروج أو لأعاقبك ! قال : إنك قلت : « لا بأس عليك حتى تخبرني ولا بأس عليك حتى تشرب » ! وقال له ناس من المسلمين مثل قول أنس ، فأقبل على الهرمزان ، فقال : تخدعني ! والله لا تخدعني إلا لأن أسلم ، فأسلم ، ففرّض له ألفين ، وأنزله المدينة .

بعث عمرُ عُمَيْرَ بن سَعِيدِ الأنصاريّ عاملاً على حِمْص ، فكثّ حولاً لا يأتيه خبره ، ثم كتب إليه بعد حول : إذا أتاك كتابي هذا فأقبل واحمل ما جئيت من مال المسلمين ، فأخذ عُمَيْرُ جرابه ، وجعل فيه زاده وقصعته ، وعلّق أداته ، وأخذ عَنَزَتَهُ^(١) ، وأقبل ماشياً من حِمْص حتى دخل المدينة ، وقد شحّب لونه ، واغبرّ وجهه ، وطال شعره . فدخل على عمر فسلم ، فقال عمر : ماشأناك يا عُمَيْرُ ؟ قال : ماترى من شأني ، ألسن تراني صحيح البدن ، ظاهر الدّم ، معى الدنيا أجرّها بقرّنيها ؟ قال : وما معك - فظنّ عمر أنّه قد جاء

(١) العنزة : عصا مثل الحربة .

بمالٍ ، قال : معى جرابى أجعل فيه زادى، وقصّعتى آكل فيها وأغسل منها رأسى وثيابى ،
وأداتى أحمل فيها وضوئى وشرابى، وعنّزتى أتوكأ عليها وأجاهد بها عدوّاً إن عرّض لى .
قال عمر: أفيئت باشيا ؟ قال : نعم ، لم يكن لى دابةٌ ، قال : أما كان فى رعيتك أحد يتبرّع
لك بدابة تركبها ؟ قال : ما فعلوا، ولا سألتهم ذلك ، قال عمر : بئس المسلمون خرجت من
عندهم ! قال عمير : اتق الله يا عمر، ولا تقلّ إلا خيراً ، قد نهاك الله عن الغيبة، وقد رأيتهم
يصلّون ! قال عمر: فإذا صنعت فى إمارتك ؟ قال : وما سؤالك ؟ قال : سبحان الله ! قال :
أما لى لولا أخشى أن أعمل ما أخبرتك. أتيت البلد ، فجمعت صلحاء أهله فولّيتهم جبايته،
ووضعه فى مواضعه، ولو أصابك منه شىء لأتاك، قال : أما جئت بشىء ؟ قال : لا ، فقال:
جدّدوا لعمير عهداً، قال : إنّ ذلك لشىء لا أعمله بعدك لك، ولا لأحد بعدك، والله ما كدت
أسلم - بل لم أسلم، قلت لنصرانى معاهد : أخزأك الله ، فهذا ما عرّضتنى له يا عمر ! إن أشقى
أيامى ليوم صحبتك ! ثم استأذنه فى الانصراف ، فأذن له ، ومنزله بقباء بعيداً عن المدينة،
فأمهله عمر أياماً ثم بعث رجلاً يقال له الحارث ، فقال : انطلق إلى عمير بن سعد وهذه
مائة دينار ، فإن وجدت عليه أثراً فأقبل علىّ بها، وإن رأيت حالاً شديدة فادفع إليه هذه
المائة، فانطلق الحارث فوجد عميراً جالساً يغلى قيصاً له إلى جانب حائط، فسلم عليه، فقال عمير:
انزل رحمك الله ! فنزل فقال: من أين جئت ؟ قال: من المدينة، قال : كيف تركت أمير المؤمنين ؟
قال : صالحاً ، قال : كيف تركت المسلمين ؟ قال : صالحين ، قال : أليس عمر يقيم الحدود ؟
قال : بلى ، ضرب ابناً له على فاحشة فمات من ضرب به ، فقال عمير : اللهم أعين عمر ، فإنى
لا أعلمه إلا شديداً حبه لك ! قال : فنزل به ثلاثة أيام ، وليس لهم إلا قرص من شعير
كانوا يخبثونه كلّ يوم به ويطوون ، حتى نالهم الجهد ، فقال له عمير : إنك قد أجمعتنا ،
فإن رأيت أن تتحوّل عنا فافعل ، فأخرج الحارث الدنانير فدفعها إليه ، وقال : بعث بها
أمير المؤمنين ، فاستغن بها ، فصاح وقال : ردّها ، لا حاجة لى فيها ، فقالت المرأة : خذها

ثم وضعها في موضعها ، فقال : مالى شيء أجعلها فيه ! فشقت أسفل درعها^(١) فأعطته خيرة فشدّها فيها ، ثم خرج فقسّمها كلّها بين أبناء الشهداء والفقراء ، فجاء الحارث إلى عمر فأخبره ، فقال : رحم الله عميرا ! ثم لم يلبث أن هلك ، فعظم مهلكه على عمر ، وخرج مع رهط من أصحابه ماشين إلى بقيع الغرقد ، فقال لأصحابه : ليتّمنين كلّ واحد منا أمنيته ، فكلّ واحد تمنى شيئا ، وانتهت الأمنية إلى عمر ؛ فقال : وددت أن لى رجلا مثل عمير بن سعد أستعين به على أمور المسلمين !

[نبذ من كلام عمر]

ومن كلام عمر : إيّاكم وهذه الجازر ، فإن لها ضراوة كضراوة النمر .
وقال : إيّاكم والراحة فإنها غفلة .
وقال : السّن غفلة .
وقال : لا تُسكنوا نساءكم الغرف ، ولا تعلّوهن الكتابة ، واستعينوا عليهن بالعرى ، وعودوهن قول « لا » ، فإن « نعم » تجرّهن على المسألة .
وقال : تبين عقل المرء في كلّ شيء ، حتى في علته ، فإذا رأيته يتوقّى على نفسه الصبر عن شهوته ، ويحتّمى من مطعمه ومشربه ، عرفت ذلك في عقله ؛ وما سألتى رجلا عن شيء قطّ إلا تبين لى عقله في ذلك .
وقال : إنّ للناس حدودا ومنازل ، فأنزلوا كلّ رجل منزله ، وضعوا كلّ إنسان فى حده ، واحلّوا كلّ امرئ بفعله على قدره .
وقال : اعتبروا عزيمة الرّجل بحميته ، وعقله بمتاع بيته . قال أبو عثمان الجاحظ : لأنه

(١) الدرر : القميص .

ليس من العقل أن يكون فرشه لبيدا ومرقعته طبرية .
 وقال : مَنْ يئِسَ من شيء استغنى عنه ، وعزُّ المؤمن استغناؤه عن الناس .
 وقال : لا يقوم بأمر الله إلا مَنْ لا يصانع ، ولا يصرع ، ولا يقبع المطامع .
 وقال : لا تُضعِفُوا همتكم ، فإنِّي لم أر شيئا أقعدَ برجل عن مكرمةٍ مِنْ
 ضعف همته .

ووعظ رجلا فقال : لا تلهك النَّاسَ عن نفسك ، فإنَّ الأمور إليك تصلُ دونهم ،
 ولا تقطع النَّهارَ سادرا ، فإنه محفوظ عليك ، فإذا أسأت فأحسِّنْ ، فإنِّي لم أر شيئا أشدَّ
 طلبا ، ولا أسرع إدراكا من حسنةٍ حديثةٍ لذنبٍ قديم .
 وقال : احذر من فلتاتِ السَّباب ، وكلَّ ما أورثك النَّبْزُ ^(١) ، وأعلَقك اللقب ،
 فإنه إنَّ يعظم بعده شأنك يشتدَّ على ذلك ندمك .

وقال : كلَّ عملٍ كرهتَ من أجله الموت فاتركه ، ثم لا يضرَّك متى ميت .
 وقال : أقلِّ من الدَّيْنِ تعش حرا ، وأقلل من الذَّنوبِ يهنُ عليك الموت ، وانظر
 في أيِّ نصاب تضع ولدك ، فإنَّ العِرْقَ دسَّاس .
 وقال : ترك الخطيئة أسهلُّ من معالجة التوبة .

وقال : احذروا النعمة حذرَكم المعصية ، وهي أخفُّهما عليكم عندى .
 وقال : احذروا عاقبة الفراغ ، فإنه أجمع لأبواب المكروه من السكر .
 وقال : أجودُ النَّاسِ مَنْ يجود على من لا يرجو ثوابه ، وأحلمهم مَنْ عفا بعد
 القدرة ، وأبخلهم مَنْ بخل بالسَّلام ، وأعجزهم من عجز في دعائه .
 وقال : ربَّ نظرة زرعت شهوة ، ورب شهوة أورثت حزنا دائما .

(١) النبز : اللقب المريب ؛ ومنه قوله تعالى : « ولا تنازروا بالألقاب » .

وقال : ثلاث خصالٍ مَنْ لم تكن فيه لم ينفعه الإيمان : حِلْمٌ يردُّ به جَهْلُ الجاهل ،
وَوَرَعٌ يَحْجُزُهُ عن المحارم ، وَخُلُقٌ يَدَارِي به الناس .

[أخبار عمرو مع عمرو بن معد يكرب]

وذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتاب "مقاتل الفرسان" " أن سعد بن أبي
وقاص أوفد عمرو بن معد يكرب بعد فتح القادسية إلى عمر ، فسأله عمر عن سعد : كيف
تركته ، وكيف رضا الناس عنه ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، هو لم كالأب يجمع لهم
جمع الذرة ، أعرابي في تمرته^(١) ، أسد في تامورته^(٢) ، نبطي في جبايته ، يقسم
بالسوية ، ويعدل في القضية ، وينفر في السرية .

وكان سعد كتب يُثنى على عمرو ، فقال عمر : لكأنما تعاوضنا الثناء ! كتب
يُثنى عليك ، وقدمت ثني عليه ! فقال : لم أثن إلا بما رأيت ، قال : دَعُ عنك سعدا ،
وأخبرني عن مدح قومك .

قال : في كلِّ فضلٍ وخير ، قال : ما قولك في علة بن خالد ؟ قال : أولئك فوارس
أعراضنا ، أحثنا طلبا ، وأقلنا هربا ، قال : فسعد العشيرة ؟ قال : أعظمنا خيسا^(٣) ،
وأكبرنا رئيسا ، وأشدنا شريسا^(٤) . قال : فالخارث بن كعب ؟ قال : حكمة
لا ترام ، قال : ففراد ؟ قال : الأنقياء البررة ، والمساعير الفجرة ، ألزمنا قرارا ،
وأبعدنا آثارا .

(١) التمرة : بردة من صوف يلبسها الأعراب .

(٢) قال في اللسان : « وسأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه عمرو بن معد يكرب عن سعد فقال : أسد
في تامورته ، أى في عمرته ، وهويبت الأسد الذى يكون فيه ، وهى في الأصل الصومعة . فاستعارها للأسد » .

(٣) الخيس : الجيش . (٤) شريسا ، أى شراسة .

قال : فأخبرني عن الحرب ، قال : مرة المذاق ، إذا قلّصت عن ساق ، من صبر فيها عرف ، ومن ضعف عنها تلف ، وإنها لكما قال الشاعر :

الحَرْبُ أَوَّلُ مَا تَكُونُ فَتِيَّةٌ تَسْعَى بِزَيْنَتِهَا لِكُلِّ جَهُولٍ^(١)
حتى إذا استعرت وشبّ ضرامها عادت عجوزاً غير ذاتِ حليل
قُمَطَاءَ جَزَتْ رَأْسَهَا وَتَنَكَّرَتْ مَكْرُوهَةً لِلشَّمِّ وَالتَّقْبِيلِ

قال : فأخبرني عن السلاح ، قال : سلّ عما شئت منه ، قال : الرمح ؟ قال : أخوك وربما خانك ، قال النبل ؟ قال : منايا تُخَطِّئُ وتصيب ، قال : الثرس ؟ قال : ذاك المجنّ ، وعليه تدور الدوائر ، قال : الدرع ؟ قال : مشغلة للراكب^(٢) ، متعبة للراجل ، وإنها لحِصْنٌ حَصِين . قال : السيف ؟ قال : هناك قارعت أمك الهبل ، قال : بل أمك ، قال : بل أمي ، والحمى أضرعتني^(٣) لك^(٤) .

عرض سليمان بن ربيعة الباهليّ جنده بأرمينية ، فكان لا يقبل من الخليل إلا عتيقا ، فمرّ عمرو بن معد يكرب بفارس غليظ ، فردّه وقال : هذا هجين ، قال عمرو : إنه ليس بهجين ، ولكنه غليظ ، قال : بل هو هجين ، فقال عمرو : إنّ الهجين ليعرفُ الهجين . فكتب بكلمته إلى عمر ، فكتب إليه : أمّا بعد يا بن معد يكرب ، فإنك القائل لأميرك ما قلت ، فإنه بلغني أنّ عندك سيفاً تسميه الصمصامة ، وأنّ عندى سيفاً أسميه مصمما ، وأقسم بالله لئن وضعته بين أذنك لا يقلع حتى يبلغ قحفك .

(١) تنسب هذه الأبيات لامرئ القيس ، ديوانه ٣٥٣ .

(٢) في القمد : « مثقلة للراكب متعبة للفارس » .

(٣) أراد أن الإسلام قبيح ، ولو كان في الجاهلية ما استطاع عمر أن يكلمه بهذا الكلام .

(٤) الخبر في القمد ١ : ٢١٠ ، عيون الأخبار ١ : ١٣٠ .

وكتب إلى سليمان بن ربيعة يَوْمُهُ في حِلْمِهِ عَنْهُ ، فَلَمَّا قَرَأَ عَمْرُو الْكِتَابَ ، قَالَ : مَنْ تَرَوْنَهُ يَعْنِي ؟ قَالُوا : أَنْتَ أَعْلَمُ ، قَالَ : هَدَدَنِي بَعْلِي وَاللَّهِ ، وَقَدْ كَانَ صَلِّيَ بِنَارِهِ مَزَّةً فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَأَفْلَتَ مِنْ يَدِهِ بِجُرْئِيَّةٍ ^(١) الذَّقْنُ ، وَذَلِكَ حِينَ ارْتَدَّتْ مَذْحِجٌ ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَمَرَ عَلَيْهَا فَرَوَةَ بِنُ مَسِيكَ الْمَرَادِيَّ ، فَأَسَاءَ السَّيْرَةَ ، وَنَابَذَ عَمْرُو بْنُ مَعْدٍ يَكْرِبَ فَفَارَقَهُ فِي كَثِيرٍ مِنْ قِبَائِلِ مَذْحِجٍ ، فَاسْتَجَاشَ فَرَوَةَ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَأَرْسَلَ خَالِدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ فِي سَرِيَّةٍ وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بَعْدَهُ فِي سَرِيَّةٍ ثَانِيَةٍ ، وَعَلَى بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي سَرِيَّةٍ ثَالِثَةٍ ، وَكَتَبَ إِلَيْهِمْ : كُلٌّ وَاحِدٌ مِنْكُمْ أَمِيرٌ مِنْ مَعَهُ ، فَإِذَا اجْتَمَعْتُمْ فَعَلَى أَمِيرٌ عَلَى الْكَلِّ ، فَاجْتَمَعُوا بِمَوْضِعٍ مِنْ أَرْضِ الْيَمَنِ يُقَالُ لَهُ « كَسْر » ، فَاقْتَتَلُوا هُنَاكَ ، وَصَمَدَ عَمْرُو بْنُ مَعْدٍ يَكْرِبَ لِعَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَكَانَ يَظُنُّ أَنْ لَا يَثْبُتَ لَهُ أَحَدٌ مِنْ شَجْعَانَ الْعَرَبِ - فَثَبَّتَ لَهُ ، فَعَلَا عَلَيْهِ ، وَعَايَنَ مِنْهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَحْتَسِبُهُ ، فَقَرَّرَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ هَارِبًا نَاجِيًا بِحُشَاشَةِ نَفْسِهِ ، بَعْدَ أَنْ كَادَ يَقْتُلُهُ ، وَفَرَّ مَعَهُ رُؤُوسُ مَذْحِجٍ وَفَرَسَانِهِمْ ، وَغَنَمُ الْمُسْلِمِينَ أَمْوَالَهُمْ ، وَسُيِّدَتْ ذَلِكَ الْيَوْمَ رِيحَانَةُ بِنْتُ مَعْدٍ يَكْرِبَ أخت عَمْرُو ، فَأَدَّى خَالِدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ فِدَاءَهَا مِنْ مَالِهِ ، فَأَصَابَهُ عَمْرُو أَخُوهَا الصَّمْصَامَةَ ، فَلَمْ يَزَلْ يَنْتَقِلُ فِي بَنِي أُمَيَّةَ وَبَتَدَاوُلُونَهُ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ حَتَّى صَارَ إِلَى بَنِي الْعَبَّاسِ فِي أَيَّامِ الْمُهَدِّيِّ مُحَمَّدِ بْنِ الْمَنْصُورِ أَبِي جَعْفَرٍ .

[فصل فيما نقل عن عمر من الكلمات الغريبة]

فَأَمَّا مَا نَقَلَ عَنْ عَمْرٍو مِنَ الْأَلْفَاظِ الْغَرِيبَةِ اللَّغَوِيَّةِ الَّتِي شَرَحَهَا الْمَفْسُرُونَ ، فَتَحْنُ نَذَكُرُ مِنْ ذَلِكَ مَا يَلِيقُ بِهَذَا الْكِتَابِ .

(١) أى قرب الموت منه كقرب الجريمة من الذنن ، وذلك إذا أشرف على التلف ثم نجا ، وهذا مثل يضرب في إثلاث الجبان - والجريمة : بقية الروح - وانظر الميداني ٢ : ٦٩ .

قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تاريخه : روى عبد الرحمن بن أبي زيد ، عن عمران بن سودة الليثي ، قال : صليت الصبح مع عمر ، فقرأ « سبحان » وسورة معها ، ثم انصرف ، فقامت معه ، فقال : أحاجة ؟ قلت : حاجة ، قال : فالحق ، فالحقت ، فلما دخل أذن ، فإذا هو على رمال^(١) سرير ، ليس فوقه شيء ، فقلت : نصيحة ! قال : مرحباً بالناصح غدواً وعشياً ، قلت : عابت أمتك - أو قال رعيتك - عليك أربعاً ، قال : فوضع عود الدرة ثم ذقن عليها - هكذا روى ابن قتيبة - وقال أبو جعفر : « فوضع رأس دِرَّتَه في ذقنه » ووضع أسفلها على فخذه ، وقال : هات - قال : ذكروا أنك حرمت المنة في أشهر الحج - وزاد أبو جعفر : « وهي حلال » - ولم يحرّمها^(٢) رسول الله صلى الله عليه وآله ولا أبو بكر ، فقال : أجل ! إنكم إذا اعتمرتم في أشهر حجكم رأيتموها مجزئة عن حجكم ، ففزع حجكم ، وكانت قايمة قلوب عامها والحج بهاء من بهاء الله ، وقد أصبت . قال : وذكروا أنك حرمت متعة النساء ، وقد كان رخصة من الله نستمتع بقبضة ، ونفارق عن ثلاث ، قال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله أحلها في زمان ضرورة ، ورجع الناس إلى السعة ، ثم لم أعلم أحداً من المسلمين عاد إليها ، ولا عمل بها ، فالآن من شاء نكح بقبضة ، وفارق عن ثلاث بطلاق وقد أصبت .

وقال : ذكروا أنك أعتقت الأمة إذا وضعت ذابطنها بغير عتاقة سيدها . قال : ألحقت حرمة بحرمة ، وما أردت إلا الخير ، واستغفر الله .

قال : وشكروا منك عفف السباق ، ونهز الرعية . قال : فنزع الدرة ثم مسحها حتى أتى على سيورها ، وقال : وأنا زميل محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة قرقرة

(٢) الطبري : « ولم يفعل ذلك » .

(١) ساقطة من تاريخ الطبري .

الكُدر ، فوالله إني لأززع فأشبع ، وأسقي فأروى ، وإني لأضرب العرُوض ، وأزجر العَجُول ، وأؤدب قَدْرِي ، وأسوق خَطُوتِي ، وأردّ اللَّفُوت ، وأضمّ العنود ، وأكثر الضَّجْر ، وأقلّ الضرب ، وأشهر بالعصا ، وأدفع باليد ، ولولا ذلك لأعذرت . قال أبو جعفر : فكان معاوية إذا حدث بهذا الحديث يقول : كان والله عالما برعيته^(١) . قال ابن قتيبة : رَمَلَت السَّريِر وأرملته ، إذا نسجت به بشرط من خوض أوليف . وذقن عليها ، أى وضع عليها ذقنه يستمع الحديث .

وقوله : فقَرعَ حَجَّكُم ، أى خَلَتْ أَيَّامَ الْحَجِّ من الناس ، وكانوا يتعوذون من قرع الفناء ، وذلك ألا يكون عليه غاشية وزوار ، ومن قرع المراح ، وذلك ألا يكون فيه إبل والقاية : قشر البيضة إذا خرج منها القرخ . والقوبُ : القرخ ، قال الكُميت :

لَهْنٌ وَالْمَشِيبُ وَمَنْ عَلاهُ مِنْ الْأَمْثَالِ قَايِيَةٌ وَقُوبٌ

أراد أن النساء ينفرن من ذى الشيب ويفارقنه كما يفارق الفرخ البيضة ، فلا يعود إليها بعد خروجه منها أبدا . وروى عن عمر : إنكم إذا رأيتم العُمرة في أشهر الحج كافية من الحج خلت مكة من الحجاج ، فكانت كبيضة فارقها فرخها .

قوله : « إني لأززع فأشبع ، وأسقي فأروى » مثل مستعار من رعيت الإبل ، أى إذا أرتعت الإبل ، أى أرسلتها ترعى تركتها حتى تشبع ، وإذا سقيتها تركتها حتى تروى . وقوله : « أضرب العرُوض » ، العروض : الناقة تأخذ يمينا وشمالا ، ولا تلزم

الحججة ، يقول : أضربها حتى تعود إلى الطريق . ومثله قوله : « وأضم العنود » .

والعجول : البعير يند عن الإبل ، يركب رأسه عجلا ويستقبلها .

(١) تاريخ الطبري ٤ : ٢٢٥ (طبعة المعارف) .

قوله : « وأؤدّب قَدْرِي » ، أى قدر طاقتي .
 وقوله : « وأسوق خَطَوَتِي » أى قدر خَطَوَتِي .
 واللفوت : البعير يلتفت يمينا وشمالا ويروغ ،
 وقوله : « وأكثير الزَّجْر وأقلّ الضرب » أى أنه يقتصر من التأديب في السياسة على ما يكتفى به ، حتى يضطر إلى ما هو أشد منه وأغلظ .

وقوله : « وأشهر بالعصا وأدفع باليد » ، يريد أنه يرفع العصا يُرْهب بها ولا يستعملها ،
 ولكنه يدفع بيده .

قوله : « ولولا ذلك لأعذرت » أى لولا هذا التدبير وهذه السياسة خلقت بعض ما أسوق ، ويقال : أعذر الراعى الشاة والناقة إذا تركها ، والشاة العذيرة وعذرت هي ، إذا تخلفت عن الغنم .

قال ابن قتيبة ، وهذه أمثال ضربها ، وأصلها في رعية الإبل وسوقها ، وإنما يريد بها حُسن سياسته للناس في الغزاة التي ذكرها ، يقول : فإذا كنتُ أفعل كذا في أيام رسول الله صلى الله عليه وآله مع طاعة الناس له ، وتعظيمهم إياه ، فكيف لأفعله بعده !
 وعندى أن ابن قتيبة غلط في هذا التأويل ، وليس في كلام عمر ما يدل على ذلك وليس عمر في غزاة قرقرة الكدر يسوس الناس ولا يأمرهم ولا ينههم ، وكيف ورسول الله صلى الله عليه وآله حاضر بينهم ! ولا كان في غزاة قرقرة الكدر حرب ، ولا ما يحتاج فيه إلى السياسة ، وهل كان لعمر أو لعمر ورسول الله صلى الله عليه وآله حتى أن يُرتع فيشبع ، ويستقى فيروى ! وهل تكون هذه الصفات وما بعدها إلا للرئيس الأعظم والذي أراد عمر ذكر حاله في خلافته رادّا على عمران بن سودة في قوله : « إن الرعية يشكون منك عُنْف السَّيَاقِ وشدة النهر » ، فقال : ليشكون ! فوالله إنى لرفيق بهم ، ومستقص في سياستهم ،

ولا ناهك لهم عقوبة ، وإنى لأقنع بالهنية والتهويل عليهم ، ولا أعمل العصا حيث يمكننى الاكتفاء باليد ، وإنى أردّ الشارد منهم وأعدل المائل . . . ، إلى غير ذلك من الأمور ، التى عدّها وأحسن فى تعديدها .

وإنما ذكر قوله : « أنا زميل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزاة قرقرة الكدر » ، على عادة العرب فى الافتخار وقت المنافرة وعندما تجيش النفس ويحمى القلب ، كما كان على عليه السلام يقول وقت الحاجة : « أنا عبد الله وأخو رسوله » ، فيذكر أشرف أحواله ، والمزية التى اختصّ بها عن غيره ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله فى غزاة قرقرة الكدر أردف عمر معه على بعيره ، فكان عمر يفخر بها ويذكرها وقت الحاجة إليها .

وفى حديث عمر أنه خرج من الخلاء ، فدعا بطعام قليل له : ألا تتوضأ ؟ فقال : لولا التَّنطس ما باليت ألا أغسل يدي (١) .

قال أبو عبيد القاسم بن سلام : قال ابن عُلَيَّة : التَّنطس التَّقْدُّر . وقال الأصمعى : هو المبالغة فى التطهر ، ككلّ من أدقّ النظر فى الأمور فاستقصى علمها فهو متنطس ، ومنه قيل للطبيب : النُّطاسى والنُّطيس لدقّة علمه بالطب .

وفى حديث عمر حين سأل الأسقف عن الخلفاء ، خلّدته ، حتى إذا انتهى إلى الرابع فقال : صدّع من حديد ، وقال عمر : وادفّراه (٢) !

قال أبو عبيدة ، قال الأصمعى : كان حماد بن سلمة يقول : « صدأ من حديد ، وهذا أشبه بالمغنى ، لأنّ الصدأ له دَفْرٌ وهو النتن ، والصدّع لا دَفْر له ، وقيل للدنيا أمّ دَفْرٍ ، لما فيها من الدواهي والآفات ، فأما الدَفْر بالذّال المعجمة وفتح الفاء فهو الريح الذكيّة من طيب أو نتن .

(٢) نهاية ابن الأثير ٢ : ٢٦ .

(١) الفائق ٣ : ١٠٤ .

وعندى فى هذا الحديث كلام ، والأظهر أن الرواية المشهورة هى الصحيحة ، وهى قوله :
« صدع من حديد » ، ولكن يفتح الدال ، وهو ما كان من الوعول ؛ بين العَظِيم
والشَّخْت ، فإن ثبتت الرواية بتسكين الدال فغير ممتنع أيضاً ، يقال : رجل صدع ، إذا
كان ضرباً من الرجال ، ليس برهل ولا غليظ .

ورابع الخلفاء هو على بن أبى طالب عليه السلام ، وأراد بالأسقف مدحه .
وقول عمر : « وادفراه ! » إشارة إلى نفسه ، كأنه استصغر نفسه وغابها بالنسبة إلى ما وصفه
الأسقف من مدح الرابع وإطرائه .

فأما تأويل أبى عبيدة فإنه ظن أن الرابع عثمان ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وآله
معدوداً من الجملة ليصح كون عثمان رابعاً ، وجعل الدقر والنتن له ، وصرف اللفظ عن الرواية
المشهورة إلى غيرها ، فقال : « صدأ حديد » ، ليطابق لفظة النتن على ما يليق بها ، فغير خاف
منافيه من التعسف ، ورفض الرواية المشهورة .

وأيضاً فإن رسول الله صلى الله عليه وآله لا يجوز إدخاله فى لفظ الخلفاء ، لأنه ليس
بمخليفة ، لأن الخليفة من يخلف غيره ، ورسول الله صلى الله عليه وآله مستخلف الناس
كلهم وليس بمخليفة لأحد .

وفى حديث عمر ، قال عند موته : « لو أن لى مافى الأرض جميعاً لافتديت به
من هول المطلع » (١) .

قال أبو عبيد : هو موضع الاطلاع من إشراف إلى انحدار ، أو من انحدار إلى إشراف ،
وهو من الأضداد ، فشبه ما أشرف عليه من أمر الآخرة .

وفي حديث عمر ، حين بعث حذيفة وابن حنيفة إلى السواد فقلجا الجزية على أهله (١).

قال أبو عبيد : قلجا أى قسما بالفلج ، وأصله من الفلج ، وهو المكيال الذى يقال له الفلج لأن خراجهم كان طعاماً .

وفي حديث عمر حين قال له حذيفة : إنك تستعين بالرجل الذى فيه - وبعضهم يرويه بالرجل الفاجر ، فقال : « استعمله لأستعين بقوته ، ثم أكون على قفانه » (٢).

قال أبو عبيد عن الأصمعي : قفان كل شئ جماعه واستقصاء معرفته ، يقول : أكون على تتبع أمره حتى أستقصي عمله وأعرفه .

قال : أبو عبيد : ولا أحسب هذه الكلمة عربية ، وإنما أصلها « قبان » ، ومنه قول العامة : فلان قبان على فلان ، إذا كان بمنزلة الأمين عليه والرئيس الذى يتبع أمره ويحاسبه ، وبه سمى هذا الميزان الذى يقال له القبان .

وفي حديث عمر حين قال لابن عباس وقد شاوره فى شئ فأعجبه كلامه : شنشنة [أعرفها] من أحسن ، هكذا الرواية ، وأما أهل العلم فيقولون : « شنشنة أعرفها من أخزم » (٣) .
والشنشنة فى بعض الأحوال قد تكون بمعنى المضغة أو القطعة تقطع من اللحم ، والقول المشهور أن الشنشنة مثل الطبيعة والسجية ، فأراد عمر إني أعرف فيك مشابه من أبيك فى رأيه ، ويقال : إنه لم يكن لقرشى مثل رأى العباس .

قال : وقد قال أبو عبيدة معمر بن المثنى : يحوز « شنشنة » و « شنشنة » ، وغيره ينكر « شنشنة » .

وفي حديث عمر يوم السقيفة ، قال : « وقد كنت زورت في نفسي قالة ، أقومُ بها بين يدي أبي بكر ، فلم يترك أبو بكر شيئاً مما زورته إلا تكلم به » .
قال أبو عبيد : التزوير إصلاح الكلام وتهيته كالزويق ^(١) .

وفي حديث عمر حين ضرب الرجل الذي أقسم على أمّ سلمة ثلاثين سوطاً كلها تبضع وتحذر ^(٢) .
قال أبو عبيد : أي تشقّ وتورم ، حذر الجلد يحذره وأحذره غيره .

وفي حديثه أنه قال لمؤذن بيت المقدس : « إذا أذنت فترسل » ، وإذا أقت فاحذم ^(٣) .
قال أبو عبيد : الحذم بالحاء المهملة الحذر في الإقامة ، وقطع التطويل ، وأصله في المشي ، وهو الإسراع فيه ، وأن يكون مع هذا كأنه يهوى بيده إلى خلفه ، والجدّم بالجميم أيضاً القطع ، وكذلك انحذم بالحاء المعجمة .

وفي حديثه أنه قال : « لا يقرّ رجل أنه كان يظاً جاريته إلا ألحقت به ولدها ، فمن شاء فليؤمسكها ومن شاء فليؤسلها » .
قال أبو عبيد : هكذا الرواية بالسين المهملة والمعروف أنه : « الإرشال » بالسين المعجمة ، ولعله حوّل السين إلى السين كما يقال سمّت العاطش ، أي شمتته :

وفي حديثه : « كذب عليكم الحجّ ، كذب عليكم العمرة ، كذب عليكم الجهاد ، ثلاثة أسفار ، كذبت عليكم ^(٤) » .

(١) النهاية ٢ : ١٣٤ (٢) النهاية ٢ : ٨٣ (٣) النهاية ١ : ٢١٠
(٤) الفائق ٢ : ٤٠١ ، نهاية ابن الأثير ٤ : ١٢ ، اللسان (كذب) .

قال أبو عبيد : معنى كذب عليكم الإغراء ، أى عليكم به ، وكان الأضل فى هذا أن يكون نصيباً ، ولكنه جاء عنهم بالرفع شاذاً على غير قياس ، ومما يحقق أنه مرفوع قول الشاعر :

كذبت عليك لا تزالُ تقوّفني كما قاف آثار الوثيقة قائف
فقله : « كذبت عليك » ، إنما أغراه بنفسه ، أى عليك بى ؛ فجعل « نفسه » فى موضع رفع ، لأنّ تراها قد جاء بالباء فجعلها اسماً .
وقال معمر بن حمار البارقى :

وُذيانِيَّةٌ وصّتُ بنِهَا بأنْ كذب القراطف والقُروف^(١)
فرفع ، والشعر مرفوع ، ومعناه عليكم بالقراطف والقُروف ، والقراطف : القطف واحدها قُرْطُف . والقُروف : الأوعية .

ومما يحقق الرفع أيضاً قول عمر « كذبت عليكم » ، قال أبو عبيد : ولم أسمع النصب فى هذا إلا حرفاً ، كان أبو عبيد يحكيه عن أعرابيّ نظر إلى ناقةٍ نضو^(٢) لرجل ، فقال : كذب عليك البزُرُ والتوى^(٣) لم أسمع فى هذا نصبا غير هذا الحرف .
قال : والعربُ تقول للمريض : كذبَ عليك العسلُ^(٤) ، بالرفع ، أى عليك به .

وفى حديثه : « ما يمنعكم إذا رأيتم الرجلَ يخرق أعراض الناس ألا تعربوا عليه » ؟
قالوا : نخاف لسانه ، قال : « ذاك ألا تكونوا شهداء »^(٥) .
قال أبو عبيد : « ألا تعربوا » ، أى ألا تُفسدوا عليه كلامه وتُعبّجوه له .

وفى حديثه : أنه نهى عن الفرَس فى الذبيحة^(٦) .

- | | |
|-------------------------------------|----------------------|
| (١) الفائق ٢ : ٤٠١ ، اللسان ٢ : ٢٠٥ | (٢) نضو : هزيلة . |
| (٣) اللسان (كذب) . | (٤) اللسان (كذب) . |
| (٥) الفائق ٢ : ١٣٤ | (٦) الفائق ٢ : ٢٦٥ . |

قال أبو عبيد : قيل في تفسيره : أن ينتهى بالذبح إلى النخاع وهو عظم في الرقبة ، وربما فسر النخاع بأنه المخ الذي في فقار الصلب متصلا باللقفا ، فمضى أن ينتهى بالذبح إلى ذلك .

وقيل في تفسيره أيضا : أن يكسر رقبة الذبيحة قبل أن تبرد ، ويؤكد هذا التفسير قوله في تمام الحديث : « ولا تعجلوا الأنفس حتى تزهق » .

وفي حديثه حين أتاه رجل يسأله أيام الحبل ، فقال له : هلكت وأهلك ، فقال عمر : « أهلك وأنت تلت ثلث الحيت ؛ أعطوه رُبعة من الصدقة » ، فخرجت يتبعها ظئراها ^(١) .

قال أبو عبيد : قد روى : « ثمت » ، بالميم ^(٢) والمحفوظ بالنون . وتنت ، أى ترشح وتغرق من سمينك وكثرة لحك .
والحميت : النجى وفيه الرُب أو السمن أو نحوها . والرُبعة : ما ولد في أول النجاج ، والد كر رُبِع .

وفي حديثه أنه خرج إلى المسجد للاستسقاء فصعد المنبر ، فلم يزد على الاستغفار حتى نزل فقليل : إنك لم تستسقي ، فقال : « لقد استسقيت بمجاديع السماء » ^(٣) .

قال أبو عبيد : جعل الاستغفار استسقاء ، تأول فيه قوله تعالى : ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ﴾ * يرسل السماء عليكم مدراراً ^(٤) . والمجاديع : جمع مجدح وهو الدجيم الذي كانت العرب تزعم أنها تمطر به ، ويقال : مجدح بضم الميم ، وإنما قال عبر ذلك ، على أنها كلمة جارية على ألسنة العرب ، ليس على تحقيق الأنواء ، ولا التصديق بها

(١) النهاية لابن الأثير ٤ : ١٢٥ ، الفائق ٣ : ٢١٠ (٢) النهاية لابن الأثير ٤ : ٧٧ .

(٣) سورة نوح ١٠ ، ١١ .

(٤) نهاية ابن الأثير ١ : ١٤٦

وهذا شبيه بقول ابن عباس في رجل جعل أمرَ امرأته بيدها ، فقالت له : أنت طالق ثلاثاً ، فقال : خطأ الله نوءها ! ألا طَلَّقتَ نفسها ثلاثاً ! ليس هذا دُعاء منه ألا تُمَطِّر ، إنما ذلك على الكلام المقول .

ومما يبين أن عمر أراد إبطال الأنواء والتكذيب بها قوله : « لقد استسقيت بمجاديح السماء » ؛ التي يستسقي بها الغيث ، فجعل الاستغفار هو المجادح لا الأنواء .

وفي حديثه ، وهو يذكر حال صباه في الجاهلية : لقد رأيتني مرةً وأختي لي نزعى على أبويننا ناضحاً لنا ، قد ألبستنا أمتاً نُقِبَتِها ، وزودتنا يَمِينَتَيْها من الهبيد ، فنخرجُ بناضحنا ، فإذا طلعت الشمس ، ألقيت النقبة إلى أختي ، وخرجت أسعى عريان فنرجع إلى أمتنا ، وقد جعلت لنا لفيفةً من ذلك الهبيد ؛ فياخضباه !^(١) .

قال أبو عبيد : النَّاضِحُ : البعير الذي يُسَنَّى عليه فيسقى به الأرض ، والأختى ناضحة ، وهي السانية أيضاً ، والجمع سوانٍ ، وقد سَنَتَ تَسْنُو ، ولا يقال : ناضحٌ لغير المستسقى . والنقبة أن تؤخذ القطعة من الثوب قدر السراويل فيجعل لها حُجْزَةٌ مخيطة من غير نِيفٍ^(٢) ، وتُشدُّ كما تشدُّ حُجْزَةُ السراويل ، فإن كان لها نِيفٌ وساقان ، فهي سراويل . وقال : والذي وَرَدَتْ به الرواية « زَوَدْتَنَا يَمِينَتَيْهَا » ، والوجه في الكلام أن يكون « يَمِينَتَيْهَا » بالتشديد ، لأنه تصغير « يمين » بلا هاء ؛ وإنما قال : « يَمِينَتَيْهَا » ولم يقل : يديها ولا كفيها لأنه لم يرد أنها جمعت كفيها ثم أعطتنا بهما ، وإنما أراد أنها أعطت كل واحدٍ كفاً كفاً يمينها ، فهاتان يمينان . الهبيد : حب الحنظل ، زعموا أنه يعالج حتى يمكن أكله ويطيب .

(٢) نيف السراويل : للتسع منها .

(١) الفائق ٣ : ٢١١ .

واللّيتة : ضرب من الطّبخ كالحساء .

وفي حديثه : « إذا مرّ أحدكم بحائط فليأكل منه ، ولا يتخذ ثباناً »^(١) .
قال أبو عبيد : هو الوعاء الذي يحمل فيه الشيء ؛ فإن حملته بين يديك فهو ثبان ،
وإن جعلته في حُضْنِكَ فهي خُبنة .

وفي حديثه : « لو أشاء لدعوت بصيلاء وصنّاب وصلّاتق وكراكرة وأسنمة وأفلاذ »^(٢) .
قال أبو عبيد : الصّلاء : الشّواء . والصّنّاب : الخردل بالزبيب . والصّلاتق : الخبز الرقيق ،
ومن رواه « سلاتق » بالسين أراد ما يسلق من البقول وغيرها . والكراكرة ، كراكر الإبل .
والأفلاذ : جمع فلذ وهو القطعة من الكبد .

وفي حديثه : « لو شئت أن يدّمّق لي لفعلت »^(٣) .
قال أبو عبيد : دهمقت الطعام ، إذا ليّنته ورققته وطيبته .

وفي حديثه : « لئن بقيت لأسوين بين الناس ، حتى يأتي الراعي حقه في صُفْنِهِ لم
يمرق جبينه »^(٤) .
الصّفن : خريطة للرّاعي فيها طعامه وما يحتاج إليه . وروى بفتح الصّاد ، ويقال
أيضاً « في صَفِينِهِ » .

وفى حديثه: « لئن بقيتُ إلى قابل ، ليأتينَّ كلَّ مسلمٍ حَقُّه ، حتى يأتى الراعى بِسَرَوْ حَمِيرٍ ، لم يَمَرِّقْ جبينه ^(١) » .
السرو مثل الخيف ، وهو ما انحدرَ عن الجبل وارتفع عن السيل .

وفى حديثه : « لئن عشتُ إلى قابل ، لألحقنَّ آخر الناس بأولهم ، حتى يكونوا بيَّاناً واحداً ^(٢) » .
قال أبو عبيد: قال ابنُ مهديٍّ : يعنى شيئاً واحداً ، ولا أحسب هذه الكلمة عربيَّة ، ولم أسمعها في غير هذا الحديث .

وفى حديثه : أنه خطب ، فقال : « ألا إنَّ الأَسِيفَ ^(٣) - أَسِيفُ جُهينة ^(٤) - رضىَ من دينه وأمانته بأن يقال : سابق الحاجِّ - أو قال : سبق الحاجِّ - فإِذَا ن مُعْرَضاً فأصبح قد رَيْنَ به ؛ فمن كان له عليه دَيْنٌ فليغْدُ بالفداء ، فلنقسم ماله بينهم بالحصص ^(٥) » .
قوله : « فإِذَا ن مُعْرَضاً » أى استدان مُعْرَضاً ، وهو الذى يعترض الناس فيستدين ثمن أمكنه ، وكلَّ شَيْءٍ أمكنك من عرضه فهو معرِض لك ، كقوله : « وَالْبَحْرُ مُعْرِضاً وَالسَّيْرُ ^(٥) » .

ورين بالرجل ، إذا وقع فيما لا يمكنه الخروج منه .

(١) النهاية لابن الأثير ؛ والخبر هناك : « لولا أن أترك الناس بيَّاناً واحداً ما فُتحت على قرية إلا قسمتها » ؛ أى أتركهم شيئاً واحداً .
(٢) قال الزعشمى : « الأسيغ أصغر الأسف ، صفة وعلم » .
(٣) جهينة : من بطون قضاة .
(٤) الفائق ١ : ٦٠٠ .
(٥) قطعة من بيت لعدى بن زيد ، والبيت بتمامه :
سَرَّةُ مَالِهِ وَكَثْرَةُ مَا يَمْلِكُ وَالْبَحْرُ مُعْرِضاً وَالسَّيْرُ

وفي حديثه : أنه قال لمولاه أسلم - ورآه يحمل متاعه على بعير من إبل الصدقة - فقال : « فهلاً ناقة شصوصاً أو ابن لبون بوالاً ! »^(١) .
الشصوص : التي قد ذهب لبنها ، ووصف ابن اللبون بالبول ، وإن كانت كلها تبول ، إنما أراد : ليس عنده سوى البول ، أى ليس عنده مما ينتفع به من ظهري ولا له ضرر فيحلب ، لا يزيد على أنه بوال فقط .

وفي حديثه حين قيل له : إن النساء قد اجتمعن يبيكين على خالد بن الوليد ، فقال : « وما على نساء بنى المغيرة أن يسفكن من دموعهن على أبي سليمان ، ما لم يكن نفع ولا لقلقة ! »^(٢) .

قيل : النفع ها هنا طعام المأتم ، والأشبه أن النفع رفع الصوت ، والقلقة مثله .

وفي حديثه : أن سلمان بن ربيعة الباهلي شكاً إليه عاملاً من عماله ، فضربه بالذرة حتى أنهج^(٣) .

قال أبو عبيد : أى أصابه النفس والبهر من الإعياء .

وفي حديثه حين قدم عليه أحد بني ثور ، فقال له : هل من مغرّبة خبر ؟ فقال : نعم أخذنا رجلاً من العرب ، كثر بعد إسلامه فقدّمناه فضرّبتنا عنقه ، فقال : « فهلاً أدخلتموه جوف بيت فالتقيتم إليه كل يوم رغيفاً ثلاثة أيام ، لعله يتوب أو يرجع . اللهم لم أشهد ولم آمر ، ولم أرض إذ بلغنى »^(٤) .

(٢) نهاية ابن الأثير ٤ : ٦٤ ، ١٧٢ .

(١) الفائق ١ : ٦٥٨ .

(٣) نهاية ابن الأثير ٤ : ١٨٥ ، وقال في شرحه : « أى وقع عليه الربو - يعنى عمر » .

(٤) الفائق ٢ : ٢٢١ .

يقال : هل من مغرّبةٍ خبر بكسر الراء ، ويروى بفتحها ، وأصله البُعْد ، ومنه شأؤُ مغرّب .

وفي حديثه أنه قال : آله ليضربنّ أحدكم أخاه بمثل آكلة اللحم ، ثم يرى أنه لا أقيده ، والله (١) لأقيده (٢) .
قال أبو عبيد : آكلة اللحم : عصا محدّدة .

وفي حديثه : « أعْضَلُ بِي (٣) أَهْلُ الكوفة ، ما يرضون بأمير ، ولا يَرْضاهم أمير (٤) » .
هو من المضال ، وهو الداء والأمر الشديد الذي لا يقوم له صاحبه (٥) .

وفي حديثه : أنه خطب فذكر الربا ، فقال : « إنّ منه أبواباً لا تخفى على أحد ، منها السّلم في السنّ ، وأن تباع الثمرة وهي مغضّفة ولما تطب ، وأن يباع الذهب بالورق نسأء (٥) » .
قال أبو عبيد : السّلم في السنّ أن يسلف الرجل في الرقيق والدواب وغيرها من الحيوان ، لأنه ليس له حدّ معلوم .
والمغضّفة : المتدلّية في شجرها ، وكلّ مسترخٍ أغضّف ، أى تكون غير مدركة .

وفي حديثه : أنه خطب ، فقال : ألا لاتغالوا في صدّاق النساء ، فإن الرجل يغالي بصدّاق المرأة ، حتى يكون ذلك لها في قلبه عداوة ، تقول : جشمت إليك عرق القرية (٦) .

(١) في الفائق : « الله » بالجرّ ، قال : وأصله : « أبالة » ، فأضرب الباء .

(٢) الفائق ١ : ٣٨ .

(٣) وفي رواية نقلها الرّغزبى : « غلبى أهل الكوفة » .

(٤) الفائق ٢ : ١٦٣ ، وتمام الرواية : « أستعمل عليهم المؤمن فيضف ، وأستعمل عليهم الفاجر فيفجر » .

(٥) نهاية ابن الأثير ٣ : ١٦٤ ، والفائق ١ : ٦١٨ . (٦) الفائق ٢ : ١٣٥ .

قال : معناه تكلفت لك حتى عرقت عرق القربة ، وعرقها : سِيلان مائها .

وفي حديثه : أنه رفع إليه غلام ابتهر جارية في شعره ، فقال : « انظروا إليه ، فلم يوجد أنبت ، فدرأ عنه الحد^(١) .

قال أبو عبيد : ابتهرها ، أى قدفها بنفسه ، فقال : فعلت بها .

وفي حديثه : أنه قضى في الأرنب بحُسلان إذا قتلها الحرم^(٢) .

قال : الحُسلان : الجدى .

وفي حديثه : أنه قال : « حَجَّةٌ هاهنا ، ثم اخرج هاهنا حتى تفنى^(٣) » .

قال : يأمر بحجة الإسلام لا غير ، ثم بعدها الغزو في سبيل الله .

حتى تفنى أى حتى تهزم .

وفي حديثه : أنه سافر في عقب رمضان ، وقال : « إنَّ الشهر قد تسعس ، فلو صمنا بقيته^(٤) » .

قال أبو عبيد : السين مكررة مهملة ، والعين مهملة ، أى أدبر وفنى .

وفي حديثه - وقد سمع رجلاً خطب فأكثر - فقال : « إنَّ كثيراً من الخطب من

شَقاشِق الشيطان^(٥) » .

الواحدة شِقْشِقَة ، وهو ما يخرج من شِدْق الفحل عند نزوانه ، شبيهة بالرثة . والشيطان

(٢) الفائق ١ : ٢٨٦ .

(٤) الفائق ٢ : ١٧٥ .

(١) النهاية ١ : ١٠٠ .

(٣) النهاية ١ : ٢٠٨ .

(٥) الفائق ١ : ٦٧١ .

لا شقيقة له ، إنما هذا مثل لما يدخل في الخطب من الكلام المكذوب وتزوير الباطل

وفي حديثه : أنه قدم مكة ، فأذن أبو محذورة ، ورفع صوته فقال له : « أما خشيت يا أبا محذورة أن يذشق مَرِيطَاؤُكَ ^(١) » .

قال : المَرِيطَاءُ : ما بين السرّة إلى العانة ، ويروى بالقصر .

وفي حديثه : أنه سئل عن المذني ، فقال هو الفطر ، وفيه الوضوء ^(٢) .
قال : سمّاه فطرا ^(٣) من قولهم : فطرت الناقة فطرا ، إذا جلبتها بأطراف الأصابع فلا يخرج اللبن إلا قليلا ، وكذلك المذني ، وليس المني كذلك ، لأنه يخرج منه مقدار كثير .

وفي حديثه : أنه سئل عن حدّ الأمة الزانية ، فقال : « إن الأمة ألفت فرّوة رأسها من وراء الدّار ^(٤) » .

قال : الفرّوة : جلدة الرأس ، وهذا مثل ، إنما أراد أنها ألفت القناع وتركت الحجاب ، وخرجت إلى حيث لا يمكنها أن تمتنع من الفجور ، نحو رعاية الغنم ؛ فكانت يرى أن لا حدّ عليها .

وفي حديثه ، أنه أتى بشارب ، فقال لأبمثنك إلى رجل لا تأخذه فيك هواة ، فبعث به إلى مطيع بن الأسود العدوي ^(٥) ، فقال : إذا أصبحت غدا فاضربه الحدّ ، فجاء عمر

(٢) الفائق ٢ : ٢٨٦ .

(١) الفائق ٣ : ٢٠ .

(٣) قال الزخمي : وروى « الفطر » بالضم .

(٤) الفائق ٢ : ٢٦٥ .

(٥) الفائق : « العبدى » .

وهو يضربه ضرباً شديداً ، فقال : قتلَ الرجل ! كم ضربته ؟ قال : ستين ، قال :
« أَقِصَّ عَنْهُ بَعَشْرِينَ ^(١) » .
قال : معناه اجعل شِدَّةَ هذا الضرب قِصَاصاً بالعشرين التي بقيت من الحدِّ فلا
تضربه إياها .

وفي حديثه أنَّ رجلاً أتاه فذكر له أنَّ شهادة الزور قد كثُرت في أرضهم ، فقال :
« لَا يُؤَسَّرُ أَحَدٌ فِي الْإِسْلَامِ بِشَهَادَةِ ^(٢) الزور ، فَإِنَّا لَا نَقْبَلُ إِلَّا الْعَدُولَ » ^(٣) .
قال : لَا يُؤَسَّرُ : لَا يُحْبَسُ ، وَمِنْهُ الْأَسِيرُ : الْمَسْجُونُ .

وفي حديثه : أَنَّهُ جَدَّبَ السَّمْرَ بَعْدَ عَتَمَةٍ ^(٤) .
جَدَّبَهُ ^(٥) ، أَيَّ عَابَهُ وَوَصَمَهُ .
ومثل هذا الحديث في كراهيته السمر حديثه الآخر : أَنَّهُ كَانَ يُنْشِئُ النَّاسَ بَعْدَ
العشاءِ بِالذَّرَّةِ ، وَيَقُولُ : انْصَرَفُوا إِلَى بَيْوتِكُمْ ^(٦) .
قال : هَكَذَا رَوَى بِالشَّيْنِ الْمُعْجَمَةِ ، وَقِيلَ : إِنَّ الصَّحِيحَ « يُنْسِ » بِالسَّيْنِ الْمُهْمَلَةِ ،
وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُ يُنَوِّشُ النَّاسَ بِالْوَاوِ ، مِنَ التَّنَاوُشِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَتَى لَهُمُ التَّنَاوُشُ ﴾ ^(٧) .

وفي حديثه : « هَاجَرُوا وَلَا تَهَاجَرُوا ، وَاتَّقُوا الْأَرْنَبا أَنْ يَحْذِفَهَا أَحَدُكُمْ بِالْعَصَا ،
وَلَكِنْ لِيَذَكَّ لَكُمْ الْأَسْلُ ؛ الرِّمَاحُ وَالنَّبِيلُ » ^(٨) .

(٢) الفائق : « لشهداء السوء » .
(٤) الفائق : « الثمر » .
(٦) النهاية لابن الأثير ٤ : ١٤٥ .
(٨) الفائق ٢ : ٤٤٥ .

(١) الفائق ٣ : ٢٢٩
(٣) الفائق ١ : ٣١
(٥) الفائق ١ : ١٦٤
(٧) سورة سبأ ٥٢

قال : رواه زِرِّ بن حُيَيش ، قال : قدمت المدينة ، فخرجت في يوم عيدٍ ، فإذا رجل متلبّب أعسرُ أيسر ، يمشي مع الناس كأنه راكب ، وهو يقول : كذا وكذا ، فإذا هو عمر ، يقول : هاجروا وأخلصوا الهجرة ولا تهجروا .

ولا تشبهوا بالمهاجرين على غير صحة منكم ، كقولك : تحلم الرجل ، وليس بحليم ، وتشجع وليس بشجاع .

والذكاة : الذبح . والأسلُ أعمُّ من الرماح ، وأكثُر ما يستعمل في الرماح خاصّة . والمتلبّب : المتحرّم بنبأه .

وفلان أعسر يسر : يعمل بكلتا يديه ، والذي جاء في الرواية « أيسر » بالهمزة .

وفي حديثه : أنه أفطر في رمضان ، وهو يرى أن الشمس قد غربت ، ثم نظر فإذا الشمس طالعة ، فقال : « لا تقضيه ؛ ما تجانفنا فيه الإثم » ^(١) .
يقول : لم نتمدّد فيه الإثم ، ولا ملنا إليه ، واجتَنَف : الليل .

وفي حديثه : أنه قال لما مات عثمان بن مظعون على فراشه : « هَبَّتْهُ الموتُ عندي منزلة حين ^(٢) لم يمت شهيدا ، فلما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم على فراشه وأبو بكر ، علمت أن موت الأخيار على قُرُشهم ^(٣) .
هَبَّتْهُ ، أى طأطأه وخطّ من قدره .

وفي حديثه : أن رجلاً من الجنّ لقّيه ، فقال : هل لك أن تصارِعني ، فإن صرعتني

(٢) اللسان : « حيث لم يمت شهيدا » .

(١) الفائق ١ : ٢١٨

(٣) الفائق ٣ : ١٨٩ .

عَلَّمْتُكَ آيَةً إِذَا قَرَأْتَهَا حِينَ تَدْخُلُ بَيْتَكَ لَمْ يَدْخُلْهُ شَيْطَانٌ . فَصَارَ عَهْ فُصْرَ عَهْ عَمْرٍ ، وَقَالَ لَهُ :
إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا شَخِيفًا ، كَأَنَّ ذِرَاعَيْكَ ذِرَاعَا كَلْبٍ ، أَفَهَكَذَا أَتَمَّ كُلُّكُمْ أَيُّهَا الْجَنُّ ، أَمْ
أَنْتَ مِنْ بَيْنِهِمْ ؟ فَقَالَ : إِنِّي مِنْ بَيْنِهِمْ لِضَلِيلٍ ، فَعَاوِذِي ، فَصَارَ عَهْ فُصْرَ عَهْ الْإِنْسَى ، فَقَالَ :
أَتَقْرَأُ آيَةَ الْكُرْسِيِّ ؟ فَإِنَّهُ لَا يَقْرُؤُهَا أَحَدٌ إِذَا دَخَلَ بَيْتَهُ إِلَّا خَرَجَ الشَّيْطَانُ مِنْهُ ، وَلَهُ خَبَجٌ
كَخَبَجِ الْحَمَارِ ^(١) .

قال : رَوَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ ، وَقَالَ : خَرَجَ رَجُلٌ مِنَ الْإِنْسِ ، فَلَقِيَهُ رَجُلٌ مِنَ
الْجَنِّ . . . ثُمَّ ذَكَرَ الْحَدِيثَ ، فَقِيلَ لَهُ : هُوَ عَمْرٍ ، فَقَالَ : وَمَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ إِلَّا عَمْرًا
الشَّخِيفُ : التَّحِيْفُ الْجَسْمِ ، وَمِثْلُهُ الشَّخْتُ .
وَالضَّلِيلُ : الْعَظِيمُ ^(٢) الْخَلْقِ .
وَالْخَبَجُ : الضَّرَاطُ .

وَفِي حَدِيثِهِ : أَنَّهُ كَانَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ ، وَهُوَ يَقُولُ : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي
الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ ^(٣) ؛ مَالَهُ هَجِيرَى غَيْرَهَا ^(٤) .
قال : هَجِيرَى الرَّجُلِ : دَابُّهُ وَدَيْدَنُهُ وَشَأْنُهُ ^(٥) .
وَمِثْلُهَا مِنْ قَوْلِ عَمْرٍ : لَوْ أَطِيقُ الْأَذَانَ مَعَ الْخَلْقِ لَأَذَنْتُ .
وَمِثْلُهَا مِنْ قَوْلِ عَمْرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ : لَا رَدِّدِي فِي الصَّدَقَةِ ^(٦) ، أَيْ لَا تَرُدِّي .
وَمِثْلُهَا قَوْلُ الْعَرَبِ : كَانَتْ بَيْنَهُمْ رَمِيًّا ، أَيْ مَرَامَةً ، ثُمَّ حَجَزَتْ بَيْنَهُمْ حَجِيرَى ، أَيْ
مَحَاجِزَةً .

(٢) فِي الْفَائِقِ : « وَالضَّلِيلُ : الْمَجْفَرُ الْجَنِينُ
(٣) سُورَةُ الْبَقَرَةِ ٢٠١ .
(٥) ٣ : ١٩٤ .

(١) الْفَائِقِ ٢ : ٤٨ ، ٤٩ ،
الْوَاوِي الْأَضْلَاعُ ، وَقَدْ ضَلَعُ ضِلَاعَةً .
(٤) الْفَائِقِ ٣ : ١٩٥ .
(٦) الْفَائِقِ ١ : ٤٧٥ .

وفي حديثه حين قال للرجل الذي وُجد منبوذاً فأتاه به ، فقال : عسى الغوير أبوساً^(١) ! قال عريفة : يا أمير المؤمنين ، إنه وإنه...^(٢) فأثنى عليه خيراً ، وقال : فهو خُرٌّ ، ولاؤُهُ لك^(٣) .

الأبوس : جمع أبس^(٤) والمثل قديم مشهور ، ومراد عمر : لعلك أنت صاحب هذا المنبوذ ! كأنه اتهمه وساء ظنه فيه ، فلما أثنى عليه عريفة — أى كفيله — قال له : هذا المنبوذ خُرٌّ ولاؤُهُ لك ، لأنه يأنقذه إياه من الهلكة كأنه أعتقه .

وفي حديثه : إن قريشا تريد أن تكون مغوياتٍ لمال الله^(٥) .
هكذا يروى بالتخفيف والكسر ، والمعروف « مغوياتٌ » بتشديد الياء وفتحها ، واحداً منها مغوأة ، وهى حفرة كالزبية تحفر للذئب ، ويجعل فيها جدئاً ؛ فإذا نظر إليها الذئب سقط يريده فيصاد ، ولهذا قيل : لكل مهلكة مغوأة .

وفي حديثه : « فَرَّقُوا عَنِ الْمَنِيَّةِ ، واجعلوا الرأس رأسين ، ولا تُلْثُوا بدار مَعْجَزَةٍ ، وأصلحوا مِثَاوِيَكُمْ ، وأخيفوا الهوامَّ قبل أن تخيفكم ، واخشوشنوا ، واخشوشبوا وتمعدوا^(٦) » .

(١) الفائق : « الغوير : ماء لقلب ؛ وهذا مثل ، أول من تكلم به الزبابة الملكة حين رأت الإبل عليها الصناديق ، فاستنكرت شأن قصير لاذ أخذ على غير الطريق ؛ أرادت : عسى أن يأتى ذلك الطريق بشر ، ومراد عمر رضى الله عنه اتهام الرجل بأن يكون صاحب المنبوذ ، حتى أثنى عليه عريفة خيراً » .
(٢) قال فى الفائق : « لأنه لأنه ؛ أراد أنه أمين وعفيف ؛ وما أشبه ذلك لحذف .
(٣) الفائق ٢ : ٢٣٩
على ما عليه أصل القياس » .
(٤) الفائق : « واتصابه بمسى على أنه خبره
(٥) الفائق ٢ : ٢٤٠
(٦) الفائق ٢ : ٢٦٥ .

قال: «فرّقوا عن المنيّة ، واجعلوا الرأس رأسين»، أى إذا أراد أحدكم أن يشتري شيئا من الحيوان كملوك أو دابة فلا يغالين به، فإنه لا يدري ما يحدث فيه ، ولكن ليحتمل ثمنه في رأسين ، وإن كان كل واحد منهما دون الأول ، فإن مات أحدهما بقي الآخر . وقوله : « ولا تُلثّوا بدار معجزة » ، فالإلثاق الإقامة ، أى لا تقيموا ببلد يعجزكم فيه الرزق ، ولكن اضطرّوا في البلاد للكسب . وهذا شبيه بحديثه الآخر : « إذا اتجر أحدكم في شيء ثلاث مرّات فلم يرزق منه فليدعه » .

والمناوى : المنازل ، جمع منّوى .
وأخيفوا الهوام ، أى اقتلوا ما يظهر في دوركم من الحيات والعقارب لتخافكم ، فلا تظهر .
واخشوشنوا : أمر بالخشونة في العيش ، ومثله « اخشوشبوا » بالباء ؛ أراد ابتذال النفس في العمل والاحتفاء في المشى ليغلظ الجلد ، ويحسو .
وتعمّدوا ، قيل إنه من الغلظ أيضا ، يقال للغلام إذا أنبت وغلظ : قد تعمّد .
وقيل : أراد تشبهوا بمعدّ بن عدنان ، وكانوا أهل قشف وغلظ في المعاش ، أى دعوا التّنمّ وزىّ النجم .

وقد جاء عنه في حديث آخر مثله : « عليكم باللّبسة المديّة » .

وفي حديثه : أنه كتب إلى خالد بن الوليد : «إنه بلغني أنك دخلت حماما بالشام، وأن من بها من الأعاجم أعدّوا لكم دلوّكا عُجْن بخمر ، وإني أظنكم آل المفيرة ذرؤ النار»^(١).

(١) الفائق ١ : ٤٠٧ .

الدُّلُوكُ : ما يتدلَّك به كالسَّجُور والفَطُور ونحوهما .
وذَرَوِ النَّارَ : خلق النار . ويروى : « ذرء النار » بالهمزة ، من ذرأ الله الناس ، أى
صوَّرَهم وأوجدَهم .

وفى حديثه : « املكوا المعجين ؛ فإنه أحد الرِّيعين »^(١) .
ملكْتِ المعجين : أجَدْتِ عَجْزَهُ .
والرِّيع : الزيادة ، والريع الثانى ما يزيدُ عند خَبَرِهِ فى التَّنَوُّر .

وفى حديثه حين طُعِن ، فدخل عليه ابن عباس فرآه مغتمًا بمن يستخلف بعده ، فذكر
عثمان فقال : كَلِيفٌ بأقاربه^(٢) ، قال : فعلى ؟ قال : فيه دُعَابَةٌ ، قال : فطلحة ؟ قال :
لولا بَأْوُ فيه^(٣) ، قال : فالزبير ؟ قال : وَعَقَّةٌ لِقِس^(٤) . قال : فعبد الرحمن ؟ قال : أوَّه !
ذكرت رجلاً صالحاً ولكنه ضعيف ، وهذا الأمر لا يصلح له إلا اللين من غير
ضَعْفٍ ، والقوى من غير عَنَفٍ^(٥) ، قال : فسعد^(٦) ؟ قال : ذاك يكون فى مِقْتَضَبٍ من
مقانبكم^(٧) .

قوله : « كَلِيفٌ بأقاربه » أى شديد الحبِّ لهم .
والدُّعَابَةُ : المزاح .

(١) الفائق ١ : ٥١٨ .

(٢) الفائق : « وروى أخشى حقه وأثرته » .

(٣) الفائق : وروى أنه قال : « الأكثم لم ين فيه بأوا أو نحوه » .

(٤) الفائق : « وروى ضرس ضريس أو قال : ضريس » .

(٥) الفائق : وروى لا يصلح أن يلى هذا الأمر إلا حصيف العقدة ، قليل الفرة ، الشديد فى غير

عنف ، اللين فى غير ضعف ، الجواد فى غير سرف ، البخيل فى غير وكف » .

(٦) الفائق ٤ : ٤٢٥ ، ٤٢٦ .

(٧) ابن أبى وقاص .

والبأو : الكبر والعظمة .

وقوله : « وعقة لقس » ويروى « ضيبس » ، ومعناه كله الشراسة ؛ وشدّ الخلق وخُبت النفس .

والمقنب : جماعة من الفرسان .

وفي حديثه : أنه قال عام الرمادة : لقد هممت أن أجعل مع كل أهل بيت من المسلمين مثلهم ، فإنّ الإنسان لا يهلك على نصف شعبه ، فقال له رجل : لو فعلت يا أمير المؤمنين ما كنت فيها ابن ثأداء .

قال : يريد أن الإنسان إذا اقتصر على نصف شعبه ، لم يهلك جوعاً . وابن ثأداء^(١) بفتح الهمزة : ابن الأمة^(٢) .

وفي حديثه : أنه قرأ في صلاة الفجر بالناس سورة يوسف ، فلما انتهى إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾^(٣) ، بكى حتى سُمع نسيجه^(٤) .

النسيج : صوت البكاء ، يردده الصبي في صدره ولا يخرج به .

وفي حديثه أنه أتى في نساء - أو إماء - ساعيات^(٥) في الجاهلية ، فأمر بأولادهن أن يقوّموا على آبائهم ، فلا يُسترقوا^(٦) .

(١) في الفائق يسكون الهمزة ، وقال : التأداة : الأمة ؛ سميت بذلك لفسادها لوما ومهانة ، من قولهم ثد البرك على البعير ، إذا اتل وفسد حتى لم يستقر عليه .

(٢) الفائق ١ : ١٤١ ، وفيه رواية أخرى : « إن رجلاً قال له عام الرمادة : لقد انكشت وما كنت فيها ابن ثأداء ، فقال : ذلك لو أفقت عليهم من مال الخطاب » .

(٤) النهاية لابن الأثير ٤ : ١٤٣ .

(٣) سورة يوسف : ٨٦ .

(٦) الفائق ١ : ٥٩٥ .

(٥) الفائق : « ساعيف » .

المساعة : زنا الإمام خاصة^(١) . قضى عمر في أولادهن في الجاهلية أن يسوئن على آبائهم ، بدفع الآباء قيمتهم إلى سادات الإمام ، ويصير الأولاد أحراراً لاخفى النسب بآبائهم .

وفي حديثه : « ليس على عرَبِيٍّ مِلْكٌ ، ولَسْنَا بِنَازِعِينَ مِنْ يَدِ رَجُلٍ شَيْئاً أَسْلَمَ عَلَيْهِمْ ، وَلَكِنَّا نَقُومُهُمُ الْمِلَّةَ خَمْساً مِنَ الْإِبِلِ »^(٢) .
قال : كانت العرب تسي بعضُها بعضاً ، بغضاً في الجاهلية ، فيأتى الإسلام والمسي في يد الإنسان كالمملوك له ؛ فقضى عمر في مثل هذا أن يردَّ حرّاً إلى نسبه ، وتكون قيمته على نفسه يؤدِّيها إلى الذي سباه ، لأنه أسلم وهو في يده ، وقيمته كائنًا ما كان خمسٌ من الإبل^(٣) .

قوله : « والمِلَّة » أى تقوم مِلَّة الإنسان وشرعها .

وفي حديثه لما ادعى الأشعث بن قيس رقابَ أهلِ نجران ، لأنه كان سباهم في الجاهلية واستعبدهم تغلباً فصاروا كماليكه ، فلما أسلموا أبوا عليه ، فخاصموه عند عمر في رقابهم ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، إنما كنا له عبيدَ مملكة ، ولم نكن عبيدَ قِنٍّ . فتغيظ عمر عليه ، وقال : « أردت أن تتغفلني ! »^(٤) .

يعنى أردت غفلتى .

(١) الفائق : « ساعاها فلان ، إذا جربها ، وهو من السعى ، تكن كل واحد منها يسعى لصاحبه » .

(٢) النهاية : ٤ : ١٩ .

(٣) في النهاية عن الأزهري : « كان أهل الجاهلية يطئون الإمام ويلدن لهم ، فكانوا ينسبون إلى آبائهم ، وهم عرب ، فرأى عمر أن يردهم على آبائهم ، فيعتقون ، ويأخذ من آبائهم ما واليهم عن كل واحد خمساً من الإبل » .

(٤) الفائق ٢ : ٣٨٠ ، وقال : « وروى أن تغفلني » ، والتغفلت طلب العنت .

وعبدِ قنْ مُلِكْ ومُلِكْ أبواه ، وعبد مملُكة بفتح اللام وضمتها : من غلب عليه واستعبد ، وكان في الأصل حُرًّا ، فقضى عمر فيهم أن صيرهم أحراراً بلا عِوَض ، لأنه ليس يسبأ على ^(١) الحقيقة .

وفي حديثه : أنه قضى في ولد المنرور بغرة ^(٢) .
قال : هو الرجل يزوج رجلاً آخر مملوكةً لإنسان آخر على أنها حرة ، فقضى عمر أن يفرم الزوج لمولى الأمة غرة ، أى عبداً أو أمة ، ويكون ولده حُرًّا ، ثم يرجع الرجل الزوج على مَنْ غره بما غرم .

وفي حديثه : أنه رأى جارية متككة ، فسأل عنها فقالوا : أمة آل فلان ، فضرَبَها بالدرّة ضربات ، وقال : يالكعاء ! أتشبهين بالحرائر ^(٣) !
قال : متككة : لابسة قناع ، أصله من الكمة ، وهى كالقنوسة ، والأصل مكمة ، فأعاد الكاف ، كما قالوا : كفكف فلان عن كذا ، وتصرصر الباب .
ولكعاء ولكاع بالكسر والبناء : شتم للأمة ، وللرجل يقال : يالكع .

وفي حديثه : « ورّع اللص ولا تراعه » ^(٤) .
يقول : ادفعه إذا رأيته في منزلك واكفّفه بما استطعت ، ولا تنتظر فيه شيئاً ، وكلّ

(١) : « في الحقيقة » .

(٢) النهاية لابن الأثير ٣ : ١٥٦ .

(٣) الفائق ٢ : ٤٢٩ .

(٤) نهاية ابن الأثير ٤ : ٢٠٥ .

(١٠ - نهج - ١٢)

شيء كلفه فقد ورعته ، وكل ما تنتظره فأنت تراعيه ؛ والمعنى أنه رخص في الإقدام على اللصّ بالسلاح ، ونهى أن يمسك عنه نأماً .

وفي حديثه : أن رجلاً أتاه ، فقال : إن ابن عمي شجّ موضحة ، فقال : أمن أهل القرى أم من أهل البادية ؟ قال : من أهل البادية ، فقال عمر : إننا لتعاقل المضع بيننا^(١) . قال : سمّاها مضعاً ، استصغاراً لها ولأمثالها كالسنّ والإصبع . قال : ومثل ذلك لا تحمله العاقلة عند كثير من الفقهاء ، وكذلك كل ما كان دون الثلث .

وفي حديثه : أنه لما حصّب المسجد ، قال له فلان : لم فعلت ؟ قال : هو أغفر للنخامة ، وألبن في الموطى^(٢) . أغفر لها : أستر لها . وحصّب المسجد : قرّشه بالحصباء ؛ وهي رمل فيه حصّى صغار .

وفي حديثه : أن الحارث بن أوس سأله عن المرأة تطوف بالبيت ، ثم تنفر من غير أن تطوف طواف الصدر إذا كانت حائضاً ، فنهاه عمر عن ذلك ، فقال الحارث : كذلك أفتاني رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال عمر : أربث يداك ! أتسألني ؛ وقد سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم كي أخالفه^(٣) ! قال : دعا عليه بقطع اليدين ؛ من قولك : قطعت الشاة إرباً إرباً^(٤) .

(١) الفائق ٣ : ١٦٨ ، ومضع الأمور - كسكر - صغارها .
(٢) الفائق ١ : ٢٣ . (٣) الفائق ١ : ٢٦٥ .
(٤) الإرب : العضو .

وفي حديثه أنه سمع رجلاً يتعوذ من الفتن ، فقال عمر : اللهم إني أعوذ بك من الضفافة ، أتسأل ربك ألا يرزقك مالا وولداً^(١) !
قال : أراد قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾^(٢) . والصفافة : الحمق وضعف العقل ، رجل ضفيط ، أى أحمق .

وفي حديثه : « مابال رجال لا يزال أحدهم كاسراً وسادة عند امرأة مغزية ، يتحدث إليها وتتحدث إليه ! عليكم بالجنبية فإنها عفاف ، إنما النساء لحم على وضم إلا ماذب عنه^(٣) » .

قال : مغزية ، قد غزا زوجها ، فهو غائب عنها ، أغزت المرأة ، إذا كان بعلمها غزياً ، وكذلك أضايت فهي مغيبة .

وعليكم بالجنبية ، أى الناحية ، يقول : تنحوا عنهم وكلوهن من خارج المنزل .
والوضم : الخشبة أو البارية يجعل عليها اللحم .

قال : وهذا مثل حديثه الآخر : « ألا لا يدخلن رجل على امرأة وإن قيل نحوها ، ألا نحوها الموت »^(٤) .

قال : دعا عليها . فإذا كان هذا رأيه في أبى الزوج وهو محرّم لها فكيف بالغريب !

وفي حديثه : « إن بيعة أبى بكر كانت فلتة وقى الله شرّها ، فلا بيعة إلا عن مشورة ؛ وأيضاً رجل بايع رجلاً عن غير مشورة فلا يؤمر واحد منهما بغير أن يقتلا^(٥) .
قال : التفرة : التفرير ، غررت بالقوم تفريراً وتفرّة ، كقولك : حللت اليمين تحليلاً

(٢) سورة التغابن : ١٥ .

(٤) الفائق : ١ : ٢٩٥ .

(١) النهاية ٣ : ٢٢

(٣) الفائق ٢ : ٤١١

(٥) الفائق ٢ : ٢٩٧ ...

وتَحِيلَةً ، ومثله في المضاعف كثير ، أى أن في ذلك تعريراً بأنفسهما وتعريضاً لهما أن يُقتلا.

وفي حديثه : « إنَّ العبد إذا تواضع لله رفع الله حُكْمَتَهُ ، وقال : انتعش نَعَشُكَ الله ، وإذا تكبَّر وعدا طَوْرَهُ وَهَصَهُ الله إلى الأرض » ^(١) .
قال : وهَصَهُ أى كسره . وعدا طَوْرَهُ ، أى قَدْرَهُ .

وفي حديثه : « حَجَّوا بالذَّرِّيَّة ، لَأَنَّا كُلُّوا أَرْزَاقَهَا ، وَتَذَرَّوْا أَرْبَاقَهَا فِي أَعْنَاقِهَا » ^(٢) .
قال : أراد بالذَّرِّيَّة هنا النساء ولم يرد الصبيان ، لَأَنَّهُ لَاحِجٌ عَلَيْهِمْ .
والأَرْبَاق : جمع رَبْقٍ ، وهو الحبل .

وفي حديثه : أَنَّهُ وَقَفَ بَيْنَ الْحَرَّتَيْنِ - وَهِيَ دَارَانُ لِفْلَانٍ - فَقَالَ : « شَوَى ^(٣) أَخْوَكُ ، حَتَّى إِذَا أَنْصَجَ رَمَدٌ » ^(٤) .
هذا مثل يضرب للرجل يصنع معروفاً ثم يفسده .

وفي حديثه : « السَّائِبَةُ وَالصَّدَقَةُ لِيَوْمِهَا » ^(٥) .
قال : السَّائِبَةُ : المَعْتَقُ .

(١) الفائق ١ : ٢٧٩ ، وقال : « الحكمة من الإنسان : أسفل وجهه ، ورفع الحكمة ، كناية عن الإعزاز ، لأن من صفة الدليل أن يَنْكُسَ ويضرب بذقنه صدره . وقيل : الحكمة : القدر والمنزلة من قولهم : لا يقدر على هذا من هو أعظم حكمة منك » .

(٢) الفائق ١ : ٤٢٨ .

(٣) في الأصول : « نوى » ، وما أثبتته من الفائق ، وشوى ، أى ألقى الشواء في النار ، قال الزمخشري : « وهذا مثل ، نحوه قولهم : « المنة تهدم الصنعة » .

(٤) رمد : أُلْغَاءُ في الرماد ، والخبر في الفائق ١ : ٥٠٧ .
(٥) الفائق ١ : ٦٣٠ .

وليومهما : ليوم القيامة الذى فعل ما فعله لأجله .

وفى حديثه : « لا تشتروا رقيق أهل الذمة ، فإنهم أهل خراج يؤدى بعضهم عن بعض : وأرضهم فلا تنازعوها ، ولا يقرن أحدكم بالصغار بعد إذ نجاه الله » .
قال : كره أن يشتري أرضهم المسلمون وعليها خراج ، فيصير الخراج منتقلا إلى المسلم ، وإنما منع من شراء رقيقهم ، لأن جزيتهم تكثر على حسب كثرة رقيقهم ، فإذا ابتيع رقيقهم قلت جزيتهم ، وإذا أقلت جزيتهم يقل بيت المال .

وفى حديثه فى قنوت النجوى : « وإليك نسعى ونحفد ، نرجو رحمتك ، ونخشى عذابك ، إن عذابك بالكفار ملحق » ^(١) .
قال : حَفَدَ العبد مولاه يحفد أى خدم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ ^(٢) أى خدماً .

وملحق : اسم فاعل بمعنى لاحق من ألحق ، وهو لغة فى لحق ، يقال : لحقت زيدا ، وألحقته بمعنى .

وفى حديثه : « لا تشتروا الذهب بالفضة إلا يداً بيد ، هاء وهاه ، إني أخاف عليكم الرماء » ^(٣) .

قال : الرماء : الزيادة وهو بمعنى الربا ، يقال : أرميت على الخمسين ، أى زدت عليها .

(٢) سورة النحل ٧٢ .

(١) النهاية ١ : ٢٣٩

(٣) النهاية ٢ : ١٠٧ هاء وهاه : صوت بمعنى خذ .

وفي حديثه : مَنْ لَبَّدَ أَوْ عَقَّصَ أَوْ ضَفَّرَ ، فَعَلِيهِ الْحَقُّ « (١) .
قال : التلييد أن يجعل في رأسك شيئاً من صَمَغٍ أَوْ عَسَلٍ يمنع من أن يقل .
والعَقَص والضَفَر : قَتْلُ الشَّعْرِ وَنَسْجُهُ .

وفي حديثه : « مَا تَصْعَدُنِي خِطْبَةٌ (٢) كَمَا تَصْعَدُنِي خِطْبَةُ النِّكَاحِ » (٣) .
قال : معناه ماشقّ على ، وأصله من الصَّعُود ، وهى العقبة المنكبة ، قال تعالى :
﴿ سَارُّهُنَّ صَعُودًا ﴾ (٤) .

وفي حديثه أنه قال للمالك بن أوس : « يَا مَالِكُ ، إِنَّهُ قَدْ دَفَّتْ عَلَيْنَا مِنْ قَوْمِكَ دَافَّةٌ ،
وَقَدْ أَمَرْنَا لَهِمْ بِرَضِخٍ فَاقْسِمِ فِيهِمْ » (٥) .
قال : الدافّة : جماعة تسير سيراً ليس بالشديد .

وفي حديثه : أَنَّهُ سَأَلَ جَيْشًا ، فَقَالَ : « هَلْ ثَبَتَ لَكُمْ الْعَدُوُّ قَدْرَ حَلْبِ شَاةٍ بَكِيَّةٍ (٦) ؟ »
قال : الْبَكِيَّةُ : الْقَلِيلَةُ الْآبِنِ .

وفي حديثه أنه قال في مُتَعَةِ الْحَجِّ : « قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
فَعَلَهَا وَأَصْحَابُهُ ، وَلَكِنْ كَرِهْتُ أَنْ يَظْلَمُوا بَهَنَ مُعْرِسِينَ تَحْتَ الْأَرَاكِ ، ثُمَّ يَلْبَثُونَ بِالْحَجِّ
تَقَطَّرَ رُءُوسُهُمْ » (٧) .

(١) الفائق ٢ : ٤٤٦ .

(٢) الفائق : « شئ » ، وفي اللسان : « مَا تَكَاهَدُنِي شَيْءٌ مَا تَكَاهَدُنِي خِطْبَةُ النِّكَاحِ » .

(٣) سورة المدثر ١٧ .

(٤) الفائق ٢ : ٢٤٤ .

(٥) نهاية ابن الأثير ١ : ٩٠ .

(٦) الفائق ١ : ٤٠٢ .

(٧) الفائق ٢ : ١٣٦ .

قال : المرّس : الذى يَبْغِشَى امرأته . قال : كره أن يحمل الرجل من عُمرته ، ثم يأتى النساء ، ثم يهلّ بالحج .

وفى حديثه : « نعم المرء صهيب ، لو لم يخف الله لم يعصه » .
قال : المعنى أنه لا يترك المعصية خوف العقاب ، بل يتركها لقبحها ، فلو كان لا يخاف عقوبة الله لترك المعصية .

وفى حديثه : أنه أتى بسكران فى شهر رمضان ، فقال : للمنخرين للمنخرين ، أصبياننا صيام وأنت مفطر ! .

قال : معناه الدماء عليه ، كقولك : كذب الله للمنخرين ! وكقولهم : لليدين وللنم !

وفى حديثه أنه قال لما توفى رسول الله صلى الله عليه وآله ، قام أبو بكر فتلا هذه الآية فى خطبته : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ ^(١) . قال عمر : فعمرت حتى وقعت إلى الأرض ^(٢) .

قال : يقال للرجل : إذا بهت وبقى متحيراً دهشاً : قد عقر ، ومثله يعل وخرق .

وفى حديثه أنه كتب إلى أبي عبيدة وهو بالشام حين وقع بها الطاعون : « إن الأردن أرض غمّة ، وإن الجابية أرض نزهة ، فأظهر بمن معك من المسلمين إلى الجابية » ^(٣)

(١) سورة الزمر ٣٠

(٢) النهاية ٣ : ١١٤

(٣) الفائق ٢ : ٢٣٦ .

قال : الغمقة : الكثيرة الأنداء والوباء ، والنزّهة : البعيدة من ذلك .

وفي حديثه : أنه قال لبعضهم في كلام كلمه به : « بل تحوسك فتنة » (١) .
قال : معناه تخالطك وتحثك على ركوبها . قال : وتحوس مثل : تجوس ، بالجيم ؛ قال تعالى : ﴿ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ﴾ (٢) .

وفي حديثه حين ذكر الجراد ، فقال : « وددت أن عندنا منه قفعة أو قفعتين » (٣) .
قال : القفعة : شيء شبيه بالزنبيل ، ليس بالكبير ، يعمل من خوص ليس له عرى ؛ وهو الذي يسمى القفّة .

وفي حديثه : أن أذينة العبدى أتاه يسأله ، فقال : إني حَجَجْتُ من رأس هزاوخازك ، أو بعض هذه المزالف ، فن أين أعتمر ؟ فقال : أتت عليا ، فأسأله ، فسألته ، فقال : من حيث ابتدأت (٤) .

قال : رأس هزاوخازك موضعان من ساحل فارس ، والمزالف : كل قرية تكون بين البرّ وبلاد الريف ، وهى المزارع أيضا ، كالأنبار وعين التمر والحيرة .

وفي حديثه : أنه نهى عن المكايلة (٥) .
قال : معناه مكافأة الفعل القبيح بمثله !

(٢) سورة الإسراء ٥ .

(٤) الفائق ١ : ٤٤٣ .

(١) النهاية ١ : ١٧٠ .

(٣) النهاية لابن الأثير ١ : ٢٦٨ .

(٥) النهاية لابن الأثير ٤ : ٤٢ .

وفي حديثه : « ليس الفقير الذي لا مال له ، إنما الفقير الأخلق الكسب »^(١) .
قال : أراد الرجل الذي لا يُرزأ في ماله ، ولا يصاب بالمصائب ، وأصله أن يقال للجبل
المصمت الذي لا يؤثر فيه شيء : أخلق . وصخرة خلقاء ، إذا كانت كذلك ، فأراد عمر
أن الفقر الأكبر إنما هو فقر الآخرة ، لمن لم يقدم من ماله لنفسه شيئاً يثاب عليه هناك .
وهذا نحو قول النبي صلى الله عليه وآله : « ليس الرقوب »^(٢) الذي لا يبقى له ولد ،
إنما الرقوب الذي لم يقدم من ولده أحداً » .
فهذا ما لخصته من غريب كلام عمر من كتاب أبي عبيد .

فأما ما ذكره ابن قتيبة من غريب حديثه في كتابه ، فأنا أُلخص منه ما أذاكره .
قال ابن قتيبة : فمن غريب حديث عمر أنه خطب ، فقال : إن أخوف ما أخاف
عليكم أن يؤخذ الرجل المسلم البريء عند الله فيُدسّر كما يُدسّر الجزور ، ويشاط لحمه
كما يشاط لحم الجزور ، يقال : عاصٍ وليس بعاص . فقال على عليه السلام : فكيف ذاك
ولما تشدّ البلية ، وتظهر الحمية ، وتسبى النورية ، وتدقّم الفتن دقّ الرحي ينفّالها^(٣) !
قال ابن قتيبة : يُدسّر أي يُدفع ، ومنه حديث ابن عباس : ليس في العنبر زكاة ،
إنما هو شيء يُدسّره البحر^(٤) .

ويشاط لحمه ، أي يقطع ويُبضع ، والأصل في الإشاطة الإحراق ، فاستعير ، وفي الحديث :
« إن زيدا بن حارثة قاتل يوم مؤتة حتى شاط في رماح القوم » .
والنّفال : جلدة تبسط تحت الرّحي فيقع عليها الدقيق .

(١) الفائق ١ : ٣٦٦ .
(٢) نهاية ابن الأثير ٢ : ٩٥ .
(٣) الفائق ١ : ٣٩٧ .
(٤) الفائق ١ : ٣٩٧ وفيه : « سره البحر » .

وفي حديث عمر : « القسامة ^(١) تُوجِبُ الْعَقْلَ ، وَلَا تُشِيطُ الدَّمَ » ^(٢) .
قال ابن قتيبة : الْعَقْلُ : الدِّية ، يقول : إِذَا حَلَفْتُ فَإِنَّمَا تَجِبُ الدِّيةَ لَا الْقَوْدَ ، وَقَدْرُوهُ
عن ابن الزبير وعمر بن عبد العزيز أَنَّهُمَا أَقَادَا بِالْقَسَامَةِ .

وفي حديثه : « لَا تَفْطَرُوا حَتَّى تَرَوْا اللَّيْلَ يَفْسُقُ عَلَى الظَّرَابِ » ^(٣) .
قال : يَفْسُقُ ، أَيْ يَظْلَمُ .
وَالظَّرَابُ : جَمْعُ ظَرِبَ ، وَهُوَ مَا كَانَ دُونَ الْجَبَلِ ، وَإِنَّمَا خَصَّ الظَّرَابَ بِالذِّكْرِ
لِقَصَرِهَا ، أَرَادَ أَنَّ ظُلْمَةَ اللَّيْلِ تَقْرُبُ مِنَ الْأَرْضِ .

وفي حديثه : أَنَّ رَجُلًا كَسَرَ مِنْهُ عَظْمٌ فَأَتَى عَمْرَ يُطَلِّبُ الْقَوْدَ ، فَأَبَى أَنْ يَقْتَصَّ لَهُ ،
فَقَالَ الرَّجُلُ : فَكَاسِرُ عَظْمِي إِذْنٌ كَالْأَرْقَمِ ، إِنْ يَقْتُلُ يَنْتَقِمُ ، وَإِنْ يَتْرَكَ يَلْتَمُ ، فَقَالَ عَمْرُ :
« هُوَ كَالْأَرْقَمِ » ^(٤) .

قال : كَانَتْ الْجَاهِلِيَّةُ تَزْعُمُ أَنَّ الْجَنَّ يَتَصَوَّرُ بَعْضُهُمْ فِي صُورَةِ الْحَيَّاتِ ، وَأَنَّ مَنْ قَتَلَ
حَيَّةً مِنْهَا طَلَبَتْ الْحَيَّةُ بِالنَّارِ ، فَرُبَّمَا مَاتَ أَوْ أَصَابَهُ خَبَلٌ ، فَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ : « إِنْ يَقْتُلُ يَنْتَقِمُ » .
وَمَعْنَى « يَلْتَمُ » يَقُولُ : إِنْ تَرَكْتَهُ أَكَلَتْكَ ، وَهَذَا مِثْلُ يَضْرِبُ الرَّجُلَ يَجْتَمِعُ عَلَيْهِ أُمُورٌ مِنْ
الشَّرِّ لَا يَدْرِي كَيْفَ يَصْنَعُ فِيهِمَا ، وَنَحْوُهُ قَوْلُهُمْ : هُوَ كَالْأَشْقَرِ إِنْ تَقَدَّمَ عَقَرٌ وَإِنْ تَأَخَّرَ نَحَرَ .

(١) في الفائق : « القسامة مغرقة على بناء الفرامة والحالة لا يلزم أهل المحلة إذا وجد قتيل فيها لا يعلم
قاتله من الحكومة بأن يقسم خمسون منهم ، ليس فيهم صبي ولا مجنون ولا امرأة ولا عبد ؛ يتخيرهم الوالي
وقسمهم أن يقولوا : بالله ما قتلنا ولا عدنا له قاتلا ، فإذا أقسموا قضى على أهل المحلة بالدية ، وإن لم يكملوا
خمين كررت عليهم الأيمان حتى تبلغ خمسين يمينا » .

(٢) الفائق ٢ : ٢٢٦ .

(٣) الفائق ٢ : ٣٤٥ .

(٤) النهاية ٤ : ٦٤ ، ١٧٣ .

قال : وإنما لم يقده لأنه يخاف من القصاص في العظم الموت ، ولكن فيه الدية .

وفي حديثه : أنه أتى مسجد قباء ، فرأى فيه شيئاً من غبار وعذكبوت ، فقال لرجل :
« ائتني بجريدة واتق العواهن » ، قال : فجئته بها ، فربط كميّه بوذمة ، ثم أخذ الجريدة ،
فجعل يتتبع بها الغبار ^(١) .

قال : الجريدة : السّعة ، وجمعها جريد .

والعواهن : السّعات التي يلين القلب ، والقلبة جمع قلب ، وأهل نجد يسمون
العواهن الحوائ ، وإنما نهاه عنها إشفافاً على القلب أن يضرّ به قطعها .
والوذمة : سيرٌ من سيور الدلو يكون بين آذان الدلو والعراقي .

وفي حديثه : « ألا لا تضربوا المسلمين فتذلّوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفّروهم ،
ولا تجمّروهم فتفتنّوهم » ^(٢) .
قال : التّجمير : ترك الجيش في مغازيهم لا يقاتلون .

وفي حديثه : أنه أتى بمروط ، فقسّمها بين نساء المسلمين ، ورفع مرطاً بقي إلى
أمّ سليط الأنصارية ، وقال : « إنها كانت تزفر القرب يوم أحد تسقى المسلمين » .
قال : تزفرها : تحملها ، ومنه زفر ، اسم رجل كان يحمل الأثقال .

(١) الفائق ١ : ١٨٥ .

(٢) نهاية ابن الأثير ٢ : ١٢٧ .

وفى حديثه أنه قال : « أعطوا من الصدقة من أبقّت له السنّة غنماً ، ولا تعطوا من أبقّت له السنّة غنمين » ^(١) .

قال : السنّة : هاهنا الأزمنة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ ﴾ ^(٢) .

قال : وكان عمر لا يبيز نكاحاً فى عام سنة ، يقول : « لعل الضيعة تحمّلهم على أن ينكحوا غير الأكفاء » .

وكان أيضاً لا يقطع سارقاً فى عام سنة .

وقوله : « غنماً » أى قطعة من الغنم ، يقال لفلان : غنّان ، أى قطعتان من الغنم ، وأراد عمر أن من له قطعتان غنّى لا يعطى من الصدقة شيئاً ؛ لأنها لم تكن قطعتين إلا لكثرتها .

وفى حديثه أنه انكفأ لونه فى عام الرمادة حين قال : « لا آكل سمناً ولا سميناً ، وأنه اتخذ أيام كان يطعم الناس قدحاً فى فرض ، فكان يطوف على القصاع فيغمز القدح ، فإن لم تبلغ الثريدة الفرض قال : فانظر ماذا يفعل ^(٣) بصاحب الطعام ^(٤) » .

قال : انكفأ : تغير عن حاله ، وأصله الانقلاب ، من كفتأت الإناء .

وسمّى عام الرمادة من قولهم : أرمّد الناس ، إذا جُهدوا ، والرمد : الهلاك .

والقدح : السهم . والفرض : الحز ، جعل عمر هذا الحزّ علامة لعمق التّريد فى الصّحفة .

(١) الفائق ١ : ٦١٧ .

(٢) سورة الأعراف ١٣٠ .

(٣) الفائق : « بالذى ولى الطعام »

(٤) الفائق ٢ : ٤١٧ ، ٤١٨ .

وفي حديثه : أن عطاء بن يسار ، قال : قلت للوليد بن عبد الملك : رُوي لي أن عمر بن الخطاب قال : ودِدْتُ أني سلمت من الخلافة كغافاً لا على ولاي ، فقال : كذبت^(١) ! الخليفة يقول هذا ! فقلت : أو كذبت ؟ فأفلت منه بجريعة الذقن^(٢) .
قال يقال خلس من خصمه كغافا ، أى كف كل واحد منهما عن صاحبه ، فلم ينل أحدهما من الآخر شيئاً^(٣) .
وأفلت فلان بجريعة ذقن ، أى أن نفسه قد صارت في فيه . وجريعة : تصغير جُرعة .

قلت : وإنما استعظم الوليد ذلك ، لأن بني أمية كانوا يرون أن من ولي الخلافة فقد وجبت له الجنة ، ولهذا خطب هشام يوم ولي ، فقال : الحمد لله الذى أنقذنى من النار بهذا المقام .

وفي حديثه : أن سِمَاك بن حرب ، قال : رأيت عمر ، فرأيت رجلاً أرواح كأنه راكب ، والناس يمشون كأنه من رجال بني سدوس^(٤) .
قال : الأرواح الذى تتدانى عقباه ، وتتباعد صدور قدميه ، يقال : أروح : بين الروح ، والأفجج : الذى تتدانى صدور قدميه ، وتتباعد عقباه وتتفحج ساقاه ، والأوكم : الذى يميل إبهام رجله على أصابعه حتى يزول ، فيرى شخص أصلها خارجاً ، وهو الوكم ، ومنه أمة وكماء .
وبنو سدوس : نخذ من بني شيبان ، والطول أغلب عليهم .

(١) الأصول : « كذب » ، وصوابه ما في الفائق .
(٢) الفائق ٢ : ٤٢١ (٣) فسرهُ صاحب الفائق ، وقال : « أى برأساً برأس لا أرزاً منك ولا ترزاً مني وحقيقته ، أكف عنك وتكف عني » .
(٤) النهاية لابن الأثير ٢ : ١١٠ .

وفي حديثه عن ابن عباس ، قال : دعاني فإذا حصير بين يديه ، عليه الذهب منشور
نثر الحنأ ، فأمرني بقسمه ^(١) .

قال : الحنأ : التبن ^(٢) مقصور ، قال الرازي يهجو رجلاً :
ويأكل التمر ولا يلتقي النوى ولا يوارى فرجه إذا اصطلى
* كأنه غرارة ملأى حنأ *

وفي حديثه أنه قال : « النساء ثلاث ، فهينة لينة عفيفة مسلمة ، تعين أهلها على
العيش ، ولا تعين العيش على أهلها ، وأخرى وعاء الولد ، وأخرى غلّ قمل يضعه الله
في عنق من يشاء ، ويفكه ممن يشاء . والرجال ثلاثة : رجل ذورأى وعقل ، ورجل
إذا حزبه أمر أتى ذارأي فاستشاره ، ورجل حائر بائر ، لا ياتمر رشداً ، ولا يطيع
مرشداً » ^(٣) .

قال البائر : الهالك ، قال تعالى : ﴿ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ ^(٤) . والأصل في قوله :
« غلّ قمل » ، أنهم كانوا يغفون بالقيد وعليه الشعر ، فيقمل على الرجال .
ولا ياتمر رشداً ، أي لا يأتي برشد من ذات نفسه ، يقال لمن فعل الشيء من غير
مشاورة : قد اتتمر ، وبئس ما اتتمرت لنفسك ، قال النمر بن تولب :
واعلمن أن كل مؤتمر مخطئ في الرأي أحياناً

وفي حديثه أنه خرج ليلة في شهر رمضان ، والناس أوزاع ، فقال : « إني لأظن
لو جمعناهم على قارئ واحد كان أفضل » ، فأمر أبي بن كعب فأمهم ، ثم خرج ليلة وهم

(١) النهاية ١ : ٢٠١ .

(٢) النهاية : « دق التبن » .

(٣) اللسان ١٨ : ١٧٩ ، وذكر قبله :

تسألني عن زوجها أي فتى خبّ جروز وإذا جاع بكى

(٤) سورة الفتح ١٢ .

(٤) الفائق ٣ : ٢٢٤

يصلّون بصلاته ، فقال : « نعم البدعة هذه ! والتي ينامون عنها أفضل من التي يقومون »^(١) .
قال : الأوزاع : الفرق ، يريد أنهم كانوا يصلّون فرادى^(٢) ، يقال : وزعتُ المالَ
بينهم ، أى فرّقته .

وقوله : « والتي ينامون عنها أفضل » ، يريد صلاة آخر الليل ، فإنها خير من
صلاة أوّلها .

وفي حديثه أنّ أصحابَ محمد صلى الله عليه وآله تذاكروا الوتر ، فقال أبو بكر :
أما أنا فأبدأ بالوتر ، وقال عمر : لكنّى أوتر حين ينام الضفّطى^(٣) .
قال : هو جمع ضَفِيط ، وهو الرَجُلُ الجاهل الضعيف الرأى .
ومنه ما روى عن ابن عباس ، أنّه قال : لو لم يطلب الناس بدمِ عثمان لرُموا بالحجارة
من السماء ، فقيل : أتقول هذا وأنت عامل لفلان ؟ فقال : إن فيّ ضَفَطات ، وهذه إحدى
ضَفَطَاتِي^(٤) .

وفي حديثه أنّه قال في وصيته : « إن تُوفِّيت وفي يدي صرّمة ابن الأَكوع ؛ فسَنِّها
سَنَةً مَمْنَعٍ^(٥) .

(١) الفائق ٣ : ١٥٩ ، ١٦٠ .

(٢) في الفائق : « يريد أنهم كانوا يتنفلون بعد صلاة العشاء فرقاً ، قال المسيب بن علس :

أَحَلَّتْ بَيْتَكَ بِالْجَمِيعِ وَبَعْضُهُمْ مَتَفَرِّقٌ لِيَحِلَّ فِي الْأَوْزَاعِ

(٤) الفائق ٣ : ٦٧ .

(٣) الفائق ٣ : ٦٧ .

(٥) الفائق ٢ : ٢١ .

قال : الصَّرمَةُ هاهنا : قِطْعَةٌ مِنَ النَّخْلِ ، ويقال للقطعة الخفيفة من الإبل : صِرمَةٌ ،
ويقال لصاحبها مُصْرِمٌ ، ولعله قيل القِلُّ ، مُصْرِمٌ من هذا .
وَتَمَخَّ : مال كان لعمر ، ووقفه .

وفي حديثه : أنه لما قدم الشام تفجّل له أمرأء الشام^(١) .
قال : أي اخشوشنوا له في الزّي واللباس والمطعم تشبّها به ، وأصله من الفجّل ، لأنّ
التصنّع في اللباس والقيام على النفس ، إنما هو عندهم للإناث لا للرجال .

وفي حديثه : أنه قدم مكة ، فسأل من يعلم موضع المقام — وكان السّيل احتمله من
مكانه — فقال المطلب بن أبي وداعة السهمي : يا أمير المؤمنين ، قد كنت قدّرتَه وذرعته
بِمِقَاطٍ عِنْدِي^(٢) .
قال : المِقَاط : الحبل ، وجمعه مَقُط .

وفي حديثه أنه قال للذي قتل الظبي وهو محرم : « خذ شاة من الغنم فتصدق
بلحمها ، وأسق إهابها »^(٣) .
قال : الإهاب : الجلد .
وَأَسَقَهُ ، أي اجعله سِقَاءً لغيرك ، كما تقول : أسقني عسلا ، أي اجعله لي سِقَاءً وَأَقْدُبِي
خَيْلاً ، أي أعطني خيلاً أقودها ، وأسقني إبلا : أعطني إبلا أسوقها .

(٢) الفائق ٣ : ٤١ .

(١) الفائق ٢ : ٢٥٠ .

(٣) الإهابة ٢ : ١٧٠ .

وقالت بنو تميم للحجاج : أقبِزنا صالحاً ، يعنون صالح بن عبد الرحمن ، وكان قتله وصابه ، فسألوه أن يملكهم من دفنه .

وفي حديثه : أنه ذُكر عنده التمر والزبيب : أيهما أفضل ؟ ويروى أنه قال لرجل من أهل الطائف : الحَبْلَةُ أفضل أم النخلة ؟ فأرسل إلى أبي حشمة الأنصاري ، فقال : إن هؤلاء اختلفوا في التمر والزبيب أيهما أفضل .

وفي رواية أخرى : وجاء أبو عمرة عبد الرحمن بن محصن الأنصاري ، فقال أبو حشمة : ليس الصَّقر في رؤوس الرُّقُل ، الراسخات في الوحل ، المطاعم في المحل ، تَلَّة الصَّبي ، وقِرَى الضيف ، وبه يُحترش الضب في الأرض الصلعاء ، كزبيب إن أكلته ضررت ، وإن تركته غرثت .

وفي الرواية الأخرى : فقال أبو عمرة : الزبيب إن آكله أضررت ، وإن أتركه أغرث ، ليس كالصقر في رؤوس الرُّقُل ، الراسخات في الوحل ، والمطاعم في المحل ، خُرْفَة الصائم ، وتحفة الكبير ، وصُمتة الصغير ، وخُرْسَة مريم ، ويُحترش به الضباب من الصَّامَاء (١) .

قال : الحَبْلَةُ ، بفتح الحاء وتسكين الباء : الأصل من الكرم ، وفي الحديث : إن نوحاً لما خرج من السفينة غرَّس الحَبْلَةَ ، وكانت لأنس بن مالك حَبْلَةٌ تحمل كذا ، وكان يسميها أمَّ العيال ، فأما الحَبْلَةُ بالضم فثمر العضاء ، ومنه الحديث : كنا نفرزو مع رسول الله صلى الله عليه وآله ومالنا طعام إلا الحَبْلَةَ ، وورق السَّمر . والحَبْلَةُ بالضم أيضاً : ضرب من الحَلَى يجعل في القلائد ، شبه بورق العضاء ، لأنه يصاغ على صورته .

وأغرث : أجوع ، والغرث : الجوع .

(١) الفائق ١ : ٢٣١ .

والصَّقْر : عسل الرُّطَب .

والرَّقْل : جمع رَقْلَة ، وهى النخلة الطويلة .

وقوله : « خُرْفَة الصائم » اسم لما يَخْتَرَف ، أى يَجْتَنِي ، ونسبها إلى الصائم ، لأنهم كانوا يَحْبُون أن يَفْطَرُوا على التمر .

وقوله : « وَصُمْتَة الصغير » ؛ لأنَّ الصغير كان إذا بكى عَندَهم سَكَّتُوهُ به . وتعَلَّة الصبيَّ نَحْوَهُ ، من التعليل .

وخُرْمَة مريم ، الخُرْمَة ما تَطْعَمُهُ النَّفْسَاء عند ولادتها ، أشار إلى قوله تعالى : ﴿ وَهَزَّأَ إِلَيْكَ بِجِدْعِ النَّخْلَةِ تَسَاطَعُ عَلَيْهِمْ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ ^(١) ، فأما الخُرْس بغير هاء فهو الطعام الذى يصنع لأجل الولادة ، كالإعذار للختان ، والنَّقِيعَة للقادم ، والوكيرة للبناء . ويَخْتَرَش به الضَّبُّ أى يصطاد ، يقال إنَّ الضَّبَّ يعجب بالتمر ، والحارث : صائد الضباب .

والصِّلْمَاء : الصحراء التى لانبات بها كرأس الأصلع .

وفى حديثه أنه قال للسائب : « وَرَّعَ عَنِّي بالدرهم والدرهمين » ^(٢) .

قال : أى كَفَّ الخُصُومَ عَنِّي فى قدر الدرهم والدرهمين بأن تنظر فى ذلك ، وتَقْضَى فيه بينهم ، وتنوب عَنِّي : وكلَّ مَنْ كَفَفْتَهُ فَقَدْ وَرَّعْتَهُ ، ومنه الوَرَع فى الدين ، إنما هو الكَفَّ عن المعاصى . ومنه حديث عمر : لا تنظروا إلى صلاة الرَّجُل وصيامه ، ولكن من إذا حَدَّثَ صدق ، وإذا اتُّمِنَ أَدَّى ، وإذا أَشْفَى وَرَّعَ ، أى إذا أَشْرَف على المعصية كَفَّ عنها .

وفى حديثه أنه خطب الناس ، فقال : « أيها الناس ؛ لينكح الرجل منكم لُمته من النساء ، ولتنكح المرأة لُمته من الرجال » ^(١) .
قال : لُمَةُ الرجل من النساء مثله في السن ، ومنه ماروى أن فاطمة عليها السلام خرجت فى لُمَةٍ من نسائها [تتوطأ ذيلها] ^(٢) ، حتى دخلت على أبى بكر ^(٣) .
وأراد عمر بن الخطاب : لاتنكح الشابة الشيخ الكبير ، ولا ينكح الشاب العجوز ، وكان سبب هذه الخطبة أن شابة زوجها أهلها شيخاً فقتلته .

وفى حديثه: أن رجلاً أتاه يشكو إليه النقرس ، فقال : كذبتك الظهائر ^(٤) .
قال : الظهائر : جمع ظهيرة ، وهى الهاجرة ، ووقت زوال الشمس .
وكذبتك ، أى عليك بها ، وهى كلمة معناها الإغراء ، يقولون : كذبتك كذا ، أى عليك به .

ومنه الحديث المرفوع : [الحجامَة على الريق فيها شفاء وبركة] ، فمن احتجم فى يوم الخميس ويوم الأحد ، كذباك ! ^(٥)
أى عليك بهما ، وإنما أمر عمر صاحب النقرس أن يبرز للحرق فى الهاجرة ويمشى حافياً ، ويتنذل نفسه ، لأن ذلك يذهب النقرس .

وفى حديثه أنه قال : « مَنْ يَدَلَّنِي عَلَى نَسِيجٍ وَحْدَهُ ؟ » ، فقال أبو موسى : مانعلمه غيرك ، فقال : ماهى إلا إبل مَوْقَعٌ ظهورها ^(٦) .
قال : معنى قولهم : « نسيج وحده » أى لا عيب فيه ، ولا نظيره . أصله من الثوب النَّفِيس ، لا ينسج على منواله غيره .

(٢) من الفائق .

(٤) الفائق ٢ : ٤٠٠ .

(٦) الفائق ٣ : ٨٦ .

(١) الفائق ٢ : ١٥٦

(٣) الفائق ٢ : ٤٧٦

(٥) النهاية لابن الأثير ٣ : ١٢ والتكملة من هناك .

والبعير الموقع الذى يكثر آثار الدَّبر بظهره ، لكثرة ما يركب ، وأراد عمر أنَّنا
كلُّنا مثل ذلك فى العيب .

وفى حديثه : إنَّ الطبيب الأنصارى سقاه لبنا حين طُعِن ، فخرج من الطعنة
أبيضَ يَصِلِدُ^(١) .
قال : أى يبرق ولم يتغيَّر لونه .

وفى حديثه أنَّ نادية عمر ، قالت : واعمرأه ! أقام الأود ، وشفى العمَد . فقال علىَّ
عليه السلام : أما والله ما قاتلته ولكن قُوِّلَتْهُ^(٢) .
والعمَد : ورم ودبر يكون فى ظهر البعير ، وأراد علىَّ عليه السلام أنه كأنما ألقى
هذا الكلام على لسانها لصحَّته وصدقه .

وفى حديثه : أنَّه استعمل رجلاً على اليمن ، فوفد إليه ، وعليه حلَّةٌ مُشَّهَرَةٌ ، وهو
مرجَلٌ دَهِينٌ ، فقال : أهكذا بعثناك ! ثم أمر بالحلَّةِ فنزعت عنه ، وألبس جُبَّةً صوف ،
ثم سأل عن ولايته فلم يذكر إلَّا خيراً فردَّه على عمله ، ثم وفد إليه بعد ذلك ، فإذا
أشعث مغبر عليه أطلاس ، فقال : ولا كلَّ هذا ، إن عاملنا ليس بالشَّعِث ولا العافى ،
كلوا واشربوا وادَّهِنُوا ؛ إنَّكم لتعلمون الذى أكره من أمركم^(٣) !
قال : ثياب أطلاس ، أى وسخة ، ومنه قيل للذئب : أطلس .

(٢) الفائق ١ : ٥٠

(١) الفائق ٢ : ٣٥

(٣) الفائق ١ : ٦٨٣

والعافى : الطويل الشعر ؛ يقال : عَفَى وبرُّ البعير ، إذا طال ، ومنه الحديث المرفوع :
« أمر أن تُعْفَى اللَّحَى وتُحْفَى الشَّوَارِبُ » .

وفي حديثه أنه قال للرجل : أما ترانى لو شئت أمرت بشاة فتتية سمينية [أو قنيية]^(١)
فألقى عنها صوفها ، ثم أمرت بدقيق فذخل في خرقه ، فجعل منه خبز مرقق ، وأمرت بصاع
من زبيب فجعل في سعن حتى يكون كدم الغزال^(٢) .
قال : السعن : قربة أو إداوة ينتبذ فيها وتعلق بجذع .

وفي حديثه : أنه رأى رجلاً يأنيح ببطنه ، فقال : ما هذا ؟ قال : بركة من الله ، قال :
بل هو عذاب من الله يعذبك به^(٣) .
قال : يأنيح : يصوت ، وهو ما يعترى الإنسان السمين من البهر إذا مشى ، أنيح يأنيح أنوحا

وفي حديثه أنه لما دنا من الشام وأقيته الناس ، جعلوا يتراطنون ، فأشكعه ذلك
وقال لأسلم مولاة : إنهم لم يروا على صاحبك بزة قوم غضب الله^(٤) عليهم .
قال : أشكعه : أغضبه ، قال : أراد أنهم لم يتحاموا عنه اللفظ ، والكلام بالفارسية
والنبطية بحضرته ، لأنهم لم يروه بعين الإمارة والسلطان ، كما يرون أمراءهم ، لأنهم لم
يروا عليه بزة الأمراء وزيتهم .

(١) من الفائق ، قال : « الزنية : ما اتنى من شاة أو ناقة »

(٢) (٣) النهاية ١ : ٤٦

(٢) الفائق ٢ : ٣٧٩

(٤) الفائق ١ : ٤٨

وفي حديثه : أن عاملاً على الطائف كتب إليه : إن رجالاً منهم كلموني في خلایا لهم ، أسلموا عليها ، وسألوني أن أحییها لهم . فكتب إليه عمر : « إنها ذباب غیث ؛ فإن أدوا زكاته فاحمه لهم » ^(١) .

قال : الخلیا موضع النحل التي تعسل ، الواحدة خلیة ، وأراد بقوله : « إنها ذباب غیث » أنها تعيش بالطير ؛ لأنها تأكل ما ينبت عنه ، فإذا لم يكن غیث فقدت ما تأكل ، فشبهها بالسائم من التعم لا مؤنة على صاحبها منها ، وأوجب فيها الزكاة .

وفي حديثه : أن سعد بن الأخرم ، قال : كان بين الحی وبين عدی بن حاتم تشاجرٌ فأرسلوني إلى عمر فأتيته وهو يطعم الناس من كسور إبل ، وهو قائم متوكئ على عصا ، مؤتر إلى أنصاف ساقیه ، خدب من الرجال كأنه راعي غنم ، وعلى حلة ابتعتها بخمسائة درهم ، فسلمت عليه ، فنظر إلى بذنب عينه ، وقال لی : أمالك معوز ؟ قلت : بلى ، قال : فآلتها ، فألقيتها وأخذت معوزاً ، ثم لقيته فسلمت ، فردّ على السلام ^(٢) .

قال : كسور ^(٣) الإبل : أعضاؤها .

والخدب : العظيم الجافى وكأنه راعي غنم ، يريد في الجفاء والبداة وخشونة الهيئة واللبسة .

والمعوز : الثوب الخلق ، والميم مكسورة ؛ وإنما ترك ردّ السلام عليه أولاً ، لأنه أشهر الحلة ، فأدبه بترك ردّ السلام ، فلما خلعها ولبس المعوز ردّه عليه .

(٢) الفائق ٢ : ٤١١ .

(١) الفائق ١ : ٣٦٦ .

(٣) واحده كسر ، بالفتح والكسر .

وفى حديثه : أنه ذكر فتیان قريش وسرفهم فى الإنفاق ، فقال : الحِرْفَة أحدهم أشدّ
تعلّى من عيّلته^(١) .

قال : الحِرْفَة ها هنا ، أن يكون الرّجل لا يتّجر ولا يلتمس الرّزق ، فيكون محدودا
لا يرزق إذا طلب ، ومنه قيل : فلان محارف . والعيلة : الفقر .

وفى حديثه : أنه قال لرجل : ما مالك ؟ قال : أقرنّ لى وآدمية فى المنية ، قال :
نومّها وزكّها^(٢) .

قال : الأقرون : جمع قرن ، وهى جعبة من جلود تكون للصيادين يشقّ منها
جانب ليدخلها الريح فلا يفسد الريش .

وآدمية : جمع أديم ، كجريب وأجربة .
والمنية : الدّباغ ، وإنما أمره بتزكيتها ، لأنها كانت للتجارة .

وفى حديثه أنّ أبا وجزة السعدى ، قال : شهدته يستقى ، فجعل يستغفر ، فأقول :
لا يأخذ فيما خرج له ! ولا أشعر أنّ الاستسقاء هو الاستغفار ، فقلدنا السماء قلداً كلّ
خمس عشرة ليلة ، حتى رأيت الأرنبة يأكلها صفار الإبل من وراء حِقاق العُرْفَط^(٣) .
قال : فقلدنا : مطرنا لوقت معيّن ، ومنه قلداً الحمى ، وقلد الزرع ، سقيه لوقت وهو
يقت الحاجة .

وقال : رأيت الأرنب يحتملها السّيل حتى تتعاق بالعُرْفَط ، وهو شجر ذو شوك ،
يزاد فى الأرنب هاء ، كما قالوا : عقرب وعقربة ، وحِقاق العُرْفَط : صفارها ، وقيل : الأرنب

(٢) الفائق ٢ : ٣٣٢

(١) الفائق ١ : ٢٥٢

(٣) الفائق ٢ : ٣٧١

ضرب من التبت ، لا يكاد يطول ، فأراد أنه طال بهذا المطر حتى أكلته صغار الإبل من وراء شجر العُرْفُط .

وفي حديثه : أنه قال : ما ولي أحدٌ إلا حامى^(١) على قرابته ، وقرى في عييته ، ولن يلى الناس قرشيَّ عضَّ على ناجذه^(٢) .

قال : حامى عليهم : عطف عليهم ، وقرى في عييته ، أى اختان ، وأصل قرى : جمع .

وفي حديثه : لن تمحور قوًى ما كان صاحبها ينزع وينزو^(٣) .
 يخور : يضعف . والنزع في القوس ، والنزو على الخيل .
 وروى أن عمر كان يأخذ بيده اليمنى أذنه اليسرى ، ثم يجمع جرابيه ويثب ، فكانما
 خلق على ظهر فرسه .

* * *

وفي حديثه : « تعلموا السّنة والفرائض واللّحن ، كما تتعلمون القرآن »^(٤) .
قال : اللّحن ها هنا : اللغة والنحو .

وفي حديثه : أنه مرّ على رابع ، فقال : يا راعي ، عليك بالظِّلْفِ [من الأرض]^(٥)
لا ترمضْ ، فإنَّك رابع وكلُّ رابع مسئول^(٦) :

قال : الظِّلْفُ : المواضع الصلبة ، أمره أن يرعى غنمه فيها ، ونهاه أن يرمضَ ،
وهو أن يرعى غنمه في الرَّمضاء وهي تشتدّ جدا في الدّهاس والرمل ، وتحفّ في
الأرض الصلبة .

* * *

(١) الفائز : « حام » .

(٣) الفائق ١ : ٣٧٦ .

(٥) من الفائق .

(٢) الفائق ١ : ٣١١ .

(٤) الفائق ٢ : ٤٥٧ .

(٦) الفائق ٢ : ١٠١

وفي حديثه : أن رجلاً قرأ عليه حرفاً ، فأثكّره ، فقال : مَنْ أقرأك هذا ؟ قال :
أبو موسى ، فقال : إنَّ أبا موسى لم يكن من أهل البهش^(١) .
قال : البهش المقل الرطب ، فإذا يبس فهو الخشل ، وأراد أنَّ أبا موسى : ليس من
أهل الحجاز ، لأنَّ المقل بالحجاز نبت ، والقرآن نزل باللغة الحجازية .

وفي حديثه : أنَّ عقبة بن أبي معيط ، لما قال للنبيّ صلى الله عليه وآله : أأقتل من بين
قريش ؟ فقال عمر : حنّ قدح لينس منها^(٢) .
قال : هذا مثل يضرب للرجل يُدخل نفسه في القوم وليس منهم ، والقدح : أحد
قداح الميسر ، وكانوا يستعيرون القدح يدخلونه في قداحهم يتبعون به ويثقون بفوزه .

وفي حديثه : أنَّ أهل الكوفة لما أوفدوا العلاء بن الهيثم السدوسيّ إليه ، فرأى عمر
هيئته رثةً ، وأعجبه كلامه وعمله ، قال : لكلّ أناس في حيلهم خير .
قال : هذا مثل ، والمراد أنهم سودوه على معرفةٍ منهم بما فيه من الخلال الحمودة ،
والمعنى أن خبره فوق منظره .

وفي حديثه : أنه أخذ من القطنيّة الزكاة^(٣) .
قال : هي الحبوب كالعدس والحبّ ، وفي أخذ الزكاة منها خلاف بين الفقهاء .

(٢) الفائق ١ : ٣٠٠ .

(١) الفائق ١ : ١١٨ .

(٣) النهاية ٣ : ٢٦٥ .

وفى حديثه : أنه كان يقول للخارص^(١) : «إذا وجدت قوماً قد خرّفوا فى حائطهم ، فانظر قدر ما ترى أنهم يأكلونه ، فلا تخرّصه»^(٢) .
قال : خرّفوا فيه ، أى نزلوا فيه أيام اختراق الثمرة .

وفى حديثه : «إذا أجريت الماء على الماء جَزَى عنك»^(٣) .
قال : يريد صبّ الماء على البول فى الأرض ، فإنه يطهر المكان ، ولا حاجة إلى غسله .
وجَزَى : قضى وأغنى ، من قوله تعالى : ﴿ لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً ﴾^(٤) ، فإن
أدخلت الألف قلت : «أجزأك» وهمزت ، ومعناه كفاك .

وفى حديثه أنه قال : «لا يعطى من المغنم شىء حتى تقسم ؛ إلا لراع ؛ والدليل
غير مُؤليه»^(٥) .

قال : الراعى هاهنا الطليعة ، لأنه يرعى القوم ؛ أى يحفظهم .
وقوله : «غير مُؤليه» ، أى غير مُعطيه شيئاً لا يستحقه .

وفى حديثه : «إنّ من الناس من يُقاتل رياءً وسمعةً ، ومنهم من يُقاتل وهوى الدنيا ،
ومنهم من أُلجِه القتال فلم يجد بداً ، ومنهم من يُقاتل صابراً محتسباً ، أولئك هم الشهداء» .
قال : أُلجِه القتال ، أى رهقه وغشّيه ، فلم يجد مخلصاً .

(١) خرس النخلة : إذا حزر ما عليها من الرطب ؛ من الحرس ؛ وهو الظن .
(٢) الفائق ١ : ٣٣٧ (٣) النهاية لابن الأثير ١ : ١٦٢ .
(٤) سورة البقرة ١٢٣ (٥) النهاية ٢ : ٨٨ ، ٤ : ٢٣٢ .

وفى حديثه : أنه أرسل إلى أبي عبيدة رسولا فقال له حين رجع : فكيف رأيت أبا عبيدة ؟ قال : رأيتُ بللا من عيش فقَصَرَ من رزقه ، ثم أرسل إليه ، وقال للرسول حين قدم : كيف رأيتَه ؟ قال : رأيتَه حَفُوقاً ، قال : رحم الله أبا عبيد ، بسطنا له فَبَسَطَ ، وقبضنا له فقبض^(١) .

قال : الحُفُوف والحَفَف واحد ، وهو ضيق العيس وشدته ، يقال : ماعليهم حَفَفٌ ولا ضَفَف ، أى ماعليهم أثر عَوَزٍ ، والشَّظَف : مثل الحَفَف .

وفى حديثه : أنه رَأَى فى المنام ، فسئل عن حاله ، فقال : « ثُلَّ عَرْشِي^(٢) لولا أنى صادفت ربى رحيماً » .

قال : ثُلَّ عَرْشُهُ ، أى هدم .

وفى حديثه : أنه قال لأبى مريم الحنفى : « لأنا أشدُّ بغضاً لك من الأرض للدم » ، قالوا : كان عمر عليه غليظاً ، كان قاتلَ زيد بن الخطاب أخيه ، فقال : أَيْتَقَصْنِي ذلك من حَقِّ شَيْئاً ؟ قال : لا ، قال : فلا ضَيْرَ^(٣) .

قال : هذا مثل ، لأن الأرض لا يفوص فيها الدم كما يفوص الماء ، فهذا بغض الأرض له ، ويقال : إِنَّ دَمَ البعير تنشِفُه الأرض وحده .

وفى حديثه : « إِنَّ اللبَنَ يشَبُه عليه »^(٤) .

(٢) فى النهاية : « كاد يثُل عرشى » .

(٤) الفائق ١ : ٦٣٤ .

(١) الفائق ١ : ١١١ .

(٣) النهاية ١ : ٣٢ .

قال : معناه أنَّ الطَّفل ربما نزع به الشَّبه إلى الظُّلَّ من أَجل لبَّنها ، فلا تسترضعوا .
إِلَّا مَنْ تَرْضُونَ أَخْلَاقَهَا .

وفي حديثه : « اغزوا ، والغزو حُلُوْ خِضر ، قبل : أن يكون ثُمَاما ، ثم يكون رُمَاما ،
ثم يكون حُطَاما »^(١) .

قال : هذا مثل ، والشَّعَام : نبت ضعيف .
والرُّثَام ، بالضم والريم واحد ، مثل طُوال وطويل .
والحُطَام : بيس النبت إذا تكسَّر ، ومعنى الكلام أنَّه أضرهم بالغزو حين عزائمهم
قويَّة ، وبواعثهم إليه شديدة ، فإنَّ مع ذلك يكون الظفر قبل أن يَهَيَّ ويضعف ، فيكون
كالثَّام الضعيف ، ثم كالريم ، ثم يكون حُطَامًا فيذهب .

وفي حديثه : « إذا انتاطت المغازي ، واشتدَّت العزائم ، ومنعت الغنائم أنفسها ، فخير
غزوكم الرِّباط » .

قال : انتاطت : بعدت ، والنَّطْيَاء : البعيد .
واشتدَّت العزائم : صعبت ومنعت الغنائم أنفسها ، فخير غزوكم الرِّباط في سبيل الله .

وفي حديثه أنه وضع يده في كُشْيَةٍ^(٢) ضَبَّ ، وقال : إنَّ النبي صلى الله عليه وآله
لم يحرمه ، ولكن^(٣) قدَّره .
قال : كُشْيَةُ الضَّبِّ : شحم بطنه .

(٢) ويروى : « كشة » .

(١) الفائق ١ : ٣٥٢ .

(٣) الفائق ١ : ١٦٩ .

وقوله : « وضع » أى أكل منه .

وفى حديثه : « لأوتى بأحدٍ انتقص من سبيل المسلمين إلى مثابته شيئا إلا فعلت به كذا »^(١) .

قال : المثابات هاهنا : المنازل يشوب أهلها إليها ، أى يرجعون ، والمراد من اقتطع شيئا من طريق المسلمين وأدخله فى داره ..

وفى حديثه : أنه كره التَّير^(٢) .

قال : هو عَمَّ الثوب ، وأظنه كرهه إذا كان حريرا .

وفى حديثه : أنه انكسرت قُلُوص من إبل الصدقة فجَفَّها^(٣) .

قال : اتَّخَذَ مِنْهَا جَفَنَةً من طعام ، وأجمع عليه^(٤) .

وفى حديثه : « عَجِبْتُ لَتَاجِرِ هَجَرَ ، وَرَأَى كَبَّ الْبَحْرِ »^(٥) !

قال : عَجِبَ كَيْفَ يَخْتَلِفُ إِلَى هَجَرَ مَعَ شِدَّةِ وَبَائِهَا ، وَكَيْفَ يَرْكَبُ الْبَحْرَ مَعَ

الْخَطَارَ بِالنَّفْسِ !

وفى حديثه : أنه قال لَيْلَةَ لَابْنِ عَبَّاسٍ فِي مَسِيرِهِ : أَنْشِدْنَا لِشَاعِرِ الشُّعْرَاءِ ، قَالَ : وَمَنْ

(٢) الفائق ٣ : ١٣٩ .
(٤) النهاية : « وجع الناس عليه » .

(١) الفائق ١ : ١٦٣ .
(٣) النهاية ١ : ١٦٨ ..
(٥) نهاية ابن الأثير ٤ : ٢٤٠ .

هو ؟ قال : الذى لم يعاظم بين القول ، ولم يتبع حوشي الكلام ، قال : ومن هو ؟ قال :
زهير ، فجعل يُنشد إلى أن برق الصبح ^(١) .
قال : هو مأخوذ من تعاظم الجراد ، إذا ركب بعضه بعضا .
وحوشي الكلام : وحشيته .

وفى حديثه أن نائلاً مولى عثمان ، قال : سافرت مع مولاى وعمر فى حج أو عمرة ،
فكان عمر وعثمان وابن عمر إفاً ، وكنت أنا وابن الزبير فى شبعة معنا إفاً ، فكنا
نمازح ونترامى بالحنظل ، فما يزيدنا عمر على أن يقول لنا ؛ كذاك لا تذعروا علينا ،
فقلنا لرياح بن العترف ^(٢) : لو نصبت لنا نصب العرب ! فقال : [أقول] ^(٣) مع عمر
فقلنا : افعل وإن نهاك فانت ، ففعل ولم يقل عمر شيئاً ، حتى إذا كان فى وجه السحر
ناداه : يارياح ، إنهما ، اكفف فإنها ساعة ذكر ^(٤) !
قال : إفاً ، أى حزبا وفريقة .

وشبعة : جمع شاب ، مثل كاتب وكتبة ، وكاذب وكذبة ، وكافر وكفرة .
وقوله : « كذاك » أى حسبكم .

وقوله : « لاتذعروا علينا » ، أى لاتنفروا إبلنا .
ونصب العرب : غناء لهم يشبه الحداء ، إلا أنه أرق منه .

وفى حديثه : أنه كتب فى الصدقة إلى بعض عماله كتابا فيه : « ولا تحبس الناس أو لهم
على آخرهم ، فإن الرجن للماشية عليها شديد ، ولها مهلك ، وإذا وقف الرجل عليك غنمه
فلا تلتصم من غنمه ، ولا تأخذ من أدناها ، وخذ الصدقة من أوسطها ، وإذا وجب على

(٢) الفائق : المتعرف .

(٤) الفائق ٢ : ٤٦٩ .

(١) الفائق : ١٦٥

(٣) من الفائق .

الرَّجُلُ سَنٌ لَمْ تَجِدْهَا فِي إِبْلِهِ فَلَا تَأْخُذْ إِلَّا تِلْكَ السَّنَّ مِنْ شَرَّوَى إِبْلِهِ أَوْ قِيَمَةِ عَدْلٍ، وَانْظُرْ ذَوَاتِ الدَّرِّ وَالْمَاخِضِ، فَتَنْكَبْ عَنْهَا؛ فَإِنَّهَا ثَمَالٌ حَاضِرِيهِمْ» ^(١).

قال: الرَّجُنُّ: الحبس؛ رَجَنَ بِالْمَكَانِ: أَقَامَ بِهِ، وَمِثْلُهُ دَجَنَ، بِالذَّالِ.
وَلَا تَعْتَمُ: لَا تَحْتَرِ، اعْتِمَاءً أَيْ اخْتَارَ.
مِنْ شَرَّوَى إِبْلِهِ، أَيْ مِنْ مِثْلِهَا
وَذَوَاتِ الدَّرِّ: ذَوَاتِ اللَّبَنِ.
وَالْمَاخِضُ: الْحَامِلُ.

وَتَمَالٌ حَاضِرِيهِمْ: عَصْمَتُهُمْ وَغِيَاهُمُ، وَحَاضِرِيهِمْ: مَنْ يَسْكُنُ الْحَضَرَ.

وَفِي حَدِيثِهِ: أَنَّهُ كَانَ يَلْقُطُ النَّوَى مِنَ الطَّرِيقِ وَالنَّكْتُ؛ فَإِذَا مَرَّ بِدَارِ قَوْمٍ أَلْقَاهَا فِيهَا، وَقَالَ: «لِيَأْكُلْ هَذَا دَا جَنْتَكُمْ وَانْتَفِعُوا بِبَاقِيهِ» ^(٢).

قال: الدَّاجِنَةُ مَا يَلْعَقُهُ النَّاسُ فِي مَنَازِلِهِمْ، مِنَ الشَّاةِ وَالذَّجَاجِ وَالطَّيْرِ.
وَالنَّكْتُ: الْخَيْوُطُ الْخُلُقُ مِنْ صُوفٍ أَوْ شَعْرٍ أَوْ وَبَرٍ.

وَفِي حَدِيثِهِ: «ثَلَاثٌ مِنَ الْفَوَاقِرِ: جَارٌ مُقَامَةٌ؛ إِنْ رَأَى حَسَنَةً دَقَّقَهَا، وَإِنْ رَأَى سَيِّئَةً أَذَاعَهَا، وَامْرَأَةٌ إِنْ دَخَلَتْ عَلَيْهَا لَسَنْتُكَ، وَإِنْ غِيبَتْ عَنْهَا لَمْ تَأْمَنْهَا، وَإِمَامٌ إِنْ أَحْسَنْتَ لَمْ يَرْضَ عَنْكَ، وَإِنْ أَسَأْتَ قَتَلَكَ» ^(٣).

(٢) الفائق ٣: ١٣٤.

(١) الفائق ١: ٤٦٦.

(٣) الفائق: ٢٩٠.

— ١٧٦ —

قال : الفواقِر : الدواهي ، واحدها فاقِرة ، لأنها تكسر فقار الظهر .
ولسنتك : أخذتك بلسانها .

وفي حديثه في خطبة له : « مَنْ أتى هذا البيت لا ينهره إليه غيره ، رجع وقد غفر له » .
قال : ينهره : يدفعه ، يريد من حجّ لا ينوي بالحجّ إلا الطاعة غفر له .

وفي حديثه : « اللبن لا يموت » .
قال : قيل في معناه : إن اللبن إذا أخذ من ميتة لم يحرم ، وكلّ شيء أخذ من الحيّ
فلم يحرم فإنه إن أخذ من الميت لم يحرم .
وقيل في معناه : إن رَضَعَ الطفل من امرأة ميتة حرّم عليه من أولادها وقرابتها
مَنْ يحرم عليها منها لو كانت حيّة .
وقيل : معناه : إن اللبن إذا انفصل من الضرع فأوجر به الصبيّ أو آدم به أو ديف له
في دواء وسُقِيَه ، فإنه إن لم يسمّ في اللغة رضاعاً ، إلا أنه يحرم به ما يحرم بالرضاع ؛ فقال : اللبن
لا يموت ، أي لا يبطل عمله بفارقة الثدي .

وفي حديثه : « من حظّ المرء نفاق أيمه وموضع خُفّه » ^(١) .
قال : الأيم التي لا بعل لها ، وأُخِفّ : الإبل ، كما تُسمّى الحمرو والبغال حافراً ، والبقرو والغنم
ظُلُفاً ، يريد من حظّ الإنسان أن يخطب إليه ويتزوج بناته وأخواته وأشباههنّ ، فلا يَبْرُنْ ،

(١) النهاية ١ : ٢٧٠ ، وفيه : « موضع حقه » ، وقال في شبرحه : « وأن يكون حقه في ذمة
مأمون جوده وتهنسه » .

ومن حظاً أيضاً أن ينفق إبله، حتى ينتابه التجار وغيرهم فيبتاعوها في مواضعها، يستطرقونه
لا يحتاج أن يعرضها عليهم .

وفي حديثه : أنَّ العباس بن عبد المطلب سأله عن الشعراء ، فقال : امرؤ القيس
سابقهم ، خسف لهم عين الشعر ؛ فافتقر عن معاني عورٍ أصحَّ بَصَرٍ^(١) .
قال : خسف لهم ، من الخسيف ، وهي البئر تحفر في حجارة ، فيخرج منها ماء كثير ،
وجمعها خُسْف .

وقوله : « افتقر » أى فتح ، وهو من الفقير ، والفقير : فم القناة .
وقوله : « عن معاني عور » يريد أنَّ امرأ القيس من اليمن ، واليمن ليست لهم فصاحة
تزار ، فجعل معانيهم عوراً ، وفتح امرؤ القيس عنها أصحَّ بصر .

[ذكر الأحاديث الواردة في فضل عمر]

فأما الحديث الوارد في فضل عمر ، فمنه ما هو مذکور في الصَّحاح ، ومنه ما هو غير
مذکور فيها . فمما ذكر في المسانيد الصحيحة من ذلك ، ما روت عائشة أنَّ رسول الله صلى
الله عليه وآله قال : « كان في الأمم محدثون ، فإن يكن في أمتي فعمر » . أخرجاه في الصحيحين .
وروى سعد بن أبي وقَّاص ، قال : استأذن عُمر على رسول الله صلى الله عليه وآله ،
وعنده نساء من قریش يكلمنّه ، عاليةً أصواتهنَّ ، فلما استأذن قُمنَ يبتدرنَ الحجاب ،
فدخل ورسول الله صلى الله عليه وآله يضجّك ، قال : أضجّك الله سينك يا رسول الله ! قال :
عجبتُ من هؤلاء اللواتي كنَّ عندي فلما سمعنَّ صوتك ابتدرنَ الحجاب . فقال عمر : أنت

(١) الفائق ٦ : ٣٤٣ .

أَحَقُّ أَنْ يَهْبَنَ ، ثُمَّ قَالَ : أَيَّ عَدُوَاتٍ أَنْفَسِهِنَّ ، أَتَهْبِنُنِي وَلَا تَهْبِنَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قَانَ : نَعَمْ ، أَنْتَ أَغْلَظُ وَأَفْظُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، مَا لَقَيْتُكَ الشَّيْطَانُ قَطُّ سَالِكًا فَجًّا إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ » ، أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ .

وقد روى في فضله من غير الصحاح أحاديث :

منها : « إِنَّ السَّكِينَةَ لَتَنْطِقُ عَلَى لِسَانِ عَمْرٍ » .

ومنها : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ضَرَبَ بِالْحَقِّ عَلَى لِسَانِ عَمْرٍ وَقَلْبِهِ » .

ومنها : « إِنَّ بَيْنَ عَيْنَيْ عَمْرٍ مَلَكٌ يَسُدُّهُ وَيُوقِّعُهُ » .

ومنها : « لَوْلَمْ أَبْمَثْ فِيكُمْ لَبِيعْتُ عَمْرٍ » .

ومنها : « لَوْ كَانَ بَعْدِي نَبِيٌّ لَكَانَ عَمْرٍ » .

ومنها : « لَوْ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ عَذَابٌ لَمْ أَنْجِ مِنْهُ إِلَّا عَمْرٍ » .

ومنها : « مَا أَبْطَأَ عَنِّي جَبْرِيلٌ إِلَّا ظَنَنْتُ أَنَّ بَيْعْتُ إِلَى عَمْرٍ » .

ومنها : « سَرَّاجُ أَهْلِ الْجَنَّةِ عَمْرٍ » .

ومنها : أَنَّ شَاعِرًا أَنْشَدَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ شِعْرًا ، فَدَخَلَ عَمْرٍ ، فَأَشَارَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِلَى الشَّاعِرِ أَنْ اسْكُتْ ، فَلَمَّا خَرَجَ عَمْرٍ ، قَالَ لَهُ : عُدْ فَعَادَ ، فَدَخَلَ عَمْرٍ فَأَشَارَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِالسَّكُوتِ مَرَّةً ثَانِيَةً ، فَلَمَّا خَرَجَ عَمْرٍ سَأَلَ الشَّاعِرُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَنِ الرَّجُلِ ، فَقَالَ : « هَذَا عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، وَهُوَ رَجُلٌ لَا يَحِبُّ الْبَاطِلَ » .

ومنها : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَالَ : « وَزِنْتُ بِأَمْتِي فَرَجَحْتُ ، وَوَزَنَ أَبُو بَكْرٍ بِهَا فَرَجَحَ ، وَوَزَنَ عَمْرُ بِهَا فَرَجَحَ ، ثُمَّ رَجَحَ ، ثُمَّ رَجَحَ » .

وقد رووا في فضله حديثا كثيرا غير هذا ، ولكننا ذكرنا الأشهر . وقد طعن أعداؤه ومبغضوه في هذه الأحاديث ، فقالوا : لو كان محدثا وملهما لما اختار معاوية الفاسق لولاية الشام ، ولكان الله تعالى قد ألهمه وحديثه بما يُواقع من القبائح والمنكرات والبغى والتغلب على الخلافة ، والاستئثار بمال الفئء ، وغير ذلك من المعاصي الظاهرة .

قالوا : وكيف لا يزال الشيطان يسلك فجأ غير فجته ، وقد فرّ مرارا من الزحف في أحُدٍ وحَيْنٍ وخَيْرٍ ، والفرار من الزحف من عمل الشيطان وإحدى الكبائر الموبقة ! قالوا : وكيف يدعى له أن السكينة تنطق على لسانه ! أتري كانت السكينة تلاحى رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الحديبية ، حتى أغضبه !

قالوا : ولو كان ينطق على لسانه ملكٌ أو بين عينيه ملكٌ يسدده ويوقفه ، أو ضرب الله بالحق على لسانه وقلبه ، لكان نظيرا لرسول الله صلى الله عليه وآله ، بل كان أفضل منه ؛ لأنه صلى الله عليه وآله كان يؤدى الرسالة إلى الأمة عن ملك من الملائكة ، وعمر قد كان ينطق على لسانه ملكٌ ، وزيد ملكا آخر بين عينيه يسدده ويوقفه ، فهذا الملك الثانى ممّا قد فضل به على رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد كان حكم في أشياء فيخطئ فيها حتى يفهم إياها على بن أبى طالب ومُعَاذ بن جبل وغيرهما ، حتى قال : لو لا علىّ لهلك عمر ، ولو لا معاذ لهلك عمر . وكان يُشكل عليه الحكم ، فيقول لابن عباس : غصّ يا غوص ، فيفرّج عنه ، فأين كان الملك الثانى المسدّد له ! وأين الحق الذى ضرب به على لسان عمر ؟ ومعلوم أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان ينتظر في الوقائع نزول الوحي . وعمر على مقتضى هذه الأخبار لاجابة به إلى نزول ملك عليه ، لأنّ الملكين معه في كلّ وقت وكلّ حال ، ملك ينطق على لسانه وملك آخر بين عينيه يسدده ويوقفه . وقد عزّا بثالث وهى السكينة ، فهو إذاً أفضل من رسول الله صلى الله عليه وآله !

وقالوا : والحديث الذى مضمونه : لو لم أبعث فيكم لبعث عمر ، فيلزم أن يكون رسول الله صلى الله عليه وآله عذابا على عمر ، وأذى شديدا له ، لأنه لو لم يبعث لبعث عمر نبيا ورسولا ، ولم تعلم رتبة أجل من رتبة الرساله ، فالزيل لعمر عن هذه الرتبة التى ليس وراءها رتبة ، ينبغى ألا يكون فى الأرض أحد أبغض إليه منه !
قالوا : وأما كونه سراج أهل الجنة ؛ فيقتضى أنه لو لم يكن تجلى عمر لكانت الجنة مظلمة لاسراج لها .

قالوا : وكيف يجوز أن يقال : لو نزل العذاب لم ينج منه إلا عمر ، والله تعالى يقول : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ (١) .
قالوا : وكيف يجوز أن يقال : إن النبي صلى الله عليه وآله كان يسمع الباطل ويحبّه ويشهده ، وعمر لا يسمع الباطل ولا يشهده ولا يحبه ! أليس هذا تنزيها لعمر عما لم يزه عنه رسول الله صلى الله عليه وآله !

قالوا : ومن العجّب أن يكون النبي صلى الله عليه وآله أرجح من الأمة يسيرا ، وكذلك أبو بكر ، ويكون عمر أرجح منهما كثيرا ! فإن هذا يقتضى أن يكون فضله أبين وأظهر من فضل أبى بكر ومن فضل رسول الله صلى الله عليه وآله !
والجواب أنه ليس يجب فيمن كان محدثا ملهما أن يكون محدثا ملهما في كل شيء بل الاعتبار بأكثر أفعاله وظنونه وآرائه ، ولقد كان عمر كثير التوفيق ، مصيب الرأي فى جمهور أمره ، ومن تأمل سيرته علم صحة ذلك ، ولا يقدح فى ذلك أن يختلف ظنه فى القليل من الأمور .

وأما الفرار من الزحف ، فإنه لم يفر إلا متحيزا (٢) إلى فئة ، وقد استثنى الله تعالى ذلك فخرج به عن الإثم .

(٢) هو قوله تعالى فى سورة الأنفال ١٦ :

(١) سورة الأنفال ٣٣

﴿ وَمَنْ يُؤْلَمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مَخْرَفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحِيزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ﴾

وأما باقى الأخبار فالمراد بالملك فيها الإخبار عن صحة ظنه، وصدق فراسته، وهو كلام
يجرى مجرى المثل ، فلا يقدر فيه ما ذكره .

وأما قوله صلى الله عليه وآله: «لو نزل إلى الأرض عذاب لما نجما منه إلا عمر» ، فهو كلام
قاله عقيب أخذ الفدية من أسارى بدر، فإن عمر لم يُشِرْ عليه، ونهاه عنه ، فأَنزل الله تعالى:
﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ^(١) . وإذا
كان القرآن قد نطق بذلك وشهد ، لم يُلتفت إلى طعن مَنْ طعن في الخبر .

وأما قوله عليه السلام: «سراج أهل الجنة عمر» ، فمعناه سراج القوم الذين يستحقون
الجنة من أهل الدنيا أيام كونهم في الدنيا مع عمر ، أى يستضيئون بعلمه ، كما
يستضاء بالسراج .

وأما حديث مَنْع الشاعر ، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله خاف أن يذكر في شعره
ما يقتضى الإنكار فيعنف به عمر ، وكان شديد الغلظة ، فأراد النبى صلى الله عليه وآله أن
ينكر هو على الشاعر إن قال في شعره ما يقتضى ذلك على وجه اللطف والرفق ، وكان عليه
السلام رءوفا رحيا ، كما قال الله تعالى ^(٢) .

وأما حديث الرجحان ، فالمراد به الفتوح وملك البلاد ، وتأويله أنه عليه السلام أرى
في منامه ما يدل على أنه يفتح الله عليه بلاداً وعلى أبى بكر مثله ، ويفتح على عمر أضعاف
ذلك ، وهكذا وقع .

واعلم أن مَنْ تصدّى للعيب وجده ، ومن قصر همته على الطعن على الناس انفتحت

(١) سورة الأنفال ٦٨ .

(٢) وهو قوله تعالى في سورة التوبة ١٢٨ ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ
مَّا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ .

له أبواب كثيرة ، والسعيد من أنصف من نفسه ، ورفض الهوى ، وتزود التقوى ،
وبالله التوفيق !

[ذكر ماورد من الخبر عن إسلام عمر]

وأما إسلام عمر ، فإنه أسلم ، فكان تمام أربعين إنساناً في أظهر الروايات ، وذلك في
السنة السادسة من النبوة ، وسنه إذ ذاك ست وعشرون سنة ، وكان عمر ابنه عبد الله يومئذ
ست سنين .

وأصح ما روي في إسلامه رواية أنس بن مالك عنه ، قال : خرجتُ مثقلاً سيفي ،
فلقيت رجلاً من بني زُهرة ، فقال : أين تعمد ؟ قلت : أقتل محمداً ، قال : وكيف تأمنُ
في بني هاشم وبني زهرة ؟ فقلت : ما أراك إلا صَبَوْتُ ! قال : أفلا أدلك على العَجَبِ !
إنَّ أختك وزوجها قد صَبَوَا . فمشى عمر فدخل عليهما ذامراً ، وعندهما رجل من أصحاب رسول
الله صلى الله عليه وآله ، يقال له : خَبَّاب بن الأَرْت ، فلما سمع خَبَّابَ حَسَّ عمر
تَوَارَى ، فقال عمر : ماهذه الهينة ^(١) التي سمعتها عنكم ؟ وكانوا يقرءون « طه » على
خَبَّاب ، فقال : ما عندنا شيء ، إنما هو حديثٌ كُنَّا نتحدثه بيننا ، قال : فلعلكم قد صَبَوْتُمَا ^(٢)
فقال له خَتْنُهُ : أَرَأَيْتَ يا عمر إن كان الحق في غير دينك ! فوثب عمر على خَتْنِهِ فوطئه وطمنا
شديداً ، فجاءت أخته فدفعته عن زوجها ، فنفحها بيده ، فأدعى وجهها ، فجأهرته ، فقالت :
إنَّ الحق في غير دينك ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فاصنع
مابدا لك ! فلما يئس قال : أعطوني هذا الكتاب الذي عنكم فأقرؤه . وكان عمر يقرأ الخطـ

(١) الهينة : الصوت الخفي .

(٢) صبا ، أى خرج عن دينه .

فقلت له أخته : إنك رجس ؛ وإن هذا الكتاب لا يمسه إلا المطهرون ، فقم فتوضأ ، فقام فأصاب ماء ، ثم أخذ الكتاب ، فقرأ ﴿ طه ﴾ * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴿ إلى قوله : ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ ، فقال عمر : دُلُونِي عَلَى مُحَمَّد ، فلما سمع خباب قول عمر ، ورأى منه الرقة ، خرج من البيت ، فقال : أبشروا يا عمر ، فإنى لأرجو أن تكون دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله ليلة الخميس لك ، سمعته يقول : « اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمر بن هشام » - قال : ورسول الله صلى الله عليه وآله في الدار التي في أصل الصفا - فانطلق عمر حتى أتى الدار ، وعلى الباب حمزة بن عبد المطلب وطلحة بن عبيد الله وناس من أهل رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلما رأى الناس عمر قد أقبل ، كأنهم وجدوا ، وقالوا : قد جاء عمر ، فقال حمزة : قد جاء عمر ، فإن يرد الله به خيراً يسلم ، وإن يرد غير ذلك كان قتله علينا هيناً ، قال : والنبي صلى الله عليه وآله من داخل البيت يؤحى إليه ، فسمع رسول الله صلى الله عليه وآله كلام القوم ، فخرج مسرعاً حتى انتهى إلى عمر ، فأخذ بمجامع ثوبه وحامل سيفه ، وقال : ما أنت منتهيا يا عمر حتى ينزل الله بك - يعنى من الخزي والنكال - ما أنزل بالوليد بن المغيرة . ثم قال : اللهم هذا عمر ، اللهم أعز الإسلام بعمر ! فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنك رسول الله . فكتب أهل الدار ، ومن كان على الباب ، تكبيرة سمعها من كان في المسجد من المشركين ^(١) .

وقد روى أن عمر كان موعوداً ومبشراً بما وصل إليه من قبل أن يظهر أمر الإسلام . قرأت في كتاب من تصانيف أبى أحمد العسكري رحمه الله ، أن عمر خرج عسيفاً ^(٢) مع الوليد بن المغيرة إلى الشام في تجارة للوليد ، وعمر يومئذ ابن ثمانى عشرة سنة ، فكان يرى

الوليد إليه ، ويرفع أحماله ، ويحفظ متاعه ، فلما كان بالبلقاء لقيته رجل من علماء الروم ، فجعل ينظر إليه ، ويطيل النظر لعمر ، ثم قال : أظن اسمك يا غلام « عامرا » أو « عمران » أو نحو ذلك ؟ قال : اسمي « عمر » ، قال : اكشف عن فخذيك ، فكشف فإذا على أحدهما شامة سوداء في قدر راحة الكف ، فسأله أن يكشف عن رأسه ، فكشف فإذا هو أصلع ، فسأله أن يعتمل بيده ، فاعتمل فإذا أعسر أيسر ، فقال له : أنت ملك العرب ، وحقّ مريم البتول ! قال : فضحك عمر مستهزئاً ، قال : أو تضحك ! وحقّ مريم البتول ! إنك ملك العرب ، وملك الروم ، وملك الفرس ! فتركه عمر وانصرف مستهيناً بكلامه ، وكان عمر يحدث بعد ذلك ، ويقول : تبغى ذلك الروميّ وهو راكب حماراً ، فلم يزل معي حتى باع الوليد متاعه ، وابتاع بشمته عطرًا وثياباً ، وقفل إلى الحجاز ، والروميّ يتبعني ، لا يسألني حاجة ، ويقبل يدي كلّ يوم إذا أصبحت كما تقبل يد الملك ، حتى خرجنا من حدود الشام ، ودخلنا في أرض الحجاز راجعين إلى مكة ، فودّعني ورجع . وكان الوليد يسألني عنه فلا أخبره ، ولا أراه إلا هلك ، ولو كان حيّاً لشخص إلينا .

[تاريخ موت عمر والأخبار الواردة في ذلك]

فأما تاريخ موته ، فإنّ أبا لؤلؤة طعنه يوم الأربعاء ، لأربع بقين من ذى الحجة من سنة ثلاث وعشرين ، ودُفن يوم الأحد صباح هلال المحرم سنة أربع وعشرين ، وكانت ولايته عشر سنين وستة أشهر ، وهو ابن ثلاث وستين في أظهر الأقوال ، وقد كان قال على المنبر يوم الجمعة ، وقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وأبا بكر : إني قد رأيت رؤيا ، أظنها لحضور أجلى ، رأيت كأنّ ديكاً نقرني نقرتين ، فقصصتها على أسماء

(١) الأعسر : الذي يعمل بيده اليسرى ، وفي النهاية لابن الأثير : ٤ : ٢٦٥ : « كان عمر أعسر أيسر » ، هكذا يروى ، والصواب « أعسر يسر » وهو الذي يعمل بيديه جميعاً ، ويسمى الأضبط .

بنت عَمِيس، فقالت: يقتلك رجل من العَجَم؛ وإني أفكرت فيمن أستخلف، ثم رأيت أن الله لم يكن ليضيع دينه وخلافته التي بعث بها رسوله .

وروى ابن شهاب، قال: كان عمر لا يأذن لصبيّ قد احتلم في دخول المدينة، حتى كتب المغيرة، وهو على الكوفة، يذكر له غلاما صنعا عنده، ويستأذنه في دخول المدينة، ويقول: إنّ عنده أعمالا كثيرة فيها منافع للناس، إنه حداد نقاش نجار. فأذن له أن يرسل به إلى المدينة، وضرب عليه المغيرة مائة درهم في كل شهر، فجاء إلى عمر يوما يشتكى إليه الخراج، فقال له عمر: ماذا تحسن من الأعمال؟ فعدّ له الأعمال التي يحسن، فقال له: ليس خراجك بكثير في كنهه عمالك .

هذا هو الذي رواه أكثر الناس من قوله له، ومن الناس من يقول: إنّه جهر بكلام غليظ، واتفقوا كلهم على أنّ العبد انصرف ساخطاً يتذمّر، فلبث أياماً ثم مرّ بعمر فدعاه، فقال: قد حدثت أنّك تقول: لو أشاء لصنعت رجاً تطحن بالريح، فالتفت العبد عابساً ساخطاً إلى عمر، ومع عمر رهط من الناس، فقال: لأصنعن لك رجاً يتحدث الناس بها، فلما ولى أقبل عمر على الرّهط، فقال: ألا تسمعون إلى العبد! ما أخطئه إلا أوعدني أنفا! فلبث ليالي، ثم اشتعل أبو لؤلؤة على خنجر ذي رأسين، نصابه في وسطه، فكمن في زاوية من زوايا المسجد في غلس السحر، فلم يزل هنالك حتى جاء عمر يوقظ الناس لصلاة الفجر، كما كان يفعل، فلما دنا منه وثب عليه؛ فطعنه ثلاث طعنات: إحداهنّ تحت السرّة، قد خرقت الصفاق^(١) - وهي التي قتلتها - ثم انحاز إلى أهل المسجد، فطعن فيهم من يليه حتى طعن أحد عشر رجلاً سوى عمر، ثم انتحز بخنجره، فقال عمر حين أدركه النّزف: قولوا لعبد الرحمن بن عوف؛ فليصل بالناس، ثم غلبه النّزف فأغمي عليه،

(١) الصفاق: الجلد الأسفل الذي تحت الجلد الذي عليه الشعر .

فاحتل حتى أدخل بيته ، ثم صلى عبد الرحمن بالناس ، قال ابن عباس : فلم أزل عند عمر وهو مغنى عليه لم يزل في غشية واحدة ، حتى أسفر ، فلما أسفر أفاق ، فنظرت في وجوه من حوله ، وقال : أصلى الناس ؟ فقل : نعم ، فقال : لا إسلام لمن ترك الصلاة ، ثم دعا بوضوء فتوضأ وصلى ، ثم قال : اخرج يا ابن عباس ، فاسأل من قتلني ؟ فبحثت حتى فتحت باب الدار ، فإذا الناس مجتمعون ، فقلت : من طعن أمير المؤمنين ؟ قالوا : طعنه أبو لؤلؤة غلام الغيرة ، قال ابن عباس : فدخلت فإذا عمر ينظر إلى الباب يستأني خبر ما بعثني له ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، زعم الناس أنه عدو الله أبو لؤلؤة غلام الغيرة بن شعبة ، وأنه طعن رهطاً ثم قتل نفسه ، فقال : الحمد لله الذي لم يجعل قاتلي يحاجني عند الله بسجدة سجدهاله قط ، ما كانت العرب لتقتلني ، ثم قال : أرسلوا إلى طبيب ينظر جرحي ، فأرسلوا إلى طبيب من العرب ، فسقاه نبيذاً فخرج من الجرح ، فاشتبه عليهم الدم بالنبيذ ، ثم دعوا طبيباً آخر فسقاه لبناً ، فخرج اللبن من الطعنة صليداً أبيض ، فقال الطبيب : اعهد يا أمير المؤمنين عهدك ، فقال : لقد صدقني ، ولو قال غير ذلك لكذب ، فبكي عليه القوم حتى أسمعوا من خارج الدار ، فقال : لا تبكوا علينا ، ألا ومن كان باكياً فليخرج ، فإن النبي صلى الله عليه وآله قال : « إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه » .

وروى عن عبد الله بن عمر ، أنه قال : سمعت أبي يقول : لقد طعنني أبو لؤلؤة طعنتين ، وما أظنه إلا كلباً حتى طعنني الثالثة .

وروى أن عبد الرحمن بن عوف طرح على أبي لؤلؤة بعد أن طعن الناس نخيصة^(١) كانت عليه ، فلما حصل فيها نحر نفسه ، فاحتز عبد الرحمن رأسه واجتمع البدريون وأعيان المهاجرين والأنصار بالبواب ، فقال عمر لابن عباس : اخرج إليهم ، فاسألهم أعن ملائمتكم

(١) النخيسة : كساء أسود مربع له علمان ، فإن لم يكن معلماً فليس بنخيسة .

كان هذا الذى أصابنى ؟ فخرج يسألهم ، فقال القوم : لا والله ، ولوددنا أن الله زاد فى عمره من أعمارنا !

وروى عبد الله بن عمر ، قال : كان أبى يكتسب إلى أسراء الجيوش : لا تجلبوا إلينا من العلوج أحداً جرت عليه المواسى ، فلما طعنه أبو لؤلؤة ، قال : من بى ؟ قالوا : غلام المغيرة ، قال : ألم أقل لكم : لا تجلبوا إلينا من العلوج أحداً ، فغلبتمونى !

وروى محمد بن إسماعيل البخارى فى صحيحه عن عمرو بن ميمون ، قال : [(١)] لقائم ما بينى وبين عمر إلا عبد الله بن عباس غداة أصيب ، وكان إذا مر بين الصّفين ، قال : استووا ؛ حتى إذا لم يريننا (٢) خللاً تقدم فكبر ، وربما قرأ سورة يوسف أو النحل فى الرّكعة الأولى [أو نحو ذلك فى الركعة الثانية] (٣) حتى يجتمع الناس ، فما هو إلا أن كبر ، فسمعه يقول : قتلنى - أو أكلنى - الكلب ؛ وذلك حين طعنه العالج بسكين ذات طرفين ؛ لا يمر على أحد يمينا ولا شمالا إلا طعنه ، حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً ، مات منهم سبعة (٤) ، فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه بُرنساً ، فلما ظن العالج أنه مأخوذ نحر نفسه ، وتناول عمر بيده عبد الرحمن بن عوف ، فقدمه ، فن يلى عمر ، فقد رأى الذى رأى ، وأما نواحى المسجد فإنهم لا يدرون غير أنهم فقدوا صوت عمر ، فهم يقولون : سبحان الله ! فصلّى عبد الرحمن صلاة خفيفةً ، فلما انصرفوا قال : يا بن عباس ، انظر من قتلنى ؟ فجاء ساعة ؛ ثم جاء فقال : غلام المغيرة ؛ قال : الصّنع ! قال : نعم ،

(١) صدر الحديث كما فى البخارى « رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه قبل أن يصاب بأيام بالمدينة وقف على حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف ؛ قال : كيف فعلتا ؟ أتخافان أن تكونا قد حملتهما الأرض مالا تطبق ؟ قال : حملناهما أسراً هى له مطيعة ، ما فيها كبير فضل ؛ قال : انظرا أن تكونا حملتهما الأرض ما لا تطبق ؟ قال : لا ؛ فقال عمر : لئن سلمنى الله لأدعن أرامل أهل العراق لا يجتجن إلى رجل بعدى أبداً . قال : فما أنت عليه رابعة حتى أصيب ؛ قال : لى لقائم . . . » .

(٢) من رواية البخارى .

(٣) البخارى : « فيهن » .

(٤) البخارى : « سبعة » .

قال : قاتله الله ؛ لقد أمرتُ به معروفاً ، الحمد لله الذى لم يجعل منيتى ^(١) بيد رجل يدعى الإسلام ، وقد كنت أنت وأبوك تحبان أن يكثر العلوج . وكان العباس أكثرهم رقيقاً . فقال : إن شئت فعلنا ^(٢) ؛ أى قتلناهم ، قال : كذبت بعد أن تكلموا بلسانكم وصلوا قبلكم ، وحجّوا حجكم ! فاحتمل إلى بيته ، وانطلقنا معه ، وكأنّ الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ ، فقائل : يقول : لا بأس عليه ، وقائل يقول : أخاف عليه ، فاتى بنبيذ فشربه ، فخرج من جوفه ، ثم أتى بلبن فشربه فخرج من جوفه ، فعلموا أنه ميت ، فدخل الناس يثنون عليه ، وجاء [رجل] ^(٣) شاب ؛ فقال : أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله ، لك صحبة برسول الله وقدّم في الإسلام ما قد علمت ، ثم وليت فعدلت ، ثم الشهادة . فقال عمر : وددت أن ذلك كله كان كفافاً ، لا على ولا لى ، فلما أدبر إذا رداؤه ^(٤) يسّ الأرض ، فقال : ردّوا على الغلام ، فردوه ، فقال : يابن أخى ، ارفع ثوبك ، فإنه أبقي لثوبك ، وأتقى لربك ؛ يا عبد الله بن عمر ، انظر ما على من دين ؛ فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفاً أو نحوه ، فقال : إن وثى به مال آل عمر فأذه من أموالهم ، وإلا فسّل في بنى عدى بن كعب ، فإن لم تقب به أموالهم ، فسّل في قريش ولا تعدّهم إلى غيرهم ؛ وأدّ عنى هذا المال ، انطلق إلى عائشة ، فقل لها : يقرأ عليك السلام عمر . ولا تقل « أمير المؤمنين » ، فإنى اليوم لست للمؤمنين أميراً . وقل : يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه ، فضى وسلم ، واستأذن ودخل عليها فوجدها قاعدة تبكى ، فقال : يقرأ عليك عمر السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه ، فقالت : كنت أريده لنفسى . يعنى الموضع . ولأثرته اليوم على نفسى . فلما أقبل قيل : هذا عبد الله قد جاء ، قال : ارفعونى ، فأبندوه إلى رجل منهم ، قال : يا عبد الله مالدريك ؟ قال : الذى تحب يا أمير المؤمنين ، قد أذنت ، قال : الحمد لله ، ما كان شىء أهم إلى من

(٢) البخارى : « فعات » .

(٤) البخارى : « إزاره » .

(١) البخارى : « ميتى » .

(٣) من صحيح البخارى .

ذلك ، إذا أنا قبضت فاحملني ، ثم سلم عليها ، وقل : يستأذن عمر بن الخطاب ، فإن أذنت لي فأدخلوني ، وإن ردتني فردوني إلى مقابر المسلمين ، وادفوني بين المسلمين . وجاءت ابنته حفصة ، والنساء معها ، قال : فلما رأيناها قمنا ، فولجت عليه فبكت عنده ساعة ، واستأذن الرجال فولجت بيتنا داخلاً لهم ، فسمعنا بكاءها من البيت الداخل فقال : أوصي يا أمير المؤمنين واستخلف ، فقال : ما أجداً أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفراء وقال : الرهط الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وآله وهو عنهم راضٍ ، فسمي عليا وعثمان والزبير وطلحة وسعدا وعبد الرحمن ، وقال : يشهدكم عبد الله بن عمر ، وليس له من الأمر شيء — كهيئة التعزية له — فإن أصابت الإمارة ^(١) سعداً ، فهو أهل لذلك ، وإلا فليستين به أيكم أئمر ، فإني لم أعزله عن عجز ولا عن خيانة ، ثم قال : أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين ؛ أن يعرف لهم حقهم ، ويحفظ لهم حرمتهم ، وأوصيه بالأنصار خيراً ، الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ؛ أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئتهم ، وأوصيه بأهل الأمصار خيراً ، فإنهم ردة الإسلام وجباة الأموال ، وغنيظ العدو ؛ ألا يأخذ منهم إلا فضاهم ، عن رضاهم ، وأوصيه بالأعراب خيراً ، فإنهم أصل العرب ، ومادة الإسلام ؛ أن يؤخذ من حواشي أموالهم ، ويرد على فقرائهم ، وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله أن يوفى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل من وراءهم ، وألا يكلفوا إلا طاعتهم . قال : فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشي ، فسلم عبد الله بن عمر ، وقال : يستأذن عمر ابن الخطاب ، فقالت : أدخلوه ، فأدخل ، فوضع هنالك مع صاحبيه ^(٢) .

(١) البخاري : « الإمارة » .

(٢) صحيح البخاري ٢ : ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، وبقية الحديث : « فلما فرغ من دفنه اجتمع هؤلاء الرهط ، فقال عبد الرحمن : اجعلوا أمرهم لي ثلاثة منكم ، فقال الزبير : جعلت أمرهم لي علي ؟ فقال طلحة : جعلت أمرهم لي عثمان ، وقال سعد : قد جعلت أمرهم لي عبد الرحمن بن عوف ، فقال عبد الرحمن : أيكما تبرا من هذا فنجاهه إليه والله عليه ، والإسلام لينظرون أفضلهم في نفسه ؟ فأسكت الشيخان ؟ فقال —

وقال ابن عباس : أنا أول من أتى عمر حين طعن ، فقال : احفظ عني ثلاثا ، فإني أخاف ألا يدركني الناس ، أما أنا فلم أقض في الكلالة ، ولم أستخلف على الناس ، وكل مملوك لي عتيق ، فقلت له : أبشر بالجنة ، صاحبت رسول الله صلى الله عليه وآله فأطلت صحبته ، ووليت أمر المسلمين فقويت عليه ، وأدبت الأمانة .

قال : أما تبشرك لي بالجنة ، فوالله الذي لا إله إلا هو ، لو أن لي الدنيا بما فيها لافتديت به من هؤل ما أمأى قبل أن أعلم ما الخبر ، وأما ما ذكرت من أمر المسلمين فلوديت أن ذلك كان كغافا لا على ولا لي ، وأما ما ذكرت من صحبة رسول الله صلى الله عليه وآله فهو ذلك .

وروى معمر ، عن الزهري ، عن سالم عن عبد الله ، قال : دخلت على أبي ، فقلت : سمعت الناس يقولون مقالة - وآليت أن أقولها لك - زعموا أنك غير مستخلف ، وأنه لو كان لك راعي لبل أو غنم ثم جاءك وتركها رأيت أنه قد ضيع ، فرعاية الناس أشد ، فوضع رأسه ثم رفعه ، فقال : إن الله تعالى يحفظ دينه ؛ إن لم أستخلف فإن رسول الله صلى الله عليه وآله لم يستخلف ، وإن استخلفت فإن أبا بكر قد استخلف . فوالله ما هو إلا أن ذكر رسول الله وأبا بكر ، فعلت أنه لم يكن يعدل برسول الله صلى الله عليه وآله أحدا ، وأنه غير مستخلف .

وروى أنه قال : وقد أذنت له عائشة في أن يدفن في بيتها : إذا مت فاستأذنوها مرة ثانية ، فإن أذنت ، وإلا فاتركوها ، فإني أخشى أن تكون أذنت لي لسلطاني ، فاستأذنوها بعد موته فأذنت .

== عبد الرحمن : أفتجعلونه لي ، والله على ألا آلوا عن أفضلكم ؟ قال : نعم ، فأخذ بيد أحدهما فقال : لك قرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم والقدم في الإسلام ما قد علمت ؛ فالله عليك لئن أمرتك لتعدلين ! وإن أمرت عثمان لتسمعن ! ولتطينن ! ثم خلا بالآخر فقال مثل ذلك ؛ فلما أخذ الميثاق قال : ارفع يدك يا عثمان ، فبايعه ، فبايع له علي ، وولج أهل الدار فبايعوه .

وروى عمر بن ميمون ، قال : لما طعن عمر ، دخل عليه كعب الأحبار ، فقال : ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ ^(١) ، قد أنبأتك أنك شهيد ، فقال : من أين لي بالشهادة وأنا بجزيرة العرب !

وروى ابن عباس ، قال : لما طعن عمر وجثته بخبر أبي لؤلؤة أتيته والبيت ملآن ، فكرهت أن أتخطى رقابهم - وكنت حديث السن - فجلست وهو مسجى ، وجاء كعب الأحبار ، وقال : لئن دعا أمير المؤمنين ليقبّه الله لهذه الأمة حتى يفعل فيها كذا وكذا ! حتى ذكر المنافقين فيمن ذكر ، فقلت : أبلغه ماتقول : قال : ما قلت إلا وأنا أريد أن تبلغه ، فشدت وقت ، فتخطيت رقابهم ، حتى جلست عند رأسه ، وقلت : إنك أرسلتني بكذا ، إن عبد المغيرة قتلك وأصاب معك ثلاثة عشر إنسانا ، وإن كعبا هاهنا وهو يخلف بكذا ، فقال : ادعوا إلى كعبا ، فدُعِيَ فقال : ماتقول قال : أقول كذا ، قال : لا والله لأدعو ، ولكن شقي عمر إن لم يفر الله له .

وروى المسور بن مخرمة ، أن عمر لما طعن أغمى عليه طويلا ، فقيل إنكم لم توقظوه بشيء مثل الصلاة إن كانت به حياة ! فقالوا ! الصلاة : يا أمير المؤمنين ، الصلاة قد صليت ! فانتبه ، فقال : الصلاة ، لاها الله لا أتركها ، لاحظ في الإسلام لمن ترك الصلاة ! فصلّى ، وإن جرحه لينتعب ^(٢) دما .

وروى المسور ابن مخرمة ، أيضا ، قال : لما طعن عمر ، جعل يألم ويجزع ، فقال ابن عباس : ولا وكل ذلك يا أمير المؤمنين ، لقد صحبت رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأحسنت صحبتته ، ثم فارقتهُ وهو عنك راضٍ ، وصحبت أبا بكر وأحسنت صحبتته ، وفارقتهُ وهو عنك راضٍ ، ثم صحبت المسلمين فأحسنت إليهم وفارقهم وهم عنك راضون .

(٢) ينتعب : يسيل .

(١) سورة البقرة ١٤٧

قال : أمّا ما ذكرت من صحبة رسول الله صلى الله عليه وآله وأبي بكر فذلك ، بما من الله به علىّ ، وأما ما ترى من جزعى فوالله لو أنّ لى بما فى الأرض ذهباً لافتديت به من عذاب الله قبل أن أراه - وفى رواية لافتديت به من هو المطلع . وفى رواية : المفرو من غررتموه ! لو أنّ لى ما على ظهرها من صفراء وبيضاء لافتديت به من هول المطلع . وفى رواية : فى الإمارة علىّ ثنى يابن عباس ! قلت : وفى غيرها ، قال : والذى نفسى بيده لو ددت أنى خرجت منها كما دخلت فيها ، لا حرج ولا وزر . وفى رواية : لو كان لى ما طلعت عليه الشمس لافتديت به من كرب ساعة - يعنى الموت - كيف ولم أرد الناس بعد ! وفى رواية : لو أن لى الدنيا وما فيها لافتديت به من هول ما أمشى ، قبل أن أعلم ما الخير .

قال ابن عباس : فسمعنا صوت أمّ كلثوم : واعمرها ! وكان معها نسوة يبيكين ، فارتج البيت بكاء ، فقال عمر : ويلمّ عمر ، إن الله لم يغفر له ! فقلت : والله إنى لأرجو ألا تراها إلا مقدار ما قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ ^(١) ؛ إن كنت - ما علمنا - لأمير المؤمنين ، وسيد المسلمين ، تقضى بالكتاب ، وتقسم بالسوية .

فأعجبه قولى ، فاستوى جالسا فقال : أتشهد لى بهذا يابن عباس ؟ فكففت - أى أى جنبنت - فضرب علىّ عليه السلام بين كتفى ، وقال : أشهد . وفى رواية : لم تجزع يا أمير المؤمنين ؟ فوالله لقد كان إسلامك عزاً وإمارتك فتحاً ، ولقد ملأت الأرض عدلاً فقال : أتشهد لى بذلك يابن عباس ؟ قال : فكأنه كره الشهادة ، فتوقّف ، فقال له علىّ عليه السلام : قل : نعم ، وأنا معك ، فقال : نعم .

وفى رواية أنه قال : مسست جلده وهو ملقى ، فقلت : جلدا تمسه النار أبداً ، فنظر لى نظرة جعلت أرثى له منها ، قال : وما عدك بذلك ؟ قالت : صحبت رسول الله صلى الله عليه وآله فأحسنت صحبته . . . الحديث ، فقال : لو أنّ لى ما فى الأرض لافتديت

به من عذاب الله قبل أن ألقاه أو أراه .

وفى رواية ، قال : فأتكرنا الصوت ، وإذا عبد الرحمن بن عوف ، وقيل : طمين أمير المؤمنين . فانصرف الناس وهو في دمه مسجى ، لم يصل الفجر بعد ، فقيل : يا أمير المؤمنين : الصلاة ! فرفع رأسه ، وقال : لاها الله إذن ، لاحظ لا مري في الإسلام ضيع صلاته . ثم وثب ليقوم فانتعب جرحه دما ، فقال : هاتوا إلى عمامة ، فعصب بها جرحه ، ثم صلى وذكر ، ثم التفت إلى ابنه عبد الله ، وقال : ضع خدي إلى الأرض يا عبد الله ، قال عبد الله : فلم أعج بها ، وظننت أنها اختلاس من عقله ، فقالها مرة أخرى : ضع خدي إلى الأرض يا بني فلم أفعل ، فقال الثالثة : ضع خدي إلى الأرض ، لا أم لك ! ففكرت أنه مجتمع العقل ، ولم يمنع أن يضعه هو إلا ما به من الغلبة ، فوضعت خده إلى الأرض ، حتى نظرت إلى أطراف شعر لحيته خارجة من أضعاف التراب ، وبكى حتى نظرت إلى الطين قد لصق بعينه ، فأصغيت أذني لأسمع ما يقول ، فسمعتة يقول : يا ويلَ عمر ! وويلَ أمِّ عمر ، إن لم يتجاوز الله عنه !

وقد جاء في رواية ، أن عليا عليه السلام جاء حتى وقف عليه ، فقال : ما أحد أحب إلى أن ألقى الله بصحيفته من هذا المسجى !

وروى عن حفصة أم المؤمنين ، قالت : سمعت أبي يقول في دعائه : اللهم قتلا في سبيلك ، ووفاة في بلد نبيك ! قلت : وأنى يكون هذا ؟ قال : يأتي به الله إذا شاء .

ويروى أن كعبا كان يقول له : نمدك في كتبنا تموت شهيدا ؛ فيقول : كيف لي

بالشهادة وأنا في جزيرة العرب !

وروى المقدام بن معد يكرب ، قال : لما أصيب عمر دخلت عليه حفصة ابنته ، فنادت : يا صاحب رسول الله ، ويا صهر رسول الله ، ويا أمير المؤمنين ! فقال لابنه عبد الله : أجلسني ، فلا صبر لي على ما أسمع ، فأسنده إلى صدره ، فقال لها : إني أخرج عليك (١٣ - نهج - ١٢)

بمالي عليك من الحق أن تندبني بعد مجلسك هذا ، فأما عينك فلن أملكها ، إنه ليس من ميت يُندب عليه بما ليس فيه ، إلا الملائكة تمقته !

وروى الأحنف ، قال : سمعت عمر يقول : إن قريشاً رموس الناس ، ليس أحد منهم يدخل من باب إلا دخل معه طائفة من الناس ، فلما أصيب عمر أمر صُهيبياً أن يصلي بالناس ثلاثة أيام ويُطعمهم ، حتى يجتمعوا على رجل ، فلما وُضعت الموائد كف الناس عن الطعام ، فقال العباس بن عبد المطلب : أيها الناس ، إن رسول الله صلى الله عليه وآله مات فأكلنا بعده ، ومات أبو بكر فأكلنا بعده ، وإنه لا بد للناس من الأكل ، ثم مدّ يده فأكل من الطعام ، فعرفت قول عمر .

ويروى كثير من الناس الشعر المذكور في الحماسة ، ويزعم أن هاتفا من الجن هتف به وهو :

جُزيتَ عن الإسلام خيراً وباركتْ	يدُ الله في ذاك الأديم الممزق ^(١)
فمن يسع أو يركب جناحاً نعامةٍ	ليدرك ماقدمت بالأمس يُسبق
قضيتَ أموراً ثم غادرت بعدها	بوائق في أكلها لم تفتق ^(٢)
أبعد قتيل بالمدينة أظلمتْ	له الأرض تهتزّ العضاه بأسواق ^(٣)
وما كنتُ أخشى أن تكون وفاته	بكفى سبنتي أزرق العين مُطرق ^(٤)
تظلّ الحصان البكر يُلقى جنينها	نشأ خير فوق المطى مُعلق

والأكثر من يروونها لمزّدد أخى الشماخ ، ومنهم من يرويها للشماخ نفسه .

(١) ديوان الحماسة - بشرح المرزوقي ٣ : ١٠٩٠ ونسبها إلى الشماخ .
 (٢) البوائق : الدوام العامة .
 (٣) العضاه : شجر .
 (٤) السبنتى ، أصله في النمر ، ويستعمل في الجريّ المقدم . والطرق : الغليظ الجفن الثقيله .

[نصل في ذكر ماطعن به على عمر ، والجواب عنه]

ونذكر في هذا الموضع ماطعن به على عمر في " المغنى " من الماطعن ، وما اعترض به الشريف المرتضى على قاضى القضاة ، وما أجاب به قاضى القضاة ، في كتابه المعروف " بالشافى " ، ونذكر ما عندنا في البعض من ذلك .

الطعن الأول

قال قاضى القضاة : أول ماطعن به عليه قول من قال : إنه بلغ من قلة علمه أنه لم يعلم أن الموت يجوز على النبي صلى الله عليه وآله ، وأنه أسوة الأنبياء في ذلك ، حتى قال : والله ما مات محمد ، ولا يموت حتى تُقطع أيدي رجال وأرجلهم ، فلما تلا عليه أبو بكر قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ ^(١) ، وقوله : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ... ﴾ ^(٢) الآية ، قال : أيقنت بوفاته ؛ وكأني لم أسمع هذه الآية ، فلو كان يحفظ القرآن أو يفكر فيه لما قال ذلك ، وهذا يدل على بعده من حفظ القرآن وتلاوته ، ومن هذا حاله لا يجوز أن يكون إماما .

قال قاضى القضاة : وهذا لا يصح لأنه قد روى عنه أنه قال : كيف يموت ، وقد قال الله تعالى : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ ^(٣) وقال : ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ ^(٤) ؛ ولذلك نفى موته عليه السلام ، لأنه حمل الآية على أنها خبر عنه في حال حياته

(٢) سورة آل عمران ١٤٤ .

(٤) سورة النور ٥٥ .

(١) سورة المؤمنين ١٥

(٣) سورة التوبة ٣٣

حتى قال له أبو بكر : إن الله وعده بذلك وسيفعله ، وتلا عليه ماتلا ، فأيقن عند ذلك بموته ، وإنما ظن أن موته يتأخر عن ذلك الوقت ؛ لا أنه منع من موته .

ثم سأل ^(١) قاضي القضاة نفسه ، فقال : فإن قيل : فلم قال لأبي بكر عند قراءة الآية : كأتى لم أسمعها ، ووصف نفسه بأنه أيقن بالوفاة !

وأجاب بأن قال : لما كان الوجه في ظنه ما زال أبو بكر الشبهة فيه ، جازأن يتيقن .

ثم سأل نفسه عن سبب يقينه فيما لا يعلم إلا بالمشاهدة .

وأجاب بأن قرينة الحال عند سماع الخبر أفادته اليقين ، ولو لم يكن في ذلك إلا خبر أبي بكر وادّعاؤه لذلك ، والناس مجتمعون ؛ لحصل اليقين .

وقوله : كأتى لم أقرأ هذه الآية ، أو لم أسمعها ، تنبيه على ^(٢) ذهوله عن الاستدلال بها ، لأنه على الحقيقة لم يقرأها ولم يسمعها ، ولا يجب فيمن ذهب عن بعض أحكام الكتاب ألا يعرف القرآن ، لأن ذلك لو دلّ ، لوجب ألا يحفظ القرآن إلا من يعرف جميع أحكامه . ثم ذكر أن حفظ القرآن كله غير واجب ، ولا يقدح الإخلال به في الفضل .

وحكى عن الشيخ أبي على أن أمير المؤمنين عليه السلام لم يُحط علمه بجميع الأحكام ، ولم يمنع ذلك من فضله ، واستدل بما روى من قوله : كنت إذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله حديثاً نفعتني الله به ما شاء أن ينفعني ، وإذا حدثني غيره أحلفتني ، فإن حلف لي صدقته ، وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر . وذكر أنه لم يعرف أي موضع يدفن فيه رسول الله صلى الله عليه وآله ، حتى رجع إلى مارواه أبو بكر ، وذكر قصة الزبير في موالى صفية ، وأن أمير المؤمنين عليه السلام أراد أن يأخذ ميراثهم ، كما أن عليه أن يحمل عقلهم حتى أخبره عمر بخلاف ذلك من أن الميراث للأب ، والعقل على العصبية .

(١) الشافى : « ثم قال » . (٢) الشافى : « تنبيه عن ذهابه عن الاستدلال » .

ثم سأل نفسه فقال : كيف يجوز ما ذكرتم على أمير المؤمنين عليه السلام ، مع قوله : « سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي » ، وقوله : « إِنْ هَاهُنَا عَلَمًا جَمًّا » ، يوصي إلى قلبه ، وقوله : « لَوْ ثَنَيْتُ لِي الْوَسَادَةَ لَحَكَمْتُ بَيْنَ أَهْلِ التَّوْرَةِ بِتَوْرَاتِهِمْ ، وَبَيْنَ أَهْلِ الْإِنْجِيلِ بِإِنْجِيلِهِمْ ، وَبَيْنَ أَهْلِ الزَّبُورِ بِزُبُورِهِمْ ، وَبَيْنَ أَهْلِ الْقُرْآنِ بِقُرْآنِهِمْ » . وقوله : « كُنْتُ إِذَا سَأَلْتُ أَجَبْتُ وَإِذَا سَأَلْتُ ابْتَدَيْتُ » .

وأجاب عن ذلك بأنّ هذا إنّما يدلّ على عظم المحلّ في العلم ، من غير أن يدلّ على الإحاطة بالجميع .

وحكى عن أبي عليّ استبعاده ماروى من قوله : « لَوْ ثَنَيْتُ الْوَسَادَةَ » ، قال : لأنّه لا يجوز أن يصف نفسه بأنّه يحكم بما لا يجوز ، ومعلوم أنّه عليه السلام لا يحكم بين الجميع إلاّ بالقرآن ، ثنيت له الوسادة أو لم تُثن ، وهذا يدلّ على أن الخبر موضوع .

فاعترض الشريف المرتضى ، فقال : ليس يخاو خلاف عمر في وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله من أن يكون على سبيل الإنكار لموته على كلّ حال ، والاعتقاد بأنّ الموت لا يجوز عليه على كلّ وجه ، أو يكون منكرا لموته في تلك الحال ، من حيث لم يُظهر دينه على على الدّين كله ، وما أشبه ذلك مما قال صاحب الكتاب : إنّها كانت شبهة في تأخر موته عن تلك الحال .

فإن كان الوجه الأوّل ، فهو ممّا لا يجوز خلاف العقل في مثله ، والعلم بجواز الموت على سائر البشر لا يشكّ فيه عاقل ، والعلم من دينه عليه السلام بأنّه سيموت كما مات من قبله ضروريّ ، وليس يحتاج في مثل هذا إلى الآيات التي تلاها أبو بكر ، من قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ ، وما أشبهها .

وإن كان خلافة على الوجه الثاني ، تأوّل مافيه أنّ هذا الخلاف لا يليق بما احتجّ به أبو بكر من قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ ؛ لأنّه لم ينكر على هذا جواز الموت ، وإنّما خالف في تقدّمه ، وقد كان يجب أن يقول له : وأي حجة في هذه الآيات على

مَنْ جَوَّزَ عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ الْمَوْتَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، وَأُنْكِرَهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ !
وبعد ، فكيف دخلت الشبهة البعيدة على عمر من بين سائر الخلق ! ومن أين زعم أنه
لا يموت حتى يقطع أيدي رجال وأرجلهم ! وكيف حل معنى قوله تعالى : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى
الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ وقوله : ﴿ وَلِيُبَيِّنَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ على أن ذلك لا يكون في
المستقبل بعد الوفاة ! وكيف لم يخطر هذا إلا لعمر وحده ، ومعلوم أن ضعف الشبهة إنما يكون
من ضعف الفكرة ، وقلة التأمل والبصيرة أو كيف لم يوقن بموته لما رأى ما عليه أهل الإسلام
من اعتقاد موته ، وما ركبهم من الحزن والكآبة لفقده ! وهلا دفع بهذا اليقين ذلك
التأويل البعيد ، فلم يحتاج إلى موقف ومعرّف ! وقد كان يجب - إن كانت هذه شبهة - أن
يقول في حال مرض رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد رأى جزع أهله وأصحابه وخوفهم
عليه من الوفاة ، حتى يقول أسامة بن زيد معتذرا من تباطئه^(١) عن الخروج في الجيش الذي
كان رسول الله صلى الله عليه وآله يكرّر ويردد الأمر حينئذ بتنفيذه : لم أكن لأسأل
عنك الركب - : ما هذا الجزع والهلع ، وقد أمنكم الله من موته بكذافي وجه كذا ؛ وليس
هذا من أحكام الكتاب التي يعذر من لا يعرفها على ما ظنّه صاحب الكتاب^(٢) .

قلت : الذي قرأناه وَرَوَيْنَاهُ مِنْ كُتُبِ التَّوَارِيخِ ، يدلّ على أن عمر أنكر موت
رسول الله صلى الله عليه وآله من الوجهين المذكورين ؛ أنكر أولاً أن يموت إلى يوم
القيامة ، واعتقد عمر أنه يعمر كما يعتقد كثير من الناس في الحاضر ، فلما حاجّه أبو بكر
بقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾^(٣) ، وبقوله : ﴿ أَفَأِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ﴾^(٤) .
رجع عن ذلك الاعتقاد .

وليس يرّد على هذا ما اعترض به المرتضى ؛ لأن عمر ما كان يعتقد استحالة الموت عليه
كاستحالة الموت على الباري تعالى - أعني الاستحالة الذاتية - بل اعتقد استمرار حياته إلى يوم

(١) الشافى : « من تأخره » .

(٢) الشافى ٢٥٢ .

(٣) سورة الزمر ٣٠ .

(٤) سورة آل عمران ١٤٤ .

القيامة ، مع كون الموت جائزاً في العقل عليه ، ولا تناقض في ذلك ، فإن إبليس يبق حياً إلى يوم القيامة ، مع كون موته جائزاً في العقل ، وما أورده أبو بكر عليه لازم على أن يكون فيه الموت على هذا الوجه .

وأما الوجه الثاني ، فهو أنه لما دفعه أبو بكر عن ذلك الاعتقاد وقف مع شبهة أخرى ، اقتضت عنده أن موته يتأخر ، وإن لم يكن إلى يوم القيامة ، وذلك أنه تأول قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ ^(١) ، فجعل الضمير عائداً على الرسول لا على الدين ، وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله لم يظهر بعد على سائر الأديان ، فوجب أن تستمر حياته إلى أن يظهر على الأديان بمقتضى الوعد الذي لا يجوز عليه الخلف والكذب ، فحاجه أبو بكر من هذا المقام ، فقال له : إنما أراد : ليظهر دينه وسيظهره فيما بعد ، ولم يقل : « ليظهره الآن » ، فمن ثم قال له : ولو أراد ليظهر الرسول صلى الله عليه وآله على الدين كله لكان الجواب واحداً ، لأنه إذا ظهر دينه فقد أظهره هو .

فأما قول المرتضى رحمه الله : « وكيف دخلت هذه الشبهة على عمر من بين الخلق ؟ » ، فهكذا تكون الخراطير والشبه ! والاعتقادات تسبق إلى ذهن واحد دون غيره ، وكيف دخلت الشبهة على جماعة ممنوعوا الزكاة ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ ^(٢) دون غيرهم من قبائل العرب ! وكيف دخلت الشبهة على أصحاب الجمل وصيفين دون غيرهم ! وكيف دخلت الشبهة على خوارج النهروان دون غيرهم ! وهذا باب واسع .

فأما قوله : « ومن أين زعم أنه لا يموت حتى تقطع أيدي رجال وأرجلهم » ، فإن الذي

ذكره المؤرخون أنه قال : مامات رسول الله صلى الله عليه وآله ، وإتما غاب عنا كما غاب موسى عن قومه ، وسيعود فتقطع أيدي رجال وأرجلهم ممن أرجف بموته ، وهذه الرواية تخالف ما ذكره المرتضى .

فأما قوله : وكيف حمل معنى قوله : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ ^(١) على أن ذلك لا يكون في المستقبل ! فقد بينا الشبهة الداخلة عليه في ذلك ، وكونه ظن أن ذلك ، يكون معجلاً على الفور ، وكذلك قوله : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ ^(٢) ، فإنه ظن أن هذا العموم يدخل فيه رسول الله صلى الله عليه وآله ، لأنه سيد المؤمنين ، وسيد الصالحين ، أو أنه لفظ عام ، والمراد به رسول الله وحده ، كما ورد في كثير من آيات القرآن مثل ذلك ، فظن أن هذا الاستخلاف في جميع الأرض ، وتبديل الخوف بالأمن إتما هو على الفور لا على التراخي ، وليست هذه الشبهة بضعيفة جداً كما ظن المرتضى ، بل هي موضع نظر .

فأما قوله : « كيف لم يؤمن بموته لما رأى من كآبة الناس وحزنهم ! » فلأن الناس يبنون الأمر على الظاهر ، وعمر نظر في أمر باطن دقيق ، فاعتقد أن الرسول لم يمُت ، وإنما ألقى شبهة على غيره ، كما ألقى شبهة عيسى على غيره ، فصليب ، وعيسى قدر فعلم ولم يصلب . واعلم أن أول من سن لأهل الغيبة من الشيعة القول بأن الإمام لم يمُت ولم يقتل ، وإن كان في الظاهر وفي مرأى العين قد قتل أو مات ؛ إتما هو عمر ؛ ولقد كان يجب على المرتضى وطائفته أن يشكروه على ما أسس لهم من هذا الاعتقاد .

(١) سورة النور . . .

فأما قوله : فهلا قال في مرض رسول الله صلى الله عليه وآله لما رأى جزعهم لموته : « قد آمنكم الله من موته » ! فغير لازم ، لأنَّ الشبهة لا تجب أن تخطر بالبال في كلِّ الأوقات ، فلعلَّه قد كان في ذلك الوقت غافلاً عنها مشغول الذهن بغيرها ، ولو صحَّ له رضى هذا لوجب أن يدفع ويبطل كلَّ ما يتجدّد ويطرأ على الناس من الشبهة في المذاهب والآراء ، فنقول : كيف طرأت عليهم هذه الشبهات الآن ، ولم تطرأ عليهم من قبل ؟ وهذا من اعتراضات المرتضى الضعيفة ، على أنَّا قد ذكرنا نحن في الجزء الأول من هذا الكتاب ما قصده عمر بقوله : « إنَّ رسول الله لم يمتْ » ، وقلنا فيه قولاً شافياً لم نسبق إليه ، فإيعاد . ثم قال المرتضى : فأما ما روى عن أمير المؤمنين عليه السلام من خبر الاستحلاف في الأخبار ، فلا يدلُّ على عدم علم أمير المؤمنين بالحكم ، لأنه يجوز أن يكون استخلافه ليرهب الخبير ويخوفه من الكذب على النبي صلى الله عليه وآله ، لأنَّ العلم بصحة الحكم الذي يتضمَّنه الخبر لا يقتضى صدق الخبر ، وأيضاً فلا تاريخ لهذا الحديث ^(١) ، ويمكن أن يكون استخلافه عليه السلام للرواة ^(٢) ، إنما كان في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وفي تلك الحال لم يكن محيطاً بجميع الأحكام .

فأما حديثُ الدفن وإدخاله في باب أحكام الدين التي يجب معرفتها فطريف ، وقد يجوز أن يكون أمير المؤمنين عليه السلام سمع من النبي صلى الله عليه وآله في باب الدفن مثل ما سمعه أبو بكر ، وكان عازماً على العمل به ، حتى روى أبو بكر ما رواه فعَمِلَ بما كان يعلمه لامن طريق أبي بكر ، وظنَّ الناس أنَّ العمل لأجله . ويجوز أن يكون رسول الله صلى الله عليه وآله خير وصيِّه عليه السلام في موضع دفنه ، ولم يعيِّن له موضعاً بعينه ، فلما روى أبو بكر ما رواه رأى موافقته ، فإيس في هذا دلالة على أنَّه عليه السلام استفاد حكماً لم يكن عنده .

(٢) الشافى : « في الأخبار » .

(١) الشافى : « الخبر » .

وأما موالى صفية فحكم الله فيهم ما أفتى به أمير المؤمنين عليه السلام، وليس سكوته حيث سكت عند عمر رجوعاً عما أفتى به، ولكنه كسكوته عن كثير من الحق تقيّةً ومداراةً للقوم.

وأما قوله عليه السلام: « سلوني قبل أن تفقدوني »، وقوله: « إن هاهنا لعلماً جماً »، إلى غير ذلك، فإنه لا يدل على عظم الحال في العلم فقط، على ما ظنّه صاحب الكتاب، بل هو قول واثق بنفسه، آمن من أن يُسأل عما لا يعلمه، وكيف يجوز أن يقول مثله على رموس الأشهاد وظهور المناز: « سلوني قبل أن تفقدوني »، وهو يعلم أن كثيراً من أحكام الدين يعزب عنه ^(١) ! وأين كان أعداؤه والمتهزون لفرسته وزلته عن سؤاله عن مشكل المسائل، وغوامض الأحكام ! والأمر في هذا ظاهر.

فأما استبعاد أبي علي لما روى عنه عليه السلام من قوله: « لو تئيت لى الوسادة » للوجه الذى ظنّه فهو البعيد، فإنه لم يظن لغرضه عليه السلام، وإنما أراد: أتى كنت أقاضيه إلى كتبهم الدالة على البشارة بنبيّنا صلى الله عليه وآله وصحّة شرعه، فأكون حاكماً حينئذ عاينهم بما تقتضيه كتبهم من هذه الشريعة وأحكام هذا القرآن، وهذا من جليل الأغراض وعظيمها ^(٢).

الطعن الثانى

أنه أمر برجم حامل حتى نبّهه مُعَاذ، وقال: إن يكن لك عليها سبيل فلا سبيل لك على مافى بطنها، فرجع عن حكمه، وقال: لولا مُعَاذ لهلك عمر. ومن يجهل هذا القدر لا يجوز أن يكون إماماً، لأنه يجرى مجرى أصول الشرع، بل العقل يدل عليه؛ لأنّ الرّجم عقوبة، ولا يجوز أن يعاقب من لا يستحقّ.

(٢) الشافى ٢٥٢، ٢٥٣.

(١) الشافى: « يغرب ».

اعتذر قاضي القضاة عن هذا ، فقال : إنه ليس في الخبر أنه أمر برجمها ، مع علمه بأنها حامل ، لأنه ليس ممن يخفى عليه هذا القدر ، وهو أن الحامل لا تُرجم حتى تضع ، وإنما ثبت عنده زناها ، فأمر برجمها على الظاهر ، وإنما قال ما قال في معاذ لأنه نبهه على أنها حامل .

ثم سأل^(١) نفسه فقال : فإن قيل : إذا لم تكن منه معصية ، فكيف يهلك لولا معاذ ! وأجاب بأنه لم يرد : هلك من جهة العذاب ، وإنما أراد : أنه كان يجري بقوله قتل من لا يستحق القتل . ويجوز أن يريد بذلك تقصيره في تعرف حالها ، لأن ذلك لا يمتنع أن يكون بخطيئة وإن صغرت .

اعترض المرتضى على هذا الاعتذار ، فقال : لو كان^(٢) الأمر على ما ظننته لم يكن تنبيه معاذ له على هذا الوجه ، بل كان يجب أن ينبهه بأن يقول له : هي حامل ، ولا يقول له : إن كان لك سبيل عليها فلا سبيل لك على ما في بطنها ؛ لأن هذا قول من عنده أنه أمر برجمها مع العلم بحملها ، وأقل ما يجب لو كان الأمر كما ظنه صاحب الكتاب أن يقول لمعاذ : مذهب على أن الحامل لا تُرجم ، وإنما أمرت برجمها لقد علمي بحملها ، فكان ينبغي بهذا القول عن نفسه الشبهة ! وفي إمساكه عنه مع شدة الحاجة إليه دليل على صحة قولنا . وقد كان يجب أيضا أن يسأل عن الحمل ، لأنه أحد الموانع من الرجم ، فإذا علم انتفاءه وارتفاعه أمر بالرجم ، وصاحب الكتاب قد اعترف بأن ترك المسألة عن ذلك تقصير وخطيئة ، وادعى أنها صغيرة ، ومن أين له ذلك ولا دليل يدلّ عنده في غير الأنبياء عليهم السلام أن معصية بعينها صغيرة .

فأما إقراره بالهلاك لولا تنبيه معاذ ، فإنه يقتضي التعظيم والتفخيم لشأن الفعل ، ولا يليق ذلك إلا بالتقصير الواقع ؛ إما في الأمر برجمها مع العلم بأنها حامل ؛ أو ترك البحث عن ذلك

(١) الشافعي : « قال : » فإن قيل « . (٢) الشافعي : « يقال له : ما تأولت به في الخبر من التأويل البعيد ؛ لأن لو كان الأمر على ما ظنه . . . » .

والمسألة عنه ، وأى لوم عليه في أن يجرى بقوله قتل من لا يستحق القتل إذا لم يكن ذلك عن تفريط منه ولا تقصير^(١) !

قأت : أمّا ظاهر لفظ مُعَاذٍ فيشعر بما قاله المرتضى ؛ ولم يمتنع أن يكون عمر لم يعلم أنها حامل وأنّ معاذ قد كان من الأدب أن يقول له : حامل يا أمير المؤمنين ، فعُدّال عن هذا اللفظ بمقتضى أخلاق العرب وخشوتهم ، فقال له : إن كان لك عليها سبيل فلا سبيل لك على ما في بطنها ؛ فنبّه على الغلة والحكم معا ، وكان الأدب أن ينبّه على الغلة فقط .
وأما عدول عمر عن أن يقول : أنا أعلم أنّ الحامل لا تُرْجَم ، وإنما أمرت برجها ، لأنّ لم أعلم أنها حامل ، فلاّنه إنما يجب أن يقول مثل هذا من يخاف من اضطراب حاله ، أو نقصان ناموسه وقاعدته إن لم يقله ، وعمر كان أثبت قدماً في ولايته ، وأشدّ تمكّناً من أن يحتاج إلى الاعتذار بمثل هذا .

وأما قول المرتضى : كان يجب أن يسأل عن الحمل ، لأنه أحد الموانع من الرّجْم ، فكلام صحيح لازم ، ولا ريب أنّ ترك السؤال عن ذلك نوع من الخطأ ، ولكن المرتضى قد ظلم قاضى القضاة ، لأنه زعم أنه ادّعى أنّ ذلك صغيرة ، ثم أنكر عليه ذلك ، ومن أين له ذلك ! وأى دليل دلّ على أنّ هذه المعصية صغيرة ؛ وقاضى القضاة ما ادّعى أنّ ذلك صغيرة ! بل قال : لا يمتنع أن يكون ذلك خطيئة وإن صغرت . والعجب أنه حكى لفظ قاضى القضاة بهذه الصورة ، ثم قال : إنّه ادّعى أنّها صغيرة ، وبين قول القائل : « لا يمتنع أن يكون صغيرة » ، وقوله : « هي صغيرة » لا محالة فرق عظيم .

وأما قول عمر : لولا مُعَاذُ لَهْلَكَ عمر ، فإنّ ظاهر اللفظ يُشعر بما يريد المرتضى ، وينحو إليه ؛ ولا يمتنع أن يكون المقصود به ما ذكره قاضى القضاة وإن كان مرجوحاً ؛ فإنّ القائل خطأ

قد يقول : هلكت، ليس يعنى به العقاب يوم القيامة، بل لوم الناس وتعنيفهم إياه على ترك الاحتراس وإهمال الثبّت .

الطعن الثالث

خير المجنونة التي أمر برجمها ، فنبّه أمير المؤمنين عليه السلام ، وقال : إنّ القلم مرفوعٌ عن المجنون حتى يُفريق . فقال : لولا علىّ هلكَ عمر^(١) وهذا يدلّ على أنّه لم يكن يعرف الظاهر من الشريعة .

أجاب قاضى القضاة فقال : ليس فى الخبر أنّه عرف جنونها ؛ فيجوز أن يكون الذى نبّه عليه هو جنونها دون الحكم، لأنه كان يعلم أنّ الحدّ لا يقام فى حال الجنون؛ وإنما قال: لولا علىّ هلكَ عمر ، لامن جهة المعصية والإثم ، لكن لأنّ حكمه لو نفذ لعظم غمّه ، ويقال فى شدّة الغم: إنه هلاك ، كما يقال فى الفقر وغيره، وذلك مبالغة منه لما كان يلحقه من الغم الذى زال بهذا التنبيه . على أنّ هذا الوجه ممّا لا يمتنع فى الشرع أن يكون صحيحا ، وأن يقال: إذا كانت مستحقّة للحدّ ، فإقامته عليها تصح ، وإن لم يكن لها عقل ؛ لأنّه لا يخرج الحدّ من أن يكون واقعا موقعه، ويكون قوله عليه السلام: «رفع القلم عن ثلاث» ، يراد به زوال التكليف عنهم دون زوال إجراء الحكم عليهم، ومن هذه حاله لا يمتنع أن يكون مشتبها، فرجع فيه إلى غيره ، ولا يكون الخطأ فيه ممّا يعظم فيمنع من صحّة الإمامة .

اعترض الشريف المرتضى هذا فقال : لو كان أمر برجم المجنونة من غير علم بمجنونها لما قال له أمير المؤمنين: أما علمت أنّ القلم مرفوعٌ عن المجنون حتى يفريق ! بل كان يقول له بدلا من ذلك: هي مجنونة ؛ وكان ينبغى أن يقول عمر متبرئا من الشبهة: ما علمت بمجنونها؛ ولست ممن يذهب عليه أن المجنون لا يرجم ، فلما رأيناه استعظم ما أمر به ، وقال : لولا

(١) بعدها فى الشافى : « وروى ذلك لمعاذ » .

على لَهْلكَ عمر؛ دلنا على أنه كان تأتم وتحرّج بوقوع الأمر بالرجم، وأنه مما لا يجوز ولا يحل؛ وإلا فلا معنى لهذا الكلام . وأما ذكر الغم، فأى غم كان يلحقه إذا فعل ماله أن يفعله ! ولم يكن منه تفريط ولا تقصير؛ لأنه إذا كان جنونها لم يعلم به ؛ فكانت المسألة عن حالها والبحث لا يجبان عليه؛ فأى وجه لتألمه وتوجّعه واستعظامه لما فعله ! وهل هذا إلا كرجم المشهود عليه بالزنا في أنه : لو ظهر للإمام بعد ذلك براءة ساحتها لم يجب أن يندم على فعله ويستعظمه ؛ لأنه وقع صوابا مستحقا .

وأما قوله : إنّه كان لا يمتنع في الشرع أن يقام الحدّ على المجنون، وتأوله الخبر المروى على أنه يقتضى زوال التكليف دون الأحكام ؛ فإن أراد أنه لا يمتنع في العقل أن يقام على المجنون ما هو من جنس الحدّ بغير استخفاف ولا إهانة ، فذلك صحيح ، كما يقام على التائب وأما الحدّ في الحقيقة، وهو الذى تضمّنه الاستخفاف والإهانة فلا يجوز إلا على المكلفين ومستحقّ العقاب ، وبالمجنون قد أزيل التكليف ، فزال استحقاق العقاب الذى تبعه الحدّ .

وقوله : لا يمتنع أن يرجع فيما هذه حاله من المشتبه إلى غيره ، فليس هذا من المشتبه الغامض ، بل يجب أن يعرفه المومّام فضلا عن العلماء ، على أن قد بينا أنه لا يجوز أن يرجع الإمام في جلي ولا مشتبه من أحكام الدين إلى غيره .

وقوله : إن الخطأ في ذلك لا يعظم فيمنع من صحة الإمامة ، اقتراح بغير حجة لأنه إذا اعترف بالخطأ فلا سبيل للقطع على أنه صغير ^(١) .

قلت: لو كان قد نقل أن أمير المؤمنين قال له: «أما علمت»، لكان قول المرتضى قويا ظاهرا، إلا أنه لم ينقل هذه الصيغة بعينها، والمعروف المنقول: أنه قال له: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «رُفِعَ القلم عن ثلاث» ؛ فرجع عن رَجْعها، ويجوز أن يكون أشعره بالجلّة

والْحُكْمَ مَعًا ، لِأَنَّ هَذَا الْمَوْضِعَ أَكْثَرَ اشْتِبَاهًا مِنْ حَدِيثِ رَجْمِ الْحَامِلِ ، فَغَلَبَ عَلَى ظَنِّ .
 أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُ لَوْ اقْتَصَرَ عَلَى قَوْلِهِ : إِنَّهَا مَجْنُونَةٌ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ دَافِعًا لِرَجْمِهَا ، فَأَكَّدَهُ
 بِرَوَايَةِ الْحَدِيثِ . وَاعْتَذَرَ قَاضِي الْقَضَاةِ بِالْغَمِّ جَيِّدٍ ، وَقَوْلِ الْمُرْتَضَى : أَيْ غَمٍّ كَانَ يَلْحَقُهُ
 إِذَا فَعَلَ مَالَهُ أَنْ يَفْعَلَهُ ! لَيْسَ بِإِنصَافٍ ، وَلَا مِثْلَ هَذَا يُقَالُ فِيهِ إِنَّهُ فَعَلَ مَالَهُ أَنْ يَفْعَلَهُ ،
 وَلَا يُقَالُ فِي الْعَرَفِ لِمَنْ قَتَلَ إِنْسَانًا خَطَا : إِنَّهُ فَعَلَ مَالَهُ أَنْ يَفْعَلَهُ ، وَالْمَرْجُومُ فِي الزَّانَا إِذَا
 ظَهَرَ لِلْإِمَامِ بَعْدَ قَتْلِهِ بَرَاءَةً سَاحَتْهُ قَدْ يَفْتَمُّ بِقَتْلِهِ غَمًّا كَثِيرًا بِالطَّبْعِ الْبَشَرِيِّ ، وَيَتَلَمَّ وَإِنْ لَمْ
 يَكُنْ آثِمًا ، وَلَيْسَ مِنْ تَوَابِعِ الْإِثْمِ وَلَوْ أَوْزَمَهُ .

وقول المرتضى : لم يجب أن يندم على ما فعله كَلَامٌ خَارِجٌ عَمَّا هُوَ بِصَدَدِهِ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ
 يَجْرِ ذِكْرُ النَّدَمِ ، وَإِنَّمَا الْكَلَامُ فِي النِّعَمِ وَلَا يُلْزَمُ أَنْ يَكُونَ كُلُّ مَغْتَمٍّ نَادِمًا .

وَأَمَّا اعْتِرَاضُهُ عَلَى قَاضِي الْقَضَاةِ فِي قَوْلِهِ : لَا يَمْتَنِعُ فِي الشَّرْعِ أَنْ تَرْجَمَ الْمَجْنُونَةَ ، فَلَمَّا
 اشْتَبَهَ عَلَى عَمْرِ الْأَمْرِ سَأَلَ غَيْرَهُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ : « إِنْ أُرِدْتَ الْحَدَّ الْحَقِيقِي فَعُلُومٌ ، وَإِنْ أُرِدْتَ
 مَا هُوَ جِنْسُ الْحَدِّ فَسَلِّمْ » فَلَيْسَ بِجَيِّدٍ ، لِأَنَّ هَذَا إِنَّمَا يَكُونُ طَعْنًا عَلَى عَمْرِ بِتَقْدِيرِ ثَلَاثَةِ
 أُمُورٍ : أَحَدُهَا أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَدْ قَالَ : « أَقِيمُوا الْحَدَّ عَلَى الزَّانِي »
 بِهَذَا اللَّفْظِ ، أَعْنَى أَنْ يَكُونَ فِي لَفْظِ النَّصِّ ذِكْرُ الْحَدِّ ، وَثَانِيهَا أَنْ يَكُونَ الْحَدُّ فِي اللُّغَةِ
 الْعَرَبِيَّةِ أَوْ فِي عَرَفِ الشَّرْعِ الَّذِي يَتَفَاهَمُهُ الصَّحَابَةُ هُوَ الْعُقُوبَةُ الْخُصُوصَةُ الَّتِي يَقَارَنُهَا
 الِاسْتِخْفَافُ وَالْإِهَانَةُ . وَثَالِثُهَا أَلَّا يَصِحَّ إِهَانَةُ الْمَجْنُونِ وَالِاسْتِخْفَافُ بِهِ ، وَأَنْ يَعْلَمَ عَمْرُ
 ذَلِكَ ، فَإِذَا اجْتَمَعَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ الثَّلَاثَةُ ثُمَّ أَمْرُ عَمْرِ بِأَنْ يَقَامَ الْحَدُّ عَلَى الْمَجْنُونَةِ فَقَدْ تَوَجَّهَ
 الطَّعْنُ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ تَجْتَمِعْ هَذِهِ الْأُمُورُ الثَّلَاثَةُ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ وَلَا فِي السُّنَنِ ذِكْرُ
 الْحَدِّ بِهَذَا اللَّفْظِ ، وَلَا الْحَدُّ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ هُوَ الْعُقُوبَةُ الَّتِي يَقَارَنُهَا الِاسْتِخْفَافُ وَالْإِهَانَةُ
 وَلَا عُرِفَ الشَّرْعُ وَمَوَاضِعُ الصَّحَابَةِ يَشْتَمِلُ عَلَى ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا هَذَا شَيْءٌ اسْتَنْبَطَهُ الْمُتَكَلِّمُونَ
 لِلتَّأْخُرِ بِأَذْهَانِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ ؛ ثُمَّ بِتَقْدِيرِ تَسْلِيمِ هَذَيْنِ الْمَقَامَيْنِ لَمْ قَالَ : إِنْ الْمَجْنُونُ

لا يصحّ عليه الاستخفاف والإهانة ؟ فمن الجائز أن يصحّ ذلك عليه وإن لم يتألم بالاستخفاف والإهانة كما يتألم بالعقوبة ، وإذا صحّ عليه أن يألم بالعقوبة صحّ عليه أن يألم بالاستخفاف والإهانة ؛ لأنّ الجنون لا يبلغ - وإن عظم - مبلغاً يبطل تصوّر الإنسان لإهانتته ولاستخفافه ؛ وبتقدير ألا يصحّ على الجنون الاستخفاف والإهانة ، من أين لنا أن عمر علم أن ذلك لا يصحّ عليه ؟ فمن الممكن أن يكون ظنّ أنّ ذلك يصحّ عليه ، لأنّ هذا مقام اشتباه والتباس .

فأمّا قوله : « قد بينا أنه لا يجوز أن يرجع الإمام أصلاً إلى غيره » ، فهو مبنيٌّ على مذهبهم وقواعدهم . وقوله معترضاً على كلام قاضي القضاة : إن الخطأ في ذلك قد لا يعظم ليمنع من صحّة الإمامة إنّ هذا اقتراح بغير حجة ، لأنه إذا اعترف بالخطأ فلا سبيل إلى القطع على أنّه صغير غير لازم ، لأنّ قاضي القضاة لم يقطع بأنّه صغير ، بل قال : لا يمتنع ، وإذا جاز أن يكون صغيراً لم نكن قاطعين على فساد الإمامة به .

فإن قال المرتضى : كما أنّكم لا تقطعون على أنّه صغير ، فتكون الإمامة مشكوكاً فيها ؛ قيل له : الأصل عدم الكبير ، فإذا حصل الشكّ في أمر : هل هو صغير أم كبير ؟ تساقط التعارض ، ورجعنا إلى الأصل ؛ وهو عدم كون ذلك الخطأ كبيراً ، فلا يمنع ذلك من صحّة الإمامة .

الطعن الرابع

حديث أبي العجفاء ، وأنّ عمر منع من المغالاة في صدقات النساء ، اقتداءً بما كان من النبي صلى الله عليه وآله في صدقات فاطمة ، حتى قامت المرأة ونهته بقوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَهُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً ﴾^(١) ؛ على جواز ذلك ، فقال : كل النساء أقمه من عمر !

(١) سورة النساء ٢٠ .

وبما روى أنه تسور على قوم ، ووجدهم على منكر ، فقالوا له : إنك أخطأت من جهات :
تجسست ، وقال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ ^(١) ، ودخلت بغير إذن ، ولم تسلم ^(٢) .
أجاب قاضي القضاة ، فقال : علمنا بتقدم عمر في العلم وفضله فيه ضروري ، فلا يجوز
أن يقدح فيه بأخبار أحاديث غير مشهورة ، وإنما أراد في المشهور أن المستحب الاقتداء
برسول الله صلى الله عليه وآله ، وأن المغالاة فيها ليس بمكرمة ، ثم عند التنبيه ، علم أن ذلك
مبنى على طيب النفس ، فقال ما قاله على جهة التواضع ، لأن من أظهر الاستفادة من
غيره - وإن قلّ علمه - فقد تعاطى الخضوع ، ونبه على أن طريقته أخذ الفائدة أينما وجدها ؛
وصير نفسه قدوة في ذلك وأسوة ، وذلك حسن من الفضلاء . وأما حديث التجسس فإن
كان فعله فقد كان له ذلك ، لأن للإمام أن يجتهد في إزالة المنكر بهذا الجنس من الفعل ،
ولما لحقه - على ما ^(٣) يروى في الخبر - الخجل ، لأنه لم يصادف الأمر على ما ألقى إليه
في إقدامهم على المنكر .

اعترض المرتضى على هذا الجواب ، فقال له : أما تعويلك على العلم الضروري بكونه
من أهل العلم والاجتهاد ؛ فذلك إذا صح لم ينفعك ، لأنه قد يذهب على من هو بهذه الصفة
كثير من الأحكام حتى ينبّه عليها ويجتهد فيها ، وليس العلم الضروري ثابتاً بأنه عالم بجميع
أحكام الدين ، فيكون قاضياً على هذه الأخبار . فأما تأوله الحديث وحمله على الاستحباب
فهو دفع للبيان ، لأن المروي أنه منعه من ذلك وحظره حتى قالت المرأة ما قالت ، ولو كان
غير حاضراً لمخالفاً كان في الآية حجة ، ولا كان لكلام المرأة موقع ، ولا كان يعترف لها بأهأ
أفقّه منه ، بل كان الواجب أن يردّ عليها ويوبّخها ويعرفها أنه ما حذر لذلك ، وإنما تكون

(٢) ١ : « ودخلت ولم تسلم » .

(١) سورة المجرات ١٢ .

(٣) ١ : « روى » .

(١٤ - نهج - ١٢) .

الآية حُجَّةٌ عليه لو كان حاضراً مانعاً ، فأما التواضع فلا يقتضى إظهار التعبد وتصويب الخطأ . ولو كان الأمر على ما توهمه صاحبُ الكتاب لكان هو المصيب والمرأة مخطئة ، فكيف يتواضع بكلام يؤهم أنه المخطئ ، وهي المصابة ! فأما التجسس فهو محذور بالقرآن والسنة ، وليس للإمام أن يجتهد فيما يؤدى إلى مخالفة الكتاب والسنة ، وقد كان يجب إن كان هذا عذراً صحيحاً أن يعتذر به إلى من خطأه في وجهه وقال له : إنك أخطأت السنة من وجوه ؛ فإنه بمعاذير نفسه أعلم من صاحب الكتاب ، وتلك الحال حال تدعو إلى الاحتجاج وإقامة المذنب (١) .

قلت : قصارى هذا الطعن أن عمر اجتهد في حكم أو أحكام فأخطأ ، فلما نُبِّه عليها رجع ، وهذا عند المعتزلة وأكثَر المسلمين غير منكر ، وإلّا لما ينكر أمثال هذا من يبطل الاجتهاد ، ويوجب عصمة الإمام ، فإذاً هذا البحث ساقط على أصول المعتزلة ، والجواب عنه غير لازم علينا .

الطعن الخامس

أنه كان يعطى من بيت المال مالا يجوز ، حتى إنه كان يعطى عائشة وحفصة عشرة آلاف درهم في كل سنة ، ومنع أهل البيت خمسهم الذى يجرى مجرى الوصل إليهم من قبل رسول الله صلى الله عليه وآله . وأنه كان عليه ثمانون ألف درهم من بيت المال على سبيل القرض .

أجاب قاضى القضاة ، بأن دفعه إلى الأزواج جائز من حيث إنَّ لمن حقاً في بيت

(١) الشافى ٢٥٤ ، وزاد بهما : « وكل هذا تلزيق وتلفيق » .

المال، وللإمام أن يدفع ذلك على قدر ما يراه، وهذا الفعل قد فعله من قبله ومن بعده، ولو كان منكراً لما استمر عليه أمير المؤمنين عليه السلام، وقد ثبت استمراره عليه، ولو كان ذلك طعناً لوجب - إذا كان يدفع إلى الحسن والحسين وإلى عبد الله بن جعفر وغيرهم من بيت المال شيئاً - أن يكون في حكم الخائن، وكل ذلك يبطل ما قالوه، لأن بيت المال إنما يُراد لوضع الأموال في حقوقها ثم الاجتهاد وإلى المتولى للأمر في الكثرة والقلة.

فأما أمر الخمس فمن باب الاجتهاد، وقد اختلف الناس فيه، فمنهم من جعله حقاً لذوى القربى وسهماً مفرداً لهم على ما يقتضيه ظاهر الآية، ومنهم من جعله حقاً لهم من جهة الفقر، وأجرام مجرى غيرهم، وإن كانوا قد خصوا بالذكر، كما جرى الأيتام - وإن خصوا بالذكر - مجرى غيرهم في أنهم يستحقون بالفقر. والكلام في ذلك يطول، فلم يخرج عمر بما حكم به عن طريقة الاجتهاد، ومن قدح في ذلك فإتما قدح في الاجتهاد الذي هو طريقة الصحابة.

فأما اقتراضه من بيت المال، فإن صح فهو غير محظور؛ بل ربما كان أحوط، إذا كان على ثقة من رده بمعرفة الوجه الذي يمكنه منه الرد، وقد ذكر الفقهاء ذلك، وقال أكثرهم: إن الاحتياط في مال الأيتام وغيرهم أن يجعل في ذمة الغنى المأمون، لبعده عن الخطر، ولا فرق بين أن يقرض الغير أو يقترضه لنفسه. ومن بلغ في أمره أن يطمئن على عمر بمثل هذه الأخبار - مع ما يعلم من سريره وتشده في ذات الله واحتياطه فيما يتصل بملك الله، وتنزّهه عنه؛ حتى فعل بالصبي الذي أكل من تمر الصدقة واحدة ما فعل، وحتى كان يرفع نفسه عن الأمر الحقير ويتشدد على كل أحد، حتى على ولده - فقد أبعد في القول.

اعترض المرتضى، فقال: أما تفضيل الأزواج، فإنه لا يجوز، لأنه لا سبب فيه

يقتضى ذلك ، وإنما يفضل الإمام في العطاء ذوى الأسباب المقتضية لذلك ، مثل المجاهد وغيره من الأمور العام نفعها للمسلمين .

وقوله : إنَّ لهنَّ حقاً في بيت المال صحيح ، إلا أنه لا يقتضى تفضيلهنَّ على غيرهنَّ ، وما عيب بدفع حقهنَّ إليهنَّ ، وإنما عيب بالزيادة عليه ، وما يُعلم أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام استمرَّ على ذلك - وإن كان صحيحاً كما ادعى - فالسبب الداعى إلى الاستمرار عليه ، هو السبب الداعى إلى الاستمرار على جميع الأحكام ، فأما تعلقه بدفع أمير المؤمنين إلى الحسن والحسين وغيرهما شيئاً من بيت المال فمُتَجَبِّ ! لأنه لم يفضل هؤلاء في العطية فيشبهه ما ذكرناه في الأزواج ، وإنما أعطاهم حقوقهم ، وسوى بينهم وبين غيرهم .

فأما الخمس ، فهو للرسول ولأقربائه ، على ما نطق به القرآن ، وإنما عني تعالى بقوله : ﴿ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ ^(١) من كَانَ مِنْ آلِ الرِّسُولِ خاصة ؛ لأدلة كثيرة لا حاجة بنا إلى ذكرها ها هنا . وقد رَوَى سُلَيْمُ بْنُ قَيْسٍ الهَلَالِيُّ ، قال : سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول : نحن والله الذين عَنِىَ اللهُ بِذِي الْقُرْبَى ، قرَنهم اللهُ بنفسه ونبيه صلى اللهُ عليه وآله ، فقال : ﴿ مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ ^(٢) ؛ كلُّ هؤلاء منَّا خاصة ، ولم يجعل لنا سهماً في الصدقة ، أكرم اللهُ تعالى نبيه وأكرمنا أن يطعمنا وأساخَ ما في أيدي الناس . وروى يزيد بن هرم ، قال : كتب نجدة إلى ابن عباس ، يسأله عن الخمس لمن هو ؟ فكتب إليه : كتبت تسألني عن الخمس لمن هو ؟ وإنما كنا نزعم أنه لنا ، فأبى قومنا علينا ذلك ، فصبرنا عليه .

قال : وأما الاجتهاد الذي عوّل عليه ، فليس عذراً في إخراج الخمس عن أهله فقد أبطلناه .

(١) سورة الأنافال ٤١

(٢) سورة الحشر ٧

وأما الاقتراض من بيت المال فهو مما يدعو إلى الريبة ، ومن كان من التشدد والتحفّظ والتشّيف على الحدّ الذي ذكره ؛ كيف تطيب نفسه بالاقتراض من بيت المال ، وفيه حقوق ورّبما مسّت الحاجة إلى الإخراج منها ، وأىّ حاجة إن كان جشّبا للمأكل ، خشن الملبس ، يتبلّغ بالقوت إلى اقتراض الأموال !

فأما حكايته عن الفقهاء ؛ أنّ الاحتياط أن يحتمل مال الأيتام في ذمّة الغنىّ المأمون ؛ فذلك إذا صحّ لم يكن نافعا له ، لأنّ عمر لم يكن غنياً ، ولو كان غنياً لما اقترض ، فقد خرج اقتراضه عن أن يكون من باب الاحتياط ، وإنما اشترط^(١) الفقهاء مع الأمانة الغنىّ ، لثلاث تمسّ الحاجة إليه ، فلا يمكن ارتجاعه ، ولهذا قلنا : إنّ اقتراضه لحاجته إلى المال لم يكن صواباً وحسنَ نظر السامعين^(٢) .

قلت : أما قوله : لا يجوز للإمام أن يفضّل في العطاء إلا لسبب يقتضى ذلك كالجهاد ؛ فليست أسباب التفضيل مقصورة على الجهاد وحده ، فقد يستحقّ الإنسان التفضيل في العطاء على غيره لكثرة عبادته ، أو لكثرة علمه ، أو انتفاع الناس به ، فلم لا يجوز أن يكون عمر فضل الزوجات لذلك !

وأيضاً : فإنّ الله تعالى فرض لذوى القربى من رسول الله صلى الله عليه وآله نصيباً في الفى والغنيمة ، ليس إلا لأنهم ذوو قرابته فقط ، فما المانع من أن يقيس عمر على ذلك ما فعله في العطاء ، فيفضل ذوى قرابة رسول في ذلك على غيرهم ، ليس إلا لأنهم ذوو قرابته ، والزوجات وإن لم يكن لهنّ قرّبى النسب فلهنّ قرّبى الزوجيّة ! وكيف يقول المرتضى : ما جاز أن يفضّل أحداً إلا بالجهاد ! وقد فضل الحسن والحسين على كثير من أكابر المهاجرين والأنصار وما صبيّان ، ما جاهدوا ولا بلغا الحلم بعد ، وأبوها أمير المؤمنين

(٢) الشافى ٢٥٥ ، وبعدها : « وفيه كفاية » .

(١) الشافى : « شرط » .

موافق على ذلك ، راضٍ به ، غير منكِر له ! وهل فعل عمرُ ذلك إلا لقرَّبهما من رسول الله صلى الله عليه وآله !

ونحن نذكر مافعله عمر في هذا الباب مختصراً نقلناه من كتاب أبي الفرج عبد الرحمن ابن علي بن الجوزي المحدث في « أخبار عمر وسيرته » .

روى أبو الفرج ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، قال : استشار عمر الصحابة بمن يبدأ في القسم والفريضة ، فقالوا : ابدأ بنفسك ، فقال : بل أبدأ بآل رسول الله صلى الله عليه وآله وذوي قرابته ، فبدأ بالعباس .

قال ابن الجوزي : وقد وقع الاتفاق على أنه لم يفرض لأحدٍ أكثر مما فرض له . وروى أنه فرض له اثني عشر ألفاً ، وهو الأصح ، ثم فرض لزوجات رسول الله صلى الله عليه وآله لكل واحدة عشرة آلاف ، وفضل عائشة عليهن بألفين فأبت ، فقال : ذلك بفضل منزلتك عند رسول الله صلى الله عليه وآله ، فإذا أخذتِ فشأنك . واستثنى من الزوجات جويرية وصفية وميمونة ، ففرض لكل واحدةٍ منهن ستة آلاف ، فقالت عائشة : إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يعدل بيننا ، فعَدَلَ عمر بينهن ؛ وألحق هؤلاء الثلاث بسائرهن ، ثم فرض للمهاجرين الذين شهدوا بدرًا لكل واحد خمسة آلاف ، ولمن شهدا من الأنصار لكل واحد أربعة آلاف^(١) .

وقد روى أنه فرض لكل واحدٍ ممن شهد بدرًا من المهاجرين أو من الأنصار أو من غيرهم من القبائل خمسة آلاف ، ثم فرض لمن شهد أحدًا وما بعدها إلى الحديبية أربعة آلاف ، ثم فرض لكلٍ من شهد المشاهد بعد الحديبية ثلاثة آلاف ، ثم فرض لكلٍ من شهد المشاهد بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله ألفين وخمسمائة ، وألفين ، وألفاً

(١) سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزي ٨٠ .

وخسمائة ، وألفا واحدا إلى مائتين ، وهم أهل هَجَر ؛ ومات عمر على ذلك ^(١) .
 قال ابن الجوزي : وأدخل عمر في أهل بدر ممن لم يحضر بدرأ أربعة ، وهم الحسن ،
 والحسين ، وأبو ذر ، وسلمان ، ففرض لكل واحد منهم خمسة آلاف .
 قال ابن الجوزي : وروى السدي أن عمر كسا أصحاب النبي صلى الله عليه وآله ،
 فلم يرتض في الكسوة ما يستصاحه للحسن والحسين عليهما السلام ، فبعث إلى اليمن ، فأتى
 لهما بكسوة فاخرة ، فلما كساها قال : الآن طابت نفسي .
 قال ابن الجوزي : فأما ما اعتمده في النساء فإنه جعل نساء أهل بدر على خمسمائة ، ونساء
 من بعد بدر إلى الحديبية على أربعائة ، ونساء من بعد ذلك على ثلاثمائة ، وجعل نساء أهل
 القادسية على مائتين مائتين ، ثم سوى بين النساء بعد ذلك .
 ولو لم يدل على تصويب عمر فيما فعله إلا إجماع الصحابة واتفاقهم عليه وترك الإنكار
 لذلك كان كافيا .

فأما الخمس والخلاف فيه فإنها مسألة اجتهادية ، والذي يظهر لنا فيه ويفلب ^(٢) عندنا
 من أمرها ؛ أن الخمس حق صحيح ثابت ، وأنه باق إلى الآن على ما يذهب إليه الشافعي ،
 وأنه لم يسهط بموت رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولكننا لانرى ما يعتقده المرتضى من
 أن الخمس لآل الرسول صلى الله عليه وآله ، وأن الأيتام أيتامهم ، والمساكين مساكينهم
 وابن السبيل منهم ، لأنه على خلاف ما يقتضيه ظاهر الآية والعطف ، ويمكن أن يحتج
 على ذلك بأن قوله تعالى في سورة الحشر : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ ﴾ يبطل هذا القول ،
 لأن هذه اللام لا بد أن تتعلق بشيء ، وليس قبلها ما تتعلق به أصلا ، إلا أن تجعل بدلا
 من اللام التي قبلها في قوله : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلَهُ وَلِلرَّسُولِ

(٢) ب : « يتقلب » .

(١) سيرة عمر بن الخطاب ٨١

وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ^(١) . وليس يجوز أن تكون بدلا من اللام في «لله» ، ولا من اللام في قوله : «وللرسول» فبقى أن تكون بدلا من اللام في قوله « ولذي القربى » ، أما الأول فتعظيما له سبحانه ، وأما الثاني فلا أنه تعالى قد أخرج رسوله من الفقراء بقوله : ﴿ وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ، ولأنه يجب أن يرفع رسول الله صلى الله عليه وآله عن التسمية بالفقير . وأما الثالث ، فإما أن يفتر هذا البديل وما عطف عليه المبدل منه ، أو يفتر هذا البديل وحده دون ما عطف عليه المبدل منه ، والأول لا يصح لأن المعطوف على هذا البديل ليس من أهل القرى وهم الأنصار ، ألا ترى كيف قال سبحانه : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ... ﴾ ^(٢) الآية ، ثم قال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ ^(٣) وهم الأنصار . وإن كان الثاني صار تقدير الآية أن الخمس لله وللرسول ولذي القربى الذين وصفهم الله ونعمتهم بأنهم هاجروا وأخرجوا من ديارهم ، وللا أنصار ؛ فيكون هذا مبطلا لما يذهب إليه المرتضى في قصر الخمس على ذوى القربى .

ويمكن أن يعترض هذا الاحتجاج ، فيقال : لم لا يجوز أن يكون قوله : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ ﴾ ، ليس بعطف ، ولكنه كلام مبتدأ ، وموضع «الذين» رفع بالابتداء وخبره «يجبون» ؟

وأیضا فإن هذه الحجة لا يمكن التمسك بها في آية الأنفال ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ^(٤) .

فأما رواية سليم بن قيس الهلالي ، فليست بشيء ، وسليم معروف المذهب ، ويكفي في رد روايته كتابه المعروف بينهم المسمى «كتاب سليم» .

(٢) سورة الحشر ٨ .
(٤) سورة الأنفال ٤١ .

(١) سورة الحشر ٧
(٣) سورة الحشر ٩

على أنى قد سمعت من بعضهم من يذكر أن هذا الاسم على غير مسمى ، وأنه لم يكن في الدنيا أحد يعرف بسليم بن قيس الهلالى ، وأن^(١) الكتاب المنسوب إليه منحول موضوع لا أصل له ، وإن كان بعضهم يذكره في اسم الرجال ، والرواية المذكورة عن ابن عباس في كتابه إلى نجدة الحرورى صحيحة ثابتة ، وليس فيها ما يدل على مذهب المرتضى من أن الخمس كله لذوى القربى ، لأن نجدة إنما سأله عن خمس الخمس لا عن الخمس كله .

ويبينى أن يذكر في هذا الموضع اختلاف الفقهاء في الخمس :

أما أبو حنيفة فعنده أن قسمة الخمس كانت في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله على خمسة أسهم : سهم لرسول الله صلى الله عليه وآله ، وسهم لذوى قربه من بنى هاشم وبنى المطلب دون بنى عبد شمس ونوفل ، استحقوه حينئذ بالنصرة والمظاهرة ، لما روى عن عثمان بن عفان وجبير بن مطعم أنهما قالاً لرسول الله صلى الله عليه وآله : هؤلاء إخوتك من بنى هاشم لأنك فضلهم ، لمكانك الذى جعلك الله منهم ؛ أرايت إخواننا بنى المطلب أعطيتهم وحرمتمنا ! وإنما نحن وهم بمنزلة واحدة . فقال صلى الله عليه وآله : « إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام ، إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد » وشبك بين أصابعه . وثلاثة أسهم ليتامى المسلمين ومساكينهم وأبنا السبيل منهم ، وأما بعد رسول الله صلى الله عليه وآله فسهمه ساقط بموته ، وكذلك سهم ذوى القربى ، وإنما يُعطون لفقريهم ، فهم أسوة سائر الفقراء ، ولا يعطى أغنياؤهم ؛ فيقسم الخمس إذن على ثلاثة أسهم : اليتامى ، والمساكين وابن السبيل .

وأما الشافعى فيقسم الخمس عنده بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله على خمسة أسهم : سهم للرسول الله صلى الله عليه وآله يُصرف إلى ما كان يصرفه إليه رسول الله صلى الله عليه وآله أيام حياته من مصالح المسلمين ، كعدة الغزاة من الكراع والسلاح

(١) ب : « فإن » .

ونحو ذلك ، وسهم لذوى القربى من أغنيائهم وفقرائهم ، يقسم بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين من بنى هاشم وبنى المطلب ، والباقي للفرق الثلاث .

وأما مالك بن أنس ، فعنده أن الأمر في هذه المسألة مفقوض إلى اجتهاد الإمام ، إن رأى قسمه بين هؤلاء ، وإن رأى أعطاه بعضهم دون بعض ، وإن رأى الإمام غيرهم أولى وأهم ، فغيرهم .

وبقي الآن البحث عن معنى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ ، وما المراد بسهم الله سبحانه ؟ وكيف يقول الفقهاء : الخمس مقسوم خمسة أقسام ، وظاهر الآية يدل على ستة أقسام ؟ فنقول :

يحتمل أن يكون معنى قوله سبحانه : ﴿ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ لرسول الله ، كقوله : ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ ﴾ ^(١) ، أى ورسول الله أحق ؛ ومذهب أبى حنيفة والشافعى يحىء على هذا الاحتمال .

ويحتمل أن يريد بذكره إيجاب سهم سادس يصرف إلى وجه من وجوه القرب ، ومذهب أبى العالية يحىء على هذا الاحتمال ، لأنه يذهب إلى أن الخمس يقسم ستة أقسام : أحدها سهمه تعالى يُصرف إلى رتاج الكعبة ، وقدرى أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يأخذ الخمس فيضرب بيده فيه فيأخذ منه قبضة فيجعلها للكعبة ، ويقول : سهم الله تعالى ، ثم يقسم ما بقى على خمسة أقسام .
وقال : قوم سهم الله لبيت الله .

ويحتمل احتمالا ثالثا ، وهو أن يراد بقوله : ﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ أن من حق الخمس أن يكون متقربا به إليه سبحانه لا غير ، ثم خص من وجوه القرب هذه الخمسة ، تفضيلا لها

على غيرها ، كقوله : ﴿ وَجَبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ ^(١) . ومذهب مالك يحىء على هذا الاحتمال .

وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنه أنه كان على ستة : لله وللرسول سهران ، وسهم لأقاربه ، وثلاثة أسهم للثلاثة ، حتى قبض عليه السلام ، فأسقط أبو بكر ثلاثة أسهم ، وقسم الخمس كله على ثلاثة أسهم ، وكذلك فعل عمر .
وروى أن أبا بكر منع بنى هاشم الخمس ، وقال : إنما لكم أن نعطي فقيركم ، ونزوجه أيتكم ، ونخدم من لا خادم له منكم ، وأما الغنى منكم فهو بمنزلة ابن سبيل غنى ، لا يعطى شيئاً ، ولا يتيم مؤسر .

وقد روى عن زيد بن علي عليه السلام مثل ذلك ، قال : ليس لنا أن نبتى منه القصور ، ولا أن نركب منه البراذين . فأما مذهب الإمامية ، فإن الخمس كله للقراية .
ويروون عن أمير المؤمنين عليه السلام ، أنه قال : أيتامنا ومساكيننا ! فإن صح عنه ذلك ، فقوله عندنا أولى بالاتباع ، وإنما الكلام في صحته .
فأما اقتراض عمر من بيت المال ثمانين ألفاً ، فليس بمعروف ، والمعروف المشهور أنه كان يظلف ^(٢) نفسه عن الدرهم الواحد منه .

وقد روى ابن سعد في كتاب " الطبقات " ، أن عمر خطب ، فقال : إن قوما يقولون : إن هذا المال حلال لعمر ، وليس كما قالوا ، لاها الله إذن ! أنا أخبركم بما أستحل منه ؛ يحل لي منه حلتان : حلة في الشتاء ، وحلة في القيظ ، وما أحجج عليه وأعتمر من الظنهر ، وقوتي وقوت أهلي كقوت رجل من قريش ، ليس بأغناهم ولا أفقرهم ، ثم أنا بعد رجل من المسلمين يُصيبني ما أصابهم ^(٣) .

(١) سورة البقرة ٩٨ .

(٢) يظلف نفسه يعنهما .

(٣) نقله ابن الجوزي في كتابه سيرة عمر ص ٧٥ ، ٧٦ .

وروى ابن سعد أيضاً أنَّ عمر كان إذا احتاج أتى إلى صاحب بيت المال فاستقرضه،
 فربما عسر عليه القضاة، فيأتيه صاحب بيت المال فيتقاضاه، فيحتال له، وربما أخرج عطاؤه
 فقضاه، ولقد اشتكى مرةً فوصف له الطيبُ العسل، فخرج حتى صعد المنبر، وفي بيت
 المال عُكَّةٌ^(١)، فقال: إن أذتم لي فيها أخنستها، وإلا فهي عليّ حرام، فأذتوا له فيها،
 ثم قال: إن مثلي ومثلكم كقوم سافروا، فدفموا نفقاتهم إلى رجل منهم لينفق عليهم،
 فهل يحلّ له أن يستأثر منها بشيء!

وروى ابن سعد أيضاً، قال: مكث عمر زماناً لا يأكل من مال المسلمين شيئاً،
 حتى أصابته خصاصة، فأرسل إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، فاستشارهم
 فقال لهم: قد شغلْتُ نفسي بأمركم، فما الذي يصلح أن أصيبه من مالكم؟ فقال عثمان:
 كل وأطعم، وكذلك قال سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، فتركهما وأقبل على عليّ عليه السلام،
 فقال: ماتقول أنت؟ قال: غداء وعشاء، قال: أصبت، وأخذ بقوله^(٢).

وروى أبو الفرج بن الجوزي في كتاب "سيرة عمر"، عن نائلة عن ابن عمر، قال:
 جمع عمر الناس لما انتهى إليه فتح القادسية ودمشق، فقال: إنني كنتُ امرأ تاجراً يغني الله
 عيالي بتجارتي، وقد شغلتموني عن التجارة بأمركم، فما ترون أنه يحلّ لي من هذا المال؟
 فقال القوم فأكثرُوا، وعلى عليه السلام ساكت، فقال عمر: ماتقول أنت يا أبا الحسن؟
 قال: ما أصلحك وأصلح عيالك بالمعروف، وليس لك من هذا المال غيره، فقال: القول
 ما قاله أبو الحسن؛ وأخذ به^(٣).

وروى عبد الله بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن جدّه أنَّ عبد الله وعبيد الله ابني عمر
 مرّا بأبي موسى، وهو على العراق وهما مقبلان من أرض فارس، فقال: مرحبا بابني أخي،

(١) العُكَّة: زقيق صغير.

(٢) سيرة عمر لابن الجوزي ٧٦.

لو كان عندي شيء ، وبلى قد اجتمع هذا المال عندي : فغذاه واشترى به متاعاً ، فإذا قدمته فبيعه ولكم ربحه ، وأديا إلى أمير المؤمنين رأس المال ، فعلا ، فلما قدما على عمر بالمدينة أخبراه ، فقال : أكل أولاد المهاجرين يصنع بهم أبو موسى مثل ذلك ! فقالا : لا ، قال : فإن عمر يأتي أن يحيز ذلك وجعل قرصاً .

وروي عن قتادة ، قال : كان معقيب على بيت المال لعمر ، فكشع عمر بيت المال يوماً ، وأخرجه إلى المسلمين ، فوجد معقيب فيه درهماً ، فدفعه إلى ابن عمر ، قال معقيب : ثم انصرفت إلى بيتي ، فإذا رسول عمر قد جاء يدعوني ، فجلت فإذا الدرهم في يده ، فقال : ويحك يا معقيب ! أوجدت علي في نفسك شيئاً ! قلت : وما ذاك ؟ قال : أردت أن تخصمني أمة محمد في هذا الدرهم يوم القيامة^(١) !

وروي عمر بن شبة ، عن عبد الله بن الأرقم - وكان خازن عمر - فقال : إن عندنا حلية من حلية جلواء وآنية من فضة ، فانظر ماتأمر فيها ؟ قال : إذا رأيته فارغا فأذني ، فجاءه يوماً فقال : إني أراك اليوم فارغا ، فما تأمر بتلك الحلية ؟ قال : ابسط لي نطعاً ، فبسطه ثم أتى بذلك المال ، فصب عليه ، ورفع يديه وقال : اللهم إنك ذكرت هذا المال ، قلت : ﴿ زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ﴾^(٢) ثم قلت : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾^(٣) اللهم إنا لانستطيع إلا أن نفرح بما زينتنا . اللهم إني أسألك أن تضعه في حقه ، وأعوذ بك من شره ، ثم ابتداء فقسّمه بين الناس ، فجاءه ابن بنت له ، فقال : يا أبتاه ! هب لي منه خاتماً ، فقال : اذهب إلى أمك تسقك سويقاً ، فلم يعطه شيئاً^(٤) .

وروي الطبري في تاريخه أن عمر خطب أم كلثوم بنت أبي بكر ، فأرسل فيها إلى

(٢) سورة الحديد ٢٣ .

(١) سورة آل عمران ١٤

(٣) سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزي ٧٨ .

عائشة، فقالت: الأمر إليها، فقالت أم كلثوم: لا حاجة لي فيه، قالت لها عائشة: ويحك! أترغبين عن أمير المؤمنين؟ قالت: نعم، إنه يفلق بابه، ويمنع خيره، ويدخل عابسا، ويخرج عابسا، فأرسلت عائشة إلى عمرو بن العاص، فأخبرته، فقال: أنا أ كفيك، فأثى عمر، فقال: يا أمير المؤمنين، بلغني خبر أعيدك بالله منه! قال: ماهو؟ قال: خطبت أم كلثوم بنت أبي بكر؟ قال: نعم، أفتربى بي عنها أم ترغبُ بها عني؟ قال: لا واحدة، ولكنها حدثة، نشأت تحت كنف أم المؤمنين في لين ورفق، وفيك غلظة ونحن نهأ بك، ولا نستطيع أن نردك عن خلق من أخلاقك، فكيف بها إن خالفتك في شيء فسطوت بها! كنت قد خلقت أبا بكر في ولده بغير ما يحق عليك، قال: فكيف لي بعائشة وقد كلمتها فيها؟ قال: أنا لك بها، وأدلك على خير منها، أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، تعلق منها بسبب من رسول الله. فصرّفه عنها إلى أم كلثوم بنت فاطمة.

وروى عاصم بن عمر، قال: بعث إلى عمر عند الهاجرة - أو قال عند صلاة الصبح - فأتيته، فوجدته خالسا في المسجد فقال: يا بني، إني لم أكن أرى شيئا من هذا المال يحل لي قبل أن ألي إلا بحقه، وما كان أحرم على منه حين وليته، فعاد أمانتي، وإني كنت أنفقت عليك من مال الله شهرا، ولست بزائدك عليه، وقد أعطيتك تمرى بالعالية، فبعه وخذ ثمنه، ثم أنت رجلا من تجار قومك، فكن إلى جانبه، فإذا ابتاع شيئا فاستشره، وأنفق ما تربحه عليك وعلى أهلك. قال: فذهبت ففعلت^(١).

وروى الحسن البصري أن عمر كان يمشى يوما في سكة من سكة المدينة، إذ صبية تطيش على وجه الأرض، تقعد مرة، وتقوم أخرى من الضعف والجهد، فقال عمر: ما بال هذه؟ قال عبد الله ابنه: أما تعرف هذه؟ قال: لا، قال إنها إحدى بناتك،

فأنكر عمر ذلك، فقال : هذه ابنتي من فلانة ! قال : ويحك وما صيرها إلى ما أرى؟ قال : منعك [ما عندك] ^(١) ، قال : أنا منعتك ما عندى ، فما الذى منعك أن تطلب لبناتك ما يكسب الأقوام ^(٢) لبناتهم ! إنه والله مالك عندى غير سهمك فى المسلمين ؛ وسعك أو يحزنك ، وكتاب الله بيني وبينك ^(٣) .

وروى سعيد بن المسيب ، قال : كتب عمر لما قسم العطاء وفضل من فضل المهاجرين الذين شهدوا بدرًا خمسة آلاف ، وكتب لمن لم يشهد بدرًا أربعة آلاف ؛ فكان منهم عمر بن أبى سلمة الحزومى ، وأسامة بن زيد بن حارثة ، ومحمد بن عبد الله بن جحش ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب . فقال عبد الرحمن بن عوف — وهو الذى كان يكتب : يا أمير المؤمنين ، إن عبد الله بن عمر ؛ ليس من هؤلاء ، إنه وإنه ... يطريه ويؤثني عليه ، فقال له عمر : ليس له عندى إلا مثل واحد منهم ، فتكلم عبد الله وطلب الزيادة ، وعمر ساكت ، فلما قضى كلامه ، قال عمر لعبد الرحمن : اكتبه على خمسة آلاف ، واكتبنى على أربعة آلاف ، فقال عبد الله : لأريد هذا ، فقال عمر : والله لا أجمع أنا وأنت على خمسة آلاف ، قم إلى منزلك ؛ فقام عبد الله كئيبا .

وقال أبو وائل : استعملني ابن زياد على بيت المال بالكوفة ، فأتاني رجلٌ بصكٍّ يقول فيه : أعط صاحب المطبخ ثمانمائة درهم ، فقلت له : مكانك ، ودخلت على ابن زياد ، فقلت له : إن عمر استعمل عبد الله بن مسعود بالكوفة على القضاء وبيت المال ، واستعمل عثمان بن حنيف على سقي الفرات ، واستعمل عمار بن ياسر على الصلاة والجند ، فرزقهم كل يوم شاة واحدة ، فجعل نصفها وسقطها وأكارعها العمار ؛ لأنه كان على الصلاة والجند ، وجعل لابن مسعود رُبْعها ، ولابن حنيف رُبْعها ، ثم قال : إن مالا يؤخذ منه كل يوم شاة ، إن ذلك فيه لسريع ، فقال ابن زياد : ضع المفتاح فاذهب حيث شئت .

(١) من سيرة عمر . (٢) سيرة عمر : « الأقوياء » . (٣) سيرة عمر ٧٧ ، ٧٨ .

وروى أبو جعفر الطبري في التاريخ ، أن عمر بعث سلمة بن قيس الأشجعي إلى طائفة من الأكراد ، كانوا على الشرك ، فخرج إليهم في جيش سَرَّجِه معه من المدينة ، فلما انتهى إليهم ، دعاهم إلى الإسلام أو إلى أداء الجزية ، فأبوا ، فقاتلهم ، فنصره الله عليهم ؛ فقتل المقاتلة وسبى الذرية ، وجمع الرثمة ^(١) ، ووجد حلية وفصوصا وجواهر ، فقال لأصحابه : أطيعوا أنفسكم أن تبعث بهذا إلى أمير المؤمنين ؟ فإنه غير صالح لكم ، وإن علي أنير المؤمنين لمؤنة وأتقلا ! قالوا : نعم ، قد طابت أنفسنا ، فحمل تلك الجواهر في سَفَط ، وبعث به مع واحد من أصحابه ، وقال له : سر ، فإذا أتيت البصرة ، فاشترِ راحلتين فأوقِرهما زاداً لك ولغلامك ، وسر إلى أمير المؤمنين . قال : ففعلت ، فأتيت عمرو وهو يغدي الناس ، قائما متكئا على عصا كما يصنع الراعي ، وهو يدور على القِصاع ، فيقول : يا بَرِّ فأزِدْ هؤلاء لحماً ، زد هؤلاء خبزاً ، زد هؤلاء مَرَقَةً ، فجلست في أدنى الناس فإذا طعام فيه خشونة ، طعامي الذي معي أطيب منه ، فلما فرغ أدير فاتتته ، فدخل داراً فاستأذنت ، ولم أعلم حاجته من أنا ، فأذِن لي ، فوجدته في صُفَّة جالسا على مِسْح ، متكئا على وسادتين من آدم محشوتين ليفاً ، وفي الصُفَّة عليه سِتْر من صوف ، فنبذ إلي إحدى الوسادتين ، فجلست عليها ، فقال : يأمُّ كلثوم ، ألا تغدونا ! فأخرج إليه خُبْزَةً بزيت في عرضها ملح لم يدق ، فقال : يأمُّ كلثوم ، ألا تخرجين إلينا تأكلين معنا ؟ فقالت : إني أسمع عندك حسَّ رجل ، قال : نعم ، ولا أراه من أهل هذا البلد قال : فذاك حين عرفت أنه لم يعرفني . فقالت : لو أردت أن أخرج إلى الرجال لكسوتني كما كسا الزبير امرأته ، وكما كسا طلحة امرأته ، قال : أو مايكفيك أنك أم كلثوم ابنة علي بن أبي طالب وزوجة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ! قالت : إن ذاك عَنِّي لقليل الفناء ، قال : كل ، فلو كانت راضية لأطعمتك أطيب من هذا ، فأكلت قليلا ، وطعامي الذي معي أطيب منه ،

(١) الرثمة : المتاع .

وأكل ، فَمَا رَأَيْتَ أَحَدًا أَحْسَنَ أَكْلًا مِنْهُ ، مَا يَتَلَبَّسُ طَعَامَهُ بِيَدِهِ وَلَا فِيهِ . ثُمَّ قَالَ :
 اسْقُونَا ، فَجَاءُوا بِسُيٍّ مِنْ سُلْتٍ^(١) ، فَقَالَ : أَعْطِ الرَّجُلَ ، فَشَرِبْتُ قَلِيلًا ، وَإِنْ سَوِيقِي
 الَّتِي مَعِيَ لِأَطِيبُ مِنْهُ ، ثُمَّ أَخَذَهُ فَشَرِبَ بِهَا حَتَّى قَرَعَ الْقَدَحُ جِهَتَهُ ، ثُمَّ قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
 أَطْعَمَنَا فَأَشْبَعَنَا ، وَسَقَانَا فَأَرَوَانَا ، إِنَّكَ يَا هَذَا لَضَعِيفُ الْأَكْلِ ، ضَعِيفُ الشَّرْبِ ، فَقُلْتُ :
 يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّ لِي حَاجَةً ، قَالَ : مَا حَاجَتُكَ ؟ قَالَتْ : أَنَا رَسُولُ سُلَيْمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ ، فَقَالَ :
 مَرْحَبًا بِسُلَيْمَةَ وَرَسُولِهِ ! فَكُنَّا نَمَّا خَرَجْتَ مِنْ صُلْبِهِ ، حَدَّثَنِي عَنْ الْمُهَاجِرِينَ كَيْفَ هُمْ ؟
 قُلْتُ : كَمَا تَحِبُّ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ مِنَ السَّلَامَةِ وَالظَّفَرِ وَالنَّصْرِ عَلَى عَدُوِّهِمْ ، قَالَ : كَيْفَ
 أَسْعَارُهُمْ ؟ قُلْتُ : أَرْخَصَ أَسْعَارُ ، قَالَ : كَيْفَ اللَّحْمُ فِيهِمْ ، فَإِنَّ شَجَرَةَ الْعَرَبِ ، وَلَا تَصْلُحُ
 الْعَرَبُ إِلَّا عَلَى شَجَرَتِهَا ؟ قَالَتْ : الْبَقَرَةُ فِيهِمْ بِكَذَا ، وَالشَّاةُ فِيهِمْ بِكَذَا ، ثُمَّ سَرَرْنَا
 يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى لَقِينَا عَدُوَّنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، فَدَعَوْنَاهُمْ إِلَى الَّذِي أَمَرْتُ بِهِ مِنَ الْإِسْلَامِ
 فَأَبَوْا ، فَدَعَوْنَاهُمْ إِلَى الْخُرَاجِ فَأَبَوْا ، فَقَاتَلْنَاهُمْ فَنَصَرَنَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، فَقَتَلْنَا الْمَقَاتِلَةَ ، وَسَبَيْنَا
 الذَّرِيَّةَ وَجَعَلْنَا الرِّثْمَةَ^(٢) ، فَرَأَى سُلَيْمَةُ فِي الرِّثْمَةِ حِلْيَةً ، فَقَالَ لِلنَّاسِ : إِنَّ هَذَا لَا يَبْلُغُ
 فِيكُمْ شَيْئًا ، أَفَتَطِيبُ أَنْفُسَكُمْ أَنْ أُبْعَثَ بِهِ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، ثُمَّ اسْتَخْرَجْتُ
 سَفَطِي^(٣) فَفَتَحْتُهُ . فَلَمَّا نَظَرَ إِلَى تِلْكَ الْفُصُوصِ ، مِنْ بَيْنِ أَحْمَرٍ وَأَخْضَرَ وَأَصْفَرٍ ، وَثَبَ وَجَلَ
 يَدِهِ فِي خَاصِرَتِهِ يَصِيحُ صِيَاحًا عَالِيًا ، وَيَقُولُ : لَا أَشْبِعُ اللَّهَ إِذْنُ بَطْنِ عَمْرِ ! يَكْرَرُهَا ، فَظَنَّ
 النِّسَاءُ أَنِّي جِئْتُ لِأَغْتَالِهِ ؛ فَخَنَّنَ إِلَى السِّتْرِ فَكَشَفْنَاهُ ، فَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ : لَفَّ مَا جِئْتُ بِهِ يَا بَرَفَا
 جَاءُ عَنْقَهُ^(٤) ، قَالَ : فَأَنَا أَصْلِحُ سَفَطِي ، وَيَرْفَأُ يَجْأُ عَنْقِي . ثُمَّ قَالَ : النَّجَاءُ النَّجَاءُ !
 قُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ انْزِعْ بِي فَاحْمِلْنِي ، فَقَالَ : يَا بَرَفَا ، أَعْطَاهُ رَاكِلَتَيْنِ مِنْ إِبِلِ الصَّدَقَةِ ،

(٢) الطبري : « الرشة » .

(٤) جأ : اضرب .

(١٥ - تهج - ١٢)

(١) السات : شعير لا قشر له ، يبرد بسويقه .

(٣) السفت : وعاء كالجوالق .

فإذا لقيت أفقر إليهما منك فادفعهما إليه ، وقال : أظنك ستبطنى ، أما والله لئن تفرق المسلمون في مشائيتهم قبل أن يُقسَمَ هذا فيهم ، لأفعلن بك وبصاحبك الفاقة^(١) .
قال : فارتحلت حتى أتيتُ إلى سلمة بن قيس ، فقلت : مبارك الله فيما اختصصتني به ، أقسمُ هذا في الناس قبل أن تصيبني وإياك فاقة ، فقسه فيهم . فإنّ الفصّ ليبيع بخمسة دراهم وبسّنة ، وهو خير من عشرين ألفا^(٢) .

وجملة الأمر أنّ عمر لا يجوز أن يُطعن فيه بمثل هذا ، ولا ينسب إلى شره وحبّ للمال ، فإنّ طريقته في التعفف والتعشّف وخشونة العيش والزهد أظهر من كلّ ظاهر ، وأوضح من كلّ واضح ، وحاله في ذلك معلومة ، وعلى كلّ تقدير ؛ سواء كان يفعل ذلك ديناً أو ورعاً - كما هو الظاهر من حاله - أو كان يفعل ذلك ناموساً وصناعة ورياء وحيلة ، - كما تزعم الشيعة - فإنه عظيم ، لأنه إمّا أن يكون على غاية الدين والثقى ، أو يكون أقوى الناس نفساً ، وأشدّهم عزماً ؛ وكلا الأمرين فضيلة .

والذى ذكره الحدّثون وأرباب السّير أنّ عمر لما طعن واحتُمل في دمه إلى بيته ، وأوصى بما أوصى ، قال لابنه عبد الله : انظروا ماعلىّ من دين ، فحسبوه فوجدوه ستمائة وثمانين ألف درهم ، هكذا ورد في الأخبار أنها كانت ديونا للمسلمين ، ولم تكن من بيت المال . فقال عمر : انظروا يعبد الله ، فإنّ وقي به مال آل عمر ، فأدّه من أموالهم ، وآل فسّل في بنى عدىّ بن كعب ، فإنّ لم تف به أموالهم ، فسّل في قريش ، ولا تعدّهم إلى غيرهم . فهكذا وردت الرواية ، فلذلك قال قاضى القضاة : فإنّ صحّ فالعذر كذا وكذا ، لأنه لم يثبت عنده صحّة اقتراضه هذا المقدار من بيت المال .

وقد روى أنّ عمر كان له نخّل بالحجاز غلّته كلّ سنة أربعون ألفا ، يُخرجها في

(١) الفاقة : الداهية . (٢) تاريخ الطبرى ١: ٢٧١٣-٢٧٢١ (طبع أوروبا) مع اختلاف في الرواية .

النواب والحقوق، ويصرفها إلى بنى عدى بن كعب إلى فقراءهم وأراملهم وأيتامهم، روى ذلك ابن جرير الطبري في التاريخ .

فأما قول المرتضى : أى حاجة بخشن العيش وجشِب المأكل إلى اقتراض الأموال؟ فجوابه أن المتزهد المتقشف قد يضيق على نفسه ويوسع على غيره ، إما من باب التكرم والإحسان ، أو من باب الصدقة وابتغاء الثواب ، وقد يصل رحمه وإن قتر على نفسه . وقد روى الطبري أن عمر دفع إلى أم كلثوم بنت أمير المؤمنين عليه السلام صداقها يوم تزوجها أربعين ألف درهم ؛ فلعل هذا الاقتراض من الناس كان لهذا الوجه ولغيره من الوجوه التي قل أن يخلو أحد منها .

الطعن السادس

إنه عطل حدّ الله في المغيرة بن شعبه ، لما شهد^(١) عليه بالزنا ، ولقّن الشاهد الرابع الامتناع عن الشهادة ، اتباعاً لهواه ، فلما فعل ذلك عاد إلى الشهود فخدّم وضربهم^(٢) ، فنجب أن يفضح المغيرة ، وهو واحد ، وفضح الثلاثة مع تعطيله لحكم الله ، ووضعه في غير موضعه .

أجاب قاضى القضاة ، فقال : إنه لم يعطل الحدّ إلا من حيث لم تكمل الشهادة ويرادة الرابع ، لثلا يشهد لا تكمل البيّنة ، وإنما تكمل بالشهادة .

وقال : إن قوله : « أرى وجه رجل لا يفضح الله به رجلا من المسلمين » ، يجرى في أنه سائغ صحيح مجرى ماروى عن النبي صلى الله عليه وآله من أنه أتى بسارق ، فقال : « لا تُقر » .

(١) الشافى : « شهدوا » .

(٢) كذا في الشافى ، وفي الأصول : « فضحهم » .

وقال عليه السلام لصفوان بن أمية لما أتاه بالسارق ، وأمر بقطعه ، فقال : هوله - يعنى ماسرق : هلاً قبل أن تأتيني به ! فلا يمتنع من عمر ألا يحب أن تكمل الشهادة وينبه الشاهد على ألا يشهد ، وقال : إنه جلد الثلاثة من حيث صاروا قذفة ، وإنه ليس حالهم - وقد شهدوا - كحال من لم تتكامل الشهادة عليه ، لأن الحيلة في إزالة الحد عنه لو لم تتكامل الشهادة عليه - ممكنة بتلقين وتنبيه غيره ، ولا حيلة فيما قد وقع من الشهادة ، فلذلك حدّهم .

قال : وليس في إقامة الحدّ عليهم من الفضيحة ما في تكامل الشهادة على المغيرة ، لأنه يتصور بأنه زان ، ويحكم بذلك ، وليس كذلك حال الشهود ، لأنهم لا يتصورون بذلك ، وإن وجب في الحكم أن يجعلوا في حكم القذفة .

وحكى عن أبي عليّ أن الثلاثة ، كان القذف قد تقدّم منهم للمغيرة بالبصرة ، لأنهم صاحوا به من نواحي المسجد : بأننا نشهد أنك زان ، فلو لم يعيدوا الشهادة لكان يحدّهم لا محالة ، فلم يمكن في إزالة الحدّ عنهم ما أمكن في المغيرة .

وحكى عن أبي عليّ في جواب اعتراضه عن نفسه بما روى عن عمر أنه كان إذا رآه يقول : لقد خفت أن يرميني الله عزّ وجلّ بحجارة من السماء ؛ أن هذا الخبر غير صحيح ، ولو كان حقاً لكان تأويله التخويف ، وإظهار قوة الظنّ ؛ لصدق القوم الذين شهدوا عليه ، ليكون ردعاً له . وذكر أنه غير ممتنع أن يحبّ ألا يفتضح لما كان متولياً للبصرة من قبله .

ثم أجاب عن سؤال من سأل عن امتناع زياد من الشهادة ، وهل يقتضى التمسك أم لا ؟ فإن قال : لا نعلم أنه كان يتمّ الشهادة ؛ ولو علمنا ذلك لكان حيث ثبت في الشرع أن له

السكوت ؛ لا يكون طعنا ، ولو كان ذلك طعنا ، وقد ظهر أمره لأمر المؤمنين عليه السلام
لما ولاه فارس ، ولما ائتمنه على أموال الناس ودمائهم .

اعترض المرتضى فقال : إنما نسب إلى تعطيل الحد من حيث كان في حكم الثابت ،
وإنما بتلقيه لم تكمل الشهادة ، لأن زيادا ماحضر إلا ليشهد بما شهد به أصحابه ، وقد
صرح بذلك كما صرحوا قبل حضورهم ، ولو لم يكن هذا لما شهد القوم قبله وهم لا يعلمون :
هل حاله في ذلك الحكم كحالهم ، لكنه أحجم في الشهادة لما رأى كراهية متولى الأمر
لكمالها ، وتصريحه بأنه لا يريد أن يعمل بموجبها .

ومن العجائب أن يطلب الحيلة في دفع الحد عن واحد ، وهو لا يندفع إلا بانصرافه
إلى ثلاثة ، فإن كان درء الحد والاحتياط في دفعه من الشئ المتبعة ، فدرؤه عن ثلاثة
أولى من درئه عن واحد !

وقوله : إن دفع الحد عن المغيرة ممكن ودفعه عن ثلاثة - وقد شهدوا - غير ممكن ،
طريف ، لأنه لو لم يلحق الشاهد الرابع الامتناع عن الشهادة لاندفع الحد عن الثلاثة ،
وكيف لا تكون الحيلة ممكنة فيما ذكره !

وقوله : إن المغيرة يُتصور بصورة زانٍ لو تكاملت الشهادة ، وفي هذا من الفضيحة
ماليس في حد الثلاثة غير صحيح ، لأن الحكم في الأمرين واحد ، لأن الثلاثة إذا حُدوا
يُظنّ بهم الكذب ، وإن جُوز أن يكونوا صادقين ، والمغيرة لو تكاملت الشهادة عليه
بالزنا يُظنّ به ذلك مع التجوز لأن يكون الشهود كذبة ، وليس في أحدٍ إلا ما في الآخر .
وما روى عنه عليه السلام من أنه أتى بسارق ، فقال له : « لا تُقر » إن كان صحيحا
لا يشبه ما نحن فيه ، لأنه ليس في دفع الحد عن السارق إيقاع غيره في المكروه .
وقصة المغيرة تخالف هذا لما ذكرناه .

فأما قوله عليه السلام : « هَلَّا قَبْلَ أَنْ تَأْتِنِي بِهِ ! » فلا يشبه كلَّ مانحن فيه ، لأنَّه يَبَيِّنُ أَنَّ ذَلِكَ الْقَوْلَ يُسْقِطُ الْحَدَّ لَوْ تَقَدَّمَ ، وَلَيْسَ فِيهِ تَلْقِينٌ يُوجِبُ إِسْقَاطَ الْحَدِّ .
فأما ما حكاه عن أبي عليٍّ من أَنَّ الْقَذْفَ مِنَ الثَّلَاثَةِ كَانَ قَدْ تَقَدَّمَ ، وَأَنَّهُمْ لَوْ لَمْ يُعِيدُوا الشَّهَادَةَ لَكَانَ يَحْدُثُ لِمَحَالَةٍ ، فَفَيْرٌ مَعْرُوفٌ ، وَالظَّاهِرُ الْمُرَوِّىُّ خِلَافُهُ ، وَهُوَ أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ عِنْدَ نُكُولِ زِيَادٍ عَنِ الشَّهَادَةِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ كَانَ السَّبَبَ فِي إِيقَاعِ الْحَدِّ بِهِمْ .
وَتَأْوَلُهُ ^(١) عَلَيْهِ : لَقَدْ خِفْتُ أَنْ يَرْمِيَنِي اللَّهُ بِحِجَارَةٍ مِنَ السَّمَاءِ ، لَا يَلِيْقُ بِظَاهِرِ الْكَلَامِ ، لِأَنَّهُ يَقْتَضِي التَّنَدُّمَ وَالتَّاسُّفَ عَلَى تَفْرِيطٍ وَقَعَ ، وَلَمْ يَخَافُ أَنْ يَرْمَى بِالْحِجَارَةِ وَهُوَ لَمْ يَدْرُ الْحَدَّ عَنْ مُسْتَحَقِّ لَهُ أَوَّلُو أَرَادَ الرَّدْعَ وَالتَّخْوِيفَ لِلْمَغِيرَةِ لِأَنِّي بِكَلامٍ يَلِيْقُ بِذَلِكَ ، وَلَا يَقْتَضِي إِضَافَةَ التَّفْرِيطِ إِلَى نَفْسِهِ . وَكَوْنَهُ وَالْيَا مِنْ قَبْلِهِ لَا يَقْتَضِي أَنْ يَدْرَأَ عَنْهُ الْحَدَّ ، وَيَعْدِلُ بِهِ إِلَى غَيْرِهِ .

وأما قوله : إِنَّمَا مَا كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّ زِيَادًا كَانَ يَتِمُّ الشَّهَادَةُ ، فَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ ذَلِكَ كَانَ مَعْلُومًا بِالظَّاهِرِ ، وَمَنْ قَرَأَ مَارَوِيٍّ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ عِلْمَ بِلَا شَكٍّ أَنَّ حَالَ زِيَادٍ كَحَالِ الثَّلَاثَةِ ، فِي أَنَّهُ إِتَمَّا حَضَرَ لِلشَّهَادَةِ ، وَإِنَّمَا عُدِلَ عَنْهَا لِكَلَامِ عَمْرِ .
وقوله : إِنَّ الشَّرْعَ يَبِيحُ السَّكُوتَ ، لَيْسَ بِصَحِيحٍ ، لِأَنَّ الشَّرْعَ قَدْ حَظَرَ كِتْمَانَ الشَّهَادَةِ .

فأما استدلاله على أَنَّ زِيَادًا لَمْ يَفْسُقْ بِالْإِمْسَاكِ عَنِ الشَّهَادَةِ بِتَوَلِيَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُ فَارَسٌ ، فَلَيْسَ بِشَيْءٍ يُعْتَمَدُ ، لِأَنَّهُ لَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ قَدْ تَابَ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَأَظْهَرَ تَوْبَتَهُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَجَازَ أَنْ يُؤَلِّيَهُ . وَقَدْ كَانَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا يَقُولُ فِي قِصَّةِ الْمَغِيرَةِ شَيْئًا طَيِّبًا ، وَإِنْ كَانَ مَعْتَمِلًا فِي بَابِ الْحِجَّةِ ، كَانَ يَقُولُ : إِنَّ زِيَادًا إِتَمَّا امْتَنَعَ مِنَ التَّصَرُّحِ بِالشَّهَادَةِ الْمَطْلُوبَةِ فِي الزَّنا ، وَقَدْ شَهِدَ بِأَنَّهُ شَاهِدٌ بَيْنَ شُعْبَيْهَا الْأَرْبَعِ ، وَسَمِعَ نَفْسًا عَالِيَا ، فَقَدْ صَحَّ عَلَى الْمَغِيرَةِ بِشَهَادَةِ الْأَرْبَعِ جُلُوسُهُ مِنْهَا مَجْلِسَ الْفَاحِشَةِ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ

(١) الشَّالَى : « وَمَا تَأْوَلُ عَلَيْهِ » .

من مقدّمات الزنا وأسبابه . فهلاًّ ضمّ عمر إلى جلد الثلاثة تعزيرَ هذا الذى قد صحّ عنده
بشهادة الأربعة ماصحّ من الفاحشة ، مثل تعريك أذنه ، أو مايجرى مجراه من خفيفِ
التعزير ويسيره ! وهل فى العدول عن ذلك - حتى عن لومه وتوبيخه والاستخفاف - به إلا
ما ذكرّوه من السبب الذى يشهد الحال به ^(١) !

قلت : أمّا المغيرة فلا شكّ عندى أنه زنى بالمرأة ، ولكنى لست أخطئُ عمرَ فى
دَرءِ الحدّ عنه ، وإتما أذكر أولاً قصّته من كتابي أبي جعفر محمد بن جرير الطبرى ،
وأبى الفرج على بن الحسن الأصفهانيّ ، ليعلم أنّ الرجل زنى بها لا محالة ، ثم أعتذر لعمر
فى درءِ الحدّ عنه .

قال الطبرى فى تاريخه ^(٢) : وفى هذه السنّة - يعنى سنة سبع عشرة - ولّى عمر أبا موسى
البصرة ، وأمره أن يُشخص إليه المغيرة بن شعبة ، وذلك لأمر بلغه عنه . قال الطبرى : حدثنى
محمد بن يعقوب بن عتبة ؛ قال : حدثنى أبى ، قال : كان المغيرة يخالف إلى أمّ جليل ، امرأة من
بنى هلال بن عامر ، وكان لها زوج من ثقيف هلك قبل ذلك ، يقال له الحجاج بن عبيد ،
وكان المغيرة - وكان أميرَ البصرة - يختلف إليها سرّاً ، فبلغ ذلك أهلَ البصرة ، فأعظموه ،
فخرج المغيرة يوماً من الأيام إلى المرأة ، فدخل عليها وقد وضعوا عليهما الرّصد ، فانطلق
القوم الذين شهدوا عند عمر فكشفوا السّتر ، فرأوه قد واقعا ؛ فكتبوا بذلك إلى عمر ،
وأوفدوا إليه بالكتاب أبابكرة . فأنهى أبوبكرة إلى المدينة ، وجاء إلى باب عمر فسمع صوته
وبينه وبينه حجاب ، فقال : أبوبكرة ! فقال : نعم ، قال : لقد جئت لشرّ ! قال : إنما
جاء به المغيرة ، ثم قصّ عليه القصة ، وعرض عليه الكتاب ، فبعث أبا موسى عاملاً ، وأمره

(١) الشافى ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

(٢) تاريخ الطبرى ١ : ٢٥٢٩ - ٢٦١ (طبع أوروبا) .

أن يبعث إليه المغيرة ، فلما دخل أبو موسى البصرة ، وقعد في الإمارة ، أهدى إليه المغيرة عقيلة ، وقال : إنني قد رضيتها لك ، فبعث أبو موسى بالمغيرة إلى عمر .

قال الطبري : وروى الواقدي ، قال : حدثني عبدالرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عمرو ابن حزم الأنصاري ، عن أبيه ، عن مالك بن أوس بن الحدثان ، قال : قدم المغيرة على عمر ، فتزوج في طريقه امرأة من بنى مُرة ، فقال له عمر : إنك لفارغ القلب ، شديد الشبق ، طويل الغرمول ، ثم سأل عن المرأة فقيل ^(١) له - يقال لها الرقطاء : كان زوجها من ثقيف وهي من بنى هلال .

قال الطبري : وكتب إلى السري ، عن شعيب ، عن سيف ، أن المغيرة كان يُبغض أبا بكر وكان أبو بكر يُبغضه ، وينأى ^(٢) كل واحد منهما صاحبه ويتافره عند كل ما يكون منه ، وكانا متجاورين بالبصرة ، بينهما طريق ، وهما في مشرتين متقابلتين ، فهما في داريهما في كل واحدة منهما كوة مقابلة الأخرى ، فاجتمع إلى أبي بكر نفر يتحدثون في مشرته ، فهبت ريح فتحت باب الكوة ، فقام أبو بكر ليصفقه ^(٣) ، فبصر بالمغيرة وقد فتحت الريح باب الكوة التي في مشرته ، وهو بين رجل امرأة ، فقال للنفر : قوموا فانظروا ، فقاموا فنظروا ، ثم قال : اشهدوا ، قالوا : ومن هذه ؟ قال : أم جميل ، إحدى نساء بني عامر بن صعصعة ، فقالوا : إنما رأينا أعجازا ولا ندرى الوجوه ! فلما قامت صموا ، وخرج المغيرة إلى الصلاة ، فحال أبو بكر بينه وبين الصلاة ، وقال : لاتصل بنا . وكتبوا إلى عمر بذلك ، وكتب المغيرة إليه أيضا ، فأرسل عمر إلى أبي موسى ، فقال : يا أبا موسى ، إني مستعلك ، وإني باعثك إلى الأرض التي قد باض بها الشيطان وفرخ ، فالزم ما تعرف ، ولا تستبدل فيستبدل الله بك . فقال : يا أمير المؤمنين ، أعني بعدة من

(١) الطبري : « فقال » . (٢) كذا في الطبري ، ويناغيه : يباريه . وفي الأصول : « يناغيه » .

(٣) أصفى الباب : رده .

أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار ، فأتى وجدتهم في هذه الأمة وهذه الأعمال كالملاح لا يصلح الطعام إلّا به . قال عمر : فاستعن بمن أحببت ، فاستعان بتسعة وعشرين رجلاً ، منهم أنس بن مالك ، وعمران بن حصين ، وهشام بن عامر . وخرج أبو موسى بهم حتى أناخ بالبصرة في المَرَبْد ، وبلغ المغيرة أن أبا موسى قد أناخ بالمَرَبْد ، فقال : والله ما جاء أبو موسى زائراً ، ولا تاجراً ، ولكنه جاء أميراً . فلنهم لقي ذلك إذ جاء أبو موسى ، حتى دخل عليهم ، فدفع إلى المغيرة كتاباً من عمر ، إنه لأوجز كتاب كتب به أحد من الناس ؛ أربع كلمات ، عزل فيها وعاتب ، واستحث وأمر : « أما بعد ، فإنه بلغني نبأ عظيم ، فبعثت أبا موسى ، فسلم ما في يديك إليه ، والعجل . » وكتب إلى أهل البصرة : « أما بعد ، فأتى قد بعثت أبا موسى أميراً عليكم ، ليأخذ لضعيفكم من قوتكم ، وليقاتل بكم عدوكم وليدفع عن ذمتكم ، وليجني^(١) لكم فيثكم ، وليقسم فيكم ، وليحمي^(٢) لكم طرقكم . »

فأهدى إليه المغيرة وليدة من مولدات الطائف تدعى عقيلة ، وقال : إني قد رضيتها لك . وكانت فارمة وارتحل المغيرة ، وأبو بكره ، ونافع بن كلفة ، وزيد ، وشبل بن معبد البجلي ، حتى قدموا على عمر ، فجمع بينهم وبين المغيرة ، فقال المغيرة : يا أمير المؤمنين ، سل هؤلاء الأعداء : كيف رأوني ؟ مستقبلهم أم مستدبرهم ! وكيف رأوا المرأة وعرفوها فإن كانوا مستقبلين فكيف لم أستر ! وإن كانوا مستدبرين فبأي شيء استحلوا النظر إلى في منزلي على امرأتى ! والله ما أتيت إلّا امرأتى ، فبدأ بأبي بكره فشهد عليه أنه رآه بين رجلين أم جميل ، وهو يدخله ويخرجه ، قال عمر : كيف رأيتهما ؟ قال : مستدبرهما ، قال : كيف استثبتت رأسها ؟ قال : تجافيت . فدعا بشبل بن معبد ، فشهد مثل ذلك ، وقال : استقبلتهما واستدبرتهما . وشهد نافع بمثل شهادة أبي بكره ، ولم يشهد زيد بمثل شهادتهم . قال :

(١) الطبري : « لينق » .

(٢) الطبري : « ليحمي » .

رأيته جالساً بين رجلي امرأة ، ورأيت قدمين مرفوعتين تحفقان ، واستتين مكشوفتين ؛ وسمعت حفزاً شديداً ^(١) ، قال عمر : فهل رأيته فيها كالعيل في المسجلة ؟ قال : لا ، قال : فهل تعرف المرأة ؟ قال : لا ، ولكن أشبهها ، فأمر عمر بالثلاثة فجلدوا الحد ، وقرأ : ﴿ فَإِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ ^(٢) . فقال المغيرة : الحمد لله الذي أخزاكم ! فصاح به عمر : اسكت أسكت الله نأمتك ! أما والله لو تمت الشهادة لرجمتك بأحجارك . فهذا ما ذكره الطبري .

وأما أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، فإنه ذكر في كتاب الأغاني ^(٣) أن أحمد بن عبد العزيز الجوهري ، حدثه عن عمر بن شبة ، عن علي بن محمد ، عن قتادة ، قال : كان المغيرة بن شعبة - وهو أمير البصرة - يختلف سرّاً إلى امرأة من ثقيف ، يقال لها الرقطاء ، فلقية أبو بكر يوماً ، فقال له : أين تريد ؟ قال : أزور آل فلان ، فأخذ بتلابيبه ، وقال : إن الأمير يزور ولا يزور .

قال أبو الفرج : وحدثني بحديثه جماعة - ذكر أسماءهم بأسانيد مختلفة ، لا نرى الإطالة بذكرها - أن المغيرة كان يخرج من دار الإمارة وسط النهار ، فكان أبو بكر يلقاه ، فيقول له : أين يذهب الأمير ؟ فيقول له : إلى حاجة ، فيقول : حاجة ماذا ؟ إن الأمير يزور ولا يزور !

قالوا : وكانت المرأة التي يأتيها جارة لأبي بكر ، فقال : فبينما أبو بكر في غرفة له مع أخويه : نافع وزيد ورجل آخر يقال له شبل بن معبد - وكانت غرفة جارته تلك محاذية غرفة أبي بكر - فضربت الريح باب غرفة المرأة ، ففتحته ؛ فنظر القوم فإذا هم بالمغيرة ينكحها ، فقال أبو بكر : هذه بلية قد ابتليتم بها ، فانظروا ، فنظروا حتى أثبتوا ^(٤) ،

(١) الطبري : « حفزانا » .

(٢) سورة النور ١٣ .

(٣) الأغاني ١٦ : ٧٧ - ١٠٠ (طبع دار الكتب) .

(٤) أثبتوا : ثبوتوا .

فزل أبو بكره ، فجلس حتى خرج عليه المغيرة من بيت المرأة ؛ فقال له أبو بكره : إنه قد كان من أمرك ما قد علمت ، فاعتزلنا . فذهب المغيرة وجاء ليصلي بالناس الظهر ، فنعه أبو بكره وقال : لا والله لا تصلي بنا ، وقد فعلت ما فعلت ! فقال الناس : دعوه فليصل ، إنه الأمير ! واكتبوا إلى عمر ، فكتبوا إليه ، فورد كتابه أن يقدموا عليه جميعاً ؛ المغيرة والشهود . قال أبو الفرج : وقال المدائني في حديثه : فبعث عمر بأبي موسى ، وعزم عليه ألا يضع كتابه من يده حتى يرحل المغيرة .

قال أبو الفرج : وقال علي بن هاشم في حديثه : إن أبا موسى قال لعمر لما أمره أن يرحل المغيرة من وقته : أو خير من ذلك يا أمير المؤمنين ؟ نتركه فيتجهز ثلاثاً ثم يخرج . قالوا : فخرج أبو موسى حتى صلى صلاة الغداة بظاهر المربد ، وأقبل إنسان فدخل على المغيرة ، فقال : إني رأيت أبا موسى قد دخل المسجد الغداة ، وعليه برنس ؛ وهاهو في جانب المسجد ، فقال المغيرة : إنه لم يأت زائراً ولا تاجراً .

قالوا : وجاء أبو موسى ، حتى دخل على المغيرة ومعه صحيفة ملء يده ، فلما رآه قال : أمير ! فأعطاه أبو موسى الكتاب ، فلما ذهب يتحرك عن سريره قال له : مكانك ! تجهز ثلاثاً .

قال أبو الفرج : وقال آخرون : إن أبا موسى أمره أن يرحل من وقته ، فقال المغيرة : قد علمت ما وجهت له ، فألا تقدمت وصليت ! فقال : ما أنا وأنت في هذا الأمر إلا سواء ، فقال المغيرة : إني أحب أن أقيم ثلاثاً لأتجهز ، فقال أبو موسى : قد عزم علي أمير المؤمنين ألا أضع عهدي من يدي ، إذا قرأته حتى أرحلك إليه . قال : إن شئت شقعتني ، وأبررت قسم أمير المؤمنين بأن تؤجلني إلى الظهر ، وتمسك الكتاب في يدك .

قالوا : فلقد رنى أبو موسى مقبلاً ومدبراً ، وإن الكتاب في يده معلق بخيط ، فتجهز المغيرة ، وبعث إلى أبي موسى بعقيلة ؛ جارية عربية من سبي اليمامة ، من

بنى حنيفة ، ويقال : إنها مولدة الطائف ، ومعها خادم ، وسار المغيرة حين صلى الظهر ، حتى قدم على عمر .

قال أبو الفرج : فقال محمد بن عبد الله بن حزم في حديثه : إنَّ عمر قال له لما قدم عليه : لقد شهد عليك بأمر ، إن كان حقاً لأن تكون متَّ قبل ذلك كان خيراً لك ! قال أبو الفرج : قال أبو زيد عمر بن شبة : فجلس له عمر ، ودعاه وبالشهود ، فتقدم أبو بكره ؛ فقال : أرايته بين فخذيهما ؟ قال : نعم والله ؛ لكأنني أنظر إلى تشريم جذريّ بفخذهما ، قال المغيرة : لقد ألطفت النظر . قال أبو بكره : لم آل أن أثبت ما يخرقك الله به ! فقال عمر : لا والله حتى تشهد : لقد رأيتَه يلجُ فيها كايلاج المِرود في المكحلة ؛ قال : نعم أشهد على ذلك ، فقال عمر : اذهب عنك مغيرة ، ذهب رُبمك .

قال أبو الفرج : ويقال إن علياً عليه السلام هو قائل هذا القول . ثم دعانا فقال : علام تشهد ؟ قال : على مثل شهادة أبي بكره ، فقال عمر : لا حتى تشهد أنك رأيتَه يلجُ فيها ولوج المِرود في المكحلة ، قال : نعم ، حتى بلغ قُدْذَه ^(١) فقال : اذهب عنك مغيرة ، ذهب نصفك ، ثم دعا الثالث وهو شبيل بن معبد ، فقال : علام تشهد ؟ قال : على مثل شهادة صاحبي ، فقال : اذهب عنك مغيرة ، ذهب ثلاثة أرباعك . قال : فجعل المغيرة يبكي إلى المهاجرين ، وبكى إلى أمّها المؤمنين حتى بكين معه ، قال : ولم يكن زيادٌ حضر ذلك المجلس ، فأمر عمر أن ينحى الشهود الثلاثة ، وألا يجالسهم أحدٌ من أهل المدينة ، وانتظر قدوم زياد ، فلما قدم جلس في المسجد ، واجتمع رموس المهاجرين والأنصار . قال المغيرة : وكنت قد أعددت كلمة أقولها ، فلما رأى عمر زياداً مقبلاً ، قال : إنّي لأرى رجلاً لن يخزي الله على لسانه رجلاً من المهاجرين .

(١) قُدْذَه : جمع قَذَة ؛ وهي جانب الخباء .

قال أبو الفرج : وفي حديث أبي زيد بن عمر بن شبة ؛ عن السري ، عن عبد الكريم ابن رشيد ، عن أبي عثمان التَّهْدِي ، أنه لما شهد الشاهد الأول عند عمر ؛ تغير الثالث لذلك لونُ عمر ، ثم جاء الثاني فشهد ، فانتكسر لذلك انكساراً شديداً ، ثم جاء فشهد ، فكان الرَّمَادُ نُثْرَ على وجه عمر ، فلما جاء زياد ، جاء شابٌ يخطر بباله ، فرقع عمر رأسه إليه وقال : ما عندك أنت يا سلج العقاب . وصاح أبو عثمان التَّهْدِي : صيحة تحكي صيحة عمر . قال عبد الكريم بن رشيد : لقد كنتُ أنْ يُعْشَى عليَّ لصيحته .

قال أبو الفرج : فكان المغيرة يحدث ، قال : فقامتُ إلى زياد ، فقلت : لا غباراً لمطيرٍ بعد عروسِ يازياد ، أذكرك الله وأذكرك موقفَ القيامة وكتابه ورسوله ، أن تتجاوز إلى ما لم ترَ !! ثم صحت : يا أمير المؤمنين إنَّ هؤلاء قد احتقروا دمي فإلله الله في دمي أقال : فترنَّقت عينا زياد واحمرَّ وجهه ، وقال : يا أمير المؤمنين ، أما إنَّ أحقَّ ما حقَّ القوم ، فليس عندي ، ولكني رأيت مجلساً قبيحاً ، وسمعت نساء حثيثاً ، وانتهاراً ، ورأيت متبطنها ، فقال عمر : أرايته يدخل ويخرج كالليل في المكحلة ؟ قال : لا !

قال أبو الفرج : وروى كثير من الرواة أنه قال : رأيت رافعاً برجليها ، ورأيت خُصيتيه متردتين بين فخذيها ، وسمعت حفراً شديداً ، وسمعت نفساً عالياً ، فقال عمر : أرايته يدخله ويخرجه كالليل في المكحلة ؟ قال : لا ، فقال عمر : الله أكبر ! قم يا مغيرة ، إليهم فاضربهم ، فجاء المغيرة إلى أبي بكر فضربه ثمانين وضرب الباقي .

وروى قومٌ أن الضارب لهم الحد لم يكن المغيرة ، وأعجب عمر قول زياد ، ودرا الحد عن المغيرة ، فقال أبو بكر بعد أن ضرب : أشهد أن المغيرة فعل كذا وكذا ! فهم عمر بضربه ، فقال له علي عليه السلام : إن ضربته رجعت صاحبك ! ونهاه عن ذلك .

قال أبو الفرج : يعنى إن ضربه تصير شهادته شهادتين ، فيوجب بذلك الرجم على المغيرة .

قال : فاستتاب عمر أبا بكر ، فقال : إنما تستنيني لتقبل شهادتي ، قال : أجل قال : فإني لأشهد بين اثنين ما بقيت في الدنيا ! قال : فلما ضربوا الحد قال المغيرة : الله أكبر ، الحمد لله الذي أخزاكم ! فقال عمر : اسكت أخرى الله مكانا رأوك فيه !

قال : وأقام أبو بكر على قوله ، وكان يقول : والله ما أنسى قط فخذيتها ، وتاب الاثنان ، فقبل شهادتهما ، وكان أبو بكر بعد ذلك إذا طُلب إلى شهادة قال : اطلبوا غيري ، فإن زياداً أفسد على شهادتي .

وقال أبو الفرج : وروى إبراهيم بن سعيد ، عن أبيه ، عن جده ، قال : لما ضرب أبو بكر أمه بشاة فذبحت وجعل جلدّها على ظهره ، قال إبراهيم : فكان أبي يقول : ماذا إلا من ضرب شديد .

قال أبو الفرج : فحدثنا الجوهري ، عن عمير بن شبة ، عن علي بن محمد عن يحيى بن زكريا ، عن مجالد ، عن الشعبي ، قال : كانت الرقطاء التي رُمي بها المغيرة تختلف إليه في أيام إمارته الكوفة ، في خلافة معاوية في حوائجها ، فيقضيها لها .

قال أبو الفرج : وحجّ عمر بعد ذلك مرّة ، فوافق الرقطاء بالموسم ، فرآها ، وكان المغيرة يومئذ هناك ، فقال عمر للمغيرة : ويحك ! أتتجاهل عليّ ! والله ما أظنّ أبا بكر كاذب عليك ، وما رأيتك إلا خفت أن أرمى بحجارة من السماء !

قال : وكان عليّ عليه السلام بعد ذلك يقول : إن ظفرت بالمغيرة لأتبعته الحجارة .

قال أبو الفرج : فقال حسّان بن ثابت يهجو المغيرة ويذكر هذه القصة :

لو أنّ اللّوم ينسبُ كان عبداً قبيحَ الوجه أعورَ من ثقيفِ

تركت الدين والإسلام لما بدت لك غُدوة ذات النَّصِيفِ
وراجعت الصُّبا وذكرت لهواً^(١) مع القَيْنات في العُمُرِ اللطيف

قال أبو الفرج : وروى المدائني أنَّ المغيرة لما شخص إلى عمر في هذه الواقعة ، رأى في طريقه جاريةً فأعجبته ، فخطبها إلى أبيها ، فقال له : وأنت على هذه الحال ! قال : وما عليك ! إن أبقَ^(٢) فهو الذي تريد ، وإن أقتلَ ترثني . فزوجته .

وقال أبو الفرج : قال الواقدي : كانت امرأة من بني مُرَّة ، تزوجها بالرقم^(٣) ، فلما قدم بها على عُمر ، قال : إنك لفارغ القلب ، طويل السَّبق .

فهذه الأخبار كما تراها تدلُّ متأملها على أنَّ الرجل زَنَى بالمرأة لامحالة ، وكلَّ كتب التواريخ والسِّير تشهد بذلك ، وإنما اقتصرنا نحنُ منها على ما في هذين الكتابين . وقد روى المدائني أنَّ المغيرة كان أزنَى الناس في الجاهليَّة ، فلما دخل في الإسلام قيَّده الإسلام ، وبقيت عنده منه بقية ظهرت في أيام ولايته البصرة .

وروى أبو الفرج في كتاب الأغاني عن الجاحظ أبي عثمان عمرو بن بحر ، قال : كان المغيرة بن شعبة والأشعث بن قيس وجرير بن عبد الله البجليّ يوماً متواقفين بالكُناسة في نفر ، وطلع عليهم أعرابيٌّ ، فقال لهم المغيرة : دعوني أحرِّكه ، قالوا : لا تفعل ، فإنَّ للأعراب جواباً يؤثّر ، قال : لا بدّ ، قالوا : فأنت أعلم ، فقال له : يا أعرابيٌّ ، أتعرف المغيرة ابن شعبة ؟ قال : نعم أعرفه ، أعرورَ زانيا ، فوجمَ ثمَّ تجلَّد ، فقال : أتعرف الأشعث بن قيس ؟ قال : نعم ذاك رجل لا يعرف قومه ، قال : وكيف ذاك ؟ قال : لأنهم حاكّة . قال : فهل تعرف جرير بن عبد الله ؟ قال : كيف لا أعرف رجلاً لولاه ما عرفت عشيرته ! فقالوا : قبّحك الله ، فإنك شرّ جليس ، هل تحبُّ أن يُوقرَ لك بعيرك هذا ما لا وتموت .

(٢) الأغاني : « أعف » .

(١) الأغاني : « عهد » .

(٣) الزم : موضع بالحجاز قريب من وادي القرى .

كرم العرب مودة ؟ قال : فمن يبلغه إذ ذاك أهلى ؟ فانصرفوا عنه فتركوه ^(١) .

قال أبو الفرج : وروى علي بن سليمان الأخفش ، قال : خرج المغيرة بن شعبة وهو يومئذ على الكوفة ، ومعه الهيثم بن التيهان النخعي غيب مطر يسير ، في ظهر الكوفة والنخيف ، فلقى ابن لسان الجمره ، أحد بنى تيم الله بن ثعلبة ، وهو لا يعرف المغيرة ولا يعرفه المغيرة ، فقال له : من أين أقبلت يا أعرابي ؟ قال : من السماوة ؟ قال : كيف تركت الأرض خلفك ؟ قال : عريضة أريضة ^(٢) ، قال : فكيف كان المطر ؟ قال : عني الأثر ، وملاً الحفر ، قال : فمن أنت ؟ قال : من بكر بن وائل ، قال : كيف علمك بهم ؟ قال : إن جهلهم لم أعرف غيرهم ، قال : فما تقول في بني شيان ؟ قال : سادتنا وسادة غيرنا ، قال : فما تقول في بني ذهل ؟ قال : سادة نوّكى ، قال : فقيس بن ثعلبة ؟ قال : إن جاورتهم سرقوك ، وإن أئتمتهم خانوك ، قال : فبنو تيم الله بن ثعلبة ؟ قال : رعاء النقد ^(٣) وعراقيب الكلاب ، قال فبنى يشكر ؟ قال : صريح تحسبه مولى .

قال هشام بن الكلبي : لأن في ألوانهم حمة . قال : فعجل ؟ قال : أحلاس ^(٤) الخيل ، قال : فعبد ^(٥) القيس ؟ قال : يطعمون الطعام ويضربون الهام ، قال : فعنزة ؟ قال : لانتلتي بهم الشفتان لثوما ، قال : فضبيعة أضجيم ؟ قال : جدعاً وعقراً ^(٦) ، قال : فأخبرني عن النساء ، قال : النساء أربع : ربيع مربع ، وجميع مجمع ، وشيطان سمّمع ، وغلى لايمخلم ، قال قسّر ، قال : أما الربيع المربع ، فآلتى إذا نظرت إليها سرتك ، وإذا أقسمت عليها برتك ، وأما التي هي جميع مجمع ، فالمرأة تزوجها ولها نسب فيجتمع نسبها إلى نسبك ، وأما الشيطان السمّمع فالكلحة في وجهك إذا دخلت ، المولولة في أثرك

(٢) : الأريضة : المشية ..

(٤) الأغاني ١٦ : ٨٩ .

(٣) : النقد : صغار النعم ، وفي الأغاني : « البقر » ..

(٤) : أحلاس الخيل : شجطان يفرسان ملازمون لركوب الخيل .

(٥) : الأغاني : « لحيفة » . (٦) : دعا عليهم بالجدع والعقر ؛ يريد أصابهم الاستئصال .

إذا خرجت ، وأما الغلّ الذي لا يُخلع ؛ فبنت عمك السوداء القصيرة ، الفوهاء الدميّة ،
التي قد نثرت لك بطنها ، إن طلقته ضاع ولدك ، وإن أمسكتها فعلى جدّك أنفك. قال^(١)
المغيرة : بل أنفك . قال : فما تقول في أميرك المغيرة بن شعبة ؟ قال : أعور زانٍ ، فقال
الهيثم بن الأسود : فضّ الله فاك ! وبلك إنه الأمير المغيرة ! قال : إنها كلمة يقال . فانطلق
به المغيرة إلى منزله ، وعنده يومئذ أربع نسوة وستون - أو سبعون - أمة ، وقال : ويحك !
هل يزني الحرّ وعنده مثل هؤلاء ! ثم قال لهنّ : ارمين إليّ بجليكن^(٢) ، ففعلن ؛ فخرج
بملء كسائه ذهباً وفضة^(٣) .

وإنما أوردنا هذين الخبرين ليعلم السامع أن الخبر بزناه كان شائعاً مشهوراً مستفيضاً
بين الناس ، ولأنهما يتضمّنان أدبا ، وكتابنا هذا موضوع للأدب .

وإنما قلنا : إن عمر لم يخطئ في دَرء الحدّ عنه ، لأن الإمام يستحبُّ له ذلك ، وإن
غلب على ظنّه أنه قد وجب الحدّ عليه ، روى المدائني أن أمير المؤمنين علياً عليه السلام
أتى برجلٍ قد وجب عليه الحدّ ، فقال : أهاهنا شهود ؟ قالوا : نعم ، قال : فاتوني بهم
إذا أمسيتم ، ولا تأتونني إلّا معتمين ، فلما أعتموا جاءوه ، فقال لهم : نشدت الله رجلاً
مالي عنده مثل هذا الحدّ إلّا انصرف ! قال : فما بقيّ منهم أحدٌ . فدرأ عنه الحدّ
ذكر هذا الخبر أبو حيان في كتاب " البصائر " ، في الجزء السادس منه .

والخبر المشهور الذي كاد يكون متواتراً أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال :
« ادرعوا الحدود بالشبهات » . ومن تأمل المسائل الفقهية في باب الحدود ، علم أنها بنيت
على الإسقاط عند أدنى سببٍ وأضعفه ، ألا ترى أنه لو أقرّ بالزنا ثم رجع عن إقراره قبل
إقامة الحدّ ، أو في وسطه قبيل رجوعه وخطئ سبيله !

(١) الأغاني : « فقال » . (٢) الأغاني : « بجلاكن » . (٣) الأغاني ١٦ : ٩٠ ، ٩١ .
(١٦ - ١٢ - هج)

وقال أبو حنيفة وأصحابه : يستحب للإمام أن يلقي المقرّ الرجوع ، ويقول له : تأمل ما تقول ، لعلك مسستها ، أو قبلتها . ويجب على الإمام أن يسأل الشهود : ما الزنا؟ وكيف هو؟ وأين زني؟ وبين زني؟ ومتى زني؟ وهل رأوه وطئها في فرجها كالميل في الكحلة؟ فإذا ثبت كل ذلك سأل عنهم ، فلا يقيم الحدّ حتى يعدلهم القاضي في السرّ والعلانية ، ولا يقيم الحدّ بإقرار الإنسان على نفسه ، حتى يقرّ أربع مرات في أربعة مجالس ، كلما أقرّ رده القاضي ، وإذا تمّ إقراره سأله القاضي عن الزنا؟ ماهو؟ وكيف هو؟ وأين زني؟ وبين زني؟ ومتى زني؟

قال الفقهاء : ويجب أن يبتدئ الشهود برجعه إذا تكملت الشهادة ، فإن امتنعوا من الابتداء برجعه سقط الحدّ .

قالوا : ولا حدّ على من وطئ جارية ولده ، أو ولد ولده ، وإن قال : علمت أنها حلال حرام ، وإن وطئ جارية أبيه أو أمه أو أخته ، وقال : ظننت أنها تحلّ لي فلا حدّ عليه ، ومن أقرّ أربع مرات في مجالس مختلفة بالزنا بفلانة ، فقالت هي : بل تزوّجني ، فلا حدّ عليه ، وكذلك إن أقرت المرأة بأنّه زني بها فلان ، فقال الرجل : بل تزوّجتها ، فلا حدّ عليها ، قالوا : وإذا شهد الشهود بحدّ متقدم من الزنا لم يمنعهم عن إقامة بعدهم عن الإمام ، لم تقبل شهادتهم إذا كان حدّ الزنا ، وإن شهدوا أنه زني بامرأة ولا يعرفونها لم يحدّ ؛ وإن شهد اثنان أنه زني بامرأة بالكوفة ، وآخران أنه زني بالبصرة درى الحدّ عنهما جميعاً ، وإن شهد أربعة على رجل أنه زني بامرأة بالثخيلة عند طلوع الشمس من يوم كذا وكذا ، وأربعة شهدوا بهذه المرأة عند طلوع الشمس ذلك اليوم بدير هند درى الحدّ عنه وعنهما وعنهم جميعاً ، وإن شهد أربعة على شهادة أربعة بالزنا لم يحدّ المشهود عليه .

وهذه المسائل كلها مذهب أبي حنيفة ، ويوافقه الشافعي في كثير منها ، ومن تأملها علم أن مبنى الحدود على الإسقاط بالشبهات ، وإن ضعفت .

فإن قلت : بكل هذا لا يلزم المرتضى ، لأن مذهبه في فروع الفقه مخالف لمذهب الفقهاء . قلت : ذكر محمد بن النعمان - وهو شيخ المرتضى ، الذي قرأ عليه فقه الإمامية - في كتاب "المقنعة" ، أن الشهود الأربعة إن تفرقوا في الشهادة بالزنا ولم يأتوا بها مجتمعين في وقت في مكان واحد ، سقط الحد عن المشهود عليه ، ووجب عليهم حد القذف .

قال : وإذا أقر الإنسان على نفسه بالزنا أربع مرات على اختيار منه للإقرار ووجب عليه الحد ، وإن أقر مرة أو مرتين أو ثلاثا لم يجب عليه الحد بهذا الإقرار ، ولالإمام أن يؤدبه بإقراره على نفسه حسب ما يراه ، فإن كان أقر على امرأة بعينها جلد حد القذف .

قال : وإن جعل في الحفرة ليرجم وهو مقر على نفسه بالزنا ففر منها ، ترك ولم يرد ، لأن فراره رجوع عن الإقرار ، وهو أعلم بنفسه .

قال : ولا يجب الرجم على الحصن الذي يعدّه الفقهاء حصناً ، وهو من وطئ امرأة في نكاح صحيح ، وإنما الإحصان عندنا من له زوجة أو ملك يمين يستغني به عن غيرها ، ويتمكن من وطئها ، فإن كانت مريضة لا يصل إليها بنكاح ، أو صغيرة لا يوطأ مثلها ، أو غائبة عنه أو محبوسة لم يكن حصناً بها ، ولا يجب عليه الرجم .

قال : ونكاح المتعة لا يحصن عندنا ، وإذا كان هذا مذهب الإمامية ؛ فقد اتفق قولهم وأقوال الفقهاء في سقوط الرجم بأدنى سبب ، والذي رواه أبو الفرج الأصفهاني : إن زيادا لم يحضر في المجلس الأول ، وأنه حضر في مجلس ثانٍ ، فلعل إسقاط الحد كان لهذا .

ثم نعود إلى تصحّح ما اعترض به المرتضى كلام قاضي القضاة .

أما قوله : كان الحدّ في حكم الثابت ، فإن الله تعالى لم يوجب الحدّ إلا إذا كان ثابتاً ، ولم يوجب إذا كان في حكم الثابت ، ويسأل عن معنى قوله : « في حكم الثابت » : هل المراد بذلك أنه قريب من الثبوت ، وإن لم يثبت حقيقة ، أم المراد أنه قد ثبت وتحقق ؟ فإن أراد الثاني ، قيل له : لا نُسلم أنه ثبت ، لأن الشهادة لم تتم ، وقد اعترف المرتضى بذلك ، وأقرّ بأن الشهادة لم تكمل ، ولكنه نسب ذلك إلى تلقين عمر ، وإن أراد الأوّل قيل له : ليس يكفي في وجوب الحدّ أن يكون قريباً إلى الثبوت ؛ لأنه لو كفي ذلك لحدّ الإنسان بشهادة ثلاثة من الشهود .

وأما قوله : إن عمر لقّنه وكره أن يشهد ، فلا ريب أن الأمر وقع كذلك ، وقد قلنا : إن هذا جائز بل مندوب إليه ، وروينا عن أمير المؤمنين مارويناه ، وذكرنا قول الفقهاء في ذلك وأنهم استحبوا أن يقول القاضي المقرّ بالزنا : تأمل ما تقول ، لعالك مستسها أوقبلتها !

فأما قول المرتضى : إنه درأ الحدّ عن واحد ، وكان درؤه عن ثلاثة أولى ؛ فقد أجاب قاضي القضاة عنه بأنّه ما كان يمكن دفعه عنهم .

فأما قول المرتضى : بل قد كان يمكن دفعه عنهم ، بالّا يلقن الرابع الامتناع من الشهادة ، فقد أجاب قاضي القضاة عنه : بأنّ الزنا ووسم الإنسان به أعظم وأشنع وأفحش من أن يوسم بالكذب والافتراء ، وعقوبة الزاني أعظم من عقوبة الكاذب القاذف عند الله تعالى في دار التّكليف ، يبيّن ذلك أن الله تعالى أوجب جلد ثلاثة من المسلمين ، لتخليص واحد شهد الثلاثة عليه بالزنا ، فلو لم يكن هذا المعنى ملحوظاً في نظر الشارع لما أوجبه ، فكيف يقول المرتضى : ليس لأحد الأمرين إلّا ما في الآخر !

وأما خبر السارق الذي رواه قاضي القضاة ، وقول المرتضى في الاعتراض عليه : ليس في دفع الحدّ عن السارق إيقاع غيره في المكروه ، وقصة المغيرة تخالف هذا ، فليس بجيد

لأنّ في دفع الحدّ عن السارق إضاعة مال المسلم الذي سرق السارق في زمانه . وفيه أيضاً إغراء أهل الفساد بالسّرقه ؛ لأنّهم إذا لم يتم الحدّ عليهم لمكان الجحود أقدموا على سرقة الأموال ، فلو لم يكن عناية الشارع بالدماء أكثر من عنايته بغيره من الأموال والأبشار لما قال المكلف : لا تقرّ بالسرقه ولا بالزنا ، ولما رجّح واحداً على ثلاثة ، وهان في نظره أن تضرب أبشارهم بالسياط ، وهم ثلاثة حفظا لدم واحد .

وأما حديث صفوان وقول المرتضى فلا يشبه كلّ ما نحن فيه ، لأنّ الرسول صلى الله عليه وآله يبيّن أن ذلك القول يسقط الحدّ لو تقدم ، وليس فيه تلقين يوجب إسقاط الحدّ . فجوابه أنّ قاضي القضاة لم يقصد بإيراد هذا الخبر إلّا تشييد قول عمر : أرى وجه رجل لا يفضح الله به رجلاً من المسلمين ؛ لأنّ عمر كره فضيحة المغيرة ، كما كره رسول الله صلى الله عليه وآله فضيحة السارق الذي قال صفوان : « هو له » ، وقال عليه السلام : « هلا قبل أن تأتيني به ! » أي هلا قلت ذلك قبل أن تحضره ، فلم يفتضح بين الناس ! فإنّ قولك : « هو له » ، وإن درأ الحدّ إلّا أنّه لا يدرا الفضيحة !

فأما ما حكاه قاضي القضاة عن أبي عليّ ، من أن القذف قد كان تقدّم منهم وهم بالبصرة ، فقد ذكرنا في الخبر ما يدلّ على ذلك ، فبطل قول المرتضى : إن ذلك غير معروف ، وإنّ الظاهر المرويّ خلافه .

وأما قول عمر المغيرة : ما رأيتك إلّا خفت أن يرميني الله بحجارة من السماء ؛ فالظاهر أنّ مراده ما ذكره قاضي القضاة من التخويف وإظهار قوة الظنّ بصدق الشهود ، ليكون ردعاً له ؛ ولذلك ورد في الخبر : ما ظنّ أبا بكره كذب عليك ، تقديره : أظنه لم يكذب ، ولو كان كما قال المرتضى ندماً وتأسفاً على تفريط^(١) وقع ، لأقام الحدّ عليه ، ولو بعد حين ؛ ومن الذي كان يمنعه من ذلك لو أراه !

(١) ساقطة من : ب .

وقوله : لم يخاف أن يرمى بالحجارة وهو لم يدرأ الحدّ عن مستحق له ؟ جوابه أن هذا القول يجري مجرى التهويل والتخويف المغيرة ، كيلا يقدم على أن يعرض نفسه لشبهة فيما بعد .

فأما قول قاضي القضاة : إنه غير ممتنع أن يحبّ ألا يفتضح لما كان متولياً للبصرة من قبله ، وقول المرتضى معترضا عليه : إن كونه والياً من قبله لا يقتضى أن يدرأ عنه الحدّ ، فغير لازم ، لأنّ قاضي القضاة ما جعل كونه والياً من قبله مقتضياً أن يدرأ عنه الحدّ ؛ وإنما قاله في جواب مَنْ أنكر على عمر محبته لدرء الحدّ عنه ، فقال : إنه غير قبيح ، ولا يحرم محبة درء الحدّ عنه لأنه والٍ من قبله ! فجعل الولاية للبصرة مسوّغة لمحبة عمر لدفع الحدّ عنه ، لا مسوّغة لدفع الحدّ عنه ، وبين الأمرين فرق واضح .

وأما قول المرتضى : إنّ الشرع حَظَرَ كتمان الشهادة ؛ فصحيح فيما عدا الحدود ، فأما في الحدود فلا ، وقد وَرَدَ في الخبر الصحيح : « مَنْ رَأَى عَلَى أَخِيهِ شَيْئاً مِنْ هَذِهِ الْقَاذُورَاتِ وَسْتَرَهُ ، سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ يَفْتَضَحُ الْجُرْمُونَ » .

فأما قول المرتضى : هب أن الحدّ سقط ، أما اقتضت الحال تأديب المغيرة بنوع من أنواع التعزير وإن خفت ! فكلام لازم لأجواب عنه ، ولو فعله عمر أبرئ من التهمة براءة الذئب من دم يوسف ، وما أدرى كيف فاته ذلك مع تشدّده في الدين وصلابته في السياسة ! ولعله كان له مانع عن اعتماد ذلك لانهله !

الطعن السابع

أنه كان يتلون في الأحكام ، حتى روى أنّه قضى في الجدلّ بسبعين قضية - وروى

مائة قضیّة - وأنّه كان یفّضل فی القسمة والعطاء وقد سوى الله تعالى بین الجميع ، وأنّه قال فی الأحكام من جهة الرأى والحدس^(١) والظنّ .

أجاب قاضی القضاة عن ذلك ، فقال : مسائل الاجتهاد يسوغ فیها الاختلاف والرجوع عن رأى إلى رأى ، بحسب الأمارات وغالب الظنّ ، وقد ذكر أنّ ذلك طريقة أمير المؤمنین علیه السلام فی أمّهات الأولاد ، ومقاسمة الجدّ مع الإخوة ، ومسألة الحرام . قال : وإنما الكلام فی أصل القیاس والاجتهاد ، فإذا ثبت ذلك خرج من أن یكون طعناً ، وقد ثبت أنّ أمير المؤمنین علیه السلام كان یولی من یرى خلاف^(٢) رأیه ، كآبن عباس وشُريح ، ولا یمنع زیدا وابن مسعود من الفتیاء مع الاختلاف بینهم .

فأما ما روى من السبعین قضیّة ، فالمراد به فی مسائل من الجدّ ، لأنّ مسألة واحدة لا یوجد فیها سبعون قضیّة مختلفة ؛ وليس فی ذلك عیب ، بل يدلّ علی سعة علمه .

وقال : قد صحّ فی زمانِ الرسول صلی الله علیه وآله مثلُ ذلك ، لأنّه لما شاور فی أمر الأسرى أبا بكر أشار ألا یقتلهم ، وأشار عمر بقتلهم ، فدحهما جميعاً ، فما الذى یمنع من كون القولین صواباً من المجتهدین ، ومن الواحد فی حالین ؟ وبعد ، فقد ثبت أنّ اجتهاد الحسن علیه السلام فی طلب الإمامة كان بخلاف اجتهاد الحسين علیه السلام ، لأنّه سلّم الأمر وتمكّنه أكثر من تمكّن الحسين علیه السلام ، ولم یمنع ذلك من كونهما علیهما السلام مُصیین .

(١) فی الأصول : « الحدّ » ، والصواب ما أثبتته من الشافى .

(٢) الشافى : « وادعى أن ذلك طريقة أمير المؤمنین » .

(٣) الشافى : « خلافه » .

اعترض المرتضى هذا الجواب ، فقال^(١) : لا شك أن التلون في الأحكام والرجوع من قضاء إلى قضاء ، إنما يكون عيباً وطعنا إذا أبطل الاجتهاد الذي يذهبون إليه فأما لو ثبت لم يكن ذلك عيباً ، فأما الدعوى على أمير المؤمنين عليه السلام أنه تنقل في الأحكام ورجع من مذهب إلى آخر ، فإنها غير صحيحة ، ولا نسلمه ،^(٢) ونحن ننازعه فيها^(٣) ، وهو لا ينازعنا في تلون صاحبه وتنقله ؛ فلم يشبهه الأمران .

وأظهر ما روى في ذلك خبر أمهات الأولاد ، وقد بينا فيما سلف من الكتاب ما فيه ، وقلنا : إن مذهبه في بيعه كان واحداً غير مختلف ، وإن كان قد وافق عمر في بعض الأحوال لضرب من الرأي ، فأما توليته لمن يرى خلاف رأيه ، فليس ذلك لتسويغه الاجتهاد الذي يذهبون إليه ، بل لما بيناه من قبل ؛ أنه عليه السلام كان غير متمكن من اختياره ، وأنه يجرى أكثر الأمور مجراها المتقدم للسياسة والتدبير ، وهذا السبب في أنه لم يمنع من خالفه في الفتيا .

فأما قوله : إن السبعين قضية لم تكن في مسألة واحدة ، وإنما كانت في مسائل من الجدل ؛ فكلا الأمرين واحد فيما قصدناه ، لأن حكم الله تعالى لا يختلف في المسألة الواحدة والمسائل ، فأما أمر الأسارى فإن صح فإنه لا يشبه أحكام الدين المبنية على العلم واليقين ، لأنه لا سبيل لأبي بكر وعمر إلى المشورة في أمر الأسارى إلا من طريق الظن والحسبان ، وأحكام الدين معلومة وإلى العلم بها سبيل .

وما ادّعاء من اجتهد الحسن بخلاف اجتهاد الحسين ليس على ما ظننه ، لأن ذلك لم يكن عن اجتهاد وظن ، بل كان عن علم ويقين ، فمن أين له أنهما عملا على الظن ! فإذ نراه اعتمد على حجة ! ومن أين له أن تمكن الحسن كان أكثر من تمكن الحسين !

(١) الشافى : « يقال له » . (٢-٣) الشافى : « ونحن ننازعه في ذلك كل النزاع ، ونذهب إلى دفعه أشد الدفع ؛ وهو لا ينازعنا في تلون صاحبه في الأحكام ، فلم يشبهه الأمران » .

عَلَى أَنْ هَذَا لَوْ كَانَ عَلَى مَا قَالَهُ لَمْ يَحْسَنَ مِنْ هَذَا التَّسْلِيمِ بِمَنْ ذَاكَ الْقِتَالِ ، لِأَنَّ الْمُقَاتِلَ قَدْ يَكُونُ مَقْرَّرًا مُتَقِيًا بِيَدَيْهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ ، وَالْمُسَالِمُ مُضِيْعًا لِلْأَمْرِ مَقْرَّرًا ، وَإِذَا كَانَ عِنْدَ صَاحِبِ الْكِتَابِ التَّسْلِيمِ وَالْقِتَالِ إِنَّمَا كَانَ عَنْ ظَنٍّ وَأَمَارَاتٍ فَلَيْسَ يَجُوزُ أَنْ يَغْلِبَ عَلَى الظَّنِّ بَأَنَّ الرَّأْيَ فِي الْقِتَالِ مَعَ ارْتِفَاعِ أَمَارَاتِ التَّمَكُّنِ ، وَلَا أَنْ يَغْلِبَ فِي الظَّنِّ الْمُسَالِمَةُ مَعَ قُوَّةِ أَمَارَاتِ التَّمَكُّنِ ^(١) .

قلت : أَمَّا الْقَوْلُ فِي حُجَّةِ الْجَهْدِ وَبَطَالَتِهِ ، فَهَلْ مَوَاضِعٌ غَيْرُ هَذَا الْمَوْضِعِ ، وَكَذَلِكَ الْقَوْلُ فِي تَقْيِينَةِ الْإِيمَانِ ، وَاسْتِصْلَاحِهِ وَفَعْلُهُ مَا لَا يَسُوغُ لَضَرْبٍ مِنَ السِّيَاسَةِ وَالتَّدْبِيرِ .
وَأَمَّا مَسَائِلُ الْجَدِّ فَلَمْ يَعْتَرِضْ الْمُرْتَضَى قَوْلَ قَاضِي الْقَضَاةِ فِيهَا ، وَأَمَّا قَاضِي الْقَضَاةِ فَقَدْ اسْتَبْعَدَ ، بَلْ أَحَالَ أَنْ تَتَكُونُ مَسْأَلَةٌ وَاحِدَةٌ بَعِيْنَهَا تَحْتَمِلُ سَبْعِينَ حُكْمًا مُخْتَلِفَةً ، فَحَمَلَ الْحَدِيثَ عَلَى أَنَّ عُمَرَ أَفْتَى فِي بَابِ مِيرَاثِ الْأَجْدَادِ وَالْجَدَّاتِ بِسَبْعِينَ فَتْيَا فِي سَبْعِينَ مَسْأَلَةً مُخْتَلِفَةً الصُّوْرَ ، وَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى عِلْمِهِ وَفَقْهِهِ ، وَتَمَكُّنِهِ مِنَ الْبَحْثِ فِي تَفَارِيْعِ الْمَسَائِلِ الشَّرْعِيَّةِ .
هَذَا هُوَ جَوَابُ قَاضِي الْقَضَاةِ ، فَكَيْفَ يَعْتَرِضُ بِقَوْلِهِ : كَلَّا الْأُمُيْنِ وَاحِدٌ فِيمَا قَصَدْنَاهُ ؛ لِأَنَّ حُكْمَ اللَّهِ لَا يَخْتَلِفُ فِي الْمَسْأَلَةِ الْوَاحِدَةِ وَالْمَسَائِلِ الْمُتَعَدِّدَةِ ؛ أَلَيْسَ هَذَا اعْتِرَاضٌ بِمَنْ ظَنَّ أَنَّ قَاضِي الْقَضَاةِ قَدْ اعْتَرَضَ بِتَنَاقُصِ أَحْكَامِهِ ، وَلَكِنْ لَا فِي مَسْأَلَةٍ بَعِيْنَهَا ، بَلْ فِي مَسَائِلَ مِنْ بَابِ مِيرَاثِ الْجَدِّ ! وَلَمْ يَقْصِدْ قَاضِي الْقَضَاةِ مَخَاطَنَهُ ، وَالْوَجْهَ أَنْ يَعْتَرِضَ قَاضِي الْقَضَاةَ فَيَقَالَ : إِنَّ الرِّوَايَةَ كَلَّمَهُمْ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ عُمَرَ تَلَوْنَ تَلَوْنَا شَدِيدًا فِي الْجَدِّ مَعَ الْإِخْوَةِ كَيْفَ يَقَاسِمُهُمْ ؟ وَهِيَ مَسْأَلَةٌ وَاحِدَةٌ ، فَقَضَى فِيهَا بِسَبْعِينَ قَضِيَّةً ، فَأَخْرَجُوا الرِّوَايَةَ مَخْرَجَ التَّعَجُّبِ مِنْ تَنَاقُصِ فَتَاوِيهِ ، وَلَمْ يَخْرُجْ أَحَدٌ مِنَ الْحَدَّثِينَ الرِّوَايَةَ مَخْرَجَ الْمَدْحِ بِلِسَانِهِ بَسْعَةَ تَفْرِيمِهِ فِي الْفَقْهِ وَالْمَسَائِلِ ، فَلَا يَجُوزُ صَرْفُ الرِّوَايَةِ عَنِ الْمَوْضِعِ الَّذِي وَرَدَتْ عَلَيْهِ .

وقول قاضي القضاة : كيف تحمل مسألة واحدة سبعين وجها ! جوابه أنه لم يقع الأمر بموجب ماتوهمه ، بل المراد أن قوماً تحاكموا إليه في هذه المسألة مثلاً اليوم ، فأفتى فيها بفتياً ، نحو أن يقول في جدّ وبنت وأخت : للبنت النصف والباقي بين الجدّ والأخت ؛ للذكر مثل حظ الأنثيين ، وهو قول زيد بن ثابت ، ثم يتحاكم إليه بعد أيام في هذه المسألة بعينها ، قد وقعت لقوم آخرين ، فيقول : للبنت النصف وللجدّ السدس ، والباقي للأخت ، وهو المذهب المحكيّ عن عليّ عليه السلام ، وذلك بأن يتغلب على ظنه ترجيحُ هذه الفتيا على ما كان أفتى به من قبل ، ثم تقع هذه المسألة بعينها بعد شهر آخر ، فيفتي فيها بفتيا أخرى ، فيقول : للبنت النصف والباقي بين الجدّ والأخت نصفين ، وهو مذهب ابن مسعود ، ثم تقع المسألة بعينها بعد شهر آخر ، فيقضى فيها بالفتيا الأولى ، وهي مذهب زيد ، بأن يعود ظنه مترجّحاً متغلباً لمذهب زيد ، ثم تقع المسألة بعينها بعد وقت آخر ، فيفتي فيها بقول عليّ عليه السلام ، وهكذا لا تزال المسألة بعينها تقع ، وأقواله فيها تختلف ، وهي ثلاثة لأمزيد عليها ، إلا أنه لا يزال يفتي فيها فتاوى مختلفة ، إلى أن توفّي فأحصيت ؛ فكانت سبعين فتيا .

فأما احتجاجُ قاضي القضاة بقصة أسرى بدر فخيد ، وأما ما اعترض به المرتضى فليس بجيد ؛ لأن المسألة من باب الشرع ، وهو قتل الأسرى أو تخليتهم بالفداء ، والقتل وإراقة الدّم من أهم المسائل الشرعية ، وقد علم من الشارع شدة العناية بأمر الدنيا ، فإن كانت أحكام الشرع لا يجوز أن تتلقّى ، وأن يفتى فيها إلا بطريق معلومة ، وأن الظن والاجتهاد لا مدخلَ له في الشرع - كما يذهب إليه المرتضى - فكيف جازَ من رسول الله صلى الله عليه وآله أن يشاورَ في أحكام شرعية من لا طريقَ له إلى العلم ، وإنما قصارى أمره الظن والاجتهاد والحسبان ! وكيف مدحهما جميعاً ، وقد اختلفا ، ولا بد أن يكون أحدهما مخطئاً !

وأما قول المرتضي : مِنْ أَيْنَ لِقَاضِي الْقَضَاةِ أَنَّ مَا اعْتَمَدَهُ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ مِنَ الْكَفِّ وَالْإِقْدَامِ كَانَ عَنِ الْجَهْدِ ! حَقِيدٌ ، وَجَوَابٌ صَحِيحٌ عَلَى أَصُولِ الْإِمَامِيَّةِ ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِمُسْتَحِيلٍ أَنْ يَعْتَمِدَ ذَلِكَ بَوْصِيَّةً سَابِقَةً مِنْ أَيْهِمَا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ .

وأما قوله لقاضي القضاة : كَلَامُكَ مُضْطَرِبٌ ، لِأَنَّكَ أَسْنَدْتَ مَا اعْتَمَدَاهُ إِلَى الْجَهْدِ ، ثُمَّ قُلْتَ : وَقَدْ كَانَ تَمَكُّنُ الْحَسَنِ أَكْثَرَ مِنْ تَمَكُّنِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَهَذَا يُؤَدِّي إِلَى أَنَّ أَحَدَهُمَا غَرَّرَ بِنَفْسِهِ وَالْآخَرُ فَرَّطَ فِي تَسْلِيمِ حَقِّهِ ؛ فَلَيْسَ بِحَقِيدٍ . وَالَّذِي أَرَادَهُ قَاضِي الْقَضَاةِ الدَّلَالَةُ عَلَى جَوَازِ الْجَهْدِ ، وَأَنَّهُ طَرِيقَةُ الْمُسْلِمِينَ كُلِّهِمْ ؛ وَأَهْلُ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَأَوَّمَا إِلَى مَا اعْتَمَدَهُ الْحَسَنُ مِنْ تَسْلِيمِ الْأَمْرِ إِلَى مُعَاوِيَةَ ، وَمَا اعْتَمَدَهُ الْحُسَيْنُ مِنْ مُنَازَعَةِ يَزِيدَ الْخُلَافَةِ ، فَعَمِلَا فِيهَا بِمُوجِبِ اجْتِهَادِهِمَا ، وَمَا غَلَبَ عَلَى ظَنُونِهِمَا مِنَ الْمَصْلَحَةِ ؛ وَقَدْ كَانَ تَمَكُّنُ الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْحَالِ الْحَاضِرَةِ أَكْثَرَ مِنْ تَمَكُّنِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي حَالِهِ الْحَاضِرَةِ ، لِأَنَّ جُنْدَ الْحَسَنِ كَانَ حَوْلَهُ وَمُطِيقًا بِهِ - وَهُمْ كَارِوِي مِائَةِ أَلْفِ سَيْفٍ - وَلَمْ يَكُنْ مَعَ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَن يَحِيطُ بِهِ وَيَسِيرُ بِمَسِيرِهِ إِلَى الْعِرَاقِ إِلَّا دُونَ مِائَةِ فَارَسٍ ؛ وَلَكِنْ ظَنَّهُمَا فِي عَاقِبَةِ الْأَمْرِ وَمُسْتَقْبَلِ الْحَالِ كَانَ مُخْتَلَفًا ، فَكَانَ الْحَسَنُ يَظُنُّ خِذْلَانَ أَصْحَابِهِ عِنْدَ اللَّقَاءِ وَالْحَرْبِ ، وَكَانَ الْحُسَيْنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَظُنُّ نُصْرَةَ أَصْحَابِهِ عِنْدَ اللَّقَاءِ وَالْحَرْبِ ، فَلِذَلِكَ أَحْجَمَ أَحَدُهُمَا وَأَقْدَمَ الْآخَرُ ؛ فَقَدْ بَانَ أَنَّ قَوْلَ قَاضِي الْقَضَاةِ غَيْرُ مُضْطَرِبٍ وَلَا مُتَنَاقِضٍ .

الطعن الثامن

ماروى عن عمر من قوله : «مُتَعَتَانِ كَانَتَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَنَا أَنَهَى عَنْهُمَا وَأَعَاقَبَ عَلَيْهِمَا » ؛ وَهَذَا اللَّفْظُ قَبِيحٌ لَوْ صَحَّ الْمَعْنَى ، فَكَيْفَ إِذْ فَسَدَ ! لِأَنَّهُ لَيْسَ مِمَّنْ

يشرع فيقول هذا القول ، ولأنه يؤم مساواة الرسول صلى الله عليه وآله في الأمر والنهي ، وأن أتباعه أولى من أتباع رسول الله صلى الله عليه وآله .

أجاب قاضي القضاة ، فقال : إنه إنما عني ^(١) بقوله : « وأنا أنهي عنهما وأعاقب عليهما » كراهته لذلك ، وتشدده فيه ، من حيث نهى رسول الله صلى الله عليه وآله عنهما بعد أن كانتا في أيلمه ، منبهاً بذلك على حصول التسخ فيهما وتغير الحكم ، لأننا نعلم أنه كان متبعاً للرسول ، متديناً بالإسلام ، فلا يجوز أن نحمل قوله على خلاف ما تواتر من حاله . وحكى عن أبي علي أن ذلك بمنزلة أن يقول : إني أعاقب من صلى إلى بيت المقدس ، وإن كان صلى إلى بيت المقدس في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله . واعتد في تصويبه على كفت الضحابة عن التكثير عنه . وادعى أن أمير المؤمنين عليه السلام أنكر على ابن عباس إحلال المتعة ، وروي عن النبي صلى الله عليه وآله تحريمهما ؛ فأما متعة الحج فإنما أراد ما كانوا يفعلون من فسح الحج ، لأنه كان يحصل لهم عنده التمتع ، ولم يرد بذلك التمتع الذي يجري مجرى تقدم العمرة وإضافة الحج إليها بعد ذلك ، لأنه جائز لم يقع فيه قبح .

اعترض المرتضى هذا الكلام ^(٢) فقال : ظاهر الخبر المروي عن عمر في المتمتعين يبطل هذا التأويل ، لأنه قال : « متمعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أنهي عنهما وأعاقب عليهما » ، فأضاف النهي إلى نفسه ، ولو كان الرسول نهى عنهما لأضاف النهي إليه ، فكان أكد وأولى ، فكان يقول : نهى عنهما أو نسخهما وأنا من بعده أنهي عنهما وأعاقب عليهما . وليس يشبه ما ذكره من الصلاة إلى بيت المقدس ، لأن نسخ

(١) الشافعي : « وهذا غير لازم ، لأنه عني بقوله : أنا أنهي عنها » .

(٢) الشافعي : « يقال له : ظاهر الخبر المروي . . . » .

الصلاة إلى بيت المقدس معلومٌ ضرورةً من دينه صلى الله عليه وآله ، وليس كذلك
المتعة ، على أنه لو قال : إنَّ الصلاة إلى بيت المقدس كانت في أيام النبي صلى الله عليه وآله
جائزةً وأنا الآن أنهى عنها لكان قبيحاً شنيعاً ، مثل ما استجبنا من القول الأوَّل ،
وليس هذا القول منه ردّاً على الرسول صلى الله عليه وآله ، لأنه لا يمتنع أن يكون
استحسن حَظُّها في أيامه لوجهٍ لم يكن فيما تقدّم ، واعتقد أنَّ الإباحة في أيام رسول الله
صلى الله عليه وآله كان لها شرط لم يوجد في أيامه ، وقد روى عنه أنه صرح بهذا
المعنى ، فقال : إنما أحلَّ الله المتعة للناس على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ، والنساء
يومئذٍ قليلة ، ولذلك روى عنه في مُشْعَةِ الْحَجِّ أنه قال : قد علمت أنَّ رسول الله صلى الله
عليه وآله فعلها وأصحابه ، ولكن كرهت أن يظنُّوا بها معرّسين تحت الأراك ، ثم يرجعوا
بالحجّ تقطر رؤوسهم .

وأما ^(١) اعتماده على الكفّ عن التكثير ، فقد تقدّم أنه ليس بحجةٍ إلا على شرائط
شرحناها ؛ على أنه قد روى أن عمر قال بعد نهيه عن المتعة : لا أوتى بأحدٍ تزوّج متعة
إلا عذّبته بالحجارة ، ولو كنت تقدمت فيها لرجمت . وما وجدنا أحداً أنكر عليه هذا
القول ، لأنَّ التمتع عندهم لا يستحقّ الرّجم ، ولم يدلّ ترك التكثير على صوابه .
فأما ادّعاؤه على أمير المؤمنين عليه السلام أنه أنكر على ابن عباس إحلالها ؛ فالأمر
بمخلافه وعكسه ، فقد روى عنه عليه السلام من طرق كثيرة أنه كان يفتي بها ، وينكر
على محرّمها والناهي عنها ، وروى عمر بن سعد الهمدانيّ ، عن حُبَيْش بن المَعْتَمِر ، قال :
سمعتُ عليّاً عليه السلام يقول : لولا ما سبق من ابن الخطاب في المتعة مازنى إلا شقيّ .
وروى أبو بصير ، قال : سمعتُ أبا جعفر محمد بن عليّ الباقر عليه السلام يروى عن جدّه
أمير المؤمنين عليه السلام : لولا ما سبقني به ابن الخطاب مازنى إلا شقيّ . وقد أفتى بالمتعة

(١) الشافعي : « فأما » .

جماعة من الصحابة والتابعين كعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن مسعود ، وجابر بن عبد الله الأنصاري ، وسلمة بن الأكوع ، وأبي سعيد الخدري ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وغير ما ذكرناه ممن يطول ذكره ، فأما سادة أهل البيت عليهم السلام وعلمائهم فأمرهم واضح في الفتيا بها ، كعلي بن الحسين زين العابدين ، وأبي جعفر الباقر عليه السلام ، وأبي عبد الله الصادق عليه السلام ، وأبي الحسن موسى الكاظم ، وعلي بن موسى الرضا عليهما السلام . وما ذكرنا من فتيا من أشرنا إليه من الصحابة بها يدل على أوضح بطلان ما ذكره صاحب الكتاب من ارتفاع النكير لتحريمها ؛ لأن مقامهم على الفتيا بها نكير .

فأما متعة الحج فقد فعلها النبي صلى الله عليه وآله والناس أجمع من بعده ، والنقهاء في أعصارنا هذه لا يرونها خطأ بل صواباً .

فأما قول صاحب الكتاب : إنَّ عمر إنما أنكر فسح الحج فباطل ؛ لأن ذلك أولاً لا يسمى متعة ، ولأن ذلك ما فعل في أيام النبي صلى الله عليه وآله ، ولا فعله أحد من المسلمين بعده ، وإنما هو من سنن الجاهلية ، فكيف يقول عمر : متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ وكيف يغلظ ويشدد فيما لم يفعل ، ولا فعل (١) !

قلت : لا شبهة أنَّ الظاهر من كلام عمر إضافة التهي إلى نفسه ، لكننا يجب علينا أن نترك ظاهر اللفظ إذا علمنا من قائله ما يوجب صرف اللفظ عن الظاهر كما يعتمد عليه كل أحد في القرائن المقترنة بالألفاظ ، والمعلوم من حال عمر أنه لم يكن يدعى أنه ناسخ لشريعة

(١) الشاق ٢٥٧ ، وفيه : « ولا يفعل » .

الرسول صلى الله عليه وآله ، وأنه كان متدينًا بالإسلام وتابعا للرسول الذي جاء به ، فوجب أن يحصل كلامه على أنه أراد أنهما كانتا ثم حرمتا ، ثم أنا الآن أعاقب من فعلهما ، لأنه قد كان بلفظه عن قوم من المسلمين بعد علمهم بالتحريم . وقول المرتضى : لعلة كان اعتقد أن الإباحة أيام رسول الله صلى الله عليه وآله كانت مشروطة بشرط لم يوجد في أيامه ، قول يبطل طعنه في عمر ، ويمهله عذرا ويصير للمسألة اجتهدية .

وأما طعنه في الاحتجاج على تصويب عمر بترك الإنكار عليه وقوله: فهلا أنكروا عليه قوله : لا أرى أحدا يستمتع إلا رجته ، فليس بظن مستقيم ، وإنما يكون طعنا صحيحا لو كان أتى بتمتع فأمر برجه ، فأما أن ينكروا عليه وعيده وتهديده ، لا لإنسان معين ، بل كلاما مطلقا ، وقولا كليًا يقصد به حسم المادة في المتعة ، وتخويف فاعليها ، فإنه ليس بمحل للإنكار عليه ، وما زالت الأئمة والصالحون يتوعدون بأمر ليس في نفوسهم فعله ، على طريق التأديب والتهذيب ؛ على أن قوما من الفقهاء قد أوجبوا إقامة الحد على المتمتع ، فلا يمتنع أن يكون عمر ذاهبا إلى هذا المذهب .

فأما ما رواه عن أمير المؤمنين عليه السلام وعن الطاهرين من أولاده ، من تحليل المتعة ، فلسنا في هذا المقام نناكره في ذلك وننازعه فيها ، والمسألة فقهية من فروع الشريعة ، وليس كتابنا موضوعا لذكره ، ولا الموضوع الذي نحن فيه يقتضى الجحاج فيها ، والبحث في تحليلها وتحريمها ، وإنما الموضوع موضع الكلام في حال عمر ، وما نقل عنه من الكلمة ؛ هل يقتضى ذلك الطعن في دينه أم لا ؟

فأما متعة الحج فقد اعتذر لنفسه ، وقال ما قدمنا ذكره ، من أن الحج بهاء من بهاء الله ، وأن التمتع يكسفه ويذهب نوره ورونقه ، وأنهم يظنون معرسين تحت الأراك ، ثم

يهلون بالحجّ وروءوسهم تقطر ، وإذا كان قد اعتذر لنفسه فقد كفانا مؤنة الاعتذار .

الطعن التاسع

ماروى عنه من قصّة الشورى ، وكونه خرج بها عن الاختيار والنصّ جميعاً ، وأنه ذمّ كل واحد ، بأن ذكر فيه طعننا ثم أهله للخلافة بعد أن طعن فيه ، وأنه جعل الأمر إلى ستة ، ثم إلى أربعة^(١) ، ثم إلى واحد ، وقد وصفه بالضعف والقصور ، وقال : إن اجتمع علىّ وعثمان فالقول ما قالاه ، وإن صاروا ثلاثة وثلاثة فالقول للذين فيهم عبد الرحمن ، وذلك لعلمه بأن علياً وعثمان لا يجتمعان ، وأن عبد الرحمن لا يكاد يعدل بالأمر عن ختنه وابن عمه ، وأنه أمر بضرب أعناقهم إن تأخروا عن البيعة فوق ثلاثة أيام ، وأنه أمر بقتل من يخالف الأربعة منهم أو الذين فيهم عبد الرحمن .

أجاب قلبي القضية عن ذلك ، فقال : الأمور الظاهرة لا يجوز أن يعترض عليها بأخبار غير صحيحة ، والأمر في الشورى ظاهر ، وإن الجماعة دخلت فيها بالرضا ، ولا فرق بين من قال في أحدهم : إنه دخل فيها لا بالرضا وبين من قال ذلك في جميعهم ، ولذلك جعلنا دخول أمير المؤمنين عليه السلام في الشورى أحد ما يعتمد عليه في أن لا نصّ يدل عليه ، أنه المختص بالإمامة ، لأنه قد كان يجب عليه أن يصرح بالنصّ على نفسه ، بل يحتاج إلى ذكر فضائله ومناقبه ، لأن الحال حال مناظرة ، ولم يكن الأمر مستقرّاً لواحد ، فلا يمكن أن يتعلق بالتقية ، والمتعالم من حاله أنه لو امتنع من هذا الأمر في الشورى أصلاً لم يلحقه الخوف فضلاً عن غيره ، ومعلوم أن دلالة الفعل أحسن من دلالة القول ، من حيث كان الاحتمال فيه أقل ، والروى أن عبد الرحمن^(٢) أخذ الميثاق على الجماعة

(١) الشافعي : « ثم جعل الأمر إلى ستة ، ثم إلى أربعة » .

(٢) في الأصول : « عمر » ، والصواب ما أثبتته من الشافعي .

بالرضا بمن يختاره ، ولا يجب القدح في الأفعال بالظنون ، بل يجب حملها على ظاهر الصحة دون الاحتمال ، كما يجب مثله في غيرها ، ويجب إذا تقدمت للفاعل حالة تقتضى حسن الظن به ، أن يحمل فعله على ما يطاقها ، وقد علمنا أن حال عمر وما كان عليه من النصيحة للمسلمين ، منع من صرف أمره في الشورى إلى الأغراض التي يظن أنها أعداؤه ، فلا يصح لهم أن يقولوا : كان مراده في الشورى بأن يجعل الأمر إلى الفرقة التي فيها عبد الرحمن عند الخلاف ، أن يتم الأمر لعثمان ؛ لأنه لو كان هذا مراده لم يكن هناك ما يمنع من النص على عثمان ، كما لم يمنع ذلك أبا بكر ، لأن أمره إن لم يكن أقوى من أمر أبي بكر لم ينقص عنه ؛ وليس ذلك بدعة ، لأنه إذا جاز في غير الإمام إذا اختار أن يفعل ذلك ، بأن ينظر في أمثال القوم فيعلم أنهم عشرة ، ثم ينظر في العشرة ؛ فيعلم أن أمثلهم خمسة ، ثم ينظر في واحد من الخمسة ؛ فما الذي يمنع من مثله في الإمام ؛ وهو في هذا الباب أقوى اختياراً ، لأن له أن يختار واحداً بعينه !

ثم ذكر أنه إنما حصره في الجماعة الذين انتهى إليهم الفضل ، وجعله شورى بينهم ، ثم بين أن الانتقال من الستة إلى الأربعة ، ومن الأربعة إلى الثلاثة ، لا يكون متناقضاً ، لأن الأقوال مختلفة ؛ وليست واحدة ، ولو كانت أيضاً واحدة لكان كالرجوع ؛ وللإمام أن يرجع في مثل ذلك ، لأنه في حكم الوصية .

قال : وقولهم : إنه كان يعلم أن عثمان وعلياً لا يجتمعان ، وأن عبد الرحمن يميل إلى عثمان ، قلة دين ، لأن الأمور المستقبلية ، لا تعلم وإنما يحصل فيها أمارات . قال : والأمارات توجب أنه لم يكن فيهم حرص شديد على الإمامة . بل الغالب من حالهم طلب الاتفاق والاتلاف والاسترواح إلى قيام الغير بذلك . وإنما جعل عمر الأمر إلى عبد الرحمن عند الاختلاف ، لعله بزهد في الأمر ؛ وأنه لأجل ذلك أقرب أن يتثبت ، لأن الراغب

عن الشيء يحصل له من التثبت مالا يحصل للراغب فيه ، ومن كانت هذه حاله كان القوم إلى الرضا به أقرب .

وحكى عن أبي عليٍّ أَنَّ الحادعة إنما تظنّ بمن قصده في الأمور طريق الفساد ، وعمر يرى من ذلك .

قال : والضعف الذي وُصِف به عبد الرحمن ، إنما أراد به الضعف عن القيام بالإمامة ، لا ضعف الرأي ؛ ولذلك ردّ الاختيار والرأى إليه . وحكى عن أبي عليٍّ ضعف ما روى من أمره بضرب أعناق القوم إذا تأخروا عن البيعة ، وأنّ ذلك لو صحّ لأنكره القوم ، ولم يدخلوا في الشورى بهذا الشرط ؛ ثم تأوّلوه إذ سلم صحته ، على أنهم إن تأخروا عن البيعة على سبيل شقّ العصا وطلب الأمر من غير وجهه . وقال : ولا يمتنع أن يقول ذلك على طريق التهديد ، وإن بعدّ عنده أن يقدموا عليه ، كما قال تعالى : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ .

اعترض المرتضى هذا الكلام ، فقال : إنّ الذي رتبّه عمر في قصّة الشورى ، من ترتيب العدد واتفاقه واختلافه ، يدلّ أولاً على بطلان مذهب أصحاب الاختيار في عدد العاقلين للإمامة ، وأنه يتمّ بعقد واحد لغيره برضا أربعة ، وأنه لا يتمّ بدون ذلك ؛ فإنّ قصّة الشورى تصرّح بخلاف هذا الاعتبار ؛ فهذا أحد وجوه المطاعن فيها .

ومن جملتها أنه وصف كلّ واحد منهم بوصفٍ زعم أنه يمنع من الإمامة ، ثم جعل الأمر فيمن له تلك الأوصاف ، وقد روى محمد بن سعد ، عن الواقديّ ، عن محمد بن عبد الله الزهريّ ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، عن ابن عباس ، قال : قال عمر : لا أدري ما أصنع بأمة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ وذلك قبل أن يُطعن ، فقلت : ولم تهتمّ وأنت تجد من تستخلفه

عليهم؟ قال: أصحابكم؟ يعني علياً، قلت: نعم؛ هو لها أهل، في قرابته من رسول الله صلى الله عليه وآله، وصهره وسابقتها وبلائه، قال: إِنَّ فِيهِ بَطَالَةً^(١) وفسكاهة، فقالت: فأين أنت من طلحة؟ قال: فأين الزَّهْو والنَّخْوَة! قلت: عبد الرحمن؟ قال: هو رجل صالح على ضَعْفٍ فيه، قلت: فسعد، قال: ذاك صاحب مِقْنَبٍ^(٢) وقتال لا يقوم بقرية لو حمل أمرها، قلت: فالزبير، قال: وعَقَّة لَقَسٍ^(٣) مؤمن الرِّضَا، كافر الغضب، شحيح؛ وإنَّ هذا الأمر لا يصلح إلَّا لقوى في غير عنف، رفيق في غير ضعف، وجواد في غير سرف، قلت: فأين أنت عن عثمان؟ قال: لو وليها لجل بنى أبي مُعَيْط على رقاب الناس، ولو فعلها لقتلوه^(٤).

وقد يُروى من غير هذا الطريق أنَّ عمر قال لأصحاب الشورى: رُوحوا إلى؛ فلما نظر إليهم قال: قد جاءني كلُّ واحدٍ منهم يهزَّ عَفْرِيَّتَهُ، يرجو أن يكون خائفة، أما أنت ياطلحة؛ أفلست القائل: إِنَّ قُبُضَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلَهُ أَنْكَحَ أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ؟ فما جعل الله محمداً أحقَّ ببنات أعمامنا منا، فأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيكَ: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾^(٥). وأما أنت يازبير، فوالله ما لَانَ قَلْبُكَ يَوْمًا وَلَا لَيْلَةً. وما زلت جِلْفًا^(٦) جافيا؛ وأما أنت ياعثمان، فوالله لَرَوْتُهُ^(٧) خَيْرَ مِنْكَ، وأما أنت ياعبد الرحمن، فَإِنَّكَ رَجُلٌ عَاجِزٌ تَحِبُّ قَوْمَكَ جَمِيعًا، وأما أنت ياسعد، فصاحب عَصَبِيَّةٍ وَفِتْنَةٍ، وأما أنت ياعلى، فوالله لو وزن إيمانك بإيمان أهل الأرض لَرَجَحَهُمْ، فقام على^١ مولياً يخرج، فقال عمر: والله إني لأعلم مكان رجلٍ لو وليتُمُوهُ

(١) الفائق: «ذاك رجل فيه دُغَابَةٌ». (٢) المِقْنَب من الخيل: الأربعون أو الخمسون.
(٣) في الفائق: «رجل وعقة ولعقة»، لذا كان فيه حرس ووقوع في الأمر، بمجهل وضيق نفس وسوء خلق.
(٤) خبر ابن عباس مع عمر في الفائق ٢: ٤٢٥، ٤٢٦، مع اختلاف في العبارة.
(٥) سورة الأحزاب ٥٣.
(٦) الجلف: الرجل الجاني الغليظ.
(٧) الروتة: واحدة الروث، وهو سرجين الفرس.

أمرَكم لحكم على الحجة البيضاء ، قالوا : مَنْ هو ؟ قال : هذا المولى من بينكم ، قالوا : فما يمنعك من ذلك ؟ قال : ليس إلى ذلك سبيل .

وفي خبر آخر ؛ رواه البلاذري في تاريخه ؛ أنَّ عمر لما خرج أهل الشورى من عنده ؛ قال : إنَّ ولَّوها الأجلح^(١) سلك بهم الطريق ، فقال عبدالله بن عمر : فما يمنعك منه يا أمير المؤمنين ؟ قال : أكره أن أتحمَّلها حيًّا وميتًا .

فوصف كما ترى كلَّ واحد من القوم بوصف قبيح يمنع من الإمامة ؛ ثم جعلها في جملتهم ، حتى كأنَّ تلك الأوصاف تزول في حال الاجتماع ؛ ونحن نعلم أنَّ الذي ذكره إن كان مانعاً من الإمامة في كلِّ واحد على الانفراد ، فهو مانع من الاجتماع ؛ مع أنَّه وصف عليها عليه السلام بوصف لا يليق به ، ولا ادَّعاه عدوُّ قط ، بل هو معروف بضدِّه ، من الرِّكَّانة والبعد عن المزاح والدُّعابة ، وهذا معلوم ضرورة لمن سمع أخباره عليه السلام ؛ وكيف يُظنُّ به ذلك ؛ وقد روى عن ابن عباس أنه قال : كان أمير المؤمنين على عليه السلام إذا أتى هبنا أن نبتدئه بالكلام ؛ وهذا لا يكون إلا من شدَّة التزمُّت والتوقُّر ؛ وما يخالف الدُّعابة والفكاهة .

ومما تضمَّنَتْه قصَّة الشورى من المطاعن ، أنه قال : لا أتحمَّلها حيًّا وميتًا ، وهذا إن كان علة عدوله عن النصِّ إلى واحدٍ بعينه ؛ فهو قول متلمس متخلِّص ، لا يفتات على الناس في آرائهم ، ثم نقض هذا بأن نصَّ على ستَّة من بين العالم كلِّه ، ثم رتبَّ العدد ترتيباً مخصوصاً ، يؤول إلى أنَّ اختيار عبدالرحمن هو المقدم ؛ وأى شيء يكون من التحمُّل أكثر^(٢) من هذا ! وأى فرق بين أن يتحمَّلها ، بأن ينصَّ على واحدٍ بعينه ، وبين أن يفعل ما فعله من الحصر والترتيب !

(٢) ب : « أكبر » .

(١) الجليح : ذهاب الشعر من مقدم الرأس .

ومن جملة المطاعن أنه أمر بضرب الأعناق إن تأخروا عن البيعة أكثر من ثلاثة أيام ؛ ومعلوم أنهم بذلك لا يستحقون القتل ، لأنهم إذا كانوا إنما كلفوا أن يجتهدوا آراءهم في اختيار الإمام ، فربما طال زمان الاجتهاد ، وربما قصر بحسب ما يعرض فيه من العوارض ، فأى معنى للأمر بالقتل إذا تجاوزوا الأيام الثلاثة ! ثم إنه أمر بقتل من يخالف الأربعة ، ومن يخالف العدد الذى فيه عبد الرحمن ، وكل ذلك بما لا يستحق به القتل .

فأما تضعيف أبى على لذكر القتل فليس بحجة ، مع أن جميع من روى قصة الشورى روى ذلك ؛ وقد روى الطبرى [ذلك] ^(١) فى تاريخه وغيره .

فأما تأوله الأمر بالقتل على أن المراد به إذا تأخروا على طريق شقّ العصا ، وطلب الأمر من غير وجهه ، فبعيد من الصواب ، لأنه ليس فى ظاهر الخبر ذلك ، ولأنهم إذا شقوا العصا ، وطلبوا الأمر من غير وجهه من أول يوم ، وجب أن يمتنعوا ويقاتلوا ، فأى معنى لضرب الأيام الثلاثة أجلاً !

فأما تعلّقه بالتهديد ، فكيف يجوز أن يتهدّد الإنسان على فعل بما لا يستحقّه ، وإن علم أنه لا يعزم عليه !

فأما قوله تعالى : ﴿ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبَبَنَّ عَمَلُكَ ﴾ ^(٢) ، فيخالف ما ذكر ؛ لأنّ - الشرك يستحقّ به إحباط الأعمال ، وليس يستحقّ بالتأخير عن البيعة القتل .

فأما ادّعاء صاحب الكتاب أن الجماعة دخلوا فى الشورى على سبيل الرضا ، وأنّ عبد الرحمن أخذ عليهم العهد أن يرضوا بما يفعله ، فنقرأ قصّة الشورى على وجهها ، وعدل عما تُسوّله النفس من بناء الأخبار على المذاهب ؛ علم أنّ الأمر بخلاف ما ذكر . وقد روى الطبرى فى تاريخه عن أشياخه من طرق مختلفة ، أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال حين خرج من عند عمر بعد خطابه للجماعة بما تقدّم ذكره لقوم كانوا معه من بنى هاشم : إن طمع فيكم قومكم لم تؤمّروا أبدا . وتلقاه العبّاس بن عبد المطلب ،

فقال : يا عمّ عدلت عني ! قال : وما علمك ؟ قال : قرّين بني عثمان ، وقال : كونوا مع الأكثر ، وإن رضى رجلان رجلاً ، ورجلان رجلاً ، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن ؛ فسعد لا يخالف ابن عمّه عبد الرحمن ، وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفان ، فيوليها عبد الرحمن عثمان ، أو يوليها عثمان عبد الرحمن ، فلو كان الآخران معي لم ينفعاني بَلَهْ أني لا أرجو إلا أحدهما . فقال له العباس : لم أدفعك عن شيء إلا رجعت إلى مستأخراً ! أشرت عليك عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله أن تسأله فيمن هذا الأمر ؟ فأبيت ، وأشرت عليك عند وفاته أن تعاجل الأمر فأبيت ، وأشرت عليك حين سمّك عمر في الشورى ألا تدخل معهم ، فأبيت ! فاحفظ على واحدة ؛ كلما عرض عليك القوم قتل : لا ؛ إلا أن يولوك ، واحذر هؤلاء الرهط ، فإنهم لا يبرحون يدفعوننا عن هذا الأمر ، حتى يقوم لنا به غيرنا وغيرهم ، وإيم الله لا تناله إلا بشر لا ينفع معه خير . فقال على عليه السلام : أما والله لئن بقى عمر لأذكركه ما أتى إلينا ، ولئن مات ليتداولوها بينهم ، ولئن فعلوا ليجدنني حيث يكرهون ، ثم تمثّل :

حلفتُ بربِّ الرّاقصاتِ عَشِيَّةً غَدَوْنَ خِفَافًا فابْتَدَرْنَ الْحَصْبَا
لِيَحْتَلِبْنَ رَهْطَ ابْنِ يَمْرٍ مَارَتًا نَجِيحًا ، بَنُو الشُّدَّانِ وَرَدَا مَصْلَبَا

فالتفت فرأى أبا طلحة الأنصاريّ فكره مكانه ، فقال أبو طلحة : لا تُرْعَ أبا حسن (١) .

قال المرتضى : فإن قال قائل : أي معنى لقول العباس : إني دعوتك إلى أن تسأل رسول الله صلى الله عليه وآله فيمن هذا الأمر من قبل وفاته ؟ أليس هذا مبطلا لما تدعونه من النص !

قلنا : غير مُتَمَتِّع أن يريد العباس سؤاله عنّ يصير الأمر إليه ، وينتقل إلى يديه ،

(١) تاريخ الطبري ٥ : ٣٥ (الطبعة الحسينية) .

لأنه قد يستحقه من لا يصل إليه ، وقد يصل إلى مَنْ لا يستحقه ، وليس يمتنع أن يريد :
إنما كنّا نسأله صلى الله عليه وآله إعادة النصّ قبل الموت ، ليتجدّد ويتأكّد ، ويكونَ
لقرب العهد إليه بعيداً من أن يُطرح .

فإن قيل : أليس قد أنكرتم على صاحب الكتاب من التأويل بعينه فيما استعمله من
الرواية عن أبي بكر من قوله : ليتنى كنت سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم هل
للأنصار في هذا الأمر حق ؟

قلنا : إنما أنكرناه في ذلك الخبر ، لأنه لا يليق به من حيث قال ؛ فكنا لانزاعه
أهله ، وهذا قول مَنْ لا علم له بأنه ليس للأنصار حقٌّ في الإمامة ، ومن كان يرجع في أن
لهم حقّاً في الأمر أو لاحقاً لهم فيه ، إلى ما يسمعه مستأنفاً ، وليس هذا في الخبر
الذي ذكرناه ^(١) .

وروى العباس بن هشام الكلبيّ ، عن أبيه ، عن جدّه ، في إسناده ، أن أمير المؤمنين
عليه السلام شكّا إلى العباس ماسم من قول عمر : كونوا مع الثلاثة الذين فيهم عبد الرحمن
ابن عوف ، وقال : والله لقد ذهب الأمر منا ، قال : وكيف قلت ذلك يا ابن أخي ! قال :
إن سعدا لا يخالف ابن عمّه عبد الرحمن ، وعبد الرحمن نظير عثمان وصهره ، فأحدهما
يختار لصاحبه لا محالة ، وإن كان الزبير وطلحة معي ، فلن أنتفع بذلك إذا كان ابن عوف
في الثلاثة الآخرين .

قال ابن الكلبيّ : عبد الرحمن زوج أمّ كلثوم بنت عُقبة بن أبي مُعيط ، وأمّها
أروى بنت كريز ، وأروى أمّ عثمان ، فلذلك قال : صهره .
وفي رواية الطبريّ أنّ عبد الرحمن دعا عليا عليه السلام ، فقال : عليك عهدُ الله

وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله ، وسيرة الخليفين ؟ فقال : أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي ^(١) .

وفي خبر آخر عن أبي الطفيل ، أن عبد الرحمن قال لعلي عليه السلام : هلم يدك خذها بما فيها ، على أن تسير فينا بسيرة أبي بكر وعمر ، فقال : آخذها بما فيها ، على أن أسير فيكم بكتاب الله وسنة نبيه جهدي . فترك يده ، وقال : هلم يدك يا عثمان ، أتأخذها بما فيها على أن تسير فينا بسيرة أبي بكر وعمر ؟ قال : نعم ، قال : هي لك يا عثمان .

وفي رواية الطبري أنه قال لعثمان مثل قوله لعلي ، فقال : نعم ، فبايعه ، فقال علي عليه السلام : ختونة خنت دهرها ^(٢) .

وفي خبر آخر : نفعت الختونة يابن عوف ! ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا ! فَصَبَّرَ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ، والله ما وليت عثمان إلا ليرد الأمر إليك ، والله كل يوم هو في شأن .

وفي غير رواية الطبري أن عبد الرحمن قال له : لقد قلت ذلك لعمر ، فقال عليه السلام : أو لم يكن ذلك كما قلت !

وروى الطبري أن عبد الرحمن قال : لا تجمعان يا علي على نفسك سبيلا ، فإني نظرت وشاورت الناس ، فإذا هم لا يعدلون بعثمان ، فقام على عليه السلام ، وهو يقول : سيبلغ الكتاب أجله ^(٣) .

وفي رواية الطبري أن الناس لما بايعوا عثمان تأسفوا على عليه السلام ، فقال عثمان : فَمَنْ نَكَّثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَوْثِقُهُ أَجْرًا

(١) تاريخ الطبري ٥ : ٣٦ (الحسينية) .

(٢) الطبري : « حبوته حبة دهر » ، والختونة المصاهرة .

(٣) تاريخ الطبري ٥ : ٣٧ (الحسينية) .

عَظِيماً ﴿١﴾ . فرجع على عليه السلام حتى بايعه ، وهو يقول : خُدعة وأى (٢)
خُدعة (٣) !

وروى البلاذري في كتابه ، عن ابن الكلبي ، عن أبيه ، عن أبي مخنف ، في إسناده ،
أن علياً عليه السلام لما بايع عبد الرحمن عثمان كان قائماً ، فقال له عبد الرحمن : بايع
وإلا ضربت عنقك ، ولم يكن يومئذ مع أحد سيف غيره ، فخرج على مغضباً ، فلحقه
أصحاب الشورى ، فقالوا له : بايع وإلا جاهدناك . فأقبل معهم يمشي حتى بايع عثمان .
قال المرتضى : فأى رضا هاهنا ، وأى إجماع ! وكيف يكون مختاراً من تهديد بالقتل
وبالجهاد ! وهذا المعنى وهو حديث ضرب العنق لوروثه الشيعة لتضاحك المخالفون منه
وتغامزوا ، وقالوا : هذا من جملة ما تدعونه من المحال ، وتروونه من الأحاديث ، وقد أنطق
الله به روايتهم ، وأجراه على أفواه ثقاتهم ، ولقد تكلم المقداد في ذلك اليوم بكلام طويل ،
يفند فيه ما فعلوه من بيعة عثمان ، وعدوهم بالأمر عن أمير المؤمنين إلى أن قال له عبد الرحمن :
يا مقداد ، اتق الله ، فإني خائف عليك الفتنة . ثم إن المقداد قام فأتى علياً ، فقال : أقاتل
فنقاتل معك ؟ فقال علي : فبمن أقاتل ! وتكلم أيضاً عمار - فيما رواه أبو مخنف - فقال :
يا معشر قريش ، أين تصرفون هذا الأمر عن بيت نبيكم ؟ تحولونه هاهنا مرة وهاهنا
مرة ! أما والله ما أنا بأمن أن ينزعه الله منكم فيضعه في غيركم كما انتزعتموه من أهله ،
ووضعتهم في غير أهله . فقال له هشام بن الوليد : يا بن سمية ، لقد عدوت طورك ، وما
عرفت قدرك ، وما أنت وما رأته قريش لأنفسها إنك لست في شيء من أمرها وإمارتها ،
فتنح عنها . وتكلمت قريش بأجمعها ، وصاحت بعمار وانتهرته ، فقال : الحمد لله ما زال
أعوان الحق قليلاً .

روى أبو مخنف أيضاً أن عماراً قال هذا البيت ذلك اليوم :

(٢) الطبري : « أيما » .

(١) سورة الفتح ١٠

(٣) تاريخ الطبري ٥ : ٤١ .

يَانَايَ الْإِسْلَامُ قُمْ فَأَنعَهُ . قَدْ مَاتَ عُرْفٌ وَأَيُّ مَنَكْرُ !

أما والله لو أن لي أعواناً لقاتلتهم ، وقال أمير المؤمنين عليه السلام : لنن قاتلتهم
بواحدٍ لا كوننّ ثانياً ، فقال : والله ما أجدُ عليهم أعواناً ، ولا أحبّ أن أعرضكم
لما لا تطيقون .

وروى أبو مخنف ، عن عبد الرحمن بن جُندب ، عن أبيه ، قال : دخلت على عليٍّ
عليه السلام ، وكنت حاضراً بالمدينة يوم بريح عثمان ، فإذا هو واجم كئيب ، فقلت :
ما أصاب قوم صرّفوا هذا الأمر عنكم ! ، فقال صَبْرٌ جَمِيلٌ ! فقلت : سبحان الله ! إنك
لصبور ! قال : فأصنع ماذا ؟ قلت : تقوم في الناس خطيباً فتدعوهم إلى نفسك ، وتخبرهم
أولئك أولى بالنبيّ صلى الله عليه وآله بالعمل والسابقة ، وتسألم النصر على هؤلاء المتظاهرين
عليك ، فإن أجابك عشرة من مائة شددت بالعشرة على المائة ، فإن دائوا لك كان
مأجيت ، وإن أبوا قاتلتهم ، فإن ظهرت عليهم فهو سلطان الله آتاه نبيّه صلى الله عليه
وآله ، وكنت أولى به منهم إذ ذهبوا بذلك ، فردّه الله إليك ، وإن قتلت في طلبه
فقتلت شهيداً ، وكنت أولى بالعدر عند الله تعالى في الدنيا والآخرة . فقال عليه السلام :
أو تراه كان تابعي من كل مائة عشرة ! قلت : لأرجو ذلك ، قال : لكنني لا أرجو
ولا والله من المائة اثنين ، وسأخبرك من أين ذلك ! إن الناس إنما ينظرون إلى قريش ؛
فيقولون : هم قوم محمد صلى الله عليه وآله وقبيلته ، وإن قريشا تنظر إلينا فتقول :
إنّ لهم بالنبوّة فضلاً على سائر قريش ، وإنّهم أولياء هذا الأمر دون قريش
والناس ، وإنّهم إن ولّوه لم يخرج هذا السلطان منهم إلى أحدٍ أبداً ، ومتى كان
في غيرهم تداولتْهم بينهم ، فلا والله لا تدفع قريش إلينا هذا السلطان طائعة أبداً . قلت :
أفلا أرجع إلى النصر فأخبر الناس بمقاتلتك هذه ، وأدعو الناس إليك ! فقال : يا جندب ؛
ليس هذا زمان ذلك ، فرجعت فكلّما ذكرت للناس شيئاً من فضل عليٍّ زبروني

ونهروني ، حتى رفع ذلك من أمرى للوليد بن عُقبة ، فبعث إلى فخبسى .

قال : وهذه الجملة التي أوردناها قليل من كثير ، في أن الخلاف كان واقعاً ، والرضا كان مرتفعاً ، والأمر إنما تمّ بالحيلة والمكر والخداع ؛ وأولُ شيءٍ مكر به عبد الرحمن أنه ابتداءً فأخرج نفسه من الأمر ، ليتمكن من صرفه إلى من يريد ، وليقال : إنّه لولا إيثاره الحقّ ، وزهده في الولاية لما أخرج نفسه منها ، ثم عرض على أمير المؤمنين عليه السلام ما يعلم أنه لا يجب إليه ، ولا تلزمه الإجابة إليه ؛ من السّير فيهم بسيرة الرجلين ، وعلم أنه عليه السلام لا يتمكن من أن يقول : إنّ سيرتهما لا تلزمني ، لئلا ينسب إلى الطعن عليهما . وكيف يلزم سيرتهما ، وكلّ واحد منهما لم يسر بسيرة الآخر ! بل اختلفا وتباينا في كثير من الأحكام ، هذا بعد أن قال لأهل الشورى : وثّقوا إلىّ من أنفسكم بأنّكم ترضون باختياري إذا أخرجت نفسي ، فأجابوه - على ما رواه أبو مخنف بإسناده - إلى ما عرض عليهم ، إلّا أمير المؤمنين عليه السلام ، فإنه قال : أنظر ، لعلمه بما يجزّ هذا المكر ، حتى أتاهم أبو طلحة ، فأخبره عبد الرحمن بما عرض وما جاء به القوم إياه إلّا عليّاً ، فأقبل أبو طلحة على عليّ عليه السلام ، فقال : يا أبا الحسن ، إنّ أبا محمد ثقة لك وللسلمين ، فما بالك تخافه وقد عدل بالأمر عن نفسه ، فلن يتحدّل المأثم لغيره ! فأحلف عليّ عليه السلام عبد الرحمن بما عرض إلّا يميل إلى الهوى وأن يؤثر الحقّ ويجتهد للأمة ، ولا يحابي ذا قرابة ، فحلف له ، وهذا غاية ما يتمكن^(١) منه أمير المؤمنين عليه السلام في الحال ، لأنّ عبد الرحمن لما أخرج نفسه من الأمر ، وظنّت به الجماعة الخير ، وفوّضت^(٢) إليه الاختيار لم يقدر أمير المؤمنين عليه السلام على أن يخالفهم وينقض ما اجتمعوا عليه ، فكان أكثر ما تمكن منه أن أحلفه ، وصرّح بما يخافه من جهته ، من الميل إلى الهوى ، وإيثار القرابة ، غير أنّ ذلك كلّ لم يقن شيئاً !

(١) الشافى : « تمكن » .

(٢) الشافى : « وفوضوا » .

قال : وأما قولُ صاحب الكتاب: إنَّ دخوله في الشورى دلالة على أنَّه لائنصَّ عليه بالإمامة ، ولو كان عليه نصٌّ لصرَّح به في تلك الخلل ، وكان ذكره أولى من ذكر الفضائل والمناقب ، فإنَّ المانع من ذكر النصِّ كونه يقتضى تضليل مَنْ تقدَّم عليه وتفسيرهم ، وليس كذلك تعديد المناقب والفضائل .

وأما دخوله عليه السلام في الشورى ، فلم يدخل فيها إلَّا ليجتنب بما احتجَّ به من مقاماته وفضائله ودرايته^(١) ووسائله إلى الإمامة والأخبار الدالة عندنا عليها على النصِّ والإشارة بالإمامة إليه ، لكان غرضاً صحيحاً ، وداعياً قوياً . وكيف لا يدخل في الشورى وعندهم أن واضعها قد أحسن النظر المسلمين ، وفعل ما لم يسبق إليه من التحرز للدين !

فأول ما كان يقال له لو امتنع منها : إنَّك مصرَّح بالطعن على واضعها وعلى جماعة المسلمين بالرضا بها ، وليس طعنك إلَّا لأنك ترى أن الأمر لك ، وأنت أحقُّ به ! فيعود الأمر إلى ما كان عليه السلام يخافه ، من تفرق الكلمة^(٢) ووقوع الفتنة^(٣) . قال : وفي أصحابنا القائلين بالنصِّ مَنْ يقول : إنه عليه السلام إنَّما دخل في الشورى لتجويزه أن ينال الأمر منها ، وعليه أن يتوصَّل إلى ما يلزمه القيام به من كلِّ وجهٍ يظن أن يوصله إليه .

قال : وقولُ صاحب الكتاب إنَّ التقيَّة لا يمكن أن يتعلَّق بها ، لأنَّ الأمر لم يكن استقرَّ لواحد طَريف ، لأنَّ الأمر وإن لم يكن في تلك الحال مستقرّاً لأحد ، فعلوم أنَّ الإظهار بما يطمئن في للتقدمين من ولاة الأمر لا يمكن منه ، ولا يرضى به ، وكذلك

(٢) الشافي : « الأمة » .

(١) الشافي : « وذرائعه » .

(٣) « ما في الشافي : « وتشتت الكلمة » .

الخروجُ مما يتفق أكثرهم عليه ، ويرضى جمهورهم به ، ولا يُقرُّون أحداً عليه ، بل يعدّونه شذوذاً عن الجماعة ، وخلافاً على الأمة .

فأما قوله : إن الأفعال لا يقدح فيها بالظنون ، بل يجب أن تحمل على ظاهر الصحة ، وإن الفاعل إذا تقدّم له حالة تقتضى حسن الظنّ به ، يجب أن تحمل أفعاله على ما يوافقها ، فإننا متى سلمنا له بهذه المقدّمة لم يتمّ قصده فيها ، لأنّ الفعل إذا كان له ظاهر وجب أن يحمل على ظاهره . إلاّ بدليل يعدل بنا عن ظاهره ، كما يجب مثله في الألفاظ ، وقد بينّا أنّ ظاهر الشورى وما جرى فيها ؛ يقتضى ما ذكرناه للأمارات اللامحة ، والوجه الظاهرة ، فما عدلنا عن ظاهره إلى محتمل ، بل المخالف هو الذى يسوّمنا أن نعدل عن الظاهر ، فأما الفاعل وما تقدّم له من الأحوال ، فتقتضى تقدّم الفاعل حالة تقتضى أن يُظنّ به الخير من غير علم ولا يقين ، فلا بدّ أن يؤثر فيها ، ويقدح أن يرى له حالة أخرى تقتضى ظنّ القبيح به ، للدلالة ظاهرها على ذلك . وليس لنا أن نقضى بالأولى على الثانية ، وهما جميعاً مظهرتان ، لأنّ ذلك بمنزلة أن يقول قائل : اقضوا بالثانية على الأولى ؛ وليس كذلك إذا تقدّمت للفاعل حالة تقتضى بالخير منه ، ثم تليها حالة تقتضى ظنّ القبيح به ، لأنّا حينئذٍ نقضى بالعلم على الظنّ ، ونبطل حكمه لمكان العلم ، وإذا حثّت هذه الجملة فما تقدّمت لمن ذكر حالة تقتضى العلم بالخير ، وإنما تقدم ما يقتضى حسن الظنّ ، فليس لنا أن نسى الظنّ به عند ظهور أمارات سوء الظنّ ، لأنّ كلّ ذلك مظهر غير معلوم .

وقوله : لو أراد ذلك مأمّنه من أن ينصّ على عثمان مانع ، كما لم يمنع ذلك أبا بكر من النصّ عليه ، فليس بشيء ؛ لأنّ الله قد فعل ما يقوم مقام النصّ على مَنْ أراد إيصاله إليه ، وصرفه عن مَنْ أراد أن يصرفه عنه ، من غير شناعة التصريح ، وحتى لا يقال فيه ما قيل في أبي بكر ، ويراجع في قصّته كما رُوجع أبو بكر ، ولم يتمّسّف أبعد الطريقين وغرضه يتمّ من أقربهما !

قال : فأما بيانُ صاحب الكتاب أنَّ الانتقال من الستة إلى الأربعة في الشورى ، ومن الأربعة إلى الثلاثة ، لا يكون تناقضاً ، فهر ردُّ على مَنْ زعم أنَّ ذلك تناقض ، وليس من هذا الوجه طعنًا ، بل قد بينّا وجوه المطاعن وفصلناها .

وأما قوله : إنَّ الأمور المستقبلية لا تعلم ، وإنما يحصل فيها أماراتٌ ردًا على من قال : إنَّ عمر كان يعلم أنَّ عليًّا عليه السلام وعثمان لا يجتمعان ، وأنَّ عبد الرحمن يميل إلى عثمان ، فكلام في غير موضعه ، لأنَّ الراد بذلك الظنُّ لا العلم ، وإنَّ عبْرَ عن الظنِّ بالعلم على طريقة في الاستعمال معروفة ، لا يتناكرها المتكلمون . ولعلَّ صاحب الكتاب قد استعمل العلم في موضع الظنِّ فيما لا يحصى كثرة من كتابه هذا وغيره ، وقد بينّا فيما ذكرناه من رواية الكلبي عن أبي مخنف ، أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام أوّل مَنْ سبق إلى هذا المعنى في قوله للعباس شاكياً إليه : ذهبَ والله الأمرُ منّا ، لأنَّ سعدا لا يخالف ابنَ عمِّه عبد الرحمن وعبد الرحمن صهر عثمان ، فأحدهما مختار لصاحبه لا محالة ، وإن كان الزبير وطلحة معي ، فلن أتنفع بذلك إذا كان ابنُ عوف في الثلاثة الآخرين .

فأما قوله : إنَّ عبد الرحمن كان زاهداً في الأمر ، والزاهد أقربُ إلى التثبت ؛ فقد بينّا وجه إظهاره الزهد فيه ، وإنه جعله الذريعة إلى مراده .

فأما قولُ صاحب الكتاب : إنَّ الضعفَ الذي وصفه به إنما أراد به الضعف عن القيام بالإمامة لا ضعف الرأي ؛ فهب أنَّ الأمر كذلك ، أليس قد جعله أحد مَنْ يجوز أن يُختار للإمامة ، وبفؤاض إليه مع ضعفه عنها ! وهذا بمنزلة أن يصفه بالفسق ، ثم يدخله في جملة القوم ؛ لأنَّ الضعف عن الإمامة مانع منها ، كما أنَّ الفسق كذلك .

قلت : الكلامُ في الشورى والمطاعن فيها طويل جداً ، وقد ذكرت من ذلك في كتبي الكلامية وتعليقاتي مقالته الناسُ ومالم أسبق إليه ، ولا يحتمل هذا الكتاب الإطالة باستقصاء ذلك ، لأنه ليس بكتاب حجاج ونظر ؛ ولكنى أذكر منه نُكثاً يسيرة ، فأقول :

إن كانت أفعالُ عمر وأقواله قد تناقضتُ في واقعة الشورى - كما زعم المرتضى رحمه الله - فكذلك أفعال أمير المؤمنين - إن كان منصوباً عليه كما تقولهُ الإمامية - قد تناقضت أيضاً . أمّا أولاً فإن كان منصوباً عليه ، فكيف أدخل نفسه في الشورى المبنية على صحة الاختيار وعدم النص ؟ أليس هذا إيهاماً ظاهراً لأكثر المسلمين ، خصوصاً الضمّة منهم ، ومن لا نظر له في دقائق الأمور عنده أنه غير منصوب عليه ! فكيف يجوز له إضلال المكلفين وأن يوقع في نفوسهم عدم النص مع كون النصّ كان حاصلًا !

وأما عذر المرتضى عن هذا ، بأنه دخل في الشورى ، ليمكن من الاحتجاج على أهل الشورى بمقاماته وفضائله ، فيقال له : قد كان الدهر الأطول مخالطاً لأهل الشورى وغيرهم ، مجتمعاً معهم في المسجد وغيره من مواطن كل يوم بل كل ساعة ؛ فلا يجوز أن يقال : دخل ليضمّه وإيّاهم أو يظلمهم سقف ، فيمكن بذلك من ذكر مقاماته وفضائله بينهم ؛ لأنّ العاقل لا يجوز أن يرتكبَ أمراً يؤهم القبيح ، ليفعل فعلاً قد كان من قبله بثلاث عشرة سنة متمكناً من أن يفعله من غير أن يرتكب ذلك الأمر الموهوم بالقبيح ؛ وليت شعري من الذي كان يمنعه أيّام أبي بكر وعمر من أن يذكر مقاماته وفضائله ويفتخر بها ! ولم انفك عليه السلام من ذكر فضائله والفخر بمناقبه في تلك المدة الطويلة وقد كان عمر وهو المعروف المشهور بالغلظة والفظاظة يذكر فضائله ويعترف بها . أفلمست أرى لعذر المرتضى أصلاً بهذا الوجه أو معنى !

فأما عذره الثاني عن دخوله في الشورى بقوله : لو لم يدخل فيها لقليل له : إنك قد طعنت على واضح الشورى ، وليس ذلك إلا لأنك ترى الأمر لك ، فليس بعذر جيد ؛ لأنه لو امتنع من الدخول فيها على وجه الزهد وقلة الالتفات إلى الولاية والإعراض عن السلطان والإمرة لما نسبته أحدٌ إلى ما ذكره المرتضى أصلاً ، ولقال الناس : رجلٌ زاهد لا يريد الدنيا ، ولا يرغب في الرياسة ؛ ثم ما المانع من أن يقول لعمر وهو حي : نشدتك الله لا تدخلني فيها ؛ فإني لا أريدها ، ولا أوتريها ! أترأه كان في جواب هذا الكلام يأمر بقتله ، ويقول له : إنما امتناعك لأنك تدعى أن رسول الله صلى الله عليه وآله نصّ عليك ؛ فلا ترى أخذ الأمر من جهتي وتوليّه من طريقي ، وإنما تريده بمحض النصّ الأول لا غير ! ما أظن أن طغفلاً يخطر له أن ذلك كان يكون ، فهذا العذر بارد لا معنى له كالعذر الأول .

فأما عذره الثالث ، وهو قوله : إنه كان يجب عليه أن يتوصل إلى القيام بالأمر بكلّ طريق ، لأنه يلزمه القيام به ، فعذرٌ جيد لا بأس به .

وأما ثانياً فيقال للمرتضى : هب أننا نزلنا عن الدخول في الشورى ، هلاً عرض للجماعة وهم مجتمعون ، وهو يعدّ لهم مناقبه وفضائله بذكر النصّ ؛ وذلك بأن يكفى عنه كناية لطيفة ، فيقول لهم : قد كان من رسول الله صلى الله عليه وآله بالأمر في حقّ ما تعلمون ! أترأه كانوا في جواب هذه الكلمة يقتلونه ! ما أظن أنهم كانوا مجتمعين على ذلك . ولا بدّ لو عرض بشيء من ذلك كان من كلام يدور بينهم في المعنى ، نحو أن يقولوا : إن ذلك النصّ رجع عنه رسول الله صلى الله عليه وآله ، أو يقولوا : رأى المسلمون تركه للصّلحة ، أو يجرى بينه وبينهم جدال ونزاع ؛ ولم يكن هناك خليفة يخاف جانبه ؛ وإنما كان مجلس مناظرة وبحث ، ولم يستقرّ الأمر لأحد .

وقول المرتضى : إنه وإن كان كذلك ؛ إلا أنهم كانوا لا يرضون أن يعطى في المتقدمين

منهم، ويكرهون منه ذلك ، ولا يُقرّونه عليه ، ويمدّونه شذوذاً له عن الجماعة، وخلافاً للأمة
قول صحيح ، إذا كان القائل يقوله على وجه شقّ العصا والمنازعة، وكشف القناع، وإذا قاله
على وجه الاستعطاف لهم ، والادّكار بما عساهم نسوه ، وحسن التلطّف والرفق بهم ،
والاستمالة لهم، وتذكيرهم بحقوق رسول الله صلى الله عليه وآله ، وميثاقه الذي واثقهم به،
فإنه لا يقع منهم في مقابلة ذلك قتله ، ولا قطع عضو من أعضائه ، ولا إقامة الحدّ عليه .
وأقصى ما في الباب أنهم كانوا يردّون ذلك عليه بكلامٍ مثل كلامه ، ويحيبونه بحجّاب
يناسب جوابه ، ويدفعونه عما يرومه بوجهٍ من وجوه الدفع ، إن كانوا مقيمين على الإصرار
على غضب الحقّ منه .

وأما ثالثاً ، فإن كان عليه السلام - كما نقوله الإمامية - منصوباً عليه ، فما الذي منعه لنا
قال له عبد الرحمن : أبأبعك على أن تسيرَ فينا بسيرة الشيخين ، أن يقول : نعم ، فإنه لو قال :
نعم ، لباعه عبدُ الرحمن ، ووصل إلى الأمر الذي يلزمه القيام به ؛ وإلى الحال التي كان
يتوصل بكلّ طريق إلى الوصول إليها .

وقول المرتضى : إن سيرتهما كانت مختلفة ، لأنّ أحدهما حكم بكثير مما حكم الآخر بضده
ليس بجيّد ، لأنّ السيرة التي كان عبد الرحمن يطلبها ذلك اليوم ، هو الأمر السكّلي في إيالة
الرعيّة وسياستهم ، وجباية النّى ، وظلّف الوالى نفسه وأهله عنه وصرّفه إلى المسلمين ، ورمّ
الأمر ، وجمع العمّال ، وقهر الظّلمة وإنصاف المظلومين ، وحماية البَيْضة ، وتسريب الجيوش إلى
بلاد الشّرك ، هذه هي السيرة التي كان عبد الرحمن يشترطها ، وهي التي طلبها الناس بعد
ذلك ، فقالوا للمعاوية في آخر أيامه ، ولعبد الملك ولغيرهما وصاحوا بهم تحت المنابر : نطلب
سيرة العَمَرَيْنِ ؛ ولم يريدوا في الأحكام والفتاوى الشرعية ، نحو القول في الجِدِّ مع الإخوة ،

والقول في الكَلالة ، والقول في أمّهات الأولاد ؛ فما أعلم الذي منع أمير المؤمنين عليه السلام من أن يقول لعبد الرحمن : نعم ، فيأخذها ! ثم كان إذا أخذها أقدر الناس على هذه السيرة ، وأقوام عليها . فواجباً ! بينما هو يطلب الخلافة أشدّ الطلب ، فإذا هونا كص عنها ، وقد عرضت عليه على أمرٍ هو قِيمٌ به ! ولهذا كان الرأي عندى أن يدخل فيها حينئذ ، ومن الذي كان يناظره بعد ذلك ويجادله ، فيقول : قد أخلت بشىء من سيرة أبى بكر وعمر ! كلاً إن السيف يضاربه ، والأمر للملكه ، والرعية أتباع ، والحكم لصاحب السلطان منهم !

ومن العجَب أن يقول المرتضى : إنه لأجل التقيّة وافق على الرضا بالشورى ! فهلاً اتقى القوم ، وقد ذكروا له سيرة الشيخين فأباها وكرهاها ! ومن كان يخاف على نفسه أن لو أظهر الزّهد في الخلافة والرغبة عن الدخول في أمر الشورى ! كيف لم يخف على نفسه ، وقد ذكرت له سيرة الشيخين فتركها ، ولم يوافق عليها ، وقال : لا بل على أن أجتهد رأيي !

وأما قول المرتضى : إنه وصف القوم بصفات تمنع من الإمامة ، ثم عيّنهم للإمامة ، فنقول في جوابه : إن تلك الصفات لا تمنع من الإمامة بالكلية ، بل هي صفات تنقص في الجملة ، أى لو لم تكن هذه الصفات فيهم ، لكانوا أكمل ، ألا ترى أنه قال في عبد الرحمن : رجل صالح على ضعف فيه ! فذكر أن فيه ضعفاً يسيراً ، لأنه لو كان يرى ضعفه مانعاً من الإمامة لقال : ضعيف عنها جداً ، أو لا يصلح لها لضعفه . وكذلك قوله في أمير المؤمنين : فيه فُكاهة ، لأن ذلك لا يمنع من الإمامة ، ولا زهو طلحة ونخوته ، ولا ما وصف به الزبير من أنه شديد السيّط وقت غضبه ، وأنه بخيل ، ولا تولّيه الأقارب على رقاب الناس إذا لم يكونوا فساقاً . وأقوى عيب ذكره ماعاب به سعداً في قوله : صاحب

مِقْنَبٍ وَقَتَالٍ ، لَا يَقُومُ بَقَرْيَةٍ لَوْ حَلَّ أَمْرُهَا . وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَالَ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْمُبَالَغَةِ فِي اسْتِصْلَاحِهِ ، لِأَنْ يَكُونَ صَاحِبُ جَيْشٍ يُقَاتِلُ بِهِ بَيْنَ يَدَيِ الْإِمَامِ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ دُرْبَةٌ وَنَظَرٌ فِي تَدْيِيرِ الْبِلَادِ وَالْأَطْرَافِ ، وَجَبَايَةِ أُمُورِهَا ؛ أَلَا تَرَاهُ كَيْفَ قَالَ : لَا يَقُومُ بَقَرْيَةٍ ! وَيَجُوزُ أَنْ يَلِيَ الْخِلَافَةَ مَنْ هَذِهِ حَالُهُ ، وَيَسْتَعِينُ فِي أَمْرِ الْعِبَادِ وَالْبِلَادِ وَجَبَايَةِ الْأُمُورِ بِالسَّكْفَةِ الْأَمْنَاءِ .

فَأَمَّا الرِّوَايَةُ الْأُخْرَى الَّتِي قَالَ فِيهَا لِعُمَانَ : لَرَوْثَةُ خَيْرُ مَنْكَ ! فَهِيَ مِنْ رَوَايَاتِ الشَّيْعَةِ ، وَلَسْنَا نَعْرِفُهَا مِنْ كُتُبٍ غَيْرِهِمْ .

فَأَمَّا قَوْلُهُ : كَيْفَ قَالَ : لَا آتَحْمِلُهَا حَيًّا وَمَيِّتًا ؛ فَخَصَرُ الْخِلَافَةِ فِي الْعَدَدِ الْمَخْصُوصِ ، ثُمَّ رَتَّبَهَا ذَلِكَ التَّرْتِيبَ ، إِلَى أَنْ آلَتْ إِلَى [اخْتِيَارِ] عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَحْدَهُ ! فَنَقُولُ فِي جَوَابِهِ : إِنَّهُ كَانَ يَحِبُّ أَلَّا يَسْتَقِلَّ وَحْدَهُ بِأَمْرِ الْخِلَافَةِ ، وَأَنْ يَشَارَكَهُ فِي ذَلِكَ غَيْرُهُ مِنْ ضُلَحَاءِ الْمُهَاجِرِينَ ، لِيَكُونَ أَعْدَرَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى وَعِنْدَ النَّاسِ ، وَإِذَا كَانَ قَدْ وَضَعَ الشُّورَى عَلَى ذَلِكَ الْوَضْعِ الْمَخْصُوصِ ، فَلَمْ يَتَحَمَّلْهَا اسْتِقْلَالًا ، بَلْ شَرَكَهُ فِيهَا غَيْرُهُ ، فَهُوَ أَقْلٌ ؛ لِتَحْمَلِهَا أُمْرُهَا لَوْ كَانَ عَيْنٌ عَلَى وَاحِدٍ بَعِينِهِ .

وَأَمَّا حَدِيثُ الْقَتْلِ ، فَلَيْسَ مَرَادُهُ إِلَّا شَقَّ الْعَصَا ، وَمُخَالَفَةُ الْجَمَاعَةِ ، وَالتَّوَثُّبُ عَلَى الْأَمْرِ مُغَالَبَةً .

وَقَوْلُ الْمُرْتَضَى : لَوْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ لَوْجِبَ أَنْ يَمْنَعَ فَاعِلُهُ وَيُقَاتَلَ ، فَأَمَّا مَعْنَى لَضَرْبِ الْأَيَّامِ الثَّلَاثَةِ أَجَلًا ! فَإِنَّهُ يُقَالُ لَهُ : إِنَّ الْأَجَلَ الْمَذْكُورَ لَمْ يَضْرِبْ لِقَتْلِ مَنْ يَشَقُّ الْعَصَا ، وَإِنَّمَا ضُرِبَ لِإِبْرَاهِمَ الْأَمْرَ وَفَصْلِهِ قَبْلَ أَنْ تَتَطَاوَلَ الْأَيَّامُ بِهِمْ ؛ وَيَتَسَامَعُ مَنْ بَعْدَ عَنْ دَارِ الْمُهْجَرَةِ أَنَّ الْخَلِيفَةَ قَدْ قَتَلَ ، وَأَنَّهُمْ مُضْطَرَّبُونَ إِلَى الْآنَ ، لَمْ يَقِيمُوا أَنْفُسَهُمْ خَلِيفَةً بَعْدَهُ ، فَيَطْمَعُ أَهْلُ الْفُسَادِ وَالذَّعَارَةِ^(١) ، وَلَا يُؤْمَنُ وَقُوعُ الْفِتَنِ ،

(١) الذَّعَارَةُ (بِالْفَتْحِ وَالْكَسْرِ) : الْحُبْثُ وَالْعَمْرُ .

ولا يؤمن أيضا أن يسترد الروم وفارس بلاداً قد كان الإسلام استولى عليها ، لأن عدم
الرئيس مطيع للعدو في ملكه ورعيته .

فأما الأخبار والآثار التي ذكرها المرتضى في مبايعة علي عليه السلام لعثمان ، وأنه
كان مكرهاً عليها أو كالمكره ، وأن الرضا كان مرتفعاً ، والخلاف كان واقعا ، فكلام
في غير موضعه ، لأن قاضي القضاة لم ينبح بكلامه هذا النجوى ، ولا قصد هذا القصد ،
ليناقضه بما رواه وأسنده من الأخبار والآثار ، ولا هذا الموضع من كتاب ” المغنى “
موضع الكلام في بيعة عثمان وصحتها ووقوع الرضا بها ، فيطعن المرتضى في ذلك بما
رواه من الأخبار والآثار الدالة على تهضم القوم لأمر المؤمنين عليه السلام وأصحابه
وشيعته وتهديمهم ، وإنما الرضا الذي أشار إليه قاضي القضاة ، فهو رضا أمير المؤمنين
عليه السلام بأن يكون في جملة أهل الشورى ، لأن هذا الباب من كتاب ” المغنى “
هو باب نفي المطاعن عن عمر ، وقد تقدم ذكر كثير منها .

ثم انتهى إلى هذا الطعن ، وهو حديث الشورى ؛ فذكر قاضي القضاة أن الشورى
تأطعن بها عليه ، وأدعى أنها كانت خطأ من أفعاله ، لأنها لا نص ولا اختيار ، ألا
تراه كيف قال في أول الطعن : نخرج بها عن النص والاختيار ! فنقول في الجواب :

لو كانت خطأ لما دخل على عليه السلام فيها ، ولا رضى بها ، فدخوله فيها ورضاه
بها دليل على أنها لم تكن خطأ ، وأين هذا من بيعة عثمان ، حتى يخطأ
أحد الباين بالآخر !

فأما دعواه أن عمر عمل هذا الفعل حيلة ، ليصرف الأمر عن علي عليه السلام من
حيث علم أن عبد الرحمن صهر عثمان ، وأن سعداً ابن عم عبد الرحمن فلا يخالفه ؛ فجعل

الصواب في الثلاثة الذين يكون فيهم عبد الرحمن ، فنقول في جوابه :
إن عمر لو فعل ذلك وقصده لكان أحق الناس وأجهلهم ، لأنه من الجائز
ألا يوافق سعد بن عمة لعداوة تكون بينهما ، خصوصاً من بنى العم ، ويمكن أن
يستميل علي عليه السلام سعداً إلى نفسه ، بطريق آمنة بنت وهب ، وبطريق حمزة بن
عبد المطلب ، وبطريق الدين والإسلام ، وعهد الرسول صلى الله عليه وآله ؛ ومن الجائز
أن يعطف عبد الرحمن على علي عليه السلام لوجه من الوجوه ، ويعرض عن عثمان ،
أو يبدؤا من عثمان في الأيام الثلاثة أمره يكرهه عبد الرحمن ، فيتركه ويميل إلى علي
عليه السلام . ومن الجائز أن يموت عبد الرحمن في تلك الأيام ، أو يموت سعد ، أو
يموت عثمان ، أو يقتل واحد منهم فيخلص الأمر لعلي عليه السلام ، ومن الجائز أن
يخالف أبو طلحة أمره له أن يعتمد على الفرقة التي فيها عبد الرحمن ، ولا يعمل بقوله ،
ويميل إلى جهة علي عليه السلام ، فتبطل حيلته وتديره !

ثم هب أن هذا كله قد أسقطناه ، من الذي أجبر عمر وأكرهه وقصره على إدخال
علي عليه السلام في أهل الشورى ؟ وإن كان مراده - كما زعم المرتضى - صرف الأمر
بالحيلة ، فقد كان يمكنه أن يجعل الشورى في خمسة ، ولا يذكر عليا عليه السلام فيهم ،
أترأه كان يخاف أحداً لو فعل ذلك ! ومن الذي كان يجسر أن يراجع في هذا أو غيره !
وحيث أدخله من الذي أجبره على أن يقول : إن وليها ذلك لحملهم على الحجبة البيضاء ،
وحملهم على الصراط المستقيم ، ونحو ذلك من المدح ! قد كان قادراً ألا يقول ذلك ؛
والكلام الفث البارد لأحبه .

فأما قوله : إن عبد الرحمن فعل ما فعل من إخراج نفسه من الإمامة حيلة ليسلم الأمر إلى
عثمان ، ويصرفه عن علي عليه السلام ؛ فكلام بعضه صحيح وبعضه غير صحيح .
أما الصحيح منه فبيل عبد الرحمن إلى جهة عثمان ، وانحرافه عن علي عليه السلام قليلاً ،

وليس هذا بمخصوص بعبد الرحمن ، بل قریش قاطبة كانت منحرفة عنه .

وأما الذى هو غير صحيح ، فقوله : إنه أخرج نفسه منها لذلك ؛ فإن هذا عندى غير صحيح ، لأنه قد كان يكره ألا يخرج نفسه منها ، ويبلغ غرضه ، بأن يتجاوز هو وابن عمه إلى عثمان ، ويدع علياً وطلحة والزبير طائفة أخرى ، فيولى المسلمون الأمر الطائفة التى فيها عبد الرحمن ، بمقتضى نص عمر على ذلك ، ثم يعتمد عبد الرحمن بعد ذلك ما يشاء ، إن شاء وليها هو أو أحد الرجلين ؛ فأى حاجة كانت به إلى أن يخرج نفسه منها ليلبلغ غرضاً قد كان يمكنه الوصول إليه بدون ذلك !

وأيضاً فإن كان غرضه ذلك ، فإنه من رجال الدنيا قد كان لا محالة ، ولم يكن من رجال الآخرة ، ومن هو من رجال الدنيا ومحبيها كيف تسمح نفسه بترك الخلافة ليعطيها غيره ! وهلاً واطأ سعداً ابن عمه ، وطلحة صديقه ، على أن يوليهاه الخلافة ، وقد قال عمر : كونوا مع الثلاثة الذين فيهم عبد الرحمن ، لا سيما وطلحة منحرف عن علي عليه السلام وعثمان ، لأنهما ابنا عبد مناف ، وكذلك ساعد وعبد الرحمن منحرفان عنها لذلك أيضاً ، ولما اختصاً به من صهر رسول الله صلى الله عليه وآله . والصحيح أن عبد الرحمن أخرج نفسه منها ، لأنه استضعف نفسه عن تحمل أثقالها وكلفها ، وكره أن يدخل فيها ، فيقتصر عن عمر ، ويراه الناس بعين النقص ، ولا يستطيع أن يقوم بما كان عمر يقوم به ، وكان عبد الرحمن غنياً موسراً كثير المال ، وشيخاً قد ذهب عنه ترف الشباب ، فنفض عنها يده ، استغناء عنها ، وكرهية لخلل يدخل عليه إن وليها .

وأما ميله عن علي عليه السلام ، فقد كان منه بعض ذلك ، والطباع لا تملك ، والحسد مستقر في نفوس البشر ، لا سيما إذا انضاف إليه ما يقتضى الزيادة في الأمور . فأما تنزيه المرتضى لعلي عليه السلام عن الفسكاهة والدعابة فحق ، ولقد كان عليه

السلام على قَدِيم عظيمة من الوقار والجدِّ والسَّمْت العظيم ، والهدى الرّصين ، ولكنّه .
كان طَلَق الوجه ، سَمَح الأخلاق ، وعمر كان يريد مثله من ذوى الفظاظة والخشونة ، لأنّ
كلّ واحد يستحسن طبع نفسه ، ولا يستحسن طبع مَنْ يباينه فى الخلق والطبع . وأنا
أعجب من لفظة عمر - إن كان قالها : « إِنَّ فِيهِ بَطَالَةٌ ^(١) » ؛ وحاش لله أن يوصف على
عليه السلام بذلك ! وإِنَّمَا يوصف به أهل الدُّعابة واللّهو ، وما أظنّ عمر - إن شاء الله -
قالها ، وأظنّها زيدت فى كلامه ، وإنّ الكلمة هاهنا للدّالة على انحراف شديد .

فأما قول أمير المؤمنين عليه السلام للعبّاس ولغيره : ذهب الأمر منّا ؛ إنّ
عبد الرحمن لا يخالف ابن عمّه ، فليس معناه أنّ عمر قصد ذلك ، وإِنَّمَا معناه أنّ
من سوء الاتفاق أن وقع الأمر هكذا ، ويوشك ألا يصل إلينا حيث قد اتفق فيه هذه
النكته .

فأما قول قاضى القضاة : إذا تقدّمت للفاعل حالة تقتضى حسن الظنّ ، وجب أن يحمل
فعله على ما يوافقها ، واعتراض المرتضى عليه بقوله : إنّ ذلك إِنَّمَا يجب إذا كان الخير
معلوماً منه فيما تقدّم لا مظنوناً ، ومتى كان مظنوناً ثم وجدنا له فعلاً يظنّ به القبيح لم يكن
لنا أن نقضىّ بالسابق على اللاحق ؛ فنقول فى جوابه : إنّ الإنسان إذا كان مشهوراً بالصّلاح
والخير ، وتكرّر منه فعل ذلك مدّة طويلة ، ثم رأيناه قد وقعت منه حركة تنافى ذلك
فيما بعد ، فإنّه يجب علينا أن نحملها على ما يوافق أحواله الأولى ما وجدنا لها محملاً ، لأنّ أحواله
الأولى كثيرة ؛ وهذه حالة مفردة شاذّة ؛ وإلحاق القليل بالكثير وحمله عليه أولى من نقض
الكثير بالقليل ، وقد كانت أحوال عمر مدّة عشرين سنة منتظمة فى إصلاح الرعيّة ومناصحة
الدّين ، وهذا معلوم منه ضرورة - أعنى ظاهر أحواله - فإذا وقعت عنه حالة واحدة ، وهى

(١) البطالة (بفتح الباء) : التعلل والتفريغ من العمل .

قصة الشورى فيها شبهة ما ، وجب أن نتأولها ما وجدنا لها في الخير محملا ، ونلحقها بتلك الأحوال الكثيرة التي تكررت منه في الأزمان الطويلة ، ولا يجوز أن نضع اليد عليها ونقول : هذه لا غيرها ، ونقبّحها ، ونهيجّها ، ونسدّ أبواب هذه التأويلات عنها ، ثم نحمل أفعالها الكثيرة المتقدمة كلّها عليها في التقييح والتهجين ؛ فهذا خلاف الواجب ، فقد بان صحّة ما ذكره قاضى القضاة ، لأنه لا حاجة بنا في القضاء بالسابق على اللاحق ؛ إلا أن يكون خيره معلوماً ، وعلم علمنا يقينا ؛ فإنّ الظنّ الغالب كافٍ في هذا المقام على الوجه الذى ذكرناه .

وأما قوله عن عمر : إنّه بلغ ما فى نفسه من إيصال الأمر إلى من أراد ، وصرّفه عمّن أراد ؛ من غير شناعة بالتصريح ، وحتى لا يقال فيه ما قيل فى أبى بكر ، أو يرجع فى نصّه كما رجع أبو بكر ، ولأى حالٍ يتعسّف أبعد الطريقين ، وغرضه يتمّ من أقربهما ؛ فقد قلنا فى جوابه ما كفى ، وبينا أن عمر لو أراد ما ذكر لصرف الأمر عمّن يريد صرفه عنه ، ونصّ على من يريد إيصال الأمر إليه ، ولم يبال بأحدٍ ، فقد عرف الناس كلّهم كيف كانت هيئته وسطوته وطاعة الرعيّة له ؛ حتى إنّ المسلمين أطاعوه أعظم من طاعتهم رسول الله صلى الله عليه وآله فى حياته ، ونفوذ أمره فيهم أعظم من نفوذ أمره عليه السلام ، فمن الذى كان يجسّر أو يقدر أن يراجعه فى نصّه ، أو يرادّه ، أو يلفظ عنده أو غائبا عنه بكلمة تنافى مراده ! وأى شيء ضرّ أبابكر من مراجعة طلحة له حيث نصّ ؛ ليقول المرتضى : خاف عمر من أن يراجع كما رجع أبو بكر ، وقد سمع الناس ما قال أبو بكر لطلحة لما راجعه ، فإنّه أخزاه وجبّه ، حتى دخل فى الأرض ، وقام من عنده وهو لا يهتدى إلى الطريق ! وأين كانت هيئة الناس لأبى بكر من هيئتهم لعمر ! فلقد كان أبو بكر وهو خليفة يهابه وهو رعيّة وسوقة بين يديه ، وكلُّ أفاضل الصحابة كان يهابه ، وهو بعد لم يل الخلافة ، حتى إنّ الشيعة تقول : إنّ النّبىّ صلى الله عليه وآله يهابه ، فمن

كانت هذه حاله وهو رعية وسوقة ، فكيف يكون وهو خليفة ، قد ملك مشارق
الأرض ومغاربها ، وتخطب له على مائة ألف منير ! ولو أراد عمر أن يخطب بالخلافة
لأبى هريرة لما خالفه أحد من الناس أبدا ! فكيف يقول المرتضى : لماذا يتعسف عمر
أبعد الطريقين ، وغرضه يتم من أقربهما !

والعجب منه كيف يقول : خاف شناعة التصريح ، فمن لم يخف عنهم شناعة المخالفة
لرسول الله صلى الله عليه وآله وهو يعلم أن المسلمين يعلمون أنه يخالف الله تعالى ولرسوله
قائم في مقام لم يجعله الله تعالى له ، كيف يخاف شناعة التصريح باسم عثمان لو كان يريد
استخلافه ! إن هذا لأعجب من العجب !

الطعن العاشر

قولهم : إنه أبدع في الدين ما لا يجوز ، كالتراويح ، وما عمله في الخراج الذي وضعه
على السواد ، وفي ترتيب الجزية ، وكل ذلك يخالف للقرآن والسنة ، لأنه تعالى جعل
الغنيمة للغنائم ، والخمس منها لأهل الخمس ، يخالف القرآن ، وكذلك السنة تنطق في
الجزية أن على كل حالم ديناراً ، يخالف في ذلك السنة ، وأن الجماعة لا تكون إلا في
المكتوبات ، يخالف السنة .

أجاب قاضي القضاة عن ذلك ، بأن قيام شهر رمضان ، قد روى عن النبي صلى الله
عليه وآله أنه عمله ثم تركه ، وإذا علم أن الترك ليس بنسخ ، صار سنة يجوز أن يعمل
بها ، وإذا كان مالا جله تركه^(١) من التنبيه بذلك على أنه ليس بفرض ، ومن تخفيف التعبد

(١) الشافى : « ترك » .

ليس بقائم في فعل عمر لم يمتنع أن يدوم عليه ، وإذا كان فيه الدعاء إلى الصلاة والتشدد في حفظ القرآن ، فما الذي يمنع أن يعمل به !

فأما أمر الخراج ، فأصله السنة ، لأن النبي صلى الله عليه وآله بين أن لمن يتولى الأمر ضرباً من الاختيار في الغنيمة ، ولذلك فصل بين الرجال والأموال ، فجعل الاختيار في الرجال إلى الإمام في القتل والاسترقاق والمفاداة ؛ وفصل بينه وبين المال ، وإن كان الجميع غنيمَةً .

ثم ذكر أن الغنيمة لم تُصَف إلى الغانمين إضافة الملك ، وإنما المراد أن لهم في ذلك من الاختصاص والحق ما ليس لغيرهم ؛ فإذا عرض ما يقتضى تقديم أمر آخر ، جاز للإمام أن يفعله ، ورأى عمر في أمر السواد الاحتياط للإسلام ، بأن يقرّ في أيديهم على الخراج الذي وضعه ، وإن كان في الناس من يقول : فعل ذلك برضا الغانمين ، وبأن عوض . ويدل على صحة فعله إجماع الأمة ورضاهم به ، ولما أفضى الأمر إلى أمير المؤمنين عليه السلام تركه على جملة ، ولم يغيره .

ثم ذكر في الجزية أن طريقها الاجتهاد ؛ فإن الخبر المروى في هذا الباب ليس يمتنع به ، ولا معناه معلوم .

اعترض المرتضى هذا الجواب ، فقال : أمّا التراخي فلا شبهة أنها بدعة ، وقد روى عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : « أيها الناس ، إن الصلاة بالليل في شهر رمضان من النافلة جماعة بدعة وصلاة الضحى بدعة ، ألا فلا تجتمعوا ليلا في شهر رمضان في النافلة ، ولا تصلوا صلاة الضحى فإن قليلا في سنة خير من كثير في بدعة ، ألا وإن كل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة سبيلها في النار » .

وقد روى : أن عمرَ خرج في شهر رمضان ليلاً ، فرأى المصاييح في المسجد ، فقال : ماهذا ؟ فقيل له : إنَّ الناس قد اجتمعوا للصلاة التطوع ، فقال : بدعة ، فنعمت البدعة ! فاعترف كما ترى بأنها بدعة ، وقد شهد الرسول صلى الله عليه وآله أن كل بدعة ضلالة .

وقد روى أن أمير المؤمنين عليه السلام لما اجتمعوا إليه بالكوفة ، فسألوه أن ينصب لهم إماماً يصلي بهم نافلة شهر رمضان ، رَجَرهم وعَرَفهم أن ذلك خلاف السنة ، فتركوه واجتمعوا لأنفسهم ، وقدّموا بعضهم ، فبعث إليهم ابنه الحسن عليه السلام ، فدخل عليهم المسجد ، ومعه الدُّرَّة ؛ فلما رأوه تبادروا الأبواب ، وصاحوا : واعمره !

قال : فأما ادّعاؤه أن قيام شهر رمضان كان في أيام الرسول صلى الله عليه وآله ، ثم تركه فغالطة منه ، لأننا لا ننكر قيام شهر رمضان بالتوافل على سبيل الانفراد ، وإنما أنكرنا الاجتماع على ذلك ، فإن ادّعى أن الرسول صلى الله عليه وآله صلاها جماعة في أيامه ، فإنها مكابرة ما أقدم عليها أحدٌ ، ولو كان كذلك ما قال عمر : إنها بدعة ، وإن أراد غير ذلك فهو ممّا لا ينفعه ، لأنّ الذي أنكرناه غيره .

قال : والذي ذكره من أن فيه التشدد في حفظ القرآن ، والحفاظة على الصلاة ؛ ليس بشيء ، لأنّ الله تعالى ورسوله بذلك أعلم ، ولو كان كما قاله لكانا يسنّان هذه الصلاة ، ويأمران بها ، وليس لنا أن نبدع في الدين بما نظن أن فيه مصلحة ، لأنه لا خلاف في أن ذلك لا يسوغ ولا يحل .

وأما أمر الخراج فهو خلاف لنص القرآن ؛ لأن الله تعالى جعل الغنيمة في وجوه مخصوصة ، فمن خالفها فقد أبدع ، وليس للإمام ولا لغيره أن يجتهد فيخالف النص ، فبطل قوله : إنه رأى من الاحتياط للإسلام أن يقرّ في أيديهم على الخراج ؛ لأنّ خلاف النص

لا يكون من الاحتياط ورسوله أعلم بالاحتياط منه ؛ ولو كان لرضا الغائبين عن ذلك أو عِوضهم منه على ما ادّعاه صاحب الكتاب لوجب أن يظهر ذلك ويُعلم ، وما عرفنا في ذلك شيئا ، ولا نقله الناقلون .

وأما ما ادّعاه من الإجماع ، فعمّوله فيه على ترك النكير ، وقد تقدم الكلام عليه وتكرّر ، وكذلك قد تقدّم الكلام في وجه إقرار أمير المؤمنين عليه السلام ما قرّره من أحكام القوم ، وما ادّعاه أن خبر الجزية غير معلوم ولا مقطوع به ، فهب أن ذلك مسلم على مافيه ، أليس من مذهبه أن أخبار الآحاد في الشريعة يعمل بها ، وإن لم تكن معلومة ! فهلا عمل عمر بالخبر المروى في هذا الباب ، وعدل عن اجتهاده الذي أدّاه إلى مخالفة الله تعالى ^(١) !

(٢) أما كون صلاة التراويح بدعة وإطلاق عمر عليها هذا اللفظ ؛ فإن لفظ البدعة يطلق على مفهومين :

أحدها ما خولف به الكتاب والسنة ، مثل صوم يوم النحر وأيام التشريق ، فإنه وإن كان صوماً إلا أنه منهي عنه .

والثاني ما لم يرد فيه نص ، بل سكّت عنه ، ففعله المسلمون بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله . فإن أريد بكون صلاة التراويح بدعة المفهوم الأول ، فلا نسلم أنها بدعة بهذا التفسير ، والخبر الذي رواه المرتضى غير معروف ، ولا يمكنه أن يسنده إلى كتاب من كتب الحديث ، ولو قدر على ذلك لأسنده ، ولعله من أخبار أصحابه من محدثي الإمامية والأخباريين منهم ، والألفاظ التي في آخر الحديث ، وهي : « كل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة »

(١) الشافعي ٢٦٢ .

(٢) من هنا بدء رد المؤلف على قول المرتضى ..

في النار» مروية مشهورة ، ولكن على تفسير البدعة بالمفهوم الأول . وقول عمر : « إنها كبدعة » خبر مروي مشهور ، ولكن أراد به البدعة بالتفسير الثاني ، والخبر الذي رواه أمير المؤمنين عليه السلام ينفرد هو وطائفته بنقله ، والحدّثون لا يعرفون ذلك ولا يثبتونه .

فأما إنكاره أن تكون نافلة شهر رمضان صلاها رسول الله صلى الله عليه وآله في جماعة ، فإنكارٌ لست أرتضيه لثله ؛ فإن كتبَ الحدّثين مشحونة برواية ذلك ، وقد ذكره أحمد بن حنبل في مسنده غير مرة بعدة طرق ، ورواه الفقهاء ؛ ذكره الطحاوي في كتاب " اختلاف الفقهاء " ؛ وذكره أبو الطيب الطبري الشافعي في شرحه كتاب المزني ، وقد ذكره المتأخرون أيضاً ؛ ذكره الغزالي في كتاب " إحياء علوم الدين " ، وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله صلى التراويح في شهر رمضان في جماعة ليلتين أو ثلاثاً ، ثم ترك ، وقال : أخاف أن يوجب عليكم . وأجاز لي الشيخ أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي ، برأيه عن شيخه محمد بن ناصر ، عن شيوخه ورجاله ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله صلى نافلة شهر رمضان في جماعة يأتون به ليالي ثم لم يخرج وقام في بيته ، وصلى الناس فرادى بقية أيامه وأيام أبي بكر وصدرًا من خلافة عمر ، فخرج عمر ليلة ، فرأى الناس أوزاعاً يصلون في المسجد ، فقال : لو جمعهم على إمام ! فأمر أبي بن كعب أن يصلي بهم ، فصلى بهم تلك الليلة ثم خرج ، فرآهم مجتمعين إلى أبي بن كعب يصلي بهم ، فقال : بدعة ونعمة البدعة ! أما إنها لفضل ، والتي ينامون عنها أفضل .

قال : يعني قيام آخر الليل ، فإنه أفضل من قيام أوله .

وأما قول قاضي القضاة إن في التراويح فائدة وهي التشدد في حفظ القرآن والدعاء إلى الصلاة ، واعتراض المرتضى إياه بقوله : الله أعلم بالمصلحة ؛ وليس لنا أن ننسب ما لم يستمه

الله ورسوله ، فإنه يقال له : أليس يجوز للإنسان أن يخترع من النوافل صلواتٍ مخصوصة بكيفياتٍ مخصوصة ، وأعداد ركعاتٍ مخصوصة ، ولا يكون ذلك مكروها ولا حراما ، نحو أن يصلي ثلاثين ركعة بتسليمة واحدة ، ويقرأ في كل ركعة منها سورة من قصار المفصل أفيقول أحدٌ : إن هذا بدعة ، لأنه لم يرد فيه نص ولا سبق إليه المسلمون من قبل ! فإن قال : هذا يسوع ؛ فإنه داخل تحت عموم ماورد في فضل صلاة النافلة ، قيل له : والتراويح جائزة ومسنونة لأنها داخلية تحت عموم ماورد في فضل صلاة الجماعة .

فإن قال : كيف تكون نافلة ، وهي جماعة اقل له : قدرأينا كثيرامن النوافل تصلي جماعة ، نحو صلاة العيد ، وصلاة الكسوف ، وصلاة الاستسقاء ، وصلاة الجنائز ، إذا لم يتعين للصلي بأن يقوم غيره مقامه فيها .

فأما ما أشار إليه قاضي القضاة من التشدد في حفظ القرآن ، فهو أنه روى أن عمر أتى بسارق ، فأمر بقطعه ، فقال : لم أعلم أن الله أوجب القطع في السرقة ، ولو علمت لم أسرق ، فأحلفه على ذلك . وسن التراويح جماعة ليتكرر سماع القرآن على أسماع المسلمين .

وقد اختلف الفقهاء أيما أفضل في نافلة شهر رمضان ؟ الاجتماع عليها أم صلاتها فرادى ؟ فقال قوم : الجماعة أفضل لأن الاجتماع بركة وله فضيلة ، ولولا فضيلته لم يسن في المكتوبة ، ولأنه ربما يكسل في الانفراد ، وينشط عند مشاهدة الجمع .

وقال قوم : الانفراد أفضل ، لأنها سنة ليست من الشعائر كالعيدين وإلحاقها بتحية المسجد أولى ، وقد جرت العادة بأن يدخل المسجد جمع معا ، ثم لم يصلوا التحية بالجماعة .

وروى القائلون بهذا القول عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : « فضل صلاة المتطوع في بيته على صلاة المتطوع في المسجد ، كفضل صلاة المكتوبة في المسجد على صلاته في البيت » .

وقد روى عنه عليه السلام ؛ أن أفضل النوافل ركعتان يصليهما المسلم في زاوية بيته ليعلمهما إلا الله وحده .

قالوا : ولأنها إذا صليت فرادى كانت الصلاة أبعد من الرياء والتصنع . وبالجملة الاختلاف في أيهما أفضل ، فأما تحريم الصلاة ولزوم الإثم بفعلها ، فمّا لم يذهب إليه إلا الإمامية ، وقد روى الرواة أن علياً عليه السلام خرج ليلاً في شهر رمضان في خلافة عثمان بن عفان ، فرأى المصاييح في المساجد ، والمسلمون يصلّون التراويح ، فقال : تنور الله قبر عمر كما تنور مساجدنا ! والشّيعَة يروون هذا الخبر ، ولكن بحمل اللفظ على معنى آخر .

فأما حديث الخراج فقد ذكره أرباب علم الخراج والكتاب ، وذكره الفقهاء أيضاً في كتبهم ، وذكره أرباب السيرة وأصحاب التاريخ . قال قدامة بن جعفر في كتاب "الخراج" : اختلف الفقهاء في أرض العنوة ، فقال بعضهم : تخمس ، ثم تقسم أربعة أخماس على الذين افتتحوها ، وقال بعضهم : ذلك إلى الإمام ، إن رأى أن يجعلها غنيمة ليخمسها ويقسم الباقي كما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله بخيبر فذلك إليه ؛ وإن رأى أن يجعلها فيئاً فلا يخمسها ولا يقسمها ، بل تكون موقوفة على سائر المسلمين ، كما فعل عمر بأرض السّواد وأرض مصر وغيرها ، ممّا افتتحه عنوة ، فعلى الوجهين جميعاً ؛ فيهما قدوة ومتّبع ، لأن النبي صلى الله عليه وآله قسم خيبر وصيّرها غنيمة ، وأشار الزبير بن العوام على عمر في مصر وبلاد الشام بمثل ذلك ، وهو مذهب مالك بن أنس ، وجعل عمر السّواد وغيره فيئاً موقوفاً على المسلمين ، من كان منهم حاضراً في وقته ، ومن أتى بعده ولم يقسمه ، وهو رأى رآه على بن أبي طالب عليه السلام ومعاذ بن جبل ، وأشارا عليه ، وبه كان يأخذ سفيان بن سعيد ، وذلك رأى من جعل الخيار إلى الإمام في تصيير أرض العنوة غنيمة أو فيئاً راجعاً للمسلمين في كل سنة .

قال قدامة رحمه الله : فأما ما فعله رسول الله صلى الله عليه وآله من تصديره خير غنيمة ، فإنه عليه السلام اتبع فيه آية محكمة ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ ^(١) فهذه آية الغنيمة وهي لأهلها دون الناس ، وبها عمل رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأما الآية التي عمل بها عمر وذهب إليها على عليه السلام ومعاذ بن جبل فيما أشارا عليه به ، فهي قوله تعالى : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ إلى قوله : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ ^(٢) . انتهت ألفاظ قدامة .

وروى محمد بن جرير الطبري في تاريخه ، أن عمر هم أن يقسم أرض السواد بين الغانمين ، كما يقسم الغنائم ، ثم قال : فكيف بالآجام ومناقع المياه والفياض والهضب المرتفع والغائط المنخفض ؟ وكيف يصنع هؤلاء بالساء وقسمته بينهم ؟ أخاف أن يضرب بعضهم وجوه بعض ! ثم جمع الغانمين فقال لهم : ذلك ، فرضوا أن تقر الأرض حبيساً لهم يولونها من تراضوا عليه ، ثم يقتسمون غلتها كل غام ، فقال عمر : اللهم إني قد اجتهدت ، وقد قضيت ما علي ، اللهم إني أشهدك عليهم فاشهد .

فأما قول قاضي القضاة : إن النبي صلى الله عليه وآله جعل لمتولي أمر الأمة ضرباً من الاختيار في الغنيمة ، وما ذكره من الفرق بين الرجال والأموال ، وما ذكره من أن الغانمين ليسوا مالكي الغنيمة ملكاً صريحاً ، وإنما هو ضرب من الاختصاص ، فكله جيد لا كلام عليه ، ولم يعترضه المرتضى بشيء ولا تعرض له .

وأما قول قاضي القضاة : إنه روي أن عمر فعل ما فعل برضا الغانمين ، وبأن عوضهم

عنه ، وإنكار المرتضى وقوع ذلك ، وقوله : إنه لم ينقل ، فقد بينا أن الطبري ذكر في تاريخه .
أن عمر فعل ذلك برضا الغائبين ، وبعد أن جمعهم وقال لهم ما استصلحه ، وما أدى إليه
الجهاد ، فرضوا به ، وأشهدوا الله عليهم والحاضرين .

وقد ذكر كثير من الفقهاء أن عمر عوض الغائبين عن أرض السواد ، ووقفه على مصالح
المسلمين ، وهذا ما رواه الشافعي ، وذكر حديث التميمي أبو الحسن علي بن حبيب
الموردي في كتاب " الحاوي " في الفقه ، وذكره أيضا أبو الطيب طاهر بن عبد الله
الطبري في " شرح المزني " .

وأما تعلق قاضي القضاة بإجماع المسلمين ، فتعلق صحيح ، وطمع المرتضى فيه بالتقية
وموافقة الإمام المعصوم على الباطل طعن يستج التعلق به ، وللبحث فيه شيخ طويل .
وأما أمر الجزية ، فطريقه الاجتهاد ، ولالإمام أن يرى فيه رأيه بمشاورة الصالحاء
والفقهاء ، وقد قال قاضي القضاة : إن الخبر الذي ذكره المرتضى ، وذكر أنه مرفوع ، وهو
« على كل دينار » خبر مطلق غير معلوم ، واعتراض المرتضى عليه بقوله : هب أن الأمر
كذلك ، ألسن تزعمون أن خبر الواحد معمول عليه في الفروع ؟ فهذا عمل عمر بهذا الخبر ،
وإن كان خبر واحد - اعتراض ليس بلازم ، لأنه إذا كان خبر واحد عندنا لم يلزم أن
يكون أيضا خبر واحد عند عمر ، بل من الجائز أن يكون مفتعلا بعد وفاة عمر ، ولو كان قد
ثبت أن عمر سمع هذا الخبر من واحد أو اثنين من الصحابة ، ثم لم يعمل به ، كان
الاعتراض لازما ، ولكن ذلك مما لم يثبت .

تم الجزء الثاني عشر من شرح نهج البلاغة ويليهِ الجزء الثالث عشر

فَهْرَسُ الْمَوْضُوعَاتِ

صفحة	
٢٢٣ -	من كلامه عليه السلام في شأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه
٦ - ١٠٨	نكت من كلام عمر وسيرته وأخلاقه
١٠٨ - ١١٢	خطب عمر الطوال
١١٢ - ١١٦	عود إلى ذكر سيرته وأخباره
١١٦ - ١١٨	نبذ من كلام عمر
١١٨ - ١١٩	أخبار عمر مع عمرو بن معد يكرب
١٢٠ - ١٧٧	فصل فيما نقل عن عمر من الكلمات الغريبة
١٧٧ - ١٨٢	ذكر الأحاديث الواردة في فضل عمر
١٨٢ - ١٨٤	ذكر ماورد من الخبر عن إسلام عمر
١٨٤ - ١٩٤	تاريخ موت عمر والأخبار الواردة بذلك
١٩٥ -	فصل في ذكر ما طعن به على عمر والجواب عنه

الطعن الأول :

١٩٥ - ٢٠٢	ما ذكروا عنه من قوله عندما علم بموت الرسول عليه السلام ، والجواب عن ذلك
-----------	--

الطعن الثانى :

٢٠٢ - ٢٠٥	ما ذكروا من أنه أمر بـرجم حامل حتى نبهه معاذ ، والجواب عن ذلك
-----------	---

الطعن الثالث :

٢٠٥ - ٢٠٨	ما ذكروا من خبر المجنونة التى أمر بـرجمها ، والجواب عن ذلك
-----------	--

صفحة

الطعن الرابع :

ما ذكروه من أنه منعت من المغالات في صدقات النساء، والجواب عن ذلك ٢٠٨ - ٢١٠

الطعن الخامس :

ما ذكروه من أنه كان يعطى من بيت المال ما لا يجوز، والجواب عن ذلك ٢١٠ - ٢٢٧

الطعن السادس :

ما ذكروه من أنه عطل حد الله في المغيرة بن شعبة، والجواب عن ذلك ٢٢٧ - ٢٤٦

الطعن السابع :

ما ذكروه من أنه كان يتلون في الأحكام، والجواب عن ذلك ٢٤٦ - ٢٥١

الطعن الثامن :

ما ذكروه من قوله في المتعة، والجواب عن ذلك ٢٥١ - ٢٥٦

الطعن التاسع :

ماروى عنه في قصة الشورى، وكونه خرج بها عن الاختيار والنص

جميعا، والجواب عن ذلك ٢٥٦ - ٢٨١

الطعن العاشر :

ما ذكروه من قولهم: إنه أبدع في الدين ما لا يجوز، والجواب عن ذلك ٢٨١ - ٢٨٩

